

مجلة المؤرخ العربى

يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة

المحتويــــــات

الدور السياسي للأطباء في العصر البيزنطي الباكر

د. محمد عثمان عبد الجليل (*)

مقدمة:

لقد أسهمت الإمبراطورية البيزنطية، خلال عمرها الذي جاوز الأحد عشر قرناً، بدور عظيم في تاريخ البشرية، قدم خلاله شعبها الكثير من الجوانب الحضارية، والتي تخطت في كثير من الأحيان الحدود الجغرافية للأمبراطوريه.

وبطبيعة الحال فليس غريبا علي إمبراطورية بمثل هذا الحجم وهذه المكانة، أن تنجب رجالا عظماء أسهموا بفكرهم وجهدهم في مجالات عديدة، ومنها مجال الطب، والشئ الجدير بالذكر أن هناك فئة غير قليلة من الأطباء البيزنطيين تعدي نشاطهم مجال الطب ومارسوا إلي جانب ذلك أنشطة أخري تميزوا فيها مثلما تميزوا في مجال تخصصهم، فهناك من عمل في مجال الهندسة والعمارة، وهناك من انخرط في السلك الكنسي، وهناك أيضا من انخرط في مجال العمل السياسي.(١) وقد وقع اختيار الباحث علي موضوع " الدور السياسي للأطباء في العصر البيزنطي الباكر" وتتناول هذه الدراسة الأدوار السياسية التي أسهم فيها الأطباء سلبا وإيجابا، وقياس مدي الاستفادة التي تحققت للإمبراطورية من هذه الأدوار.

وتكمن صعوبة هذا الموضوع في ندرة الكتابات التي تناولته، سواء في المصادر أو المراجع الحديثة. وأقرب الدراسات التي تناولت هذا الموضوع؛ تلك الدراسة التي قام بها المؤرخ بلوكلي Blockly بعنوان " الأطباء كدبلوماسيين في القرن السادس الميلادي". ويؤخذ علي تلك الدراسة أنها اقتصرت علي دور واحد للأطباء كسفراء، خلال قرن واحد فقط وهو القرن السادس الميلادي. بينما تهدف هذه الدراسة إلي إبراز وتوضيح مختلف الأدوار السياسية وليس دورا واحدا للأطباء.(٢)

(*) أستاذ مساعد بكلية التربية جامعة بورسعيد.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأطباء كانوا يتمتعون بمكانة هامه في المجتمع البيزنطي، برغم ما تعرضوا له من حملات للتشهير والتشكيك في قدراتهم الطبية، التي قادها ضدهم كتاب الهيوجرافي Haiography(٣). وذلك بقصد الدعاية والترويج للقديسين المعالجين، بوصفهم الأطباء الحقيقيين، في مواجهة من أطلقوا عليهم أدعياء العلاج (المقصود بهم الأطباء). وكان هدفهم من وراء رسم تلك الصورة السلبية للأطباء التقليديين؛ انفراد سيطرة القديسين دون غيرهم علي علاج المرضي. وبرغم أن الترويج لمثل هذه الحملة في مجتمع كان الدين والمعتقدات الدينية يمثلان ركنا أساسيا في حياته في مختلف طبقاته، فان ذلك لم يكن ذا تأثير بالغ علي نظرة الإدارة البيزنطية أو الكنيسة أو المجتمع البيزنطي للأطباء. ولذلك فقد احتضن البلاط البيزنطي أمهر الأطباء، وكذلك امتلأت الكنائس والأديرة بالأطباء الذين أسهموا بجهودهم في علاج المرضي ورعايتهم.

وجدير بالذكر أن انتشار المسيحية، والحماية التي كفلها الأمبراطور قسطنطين I Constantine (٣٢٣-٣٣٧م) وأبناءه لها، لم تمنع تواجد الوثنية في بعض أرجاء الإمبراطورية. وفي برجاموس Pergamus إحدى هذه المعاقل الموجودة، في آسيا الصغري، والتي ارتحل إليها جوليان Julianعام ٣٥١م، لتلقي تعاليم الفلسفة الأفلاطونية علي يد ايدسيوس Aidesios أحد أساتذتها المشهورين في ذلك الوقت، كان لقاءه بالطبيب الفيلسوف اوريباسيوس البرجامي Oribasius of pergamum (٤). ومنذ تلك اللحظة ارتبط اوريباسيوس ارتباطا وثيقا بجوليان، وكان من القلائل العالمين بوثنية جوليان.وكان اعتناق جوليان للوثنية سرا دفينا لم يكن علي علم به إلا المخلصون له، وكان هؤلاء، طبقا لرواية ادوارد جيبون Gibbon، ينتظرون اللحظة التي ينال فيها جوليان الفرصة التي تحقق أمال الوثنين في استعادة الوثنية لمكانتها من جديد(٥).

ووفقا لما أشارت إليه المصادر؛ فإن أوريباسيوس الذي صاحب جوليان في حملته علي غالية كطبيب،أسهم بدور سياسي فعال تمكن خلاله من تصعيد رفيقه إلي عرش الإمبراطورية البيزنطية، علي حساب منافسه الإمبراطور قسطنطيوس الثاني Constantus II (٣٣٧ - ٣٦١م). وعن السبل والوسائل التي استخدمها اوريباسيوس من أجل ذلك يجملها المؤرخ اينابيوس Enapius في قوله "كان يتمتع بفضائل أخري مكنته من أن يساعد جوليان لأن يكون إمبراطورا"(٦). وبرغم غموض تلك العبارة التي حالت دون تفسير ذلك الدور، فيرجح الباحث إن تلك الفضائل تمثلت في تقديم المشورة، ورسم السياسة التي مكنت جوليان من الوصول إلي العرش. وكان أهمها بطبيعة الحال الاستحواذ علي ثقة القوات المرافقة له، والتي استطاع من خلالها

أن يعلن نفسه (من طرف واحد) في البداية إمبراطورا مشاركا عام٣٦٠م. وأمام تصاعد تلك الأزمة لم يكن هناك خيار سوي اشتعال الحرب الأهلية بين الطرفين، والتي لم يخمدها سوي موت قسطنطيوس، واعتلاء جوليان العرش في الثالث من نوفمبر ٣٦١م(٧).

وبانفراد جوليان بعرش الإمبراطورية (٣٦١-٣٦٣م) اتسع نفوذ اوريباسيوس السياسي، فإلي جانب كونه مستشارا للإمبراطور ، تولي أيضا منصب الكويستور Quaestor(٨) وهي وظيفة تتعلق بأمور التشريع وصياغة القوانين والقرارات الإمبراطورية، كما اختص أيضا بتلقي المظالم المقدمة للإمبراطور. واستمر اوريباسيوس في ممارسة عمله السياسي حتى كانت الطعنة التي أودت بحياة الإمبراطور، أثناء حروبه مع الفرس في يونيه ٣٦٣م، وكانت سببا أيضا في إنهاء الحياة السياسية لأوريباسيوس. حيث قام الإمبراطور جوفيان Jovian(٣٦٣-٣٦٤م) بتجريده من منصبه ونفيه خارج القسطنطينية،علي خلفية وشاية وصلته بأن أوريباسيوس لم يكن راضيا عن اختيار جوفيان خليفة لجوليان. وظل في منفاه حتي أعاده الإمبراطور فالنتيان الأول Valentinian I(٣٦٤-٣٧٥م) ليزاول عمله كطبيب، دون التطرق إلي مجال العمل السياسي، واستمر علي ذلك حتي عام ٣٦٥م(٩).

ويمكن القول بأنه رغم نجاح أوريباسيوس، علي المستوي الشخصي، في أداء دوره السياسي ونجاحه في تغير الأوضاع السياسية والدينية داخل الإمبراطورية، فإن هذا الدور كان ذا تأثير سلبي علي الإمبراطورية إلي حد ما. لأن معني استمراره علي الوضع السابق لسنوات أكثر من ذلك، كان من الممكن أن يعود بعقارب الساعة إلي الوراء بترسيخ الوثنية من جديد. إلي جانب المردود السياسي السيئ علي الإمبراطورية، فالهزيمة التي حاقت بالإمبراطورية، علي يد جوليان، كانت سببا في فرض صلح مهين عليها.

علي أية حال، لم تترك الصورة السلبية التي خلفها أوريباسيوس، برغم خطورتها، مردودا سيئا لدي الأباطرة البيزنطيين تجاه الأطباء، فلم يخل ذلك دون تواجدهم والاستعانة بهم في البلاط الإمبراطوري.ونفس الشئ بالنسبة للاستعانة بهم في مجال العمل السياسي.

رغب الإمبراطور فالنتيان الثاني Valentinian II (٣٧٥-٣٩٢م) في تحسين الأوضاع في افريقية ، وبعد بحث وتمحيص، وقع اختياره علي الطبيب فندكيانوس vindicianus. وكان اختيار الإمبراطور له يعود لعدة أسباب، فالي جانب ما لمسه فيه من ثقافة وحسن التصرف في الأمور، وكذلك إتقانه لأكثر من لغة، فان أصوله

الإفريقية رجحت اختياره لتولي منصب البروقنصل(١٠) لإفريقيه (٣٧٩-٣٨٢م) نظرا لكونه أكثر دراية بهذه المنطقة عن غيره، وفي نفس الوقت لن يكون دخيلا علي سكان المنطقة، مما يسهل من أداء مهمته. وبالفعل فقد استطاع خلال هذه الفترة من أداء مهمته الإدارية علي خير وجه.(١١) كما أنه استطاع أيضا، وبمشاركة القديس أوغسطين St. Augastin (١٢) من أحياء الحركة الفكرية والثقافية في قرطاج من جديد ، حيث شكلا ثنائيا ثقافيا غير عادي ، وقد وصفه القديس أوغسطين بأنه رجل صاحب فكر عميق.ولم تشر المصادر لأحداث أخري في حياة فندكيانوس.(١٣)

وقد تكرر ذلك الموقف بعد عدة سنوات، فالشهرة التي نالها الطبيب مارسيللوس Marcellus of Bardeaux في مجال عمله، كانت سببا في أن يكون الطبيب الخاص للإمبراطور ثيودسيوس الأول Theodesios I (٣٧٩-٣٩٥م). وخلال ممارسته لعمله، وقربه من الإمبراطور، لمس فيه الكفاءة التي جعلته يصدر مرسوما بتعيين مارسيللوس في منصب رئيس دواوين الحكومة المركزية Magister officiorum(١٤). وكان من مهام صاحب هذا المنصب. التفاوض في بعض المسائل السياسية التي تخص الإمبراطورية. ونتيجة لنجاحه في مهام عمله؛ استمر في نفس منصبه في عهد الإمبراطور اركاديوس Arcadius (٣٩٥-٤٠٨م).(١٥)

وهكذا فقد شهد القرن الرابع الميلادي ثلاثة أدوار سياسية مختلفة للأطباء. والملاحظ خلال ذلك أن العامل المشترك في اختيار هؤلاء الأطباء، لأداء مهامهم السياسية، يعود إلي كونهم من الصفوة المقربة إلي الأباطرة، حيث ساعد ذلك علي التعرف علي إمكانهم عن قرب.

علي أية حال ، كان لتصاعد الأحداث في النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي، ورغبة الإمبراطور ليو الأول Leo I (٤٥٧-٤٧٤م) في التخلص من نفوذ اسبار Aspar والقوط الشرقيين، أن قام بالاستعانة بعنصر الإيسوريين Isaurians ليحل محل القوطيين(١٦). وإكمالا لعملية الإحلال والتجديد؛ قام بإصدار تعيينات من أجل استعادة السيطرة علي الأمور تماما. وكان ضمن من نال شرف التعيين في المناصب الجديدة : الطبيب يعقوب القليقي Jocabus the Cilician، والذي كان يعمل كبيراً للأطباء Archiatros في القصر الإمبراطوري، حيث تم تعينه قومساً comes(17). وبرغم أن المصادر لم تتناول تقييما وافيا للأداء السياسي ليعقوب، فإننا من الممكن أن نستشف حسن أدائه وتقدير الجميع له، من خلال تكريم مجلس السناتو له بإقامة تمثال له تقديرا لجهوده.(18)

وجدير بالذكر فأن الإمبراطور زينون Zeno (٤٧٤-٤٩١م) قد تعرض لحركة تمرد قادها ضده صهره باسيليكوس Basiliscus (٤٧٥-٤٧٦م)، وبتدعيم من فيرينا Verina زوجة، تمكن الإمبراطور زينون، وبعض أعضاء السناتو، تمكن من اغتصاب العرش لفترة مؤقتة في خريف عام ٤٧٤م. وكان صعبا علي باسيليكوس الاحتفاظ بغالبية القادة والموظفين التابعين للإمبراطور خشية التمرد عليه. فأحدث بعض التغيرات، وكان من بين المعينين الجدد الطبيب ثيوكتسيوس Theoctisus الذي عين رئيسا لدواوين الحكومة المركزية.(19)

وعلي ما يبدو أن هذا الاختيار لم يكن موفقا، فقد استغل ثيوكتسيوس الثقة التي أولاها له باسيليكوس في تحقيق مكاسب شخصية علي حساب الإمبراطور. فقد أوعز للإمبراطور المغتصب بأهمية كسب تأييد سكان الولايات الشرقية من أصحاب المذهب المونوفيزيMonophysitism(20) حتى يضمن استقرار الأمور الداخلية بالإمبراطورية. واستجاب باسيليكوس بالفعل لهذا المطلب، وانتصر لأصحاب هذا المذهب بأن أصدر منشورا ضد مجمع خلقدونيه ورسالة البابا ليو الأول Leo I (٤٤٠-٤٦١م) وجعل مذهب الطبيعة الواحدة المذهب الأول بالإمبراطورية وأجبر البطريرك اكاكيوس Acacius (٤٧٢-٤٨٩م) علي تقبل ذلك الوضع(٢١). كما أعاد كلا من تيموثاوس الثاني Timothy II (٤٥٥-٤٧٧م) لكرسي الاسكندرية، وبطرس القصار peter the fuller لكرسي انطاكية(٢٢).

ورغم ما كان يبديه ثيوكتسيوس، ظاهريا، من حرص علي مصلحة الإمبراطور والإمبراطورية معا، فإن تصرفه ونواياه كانتا عكس ذلك. حيث يشير المؤرخ السرياني زكريا المتليني؛ إلي أن ثيوكتسيوس كان يهدف من وراء ذلك إلى وضع تيموثاوس علي رأس الجهاز الكنسي في القسطنطينية. وقد بذلا كلاهما جهدا كبيرا بما في ذلك الرشوة، حسب رواية يوحنا النقيوسي John of Nikius، حتى يمكن من جلوس تيموثاوس علي كرسي القسطنطينية، علي حساب اكاكيوس. وكادت تلك المحاولة أن تنجح، لولا الضغوط الشعبية التي مارسها سكان القسطنطينية، بعدما تفهموا تلك الحيلة. وترتب علي ذلك أيضا عودة باسيليكوس إلي الخلقدونيه لإرضاء سكان القسطنطينية، وفي النهاية تبددت أحلام ثيوكتسيوس، حيث استعاد زينون العرش،وادي ذلك بطبيعة الحال إلي اختفاء ثيوكتسيوس من مسرح الأحداث. ولم تشر المصادر إلى ما آل مصيره بعد ذلك(٢٣).

ومما تجدر الإشارة إليه فإن النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي شهد أيضا نشاطا ملحوظا للقوط الشرقيين Strogoths بعد أن تحرروا من تبعية الهونHuns، بعد انهيار مملكتهم وتفرقها بوفاة زعيمهم اتيلا Attila عام ٤٥٣م

(24)، واستقر بهم المقام خلال العقد السابع من نفس القرن في منطقتين: الأولي منطقة الليريا Illyricum تحت قيادة ثيودريك ابن ثيودمير Theodoric son Theodemir، والذي يعرف أيضا بثيودريك العظيم (٤٩٣-٥٢٦م)، والثانية في منطقة تراقيا Thrace تحت قيادة سميه ثيودريك سترابو Theodoric Strabo أي الأعور، والذي كان يعمل قائدا لكتيبة من بني قومه المحالفين للإمبراطورية(٢٥).

وكان علي الإمبراطور زينون أن يواجه تلك الأزمة، لأن كلاً من الطرفين كانت تتملكه الرغبة في التحالف مع الإمبراطورية، والحصول علي الألقاب والأموال التي تساير ذلك التحالف.وبطبيعة الحال فإن التعامل مع الطرفين في وقت واحد كان في غاية الصعوبة، خاصة وأن الخزانة الإمبراطورية غير قادرة على وفاءٍ بمتطلباتهم. لذلك رأى الإمبراطور أنه من الأفضل التخلص من أحدهما علي حساب الأخر،فأقدم علي استخدام الحيلة لتأليب الطرفين علي بعضهما. ووقع اختيار الإمبراطور علي طبيبه الخاص انتيموس Anthemus لتنفيذ تلك المهمة، لما يتمتع به من قدرات سياسة ومهارة الإقناع وإتقان العديد من اللغات، بالإضافة إلي إلمامه ودرايته بشئون القوط(٢٦).

وبالفعل فقد استطاع انتيموس التغرير بالطرفين حتي أصبحا علي وشك الصدام، ولكن تنبه ثيودريك العظيم في أخر لحظة قبل أن يقع في فخ الإمبراطورية. الأمر الذي جعله يتراجع ويتسامح مع سميه القوطي ويتفقا ضد الإمبراطورية، والعمل علي فرض شروطهما علي الإمبراطورية وابتزازها قدر الإمكان. وهو أمر يمثل عبئا ثقيلا علي الإمبراطورية لقلة الموارد المالية(٢٧). ودعا ذلك الإمبراطور لعقد اجتماع لمناقشة تلك القضية، بحضور أعضاء السناتو وكبار القادة للوصول إلي حل أمثل للخروج من تلك المشكلة، ولتحديد أي من القائدين يتم الاتفاق معه كحليف للإمبراطورية.

ومما لاشك فيه أن الموقف كان شديد الصعوبة بالنسبة للإمبراطور زينون، خاصة وأن وفدا، من قبل ثيودريك سترابو، كان حاضرا بالقسطنطينية ينتظر ما سوف تسفر عنه الأحداث، وكانت المفاجأة هي رفض السناتو وكبار القادة تعامل مستقبلا مع ثيودريك سترابو، لما سبق وارتكبه من جرم في حق الإمبراطورية. وبناء علي ذلك خضع زينون لرأي الأغلبية، وأخذ في البحث عن صيغة ينقل من خلالها القرار لسفراء سترابو(٢٨).

وفي خضم ذلك سرب الطبيب انتيموس تلك الأحداث إلي ثيودريك العظيم، وأرسل له خطابا بمساعدة آخرين، مذيلا بتوقيع بعض القادة الكبار، يخبره فيه بأنه يلقي كل الدعم والتأييد داخل القسطنطينية. وبطبيعة الحال، فإن مثل هذا التصرف يعد

غير منطقي من رجل من المفترض أنه تابع للإمبراطور، ومطلع بحكم قربه وعمله علي العديد من الأسرار. ولسوء حظ انتيموس تم القبض علي حامل الرسالة قبل أن تصل إلي ثيودريك، ومن ثم وجهت له ولرفاقه تهمة الخيانة. وبمقتضي ذلك حكم عليهم بالإعدام، غير أن الإمبراطور تدخل وقام بتخفيف الحكم إلي الجلد والنفي، متذرعا بعدم رغبته في إراقة الدماء(٢٩).

علي أية كان الخيار الوحيد أمام انتيموس اللجوء إلي ثيودريك العظيم، والذي لم يخيب رجاءه فيه، حيث أحسن ضيافته وقربه منه، واتخذه كمستشار سياسي له. والشئ الجدير بالملاحظة هو : استمرار العلاقة بين الإمبراطور زينون و انتيموس، برغم ما كان من أحداث كادت تصل به إلي الإعدام. حيث تشير المصادر إلي أن انتيموس دأب علي كتابة تقرير شبه دوري للامبراطور واصفا له فيه القدرات العسكرية للقوط وتنقلاتهم من موضع إلي آخر(٣٠).

وجدير بالذكر أن مهام انتيموس لم تتوقف عند ذلك الحد،بل امتدت لما هو أكثر من ذلك، فكان له دور هام ومؤثر في العلاقات البيزنطية- القوطية فيما بعد. فبعد وفاة ثيودريك سترابو عام ٤٨١م، وخلو الساحة لثيودريك العظيم، زادت تهديداته للإمبراطورية، حتى وصلت في بعض الأحيان إلي تهديد القسطنطينية نفسها عام ٤٨٧م. فكان لابد من التفكير جديا من أجل القضاء علي مثل هذه التهديدات. فكانت فكرة عرض إدارة ايطاليا علي ثيودريك، وهو ما يعني البعد عن تهديد القسطنطينية من ناحية، ومن ناحية أخري استنزاف القوه القوطيه من خلال صدامه مع ادواكر Odoacer. وكان لانتيموس دور بارز في التأثير علي ثيودريك من أجل قبول هذا العرض(٣١).

ولا عجب في أن تكون الأحداث السابقة محل تساؤل ونقاش، خاصة فيما يتعلق باستمرار العلاقة بين الإمبراطور زينون وانتيموس، برغم العقوبات الموقعة عليه والنفي خارج الدولة. خاصة وأن المصادر البيزنطية لم تتناول تلك العلاقة من قريب أو بعيد، وأن ما تم عرضه من أحداث كان من خلال كتابات انتيموس نفسه. وهذا أمر وارد في مجال السياسية - بوجود اتفاق مسبق بين الإمبراطور وانتيموس علي سير هذه الأحداث - مثلما يحدث في عالم الجاسوسية، حتى يطمئن ثيودريك لانتيموس تماماً. والغريب أيضا أن ثيودريك لم يفطن يوما لما يحاك ضده من مكيدة، برغم استمرار انتيموس في أداء دوره لعدة سنوات. والدليل علي ذلك هو احتفاظ انتيموس بمكانته في البلاط القوطي دون غيره من الأطباء، وترؤسه للسفارة التي أرسلها ثيودريك إلي الملك الفرنجي ثيودريكل لبحث سبل السلام بينهما(٣٢).

كيفما كان الأمر فقد خرجت الإمبراطورية سالمة من أزمات القرن الخامس الميلادي، وهو ما منحها قوة دافعة لأن تنتهج سياسية إيجابية خلال القرن السادس الميلادي، بقصد توحيد شطري الإمبراطورية، خاصة وأن فكرة عالمية العالم الروماني Orbis Romanus والعالم اليوناني (المسيحي)Oikoumene. وغالبا ما كان يتأثر هذا المشروع بطبيعة الأوضاع والعلاقة مع الدولة الساسانيه علي الجبهة الشرقية(٣٣).

وكانت طبيعة الموقف تحتم علي الدولة البيزنطية عدم المواجهة القتالية علي جبهتين في وقت واحد، ولذلك غالبا ما كانت تقدم علي إبرام اتفاقيات السلام، التي غالبا ما لا يتم الالتزام بها من الطرفين. وكان ذلك يتطلب التفاوض من خلال السفراء للوصول لأفضل الشروط لصالح الإمبراطورية. ونظرا للأهمية والاحترام والتقدير الذي كان يلقاه الأطباء في البلاط الفارسي، فقد أسهموا بدور هام في إقرار السلام في بعض الأحيان بين بيزنطة وفارس.

وكانت البداية عشية تفجر الصراع علي الجبهة الشرقية مع الفرس عام ٥٣١م، والذي نالت خلاله الجيوش البيزنطية، بقيادة بليزاريوس Belisarius، هزيمة غير متوقعة، أدت إلي إرباك الحسابات البيزنطية. فالإمبراطور جستنيان Justinian I (٥٢٧- ٥٦٥م) كانت تتملكه الرغبة في تحقيق انتصار ساحق، علي يد قائده بليزاريوس، يمكنه من فرض صلح بشروط خاصة تخدم مصالح الإمبراطورية علي المدي الطويل، ليتمكن بعد ذلك من إرسال حملته التأديبية علي الوندال vandals في شمال أفريقيا. ولأن الهزيمة غيرت من الأوضاع، اضطر جستنيان إلي اللجوء إلي الصلح. فأرسل سفارة للتفاوض كان ضمن أفرادها طبيبه الخاص توماس Thomas. وقد استمرت أعمال تلك السفارة ما يقرب من عام، كللت في النهاية بتوقيع اتفاق للسلام في سبتمبر عام ٥٣٢م. وكان أهم بنوده : أن تقوم بيزنطة بدفع أحد عشر جنيهاً ذهبا، وأن تخضع لازيقا للسيطرة البيزنطية، وأيبيريا (جورجيا) لسيطرة الفرس. وبذلك أصبح جستنيان في موقف يسمح له بالتفرغ للجبهة الغربية(٣٤).

وتشير المصادر إلي استمرار توماس في أداء دوره السياسي، حيث كان يتولي إدارة الأمور بالقصر الإمبراطوري أثناء ثورة نيقا Nika، في الوقت الذي كان فيه الإمبراطور جستنيان مختفيا في مكان آمن بعيدا عن الأعين، وذلك تمهيدا للفرار خارج العاصمة إذا دعت الأمور إلي ذلك(٣٥).

علي أية حال لم تستمر حالة الهدوء هذه كثيرا، حيث عاود الفرس الهجوم من جديد، مستغلين انشغال بيزنطة في الغرب، علي أمل تحقيق بعض المكاسب علي حسابها. ففي عام ٥٤٤م قام الفرس بفرض الحصار علي مدينة الرها Edessa بهدف السيطرة التامة عليها ونقل سكانها إلي بلاد فارس بعد تدميرها. ونظرا لطول فترة الحصار وخشية سكان المدينة من تعرضهم للمجاعة أقدموا علي الدخول في مفاوضات مع الملك الفارسي كسري kh لفك الحصار. وقاموا باختيار الطبيب المشهور ستيفن الرهاوي Stephen of Edessa مفاوضا عنهم، نظرا لما يتمتع به من مكانة طيبه لدي الملك الفارسي لسابق عمله في البلاط الفارسي، حيث عالج الملك الفارسي من أمراض عده، إلي جانب إشرافه علي تعليم أبنائه. وكان لذلك أثر في نجاح مهمة الطبيب ستيفن الرهاوي في رفع الحصار عن المدينة مقابل دفع مبلغ من المال(٣٦).

وبرغم رفع الملك الفارسي الحصار عن الرها فقد استمر في ممارسة أعماله العدوانية علي المناطق الحدودية مع بيزنطة، الأمر الذي دفع الإمبراطور جستنيان لعقد اتفاق سلام مع الفرس، تم تفعيله بداية من عام ٥٤٥م لمدة خمس سنوات، علي أن تسدد بيزنطة ألف جنيه ذهبا سنويا. واشترط الملك الفارسي ضرورة حضور الطبيب تريبنوس الفلسطيني Tribunus of Palestine للبلاط الفارسي كشرط لتفعيل هذا الاتفاق، فاستجاب له الإمبراطور جستنيان. وكان لتريبنوس دورا سياسيا هاما. حيث استطاع في نهاية مدته بحسن علاقته أن يطلق سراح عدد من الأسري البيزنطيين من كبار الضباط. وتقديرا لهذا الطبيب فقد زاد الملك العدد أكثر مما طلبه تريبنوس ليصل إلي ثلاثة آلاف أسير(٣٧).

ونظرا لأن معظم الاتفاقيات لم توضع موضع الاحترام، فكان غالبا ما يخرق كل من الطرفين الاتفاقيات المبرمة بينهما. وبناء علي ذلك استغل الفرس سوء الحالة الصحية للإمبراطور جستين الثاني Justine II (٥٦٥-٥٧٨م) وقاموا بهجوم مباغت علي الأراضي البيزنطية،ولم تجد الإمبراطورة صوفيا، التي كانت تدبر أمور الدولة بمساعدة بعض القادة، سوى اللجوء إلي التسوية مع فارس حتى تستتب الأمور بالدولة. فقامت بإرسال سفارة لفارس حوالي عام ٥٧٤م لمناقشة الأمور المتنازع عليها بين الطرفين، من اجل تسوية شامله، وكان أهمها بطبيعة الحال المسألة الأرمينية. وكان علي رأس تلك السفارة طبيب القصر ويدعي زكريا zacharia. وبعد سلسلة من المفاوضات توصل زكريا إلي عقد هدنة لمدة عام مقابل دفع مبلغ مالي حوالي ٤٥ ألف جنيه ذهباً(٣٨).

ونظراً لعدم تحسن الأوضاع اضطرت الإمبراطورة صوفيا إلي تجديد الاتفاق مع الفرس، خشية معاودة الهجوم علي الأراضي البيزنطية مرة أخري. فأرسلت سفارة بقيادة البطريق ترجانTrejan وضمت السفارة أيضا الطبيب زكريا، نظرا لما أبداه من براعة في المفاوضات السابقة. وكانت مفاوضات شاقه أراد خلالها زكريا مراوغة الفرس حول تحديد المدة الزمنية للمعاهدة، فزكريا، وبموجب اتفاق مسبق مع القيصر تبريوس Tiberius، أراد تحديد مدة الهدنة بثلاث سنوات، وهي الفترة التي تستطيع بيزنطة خلالها تعبئة جيوشها لمواجهة فعليه مع فارس. وشعر المفاوض الفارسي ميبود Mebod بأن في الأمر شيئا، فطلب من الوفد تحديد المدة بخمس سنوات إذا كانت هناك رغبة فعلية للصلح. فأرسل زكريا في استشارة تيبريوس الذي لم يجد مفرا من الموافقة، وفوض زكريا في اتخاذ ما يراه مناسباً. وبعد سلسلة من المفاوضات اتفق الجانبان علي عقد هدنة لمدة خمس سنوات، تتعهد خلالها بيزنطة بدفع مبلغ سنوي حوالي ثلاثين ألف جنيه ذهب(٣٩).

وبتولي تبريوس عرش الإمبراطورية البيزنطية (٥٧٨-٥٨٢م) أراد أن يطمئن الجانب الفارسي بالتزامه بالسلام، فأرسل سفارة ترأسها الطبيب زكريا، والذي منحه المرتبة الشرفية Ex- Prefect، وأرسل معه حارسه الخاص ثيودورس Theodorus حاملين رسالة إلي الملك الفارسي يرحب فيها الإمبراطور بالسلام، باعتبار أنه هدية من السماء. وكان علي السفارة مواجهة المتغيرات التي طرأت بمجرد وصولهم إلي الأرض الفارسية. حيث توفي الملك الفارسي كسري في حوالي فبراير أو مارس عام ٥٧٩م، وخلفه هرمز الرابع Hormsd IV . وقد حاول زكريا استغلال ظروف عدم خبرة هرمز في تجديد اتفاق السلام، دون أي شروط بما فيها الإتاوات، إلا أن الجانب الفارسى رفض ذلك، وتمسك بما كانت تدفعه بيزنطة من قبل. ولكي يبرهن زكريا علي قوة الموقف البيزنطي؛ أرسل للقائد موريس يطلب منه القيام بمناورة عسكرية علي الحدود، ليشعر الفرس أن خيار الحرب قائم مثل خيار السلام. ولم يثنِ ذلك الأمر الفرس عن موقفهم المتشبث باستمرار دفع الإتاوات، وزادوا علي ذلك عدم احترامهم للوفد البيزنطي، حيث أمر الملك الفارسي بإيداع أعضاء السفارة السجن، بدلا من السماح لهم بالعودة إلي أوطانهم. وبرغم ذلك فقد تمكن زكريا ورفاقه من الهرب والعودة إلي القسطنطينية، ولم تشر المصادر إلي كيفية الطريقة التي مكنتهم من الهرب(٤١).

وقد أشارت المصادر إلي دور سياسي آخر في عهد الإمبراطور موريس Maurice (٥٨٢-٦٠٢م)، ولكن هذه المرة علي الجبهة الغربية. فأثناء قيام احد القادة البيزنطيين ويدعي بريسكوس Priscus، ببعض التحركات عبر نهر الراين بناء

علي طلب جنوده لقضاء فصل الشتاء في منطقه أكثر دفئا وأمنا، فاعتبر الخان الوندالي ويدعي Hezekian أنه المقصود بتلك التحركات، وأنه علي استعداد للمواجهة. ونظرا لعدم استعداد بريسكوس لأي مواجهة في هذه الظروف، قام بإرسال الطبيب ثيودور Theodor للتفاوض مع الخان وتوضيح صحيح الأمر. وبالفعل استطاع ثيودور احتواء الموقف، والسيطرة علي قلب وعقل الخان البلغاري. ووافق الخان علي الصلح مقابل أن يمنحه بريسكوس جزءا من الغنائم التي بحوزته، لأن قومه سبق وأن تعرضوا لأعمال السلب من تلك القوات. واتفق الطرفان في النهاية علي الصلح، ونظرا لإعجاب الخان البلغاري بالطبيب ثيودور طلب منه أن يكون صديقا دائما له(٤٢).

وهكذا استعرض الباحث، خلال السطور السابقة، العديد من الأدوار السياسية المختلفة للأطباء في العصر البيزنطي الباكر، والتي تراوحت ما بين الإيجاب والسلب، ويمكن القول أن وجود هؤلاء الأطباء وقربهم من الأباطرة، سهل لهم مهمة لعب ذلك الدور، وبالإضافة إلي ذلك فإننا لا نستطيع أن نغفل ما تمتع به هؤلاء الأطباء من قدرات خاصة مكنتهم من خوض ذلك المجال، سواء الثقافة العامة وإتقانهم لعدة لغات، إلي جانب استعدادهم وحضورهم السياسي الذي لاحظناه في العديد من المواقف. فليس من المنطق أن يجامل إمبراطور طبيبا مقربا له علي حساب المصلحة العامة للإمبراطورية. ومما تجدر الإشارة إليه أيضا أن تلك الألقاب لم تكن شرفية مثلما كان يحصل عليها البعض، ولكن مناصب عملية.

ويمكن القول أيضا، أنه برغم وجود بعض السلبيات التي شابت هذا الدور السياسي للأطباء، كما ذكرنا سلفا، فإن الدور الإيجابي، والذي صب في كثير من الأحيان في صالح الإمبراطورية، كان واضحا تماماً.

الهوامـــش

(١) يعد انتيموس الترالسي Anthemus of Tralles أشهر الأطباء الذين عملوا في مجال الهندسة والعمارة، وفي المجال الديني كان هناك علي سبيل المثال البيدوس Elpidius الذي عمل شماسا في القسطنطينية وميلان، وكذلك ديونيسيوس Dionysius الذي عمل شماسا في روما، وكذلك أيضا جيرونتيوس Gerontius الذي عين أسقفا لنيقوميديا، ولمزيد من المعلومات انظر:-

Jones, A., The Prosopography of the Later Roman Empire, Cambridge, 1980, p 363; Wallis, F., Medieval Medicine: AReader, Toronto 2010, p23; Nutton, V., Ancient Medicine, New York, 2004, p 301.

(2) Blocckley,R.,"Doctors as Diplomats in the Sixth Century A.D", in Florilegtum, 2,(1980),pp 89-100.

(٣) الهيوجرافي مصطلح حديث لنوع من الأدب البيزنطي، يهدف إلي تبجيل القديسين. وقد جذب هذا الأدب اهتمام عدد كبير من الباحثين المحدثين، فوضعوا دراسات عن هذا النوع من الأدب وأشكاله وعناصره وأنماطه التقليدية. والي جانب المعلومات التي تستمد من هذا الأدب في التعريف بالقديسين وأعمالهم البطولية، فهو يفيد الباحثين بالكثير من المعلومات حول التاريخ البيزنطي، ولمزيد من المعلومات انظر:-

عبد العزيز رمضان، البيزنطيون بين علاج الأطباء ومعجزات القديسين، دراسة في ضوء هجيوجرافيا العصر البيزنطي الباكر، حولية التاريخ الإسلامي والوسيط، المجلد الخامس، ٢٠٠٦-٢٠٠٧م (ص ٣٣-٩٨) ص٣٣، ١٥، راجع أيضا:-

Magoulias, H.," The Lives of the Saints as Sources of Data for the History of Byzantine Medicine in the Sixh and Seventh Centuries", in Byzantinische Zeitschrift, 57.(1964), pp127-150; Brown, P.," The Rise and Function of the Holy Man in Late Antiquity", in Journal of Roman Studies, 61, (1971), pp 80-101; Kazhdan, A. ",Byzantine Hagiography and Sex in sixth to Twelfth Centuries", in Dumbarton Oaks Papers,45(1991) ,pp1-22.

(٤) ولد اوريباسيوس حوالي عام ٣٢٥م في برجاموس، وهي نفس مسقط رأس العالم الجليل جالين Galen. وقد بلغ مبلغا طبيا في مجال الطب، حتي كان يطلق عليه لقب Ape of Galen أي شبيه جالين وله مؤلف في الطب يتكون من سبعين مجلدا بعنوان Collecta Medicinalia، ولمزيد من المعلومات حول حياته ولقائه الأول بجوليان انظر:

Dieting for an Emperor: a translation of books 1and 4 of Oribasius' Medicat, Leiden, 1997, p 2; Baldwin, B.," The career of Oribasius", Acta Classico, 18, (1975) pp 85-97; Gregory, T., A History of Byzantium,UK,2010,p 76.

(٥) ادوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، القاهرة، ١٩٦٧، جـ ٢، ص ٣٠، راجع أيضا:

Gregory, T., A History of Byzantium, UK, 2010, p 76; Kaegi, W., Byzantium and the decline of Rome, Princeton, 1968, 79.

(٦) Eunapius, in: The Fragmentary Classicising Histotians of the Later Roman Empire: Eunapius, Olympiodorus, Priscus and Malchus, trans. Blokley, R. C., Liverpool, 1983, (pp6-126), p 33; Collins, R., Early Medieval Europe, 300- 1000, London, 1991, p36; Baldwin,B., "Beyond the House Call: Docotors in Early Byzantine History and Politicos", Dumbarton Oaks Papers,38,(1984),(pp15-19), p 17.

(٧)Theophanes, The Chronicle of Theophanes A.D 284- 813, trans,Mango,c., and Scotte,R.,Oxeord,1992,pp 76; Socrates, The Ecclessiatical History Socrates, trans, Some Account of Authors, London, 1914, p 166; Sozomen, The Ecclessiatical History of Sozomen, trans, Wallfard, E., London, 1855, p 200.

(٨) كانت وظيفة الكويستور ذات تأثير هام في البلاط الإمبراطوري، لكونه مسئولا عن التشريع في البلاط الإمبراطوري، كما كانت ذات صلة بالسفارات والسفراء الأجانب. والمرجح إن أول ظهور لهذه الوظيفة كان في عهد الإمبراطور قسطنطين في القرن الرابع الميلادي، ولمزيد من المعلومات حول تلك الوظيفة، انظر: وسام عبد العزيز فرج، الألقاب والمناصب الحكومية في بيزنطة بين الاستمرار و الانقطاع، الجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية، الكتاب السنوي الثالث، القاهرة، ١٩٩٨،

(ص٢٩٥-٣٣٩)، ص١٠٠؛ رانسيمان، الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز جاويد، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٠٠، راجع أيضا:

http://en.wikipedia.org/wiki/Quaestor

Accessed in 12-9-2010

(٩) Theophanes, op cit, p 84;Baldwen,Doctors, p 17.

(١٠) البروقنصل: ترجمة لاتينية للكلمة اليونانية Anthypatos، وصاحبها حاكم لبعض الأقاليم ذات الأهمية الخاصة، ومن المحتمل أنه أطلق أيضا على المسئول عن إدارة القسطنطينية حتي عام ٣٥٩م حين تم استبداله بـ Urban Prefect، وكان البروقنصل في إفريقية يخضع للإمبراطور مباشرة، ولمزيد من المعلومات انظر: رانسيمان المرجع السابق، ص ٩٣، راجع أيضا:

http://en.wikipedia.org/wiki/Proconsul

Accessed in 12-9-2019

(١١) St. Augustine: Confessions, trans, Chadwick,H., Oxford,1991, p 54; Lepelley,C., Aspects de L'Afrique Romaino, Edipuglia,2001, p 156;Chastagnol,A., L'Italie et L'Afrique au Bas-Empire,Universite de Lile,1986,p 3.

(١٢) ولد القديس أوغسطين في تاغست Tagast، والتي تعرف حاليا بسوق أهراس بالجزائر في الثالث عشر من عام ٣٥٤م. وبعد أن تلقي تعليمه الأولي في موطنه انتقل إلي قرطاج، وهناك تأثر بالفلسفة الأفلاطونية،ثم انتقل بعد ذلك عام ٣٨٣م إلي روما ومنها إلي ميلانو،وهناك اعتنق المسيحية، وعاد بعد ذلك إلي موطنه وأنشأ ديرا للتعبد في عنابه، ثم عين أسقفا لها عام ٣٩٥م. وسار أبا للكنيسة اللاتينية. وله مؤلفات كثيرة أهم اعترافاتي Mes Confessions، ومدينة الله La Cit de Dieu. وتوفي في أواخر أغسطس عام ٤٣٠، لمزيد من المعلومات انظر:

Oxford Dictionary of Byzantium, Oxford, 1991,vol I pp 232-233; New Catholic Encyclopedia, Washington, D.C, 2003, vol,I, pp 852-858.

http://www.newadvent.org/cathen/02084a.htm

Accessed in 25-11- 2010

(١٣) St.Augustine, op cit, p54; Hegedus,T., Early Chrustianity and Ancient Astrology,NewYork,2007, p 48; Langslow,D., Medical Latine in the Roman Empire, Oxford, 2000,pp 55-56; Baldwen,Doctors,18; Bermon,E.,Le Cogito dans la Pensee ds Saint Augustin, Paris,2001,p 128.

(١٤) تعددت مهام صاحب هذه الوظيفة، فهو رئيس سلك الوظائف المدنية كلها ومدير بريد الدولة، والمهيمن علي المخابرات، وكبير إدارة المراسيم الإمبراطورية. إلي جانب أنه مسئول العلاقات الخارجية بوصفه الوزير المسئول عن استقبال السفراء. ونظرا لتعدد مهام صاحب هذه الوظيفة، كان الإمبراطور يحيط شخصه بعدد من المساعدين، ولمزيد من المعلومات انظر:-

رانسيمان، المرجع السابق، ص٩٤؛ وسام عبد العزيز، المرجع السابق،ص ٣٠٦.

(15) Eunapius, op cit, p 93;Langslow, op cit,p 66; Baldwen, op cit, p28.

(١٦) يعود الموطن الأصلي للإيسوريين إلي إيسوريا Isuria، وهي منطقة جبلية تقع جنوب آسيا الصغري، حيث كانت موطنا للعديد من القبائل الأخرى. وقد هدف الإمبراطور ليو من وراء استقدامهم أن يحلوا محل عنصر القوط الذين استفحل نفوذهم داخل الإمبراطورية. وقد أفل نجمهم مع تولي الإمبراطور أنستاسيوس Anastasius (٤٩١-٥١٨م) عرش الإمبراطورية، وشن ضدهم العديد من الهجمات داخل موطنهم الأصلي، ولمزيد من المعلومات انظر:-

Oxford Dictionary, vol II, p, 1o14;

(١٧) أطلق هذا المصطلح سابقا علي الخادم، أو الذي يقدم النصح للإمبراطور أو الملوك البرابرة، ثم أخذ معني آخر في عهد الإمبراطور قسطنطين ليمنح لأعوان ورفاق الإمبراطور، ثم أطلق بعد ذلك علي العديد من أصحاب المناصب الرفيعة، ولمزيد من المعلومات انظر: وسام عبد العزيز، المرجع السابق، ص ٣٠٥؛ راجع أيضا:

Oxford Dictionary, vol I, pp 484-485.

(١٨) عبد العزيز رمضان، المرجع السابق، ص ٨٠، راجع أيضا:

Chronicon Paschale 284-628 AD, trans. Whitby,M., Livrpool, 1986, p 88; Nutton, op cit, pp 304-305.

(١٩) Theophanes, op cit,p 187;The Chronicle of Joshua the Style,ed and trans. Wright, W., Cambridge,1882, p 9. Zacharia of

Mitylene, The Syriac Chronicle known as that of Zacharia of Mitylene, trans. hamilton, F., London, 1899, p 104; Grillmeier, A., Christ in Christian Tradition, trans. Pauline, .A., vol. 2, part.1, Atlanta, 1987, p 243.

(٢٠) يعرف أصحاب هذا المذهب بأصحاب مذهب الطبيعة الواحدة، وهي مشتقة منMono وتعني واحدة، و Physites و تعني طبيعة. ويرون أن للمسيح طبيعة واحدة لها صفات وخصائص الطبيعتين "فاللاهوت والناسوت متحدان فيه اتحادا تاما في الجوهر والأقنوم وفي الطبيعة"، وليس هناك انفصال أو افتراق بين اللاهوت والناسوت في المسيح. ولمزيد من المعلومات انظر:-

اسحق عبيد، الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية، دار المعارف، ١٩٧٢، ص٨٨-٨٩؛ حسنين ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٨٣، ص٥٢.

(٢١) عقد هذا المجمع عام ٤٥١م بناء علي طلب الإمبراطور مرقيان Marcian (٤٥٠-٤٥٧م) ويعد هذا المجمع هو المجمع المسكوني الرابع. وقد أدان هذا المجمع قرارات مجمع افيسوس عام ٤٤٥م والذي عرف باسم مجمع اللصوص. وقد أقر هذا المجمع مبدأ طبيعتي المسيح الذي صاغه من قبل البابا ليو، ولمزيد من المعلومات انظر: حسنين ربيع، المرجع السابق، ص٥٢.

(22) Theophanes,op cit,p 187;Grillmeier, op cit, p 243

(٢٣) يوحنا النقيوسي، تاريخ مصر، ترجمة عمر صابر عبد الجليل، القاهرة، ٢٠٠٠، ص١٣٧؛ ميخائيل السرياني، تارخ مار ميخائيل السرياني الكبير، ترجمة جريجوريوس صليبا، حلب، ١٩٩٦، جـ ١، ص ٣٢- ٢٤؛ عزيز سوريال عطية، تاريخ المسيحية، ترجمة اسحق عبيد، القاهرة، ٢٠٠٥، ص٨٩، راجع أيضا:-

Zacharia of Mitylene, op cit, pp 104 – 105 ; Theophanes, op cit, p 188.

(٢٤) Jordones,The Original and Deeds of the Goths, Trans, by , Mierow,C., Priceton, 1908,p 79; Burns,T., A History of the Ostrogoths, Indiana, 1991,p52, Walfarm,H., History of the Goths, trans. Danlap,T.,,California, 1979, p 258.

(٢٥) Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State ,trans.hussay,J.,Oxford, 1968,pp58- 59; Burns,op cit, p 57.

(٢٦) Anthimus , De Obseruation Ciborum : On the Observance of Food, London, 2007,p 15.

(٢٧) Anthimus, op cit, p 15, Hinds, K., Goths, New York,2009, p 63, Walfram, op cit, p 271.

(٢٨) Malchus, in : The Fragmentary Classicising Historians of the Later Roman Empire: Eunapius, Olympiodrus , Priscus and Malchus, trans. Blockley, Liverpool, 1983, (pp 402-455), p423.

(٢٩) Anthimus, op cit, p 15; Malchus , op cit, p 423;Dalby,A., Food in Ancient world from A to Z, New York, 2003, p 12.

(٣٠) Anthimus, op cit,op , p 16.

(٣١) Anthimus, op cit, pp 17- 18; Theophanes,op cit, p 201.

(٣٢) استغل القوط الشرقيون وفاة الملك الفرنجي كلوفيس Clovis ، عام ٥١١م، وهاجموا الأراضي الفرنجية من أجل توسيع أملاكهم عي حساب الفرنجة، ولكنهم صدموا من رد فعل الملك الفرنجي الجديد ثيودريك، مما اضطر القوط لعقد الصلح معهم، ولمزيد من المعلومات انظر:-

Anthimus, op cit, p 20;Gregory of Tours, The History of The Franks, trans.Thrope,L., Penguin Books, 1997,p183; Burns, op cit, p 95-96.

(٣٣) وسام عبد العزيز فرج، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص ٦٨.

Menander, The History of Menander The Guardsman, trans. Blockley,R.,Liverpool,1985

(٣٤) Procopius, History of Wars,trans. Dewing, B.,London, 1927, p ; Theophanes, op cit, p286- 287.

ويذكر أن بيوري قد حدد تاريخ تلك المعاهدة بربيع ٥٣٢م، وأن المبلغ المفروض علي بيزنطة كان مقابل الدفاع وحماية البوابات القوقازية، انظر:-

Bury,J., History of Later Roman Empire, from the Death of Theodosius to the Death of Justnian, vol.II, p 88;Sykes,P., A History of Persia, London,1921, vol.I, pp 544-545.

(٣٥) اشتعلت ثورة نيقا عام ٥٣٢م والتي تعني النصر في اللغة اليونانية،ويعود سبب اشتعال تلك الثورة الي السياسة التعسفية لاثنين من كبار رجال الحكم في عهد جستنيان، رجل القانون والمشرع تريبونيان Tribonian ووزير المالية حنا القبدوقي John of Cappadocia. وكادت هذه الثورة إن تطيح بجستنيان تماما لولا الدور البطولي الذي لعبته زوجته ثيودورا، بتشجيعه لمواجهة تلك الثورة حتي تمكن من إخمادها، ولمزيد من المعلومات انظر:-

Chronicon Paschale, pp 122-123; Theophanes, op cit , pp 276-277; Bury, op cit , p 45- 46

(٣٦) Bury, op cit , pp 110 111; Guscin,M., The Image of Edessa, Leiden, 2009, p 170; Segal,J., Edessa "the blessed city" , U.S.A, 2005 , p113.

(٣٧) يطلق على زكريا المتليني اسم "Tribonion"، ولمزيد من المعلومات انظر:-

Zacharia of Mitylene, op cit,p 331; Bury, op cit, p112.

(٣٨) حدث نوع من الخلط لدي المؤرخ ايفجاريوس Evagarius حول تلك السفارة التي حدثت عام ٥٧٤م، والسفارة التي شارك فيها زكريا مع تراجان فيما بعد، ولمزيد من المعلومات انظر:-

Menander, op cit, p 59; Evgarius, p261; Theophanes, op cit, p367;Sykes, op cit, p457.

(٣٩) Menander, op cit, p197; Evagrius, op cit, p 271; Theophanes, op cit, p 367. Sykes, op cit, p457.

(٤٠) Menander, op cit, p205; Theophanes, op cit , p 369.

(٤١) Menander, op cit,pp 207- 213.

(٤٢) The History of Theophylact Simocatta , trans. Whitby, M., Oxford, 1986, pp 176-178;

فتح مكة والسرايا التي تلته

" دراسة تاريخية وصفية "

د. محمد بن صامل السلمي (*)

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق فهدى وأعطى فأغنى ، وبعلمه وحكمته بعث الرسل، وكان خاتمهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم. وبعد :

فإن أم القرى والبلد الأمين هي موئل أفئدة المؤمنين، و بها البيت العتيق الكعبة المشرفة، وقد ولد ونشأ فيها خير خلق الله النبي الأمي، ومنها بُعث وأوحي إليه، ومكث بها ثلاث عشرة سنة بعد النبوة، يدعو إلى توحيد الله ونبذ الشرك وترك عبادة الأوثان، فاستجاب له من أراد الله هدايته، ولكنهم أوذوا وعُذبوا من المشركين، مما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يأذن لهم بالهجرة إلى الحبشة، ثم يجتهد صلى الله عليه وسلم في دعوة وفود الحج والقبائل إلى نصرته، فهيأ الله له الأوس والخزرج الذين استجابوا لله ونصروا رسوله وبايعوه على الإسلام في بيعة العقبة الأولى، ثم على النصرة والحماية في بيعة العقبة الثانية في السنة الثالثة عشرة من البعثة، فأذن صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، ثم تبعهم بعد إذن الله له ومعه صاحبه أبا بكر الصديق، فقد خرج صلى الله عليه وسلم من مكة وهي أحبُّ البلاد إليه ولكن أهلها أخرجوه، وقد وعده ربه أن يعيده إلى مكة[1] في قوله تعالى : ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾، ولهذا عمل صلى الله عليه وسلم على التخطيط لفتح مكة، بنشر الإسلام، والجهاد في سبيل الله في أنحاء الجزيرة، ومما فعله صلى الله عليه وسلم من الأسباب لفتح مكة أنه أعلن في السنة السادسة من الهجرة أنه يريد العمرة وزيارة البيت الحرام، فأحرم صلى الله عليه وسلم ومعه ألف وأربعمائة من أصحابه، لكن قريشا صدته ومنعته، ففاوضهم، وتم الصلح بينه وبينهم بوضع الحرب عشر سنين، ومن أراد أن يدخل في حلف محمد من قبائل العرب دخل،

(*) أستاذ التاريخ الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة.

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة القصص آية (٨٥)، حديث رقم ٤٧٧٣

ومن أراد أن يدخل في حلف قريش دخل، فكان هذا الصلح فتحاً عظيماً كما سماه الله سبحانه وتعالى،وأنزل عليه منصرفه من الحديبية سورة الفتح : ﴿ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً[٢] ﴾

لكن قريشاً نقضت العهد بعد اقل من سنتين، مما هيأ الأسباب ويسر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة. وقد عرضتُ في هذا البحث لسبب نقض الصلح ، واستعداد النبي صلى الله عليه وسلم لفتح مكة بدعوة القبائل التي أسلمت لمشاركته في الفتح.

ثم وصفت طريق تحركه إلى مكة حتى نزل مرّ الظهران، ثم إرسال النبي صلى الله عليه وسلم بالأمان إلى أهل مكة مع أبي سفيان، وقد اتخذ صلى الله عليه وسلم من الأسباب والوسائل ما يحقق الفتح من غير وقوع قتال في البلد الحرام، ثم ذكرت دخوله مكة وتعظيمه البلد الحرام وطوافه بالبيت وتطهيره من الأصنام والشرك ، ودخوله الكعبة المشرفة وصلاته فيها، ثم وقوفه على باب الكعبة والمشركون في صحن المطاف مستسلمون، وإعلانه صلى الله عليه وسلم العفو عنهم، وبيان حرمة مكة، وأن الله قد أباح له القتال فيها ساعة من نهار ثم عادت حرمتها كما كانت، وأوضحت الأعمال التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم لترتيب أوضاع مكة، وبعض الفتاوى والقضايا التي أوضحها وحكم فيها، ومبايعة أهل مكة له صلى الله عليه وسلم. وكذا بيان السرايا التي تلت الفتح الأعظم والتي كانت حول مكة للدعوة إلى الله وتحطيم الأصنام والطواغيت الكبار التي كانت تعظم عند قريش وغيرها من القبائل.

وقد سلكتُ في الدراسة الجانب الوصفي للأحوال والأماكن، حتى يتصور القارئ المشهد كما هو ، وقد ختمت البحث بجملة من الدروس والعبر المستفادة من الفتح الأعظم وما تلاه من السرايا.

وأسأل الله أن يكون نافعاً للباحث وللقارئ الكريم، وأن يجعله من العمل الخالص المتقبل والحمد لله رب العالمين.

نقض قريش للعهد وخروج أبي سفيان لتجديد الصلح وإخفاقه :

كان من شروط صلح الحديبية أن من شاء من القبائل أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل. فدخلت خزاعة في عقد النبي ﷺ وكانوا حلفاء لجده عبد المطلب وكان فيهم إسلام. ودخل بنو بكر إحدى

---

(٢) سورة الفتح آية (١).

القبائل الكنانية في عقد قريش[٣]. وديار بني بكر و خزاعة متداخلة ومتجاوره حـول مكة شمالاً وجنوباً، وقد كان بينهم ثأر من قبل البعثة النبوية، حيث عدت خزاعة على مالك بن عباد أحد بني الحضرمي وهم حلفاء الأسود بن رزن من بني الدئل من بكـر فقتلته، فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه، فردت خزاعه بقتـل ثلاثـة مـن أشراف بني بكر من بني الأسود بن رزن، هم : سلمى، وكلثوم، وذؤيب، وذلك بعرفـة عند أنصاب الحرم، وكان بنو الأسود لشرفهم في كنانة يؤدون ديتين ديتـين[٤]، وقـد حجز بينهم الإسلام وتشاغل الناس به وهم على هذه الحال. ولما وقعت الهدنه ودخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ، استعدت بنو بكر قريشاً علـى خزاعـة ليأخـذوا بثـأرهم فوافقهم بعض القرشيين وأعانوهم بالسلاح والرجال، واستغلوا فرصة الهدنـة فعـدوا على خزاعة ليلاً على غرة عند ماء لهم أسفل مكة يسمى الوتير، ويذكر الواقـدي أن آخر ما كان بين خزاعة وكنانة من الأحداث، أن أنس بن زنيم الديلى هجا رسـول الله ﷺ فسمعه غلام من خزاعة فوقع به وشجه فثار الشر بينهم مع ما كان من العداوة[٥] السابقة.

وقد لجأت خزاعة عند عدوان بني بكر عليهم إلى الحرم، لكن رئيس بني بكـر نوفل بن معاوية الدئلي أمر بني بكر بقتلهم حتى ولو دخلوا إلى حدود الحرم، وقـال : – كلمة كبيرة لما ذكره قومه بحرمة مكة وإلهـه – لا إله له اليوم، يا بني بكر خذوا بثأركم[٦].

ولجأ الخزاعيون بعد دخولهم مكة إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعـي، وحليـف لهم يسمى رافعاً، وقتل في هذه العدوة ثلاثة وعشرون رجلاً من خزاعة[٧].

وقد قدم الخزاعيون على رسول الله ﷺ في المدينة ليعلموه بما وقـع علـيهم، وطلبوا منه النصر، منهم بديل بن ورقاء، وعمرو بن سالم، وأنشد عمرو بـن سـالم بين يدي رسول الله ﷺ قصيدته.

اللهـم إني ناشـــد محمـداً حلـف أبينـا وأبيـه الأتـدا

---

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية ٣٠/٤ بإسناد صحيح، تاريخ الطبـري، ٣/ ٤٣ والبيهقـي، دلائل النبوة ٦/٥.

(٤) ابن هشام، المصدر نفسه ٢٩/٤، تاريخ الطبري ٤٣/٣، الواقـدي المغـازي ٧٨١/٢. ومعنى يودون: يدفعون دية القتيل.

(٥) المغازي ٧٨٢/٢.

(٦) ابن هشام، المصدر نفسه ٤ / ٣٠، وابن كثير، السيرة النبوية ٣ / ٥٢٨.

(٧) الواقدي، المغازي ٢ / ٧٨٤ و ٧٨٧.

إن قريشـــاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثـــاقك المؤكـدا

فانصر هداك الله نصراً أعتدا وادع عباد الله يـأتوا مـددا

فقال رسول الله ﷺ (نصرت يا عمرو بن سالم[٨]) ثم عرض لرسول ﷺ عنـان من السماء فنظر إليها وقال : (إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب)[٩]

ويذكر الواقدي أن رسول الله ﷺ قال للوفد الخزاعي ارجعوا إلى دياركم وتفرقوا في الأودية والبلدان[١٠].

وكانت المدة بين عقد صلح الحديبية وهذه الأحداث سـبعة عـشر شـهراً، أو ثمانية عشر شهراً[١١].

وقد ندمت قريش على ما وقع منها في معاونة بني بكر، وخشيت أن يبلغ ذلـك النبي ﷺ، وقد قال رسول الله ﷺ لأصحابه (كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليـشد العقـد ويزيد في المدة)[١٢] فأرسلت قريش أبا سفيان للنبي ﷺ، وفي الطريق لقي بـديل بـن ورقاء مع رجال من خزاعة عند عسفان وتوقع أنه راجع من المدينة، فسأله لكن بديلا أخفى عليه أمره، ثم ذهب إلى مبرك إبلهم وأخذ بعرة ففتها ووجد فيها النوى، فـأدرك أن القوم جاءوا من المدينة.

ولما وصل المدينة لقي رسول الله ﷺ في المسجد، وطلب منه أن يـشد العهـد ويزيد في المدة لكن رسول الله ﷺ لم يرد عليه شيئاً[١٣]. وعند الواقدي أن رسول الله ﷺ قال له : هل كان قبلكم حدث ؟ قال معاذ الله. فقال رسول الله : فنحن علـى مـدتنا وصلحنا يوم الحديبية، لا نغير ولا نبدل[١٤].

---

(٨) ابن هشام، السيرة النبوية ٤ / ٣٥ والشعر عند الواقـدي ٢ / ٧٨٩ والطبـري ٤٥/٣، ومعنى الأتلد: القديم وانظر لتخريج الحديث مجمع الزوائد ١٦٣/٦

(٩) الهيثمي، مجمع الزوائد ١٦٤/٦ وبنو كعب هم خزاعة.

(١٠) المغازي ٢/ ٧٩١، وانظر ابن كثير ٣/ ٥٣٢.

(١١) ابن كثير، السيرة النبوية ٣ / ٥٢٦ ويذكر الواقدي (المغـازي ٢/ ٧٨٣) أن نقـض العهد كان في شهر شعبان (أي سنة ثمان) وذلك على رأس ٢٢ شهراً من عقد الصلح.

(١٢) ابن هشام، المصدر نفسه ٣٥/٤ وانظر الواقدي ٧٩١/٢ وتاريخ الطبري ٤٥/٣.

(١٣) ابن هشام، المصدر نفسه ٤/ ٣٦.

(١٤) المغازي ٢ / ٧٩٢ ونسبه ابن كثير في السيرة ٥٣٢/٢ لموسى بن عقبه.

ودخل أبو سفيان على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة رضي الله عنها، فطوت فراش رسول الله ﷺ عنه، ثم خرج إلى الصديق، ثم إلى عمر، وإلى علي يستشفع بهم عند رسول الله ﷺ فلم يجيبوه، وقال لفاطمة رضي الله عنها : أجيري بين الناس، أو مري ابنك يجير بين الناس فقالت : إنه لا يجير أحد على رسول الله ﷺ، ثم قال له علي بعد أن كلّت حيلته: قم أنت فأجر بين الناس، فقام أبو سفيان وقال : اشهدوا أني أجرت بين الناس. فقال رسول الله : أنت تقول ذلك يا أبا سفيان، فلم يقبل إجارته فعاد من غير نتيجة(١٥).

خروج الرسول ﷺ لفتح مكة

- الاستعداد لفتح مكة :

أخذ الرسول ﷺ في الاستعداد لفتح مكة، وقال لعائشة : جهزينا وأخفي أمرك، وأمر ﷺ بحراسة الأنقاب والطرق فلا يخرج أحد أو يدخل إلا وهو معلوم، وكان عمر بن الخطاب هو القيم على الأنقاب(١٦)، وكل من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه(١٧).

ودخل أبو بكر على عائشة وهي تجهز رسول الله ﷺ تعمل قمحاً سويقاً ودقيقاً وتمراً، فقال : أهمّ رسول الله بغزو ؟ فقالت : ما أدري.

فجاء رسول الله ﷺ فقال له أبو بكر : يا رسول الله أردت سفراً ؟ قال رسول الله : نعم.

قال : أفأ تجهز ؟ قال : نعم. فقال أبو بكر : وأين تريد يا رسول الله ؟ قال : قريشاً وأخف ذلك يا أبا بكر(١٨).

وبعث رسول الله ﷺ أبا قتادة الأنصاري في ثمانية نفر إلى بطن إضم، ليظن ظان أن رسول الله ﷺ يريد تلك الناحية وتذهب بذلك الأخبار(١٩) ودعا رسول الله ﷺ

---

(١٥) انظر تفصيل ذلك عند ابن هشام ٤/ ٣٧ -٣٧ و مغازي الواقدي ٢ / ٧٩٣ - ٧٩٥. ومعنى كلّت حيلته : عجزت
(١٦) الأنقاب : الطرق في الحرة.
(١٧) مغازي الواقدي ٢ / ٧٩٦.
(١٨) المصدر نفسه.
(١٩) المصدر نفسه ٢ / ٧٩٧.

ربه أن يعمي على قريش الأخبار[٢٠]، فلا يعلمون عنه حتى يفجأهم بمكة وهم على غير استعداد، مما يجعلهم يستسلمون من غير قتال، إعظاماً منه ﷺ لمكة وحرمتها.

ـ كتاب حاطب إلى قريش :

وقد علم بعض خواص الصحابة بقصد النبي ﷺ ووجهته، ومنهم حاطب بن أبي بلتعة،[٢١] وهو من المهاجرين، وممن شهد بدراً، وله بمكة مال وأهل، فأراد أن يتخذ عند أهل مكة يداً ليحفظ ماله وأهله، فكتب لهم كتاباً، وسمى الواقدي ثلاثة نفر كتب لهم حاطب هم : صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، وأرسله مع امرأة من مزينة تسمى كنود، وجعل لها ديناراً على أن تبلغ الكتاب[٢٢]، وقال : أخفيه ما استطعت ولا تمري على الطريق فإن عليها حراساً، فسلكت المرأة على غير نقب فأخذت على يسار المحجة المعروفة من فلوق الحرة حتى لقيت الطريق بالعقيق[٢٣].

وأطلع الله رسوله ﷺ على ما فعله حاطب، فبعث علياً والزبير والمقداد وقال : (انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[٢٤] فإن بها ضعينة[٢٥]، ومعها كتاب فخذوه منها) قال علي : فانطلقنا تعادى بنا خيلنا، حتى انتهينا إلى الروضة، فإذا نحن بالضعينة، فقلنا : أخرجي الكتاب. فقالت : ما معي من كتاب، فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول ﷺ : يا حاطب، ما هذا ؟ قال يا رسول الله لا تعجل عليَّ، إني كنت امرءً ملصقاً[٢٦] في قريش ولم أكن من أنفسها، وكان مَن معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون

---

(٢٠) ابن هشام ٤ / ٣٨ ومغازي الواقدي ٢ / ٧٩٦. ومعنى يعمي : يخفي ويحجب.

(٢١) حاطب بن أبي بلتعة عمرو بن راشد بن معاذ اللخمي، حليف قريش، أسلم وهاجر وشهد بدراً والحديبية، وبعثه النبي ﷺ بكتابه إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، فأتاه من عنده بهدية منها مارية القبطية أم إبراهيم، ومات رضي الله عنه بالمدينة سنة ثلاثين عن خمس وستين سنة، وصلى عليه عثمان بن عفان رضي الله عنه الطبقات الكبرى (١١٤/٣) والإصابة ٢٠٠/١.

(٢٢) ذكر الواقدي رواية أخرى (٢/ ٧٩٩) وسمى المرأة سارة وأنه جعل لها عشرة دنانير.

(٢٣) المصدر السابق ٧٩٨/٢ و ٧٩٩. والمحجة : الطريق العام والرئيس.

(٢٤) في رواية ابن إسحاق في السيرة ٤/ ٣٩ فأدركناها بالخليقة، خليقة بني أحمد، وكذا في مغازي الواقدي ٧٩٨/٢.

(٢٥) الضعينة : المرأة

(٢٦) ملصقاً : حليفاً

بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفراً ولا ارتداداً، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : قد صدقكم[٢٧]

وقد تجاوز عنه النبي ﷺ لما ظهر له من صدقه وعدم موالاته للكفار، ولما له من السابقة في الإسلام وشهود بدر والحديبية، وقد أوجب الله لمن شهدهما الجنة، مع أن فعله يعتبر خيانة، لكن كفى الله المؤمنين شرها بكشف أمره قبل أن يصل الخبر إلى العدو.

- مسير الرسول ﷺ إلى مكة :

لما عزم رسول الله ﷺ على الخروج إلى مكة أبان عن نيته في الغزو ولم يحدد وجهته، وأرسل إلى أهل البادية وإلى من حوله من المسلمين يقول لهم : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة، وبعث رسول الله ﷺ رسله في كل ناحية، حيث أرسل أسماء، وهند ابني حارثة الأسلميان إلى قبيلة أسلم.

وأرسل جندباً، ورافعاً ابني مكيث إلى جهينة. وأرسل إيماء بن رحضة، وأبا رهم كلثوم ابن الحصين الغفاري إلى بني غفار وضمرة. وبعث معقل بن سنان، ونعيم بن مسعود إلى أشجع. وبعث بلال بن الحارث، وعبد الله بن عمرو المزني إلى مزينة. وبعث الحجاج بن علاط السلمي، وعرباض بن سارية إلى سليم. وبعث بسر بن سفيان، وبديل بن ورقاء إلى بني كعب من خزاعة[٢٨]. ويظهر من بعض الروايات التي أوردها الواقدي[٢٩] أن رسول الله ﷺ لم يظهر مقصده من هذا الغزو لكل الناس، وقد أوهم قبل ذلك بإرسال سرية إلى بطن إضم. وخرج ﷺ في العشر الأول من رمضان، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن الحصين بن عتبة بن خلف الغفاري[٣٠] وعسكر ﷺ ببئر أبي عنبة حتى اجتمع له الناس، وفي رواية عند الصلصل[٣١]، ثم تقدم ﷺ إلى العرج.

---

(٢٧) انظر صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب الجاسوس حديث رقم ٣٠٠٧ وأخرجه في مواضع أخرى حديث ٣٠٨١ و ٦٢٥٦ و٦٩٣٩ ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل أهل بدر ح ١٦١.

(٢٨) الواقدي، المغازي ٢ / ٧٩٩ - ٨٠٠.

(٢٩) المصدر نفسه ٢ / ٨٠٢.

(٣٠) ابن هشام ٤/ ٤٠١ وسيرة ابن كثير، عن ابن إسحاق ٣ / ٥٤٠، وذكر ابن سعد في الطبقات ٢ / ١٢٥ أنه استخلف عبد الله ابن أم مكتوم.

(٣١) الواقدي ٢ / ٨٠٠ و ٨٠١. وأجممنا السيوف : أرحناها. وج : واد بالطائف

وكان الجيش منهم الصائم ومنهم المفطر، وقد أراد كعب بن مالك أن يعرف وجهة النبي ﷺ فألقى بين يديه هذه الأبيات

قضينا من تهامة كل ريب	وخيبر ثم أجممنا السيوفا
نسائلها ولو نطقت لقالت	قواطعهن دوساً أو ثقيفاً
فلست لحاضر إن لم تروها	بساحة داركم منها ألوفاً
فننتزع الخيام ببطن وجٍ	ونترك دونهم منها خلوفا

فتبسم رسول الله ﷺ ولم يزد على ذلك[٣٢].

وقد سمع عيينة بن حصن الفزاري بمخرج النبي ﷺ وهو في أهله بنجد، فجاء في نفر من قومه إلى المدينة فوجد النبي ﷺ قد خرج قبله بيومين، فأسرع وسلك على ركوبة، وسبق إلى العرج، فلما جاء إلى النبي ﷺ سأله : أين وجهك يا رسول الله ؟ قال : حيث يشاء الله. ثم جاءه الأقرع بن حابس بالسقيا في عشرة من قومه فساروا معه[٣٣].

وقد جعل رسول الله ﷺ بين يديه طليعة، فوجدت الطليعة بين العرج والطلوب رجلاً ادعى أنه من غفار، فلما حققوا معه اتضح أنه من هوازن، أرسله قومه عيناً يأتي بخبر النبي ﷺ، فاستخبره رسول الله ﷺ عن هوازن فأخبره أنهم جمعوا له جمعاً هم وثقيف، وأنهم أرسلوا إلى جرش في عمل الدبابات والمنجنيق، فأمر النبي ﷺ بأن يتحفظ عليه، وبقي معهم إلى أن تم فتح مكة، ثم إنه أسلم وشارك في غزوة حنين[٣٤]. كما ذكر الواقدي رواية عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم، أن رسول الله ﷺ لما كان بين العرج والطلوب، نظر إلى كلبة تهر على أولادها وهم حولها يرضعونها، فأمر رجلاً من أصحابه يقال له: جعيل بن سراقة أن يحرسها لئلا يعرض لها أحد من الجيش[٣٥].

- **عقد الألوية والرايات :**

وتختلف الروايات في المكان الذي عقد فيه النبي ﷺ الألوية والرايات، فيذكر الواقدي أنه عقد الرايات عندما عسكر ببئر أبي عنبة، ويذكر رواية أخرى أنه ﷺ لم

---

(٣٢) المصدر نفسه ٢ / ٨٠٢.
(٣٣) المصدر نفسه ٢/٨٠٣
(٣٤) المصدر نفسه ٢/٨٠٤
(٣٥) المصدر نفسه ٢/٨٠٤ وانظر ترجمة جعيل بن سراقة الضمري في الاستيعاب لابن عبد البر. وفي القصة رحمة النبي ﷺ وشفقته بالحيوان.

يعقد الرايات إلا في قديد، ثم يعطي الواقدي تفصيلات عن عدد الرايات وأصحابها وعدد المشاركين من كل قبيلة كما يلي[٣٦] :-

١- المهاجرون، على ثلاث رايات : راية مع الزبير، وراية مع علي، وراية مع سعد بن أبي وقاص، عددهم (٧٠٠) وخيلهم (٣٠٠) فرس.

٢- الأوس، على سبع رايات : راية مع أبي نائلة من بني عبد الأشهل، وراية مع قتادة بن النعمان من بني ظفر، وراية مع أبي بردة بن نيار من بني حارثة، وراية مع جبر بن عتيك من بني معاوية، وراية مع أبي لبابة بن عبد المنذر من بني خطمة، وراية مع مبيض من بني أمية، وراية مع أبي أسيد من بني ساعدة.

٣- الخزرج على خمس رايات : راية مع عبد الله بن زيد من بني الحارث، وراية مع قطبة بن عامر بن حديدة من بني سلمة، وراية مع عمارة بن حزم من بني مالك بن النجار، وراية مع سليط بن قيس من بني مازن، وراية في بني دينار.

وعدد الأنصار جميعاً (٤٠٠٠) رجل، ومعهم من الخيل (٥٠٠) فرس.

٤- مزينة، وهم على ثلاثة ألوية : لواء مع النعمان بن مُقَرِّن، ولواء مع بلال بن الحارث، ولواء مع عبد الله بن عمرو عددهم (١٠٠٠) رجل ومعهم (١٠٠) فرس.

٥- أسلم، ولهم لواءان : أحدهما مع بريدة بن الحصيب، و الأخر مع ناجية بن الأعجم عددهم (٤٠٠) رجل ومعهم (٣٠) فرساً.

٦- جهينة، وهم على أربعة ألوية : لواء مع سويد بن صخر، ولواء مع ابن مكيث، ولواء مع أبي زرعة، ولواء مع عبد الله بن بدر، عددهم (٨٠٠) رجل ومعهم (٥٠) فرساً.

٧- بنو كعب بن عمرو الخزاعيون، على ثلاثة ألوية : لواء مع بسر بن سفيان، ولواء مع ابن شريح، ولواء مع عمرو بن سالم وعددهم (٥٠٠) رجل.

٨- بنو سُليم وعددهم (٩٠٠) وقيل ألف، وكلهم خيالة، نفروا مع الرسولين اللذين بعثهما لهم رسول الله ﷺ، الحجاج بن علاط، والعرباض بن سارية، ولقوه في قديد ومعهم لواءان وخمس رايات، فجعلهم رسول الله في مقدمته حتى نزلوا مَرَّ الظهران[٣٧].

---

(٣٦) المغازي ٢/٨٠٠ وعند ابن سعد في الطبقات ٢/١٢٥ أن عقد الرايات للقبائل كانت في قديد ولعلّ هذا هو الصواب.

(٣٧) المصدر نفسه ٢/٨١٢ و ٨١٣.

ولما رأى عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، عقد الألوية والرايات تأسفا أن لم يكن معهما قومهما ليشاركا في الغزوة ويعقد لهما النبي ﷺ الرايات كما عقد للقبائل المشاركة. وتوضح الروايات في كتب المغازي أن عدد المشاركين في غزوة الفتح عشرة آلاف[٣٨]، وبعضهم قال ثمانية آلاف[٣٩] وبعضهم قال اثنا عشر ألفاً[٤٠] والمشهور عشرة آلاف.

إسلام سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية :

لما وصل النبي ﷺ في طريقه إلى مكان يسمى نيق العقاب لقيه ابن عمه سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وصهره عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة أخو أم سلمة بنت أبي أمية رضي الله عنها، وشفعت فيهما أم سلمة، فأذن لهما بالدخول عليه، وأسلما وعفى عنهما رسول الله ﷺ ما كانا يؤذيانه به في مكة، وأنشد أبو سفيان بين يديه ﷺ قصيدة يعتذر فيها عما حصل منه في سابق أيامه[٤١] منها قوله:

لعمرك أني يوم أحمل رايةً   لتغلب خيل اللات خيل محمد

لكا لمدلج الحيران أظلم ليله   فهذا أواني حين أُهدى وأهتدي

هداني هاد غير نفسي ونالني   مع الله من طردتُ كل مُطَرَّد.

هجرة العباس بن عبد المطلب :

كان العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ من المدافعين عنه وقد حضر بيعة العقبة الكبرى مع رسول الله ﷺ، ثم خرج مع قومه قريش إلى بدر وأسر بها، ثم أطلقه النبي ﷺ كما أطلق غيره بعد أن دفع الفداء، ومازال بمكة لم يعلن إسلاماً مع أن زوجه أم الفضل وابنه عبدالله بن عباس قد أسلما، ثم إنه قبيل فتح مكة خرج بأهله مهاجراً إلى الله ورسوله ولقي النبي ﷺ ببعض الطريق كما ذكر ابن إسحاق[٤٢]،

(٣٨) ابن هشام ٤/ ٤٠ و الواقدي ٢/ ٨١٥ وابن سعد، الطبقات ٢/ ١٢٩،و البيهقي، دلائل النبوة ٥/ ٢١ وابن سيد الناس، عيون الأثر ٢/ ٢١٧ وابن كثير، السيرة النبوية ٣/ ٥٢٩

(٣٩) الطبقات الكبرى ٢/ ١٢٩ عن سعيد بن المسيب.

(٤٠) ابن كثير، السيرة النبوية ٢/ ٥٢٩، ونسبة إلى عروة، والزهري، وموسى بن عقبة.

(٤١) ابن هشام، السيرة ٤/ ٤١ و البيهقي، دلائل النبوة ٥/ ٢٧

(٤٢) ابن هشام ٤/ ٤١ والراجح أن إسلام العباس كان قبل فتح خيبر، انظر. محسن أحمد الدوم، مرويات فتح مكة، رسالة ماجستير بالجامعة الإسلامية غير منشوره ص ٩٨.

ويحدد الواقدي[٤٣] المكان بالسقيا، بينما يحدده ابن هشام بالجحفه[٤٤]، فعاد مع رسول الله ﷺ وأرسل عياله إلى المدينة.

وفي الجحفة رأى الصديق رضي الله عنه رؤيا في المنام فقصها على رسول الله ففسرها النبي ﷺ بأنه قد ذهب كَلَبُ قريش وأقبل دَرُّهم[٤٥].

المكان الذي أمر فيه رسول الله ﷺ الصحابة بالفطر :

ورد في صحيح البخاري عدة روايات عن المكان الذي أمر النبي ﷺ فيه الجيش بالفطر في رمضان بسبب السفر وشفقة منه عليهم، ففي حديث الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ سار هو ومن معه من المسلمين إلى مكة يصوم ويصومون حتى إذا بلغ الكديد – وهو ماء بين عسفان وقديد[٤٦] – أفطر وأفطروا[٤٧]

وفي رواية مجاهد عن طاووس عن ابن عباس قال : سافر رسول الله ﷺ فصام حتى بلغ عسفان ثم دعا بإناء من ماء فشرب نهاراً ليراه الناس، فأفطر حتى قدم مكة[٤٨]

وفي صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله قال : خرج رسول الله ﷺ عام الفتح صائماً حتى أتى كراع الغميم....فقيل يا رسول الله إن الناس قد اشتد عليهم الصوم، وإنما ينظرون إليك كيف فعلت، فدعا رسول الله ﷺ بقدح فيه ماء فرفعه وشرب والناس ينظرون، فصام بعض الناس وأخبر النبي ﷺ، فقال : أولئك العصاة أولئك العصاة[٤٩] وأخرج البيهقي عن أبي سعيد الخدري قال : خرجنا صواماً حتى بلغنا الكديد، فأمرنا رسول الله ﷺ بالفطر، فأصبح الناس منهم الصائم ومنهم المفطر، حتى إذا بلغنا المنزل الذي نلقى العدو فيه أمرنا بالفطر فأفطرنا أجمعون[٥٠]

---

(٤٣) المغازي ٨١٢/٢

(٤٤) السيرة ٤١/٤

(٤٥) الواقدي، المغازي ٨١٢/٢. والمراد ذهب شرهم وأقبل خيرهم.

(٤٦) في رواية ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٤٠/٤ تحديد الكديد بأنه بين عسفان وأمج، وهذا أدق، فإن أمج هي خليص والمسافة بينها وبين عسفان، قصيرة، والكديد يقع بينهما.

(٤٧) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٢٧٦)

(٤٨) المصدر نفسه، حديث رقم (٤٢٧٩)

(٤٩) صحيح مسلم، كتاب الصوم حديث رقم (٩٠)

(٥٠) دلائل النبوة ٢٤/٥

وتوضح رواية الترمذي عن أبي سعيد الخدري المنزل الذي أفطروا فيه جميعاً، يقول : لما بلغ النبي ﷺ عام الفتح مَرّ الظهران، فآذننا بلقاء العدو، فأمرنا بالفطر، فأفطرنا أجمعون[٥١]

فحصل من هذه الروايات أربعة أمكنة أفطروا فيها، ثلاثة متقاربة، الكديد، و عسفان، وكراع الغميم وأبعدها هو مَرّ الظهران – الجموم اليوم – وهو أقربها إلى العدو في مكة.

قال القاضي عياض بعد أن ذكر الأمكنة الثلاثة الأولى : اختلفت الروايات في الموضع والكل في قصة واحدة وكلها متقاربة، والجميع من عمل عسفان[٥٢]. وقال ابن حجر : فيه مجاز القرب[٥٣]: أي لقربها من بعض جاز الإطلاق على أي واحد منها، وهو جمع حسن.

معسكر الرسول ﷺ في مَرّ الظهران

١- نزول جيش المسلمين في مَرّ الظهران :

سار رسول الله ﷺ نحو مكة حتى نزل بمَرّ الظهران – الجموم اليوم – وهي تبعد عن مكة نحو عشرين كيلو متراً، وامتد عمران مكة في الوقت الحاضر حتى كاد يتصل بها.

وقد أمر رسول الله ﷺ الجيش أن يوقد النيران فأوقدت عشرة آلاف نار حتى كان منظراً مبهراً وللعدو مرعباً[٥٤]. وقد عميت الأخبار على قريش فلا يأتيهم عنه خبر ولا يدرون ما رسول الله فاعل، وكانت خزاعة قد أخذت الطرق فلا تدع أحداً يمضي وراءها[٥٥]، وخرج أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، ورغب في صحبتهما بديل بن ورقاء الخزاعي، – وكان مقيماً في مكة – يتحسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبراً عن رسول الله ﷺ، وكان رسول الله قد جعل خيلاً أمامه يقتصون العيون، فوجدوا أبا سفيان وصاحبيه، فجاءوا بهم إلى رسول الله ﷺ[٥٦]. وعند ابن إسحاق أن العباس لما نزل رسول الله مَرّ الظهران، أخذ بغلة رسول الله

---

(٥١) سنن الترمذي، كتاب الجهاد باب (١٣) حديث رقم ١٦٨٤ وقال:هذا حديث حسن صحيح.

(٥٢) ابن حجر، فتح الباري ١٨١/٤

(٥٣) ابن حجر، فتح الباري ١٨١/٤

(٥٤) مغازي الواقدي ٨١٤/٢

(٥٥) ابن كثير، السيرة ٥٤٦/٣

(٥٦) مغازي عروة ص ٢١٠، و مغازي موسى بن عقبة ص ٢٧٢.

فخرج عليها ليلاً حتى دخل في غابة الأراك، لعله يجد بعض الحطّابة أو صاحب حاجة، ليرسله إلى مكة يخبرهم بمكان رسول الله ﷺ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة[٥٧].

قال العباس : فو الله إني لأسير عليها وألتمس ما خرجت له، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن رقاء وهما تراجعان، وأبو سفيان يقول : ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا. قال بديل : هذه والله خزاعة حمشتها الحرب، قال أبو سفيان : خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.

قال العباس : فعرفت صوت أبي سفيان فقلت : يا أبا حنظلة ؟ فعرف صوتي فقال : أبوالفضل؟ قال قلت : نعم. قال : مالك فداك أبي وأمي ؟!

قال ابن عباس : ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله في الناس، واصباح قريش والله ! قال : فما الحيلة فداك أبي وأمي ؟ قال قلت : والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز البغلة حتى تأتي رسول الله فأستأمنه لك، قال : فركب خلفي ورجع صاحباه[٥٨].

قال عروة، والزهري، وموسى بن عقبة، بل ذهبا مع ابن عباس ودخلا على رسول الله ﷺ وأسلما، وأخذ يستخبرهما عن أهل مكة[٥٩].

ولما نزل رسول الله ﷺ في مَرّ الظهران تفرق الصحابة في الأشجار يجتنون الكَبَاث (النضيج من ثمر الأراك) فقال رسول الله ﷺ : عليكم بالأسود منه، فإنه أطيب، فقالوا : يا رسول الله، أكنت ترعى الغنم ؟ قال : نعم وهل من نبي إلا وقد رعاها[٦٠].

وكان عبد الله بن مسعود أحد من اجتنى الكَبَاث، وكان الصحابة ينظرون إلى دقة ساقي ابن مسعود وهو يرقى في الشجرة ويعجبون. فقال رسول الله ﷺ : (تعجبون من دقة ساقيه فو الذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من جبل أحد[٦١]) وكان ابن مسعود إذا اجتنى شيئاً جاء به إلى رسول الله ﷺ ليختار منه ما يشاء، ثم قال ابن مسعود :

---

(٥٧) ابن هشام، السيرة ٤٣/٤ وابن كثير، السيرة ٥٤٦/٣. والأراك : شجر الحمض واحدته أراكة. (الجوهري، الصحاح، باب الكافي، فصل الألف.)

(٥٨) (ابن هشام ٤٣/٤) وله شاهد من حديث أبي هريرة عند مسلم (١٤٠٨/٣)

(٥٩) (ابن كثير، السيرة ٥٤٧/٣)

(٦٠) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب الكباث، حديث رقم : ٥٤٥٣، باب ٣١، حديث ٣٤٠٦، وصحيح مسلم، كتاب الأشربة، حديث ٢٠٥٠.

(٦١) البيهقي، دلائل النبوة ٢٩/٥

هذا جناى وخيارُهُ فيه   إذ كل جانٍ يده إلى فيه

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : أثرنا أرنباً ونحن بمر الظهران فسعى القوم فغُلِبُوا، وأدركتها فأخذتها، فأتيت بها أبا طلحة فذبحها، وبعث إلى الرسول ﷺ بوركها وفخذيها فقبله[٦٢].

وهذا يدل على أنهم ليسوا بمحرمين، حيث صادوا وأكل رسول الله من الصيد الذي صادوه، وفيه فتوة أنس رضي الله عنه وسرعته في الجري. وفي المكان الذي صلى فيه رسول الله ﷺ بمر الظهران بني مسجد فيما بعد عرف بمسجد الفتح.

٢ – إسلام أبي سفيان بن حرب :

لما وجد العباس بن عبد المطلب أبا سفيان بن حرب أردفه خلفه على بغلة رسول الله ﷺ، وأشار عليه أن يقدم على النبي ﷺ ويطلب منه الأمان لأهل مكة، فجعل العباس كلما مَرّ على قوم قالوا : عم رسول الله على بغلته، حتى إذا مَرّ على نار عمر بن الخطاب عرف أبا سفيان بن حرب فقال : الحمد لله الذي أمكن منك من غير عهد ولا ميثاق، واستل سيفه ليضربه، فأسرع العباس، وجاء عمر يجري خلفه، فسبقه إلى رسول الله ﷺ، ثم دخل عمر فقال : يا رسول الله دعني أضرب عنق عدو الله أبا سفيان. فقال العباس : يا رسول الله إني قد أجرته، فقال النبي ﷺ للعباس : أذهب به معك فإذا أصبحت أغد به عليّ، فأخذه العباس إلى رحله، وبات عنده، ولما أُذِّن لصلاة الصبح ثار الناس إلى الوضوء ورأى أبو سفيان أمراً عجباً من الصحابة رضي الله عنهم في ابتدارهم وضوء النبي وتبركهم به فقال : ما رأيت يا أبا الفضل مُلكاً هكذا، لا مُلك كسرى، ولا مُلك بني الأصفر ! فقال العباس: ويحك، آمن قبل أن تضرب عنقك. قال : أدخلني عليه. فأدخله العباس على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله : ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله ؟ فقال : بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد.

وفي رواية عند الواقدي[٦٣]، أن أبا سفيان قال : يا محمد استنصرتُ إلهي، واستنصرتَ إلهك، فلا والله ما لقيتُك من مرة إلا ظفرتَ عليّ، فلو كان إلهي محقاً وإلهك مبطلاً غلبتك. ثم قال رسول الله ﷺ : يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك !! أما هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً.

---

(٦٢) صحيح البخاري، كتاب الذبائح والصيد، باب الأرنب،ح ٥٥٣٥، ومسلم ح ١٩٥٣.
وأثرنا : نَفَّرنا.

(٦٣) مغازي الواقدي ٢/٨١٦

فقال العباس : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.
قال : فتشهد شهادة الحق فأسلم[٦٤].

٣- عرض الجيش الإسلامي أمام أبي سفيان :

لما أسلم أبو سفيان في مَرّ الظهران، و أذن النبي ﷺ بتحرك الجيش الإسلامي نحو مكة، أمر العباس أن يأخذ أبا سفيان أمام الجيش ويحبسه عند مضيق الوادي إلى خطم الجبل بحيث يمر أمامه جميع الجيش على راياته وتشكيله العسكري، ليرى أبا سفيان قوة المسلمين واستعدادهم فييأس من المواجهة، وينقل الصورة كاملة لقريش، فتعجز عن المقاومة وتقبل الأمان وتستسلم لرسول الله ﷺ، فأخذه العباس إلى مضيق الوادي ثم عدل به إلى خطم الجبل فحبسه، فقال أبو سفيان : غدراً بني هاشم ؟ فقال العباس : إن أهل النبوة لا يغدرون ولكن لي إليك حاجة. فقال أبو سفيان : فهلا بدأت بها أولا ليكون أفرخ لروعي!! فقال العباس : لم أكن أراك تذهب هذا المذهب[٦٥].

وعبأ رسول الله ﷺ أصحابه، ومرت القبائل على قادتها، والكتائب على راياتها، فكان أول من قدّم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في بني سُليم وهم ألف فيهم لواء يحمله عباس ابن مرداس السُلمي، ولواء يحمله خفاف بن ندبة، وراية يحملها الحجاج بن علاط، فقال أبو سفيان: من هؤلاء يا عباس ؟ فيقول العباس: هؤلاء بنو سُليم. قال أبو سفيان: مالي ولسليم، فإذا حاذوه كبروا ثلاثاً ثم تمر القبيلة الأخرى، فيقول: من هؤلاء يا عباس ؟ فيقول : مزينة. قال أبو سفيان: مالي ولمزينة، حتى إذا نفدت القبائل ما تمر قبيلة إلا يسأل عنها، فإذا أخبره العباس يقول: ما لي ولبني فلان، حتى مرّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء (وإنما سميت الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها) من المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال : سبحان الله : يا عباس من هؤلاء ؟ قال العباس: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال : مالأحد بهؤلاء قبل و لا طاقة، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً قال العباس : يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: فنعم إذن[٦٦].

ولما مرت كتيبة الأنصار قال سعد بن عبادة لأبي سفيان : اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، فشكاه أبو سفيان إلى الرسول ﷺ، فعزله عن راية الأنصار وأعطاها الزبير بن العوام، كما في رواية موسى بن عقبة[٦٧].

---

(٦٤) ابن هشام ٤٤/٤
(٦٥) مغازي الواقدي ٨١٨/٢
(٦٦) ابن هشام، السيرة النبوية٤٤/٤، ٤٥ وعند البخاري بمعناه من مرسل عروة، حديث رقم (٤٢٨٠)
(٦٧) ابن كثير، السيرة ٥٥٠/٣

وفي رواية ذكرها الواقدي أن النبي ﷺ لما نزع الراية من سعد بن عبادة أعطاها لابنه قيس[٦٨].

قال ابن اسحاق : زعم بعض أهل العلم أن سعداً حين وجه داخلاً مكة قال : اليوم يوم الملحمة اليوم تستحل الحرمة، فسمعها رجل من المهاجرين قال ابن هشام : هو عمر بن الخطاب – فقال يا رسول الله : اسمع ما قال سعد بن عبادة، ما نأمن أن يكون له في قريش صولة. فقال رسول الله ﷺ لعلي : أدركه فخذ الراية منه فكن أنت الذي تدخل بها[٦٩].

دخول رسول الله ﷺ مكة وفتحها :

١- رجوع أبي سفيان إلى مكة بالأمان :

أرسل رسول الله ﷺ إلى أهل مكة بالأمان فقال : من دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل داره وأغلق بابه فهو آمن، فقال العباس : يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الشرف، فقال ﷺ : ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن[٧٠]. فرجع أبو سفيان إلى مكة فصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت زوجته هند بنت عتبه تلومه على ما جاء به وقالت : قُبّحت من طليعة قوم. قال : ويلكم لا تغركم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: وما تغني عنا دارك، قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد الحرام[٧١].

وفي رواية موسى بن عقبة أن رسول الله ﷺ قال : من دخل دار أبي سفيان فهو آمن - وكانت بأعلى مكة – ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن – وكانت بأسفل مكة – ومن أغلق بابه فهو آمن[٧٢]

وقد قبل عامتهم الأمان إلا بعض نفر فيهم عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية، وناس من بنى بكر وهذيل، تلبسوا السلاح ويقسمون لا يدخلها عليهم عنوة.

---

(٦٨) المغازي ٨٢٢/٢ وله شاهد في صحيح البخاري من مرسل عروة حديث (٤٢٨٠)

(٦٩) ابن هشام ، المصدر السابق ٤٨/٤

(٧٠) ابن هشام ٤٥/٤ وله شاهد من حديث أبي هريرة عند مسلم، كتاب الجهاد والسير ١٤٠٧/٣

(٧١) المصدر السابق ٤٥/٤ – ٤٦

(٧٢) ابن كثير، السيرة النبوية ٥٤٨/٣

٢- دخول رسول الله ﷺ والجيش الإسلامي مكة :

تحرك الجيش الإسلامي من معسكره في مر الظهران إلى ذي طوى فعسكروا بها حتى تلاحق الناس، ووقف النبي ﷺ على راحلته بذي طوى معتجراً بشقة برد حِبْرة حمراء، واضعاً رأسه حتى إن عثنونه يمس واسطة الرحل تواضعاً لله على ما أنعم به عليه[٧٣].

وعند البخاري من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل مكة يوم الفتح وعلى رأسه المغفر[٧٤]، وكان ﷺ راكباً على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يُرَجِّع، قال عبد الله بن مغفل : لولا يجتمع الناس حولي لرجَعت كما رجَع[٧٥].

وسأله أسامة بن زيد فقال : يا رسول الله أين ننزل غداً ؟ قال النبي ﷺ : وهل ترك لنا عقيل من منزل[٧٦] وفي حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله، الخيف حيث تقاسموا على الكفر[٧٧] والمراد حيث تقاسمت قبائل قريش على مقاطعة النبي ﷺ وبني هاشم وحصارهم في الشعب قبل الهجرة عند خيف بني كنانة، كما جاء في رواية أخرى لحديث أبي هريرة[٧٨]، وهو الأبطح. ويحدد الواقدي منزل النبي ﷺ زمن الفتح أنه بالأبطح وُجاه شعب أبي طالب حيث حصر رسول الله ﷺ[٧٩].

وقد قسّم النبي ﷺ جيشه إلى فرق ودخل مكة من أربع جهات[٨٠]:

١- أمر خالد بن الوليد أن يدخل من الليط (الحفاير) من أسفل مكة، وكان خالد على المجنبة اليمنى وفيها أسلم وسُلَيم وغِفار ومزينه وجهينه وقبائل العرب.

٢- وأمر الزبير بن العوام أن يدخل في بعض الناس من كُدى (جبل الكعبة) وكان على المجنبة اليسرى.

---

(٧٣) ابن هشام، السيرة ٤٦/٤ وله شاهد عند الحاكم في المستدرك ٤٧/٣ وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم.
(٧٤) المصدر نفسه حديث٤٢٨٥
(٧٥) المصدر نفسه حديث ٤٢٨١ والترجيع ترتيل القراءة ورفع الصوت بها.
(٧٦) المصدر نفسه حديث ٤٢٨٢
(٧٧) المصدر نفسه حديث ٤٢٨٤
(٧٨) المصدر نفسه حديث٤٢٨٥
(٧٩) مغازي الواقدي ٤٢٨/٢
(٨٠) ابن هشام،السيرة ٤٨/٤ و ٤٩ والأمر بالدخول من كداء، وكدى، في صحيح البخاري حديث ٤٢٨٠ و ٤٢٩٠ و ٤٢٩١

٣- وأمر سعد بن عبادة أن يدخل في بعض الناس من كداء (الحجون) من حيث قال حسان في شعره :

عدمنا خيلنا إن لم تروها   تثير النقع موعدها كداء[٨١]

٤- وتقدم أبو عبيدة بن الجراح بالصف - وهم المشاة - من المسلمين بين يدي رسول الله ﷺ حتى دخل من أذاخر، وأقبل حتى نزل بأعلى مكة وضربت لرسول الله هنالك قبة، وكانت في البطحاء عند مصب شعب أبي طالب.

وكان الزبير بن العوام قد سبق فركز الرايه عند أدنى بيوت مكة من البطحاء وهي أعلى مكة، وقد بني مسجد هناك فيما بعد سُمي مسجد الراية (مسجد خادم الحرمين الشريفين اليوم).

وركَز خالد بن الوليد رايته عند أدنى بيوت مكة من الجهة التي دخل منها وهي أسفل مكة، ومكان الراية اليوم مسجد خالد بن الوليد في حارة الشبيكة قبل الخروج من ريع الرسام.

وقد لقي خالد بن الوليد مقاومة مما اضطره للرد عليهم، وقُتِل من المشركين قرابة اثني عشر أو ثلاثة عشر رجلاً[٨٢] وقُتِل من أصحابه ثلاثة هم : خنيس بن خالد الخزاعي، وكرز بن جابر الفهري، وسلمة بن الميلاء الجهني. وطاردهم خالد حتى أوصلهم إلى الخندمة فانهزموا وقتلوا بالحزورة حتى بلغ قتلهم باب المسجد الحرام، وفي ذلك يقول حماس بن قيس بن خالد البكري الذي وعد زوجته بأن يخدمها بخادم من المسلمين إذا جاؤا مكة :

إنك لو شهدت يوم الخندمة   إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة
وأبو يزيد قائم كالمؤتمة   واستقبلتهم بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة   ضرباً فلا يسمع إلا غمغمه
لهم نهيت خلفنا وهمهمة   لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة[٨٣]

---

(٨١) البيهقي، دلائل النبوة ٦٦/٥

(٨٢) ابن هشام، السيرة ٥٠/٤ وفي مغازي موسى بن عقبة ص ٢٧٤ أن عدد القتلى من بني بكر قرابة العشرين، ومن هذيل ثلاثة أو أربعة.

(٨٣) المصدر السابق ٥٠/٤ وانظر تاريخ الطبري ٥٨/٣ والسيرة النبوية لابن كثير ٥٦٢/٣

ورأى النبي ﷺ بارقة السيوف فقال : ما هذا ؟ ألم أنه عن القتال ؟ فقالوا : خالد بن الوليد قوتل فقاتل، ولما انصرف الناس إلى بيوتهم والى المسجد الحرام توقف القتال[٨٤].

وفي رواية أبي هريرة رضي الله عنه عند مسلم أن رسول الله ﷺ قال له : اهتف لي بالأنصار، قال : فأطافوا به ووبّشت قريش أوباشاً لها وأتباعاً، فقال رسول الله ﷺ : ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم، ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى، ثم قال : حتى توافوني بالصفا.

قال : فا نطلقنا، فما شاء أحدمنا أن يقتل أحداً إلا قتله. وما أحد منهمْ يوجه إلينا شيئاً قال : فجاء أبو سفيان فقال : أبيحث خضراء قريش لا قريش بعد اليوم[٨٥].

فهذه الرواية فيها إشارة إلى إذن النبي ﷺ للأنصار بأن يقتلوا من يتعرض لهم حتى يلقوا رسول الله عند الصفا، ولكن الأنصار لم يجدوا مقاومة إلا شيئاً يسيراً لم يقف لهم.

وكان ﷺ قد أهدر دماء بعض الأشخاص وأمر بقتلهم ولو وجدوا متعلقين بأستار الكعبة وذلك بسبب جرائم ارتكبوها في حق الإسلام والمسلمين.

قال الحافظ ابن حجر: وقد جمعت أسماءهم من مفرقات من الأخبار وهم :

عبد العزى بن خطل، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث بن نقيد، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان كانتا تغنيان بهجاء النبي ﷺ، وسارة مولاة بني المطلب وهي التي وجد معها كتاب حاطب، والحارث بن طلاطل الخزاعي، وكعب بن زهير، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة، وأرنب مولاة ابن خطل، وأم سعد.

قال : فكملت العدة ثمانية رجال وست نسوة، ويحتمل أن تكون أرنب وأم سعد هما القينتان، اختلف في اسميهما أو باعتبار الكنية واللقب[٨٦].

وقد بين الحافظ ابن حجر مصير كل واحد منهم، فعبد العزى بن خطل، قتل وهو متعلق بأستار الكعبة، قتله سعيد بن حريث المخزومي وأبو برزة الأسلمي، اشتركا في قتله، وأما الحويرث فكان شديد الأذى لرسول الله ﷺ فقتله علي بن أبي طالب يوم

---

(٨٤) مغازي موسى بن عقبه ص٢٧٥ وانظر دلائل النبوة للبيهقي٥/٤٤ وفتح الباري ١١/٨

(٨٥) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ما جاء في فتح مكة ٣/١٤٠٦

(٨٦) فتح الباري ١١/٨ ويلاحظ أن الرجال المذكورين تسعة.

الفتح، وأما مقيس فكان أسلم ثم عدا على رجل من الأنصار فقتله ثم ارتد، فقتله نميلة بن عبد الله يوم الفتح، وأما هَبار فكان شديد الأذى للمسلمين، وعرض لزينب بنت رسول الله ﷺ لما هاجرت فنخس بعيرها فأسقطت، ولما كان يوم الفتح أعلن إسلامه فعفا عنه رسول ﷺ. وأما الحارث بن الطلاطل فقتله علي بن أبي طالب يوم الفتح، والقينتان استؤمن لإحداهما فأسلمت، وقتلت الأخرى، وأما سارة فأسلمت وعفا عنها رسول الله ﷺ وعاشت إلى خلافة عمر، وأما عبد الله بن سعد، وعكرمة بن أبي جهل فقد استؤمن لهما من رسول الله ﷺ فأمنهما، وأسلما، وكذلك كعب بن زهير، ووحشي، وهند بنت عتبة، لما أسلموا عفا عنهم رسول الله ﷺ، وكان ﷺ لا يرد أحداً جاءه مسلماً وشعاره يوم الفتح (اليوم يوم المرحمة).

وفي بعض ما ذكر الحافظ ابن حجر نظر، فإن عكرمة، وكعب بن زهير، ووحشي، لم يرد نص صحيح في إهدار دمائهم، ولكنهم خافوا وهربوا، ثم جاءوا تائبين مسلمين، فقبلهم رسول الله ﷺ، وهند جاءت مع عامة النساء وبايعت وهي خائفة لكن رسول الله ﷺ عفا عنها وقبل إسلامها.

الرسول ﷺ في مكة بعد الفتح :

١ - الطواف بالبيت :

كان النبي ﷺ قد نزل في القبة التي ضربت له بأعلى مكة في البطحاء، واغتسل هناك فقد أخرج ابن إسحاق، عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت : لما نزل رسول الله بأعلى مكة، فرّ إليّ رجلان من أحمائي من بني مخزوم، وكانت أم هانئ عند هبيرة بن أبي وهب المخزومي وهما - كما قال ابن هشام - : الحارث بن هشام، وزهير بن أبي أمية بن المغيرة. قالت : (فدخل عليّ أخي علي بن أبي طالب فقال : والله لأقتلنهما، فأغلقتُ عليهما باب بيتي، ثم جئت رسول الله ﷺ وهو بأعلى مكة، فوجدته يغتسل من جفنة - إن فيها لأثر العجين - وفاطمة ابنته تستره بثوبه، فلما اغتسل، أخذ ثوبه فتوشح به ثم صلى ثماني ركعات من الضحى، ثم انصرف إليّ فقال : مرحباً وأهلاً يا أم هانئ، ما جاء بك ؟ فأخبرته خبر الرجلين وخبر عليّ فقال : قد أجرنا من أجرت، وأمّنا من أمنت، فلا يقتلهما[٨٧]).

---

(٨٧) ابن هشام، السيرة ٥٤/٤ والخبر في صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ١٥٧/٢

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ اغتسل في بيتها وصلّى ثماني ركعات يوم فتح مكة.[٨٨]

وعند الواقدي عن عطاء قال : بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة لم يدخل بيوت مكة، اضطرب بالأبطح (إي ضربت له خيمة) في عمرة القضية، وعام الفتح، وفي حجته[٨٩]) وذكر أنه كان يأتي لكل صلاة – أي إلى المسجد الحرام –، ومعه في فتح مكة من زوجاته ؛ أم سلمة، وميمونة[٩٠].

ولما اطمأن الناس خرج ﷺ من منزله حتى جاء البيت فطاف به سبعاً على راحلته، يستلم الركن بمحجن في يده[٩١] ويعطي الواقدي – على عادته – تفاصيل أوسع فيقول[٩٢]: مكث رسول الله ﷺ في منزله ساعة من نهار حتى أطمأن واغتسل، ثم دعا براحلته القصواء فأدنيت إلى باب قبته، ودعا للبس السلاح، والمغفر على رأسه، وقد صفَّ له الناس. فركب راحلته، والخيل تموج بين الخندمة والحجون، ومَرّ رسول الله ومعه أبو بكر ببنات أبي أحيحة بالبطحاء حذاء منزل أبيهن، وقد نشرن رؤسهن يلطمن وجوه الخيل بالخمر، فنظر رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فتبسم وذكر بيت حسان بن ثابت فأنشده أبو بكر

تظل جيادنا متمطرات ... يلطمهن بالخمر النساء

وكان ﷺ قد بعث عمر بن الخطاب من البطحاء ومعه عثمان بن طلحة، وأمره أن يتقدم فيفتح البيت فلا يدع صورة إلا محاها، وكان فيه صور الملائكة، وصور إبراهيم يستقسم بالأزلام، وصورة مريم بنت عمران[٩٣].

---

(٨٨) الصحيح، كتاب المغازي، باب منزل النبي ﷺ يوم الفتح، حديث ٤٢٩٢

(٨٩) المغازي ٨٢٩/٢

(٩٠) المصدر نفسه ٨٢٩/٢

(٩١) ابن هشام، السيرة ٥٤/٤ وطواف النبي ﷺ يوم الفتح على راحلته في صحيح البخاري، حديث رقم ٤٢٨٩

(٩٢) المغازي ٨٣١/٢ – ٨٣٥

(٩٣) إرسال عمر لمحو الصور من الكعبة ذكره الإمام أحمد في المسند كما عند ابن كثير ٥٧١/٣ وله شاهد في صحيح البخاري من حديث عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله لما قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأخرجت، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل وفي أيديهما الأزلام فقال : قاتلهم الله !! لقد علموا ما ستقسما بها قط (كتاب المغازي حديث ٤٢٨٨).

وقد جاء رسول الله ﷺ إلى الكعبة على راحلته فاستلم الركن بمحجنه وكبر، فكبر المسلمون لتكبيره، فرجعوا التكبير حتى ارتجت مكة تكبيراً، حتى جعل رسول الله يشير لهم : اسكتوا - والمشركون فوق الجبال ينظرون - ثم طاف رسول الله ﷺ على راحلته وأخذ بزمامها محمد بن مسلمة، فلما فرغ من طوافه نزل رسول الله عن الراحلة وأخذها معمر بن عبد الله بن نضلة فأخرجها عن المسجد، وتقدم رسول الله إلى المقام فصلى خلفه، ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها وقال : لولا أن يغلبكم الناس لنزعت معكم، فنزع له العباس بن عبد المطلب دلواً فشرب منه، ثم طلب مفتاح الكعبة وأحضره عثمان بن طلحة وهو من الحجبة - وكان قد أسلم بعد الحديبية - وأخذه منه ثم فتح باب الكعبة ودخل ﷺ ومعه أسامة بن زيد، وبلال، وعثمان بن طلحة، وأجاف بلال عليهم الباب، فمكث فيها ما شاء، ورأى بقايا صور فأمر أسامة أن يحضر له دلواً من ماء فأخذ ﷺ يبل الثوب ويضرب به الصور حتى زال أثرها ويقول (قاتل الله قوماً يصورون ما لا يخلقون) وكبر ﷺ في نواحي الكعبة، وكانت على ستة أعمدة، ثم تقدم وجعل عمودين عن يمينه وعموداً عن يساره وثلاثة أعمدة وراءه وصلى[٩٤]، ثم خرج رسول الله ﷺ ووقف على الباب والمفتاح في يده ثم جعله في كمّه، وأمسك بعضادتي الباب، وأشرف على الناس وقد حضروا له وهم جلوس حول الكعبة، فخطب فيهم - كما سيأتي تفصيله - وأعطى المفتاح لعثمان بن طلحة وهو يتلو قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾[٩٥] ثم قال: خذوها يا بني أبي طلحة تالدة خالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم[٩٦]

وقد تعرض ﷺ لمحاولة اغتيال وهو يطوف بالبيت، حيث ذكر ابن هشام أن فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أراد قتل النبي ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال رسول الله ﷺ : (أفضالة ؟ قال : نعم فضالة يا رسول الله. قال : ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله، قال : فضحك النبي ﷺ ثم قال : استغفر الله، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليّ منه[٩٧])

---

(٩٤) ابن كثير، السيرة ٥٧٥/٣ . ومعنى أجاف الباب : أغلقه.
(٩٥) سورة النساء : ٥٨
(٩٦) الأزرقي، أخبار مكة ٣٧٠/١ بإسناد مرسل، وأخرجه عبد الرزاق في المصنف ٨٥/٥
(٩٧) السيرة النبوية ٥٩/٤ والذي يظهر أن هذه المحاولة ليست أثناء الطواف الأول عندما كان على راحلته وإنما في طواف آخر، أو بعد الفراغ من الطواف والنزول عن الراحلة

٢- تحطيم الأصنام :

روى البخاري من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد(٩٨)

وعند ابن هشام من حديث ابن عباس رضي الله عنه تفصيل أكثر حيث قال : دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على راحلته فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص (أي مثبتة في الأرض بالرصاص) فجعل النبي ﷺ يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول : جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(٩٩)

فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم إلا وقع، فقال تميم بن أسد الخزاعي في ذلك :

وفي الأصنام معتبر وعلم ... لمن يرجو الثواب أو العقابا(١٠٠)

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : وأقبل رسول الله ﷺ حتى استلم الحجر ثم طاف بالبيت فأتى إلى صنم إلى جانب البيت كانوا يعبدونه، وفي يد رسول الله ﷺ قوس، وهو آخذ بسية(١٠١) القوس فلما أتى على الصنم جعل يطعن في عنقه ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا (١٠٢).

ويحدد الواقدي(١٠٣) مواقع بعض الأصنام فيقول : وكان هبل أعظمها وهو وجاه الكعبة على بابها، قلت : ولعله المراد بحديث مسلم الصنم الذي طعنه النبي ﷺ بقوس في عنقه.

وأما إساف ونائلة فهما بقرب زمزم حيث ينحرون ويذبحون الذبائح عندهما.

ولما كُسِر هبل و النبي ﷺ واقف عليه قال الزبير لأبي سفيان بن حرب : يا أبا سفيان قد كُسِر هبل، أما إنك كنت منه يوم أحد في غرور حين تزعم أنه قد أنعم، فقال أبو سفيان : دع هذا عنك يا ابن العوام، فقد أرى لو كان مع إله محمد غيره لكان غير

---

(٩٨) صحيح البخاري، كتاب المغازي، حديث ٤٢٨٧ وأخرجه مسلم، كتاب الجهاد والسير، حديث ٨٧ ص ١٤٠٨

(٩٩) سورة الإسراء أية ٨١

(١٠٠) السيرة النبوية ٥٩/٤ وانظر سيرة ابن كثير ٥٧٢/٣

(١٠١) سية القوس : ما عطف من طرفي القوس.

(١٠٢) كتاب الجهاد والسير، حديث ٨٤ ص ١٤٠٦

(١٠٣) المغازي ٨٣٢/٢

ما كان. وفي رواية يونس بن بكير، عن ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ لما دخل الكعبة وجد فيها حمامة من عيدان فكسرها ثم قام على باب الكعبة ورمى بها[(١٠٤)].

وأخرج البيهقي عن ابن أبزى قال : لما افتتح رسول الله ﷺ مكة جاءت عجوز حبشية شمطاء تخمش وجهها وتدعو بالويل، فقيل يا رسول الله : رأينا عجوزاً شمطاء حبشية تخمش وجهها وتدعو بالويل، فقال : تلك نائلة أيست أن تعبد ببلدكم هذا أبداً[(١٠٥)]

وقد أمر ﷺ أن لا يبقى صنم عند أحد إلا كسره، فجعل المسلمون يكسرون تلك الأصنام؛ وكان عند هند بنت عتبة صنم في بيتها فجعلت تضربه بالقدوم حتى صار قطعاً وهي تقول : كنا منك في غرور[(١٠٦)].

٣- خطبة الرسول ﷺ يوم الفتح :

تدل المصادر على تعدد خطب النبي ﷺ عند فتح مكة حسب المناسبات والحاجات، فكانت أول خطبة بعد خروجه من جوف الكعبة، حيث وقف على باب الكعبة وقد جُمع الناس له فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة[(١٠٧)] أو دم أو مال[(١٠٨)] يُدّعى فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحجاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش : إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم و آدم من تراب. ثم تلا هذه الآية ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[(١٠٩)] ثم قال : يا معشر قريش : ما ترون أني فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال : أذهبوا فأنتم الطلقاء[(١١٠)]. هكذا ذكر ابن إسحاق، أما غيره فذكر أن النبي ﷺ قال لهم : فإني

---

(١٠٤) البيهقي، دلائل النبوة ٧٤/٥

(١٠٥) المصدر السابق ٧٥/٥ وهو مرسل، وانظر سيرة ابن كثير ٥٧٢/٣.

(١٠٦) الواقدي، المغازي ٨٧٠/٢ و ٨٧١

(١٠٧) المأثرة : المنقبة التي يتفاخر بها

(١٠٨) المراد المال المترتب على الربا فإنه موضوع

(١٠٩) سورة الحجرات آية ١٣

(١١٠) ابن هشام، السيرة النبوية ٥٥/٤ وللخطبة شاهد عند أبي داود ٤٩٢/٢ والترمذي ٦٤/٥ ومسند أحمد ١١/٢ برقم ٤٥٨٣ عدا قوله : اذهبوا فأنتم الطلقاء.

أقول لكم كما قال أخي يوسف ﷺ (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ(١١١))

= وروى الإمام أحمد من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : لما فتحت مكة على رسول الله ﷺ قال : كفوا السلاح إلا خزاعة من بني بكر، فأذن لهم حتى صلوا العصر، ثم قال : كفوا السلاح. فلقي رجل من خزاعة رجلاً من بني بكر من غدٍ بالمزدلفة فقتله، فبلغ رسول الله ﷺ فقام خطيباً فقال :- ورأيته مسنداً ظهره إلى الكعبة – إن أعدى الناس على الله من قَتَل في الحرم، أو قَتَل غير قاتله، أو قَتَل بذحول(١١٢) الجاهلية. فقام إليه رجل فقال : إن فلاناً ابني، فقال رسول الله ﷺ لا دعوة في الإسلام، ذهب أمر الجاهلية، الولد للفراش وللعاهر الأثلب، قالوا : وما الأثلب ؟ قال : الحجر، قال: وفي الأصابع عشر عشر، وفي المواضح خمس خمس. قال : ولا صلاة بعد الغداة حتى تطلع الشمس، ولا صلاة بعد العصر حتى تغرب الشمس، قال : ولا تنكح المرأةُ على عمتها ولا على خالتها، ولا يجوز لامرأة عطية إلا بإذن زوجها(١١٣)

=وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن خزاعة قتلت رجلاً من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية، فقام رسول الله ﷺ فقال : إن الله حبس عن مكة الفيل وسلّط عليها رسوله والمؤمنين، ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي، ألا وإنما أحلت لي ساعة من نهار، ألا وإنها ساعتي هذه حرام، لا يُختلى شوكها، ولا يعضد شجرها، ولا يَلتقط ساقطتها إلا منشد، ومن قتل له قتيل فهو بخير النظرين، إما أن يودى، وإما أن يقاد. فقام رجل من قريش فقال : يا رسول الله إلا الإذخر فإنما نجعله في بيوتنا وقبورنا، فقال رسول الله ﷺ : إلا الإذخر(١١٤)) وفي جامع الترمذي

---

(١١١) أبو عبيد، الأموال ص ١٤٣ و البيهقي في دلائل النبوة ٨٥/٥، والآية من سورة يوسف ٩٢ و انظر الواقدي،المغازي ٨٣٦/٢.

(١١٢) الذحل : الحقد والعداوة، يقال : طلب بذحله، أي بثأره، والجمع ذحول (الجوهري، الصحاح، باب اللام، فصل الذال)

(١١٣) المسند ١٨٠/٢ حديث رقم ٦٦٨١ والحديث قال عنه الألباني : حسن صحيح، وقال شعيب : الحديث حسن ولبعضه شواهد يصح بها. ومعنى في الأصابع عشر عشر: أي في كل أصبع عشر من الإبل. والمواضح جمع موضحة، وهي الشجة التي توضح عن العظم، وفيها خمس من الإبل.

(١١٤) صحيح البخاري، كتاب الديات، حديث رقم (٦٨٨٠) ومسلم، كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها ٩٨٩/٢ وبنحوه في صحيح البخاري، كتاب جزاء الصيد، حديث رقم (١٨٣٢) من حديث أبي شريح الخزاعي وكذا برقم (١٨٣٣) من رواية ابن عباس.

زيادة وهي قوله ﷺ : يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل، فقد كثر أن يقع، لقد قتلتم قتيلا لأدينه، فمن قُتِل بعد يومي هذا فهو بخير النظرين: إن أحب فدم قاتله، وإن أحب فعقله[١١٥]

=ومن حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ خطب فقال : إن الله ورسوله حَرّم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام، فقيل يا رسول الله : أرأيت شحوم الميتة فإنه يطلى به السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس، فقال : لا، هو حرام. ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك : قاتل الله اليهود، إن الله لما حَرّم عليهم شحومها، أجملوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه[١١٦]

=وأخرج البيهقي من طريق ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ خطب الناس عام الفتح ثم قال : أيها الناس إنه لا حلف في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لا يزيده إلا شدة، والمؤمنون يَدٌ على من سواهم، يجير عليهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، تَرُدُّ سراياهم على قعيدتهم، لا يقتل مؤمن بكافر، دية الكافر نصف دية المسلم، لا جَلَبَ ولا جنب، ولا تؤخذ صدقاتهم إلا في دورهم[١١٧]

=وأخرج البخاري في صحيحه، حديث عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها، أن امرأة سرقت في غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه، فلما كلمه أسامة فيها تلون وجهُ رسول الله ﷺ فقال : أتكلمني في حد من حدود الله ؟ فقال أسامة، استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيباً، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال : أما بعد، فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) ثم أمر بتلك المرأة فقطعت يدها، فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت. قالت عائشة : فكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ [١١٨].

---

(١١٥) جامع الترمذي، كتاب الديات، حديث رقم (١٤٠٦) والعقل : الدية.

(١١٦) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب بيع الميته والأصنام، حديث (٢٢٣٦) ومسلم، كتاب المساقاه، باب تحريم بيع الخمر ١٢٠٧/٣

(١١٧) دلائل النبوة ٨٦/٥. ومعنى لا جلب و لا جنب : أن عامل الزكاة يأتي للناس في محالهم فلا تجلب الماشية ولا تجنب له.

(١١٨) الصحيح، كتاب المغازي، حديث ٤٣٠٤ وفي كتاب الأنبياء، والحدود، ومسلم، كتاب الحدود، حديث (١٦٨٨).

٤- مبايعة أهل مكة :

بعد تطهير الحرم من الأصنام وخطبة النبي ﷺ الأولى جاءه الناس يبايعون، الرجال والنساء والصبيان، فكان يبايعهم على الإسلام والإيمان والخير والجهاد، فقد جاء مجاشع بن مسعود السُلمي بأخيه مجاهد، وكان أسَنّ منه وقال يا رسول الله : جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة، فقال ﷺ : ذهب أهل الهجرة بما فيها. فقلت على أي شيء تبايعه ؟ قال : أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد[١١٩] وفي رواية لمسلم: إن الهجرة قد مضت لأهلها ولكن على الإسلام والجهاد والخير.

وفي حديث ابن عباس عند البخاري (أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا[١٢٠]) وفي مسند الإمام أحمد أن رسول الله جلس للناس عند قرن مسقلة، فبايع الناس على الإسلام والشهادة (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله[١٢١])

وكان ﷺ يبايع النساء بالكلام من غير مصافحة وعلى مافي سورة الممتحنة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١٢٢]

وكان ﷺ يمسح على رؤوس الأطفال وعلى وجوههم[١٢٣]، وقد جاء الصديق رضي الله عنه بأبي قحافة - وكان قد كف بصره - فأعلن إسلامه، وفرح النبي ﷺ بذلك وهنأ الصديق بإسلام أبيه[١٢٤].

بعض أعمال النبي ﷺ وقضاياه في مكة :

وفي مدة إقامته ﷺ في مكة قام بعدد من الأعمال وحكم وأفتى في عدد من القضايا. ومن أعماله ﷺ :

---

(١١٩) أخرجه البخاري في صحيحه ٩٣/٥ كتاب الجهاد، وفي المغازي برقم ٤٣٠٧ و ٤٣٠٨، ومسلم، في كتاب الجهاد ١٤٠/٢

(١٢٠) صحيح البخاري، كتاب الجهاد، حديث رقم ٣٠٧٧

(١٢١) المسند ٤١٥/٣ وهو حديث حسن

(١٢٢) المسند (٦٤/٢١ من الفتح الرباني) والآية رقم ١٢

(١٢٣) صحيح البخاري ١٩١/٥ والمسند ٤٣٢/٥

(١٢٤) ابن هشام، السيرة ٤٦/٤ ورواه الحاكم في المستدرك ٤٦/٣ وقال : صحيح على شرط مسلم، وتابعه الذهبي.

١ – تجديد أعلام الحرم :

فقد أمر ﷺ بتجديد أعلام الحرم، وأسند ذلك إلى تميم بن أسد الخزاعي. وكان أول من نصب أنصاب الحرم إبراهيم عليه السلام وجبريل يريه ذلك، ثم جددها إسماعيل ثم جددها قصي بن كلاب، ثم لم تحرك حتى جددها النبي ﷺ يوم فتح مكة(١٢٥).

قال الواقدي : وكل وادٍ في الحرم يسيل في الحلّ، ولا يسيل وادٍ من الحل في الحرم إلا موضع واحد عند التنعيم(١٢٦).

وفي كتاب الأزرقي، والفاكهي، تفصيلات دقيقة عن أعلام الحرم وحدوده، وقياس المسافات من الكعبة إلى الأعلام(١٢٧).

٢– الولاية على مكّة :

لما خرج رسول الله ﷺ من مكّة إلى حنين استخلف عليها عتّاب بن أسِيد – بفتح الهمزة– بن أبي العيص بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان عمره واحداً وعشرين سنة. وقال له: أتدري على من استعملتك ؟ استعملتك على أهل الله، فاستوص بهم خيرا(١٢٨). وجعل معه معاذ بن جبل الأنصاري إماماً ومقرئاً ومعلما(١٢٩).

وعند ابن سعد : أنه استخلف أولاً : هبيرة بن شبل بن العجلان الثقفي، فلما رجع من الطائف استخلف عتاب بن أسيد(١٣٠).

وذكر ابن سعد : أن رسول الله ﷺ استعمل سعيد بن سعيد بن العاص بن أميّة على سوق مكّة حين فتحها، فلما خرج إلى الطائف خرج معه سعيد بن سعيد فاستشهد بالطائف(١٣١).

وأمر رسول الله ﷺ أبا محذورة القرشي الجمحي (أوس بن معْير بن لوذان بن سعد) بالأذان، حيث سمعه مع غلمة يحاكي الأذان فأعجبه صوته، فطلبه وأجلسه

---

(١٢٥) مغازي الواقدي ٨٤٢/٢
(١٢٦) المصدر نفسه
(١٢٧) انظر أخبار مكة للأزرقي ٦٨٦/٢ وأخبار مكة للفاكهي ٢٧٣/٢ وانظر تفصيلاً أكثر في بحث الشيخ عبد الملك بن دهيش، أعلام الحرم وحدوده.
(١٢٨) ابن هشام، السيرة ١٣٩/٤، وابن سعد، كتاب الطبقات الكبير ١٢٨/٢، والفاسي، شفاء الغرام ٢٥٢/١.
(١٢٩) المصدر السابق ١٣٩/٤، وانظر الفاسي، شفاء الغرام ٢٥١/٢.
(١٣٠) كتاب الطبقات الكبير ١٣٥/٢.
(١٣١) كتاب الطبقات الكبير ١٣٤/٢.

أمامه، وألقى عليه الأذان حرفاً حرفاً، ثم دعا له وأمره أن يؤذن بالحرم، فمازال مؤذنا حتى مات سنة ٥٩هـ وقيل سنة ٧٩هـ[١٣٢]، وتعليم النبي ﷺ الأذان لأبي محذورة، في صحيح مسلم، وسنن الترمذي[١٣٣].

ومن القضايا التي حكم فيها :

١- قضية في النسب :

قضى ﷺ في مسألة رفعت إليه في النسب، فقد روى عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عتبة بن أبي وقاص، عهد إلى أخيه سعد، أن يقبض ابن وليدة زمعة، وقال: إنه ابني. فلما قدم رسول الله ﷺ مكة في الفتح أخذ سعد بن وليدة زمعة فأقبل به إلى النبي ﷺ، وأقبل معه عبد بن زمعة، فقال سعد بن أبي وقاص: هذا ابن أخي عهد إليّ أنه ابنه. فقال عبد بن زمعة : يا رسول الله هذا أخي، هذا ابن وليدة زمعة ولد على فراشه، فنظر رسول الله ﷺ إلى ابن وليدة زمعة فإذا أشبه الناس بعتبة بن أبي وقاص، فقال رسول الله ﷺ : هو لك، وهو أخوك يا عبد بن زمعة) من أجل أنه ولد على فراشه، وقال رسول الله ﷺ : احتجبي منه يا سودة، لما رأى من شبه عتبة بن أبي وقاص. قال ابن شهاب : قالت عائشة : قال رسول الله ﷺ : الولد للفراش وللعاهر[١٣٤] الحجر. قال ابن شهاب : وكان أبوهريرة يصيح بذلك[١٣٥].

٢- البيان أنّه لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم :

أخرج البخاري ومسلم في صحيحهما حديث أسامة بن زيد } أنّه سأل النبي ﷺ في فتح مكّة قائلاً يا رسول الله : أتنزل في دارك بمكّة ؟ فقال : وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟ وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالبُ، ولم يرثه جعفرٌ ولا عليٌّ شيئاً، لأنهما كانا مسلمين، وكان عقيل وطالب كافرين)[١٣٦].

---

(١٣٢) انظر ترجمته في ابن عبد البر، الاستيعاب ١٣٢/١٢، وابن الأثير، أسد الغابة ٢٧٨/٥، وابن حجر، الإصابة : ١٢/١٢، وانظر الفاسي، العقد الثمين ٩٩/٨.

(١٣٣) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب صفة الأذان حديث رقم : ٣٧٩، وسنن الترمذي، كتاب أبواب الصلاة، باب ١٤٠ (الترجيع في الأذان) حديث رقم : ١٩١.

(١٣٤) العاهر : الزاني

(١٣٥) صحيح البخاري، كتاب المغازي حديث رقم ٤٣٠٣ ورواه في مواطن أخرى برقم ٢٠٥٣ و ٢٢١٨ و٢٤٢١ و ٢٥٣٣

(١٣٦) صحيح البخاري، كتاب الحج، باب توريث دور مكّة حديث رقم: ١٥٨٨ وأخرجه في مواطن أخرى برقم: ٣٠٥٨ و٤٢٨٢. وصحيح مسلم، كتاب الحج، باب النزول بمكّة وتوريث دورها حديث رقم : ٤٣٩/١٣٥١ و ٤٤٠.

٣- قضاء النبي ﷺ لهند بنت عتبة أن تأخذ من مال زوجها بالمعروف :

أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث عائشة رضي الله عنها، أن هند بنت عتبة أم معاوية، قالت لرسول الله ﷺ : إن أبا سفيان رجل شحيح، فهل عليَّ جناح أن آخذ من ماله سراً ؟ قال : خذي أنت وبنوكِ ما يكفيك بالمعروف[١٣٧].

السرايا بعد فتح مكة :

بعث النبي ﷺ بعد فتح مكّة سرايا حول مكّة للدعوة وتعليم الناس الإسلام وإزالة آثار الشرك والجاهليّة، ومن أبرزها الأصنام التي كانت تعبد من دون الله، ومن تلك البعوث:

١- سريّة خالد بن الوليد لهدم العزّى:

بعث النبي ﷺ في الخامس والعشرين من شهر رمضان خالد بن الوليد ﷺ في ثلاثين فارساً لهدم صنم العُزّى، وهي من أعظم أصنام العرب، وكانت بنخلة الشاميّة، تعظمها قريش وكنانة ومضر كلها، وكان سدنتها من بني شيبان من بني سليم حلفاء بني هاشم، وهي ثلاث سمرات وعليها بناء، فلما جاءها خالد هرب السادن في الجبل، فقطع خالد السمرات وهدم البناء، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : ارجع فإنك لم تصنع شيئاً، فرجع خالد، فلما رآه السدنة هربوا في الجبل وهم يقولون : يا عزى خبليه، يا عزى عوريه، وإلا فموتي، فنظر خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثوا التراب على رأسها ووجهها، فضربها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى النبي ﷺ فأخبره. فقال : تلك العُزّى[١٣٨].

٢- سريّة عمرو بن العاص لهدم سواع :

بعث النبي ﷺ في شهر رمضان سنة ثمان سرية بقيادة عمرو بن العاص لهدم صنم سواع، وكان في رهاط، وتعظمه هذيل، فسار عمرو ﷺ حتى انتهى إليه وعنده السادن فقال : ما تريد ؟ قال عمرو : أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه. قال : لا تقدر

(١٣٧) صحيح البخاري، كتاب البيوع حديث رقم : ٢٢١١ وأخرجه في مواطن أخرى منها رقم : ٢٤٦٠، ٣٨٢٥،وصحيح مسلم، كتاب الأقضيّة، باب قضيّة هند، حديث ٧/١٤١٧، وانظر دلائل النبوة للبيهقي ٥/١٠٠ وما بعدها.

(١٣٨) ابن هشام، السيرة ٤ / ٧٩، والواقدي، المغازي ٢ / ٨٧٠، وابن سعد، كتاب الطبقات الكبير ٢ / ١٣٥، والبيهقي، دلائل النبوة ٥ / ٧٧، وابن كثير، السيرة النبويّة ٣ / ٥٩٧.

على ذلك. قال عمرو : ولِمَ ؟ قال : تُمنع ! قال : حتى الآن أنت في الباطل !! ويحك وهل يسمع أو يبصر ! قالَ : فدنوت منه وكسرته، وأمرت أصحابي فهدموا البيت.

ثم قلت للسادن : كيف رأيت ؟ قال : أسلمت لله.(١٣٩)

٣- سريّة سعد بن زيد لهدم مناة :

بعث النبي ﷺ في شهر رمضان سنة ثمان سرية بقيادة سعد بن زيد الأنصاري الأشهلي في عشرين فارساً لهدم صنم مناة، وكانت بالمشلل من قديد، وأكثر من يعظمها الأوس والخزرج، فلما انتهى إليها وعليها سادن، قال السادن : ما تريد ؟ قال : هدم مناة. قال : أنت وذاك ! فخرجت من الصنم امرأة سوداء عريانة تدعو بالويل وتضرب صدرها، فضربها سعد ﷺ حتى قتلها، ثم أقبل على الصنم فهدمه، ولم يجد في خزانته شيئاً فرجع إلى النبي ﷺ.(١٤٠)

٤- سريّة خالد بن الوليد إلى بني جذيمة :

كان ذلك في شهر شوال من السنة الثامنة، ومعه ثلاثمائة وخمسون من الصحابة، وأمره النبي ﷺ بأن يكون داعياً لا مقاتلا، فخرج ﷺ إلى جنوب مكة قاصداً بني جَذيمة - بفتح الجيم وكسر المعجمة - ابن عامر بن عبد مناة بن كنانة(١٤١)، وكانوا ناحية يلملم، بمكان يسمّى الغميصاء(١٤٢). فلما وصل إليهم دعاهم إلى الإسلام لكنهم استعدّوا بالقتال وحملوا السلاح، وقالوا كما في لفظ حديث ابن عمر عند البخاري (فلم يحسنوا أن يقولوا : أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا)(١٤٣)، فأخبرهم خالد أن الناس قد أسلموا، وعليهم أن يضعوا السلاح، فأعطوا بأيديهم بعد المحاربة، واستأسروا وكتف بعضهم بعضاً، فأعطى خالد كل أسير إلى رجل من أصحابه، حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل أسيره، فاعترض عبد الله بن عمر فلم يقتل أسيره ولا من أطاعه من أصحابه(١٤٤)، حيث فهم كما في سياق حديثه

(١٣٩) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير ٢ / ١٣٥، وابن جرير، تاريخ الطبري ٣ / ٦٦، وابن سيد الناس، عيون الأثر ٢ / ٢٣٨.

(١٤٠) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير ٢ / ١٣٦، وابن جرير، تاريخ الطبري ٣ / ٦٦، وابن سيد الناس، عيون الأثر ٢ / ٢٣٨.

(١٤١) انظر البيهقي، دلائل النبوة ١١٣/٥، وابن حجر، فتح الباري ٥٧/٨.

(١٤٢) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير ٢ / ١٣٦، وابن جرير، التاريخ ٦٦/٣، والسهيلي، الروض الأنف ٧ / ٢٦٤، وابن سيد الناس، عيون الأثر ٢٣٩/٢.

(١٤٣) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث خالد إلى بني جذيمة،حديث رقم : ٤٣٣٩.

(١٤٤) المصدر نفسه.

أنهم أسلموا لكنهم لم يحسنوا النطق فقالوا : صبأنا، بينما فهم خالد من ذلك أنهم يستهزئون بالمسلمين ولذا أمر بقتلهم فقتلوا. ولما بلغ الأمر إلى رسول الله ﷺ رفع يديه إلى السماء فقال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد، مرتين [١٤٥]. ثم أمر علي بن أبي طالب ﷺ أن يأتي بني جذيمة ويصلح الوضع وأعطاه مالاً، فدفع ديات القتلى لأوليائهم، وعوضهم عن كل شيء فقدوه حتى ميلغة الكلب، وزاد مال مما معه فأعطاه لهم احتياطاً وصلة [١٤٦].

٥- سريّة الطفيل بن عمرو لهدم صنم ذي الكفين :

هذه السرية ذكرها ابن سعد في شهر شوال سنة ثمان قبل خروج النبي ﷺ إلى الطائف حيث أمر الطفيل بن عمرو الدوسي أن يسير إلى ذي الكفين (صنم عمرو بن حممة الدوسي) فيهدمه، ويستمد قومه وكانوا قد أسلموا، ويوافيه بالطائف، فخرج الطفيل سريعاً وهدم الصنم وحرقه وهو يقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا

ميلادنا أقدم من ميلادكا

إني حششت النار في فؤادكا

واستنفر قومه فنفر معه منهم أربعمائة، ووافوا النبي ﷺ بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام ومع الطفيل دبابة ومنجنيق [١٤٧].

٦- سرايا أخرى :

ذكر الواقدي في المغازي [١٤٨]: أن رسول الله ﷺ لما فتح مكّة بث السرايا في كل وجه، وأمرهم أن يغيروا على من لم يكن على الإسلام، فخرج هشام بن العاص بن وائل السهمي في مئتين قبل يلملم، وخرج خالد بن سعد بن العاص الأموي في ثلاثمائة قبل عُرَنة، ولم يذكر أي تفاصيل عن هاتين السريتين، وقد تفرد بذكر ذلك عن بقيّة كتاب المغازي والسير، فلم يذكرهما ابن إسحاق، ولا تلميذ الواقدي ابن سعد، ولا الصالحي صاحب سبل الهدى والرشاد مع تبحره واستقصائه، ولم أجد في ترجمتيهما

(١٤٥) المصدر نفسه.

(١٤٦) ابن هشام، السيرة ٧٣/٤، وميلغة الكلب : الإناء الذي يسقى فيه ويطعم.

(١٤٧) ابن سعد، كتاب الطبقات الكبير ١٤٥/٢، وابن سيد الناس، عيون الأثر ٢٥٨/٢.

(١٤٨) الواقدي، المغازي، ٨٧٣/٣.

ما يدل على ذلك، سوى ما ذكره ابن حجر في ترجمة هشام بن العاص من أن النبي ﷺ بعثه في سرية في رمضان عام الفتح، ونسبه للواقدي[١٤٩].

الدروس والعبر من الفتح الأعظم :

١- خرج صلى الله عليه وسلم من مكة وهي أحب البلاد إليه، وقد أعلمه الله أنه سيعود إليها، ولذا عمل صلى الله عليه وسلم على تهيئة هذا الفتح، بنشر الإسلام وتقوية الجبهة الإسلامية لمواجهة حلف المشركين، وبعد انفضاض الأحزاب عن حصار المدينة في السنة الخامسة من الهجرة أعلن عليه الصلاة والسلام إستراتيجيته للمواجهة في السنوات القادمة فقال : اليوم نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم [١٥٠]. أي أنه سيحاصر العدو وينقل المعركة إليه.

٢- أعلن صلى الله عليه وسلم في شهر ذي القعدة من السنة السادسة أنه خارج إلى مكة يريد العمرة وتعظيم البيت الحرام، وساق الهدي لينحر في مكة؛وهذا الموقف سيحرج قريشاً ،ويكشف أنها ليست أهلاً لرعاية البيت الحرام إذا صدّت من جاء معظماً له، مما يساعد في التضييق عليها وخروج حلفائها عنها.

٣- لما عُرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدنة والصلح قبله، لأنه يريد أن يهدئ النفوس الثائرة حتى تتمكن من النظر الصحيح في دعوة التوحيد، ولهذا سمى الله صلح الحديبية فتحاً مبيناً ، وقد بان أثر هذا الصلح في سعة انتشار الإسلام، ودخول قبائل بأكملها فيه حتى قال الإمام الزهري : فما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلّم أحد بالإسلام يعقل إلا دخل فيه، ولقد دخل في تلك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك[١٥١] قال ابن هشام : والدليل على قول الزهري أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قد خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر بن عبد الله ،. ثم خرج في عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[١٥٢].

---

(١٤٩) ابن حجر، الإصابة ٥٤١/٦.

(١٥٠) ابن هشام، السيرة النبوية ٣٥٢/٣ والحديث في صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق حديث رقم ٤١١٠

(١٥١) ابن هشام، السيرة النبوية ٤٤٧/٣.

(١٥٢) المصدر نفسه ٤٤٨/٣.

٤- حافظ صلى الله عليه وسلم على احترام العهد، لكن جاء النقض من قريش بمعاونتها لحلفائها بني بكر على حلفائه خزاعة، فلما وقع منها النقض استبشر صلى الله عليه وسلم بفتح مكة وقد تهيأت الأحوال خلال سنتي الهدنة، ولهذا قال : نصرت يا عمرو بن سالم(١٥٣) ونظر إلى سحابة في السماء ثم قال : إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب(١٥٤).

٥- الاستعداد لفتح مكة بما يليق به، فقد أخفى صلى الله عليه وسلم أمره، ودعا الله أن يحبس الأخبار عن قريش حتى يفاجئهم قبل أن يستعدوا، وأمر بحراسة الطرق المؤدية إلى مكة، والتعرف على الخارجين من المدينة والداخلين إليها، وورّى بإرسال سرية إلى بطن إضم (شمال المدينة) لِيُظَنّ أنه باستعداده يريد تلك الناحية؛ وأرسل عليه الصلاة والسلام لمن حوله من القبائل وأهل البادية بالحضور إلى المدينة، وأنه عازم على الغزو ولم يحدد وجهته.

٦- في قصة حاطب رضي الله عنه ومحاولته إفشاء سر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكتابة لقريش دروس وفوائد وهي أن الضعف والخطأ لا يؤمن وقوعه من الإنسان حتى وإن كان من ذوي السابقة.

٧- وقاية الله لرسوله وللمسلمين بكشف ذلك الكتاب قبل أن يصل إلى العدو، وحسن تصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الموقف لما علم صدق حاطب واعترافه بالخطأ. فقال :(قد صدقكم) وعفا عنه.

٨- رحمة النبي صلى الله عليه وسلم وشفقته، حيث أوقف أحد أصحابه عند كلبة وجدوها في الطريق ترضع أولادها لئلا يؤذيها أحد، وأمر أصحابه بالفطر وألزمهم بذلك لما قرب من مكة لئلا يشق عليهم، وليكونوا أقدر على مجابهة العدو.

٩- حسن التنظيم والترتيب للجيش وإدارته، حيث عقد الرايات والألوية للقبائل، وجعلها في مجموعات محددة يسهل إدارتها وإبلاغها الأوامر والنواهي ، وعند دخول مكة أحاط بها من كل جوانبها من أسفلها ومن أعلاها ومن وسطها ليتمكن من الفتح ويرهب العدو ويضمن استسلامه وقبول الأمان.

١٠- سماحة النبي صلى الله عليه وسلم وحسن خلقه، حيث تجاوز عن سفيان بن الحارث وعبد الله ابن أبي ربيعة لما جاءا مسلمين، رغم ما قاما به من الأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكذا حسن تعامله صلى الله عليه وسلم مع أبي

---

(١٥٣) ابن هشام، السيرة النبوية ٣٥/٤ والهيثمي، مجمع الزوائد ١٦٣/٦.

(١٥٤) الهيثمي، مجمع الزوائد ١٦٤/٦.

سفيان بن حرب مما فتح قلبه للحق فأسلم، وعاد إلى قريش بالأمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

١١- كان صلى الله عليه وسلم يوازن بين اللين وبين الحزم وإظهار القوة، حيث أمر أن يُوقَفَ أبا سفيان عند مضيق الوادي ليطّلع عن كثب على قوة المسلمين وحسن تنظيمهم، وقد أمر صلى الله عليه وسلم أصحابه بقوله : من كان عنده سلاح فليخرجه) أي يظهره ويعرض به، مما يجعل أبو سفيان ييأس من قدرة قريش على المقاومة، فذهب منادياً بأمان رسول الله صلى الله عليه وسلم (من دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل بيته فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن).

١٢- تواضع رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكره لله الذي هيأ له الأسباب ومكّنه من العودة إلى مكة بعد أن خرج منها خائفاً، فكان صلى الله عليه وسلم خافضاً رأسه على الراحلة حتى إن عثنونه (طرف لحيته) ليمس واسطة الرحل تواضعاً لله على ما أنعم به عليه.

١٣- عفوه صلى الله عليه وسلم بعد المقدرة عن صناديد الكفر والمن عليهم، وتأليف قلوبهم ليدخلوا في الإسلام. بل حتى الذين استثنوا من الأمان وأمر بقتلهم عفا عمن جاء منهم مسلماً.

١٤- تطهير رسول الله صلى الله عليه وسلم للبيت من الأوثان والأصنام المحيطة به وإزالة الصور التي كانت على جدران الكعبة، وتأكيد حرمة مكة وأنها إنما أحلت له صلى الله عليه وسلم ساعة من نهار، ثم عادت حرمتها كما كانت إلى يوم القيامة.

وأمر منادياً ينادي : لا يبقى عند أحد صنم إلا كسره.

وفي هذا كله إظهار لشعائر التوحيد، وطمس لمعالم الجاهلية والكفر.

١٥- يعتبر فتح مكة أعظم الإنجازات والنجاحات للسياسة النبوية في نشر الإسلام، فبعد الفتح وتحطيم الأصنام، انفتحت قلوب العرب وصدورهم للإسلام، وزال عنهم طاغوت الكفر والرهبة من الأوثان، حيث اتضح لهم يقيناً أنها لا تنفع ولا تدفع، وأنهم منها في غرور.

قال تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا[١٥٥]﴾.

---

(١٥٥) سورة النصر (١- ٣)

وروى البخاري عن عمرو بن سلمة الجرمي قال: كانت العرب تتلوم (أي تنتظر) بإسلامها الفتح، فيقولون : أتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة الفتح، بادر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أبي قومه بإسلامهم [١٥٦] وقد سَمّى علماء السيرة النبوية العام التاسع من الهجرة - الذي جاء بعد الفتح - عام الوفود لكثرة وفود العرب فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم معلنين إسلامهم وخضوعهم لطاعته.

(١٥٦) صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، حديث ٣٠٢.



قائمــة المصــــادر والمراجــــع

ابن الأثير (عز الدين علي بن محمد الجزري) ت : ٦٣٠ هـ :

– أسد الغابة في معرفة الصحابة، د، ت، دار الشعب بمصر.

الأزرقي (محمد بن عبد الله) ت بعد ٢٤٤هـ :

– أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق : عبد الملك بن دهيش، ط الأولى ١٤٢٤هـ، مكتبة الأسدي بمكة.

البخاري (محمد بن إسماعيل) ت : ٤٥٦هـ

– الجامع الصحيح، ط الأولى ١٤١٧هـ، نشر دار السلام بالرياض.

البيهقي (أحمد بن الحسين) ت : ٤٥٨هـ.

– دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، تحقيق : عبد المعطي قلعجي، ط الأولى ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلميّة، بيروت.

الترمذي (محمد بن عيسى) ت : ٢٧٩هـ.

– سنن الترمذي، تحقيق : أحمد شاكر، د، ت، دار إحياء التراث العربي، مصر.

الحاكم (محمد بن عبد الله) ت: ٤٠٥هـ.

– المستدرك على الصحيحين، نشر دار الكتاب العربي، بيروت.

ابن حجر (أحمد بن علي العسقلاني) ت : ٨٥٢هـ.

– فتح الباري شرح صحيح البخاري، المكتبة السلفيّة بالقاهرة.

– الإصابة في معرفة الصحابة، تحقيق: طه محمد الزيني، ط ١٣٩٦هـ، مكتبة الكليات الأزهرية.

ابن حنبل (أحمد بن محمد الشيباني) ت : ٢٤١هـ.

– المسند، تحقيق : شعيب الأرنؤوط، وإشراف :عبد الله التركي.

أبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني) ت : ٢٧٥هـ.

– السنن، تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، طبع دار الفكر، بيروت.

ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع) ت : ٢٣٠هـ.

– الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.

– كتاب الطبقات الكبير، تحقيق : علي محمد عمر، ط الأولى ١٤٢١هـ، مكتبة الخانجي بالقاهرة.

السهيلي (عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمي) ت : ٥٨١هـ.

– الروض الأنف في شرح السيرة لابن هشام، ط الأولى ١٤٢١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ابن سيد الناس (محمد بن محمد اليعمري) ٧٣٤هـ.

– عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، دار الآفاق ١٩٧٧م، بيروت.

الصنعاني (عبد الرزاق بن همّام) ت : ٢١١هـ.

– المصنف، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢ سنة:١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامي، بيروت.

الطبري (محمد بن جرير بن يزيد) ت: ٣١٠هـ.

– تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار المعارف بمصر.

ابن عبد البر (يوسف بن عبد الله النمري القرطبي) ت : ٤٦٣هـ.

– الاستيعاب في معرفة الأصحاب، مطبوع بهامش الإصابة، تحقيق : طه محمد الزيني، مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٣٩٦هـ.

أبو عبيد (القاسم بن سلاّم) ت : ٢٢٤هـ.

– الأموال، تحقيق : محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، ودار الفكر العربي.

عروة بن الزبير بن العوام، ت : ٩٤هـ.

– مغازي رسول الله ﷺ، جمع وترتيب : محمد مصطفى الأعظمي، مكتب التربية بدول الخليج العربي، الرياض ١٤٠١هـ.

الفاسي (محمد بن أحمد الحسني المكي) ت : ٨٣٢هـ.

– العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق : محد حامد الفقي،مطبعة السنّة المحمدية بمصر.

– شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط الأولى ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي، بيروت.

الفاكهي (أبو عبد الله محمد بن إسحاق) ت : القرن الثالث.

– أخبار مكّة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق : عبد الملك بن دهيش، ط الأولى ١٤٠٧هـ، مكتبة النهضة بمكة.

ابن كثير (إسماعيل بن عمر القرشي) ت : ٧٧٤هـ.

– السيرة النبويّة، تحقيق : مصطفى عبد الواحد.

محسن بن أحمد الدوم (معاصر)

– مرويات فتح مكّة، رسالة ماجستير، غير منشورة، الجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنورة.

الإمام مسلم (مسلم بن الحجاج القشيري) ت : ٢٦١هـ.

– صحيح مسلم، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.

موسى بن عقبة الأسدي، ت : ١٤١هـ.

– المغازي، جمع وترتيب : محمد باقشيش أبو مالك، نشر جامعة ابن زهر بأغادير، المغرب.

ابن هشام (عبد الملك الحميري) ت : ٢١٨هـ.

– السيرة النبويّة، علّق عليها : عمر عبد السلام تدمري، ط الأولى، دار الريان بالقاهرة.

الهيثمي (علي بن أبي بكر) ت : ٨٠٧هـ.

– مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتاب العربي، ط٣.

الواقدي (محمد بن عمر) ت : ٢٠٧هـ.

– المغازي، تحقيق : (مارسدن جونس)، دار عالم الكتب، بيروت.

الخلفية وحركتهم الانفصالية في طرابلس الغرب وجبل نفوسة (١٩٦-٢٩٤هـ/٨١١-٩٠٧م)

د. إبراهيم فرغل محمد (*)

مقدمـــة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، خاتم النبيين، وبعد،

فهذا بحث في التاريخ الإسلامي يتناول موضوع " الخلفية وحركتهم الانفصالية في منطقة طرابلس الغرب وجبل نفوسة"، وذلك في الفترة من سنة (١٩٦-٢٩٤هـ /٨١١- ٩٠٧ م) ويرجع سبب اختيار هذا الموضوع إلى عدم وجود دراسة مستقلة توضح أسباب الحركة الانفصالية للخلفية ودورها في الأحداث السياسية في منطقة المغرب ونتائجها، وإنما كان تاريخها يكتب عرضا ضمن الحديث عن تاريخ الدولة الرستمية.

ونظراً لخطورة هذه الحركة في تاريخ المغرب العربي وأثرها على الأحداث في المنطقة وطول الفترة الزمنية لها، رأيت أن أقوم بدراسة تفصيلية عنها. وقد حرصت فيها على إلقاء الضوء من خلال التعريف بالخلفيين وكيفية قيام حركتهم واستقلالهم بحيز طرابلس الغرب وبيان أهمية خطورتهم على الأئمة الرستميين بتاهرت. وكيف كانت هذه الحركة أحد العوامل الرئيسية التي أدت إلى انهيار الدولة الرستمية وسقوطها سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م.

ترجع أهمية هذا الموضوع أن تلك الحركة، قامت في الجهات الشرقية من الدولة الرستمية، وهذه الجهات كانت حيوية وكان مصدر حيويتها أنها كانت عامرة بالسكان الذين كان من بينهم المتقدمون في العلم وأهل الشجاعة والحرب.

(*) مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية كلية دار العلوم جامعة الفيوم.

وقد نجح الخلفيون في السيطرة على الجهة الشرقية للدولة الرستمية لفترة طويلة، بدأت في أواخر عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، وكان لهم كيان في جزيرة جربة، ثم بدأ نجمهم في الأفول زمان أبى مسور (في أواسط القرن الرابع الهجري، العاشر الميلادي)حتى انقرضوا ولم يبق لهم أتباع، وترتب على قيام حركتهم مجموعة من الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وزادت من الصراع بين النفوسيين الإباضيين المؤيدين لأئمة الدولة الرستمية وبين النفوسيين المؤيديين للخلفية، مما أدى إلى الدخول في حرب أحيانا كثيرة.

كما كان قيام حركتهم سبباً في قيام حركات أخرى في نفس المنطقة، وكان انشقاقهم بسبب قضية تعدد الأئمة وحق الرعية في اختيار عمالها. ولعل مكمن الخطورة في هذه الحركة أن زعيمها – وهو خلف بن السمح – لم يكن فقط يريد الاستقلال بجبل نفوسة أو حيز طرابلس، وإنما كان يريد أن يكون إماما للإباضيين جميعاً.

ولا شك أن خلفا ظل يتمتع بنفوذ في معظم جهات طرابلس وجبل نفوسة حتى وفاته، وأن أنصاره من نفوسة وزواغة الذين عرفوا بالخلفية ظلوا موالين لابنه المعروف بالطيب حتى أواخر عهد الدولة الرستمية.

والحقيقة أن منطقة جبل نفوسة تتصف ضمن المناطق التي عانت من إهمال الدارسين فترة طويلة من الزمن، ولذا كانت هذه الدراسة في تلك المنطقة – برغم ما اكتنفني من صعوبات – محاولة لإزالة بعض الغبار عن صفحات من التاريخ والحضارة في هذه المنطقة، ومن جهة أخرى هي محاولة لتمهيد السبيل أمام أولئك الذين يودون الذهاب إلى أبعد من هذا الهدف، وذلك بالسعي لإنجاز دراسات أكثر تفصيلاً وعمقا.

الأبعاد الجغرافية لجبل نفوسة وحيز طرابلس ودورها في قيام حركة الخلفية

من الجبال المهمة في بلاد المغرب جبل نفوسة[1]، وقد وصفه المؤرخون بصفات عديدة نظراً لأهميته ومكانته في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فقال عنه ياقوت الحموي : " نفوسة : جبال في المغرب بعد إفريقية، عالية نحو ثلاثة أميال، وطول هذا الجبل مسيرة ستة أيام من الشرق إلى الغرب

---

[1] نفوسة : بالفتح ثم الضم والسكون وسين مهملة، وقد افتتح عمرو بن العاص نفوسة، وكانوا نصارى ومن جبل نفوسة رجع عمرو بن العاص بكتاب ورد عليه من عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، انظر ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٨ ص ٣٩٧ دار إحياء التراث العربى، بيروت ٢٠٠٨م.

وبين جبل نفوسة وطرابلس ثلاثة أيام، وبينه وبين القيروان ستة أيام وبه مدينتين، إحداهما سروس في وسط الجبل والأخرى يقال لها جادو من ناحية نفزاوة [٢]

وقد تميز جبل نفوسة بمياهه الجارية وكثرة الفواكه من الكروم والأعناب والتين، وكان أكثر زروع أهل نفوسة الشعير الطيب المتناهى طيبا، مما إذا خبز كان أطيب من سائر الطعام في سائر الأقاليم [٣] ولأهل نفوسة في صنعة الخبز حذق وتمهر فاقوا في ذلك كل الناس، ويمتاز هذا الجبل أيضاً بالنخل الكثير والزيتون [٤].

وكانت تسكن في هذا الجبل قبيلة نفوسة، فعرف الجبل بهم فسمى بجبل نفوسة، وأما قبيلة نفوسة، فهي نسبة إلى نفوس بن زاجيك، وهم نفوس بطن واحد تنسب إليه نفوسة كلها، ونفوسة من قبائل البربر البتر [٥] وكانت قبيلة نفوسة من

---

(٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٨ ص ٣٩٦.
ونفزاوة : هم بنو يطوفت بن نفزاو بن لوا الأكبر، كانت مواطنهم جنوبى شط الجريد، حتى سميت المنطقة ببلاد نفزاوة ثم تفرعت قبائلهم في سائر المغرب واستوطنت في مناطق متعددة منه، انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٤، ط بيروت ١٩٧١، وابن منصور : قبائل المغرب ج ١٠ ص ٢٠٦ ط الرباط ١٩٦٨ م.

(٣) وكانت المدينة التي تميزت بخبز هذا الشعير هي مدينة سروس إحدى مدن هذا الجبل وكان هذا الخبز ألذ من محل طعام، انظر: ياقوت: مرجع سابق ج ٨ ص ٣٩٦.

(٤) انظر في ذلك: ابن حوقل: صورة الأرض ص٩٤ – ٩٥، وأبو زكريا: سير الأئمة ص١١٥، ١١٦، نزهة المشتاق ص٢٩٧–٢٩٩، وابن خلدون: العبر ج٦ ص٢٣٠.
Despois : Le Djebel Nefousa , p.137 Paris 1935.
Basset : Les Sanctuaires du Djebel Nefousa, Journal Asiatique, p.426 Paris 1899.

(٥) والبربر هم سكان المغرب الإسلامي ، وقد عاشوا على شكل قبائل وجماعات افترشت أرض المغرب، وقد قسم النسابون شعب البربر إلى قسمين كبيرين وهما برانس ومادغيس، ويلقب بالأبتر ومن قبائل البتر التي ساندت الدولة الرستميه نفوسة ولواته وسدراته ولماية، ومن البرانس، هوارة، وعن البربر انظر : ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص٩١، السلاوى: الاستقصا ج١ ص٥٤، ابن خلدون: العبر ج٧ ص٩، وابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص٤٦١ ، ابن منصور : قبائل : قبائل المغرب ج١ص٢٩٩ ، ألفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقى ص٤٨، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص٢٣، ٢٨ ، د. شكرى فيصل : حركة الفتح الإسلامى ص ١٢٦، أحمد توفيق : كتاب الجزائر ص١٠.

أوسع قبائل البربر وأكبرها فهم شعوب كثيرة مثل بني زمور[٦] وبني مسكور وماطوسة، وكانت مدينة صبرة [٧] قبل الفتح في مواطنهم، وكانت هي باكورة الفتح الأول للإسلام.

والحقيقة أن قبيلة نفوسة لعبت دورا مهما في دعم الدولة الرستمية ومساندتها، مما جعل أحد الأئمة الرستميين وهو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم يصرح بأن المذهب الإباضى والدولة الرستمية، إنما قامت بأسياف نفوسة، وفي ذلك يقول المؤرخ أبو زكريا في سير الأئمة "وحدثني غير واحد من أصحابنا أن نفوسة بلغت في التأييد لسلطان الرستميين بأرض تاهرت مبلغا عظيما لم يبلغه غيرهم في مغربنا هذا، فلذلك قال الإمام: إنما قام هذا الدين بسيوف نفوسة وأموال مزاتة [٨].

وقد بقيت جموع نفوسة في موطنها بالجبل قرب طرابلس، إلا أن أعدادا منهم وفدوا على العاصمة لنصرة الإمامة الرستمية ومساندتها في مواجهة المشاكل التي تعترضها واستقروا داخل العاصمة، وأصبحت لهم أحياء تنسب إليهم مثل عدوة نفوسة ودرب النفوسيين[٩].

وأهل جبل نفوسة شراة، إما إباضية من أصحاب عبد الله بن أباض أو وهبية من أصحاب عبدالله بن وهب [١٠].

---

(٦) وفي ذلك يقول ياقوت الحموى: "وبها – أى نفوسة – قبيلة يقال لهم بنو زمور لهم حصن يقال له تيرفت في غاية المنعة لا يقدر عليه أحد"، انظر : معجم البلدان : ج٨ ص ٣٩٦.

(٧) صبرة : بالفتح ثم السكون بلد قريب من مدينة القيروان وكانت بلدة حصينة لا تقل حصانتها عن حصانة طرابلس، انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٥ ص١٧٧. وعن قبيلة نفوسة : انظر ابن خلدون العبر ج ٦ ص١١٤ وابن منصور : قبائل المغرب ج٣ ص٢٠٤.

(٨) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٥٤ومزاتة : قبائل كثيرة ونسابة البربر يعدون في مزاته بطون كثيرة مثل : بلايان وفرنه وبحيحه ودكمة وحمرة ومدونة، وقد ساندت مزاتة الدولة الرستمية بأموالها، وقد ذكر ابن حوقل صفة الاعتزال التي كانت تغلب على قبيلة مزاتة، انظر : صورة الأرض ص ٩٦ ، أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٥٥ و ابن خلدون : العبر ج ٦ – ص ٢٣٥.

(٩) د. الحبيب الجنحانى : المغرب الإسلامى : الحياة الاقتصادية والاجتماعية ص٣، ٤ ط الدار التونسية وانظر أيضاً :

(١٠) ابن خلدون : معجم البلدان ج٨ ص٣٩٦، ياقوت الحموى : العبر ج٦ ص ٢٣٠.

وقد شاركت قبيلة نفوسة بصورة فعالة في الوظائف الإدارية في الدولة الرستمية، وساندت الأئمة الرستميين في النواحي العلمية والفقهية وهذا إلى جانب المساندة العسكرية.

وفي النهاية يمكن القول إن قبيلة نفوسة، نظراً لكثرة أعداد أبنائها وشجاعتهم، استطاعت أن تحمى الإمامة الرستمية من الأخطار التي تعرضت لها، ولذلك احتلت قبيلة نفوسة مكانة الصدارة في المجتمع الرستمى، بل وأشرفت على النواحي الإدارية بها.

وذلك مما دفع المؤرخ ابن الصغير المالكي إلى القول " وكانت نفوسة تلي عقد تقديم القضاة وبيوت الأموال وإنكار المنكر في الأسواق والاحتساب على الفساق وكانت الأجناد بطانة السلطان وأولاده وحشمه " (١١).

وعن أهمية نفوسة يقول أحد الباحثين : (كانت نفوسة عماد الدولة الرستمية تحتكر أكبر المناصب بها، فهي التي رفعت راية الإمامة في الحرب والسلم، قوية الدولة بقوتها وانتصرت بانتصارها (١٢).

وأما طرابلس الغرب (١٣) فقد وصفها ياقوت الحموي في معجمه بقوله : (طرابلس، بالرومية والإغريقية، ثلاث مدن سماها اليونانيون طرابليطة، وذلك بلغتهم أيضاً ثلاث مدن، لأن (طرا) معناه ثلاث وبليطة (مدينة)، وعلى مدينة طرابلس سور صخر جليل البنيان وهى على شاطئ البحر ومبنى جامعها أحسن مبنى، وبها أسواق حافلة جامعة، وبها مسجد يعرف بمسجد الشعاب مقصود، وفي بربرها من كلامه بالنبطية، وفيها رباطات كثيرة يأوي إليها الصالحون أعمرها وأشهرها مسجد الشعاب، ومرساها مأمون من أكثر الرياح(١٤).

---

(١١) ابن الصغير المالكى : أخبار الأئمة الرشميين ص٢٧.

(١٢) إحسان عبد الله : الدولة الرستمية في تاهرت ص ٢٨٨، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة سنة١٩٨٦م.

(١٣) طرابُلس : بفتح أوله وبعد الألف باء موحدة مضمومة ولام أيضا مضمومة وسين مهملة، ويقال لها أيضاً : أطرابلس، وتوجد مدينة أخرى في بلاد الشام تحمل اسم طرابلس أيضا، فقيل لهذه طرابلس الغرب تميزا عن الأخرى التي يقال لها طرابلس الشام. وعن طرابلس الغرب : انظر: البكرى: المغرب ص ٧،الاستبصار : ص ١١٠.

(١٤) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٦ ص٢٥٤

وذكر البكري أن طرابلس كثيرة الثمار والخيرات ولها بساتين جليلة في شرقيها[١٥] وقد توجه عمرو بن العاص على رأس قواته تجاه مدينة طرابلس سنة ٢١هـ، وضرب حولها الحصار الذي انتهى بفتحها والاستيلاء عليها، وكان استيلاء عمرو بن العاص عليها هو آخر النشاط العسكري الذي مارسه عمرو على أرض المغرب[١٦].

وقد نجح إمام الإباضية (أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى) في الاستيلاء على طرابلس سنة١٤١هـ /٧٥٨ م أثناء التفكك السياسي للمغرب في هذه الفترة، وذلك عندما استغاث به بعض المسلمين لإنقاذ مدينة القيروان لما حَل بها من الدمار والخراب لمساجدها وسكانها على أيدي ورفجومة [١٧] وكان استيلاء الإباضية على طرابلس مقدمة للاستيلاء على القيروان، وبذلك أصبحت السلطة في القيروان للخوارج الإباضية يحكمون أمرها ويوجهون الأمور فيها، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على نجاح التيار الخارجي في المغرب وإقبال البربر على اعتناق تلك المذاهب الوافدة من المشرق، وتأثير هذه المذاهب في المنطقة، وقيامها بدور فعال في مجريات الأحداث.

وفي سنة ١٥٤هـ/٧٧١م ثار إباضية إقليم طرابلس ضد ولاة الدولة العباسية في المغرب، والتفوا حول أحد زعمائهم، وهو أبو حاتم يعقوب بن لبيب المغيلي مولى كندة، الذي نجح في محاربة والى طرابلس (الجنيد بن بشار الأسدى) وهزمه، وبذلك أصبح إقليم طرابلس خاضعا للإباضية بقيادة أبى حاتم، وهذا النجاح شجع بقية إباضية المغرب على التجمع ومحاولة القضاء على سلطة الخلافة [١٨]

---

(١٥) البكرى : المغرب في ذكر بلاد أفريقية ص٧٢٦

(١٦) انظر في ذلك : ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص٧١ ط ليدن١٩٢٠ م / البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٢٧ ط١١ تحقيق محمد رضوان القاهرة ١٩٥٩م و د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، عصر الولاة ص٥٧، مطبعة مصر ١٩٤٧ م.

(١٧) انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٥ص٥٩٨، وابن عذارى : البيان المغرب ج١ص٨١ والسلاوى : الاستقصا ج١ ص١١١.وقبيلة ورفجومة : قبيلة صفرية من نفزاوة، من قبائل البربر، عاثوا فسادا في القيروان وسيطروا عليها سنة ١٣٩ هـ / ٧٥٦ م و نجح أبو الخطاب عبد الأعلى زعيم الإباضية في قتلهم قتلا ذريعا ثم رجع إلى طرابلس. انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٧٠، وابن خلدون : العبر ج٦ ص ١٨٠.

(١٨) ابن الأثير : الكامل ج٥ص٥٩٨.ابن خلدون : العبرج٤ص١٩٣.

وفي سنة ١٥٥هـ/٧٧٢م نجح والى العباسيين يزيد بن حاتم في هزيمة الإباضية ومقتل أبى حاتم الإباضى، وبذلك ضعف التجمع الإباضى في طرابلس وجبل نفوسة، ولكن ذلك لم يمنع أن يتطلع الإباضيون إلى اختيار أحد أئمتهم لإعادة نفوذهم مرة أخرى، وبالفعل تمت مبايعة عبد الرحمن بن رستم إماما للإباضية في المغرب الأوسط سنة ١٦٠هـ /٧٧٧م، وهو التاريخ الذي رجحته كتب الإباضية ابتداء من أبى زكريا ومن نقل عنه (١٩)

وبذلك بدأ تاريخ الدولة الرستمية في بلاد المغرب(٢٠) وأما حيز طرابلس الذي أقام فيه الإباضيون، فالمقصود به المنطقة الواقعة بين المدينة(طرابلس) وبين جبل نفوسة.

التعريف بالخلفية :

ينتسب الخلفية إلى خلف بن السمح بن أبى الخطاب عبد الأعلى المعافرى(٢١) الذي قام بثورة وحركة وتمرد وانفصال عن الدولة الرستمية، وقد اتخذت طابعا دينيا واستفحل خطرها وذلك في الجبهة الشرقية من الدولة، وبخاصة في منطقة جبل نفوسة وحيز طرابلس، خلال السنوات الأخيرة من حكم عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وردحا طويلا من عهد ابنه أفلح. وقد عرف أتباعه بالخلفية منذ أن بايعوا خلفا بالإمامة وأيدوه في الانشقاق عن إمامة تاهرت (٢٢)،

---

(١٩) انظر أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٩، ١٢٠.

(٢٠) وكانت هذه الدولة إسلامية في قضائها، عربية في معارفها، بربرية في عصبيتها فارسية في إدارتها، انظر : د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقى : تاريخ المغرب والأندلس ص١٥٢ مكتبة نهضة الشرق، القاهرة ١٩٩٠ م.

(٢١) وقد علق الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد على اسم خلف بن السمح بقوله : (ونحن لا ندرى إن كان خلف هو اسمه الحقيقى أم أنه اسم تجريح أطلقه عليه الكتاب من خصومة، كما سيطلقون عليه لقب الخبيث بن الطيب تماما كما فعل أهل السنة بمحمد بن أبى بكر الذى اتهم في مقتل عثمان، وكما فعل كتاب الأمويين بأبان بن عثمان عندما اتهم في فتنة ابن الزبير، انظر : تاريخ المغرب العربى ج٢ ص٣٣٣،٣٣٤ منشأة المعارف الإسكندرية ١٩٧٩م.

(٢٢) ومن الجدير بالذكر أن أهم الإنشقاقات الإباضية الأخرى هى النكارية والنفاثية والحسينية أو العمرية والسكاكية والفرية، انظر : الشهر ستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٨٣ ط القاهرة ١٩٥٦ م ، الإسفرايينى : التبصير في الدين ص ٥٧،

وبذلك أصبحت فرقة الخلفية فرقة معارضة في عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم[٢٣].

والدولة الرستمية تنسب إلى عبد الرحمن بن رستم الفارسى من مسلمي الفتح، وقد نجح في تأسيس دولة بإقليم تاهرت في المغرب الأوسط بعد أن بايعته القبائل لعلمه وفضله، على أن يحكم فيهم بكتاب الله وسنة رسوله وآثار الصالحين.

وقد جمعت الدولة الرستمية بين المغربيين الأدنى والأوسط من خليج سرت شرقا إلى وهران غربا، فشملت كل المناطق التي كان يسكنها الإباضية تقريبا في جبل نفوسة وحيز طرابلس، وقد بدأت الدولة إمامة إسلامية انتخابية ثم تحولت إلى ملكية وراثية [٢٤].

القاهرة ١٩٥٥ م ، د. عامر النجار : الإباضية ومدى صلتها بالخوارج ص ٩٥ – ١٠٨ ط دار المعارف القاهرة ١٩٩٣ م.

Lewicki : Melanges Berberes , p.269

(٢٣) الإمام عبد الوهاب هو الذى تولى خلفا لوالده عبد الرحمن بن رستم، وقد اختلف المؤرخون في مدة حكمه فالشائع بينهم أنها دامت أربعين سنه، وأن سنة توليته الخلافة سنة١٦٨هـ وأن وفاته كانت سنة ٢٠٨ هـ، وقد ذكر المؤرخ ابن عذارى أن مدة حكمه عشرين سنه بدأت سنة ١٦٨ وانتهت سنه ١٨٨هـ، أما المؤرخ البارونى في الأزهار الرياضية فقد ذكر أنه تولى الحكم سنة ١٧١هـ وأن وفاته كانت سنة ١٩٠هـ، انظر : الشماخى : السير ج٢ ص ٢٧٢ – ٣٢٤ / ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص ١٩٧.

البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٥٦ – ١٦٦ / أبو زكريا : سير الأئمة ص ٤٧.

Provencal : Histoire de l'Espagane Musulmane , vol, 1, p. 244

(٢٤) انظر : د. محمد ناصر : منهج الدعوة عند الإباضية ص ١٤٩ – ١٥٦ مكتبة الاستقامة سلطنة عمان، ١٩٨٣م.

عمرو خليفة النامى : دراسات عن الإباضية ص ١١٣، ١١٤ ترجمة ميخائيل خورى و د. ماهر جرار ومراجعة د. محمد صالح ناصر دار الغرب الإسلامى ٢٠٠١م.

د. محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب ص ١٤٤، ١٤٥ دار الثقافة المغرب ط٢ ١٩٨٥ م.

على يحيى معمر : الإباضية في الجزائر ص ٥٦،٥٧ مكتبة وهبة القاهرة ١٩٧٩.

وتمثل حركة خلف بن السمح الانشقاق الثاني في صفوف الإباضية بحسب رأى المؤرخ أبى زكريا بينما يرى المؤرخ ابن الصغير المالكي أن الإنشقاق الثاني كان يتمثل في موقف قبيلة هوارة المعادى للإمام عبد الوهاب[٢٥].

ومن تأمل في أمر خلف وأتباعه يظهر له أن خلافهم ليس دينيا بل هو سياسي محض لا يخرجهم عن الإباضية في الاعتقاد شيء، وقد عاصرت حركة خلف بن السمح أخريات عهد الإمام عبد الوهاب و فترة من حكم ابنه أفلح، ثم ظهرت على فترات مختلفة حتى نهاية الدولة الرستمية،وقد شكلت خطرا على أوضاع الدولة، إذ نجح خلف في بسط نفوذه على منطقة طرابلس وجبل نفوسة واتخذت لها طابعا دينيا[٢٦].

ومما يؤكد خطورة حركة الخلفية، اتساع المناطق التي كان يحكمها خلف بن السمح في الجبهة الشرقية من الدولة الرستمية ومدى ثرائها الاقتصادي والبشرى، ولذلك فإن ما أقدم عليه خلف كان خطيرا، لأنه أراد أن يجعلها وراثية بدلا من عملية الاختيار التي يقوم بها الإمام في تاهرت.

وكان والد خلف (السمح بن أبى الخطاب) واليا على جبل نفوسة وحيز طرابلس[٢٧] من قبل الإمام عبد الوهاب وبناء على طلب أهل حيز طرابلس، رغم أن الإمام عبد الوهاب لم يكن راضيا عن ذلك لأن السمح كان وزيره وأحب الناس إليه وأنصحهم له، وكان الإمام قد وافق على توليته عندما قرر العودة إلى تاهرت بعد أن ظل في منطقة طرابلس لفترة طالت إلى سبع سنوات بسبب توتر الأحوال في المنطقة مما اضطره إلى الإقامة في جبل نفوسة، وقد أشارت الروايات الإباضية بأن الإمام عبد الوهاب اتخذ طريق المشرق ليقصد الحج، فرفض أهل جبل نفوسة أن يتركوه يواصل طريقه خشية المسودة فتتعطل أمور المسلمين وحدود الله[٢٨].

---

(٢٥) ومن الجدير بالذكر أن ابن الصغير المالكى لم يذكر أو يتحدث عن حركة خلف بن السمح لأن مجال هذا الانشقاق كان منطقة طرابلس وجبل نفوسة وإنما انفرد هو بأحداث العاصمة تاهرت، وقد خصص كل من أبى زكريا والدرجينى والشماخى مساحات في رواياتهم عن أحوال جبل نفوسة وحيز طرابلس.

(٢٦) د. محمود إسماعيل : الخوارج في المغرب الإ سلامى ص١٢١ دار العودة –بيروت، ١٩٧٦م.

(٢٧) حيز طرابلس : هو المنطقة الواقعة بين مدينة طرابلس وجبل نفوسة.

(٢٨) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٥ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٣٨٣ المكتبة التوفيقية، القاهرة (د. ت) / الدرجينى : طبقات الإباضية ج١ ص ٦٥ –

أما السمح فقد أحسن السيرة وعدل في الأحكام وساس الرعية بأقوم سياسة ورتب العمال والقضاة ورجال الشرطة من أمناء الأهالي في النقط المهمة ومراكز العمران وفق مرغوب إمامة، بحيث لم ينكروا عليه شيئا في مدة ولايته كلها، لا يخرج من رأى الإمام ولا يخالف له أمرا"(٢٩)

ولذلك عندما توفي السمح كان لموته صدى عظيم في نفوس الناس الذين أحبوه وعظموه، حتى إنهم ائتمروا بأمر العامة من الناس ممن ليس له بصيرة بأمور الدين ولا علم بأمور المسلمين، فولوا على أنفسهم ابنه خلفا(٣٠).

ويبدو أن خلفا هذا قد دعا لنفسه على أساس أنه حفيدا لأبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى، الذي كان إماما للإباضية قبل قيام الدولة الرستمية (٣١)

ويمكن القول إن انشقاق الخلفية كان بسبب قضية تعدد الأئمة وحق الرعية في اختيار عمالها.

ويقول المؤرخ الكبير الدكتور سعد زغلول : " وبسبب الولاية على حيز طرابلس وهل يجب أن يستمع الإمام إلى رغبة أهل المنطقة في اختيار واليهم، أم

---

٦٧ / د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ج٢ ص ٢٩. / د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامى ص ٤٦٩.

(٢٩) الشماخى : السير ج٢ ص ٢٩٢- ٢٩٤، أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٩، الدرجينى : طبقات الاباضية ج ١ ص٦٨، البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٥٠.

(٣٠) د. سعد زغلول : مرجع سابق ج٢ ص٣٣٣.

(٣١) أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى : وأبو الخطاب هذا من وجوه العرب، وهو أحد تلاميذ إمام الإباضية في البصرة بالمشرق (أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة) وقد أخذ عنه أصول المذهب الإباضى وبعد عودته إلى المغرب، تم اختياره ليكون إماما للإباضية، وفي سنة ١٤٠هـ نجح الإباضيون في الاستيلاء على طرابلس ثم القيروان، ولكن هذا النجاح لم يستمر طويلاً، إذ أرسلت= =الخلافة العباسية واليها على مصر ابن الأشعث الذى التقى بأبى الخطاب في سرت سنة ١٤٤هـ فقتل (أبو الخطاب) وكثيرًا من أتباعه، انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٨١، الشماخى : السير ج٢ ص ٢٤٦،٢٤٥، ٢٤٧، الدرجينى: طبقات الدرجينى ج ١ ص ١٩، ابن الصغير المالكى : أخبار الأئمة الرستميين ص ٢٣٩، ٢٤٠ ، د. عوض محمد خليفات : نشأة الحركة الإباضية ص ١٤٧.

أنه صاحب الحق المطلق في تولية من يشاء حجب ولاية من يشاء، مما يذكر بمسألة الشرط التي كان يطالب بها يزيد بن فندين، كان الانشقاق الثاني أو الافتراق بين إباضية الرستميين [٣٢].

ويرى الأستاذ على يحيى معمر " أن فرقة الخلفية لم يكن لها رأي أو مبدأ، ماعدا قولهم بجواز انفصال ليبيا عن الجزائر في الحكم، ومن ثم فهي ليست فرقة دينية، وأقصى ما يقال فيها أنها فئة باغية على الإمامة الرستمية يرأسها زعيم سياسي وليس إماما دينيا " [٣٣]

وبعد أن أدرج الخلفية في قائمة الفرق التي انشقت عن الإباضية، قال هذا المؤرخ الإباضي : " والعجيب من المؤرخين وكتاب المقالات أن يتأثروا بالجانب السياسي هذا التأثير الكبير، فيعتبروا هؤلاء المقاتلين فرقة، ويعتبرون خلفا إماما لفرقة[٣٤]".

ومما لاشك فيه أن حروبا طويلة قد نشبت بين خلف الثائر وبين ولاة الأئمة الرستميين في حيز طرابلس، وقد ثبت هو وأتباعه على عصيانهم، على الرغم من أن فقهاء المشرق أكدوا أن خلفا وأتباعه على خطأ وأنه يجب عليهم طاعة أئمتهم من الرستميين.

ويبدو أن الحروب والمنازعات التي وقعت بين خلف والأئمة الرستميين، شغلته وأصحابه على أن يدلوا بدلوهم في مجال العقيدة والفقه كما فعلت النكارية والنفاثية [٣٥]. ويقول أبو عمر المارغني الإباضي " ليس بيننا وبين الخلفية مسائل إلا واحدة، وهى قولهم لكل إمام حوزة لا يعدوها إلى غيرها وضلوا ضلالا بعيداً لخلافهم الإجماع ونقضهم ما سارت به الأمة أجمعين، وإنما خرج عن الإمام عبد الوهاب رحمه الله أيضًا "[٣٦]

---

(٣٢) د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ج٢ ص٣٣٣.

(٣٣) على يحيى معمر : الإباضية، دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم ص ٦٨، ٧٠ مكتبة وهبة، القاهرة ط ٢ ١٩٨٧م.

(٣٤) على يحيى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٢٥٨ المطبعة العربية، الجزائر ١٩٨٧م.

(٣٥) د. صابر طعيمة : الإباضية، عقيدة ومذهبا ص ٦٠ ط دار الجيل، بيروت ١٤٠٥ هـ.

(٣٦) انظر : د. عامر النجار : الإباضية ومدى صلتها بالخوارج ص ١٠٣ دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣م.

موقف الإمام عبد الوهاب من ولاية خلف بن السمح على طرابلس:

بعد وفاة السمح بن أبي الخطاب المعافري، رغبت العامة في تولية ابنه خلفًا، وفي ذلك يقول المؤرخ الكبير الشماخي: "لما مات السمح... بادرت العامة، ومن لا بصيرة له بالأمور، إلى تقديم ولده خلف،ظنا منهم أن ذلك أرفق بالمسلمين وأوفق بأمير المؤمنين" [٣٧]

والحقيقة أن مبايعة العامة لخلف بن السمح، دون الرجوع إلى الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، أمر يستحق التوقف عنده والنظر فيه، وذلك لعدة أمور، منها، المكانة التي وصل إليها العامة في الدولة الرستمية، لدرجة أنهم اختاروا رجلا دون الرجوع إلى إمامهم، ومنها، التصميم على اختيار خلف بن السمح ليكون واليا عليهم، ومنها، بعد الجهات الشرقية عن العاصمة تاهرت، ومنها، فقدان الثقة في أئمة الدولة الرستمية نظراً لتخليهم عن الشورى في الحكم واللجوء إلى نظام الوراثة.

ومن المنطقي تصور أن العامة يقدمون على اختيار خلف بن السمح، لأن والده كان حسن السيرة في ولايته، لدرجة أنهم طلبوا منه أن يوصيهم فيمن يتولى أمرهم بعده، فأوصاهم بتقوى الله وإتباع أمر الإمام وطاعته ما دام مستقيما على الحق الذي عليه السلف، وجهاد من خالفهم [٣٨] ولكن على الرغم من موافقة العامة على مبايعة خلف بن السمح، إلا أن بعض علماء الإباضية اعترضوا على ذلك، وكان في مقدمتهم أبو الحسن أيوب[٣٩]

وأبو المنيب إسماعيل بن درار الغدامسي[٤٠] وبعض وجوه أهل النظر الذين رفضوا تعيين خلف واحتجوا بأنه لا يجب أن يستبقوا الإمام في اختيار واليهم،

---

(٣٧) الشماخي : السير ج٢ ص٣١١ ط دار المدار الإسلامي.
وانظر أيضا : أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٠

(٣٨) أبو زكريا : مصدر سابق ص١٢٢.

(٣٩) أبو الحسن أيوب : هو عامل الإمام عبد الوهاب على جبل نفوسة، انظر: الدرجيني: طبقات الإباضية ج١ص٥٨، ٦٢، ٦٤، ٦٨.

(٤٠) إسماعيل بن درار الغدامسي : هو أحد العلماء الخمسة المعروفين بحجة العلم، وهو غدامس جنوب طرابلس، وقد تلقى دراسته على إمام الإباضية في البصرة وهو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة .
انظر : د. عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ص ١٣٧.

ولكن العامة اعتقدوا أن ذلك رأى المسلمين ويوافق رأى الإمام فأصروا على خلف وعلى أن يعزلوه إذا لم يوافق اختياره رأى الإمام.

وأما أهل الصلاح فقد امتنعوا عن مبايعة خلف وبادروا بإرسال كتاب إلى الإمام عبد الوهاب يبلغونه بما حدث.

وفي نفس الوقت أرسل خلف بن السمح ومؤيدوه من الخلفية وغيرهم الكتب إلى الأئمة الإباضية المشارقة، فوصلت رسالتهم إلى أبى سفيان محبوب بن الرحيل [٤١] وكانوا يستفتونه راجين أن يجوز لهم الانفصال عن الدولة الرستمية بدعوى أنهم بعيدون عن تاهرت [٤٢].

ومن الواضح أن خلفا بن السمح كان يدعو لنفسه على أساس أنه من أسرة أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى الذي كان إماما للإباضية قبل قيام الدولة الرستمية – وكان الهدف من دعوته انتزاع حيز طرابلس من حدود الدولة الرستمية والاستقلال بالجبهة الشرقية

وعندما وصلت الكتب إلى الإمام عبد الوهاب من بعض علماء الإباضية وأهل الصلاح بحيز طرابلس، بأن العامة اختاروا خلفا بن السمح واليا عليهم، رفض

---

(٤١) أبو سفيان محبوب بن الرحيل : هو أحد أئمة علماء وفقهاء الإباضية، نشأ في البصرة ثم انتقل إلى مكة المكرمة وعاش بها حتى وفاته، وهو أحد تلاميذ أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة، له العديد من المؤلفات ولكنها ضاعت ولم يبق فيها إلا بعض الشذرات المبثوثة في كتب الفقه والسير، وكانت وفاته في أواخر القرن الثالث الهجرى. انظر : معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ترجمة رقم ٥٤٤، جمعية التراث القرارة، الجزائر.

(٤٢) د. محمد عيسى الحريرى : الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ص ١٣٦ط ٣ دار العلوم ، الكويت ، ١٩٨٧م.

وتاهرت : قاعدة الدولة الرستمية، بناها عبد الرحمن بن رستم، وقد تم تأسيسها سنة ١٦١هـ، وقد أحيطت بسور ضخم يحميها من هجمات الأعداء، وحين اختطها عبد الرحمن كانت في موضع مربع، فقالت البربر نزل تاهرت وتفسيره الدفء لتربيعه، انظر : البكري : المغرب ص٦٦، وياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص٩، واليعقوبي : البلدان ص ١٥٣.

الإمام عبد الوهاب ذلك، وأرسل إليهم كتابا يفضح فيه خطأ خلف ومن انضم إليه[٤٣].

وهكذا كان موقف الإمام عبد الوهاب موقفا معارضا تماما لما حدث، وقد قام الإمام بتوضيح الخطأ الذي وقع فيه خلف بن السمح، وذلك في كتابه الذي أرسله إلى علماء الإباضية بحيز طرابلس والذي أكد فيه أيضاً أن أمر التولية والعزل من اختصاصات الإمام وأن الذين أيدوا خلفا بن السمح ووافقوا على توليته بعد أبيه قد أخطئوا في ذلك.

ومما لا شك فيه أن ما أقدم عليه خلف ومن معه من الخلفية كان في غاية الخطورة، وبخاصة إذا وضعنا في الاعتبار مدى اتساع المناطق التي أراد أن يحكمها خلف ومدى ثرائها الاقتصادي والبشرى، ويضاف إلى ذلك أيضا أن الخلفية أرادوا أن يجعلوها وراثية بدلا من عملية الاختيار التي يقوم بها الإمام في تاهرت.

ويرى الدكتور محمود إسماعيل أن الإمام عبد الوهاب خشي على نفوذه في النواحي الشرقية من جراء قيام حكم وراثي فيها، فأنكر على آل أبى الخطاب ما استباحه هو وأسرته من الخروج على مبدأ الاختيار إلى مبدأ الوراثة في الحكم، كما ضرب صفحا من توسلات إباضية الجبل لإبقائه واليا عليهم من قبله[٤٤].

وهكذا بدأ خلاف فقهي وسياسي يدخل في صفوف الإباضية فاضطربت أحوال الدولة الرستمية بعد عبد الرحمن بن رستم، وامتلأت بالفتن السياسية والانشقاقات المذهبية والصراع العنصري، مما حدا بالمؤرخ جوليان إلى القول بأن

---

(٤٣) ومما ورد في هذا الكتاب : " بسم الله الرحمن الرحيم من أمير المؤمنين عبد الوهاب إلى جماعة المسلمين بحيز طرابلس، أما بعد، فإني آمركم بتقوى الله واتباع ما آمركم به واجتناب ما نهاكم عنه، وقد بلغني ما كتبتم به إلى من وفاة السمح واستخلاف بعض الناس خلفا ورد أهل البر ذلك، فإن من ولى خلفا من غير رضا إمامه، فقد أخطأ سيرة المسلمين، ومن أبى من توليته فقد أصاب، فإذا أتاكم كتابى هذا، فليرجع كل عامل استعمله السمح إلى عمله الذى ولى عليه إلا خلفا بن السمح حتى يأتيه أمرى وتوبوا إلى ربكم وراجعوا التوبة لعلكم تفلحون "

انظر نص الخطاب في : الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١١، ٣١٢، أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٠، الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص١٥١.

(٤٤) د. محمود إسماعيل عبد الرازق : الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجرى ص ١٦٣ دار الثقافة، المغرب ط٢ ١٩٨٥ م.

تاريخ تاهرت لم يكن سوى سلسلة من القلاقل والخلافات الداخلية [٤٥] ويبدو واضحا أن رأى الإمام عبد الوهاب في خلف يختلف عن رأيه في أبيه السمح، فقد سبق أن ولى الإمام " السمح" نفسه نزولا على رأى الجماعة، أما بعد وفاته واختيار الناس ابنه، كان يقابله الرفض من جانب الإمام.

تطور الخلاف بين الإمام عبد الوهاب والخلفية

بدأ الخلاف يتطور بين الإمام عبد الوهاب والخلفية وبخاصة بعد أن تمسك أنصار خلف به وكتبوا للإمام ثانية عسى أن يستجيب لرغبتهم ولكنه رفض، وبطبيعة الحال لم يوافق خلف ولا أتباعه على رد الإمام عبد الوهاب، فاستمروا على موقفهم وعنادهم وقد طلب منهم الإمام عبد الوهاب أن يتوبوا وأرسل خطابا إلى خلف [٤٦] يأمره فيه بأن يعتزل أمور المسلمين ولا يأخذ من صدقاتهم ورغم أن خلفا هو الحفيد الأول للجماعة إلا أنه رفض الاعتزال والتف حوله جماعة من أتباعه لم يقتنعوا برأي الإمام عبد الوهاب، ورغبة منهم في اكتساب هذا الموقف الشرعية المذهبية، أرسلوا كتابا إلى غلمانهم بالمشرق وزعيمهم في ذلك الوقت، أبو سفيان محبوب بن الرحيل يعرضون عليه الخلاف القائم بينهم وبين الإمامة في تاهرت، يطلبون رأيهم، إلا أن الرد جاء بغير ما يتوقعون، إذ أوضح لهم أبو سفيان محبوب بن الرحيل خطأ من ولى خلفا وإصابة من لم يوله، وأمرهم بإتباع الإمام عبد الوهاب والتمسك بإمامته لأنها الإمامة الحقة[٤٧]

ولكن الخلفية أهملوا الفتوى ولم يأخذوا بها واستمروا على موقفهم وصبغوا موقفهم بصبغة مذهبية، وبدأوا يدعون أن الإمام عبد الوهاب هو ليس إمامهم لأن إقليمهم ينفصل عن بلاده بإمارة ابن الأغلب[٤٨] فيجب أن يكون لهم

---

[٤٥] Julian, Andre: Histoire de'l' Afrique du nord.p. 335, paris 1931

[٤٦] أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٢، والشماخى : السير ج٢ ص ٣١٢.

[٤٧] أبو زكريا : سير الأئمة صـ ١١٢

[٤٨] ابن الأغلب : هو إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التميمي، مؤسس دولة الأغالبة بالمغرب الأدنى، تولى الحكم سنة ١٨٤ هـ وحتى سنة ١٩٦ هـ، كان فقيها، أديبا، شاعرا خطيبا، ذا رأى ونجدة وبأس، وعلم بالحروب ومكايدها، لم يل إفريقية أحسن سيرة منه، تمهدت إفريقية في أيامه واستقامت الأحوال بها، انظر : ابن أبى دينار : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ٤٨، ٤٩ نشر المكتبة العتيقة، تونس ط ٢ ١٩٦٧ م. / الرقيق القيروانى : تاريخ إفريقية والمغرب ص ١٣٠ دار الفرجانى ١٩٩٤ م / ابن الأبار : الحلة السيراء ج١ ص ٩٩ الشركة

إمامهم وهو خلف، وفي ذلك يقول المؤرخ أبو زكريا في سير الأئمة " وزعموا أن عبد الوهاب ليس بإمامهم بغير حدث ولا بدعه، وزعموا أن عليهم خلف بعد سؤالهم الإمام أن يجوز لهم ما فعلوا من توليته وزعموا أن الحوزات منقطعة عن عبد الوهاب وأنه في حوزة وهم في حوزة أخرى[٤٩].

ومن خلال النص السابق يتضح أن هناك نزعة إلى الاستقلال في حيز طرابلس وجبل نفوسة عن الدولة الرستمية وإمامة تاهرت وعن ولاية الجبل وإعلان إمامة خلف وبذا أنكروا إمامة عبد الوهاب من غير حدث ولا بدعه [٥٠].

ومن المنطقي تصور أن يتطور الخلاف بين الإمام عبد الوهاب والخلفية من مجرد التمسك بوال عليهم إلى عدم الاعتراف بإمامة عبد الوهاب، وبأن سلطته لا تمتد إلى حوزة طرابلس.

ومن الجدير بالذكر أن الإمام عبد الوهاب كان يدرك تماما أن أخطار الانقسام تهدد دولته، وبخاصة لأن هذا الإقليم من دولته كان له أثره في دعمها ماديا وعسكريا، ولذلك تريث في كيفية منع هذه الفتنة الجديدة التي قد تصدع حكمه، وبخاصة بعد أن اقتنع تماما بأن الخلفية بدأوا يدخلون في دور العناد والافتراق عن الدولة والانشقاق عنه.

وبدأ تمرد الخلفية بحيز طرابلس يزداد وبدأ زعيمهم خلف يحرض الناس على التمسك بما فعلوه وبذل لهم الوعود ومناهم بما جعلهم يتمسكون به، كما فعل ابن فندين [٥١] وشعيب المصري[٥٢].

العربية للطباعة ١٩٦٣ م. / د. بدر عبد الرحمن محمد : دولة الأغالبة والأدارسة في بلاد المغرب ص ١- ١٥ مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨٦م.

[٤٩] أبو زكريا : سير الأئمة ص١٢٢

[٥٠] الدرجيني: طبقات الدرجنى ج١ ص ٥١،٥٣، الباروني: الأزهار الرياضية: ج٢ ص١٥٠، ١٥١

الشماخي: السير ج ٢ ص ٣١٢، الماوردى : الأحكام السلطانية، عقد الإمامة ص٧

[٥١] يزيد بن فندين : هو زعيم جماعة من الإباضية يطلق عليهم (النكارية)وذلك لأنهم اعترضوا على إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الذى تولى الإمامة في تاهرت سنة ١٧٨هـ وكان مبعث خلافهم أنهم أثاروا نقطة العلم عند الإمام وهل يجوز أن يبقى الإمام في السلطة إذا ما ظهر بين أفراد الجماعة من هو أعلم منه ؟ وبهذا المنطق أثاروا نوعا من الشك في صحة إمامة عبد الوهاب وتطورت هذه

وكان خلف قد غمره الحكم وامتلأ بغطرسة الأمر والنهى واستمر في تمرده وعصيانه، ولكن في نفس الوقت كان هناك من ينكر تصرفاته وعصيانه للإمام عبد الوهاب في تاهرت، ومن ثم طلبوا من الإمام أن يولى عليهم والياً، فكتب بالولاية إلى أحد العلماء في ذلك الوقت وهو أبو الحسن أيوب بن عباس.

ولاية أبى الحسن أيوب بن عباس على حيز طرابلس الغرب

جاء اختيار أيوب بن عباس في الوقت المناسب، فقد بدأت حركة الخلفية تزداد وتنتشر ويزداد أعوانها، وهنا تظهر براعة الإمام عبد الوهاب في اختياره لهذا الرجل، لأن أيوب بن عباس كان رجلا تقيا ورعا، فهلل المسلمون لولايته وبخاصة لأنه كان يتمتع بشخصية قوية مما جعل خلف يهابه، وقد وصفه المؤرخ الشماخى بقوله : " ومنهم – أي علماء المغرب – أيوب بن عباس النفوسى، من أهل التقى والصلاح والاشتهار في طرق الخير وسبل الرشاد، وكان الغاية في الشجاعة، وقيل إنه قال : " لا أعلم من فاس إلى مصر فارسا يبارزنى"، وله أخبار في الشجاعة وسير في الحروب ومعرفة فرائسها ومزاولتها" [٥٣] وكان ذا بأس وشدة وشجاعة هابه الخلفية وكان ذا عدل واستقامة.

وبعد أن علم الخلفية بولاية أيوب، تملكهم اليأس، وأفاق خلف، فالتزم بالسكون والطاعة لما يعرفه من مكانة أيوب من الناحيتين العلمية والعسكرية.

الحركة حتى وقع الصدام المسلح بين المؤيدين للإمام عبد الوهاب وبين النكار أسفر عن مقتل زعيم النكار ابن فندين وبعض أنصاره.

انظر : أعمال الأعلام ص٥٣، الإباضية بالجريد ص٧٧،٧٨، الإباضية بين الفرق الإسلامية ص٢٥٨، الفصل في الملل والنحل ج٤ص١٩١، د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ج٢ ص٣١٥، سير الأئمة ص ٩٣

[٥٢] شعيب المصرى : هو شعيب بن المعروف أحد زعماء الإباضية بالمشرق وكان موجودا بمصر ثم خرج إلى تاهرت طمعا في الإمارة وقد نهاه بعض مشائخ الإباضية في مصر عن المسير إلى تاهرت إلا أنه لم يستجب إلى ذلك وانضم إلى يزيد بن فندين ورأى أن يطور الحركة (النكارية) من حيز النشاط السياسى المؤقت إلى حركة أو مذهب دينى يعتمد مسائل يختلف بها عن جمهور الإباضية، انظر : أبو زكريا : سير الأئمة ص ٩٢. / ابن الصغير المالكى : أخبار الأئمة الرستميين ص ٢٥٠ دراسة وعرض د. حسن على حسن، القاهرة ١٩٨٤ م. / د. صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهبا ص ٥٢ دار الجيل – بيروت ١٤٠٥ هـ.

[٥٣] الشماخى : السير ج٢ ص٢٩٤

وقد نجح أيوب بن عباس في ضبط الأمور بحيز طرابلس وجمع كلمة المسلمين وتوحيد صفوفهم، وتذكر بعض الروايات التاريخية أنه حارب خلفا بن السمح عندما سولت له نفسه أن يتمرد مرة أخرى، وبذلك يكون أيوب قد نجح في إخماد فتنة الخلفية لفترة وجيزة، ولكن ما لبث أن توفي أيوب بن عباس، فأسند الإمام عبد الوهاب ولاية المنطقة إلى أبى عبيدة عبد الحميد الجناونى[٥٤].

ولاية أبى عبيدة عبد الحميد الجناونى على طرابلس

بعد وفاة أيوب بن عباس، أرسل أهل طرابلس إلى الإمام عبد الوهاب أن يولى عليهم أحدا، فأجابهم أن يختاروا أفضلهم وأولاهم بأمور المسلمين، فكتبوا إليه أنه ليس مثل أبى عبيدة لهذا الأمر، وهو عبد الحميد الجناونى، فأرسل الإمام إليهم أن يولوه بأمره، فاجتمعوا إلى أبى عبيدة وأخبروه بما كتب به الإمام وما أمرهم به من توليتهم إياه على أنفسهم، على أن يقضى بينهم بكتاب الله وسنة نبيه وآثار الصالحين[٥٥].

وقد رفض أبو عبيدة في بداية الأمر الولاية على جبل نفوسة وحيز طرابلس، ولكن ما لبث أن استجاب لرغبة أهل الجبل وقبل الولاية[٥٦] ومن المنطقي تصور أن أبا عبيدة يتردد في ولايته على حيز طرابلس لعدة أمور، منها، أنه خشي من الصعوبات التي قد يسببها له الخلفية بقيادة خلف بن السمح، ومنها، الاضطرابات في هذه المنطقة من الدولة الرستمية وصراعاتها الداخلية، ومنها، أيضا ورع وتقوى أبى عبيدة وتفرغه للعلم، ومنها، خوفه أن تكون هذه الولاية بدون علم الإمام عبد الوهاب.

ولذلك تباينت ردود فعله عندما عرض عليه أهل جبل نفوسة الولاية عليهم، حيث قال لهم : (أنا ضعيف، أنا ضعيف، ولا أطيق القيام بأمور المسلمين، فأرسلت نفوسه إلى الإمام – عبد الوهاب– بامتناعه وقوله : أنا ضعيف، فأجابهم الإمام

---

(٥٤) هو أبو عبيدة عبد الحميد الجناونى : أحد علماء نفوسة الموصوفين بألاق نفيسه مال إلى ما طبع عليه من الورع واطراح الحرص والدنيا وترك الطمع، وكان غاية في إنفاذ الأمور وإمضائها، وقائم بالمدافعة لأحوال البغاة ودفاعها، ووافيا بما أمر من إصلاح النفس والدين والدنيا وتحصينها، فلما ولى " أحسن السيرة، انظر : الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٠.

(٥٥) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٣

(٥٦) أبو زكريا : سير الأئمة ص١٢٥

وحلف بالله "بلغة العرب وبلغة العجم وبلغة البربر، أن لا يقلد المسلمين وأمورهم إلا رجلا يقول أنا ضعيف، وكتب إلى أبى عبيدة يأمره بالدخول في أمور المسلمين [٥٧].

وبعد أن تولى أبو عبيدة الأمور، أحسن السيرة وعدل في القضية وساس الرعية وصحب الأشياخ ورضي به أهل الخير مثل أبى زكريا وأبى فراس وأبى الحسن الابدلانى[٥٨].

وكان خلف بن السمح ومن معه من الخلفية في ذلك الوقت يستمرون في تمردهم وعصيانهم وازداد ذلك بعد تولية أبى عبيدة، فبدأوا يغيرون على المناطق الداخلية.

ويبدو واضحا أن خلفا بن السمح قد غضب عندما علم بقبول الناس لولاية أبى عبيدة، ولذلك جدد ثورته وقام بشن الغارات على بعض الأطراف التي تحت حكم أبى عبيدة ونشر الذعر في الطريق وقطع السبل ودس اللصوص على أهل الدعوة من رعية أبى عبيدة [٥٩]

---

(٥٧) الشماخى : السير ج٢ ص٣١٣.
* وتشير بعض الروايات التاريخية بأن كلمة ضعيف التي ذكرها أبو عبيدة يقصد بها، أنه ضعيف المال والبدن والعلم فكتب إليه الإمام يقول : إن كنت ضعيف البدن فادخل في أمور المسلمين يقوى بدنك وإن كنت ضعيف العلم فعليك بأبى زكريا وإن كنت ضعيف المال فبيت المال يسعك ويسع غيرك " انظر : الدرجينى : طبقات الإباضية ج ١ ص ٧١، الشماخى : السير ج ١ ص ٣١٣.

(٥٨) الشماخى : السير ج٢ ص٣١٤.
* وذكر المؤرخ الدرجيني أن أبا عبيدة استشار عجوزا معروفة بالعلم والورع والدين، فقال لها: إن أمير المؤمنين بعث إليّ بالولاية، فأشيري عليّ، فقالت: إن علمت في نفوسة أفضل منك فتقدمت، فستكون خشبة في جهنم، وإن علمت ليس فيهم أفضل منك، فتأخرت، فستكون خشبة في جهنم، فقال: أما في أمور الرجال، فلا أعلم فيهم مثلي، فرجع إلى المشائخ وقبل الدخول في أمورهم، انظر: الطبقات ج١ ص٧١.

(٥٩) الدرجينى : طبقات الدرجينى ج١ ص ٧٢.
البارونى : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٥٤، ١٥٥.
د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ج ٢ ص ٣٤٣.
الشماخى : ج٢ ص ٣١٣،٣١٤.

وقد ذكر المؤرخ الشماخى مدى غضب خلف بن السمح قائلا: "فلما سمع خلف بولايته – أي بولاية أبى عبيدة – اشمخر واستكبر وشن الغارات على المسلمين ومن كان في حيز أبى عبيدة"(٦٠).

وهكذا استفحل شأن خلف وأتباعه وأخذ في شن الغارات على الأطراف، فأرسل أبو عبيدة إلى الإمام عبد الوهاب يطلب منه أن يأذن له في حرب خلف(٦١).

وقد نجح خلف في الاستحواذ على معظم أنحاء الجبل دون أن يحرك عامل عبد الوهاب ساكنا أو أن يحث الإمام لمواجهته بنفسه، وقد أشار المؤرخ الباروني إلى أسلوب التجسس الذي اتبعه الإمام عبد الوهاب، وذلك عن طريق شخص يدعى عمرو بن يانس الذي كان يندس بين أصحاب خلف ويكاتب الإمام بكل ما يسمعه للإيقاع بخلف وأتباعه، كما أن الإمام عبد الوهاب بعث إلى المبرزين من أنصار خلف يستميلهم ويمنيهم بالأموال والضياع (٦٢)

ومن الملاحظ أن أبا عبيدة لم يكن متسرعا في التعامل مع خلف لأنه لم يرد إراقة دم المسلمين، كما أنه كان يسعى دائما إلى الحلول السلمية دون الدخول في قتال مباشر مع خلف وعندما ازداد خلف في تمرده وعصيانه لجأ أبو عبيدة إلى الإمام عبد الوهاب، وهو بدوره أيضاً لم يكن يريد القتال، ولذلك أشار إلى أبى عبيدة أن يلاطف خلفا وألا يفتح معه بابا للقتال،: "وقد أرسل إليه أبو عبيدة كي يكف عن فعله، فأبى، فأرسل إلى الإمام أن يأذن له في دفاعه فأجابه بأن يلاطفه ويلاينه، إلا إن فاجأه فليدفعه " (٦٣)

وقد امتثل أبو عبيدة للأمر ورد على استفزازات خلف بطلب الكف عن المسلمين وجعل الخلاف نظريا يعتمد على المناقشة والردود عليها، والحوار، وهكذا رغب الإمام في الموادعة والجنوح إلى المسالمة حتى لا تزداد شقة الخلاف بين

---

(٦٠) الشماخى : السير ج٢ ص٣١٤

(٦١) د. محمد عيسى الحريرى : الدولة الرستمية ص ١٣٧.

(٦٢) البارونى : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٥٥.

*ومن الواضح أن عمرو بن يانس كان على صلة أيضاً بخلف، ويؤكد ذلك ما ذكره المؤرخ الشماخى في السير، حيث يقول : " كان عمرو بلاء على المسلمين، وصاحب خلفا، وأحدث أحداثا على المسلمين وكان يتبع عوراتهم ويكاتب الإمام "، انظر : السير ج ٢ ص٢٩٨.

(٦٣) الشماخى : السير ج٢ ص ٣١٤.

أنصار وأتباع المذهب وقد هدأت الثورة قليلا من ناحية خلف، وبدأ يميل إلى السكون قانعا بما في يده ساعيا لاستمالة الناس[٦٤]

وظل أبو عبيدة قائما بدوره في حيزة مواصلا للإمام بما يجب من المال[٦٥] ولكن قدر لهذه الحركة - الخلفية - الاستمرار إلى أن وافت المنية الإمام عبد الوهاب سنة ٢١١هـ /٨٢٦ م [٦٦]، وعند وفاته كانت معظم أجزاء الدولة الشرقية في حوزة خلف بن السمح.

ولا شك أن الإمام عبد الوهاب نجح في توطيد دولته واتساعها، رغم أنه واجه عدة ثورات، اتخذ بعضها طابعا مذهبيا كحركة النكار وكالحركة الواصلية واتخذ البعض الآخر طابعاً قبلياً كحركة قبيلة هوارة.

كما أنه استطاع السيطرة على حركات التمرد والعصيان المتمثلة في حركة الخلفية بقيادة خلف بن السمح، وحركة النفاثية بقيادة فرج بن نصر النفوسي[٦٧]

وبذلك ترك لخلفائه دولة قوية الدعائم متينة الأركان، وقد تحدث المؤرخ ابن الصغير عن ضخامة الدولة في عهد الإمام عبد الوهاب وسيطرته على مقاليد الأمور فقال: "أخبرني بعض الإباضية أن عبد الرحمن بن رستم لما مات قامت الإباضية فعقدت الإمامة لابنه عبد الوهاب فكان ملكا ضخما وسلطانا قاهرا" وعن اجتماع الإباضية حوله وكثرة جيشه واتساع مملكته ومكانته بين الأمراء الرستميين يقول: " وكان عبد الوهاب هذا قد اجتمع له من أمر الإباضية وغيرهم ما لم يجتمع

---

(٦٤) البارونى : ج٢ ص ١٥٥

(٦٥) البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص١٥٧

(٦٦) أبو زكريا : سير الأئمة ص١٢٦، ود. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ج٢ ص٣٣٧.

(٦٧) ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين ص ١٦.

*والنفاثية فرقة من فرق الإباضية، أفرزتها العوامل السياسية والمتغيرات التي كان يتعرض لها الإباضيون، وتنسب إلى فرج بن نصر النفوسى المعروف بالنفاث وهو من القرى القريبة من جبل نفوسة، وقد لقيت هذه الفرقة استجابة كبيرة من جانب الإباضيين في نفوسة، وذلك لمناهضة الدولة الرستمية، ولكن المصادر الإباضية تعتبر هذه الفرقة مارقة وخارجة عن الإمامة الإباضية وذلك لأسباب سياسية وعقدية عندهم، انظر : أبو الربيع سليمان البارونى : مختصر تاريخ الإباضية ص ٣٧، ٣٨، وعلى يحيى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٢٦٥، ود. صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهبا ص٥٥- ٥٧.

للإباضيه قبله ودان له ما لم يكن يدن لغيره واجتمع له من الجيوش والحفدة ما لم يجتمع لأحد قبله، ولقد حكي لي وجماعة من الناس أنه قد بلغت سمته إلى أن حاصر مدينة طرابلس وملأ المغرب بأسره إلى مدينة يقال لها تلمسان [٦٨].

وقد وصفه المؤرخ الشماخي في السير، بقوله "الإمام الباسل، الشجاع، التقى، اللين، الحليم أمير المؤمنين عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم" [٦٩]

موقف الخلفية من الإمام أفلح بن عبد الوهاب (٢١١-٢٤٠هـ/٨٢٦-٨٥٤م)

بعد وفاة الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم بويع ابنه أفلح بالولاية، وقد اتصف الإمام أفلح بالعديد من الصفات، في مقدمتها الشجاعة، كما عرف شغفه بالعلم ومناظرة العلماء.

وقد أشار المؤرخ الباروني إلى أن الإمام أفلح قد خلف عدة مؤلفات ورسائل وأجوبة ونصائح ومواعظ وحكما، كما كان أديبا ذا اقتدار على النظم [٧٠].

ولكن إمامة أفلح بن عبد الوهاب تعد خروجا على مبدأ الانتخاب العام الذي نادت به فرقة الإباضية وغيرها من فرق الخوارج، فقد رفض الخوارج مبدأ التعيين أو الوراثة فطالبوا بتطبيق مبدأ الشورى أي الانتخابات، على أن يكون المرشح من أي جماعة من الناس حتى ولو كان عبدا حبشيا [٧١].

وقد علل الإباضية هذا المسلك بإحاطة الأعداء بمدينة تاهرت، ومن ثم كانت المصلحة تقتضى تعيين أفلح المشهور بالشجاعة والعلم درءا لضرر متوقع، وهذا

---

(٦٨) ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين ص ١٧
وتلمسان : بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة، وبعضهم يقول تنسمان بالنون عوض اللام بالمغرب، وهى قاعدة المغرب الأوسط ولها أسواق ومساجد وغلاتها ومزارعها كثيرة وفوكهها جمه وخيراتها شاملة، ولم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة أخمان وفاس أكثر من أهلها أموالا ولا أرفه منها حالا، ولم تزل تلمسان دارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأى على مذهب مالك بن أنس رحمه الله " انظر : البكرى : المغرب في ذكر بلاد المغرب ص٧٧،٧٦، الاستبصار ص١٧٦، ياقوت الحموى، معجم البلدان ج٢ص٤٥٤

(٦٩) الشماخى : السير ج٢ص٢٧٢

(٧٠) البارونى : الأزهار ج٢ص١٦٦، وانظر أيضاً : رابح بونار : المغرب العربى، تاريخه وثقافته ص ١١١، ١٣٧ – ١٤٥ ط الشركة الوطنية للنشر بالجزائر (د. ت).

(٧١) د. إبراهيم العدوى : بلاد الجزائر ص٢٠١

تبرير من جانب مؤرخي الإباضية، لأن أفلح بويع بولاية العهد قبل ذلك، خلال معركته ضد هوارة، فضلا عن ممارسته للإدارة في تاهرت خلال عهد والده [٧٢].

ويقول الدكتور إبراهيم العدوى : "ويعتبر خروج الإباضية في الدولة الرستمية على قاعدة الانتخاب العام أو الشورى، نوعا من حرية التشريع لجأ إليها الأئمة الرستميون حفاظا على كيان الدولة من التفتت والانقسام من جراء الفتن والقلاقل التي كانت تتعرض لها من حين لآخر، وبهذا أصبحت الدولة الرستمية تجرى على أسس تشريعية مشابهة للأسس التي تجرى عليها سائر الدول الإسلامية في المشرق والمغرب، وهى احترام مبدأ الوراثة" [٧٣].

وعندما علم الخلفية بإمامة أفلح بن عبد الوهاب كان موقفهم موقف المعارض سواء للإمام أفلح أو لأبى عبيدة الجناونى الوالي الشرعي لمنطقة جبل نفوسة وحيز طرابلس، وقد أصر الخلفية على عدم الاعتراف بإمامة أفلح بن عبد الوهاب، واستمرت حركتهم في المناطق الشرقية من الدولة لمدة عشرين عاما من حكم هذا الإمام، وقد تطورت هذه الحركة واتخذت طابع الإغارات على المناطق التي يحكمها أبو عبيدة عبد الحميد والى منطقة نفوسة من قبل الإمام عبد الوهاب.

ومن المنطقي تصور أن الخلفية استغلوا وفاة الإمام عبد الوهاب فازداد تقدمهم وتعديهم وجورهم وفسادهم نظراً لانشغال الدولة الرستمية بتعيين الإمام الجديد، وهى محاولة منهم للسيطرة على الأمور والاستفادة من هذا الموقف.

وفي ظل تلك الأحداث لجأ أبو عبيدة إلى الطرق السلمية، فعرض على خلف بن السمح فكرة النقاش السلمي بين الطرفين على أن يكتفي كل بناحية، لكن خلفا رفض ذلك، وبدأ يشن الغارات على ناحية أبى عبيدة، وانتشرت جماعاته للسلب والنهب والتخريب وقتل النفس التي حرم الله دون تمييز، حتى قيل إنه كان يقتل بالخطأ أناسا من أتباعه، وفي ذلك يقول المؤرخ الشماخي " وتمادى- أي خلف – في العتو والفساد فقتل الأنفس ونهب الأموال وقتل بعضا من أصحابه غلطاً" [٧٤].

جهود الإمام أفلح بن عبد الوهاب في القضاء على ثورة الخلفية

بعد أن فشل الوالي أبو عبيدة عبد الحميد في المحاولات السلمية التي بذلها تجاه خلف وأتباعه لمنع سفك الدماء، لم يكن أمامه إلا اللجوء إلى الإمام أفلح بن

---

(٧٢) ابن الصغير المالكى : أخبار الأئمة الرستميين، ق ١ دراسة وعرض د. حسن على حسن ص ١٥٠.

(٧٣) د. إبراهيم العدوى : مرجع سابق ص٢٠٢

(٧٤) الشماخى : السير ج٢ ص٣١٥

عبد الوهاب لمعالجة الموقف والحقيقة أن الإمام أفلح لم يأل جهدا في القضاء على ثورة خلف بن السمح، تلك الثورة التي كانت تفت في عضد الدولة من أيام والده عبد الوهاب، وبعد أن تولى أفلح منصب الإمامة وصلته من أبى عبيدة عامله على جبل نفوسة، رسالة يطلب فيها من الإمام أن يسمح له بحرب خلف بن السمح للقضاء على حركته.(٧٥)

وفي أثناء ذلك كان خلف قد عظمت شوكته، فطغى واستخدم الترغيب والترهيب واستمال الرجال بالعطايا والأموال وتشبه بالأمراء، فسكن القصور واتخذ الخدم والحشم وأكثر من الموالى والعبيد وأترف في حياته واتخذ زينة الحياة حتى غره متاعها من الحرث والخيل المطهمة والحصير وأجرى على أتباعه الإقطاعيات (٧٦).

وجاء الرد على رسالة أبى عبيدة من الإمام أفلح، بعدم الدخول في حرب وطلب الإمام من أبى عبيدة أن يساير خلفا ويلاطفه ويستعمل معه كل سياسة من شأنها أن توطد الأمن وتحقن الدماء.

وبذلك يتضح أن سياسة اللين والحوار التي طلبها الإمام أفلح من أبى عبيدة، هي نفس السياسة التي طلبها والده من قبل، ويتضح من ذلك أيضا أن سياسة الأئمة الرستميين لم ترغب في الصراع العسكري، ولكنهم كانوا يفضلون الطرق السلمية من أجل استقرار البلاد، والسيطرة على الانشقاقات الداخلية حتى لا تضعف الدولة وتؤدى إلى سقوطها سريعا.

ومن العوامل التي ساعدت الخلفية على الاستمرار في التمرد، أن ناحيتهم كانت خصبة وتنعم بالرخاء، مما زاد من أتباع خلف، أما أبو عبيدة فلم يكن في استطاعته أن يجرى على أتباعه الإقطاعيات، لأن ناحيته كانت مجدبة وأقل خصبا من ناحية خصمه خلف الذي ساعده ثراءه كثيرا في حركته، ولذلك يقول أحد المؤرخين "فأخصب الله جهته - أي خلف - استدراجا، وأجدب جهة أبي عبيدة، فمال الناس إلى خلف طلبا للخصب والرخاء وإخلادا إلى الأرض والدنيا"(٧٧).

---

(٧٥) د. محمد عيسى الحريرى : الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامى ص ١٤٤، دار القلم، ط ٣ الكويت، ١٩٨٧ م ص١٤٤.

(٧٦) البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ص١٦٦.

(٧٧) الشماخى : السير ج٢ ص٣١٥

والحقيقة أن أبا عبيدة قد ضاق ذرعا من تصرفات خلف بن السمح ومن سياسة اللين والحوار التي يطلبها من الإمام أفلح كلما أستأذنه في الدفاع والدخول في حرب مع خلف.

ومن ناحية أخرى كان خلف يعمل على إقصاء أبى عبيدة ويسعى لضم كافة الأقاليم التي كانت في نطاق حكم جده أبى الخطاب، وقد تمكن بالفعل من مد نفوذه حتى بلدة تيمتى وما وراءها شرقا منتهزا تقاعس أفلح عن مساعدة عامله [٧٨]

وضمن خلف بذلك السيطرة على الأرض الخصبة والمراعى الغنية فضلا عمن بها من الإباضية.

محاولة الخلفية الاستيلاء على أدرف [٧٩] :-

بعد أن أدرك خلف بن السمح، انشغال الإمام أفلح بن عبد الوهاب عن حيز طرابلس وجبل نفوسة، وبعد أن تبين له عدم استطاعة أبى عبيدة على الدخول في حرب معه ورغبته في اللجوء إلى السلم، بدأ يتمادى في تصرفاته ويحاول التوسع والسيطرة على القرى المجاورة له.

ولذلك خرج هو ومجموعة من جنده قاصدا ناحية (جادو)[٨٠] في محاولة منه لاستفزاز أبى عبيدة ولبيان ما إذا كان أبو عبيدة جادا في حربه معه أم أنه يركن إلى السلم والهدوء،وعندما علم أبو عبيدة بتحركات خلف خرج هو أيضا إلى نهاية غابة الزيتون عند قرية يقال لها أدرف وهى ناحية قريبه من الجبل.

---

(٧٨) Lewicki , Etudes Ibadites Nord Africaine ,p.115

(٧٩) أدرف : إحدى القرى القريبة من جبل نفوسة، وقد اختلف المؤرخون في اسم القرية حيث يذكرها البارونى باسم " درف " ويذكرها الدرجينى باسم " ويدوف " أو " يدوف " بينما يسميها أبو زكريا " درف " وهى مشهورة باسم " درف " وينسب إليها أبو محمد الدرفي، انظر : البارونى : الأزهار الرياضية ج ٢ص ١٦٧، والدرجينى : طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٣. والاستبصار ص ١٤٤، والمسالك والممالك ص١٠.

(٨٠) جادو: مدينة كبيرة بجبل نفوسة وهى مدينة جبلية تقع الآن في شمال غرب ليبيا وتعرف أحيانا باسم فساطو نسبة إلى القبيلة التي تسكنها وهى تبعد عن العاصمة الليبية حوالى ١٨٠ كم تقريباً، وكلمة جادو تعنى الأرض كثيرة التراب، وجادو هى المركز الاقتصادى والسياسى والدينى للجهة الشرقية من جبل نفوسة وكان لهذا البلد القديم أسواق يسكنها عدد كبير من اليهود، انظر: الشماخي: السير ج٣ ص ٨٤٨.

وتذكر الروايات التاريخية أن جماعة من عسكر خلف قاموا بالاعتداء على أصحاب أبى عبيدة، فأمر أبو عبيدة بعدم التعرض لهم إلا إذا بدأوا بشر، فلما أغاروا على القرية، أكثروا فيهم القتل والسلب والنهب، وبخاصة لأن أهل هذه القرية كانوا ضعافا، وقد أخذوا منهم الدواب واستطاعوا قتل عشرة من أصحاب أبى عبيدة [٨١].

وهكذا نجح خلف في السيطرة على القرية والاستيلاء على مغانمها، ومن المنطقي تصور موقف أبى عبيدة أمام تلك الأحداث، فقد كان يراقب الموقف من مكانه، وكان لابد أن يدافع عن نفسه وعن أهل القرية، وبخاصة بعد أن اتضح له غدر عدوة، ولذلك أمر رجاله بوجوب الدفاع ونزل في مقدمتهم فقاتلوا عدوهم الذي ولى منهزما، وقد جاء بعض من عسكر خلف إلى أبى عبيدة بعد أن هلك من عسكره من هلك، ورغم ما حدث لأبى عبيدة وأصحابه من خلف إلا أنه أمر رجاله أن يخلوا سبيلهم وألا يتبعوهم[٨٢].

معركة إجناون سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م [٨٣].

بعد هزيمة خلف بن السمح في أدرف، اتجه بأتباعه إلى ناحية،" تيمتى" وما يليها شرقا، وهناك استطاع أن يجند جيشا ضخما للدخول في جولة حربية أخرى مع أبى عبيدة، أما أبو عبيدة فإنه عاد إلى (إجناون) وكتب إلى خلف كتابا يعظه فيه، وذلك في إطار سياسة الملاطفة التي أمر الإمام أفلح أبا عبيدة أن يلتزم بها، فأخذ يدعوه إلى الكف عن الفساد أو الالتزام بالناحية التي هو فيها، وعدم الكر والفر وقال له : " وإذا نزعت يا خلف يدك عن الطاعة، فكن في حيزك وأكون في حيزى، فما بال الحرب " [٨٤].

---

[٨١] البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٦٧.

[٨٢] الشماخى : السير ج٢ ص ٣١٥.

[٨٣] إجناون: بلد في منطقة فساطو غربى جادو في جبل نفوسة، ذكرت منذ القرن الثالث الهجرى ومازالت عامرة، وقيل إن كلمة (إجناون) بربرية تعنى العبيد، ويذهب البعض إلى كونها الصيغة المحلية لكلمة الأجنة العربية، لما عرفت به من كثرة البساتين، وقد ذكر المؤرخ الشماخى أن عين إجناون تدور على اثنى عشر ألف زيتونة: انظر: الشماخى: السير ج ٣ ص ٨٢٥.

[٨٤] الشماخى : السير ج٢ص٣١٥، وقد علق هذا المؤرخ على خلف قائلا: (فأبى وتمادى في شن الغارات ونهب الأموال وقتل الأنفس، وما قدروا عليه من الفساد) انظر: ج٢ ص٣١٥.

ومن خلال النص السابق يكون من المنطقي تصور أن أبا عبيدة كان يدرك تماما مدى قوة وخطورة خلف وأتباعه، ولذلك تعددت محاولاته السلمية معه، ولكن رغم هذه المحاولات من جانب أبى عبيدة إلا أن خلفا كان حريصا على استمرار إغاراته وسفك الدماء في حيز أبى عبيدة، ومحاولة قتل أصحابه أينما وجدوا.

وقد ظل الحال على ذلك لمدة عام أو يزيد، كان خلف يستعد فيها للقيام بجولة حربية كبيرة مع أبى عبيدة.

والغريب في الأمر أن الإمام أفلح بن عبد الوهاب تجاهل هذا التمرد من جانب الخلفية، رغم خطورة حركتهم، وكان يطلب دائما من واليه على حيز طرابلس، وهو أبو عبيدة، أن يلجأ إلى سياسة اللين والملاطفة، رغم أن هذه السياسة لم تفلح مع خلف بن السمح وأتباعه.

وربما يرجع تجاهل الإمام إلى خوفه من حدوث انشقاق عند الإباضية في العاصمة تاهرت، كما أنه كان يخشى أن يترك العاصمة ويتجه إلى المشرق فيحدث ما هو أسوأ من حركة خلف بن السمح.

وعموما فقد ازدادت حركة خلف الانفصالية وأصبح يدعو إلى فصل حيز طرابلس تماما عن العاصمة تاهرت وما حولها [٨٥].

ولم يجد الوالي أبو عبيدة بدا من تجهيز حملة والخروج لمواجهة هذا الخطر الداهم والمستمر من جانب الخلفية، والحقيقة أن أبا عبيدة كان قد اشتد غيظه وضاق ذرعه من تصرفات خلف، ومن هنا بدأ يفكر في الدخول معه في حرب كبيرة وفاصلة.

وفي المقابل بدأ خلف يستعد للقاء أبى عبيدة بعد أن بلغه خبر استعداده لحربه، فخرج في أربعين ألف مقاتل قاصدا إياه، وقد تلقى أبو عبيدة هذا النبأ على غير توقع، فلم يجمع إلا ثلاثمائة وثلاثة عشر [٨٦] وقيل سبعمائة، وفي ذلك يقول المؤرخ الشماخي : " ثم أقام – أي خلف – على ذلك نحو سنه فخرج بعسكره، يريد أبا عبيدة ومن معه من المسلمين، فعسكر أبو عبيدة بعيدا عن الجبل في تله، لكنهم أهل بصائر يموتون على ما أبصروا، وقيل عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا،

---

(٨٥) والمقصود بذلك أن يفصل خلف الحدود الشرقية للدولة الرستمية وهى التي تبدأ من خليج سرت إلى طرابلس وقابس ماعدا مدينة طرابلس والساحل فإنهما يقعان تحت النفوذ الأغلبي: انظر: محمد على دبور: تاريخ المغرب الكبير ج٣ص٥١٦.

(٨٦) البارونى : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٦٨.

وعسكر خلف في أربعين ألفا، وقيل : عدد من مع أبى عبيدة سبعمائة والله أعلم ".....(٨٧).

ومما لا شك فيه أن تلك الأعداد الكثيرة التي كانت تابعة لخلف بن السمح، كانت أحد أسباب تردد أبى عبيدة في مواجهة خلف، كما أنها كانت حافزا لخلف على الاستمرار في التمرد والطغيان، وأعطته ثقة في نفسه وزادت من أتباعه وملأت نفسه بالخيلاء والعظمة والإعجاب بقوته وبما فاق به عدده من الكثرة ورباط الخيل.

ومن المنطقي تصور أن كثرة عساكر خلف، جعلته يتمادى في طلباته ويغتر بقوته، فبدأ يطلب من أبى عبيدة مطلبا خطيراً، وهو أن يخلع بيعة الإمام أفلح بن عبد الوهاب وأن يبايعه، وكان ذلك عن طريق رسولين أرسلهما خلف إلى أبى عبيدة.

وهكذا حدث تطور جديد في العلاقة بين الخلفية بقيادة خلف بن السمح وبين أبى عبيدة الوالي على حيز طرابلس نيابة عن الإمام أفلح بن عبد الوهاب، وهذا المطلب من خلف يبرز عدة أمور، يأتي في مقدمتها، أن خلفا بدأ يتطلع إلى الإمامة على الدولة الرستمية كلها، ويتجاوز تمرده وانفصاله المحلى في حيز طرابلس إلى السيطرة على كافة أقاليم الدولة الرستمية، ومنها أيضا، شعوره بالثقة بنفسه نظراً لكثرة جنده، ومنها أيضا، خوف أبى عبيدة من الدخول معه في حرب،ومنها أيضا، تجاهل الإمام أفلح للمنطقة الشرقية من الدولة الرستمية وتركها في حالة التمرد والعصيان.

ويضاف إلى ذلك أيضا بعد العاصمة تاهرت عن الجهة الشرقية من الدولة الرستمية، وكان خلف قد أرسل الرسولين قبل بدء المعركة إلى أبى عبيدة ليدعوانه على طاعته وخلع طاعة الإمام أفلح، وبطبيعة الحال رفض أبو عبيدة.

وقد ذكر المؤرخون مناقشة أبى عبيدة للرسولين، والحوار الذي دار بينهما، وكان موضوع الحوار حول ما إذا كان الإمام أفلح قد أحدث حدثا يستحق به أن تخلع ولايته، وأن السمح والد خلف، كان عاملا مخلصا للإمام عبد الوهاب، وفي ذلك يقول المؤرخ الباروني في الأزهار الرياضية " فقال أبو عبيدة لهما،لما أخبراه بالرسالة، أيخلع بغير سبب وحدث، يستحق به خلع طاعته؟ واحتج عليهم بطاعة السمح للإمام عبد الوهاب، ورد ما ادعوه من انقطاع الحوزات بذلك، فقالا : إن لم

(٨٧) الشماخى : السير ج٢ ص٣١٦ – البارونى : الأزهار ج ٢ ص ١٦٨.
وخلافا للشماخى في السير وللبارونى في الأزهار الرياضية، فقد ذكر الدرجينى في طبقات الإباضية أن عسكر خلف كان يعد أربعة الاف، وهذا الرأى هو الصحيح لأنه يتناسب مع جبل نفوسة من حيث المساحة وعدد السكان، انظر : ج ١ ص ٧٤.

تجبه، تخاف إراقة الدماء، فقال – أي أبى عبيدة – إراقة الدماء أهون من عدم القيام بأمر الله ودينه، فقالا : إراقة الدماء أعظم، ورد مقالتهم بفعل أهل النهروان [٨٨] والنخيلة وأبى بلال (مرداس)[٨٩] وعبدالله بن يحيى وغيرهم "[٩٠].

ومن النص السابق يتضح تهديد الرسولين لأبى عبيدة في حالة عدم طاعته لخلف، وقد ظهر ذلك من خلال عبارة " إراقة الدماء أعظم " ويتضح أيضاً أن أبا عبيدة لم يجد بدا من لقاء خلف، رغم قلة عدد قواته، وعندما رجع الرسولان إلى خلف بن السمح أخبراه برأي أبى عبيدة، فأمر عسكره بالتهيؤ للقتال ورتب الصفوف، وبدأ أبو عبيدة أيضاً في تنظيم قواته استعدادا لهذا اللقاء.

وقد بدأت الأحداث تتطور، إذ جاء رجل من بقايا النكار، أتباع يزيد بن فندين، وحاول أن يصرف أبا عبيدة عن حرب خلف ويدعوه إلى خلع طاعته للإمام أفلح بن عبد الوهاب، وقال له: "لا طاقة لك اليوم بخلف وعساكره، ولا حاجة لك في لقائه، فحلف أبو عبيدة بالله، بكل لغة يحسنها من عربية وبربرية وكانمية [٩١] وغيرها، لأقاتلنه، ولو لم ألقاه إلا بسيفي هذا، وضرب بيده على قائم سيفه [٩٢].

وهكذا رفض أبو عبيدة هذه الدعوة مصمما على القتال، ولكن هذه الدعوة من أتباع ابن فندين تبين مدى انتشار أتباعه في منطقة جبل نفوسة، وتكشف عن رغبتهم في خلع الإمام أفلح، كما رغبوا من قبل في خلع والده الإمام عبد الوهاب.

وحين تدانى العسكران واقتربت الحرب على البداية، تقدم رجل ممن كانوا مع خلف بن السمح فقال لأبى عبيدة : آو إلى الجبل بأصحابك، فإن كانت لكم الدائرة، أدركتهم ما رجوتم وإن كانت عليكم، كنت في حصن من عدوكم، فقال أبو

---

(٨٨) البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٦٩،١٦٨.

(٨٩) النهروان : هى بلد تقع بين بغداد وواسط، دارت فيها المعركة التي هزم فيها على يد أبى طالب الخوارج وقتل أحد زعمائهم وهو عبدالله بن وهب الراسى سنة ٣٨هـ / ٦٥٨ م وإثر معركة النهروان دارت وقعة أخرى في النخيلة قرب الكوفة، انظر : ابن الأثير ج٣ ص٢٢٦، دار التوفيقية للطباعة.
الدرجينى : طبقات ج١ ص٧٤، ياقوت الحموى، معجم البلدان ج٨ ص ٤١٨.

(٩٠) البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٦٩.

(٩١) اللغة الكانمية: هى لغة أهل كانم من الإمبراطوريات الإسلامية في غرب أفريقيا في العصور الوسطى، *وقال ياقوت الحموى عن كانم : هى من بلاد البربر بأقصى* المغرب في بلاد السودان. انظر : معجم البلدان ج ٧ ص ١١٦.

(٩٢) البارونى : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧١، والشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٧.

عبيدة لأصحابه : نصيحة نزعها الله من عدو، فأمر أصحابه أن يسندوا إلى الجبل" [٩٣].

ومن النص السابق يتضح عدم إخلاص بعض جنود خلف له وعدم رغبتهم في القتال، وربما يكون هذا الرجل يؤيد خلفا خوفا منه، ولكنه في الباطن غير مقتنع بثورته وتمرده، ولذلك رغب في التخلص منه، ومن هنا جاءت نصيحته لأبى عبيدة

وقد حقق أبو عبيدة رغبة الرجل بعد أن اقتنع بها وأمر عسكره بأن يولوا ظهورهم للجبل، وعندما رأى خلف بن السمح ذلك، ظن أن أبا عبيدة مسالما وضعيفا ويريد الفرار من المعركة وأنه غير قادر على الهجوم، فبدأ يغتر بقوته ويظهر جبروته، فقام بتقديم كبار جنوده وراء أبى عبيدة، وفي ذلك يقول المؤرخ الشماخى في السير :

" فلما تنحى أبو عبيدة إلى الجبل ظن خلف أن بهم ذلا وخوفا، فغشيهم بعساكره، فتنحى أبو عبيدة واستتر، واغتسل وصلى ركعتين، فدعا الله تعالى، فقال : يا من لم أعرض عنه منذ استقبلت أمره، أعطني دابرهم اليوم" [٩٤].

وفي ذلك الوقت بدأت التحالفات تظهر والنيات تنكشف، فقد أقبل أهل مدينة شروس [٩٥] يريدون خلفا للتعاون معه ضد حربه مع أبى عبيدة، وفي ذلك يقول المؤرخ البارونى " ثم إن أهل شروس أقبلوا يريدون خلفا شاكين بالسلاح [٩٦] فقال أبو عبيدة حين أبصرهم : هيجوا فينا حرارة الخوف، فلا أعدمهم الله ذلك، فبقى فيهم ذلك بدعوته تلك، فقد كان مستجاب الدعاء كما يقول كتاب الإباضية [٩٧].

---

(٩٣) البارونى : الأزهار ج٢ ص ١٧١.

(٩٤) الشماخى : السير ج٢ ص ٣١٧.

(٩٥) شروس: وفي معجم البلدان: شَروس بفتح أوله وضم ثانيه وربما قيل بالشين المعجمة في أوله فتصبح "شروس" وهى مدينة جليلة في جبل نفوسة من ناحية إفريقية وهى كبيرة آهلة، وهى قصبة ذلك الجبل بينها وبين طرابلس خمسة أيام وبينهما حصن لبدة وهى حاليا آثار، انظر: ياقوت الحموى: معجم البلدان ج٥ ص٤٣.

(٩٦) شاك السلاح أو شاك في السلاح: أى كان لابسا سلاحا تاما وغارقا فيه.

(٩٧) البارونى: الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧٢.

ومن المنطقي تصور أن أهل مدينة شروس يقفون بجوار الخلفية، فقد وصفهم المؤرخ ياقوت الحموي بقوله : " وأهلها إباضية خوارج ليس بها جامع ولا فيما حولها من القرى ولم يتفقوا على رجل يقدمونه للصلاة "[٩٨].

وقد بدأ أبو عبيدة يستعد للدخول في الحرب مباشرة بعد أن خطب في الناس ورغّبهم في الجهاد وأزال الخوف من نفوسهم، وبخاصة لأن عددهم قليل إذا ما قورن بعدد خلف وأتباعه، وكان مما قاله في خطبته : " أطمح الجنة لمن مات تائبا في هذه الوقعة، إلا من كان على فراش حرام، أو قتل نفسا أو غصب مالا"[٩٩].

وبالقرب من جادو، دارت المعركة بين الفريقين والتي تسمى "إجناون" وذلك عشية يوم الخميس، الثالث عشر من رجب سنة ٢٢١هـ / ٨٣٦م وأبلى كل من الفريقين في المعركة، ولكن رغم قلة عدد جنود أبى عبيدة، إلا أن أبا عبيدة نجح في أن ينتصر على خلف بن السمح ويقتل العديد من أنصاره، وذلك يرجع إلى قوة إيمان أصحاب أبى عبيدة ورغبتهم في الجهاد بحق وعزمهم على النصر.

وتشير الروايات التاريخية أن هذه المعركة انتهت بهزيمة منكرة لخلف وعسكره، وأظهر فيها أصحاب أبى عبيدة بطولات مجيدة، وفي ذلك يقول المؤرخ الشماخي في السير: " فلما التحم القتال، نظر أبو عبيدة إلى العباس بن أيوب يضرب في أعراض الخيل، ويكشفها يمينا وشمالا وقد حمي الميمنة والقلب والميسرة، فقال - أي أبى عبيدة - صار في عيني كالعقاب، معصما لا أكلته النار "[١٠٠].

وقد لعبت بعض الشخصيات القيادية دورا مهما في هذه المعركة، وفي تحقيق النصر لأبى عبيدة، ويأتي في مقدمة هؤلاء أبو مرداس[١٠١] والعباس بن أيوب، فقد أشارت الروايات التاريخية أنه في تلك المعركة خرج رجل من عسكر خلف يدعى، عبيد بن سيدي ومعه رجلين من أصحابه يطلبون المبارزة، وكان عبيد هذا ممن يدعى النسك والتقى قبل ذلك، وكان يحمل القمح والكباش للمشائخ، فخرج إليهم أبو عبيدة وأبو مرداس والعباس، وقد أسرع العباس إلى صاحبه فقتله، وأما

(٩٨) ياقوت الحموى: مصدر سابق ج٥ ص ٤٣.

(٩٩) الشماخي: السير ج ٢ ص ٣١٧.

(١٠٠) السابق ج٢ ص٣٢٠، وانظر أيضاً : الدرجيني، طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٦.

(١٠١) أبو مرداس : هو أبو مرداس مهاصر السدراتى، الساكن بتبرست ولذلك يقال له أحيانا : أبو مرداس التبرستى، بلغ في العلوم النهاية، وجرى في أمر الصلاح الغاية، كان ينفق ماله على الضعفاء، وكان له مسجد في كهف يتعبد فيه، انظر : الشماخى : السير ج ٢ ص ٣٠٢، ٣٠٣.

أبو عبيدة فقد تماثل مع نده، وأما أبو مرداس فقد جد عليه (عبيد) حتى كاد يفترسه.

فلما رأى العباس ذلك ضرب ركبته بسيفه ثم حز رأسه، ولما رأى رأسه يطير في الهواء من شدة الضربة : قال له : إلى النار، فقال الرأس : " وبئس المصير" فقال العباس : إنا لله وإنا إليه راجعون [١٠٢]، جسد طالما دعوت له بالجنة ستأكله النار[١٠٣] وذلك لأن العباس كان يعتقد في عبيد الصلاح، فقد اشتهر بالنسك والعبادة وسخاء اليد وحب العلم، وقال أبو مرداس للعباس "ضربة فتى لا أكلت معصمه النار".

وفي هذه المعركة اشتهر أن رجلا من أصحاب أبى عبيدة قذف بحربة، فوقعت برجل فخرجت منه وركزت خلفه، وجعلوا مصلى فيه [١٠٤] أي بنوا فيما بعد مصلى في ذلك المكان.

ويذكر المؤرخ الدرجيني في طبقاته أن أبا عبيدة أمر أصحابه – بعد هزيمة الخلفية – ألا يتبعوا مدبرا ولا يجهزوا على جريح، كما أنه أحسن معاملة المنهزمين رغم بغى الخلفيين"[١٠٥]

ولا شك أن المعاملة الحسنة من جانب أبى عبيدة لأتباع خلف المنهزمين، ترجع إلى ما وصف به من أخلاق نفيسة وعلم غزير وما طبع عليه من ورع.

وبعد أن انتهت معركة إجناون بهزيمة الخلفيين ومقتل العديد من جنودهم، نجح خلف في الفرار من المعركة ومعه عدد قليل من أتباعه واتجه بهم إلى ناحية "تيمتى" وأمر بإخراج من بها من نفوسة وغيرهم من أصحاب أبى عبيدة.

ثم اتبع خلف بن السمح سياسة خاطئة – أدت إلى تفرق من حوله، وذلك أنه بدأ يتشكك في أصحابه ظنا منه أنهم موالين لأبى عبيدة، فبدأ يخرج الكثير من أصحابه خطأ مع الذين أخرجهم من أصحاب أبى عبيدة من نفوسة، وأعطى بعضهم مهلة ثلاثة أيام، فإن لم يخرج أهدر ماله ودمه، كما أنه أخرج اليتامى والأرامل والضعفاء دون جريرة، فاضطروا إلى ترك أوطانهم ومنازلهم وأرزاقهم على كره،

---

(١٠٢) سورة البقرة : آية ١٥٦.

(١٠٣) الشماخى ج٢ ص ٣١٨.

(١٠٤) نفسه ج٢ ص٣١٨.

(١٠٥) الدرجينى: طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٦،٧٥ /وانظر أيضا: البارونى: الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٧٣.

ونتيجة لهذه السياسة الخاطئة، ارتد عنه الكثير من أتباعه، وبعض أصحابه المقربين إليه، وأيقنوا أن أمره قد أدبر، فتفرقوا عنه، وأتوا أبو عبيدة تائبين.

وفي ذلك يقول أحد المؤرخين " ثم إن الناس رجعوا بعد انهزام خلف ورجع من أصحابه من أظهر التوبة فأقبلهم أبو عبيدة إلا من أتى منهم الأمر عمداً، وأتاه سائد الفرسطائى فقال : تبت يا أبا عبيدة، قال له : إن لم يسدد بعد يا ابن تحيمة - يعنى باب التوبة - وهو ممن أتى الأمر عمداً [١٠٦]

وكان سائد ومنيب بن إسماعيل بن درار الغدامسى وأبو يوسف حجاج بن وفتين ممن مال إلى خلف بن السمح في حربه ضد أبى عبيدة، وعندما رجع أبو يوسف حجاج بن وفتين -وهو ممن انحازوا إلى خلف - فأتى أهله وأراد الدخول، عيرته زوجته وقالت له امرأته : من عندك يا بائع دينه ؟ فوقف بالباب إلى الصبح، إحدى رجليه داخل الباب والأخرى خارج الباب، يميز بين الحق والباطل، أي بين أبى عبيدة وخلف، فظهر له أن خلفا على خطأ وأبا عبيدة على حق، فتاب، ورجع إلى أبى عبيدة، وكان أبو يوسف بعد ذلك من أفضل الشيوخ[١٠٧].

وهكذا قبل أبو عبيدة الذين أعلنوا التوبة، وكان ذلك انتصارا له وضعفا لشوكة خلف الذي سكنت حركته بعض الشيء، ويقال إنه سار بأعوانه فيما بعد إلى جزيرة جربة[١٠٨] بعيدا عن أحداث الدولة الرستمية وقيل أيضا إن ابنه هو الذي فعل ذلك[١٠٩]

أما المؤرخ الدرجينى فيقول إن حفيد خلف هو الذي انحاز إلى جربة بعيدا عن المشاركة في أمور الدولة [١١٠]

وبذلك يمكن القول إن فتنة الخلفية تكاد تكون قد انتهت بالفعل، وإن بقيت بعد ذلك تظهر على فترات مختلفة، وهى تمثل إحدى الانشقاقات الرئيسية عن الدولة الرستمية ويقول المؤرخ الشماخي معلقا على ضعف الخلفية - بعد هزيمتهم أمام

---

(١٠٦) الشماخي: السير ج ٢ ص ٣١٩.

(١٠٧) السابق: السير ج ٢ ص٣١٨.

(١٠٨) جزيرة جربة : تقع بالمغرب من ناحية إفريقية قرب قابس يسكنها البربر فيها بساتين كثيرة وأهلها مفسدون في البر والبحر، وهم خوارج وبينها وبين البر الكبير مجاز، انظر : ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ٣ ص ٤٢، والبكرى : المغرب ص ١٩

(١٠٩) البارونى : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧٣.

(١١٠) الدرجينى : طبقات الدرجينى ج١ ص ٧٠

أبى عبيدة - " فلما أوهن الله شوكة خلف وأظهر الإسلام واستقامت الأمور وحسنت الأيام وذهب الجور وقام العدل، فبلغ الخبر المشرق والمغرب، كتب أبو عيسى الخراساني رسالة مع جماعة المسلمين إلى أهل المغرب يوصونهم بالحق وإتباعه، ومنابذة الباطل واطراحه والاقتداء بمن قبلهم من السلف الصالح [١١١].

ومن النص السابق تتضح أهمية وخطورة الحركة الانفصالية التي قام بها الخلفية في جبل نفوسة، وكيف أثرت على الأحداث وأدت إلى فتن كثيرة بين أهالي البلاد. ومن الجدير بالذكر أن تلك الرسالة التي كتبها أبو عيسى الخراساني مع جماعة المسلمين إلى أهل المغرب، تضمنت أيضاً بيان لحالة أهل جبل نفوسة قبل قيام حركة الخلفية، وأن سبب الفتن التي حدثت هو اختيار خلف بدون رغبة الإمام وفي ذلك يقول المؤرخ الشماخي في بقية الرسالة " ثم ذكروا من هلك قبلهم من أهل دين المسلمين وخلافهم أئمة الهدى، ثم ذكروا أن عبد الوهاب مضى على الرضا من المسلمين والاستقامة على الدين، لا ينقم عليه أحد من أهل الخير عندنا وعندكم، سيرته سيرة من مضى من أئمة الهدى في حكمه وحربه وقسمه ودينه، وقد أدركنا أبا أيوب وائل بن أيوب، وغيره من الأشياخ ومن بعده أبا سفيان محبوب بن الرحيل وهم راضون عنه، واستعمل السمح فكان على طريقته من العدل والاستقامة، ثم ابتلى القوم بعد ذلك (يقصد فتنة الخلفية) فنسأل الله ربنا أن يعيزنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وبلَّغا أن أهل تلك القرية استعملوا خلفا على غير رضي من عبد الوهاب وإجازته، وينبغي لهم إذا أنكر الإمام الأمر ولم يُجزه أن يسمعوا له ويطيعوه ويخلعوا، من خلع وينتهوا إلى رأيه، وطاعته واجبه عليهم، فمن شاقه وبغى عليه، فهو عندنا كافر ضال، حتى يرجع ويتوب، ويستغفر الله مما صنع.

ثم كان بعد عبد الوهاب أفلح ابنه - حفظه الله - عمل بالسنة وقسم بالسوية وعدل في الرعية لا ينقم عليه أحد قبلنا وقبلكم في حكم ولا قسم، متعنا الله بحياته، فخالف خلف وأصحابه وأبوا إلا رأيهم، وقد فسرنا لهم، ولكم معالم ديننا ورأى المسلمين " [١١٢].

ومن الرسالة السابقة يتضح مدى إخلاص الإباضيين لأئمتهم وطاعتهم لهم والدفاع عنهم، ويتضح أيضاً مدى كراهيتهم لأعداء أئمتهم. ومعنى ذلك أن خلفا بن السمح بالنسبة لهم هو كافر ضال وغير مطيع إلا إذا تاب واستغفر الله بما صنع.

---

(١١١) الشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٩.
(١١٢) الشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٩.

وقد توفي أبو عبيدة بعد ذلك، فوصفه المؤرخون بأنه كان شديد الشكيمة "قوى العريكة" لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان شديدا في الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[١١٣].

الصراع بين العباس بن أيوب والخلفية في جبل نفوسة

بعد وفاة أبى عبيدة عبد الحميد الجناونى، قام الإمام أفلح بن عبد الوهاب بتولية العباس بن أيوب [١١٤] على جبل نفوسة وما حوله من البلاد، وكان خلف بن السمح قد بدأ يستعيد نشاطه مرة أخرى بعد وفاة أبى عبيدة، ونجح في أن يضم جماعة من أصحابه الذين كانوا قد تفرقوا بعد هزيمتهم في موقعة إجناون سنة ٢٢١هـ/٨٣٦م، وذلك في الفترة ما بين وفاة أبى عبيدة وتولية العباس.

وهكذا قامت صحوة أخرى للخلفية، جددوا فيها الغارات وأعمال السلب والنهب وتهديد أمن البلاد، وكان خلف يدرك تماما مدى قوة وبأس وبطش العباس بن أيوب، إلا أنه اغتر بقوته وكثرة عدده، وقد بدأ معه العباس سياسة اللين والحوار والنصح والإرشاد، فلم يتوقف خلف عن تمرده.

معركة فاغيس

كان العباس بن أيوب يدرك تماما أن سياسة اللين لن تفلح مع خلف، فاضطر إلى الدخول معه فى حرب، ورغم كثرة جنود وأتباع خلف وقلة عسكر العباس إلا أن العباس اختار في جيشه جماعة من الأبطال والفرسان المشهود لهم بالقوة والمغامرة في الحروب، وذلك ليعوض كثرة عسكر خلف.

وكان في مقدمة هؤلاء الأبطال، أبو مرداس التبرستى، الذي حارب ضد خلف من قبل مع أبى عبيدة، وأبو الحسن الأبدلانى[١١٥]، وهو مشهود له بالفروسية

---

(١١٣) انظر : أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٥
الدرجينى : طبقات الدرجينى ج ١ ص ٧١.
الشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٣.
البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٦٦.

(١١٤) والعباس هذا هو ابن أيوب بن العباس الذى كان واليا على حيز طرابلس وجبل نفوسة في عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وكان له دور مهم في الصراع مع الخلفية، وقد ذكرتها فيما سبق في هذا البحث.

(١١٥) أبو الحسن الأبدلانى : كان واسطة العقد وإنسان العين، تعلم العلوم وعمل بموجبها وتحصن من الشيطان بزهد الدنيا ورفضها، وهو أحد الأربعة الذين تكلفوا بما طلبه

أيضا، ويؤكد ذلك ما ذكرته الروايات التاريخية، فعندما كان خلف بن السمح في كثرة، خاف بعض المسلمين، فأتى أبا مرداس، وأخبره، فقال أبو مرداس، لا أخاف على عسكر فيه أبو الحسن الأبدلاني، ثم أتى أبا الحسن فقال له أبو الحسن : لا أخاف على عسكر فيه أبو مرداس [١١٦].

وكان اللقاء بين الخلفية والعباس بن أيوب عند موضع يسمى " فاغيس " وهو يقع بالقرب من تيمتى [١١٧]، وبدأ الجيشان يتصارعان، فلما حمى الوطيس واشتد القتال، قال أبو مرداس : أطمع لمن مات هنا الجنة إلا من قتل نفسا أو كان على فراش حرام أو غصب مالا" [١١٨].

ويبدو أن هذه الحرب أخذت وقتا طويلا وجهدا كبيراً من الفريقين ويتضح ذلك عندما طلب أبو مرداس من العباس بن أيوب الاستغفار والتوبة حين اشتد خلف وعساكره على العباس حيث قال له : " تب إلى الله، فإن الباطل لا يقف للحق أكثر من هذا، فقال العباس : "تبت إلى الله " [١١٩].

وبعد ذلك نزل العباس بنفسه للقتال، فتغير الموقف واشتد جيش العباس على خلف وأتباعه فاضطربت جنود خلف، ونجح العباس في هزيمة الخلفية بعد صراع طويل وحرب شرسة، وبعد أن انتهت الحرب كان رأى أبى مرداس ألا يتبعوا

الإمام وهو أحد الاثنى عشر المشهورين بإجابة الدعاء في عصر واحد بجبل نفوسة، انظر : الشماخى في السير ج٢ ص ٣٠١، ٣٠٢.

* ومن الجدير بالذكر أن كل من أبى مرداس وأبى الحسن الأبدلانى كانت مواقفهما تشهد لهما بصدق النية وصفو القلوب، ولكل منهما فضائل عالية ومفاخر ومناقب ذكرها المؤرخون، انظر البارونى: ج٢ ص ١٧٥/الشماخى: ج٢ ص٣٠٢/الدرجينى: طبقات الإباضية ج ٢ص ٢٩٢، ٢٩٤.

(١١٦) البارونى : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٧٥

(١١٧) تيمتى : جاء في المصادر الإباضية أنها قرية في الجهة الشرقية من جبل نفوسة قرب جادو والتسمية الحالية لها هى تيمتلت، وقد ظلت تيمتى مركزا لإباضية جهة طرابلس زمن السمح بن عبد الأعلى، ثم للخلفية زمن خلف بن السمح، وذكرت آر مرة على عهد أبى منصور إلياس في النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى، انظر : الدرجينى : طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٢ والشماخى : السير ج ٣ ص ٨٤٦.

(١١٨) الشماخى : السير ج٢ ص٣٣١.

(١١٩) نفسه : نفس الجزء والصفحة.

خلفا وأصحابه، ولكن البعض الآخر كان رأيهم أن يتبعوا الخلفية، ويطلبوهم إلى أن يخرجوهم من حيزهم، فاقتفوا أثرهم حتى تجاوزوا حيز أطراف نفوسة (لالت)[١٢٠]

وفي ذلك يقول المؤرخ الباروني في الأزهار الرياضية : " قال أبو مرداس للناس : ارجعوا عن طلبهم، فقال له رجل : أين لالت؟ يعنى طرف نفوسة، لأنهم في الحيز بعد، فقال أبو مرداس: نسيت لالت، فأتبعوهم حتى خرجوا حيز لالت " [١٢١].

ويمكن القول إنه بفضل جهود كل من أبى مرداس وأبى الحسن الأبدلانى، استطاع العباس أن يسيطر على الموقف وينتصر على خلف، ولذلك عندما رجع العباس وجنوده من حرب خلف،أقبل الناس ليقدمون له التهنئة، فقال لهم : هنئوا أبا مرداس وأبا الحسن اللذين لم يناما ليلهما، يدعوان ربهما ويرغبانه " [١٢٢].

وبعد هذا الانتصار، لم ينس العباس أن يعزى الشيوخ في أقاربهم الذين ماتوا مع خلف، وفي ذلك يقول صاحب السير " فلما رجع العباس إلى معسكره، ترجل وأقبل يعزى الشيوخ في أقاربهم الذين ماتوا مع خلف، وقال: آجركم الله في مصابكم في إخوانكم، فقالوا: يا عباس: ليسوا بإخواننا، ولكنهم أرحامنا، وإنما إخواننا، أنتم" [١٢٣].

ومن خلال النص السابق تتضح مكانة العباس بن أيوب في قومه، وأنه ينال تقديرهم واحترامهم، ويتضح أيضا أن هذا الرجل كان يجمع بين اللين والشدة، ولا شك أن نزوله بنفسه للقتال في المعركة مع خلف كان أحد الأسباب الرئيسية لانتصارهم على الخلفية، وعندما قالت زوجة أبئ مرداس لزوجها : رزقك الله الجنة، قال لها: إنما يستأهل الجنة توفيق بن أيوب - يعنى العباس - الذي لم يخلع الدرع من عنقه من يوم إلى يوم، فوجد صدأ الحديد في فيه وبه أصبنا" [١٢٤]

---

(١٢٠) لالت : هو الوادى الفاصل بين (الزنتان) من جهة (تغرمين)و(الرجبان)من جهة (فساطو) والذى سمى فيما بعد بوادى الآخرة لصعوبته وعمقه، ويلاحظ في ذلك أن قرية (تغرمين) لم تدخل في الطاعة وتحرز شهرتها في دولة بنى رستم إلا بعد تلك الواقعة وهى حاليا نالوت، وتقع غرب جبل نفوسة، انظر : البارونى : الأزهار ج٢ ص١٧٧.

(١٢١) البارونى : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧٦.

(١٢٢) الشماخى : السير ج٢ ص٣٣١.

(١٢٣) نفسه : نفس الجزء والصفحة.

(١٢٤) الشماخى : ج٢ ص٣٣١.

والحقيقة أن العباس لم يكتف بانتصاره على الخلفية فقط، ولكنه استمر في مطاردتهم، كما أنه نجح في استمالة أصحاب خلف بن السمح نظرا لاستقامته وعدله، وكان لانتصاره على خلف دور كبير في استقرار البلاد وانتشار الأمن، فقد خافه المفسدون والمتمردون، ومن ناحية أخرى بدأت شوكة خلف تضعف وبدأ أنصاره يتفرقون، وبدأ جمعه يتشتت مرة أخرى.

وبعد صراع طويل مع الأئمة الرستميين وولاتهم في الجبهة الشرقية من الدولة الرستمية توفي زعيم الخلفية خلف بن السمح، ذلك الرجل الذي أنهكته حروبه وعصيانه من أجل وصوله للإمامة واستقلاله بجبل نفوسة وحيز طرابلس.

وقد واصل العباس جهاده ضد الخارجين عن الطاعة في جهات الجبل الشرقية [١٢٥] حتى أطاعوا الإمام أفلح واعترفوا بإمامته.

وهكذا نجح العباس في إعادة الأمن إلى الجبهة الشرقية من الدولة الرستمية بعد مجاهدته للأعداء، والتي تكررت أكثر من مرة في عهد الإمام أفلح، وبذلك بدأت البلاد تستقر وتعود إلى طبيعتها، إلى أن توفي العباس، فكانت وفاته إيذانا ببدء حركات تمردية أخرى وانشقاقات بين إباضية تاهرت، كان في مقدمتها، حركة نصر بن فرج النفوسي بجبل نفوسة[١٢٦].

ومما لا شك فيه، أن الفتن والثورات التي جعلت البعض يخرج عن طاعة الإمام في جبل نفوسة، تدل على حيوية تلك الجهات، وذلك القسم من الدولة الرستمية في جبل نفوسة وحيز طرابلس، وكان مصدر حيويتها أنها كانت عامرة مليئة بالناس ومنهم المتقدمون في العلم وأهل الشجاعة والحرب.

ومن الجدير بالذكر أنه رغم انتصار العباس على الخلفية، إلا أن أتباع خلف ظلوا موجودين في جبل نفوسة وحيز طرابلس وكانوا يظهرون كلما سنحت لهم الفرصة.

تمرد الخلفية في عهد الإمام أبى حاتم يوسف (٢٨١-٢٩٤هـ/٨٩٤-٩٠٧م) في سنة ٢٨١هـ /٨٩٤ م توفي الإمام أبو اليقظان محمد بن أفلح، فتولى مقاليد الأمور من بعده، ابنه أبو حاتم يوسف، نظرا لأن أخاه الأكبر يقظان كان غائبا في موسم الحج، وفي ذلك يقول المؤرخ ابن الصغير المالكي: "ثم مات أبو اليقظان

---

(١٢٥) المقصود بذلك جبل شماخ وجبل يفرن

(١٢٦) د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ج ٢ ص ٣٤٧

Lewicki : Melanges Berberes, ibadites , P.270.

سنة إحدى وثمانين ومائتين وخلف من الولد الذكور عددا منهم، يقظان الذي كنى باسمه.

وكان ابنه يقظان هذا خرج إلى الحج في حياة أبيه، ويوسف وهو المكنى بأبي حاتم، وأبو خالد وعبد الوهاب ووهب وغيرهم ممن له ذكر، وإنه لما مات أبو اليقظان قامت العوام وأهل الحرف فقدموا ابنه أبا حاتم بلا مشورة أحد من الناس لأمن القبائل ولا من غيرهم"[١٢٧].

ومن النص السابق يتضح أنه قد حدث نوع من التغيير في اختيار الأئمة الرستميين، فبعد أن كانت الإمامة تعقد بعد ترشيح واختيار زعماء المذهب، كما حدث لعبدالرحمن بن رستم وابنه عبد الوهاب، اختلفت الأمور فأصبح للعامة دور رئيسى في عقد البيعة [١٢٨].

وقد وصفه المؤرخ الشماخي بقوله : "ومنهم – أي الإباضية – أبو حاتم يوسف، الإمام الماهر والبحر الذاخر، والعالم الذاكر، مكث في الخلافة أربع عشرة سنة"[١٢٩].

وكان أبو حاتم قد دخل في ثورات وحروب مع عمه يعقوب بن أفلح الذي نادي به أهل تاهرت إماما فترة من الوقت، ثم استقر هو في ملكه بعد ذلك، وفي أثناء حكم والده، اكتسب خبرة ودراية إذ أن والده عينه قائدا على جيش من قبيلة زناته[١٣٠] لحماية القوافل المقبلة من المشرق أو التي تتجه إليه حاملة البضائع المختلفة.

---

(١٢٧) ابن الصغير المالكى : أخبار الأئمة الرستميين ص٢٩٧،٢٩٨ دراسة وعرض د. حسن على حسن، القاهرة ١٩٨٤ م.

(١٢٨) ومن الجدير بالذكر أن منصب الإمامة الرستمية قد ضعف بسبب ذلك، لأن معناه أن رجال المذهب الإباضى قد ضعف نفوذهم لدرجة أنهم أبعدوا عن اختيار الإمام، وكان ذلك أحد العوامل الرئيسية للضعف والانهيار الذى أصاب الدولة الرستمية وأدى إلى سقوطها.

(١٢٩) الشماخي : السير ج٢ص٤١٦

(١٣٠) قبيلة زناته : كانت منتشرة في بلاد المغرب من أدناها إلى أقصاها ومختلطة بغيرها من القبائل، فمواطنها كما يقول ابن خلدون في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب، فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى، ومنهم قوم بالتلول بجبال طرابلس وضواحى إفريقية وبجبل أوراس، والأكثر منهم بالمغرب الأوسط

وقد اكتسب أبو حاتم أيضا محبة في قلوب الناس نتيجة كرمه ومروءته التي عرف بها بين الناس وخير دليل على محبة الناس، له مبايعته دون وجوده بالعاصمة، ودون استشارة زعماء القبائل للنظر في الأمر.[١٣١]

وفي عهد أبى حاتم كانت عوامل الانهيار والتمزق تصيب الدولة الرستمية نتيجة لصراعه مع عمه يعقوب بن أفلح فاضطربت الحياة السياسية في العاصمة تاهرت وبدأ التفكك يصيب الدولة الرستمية.

وزاد من هذا الضعف والتمزق تمرد الخلفية، وظهورهم على مسرح الأحداث في الجبهة الشرقية من الدولة الرستمية في جبل نفوسة وحيز طرابلس، مما أدى إلى نشوب صراع مرة أخرى في تلك الجهات الشرقية بين الطيب بن خلف بن السمح[١٣٢] ومن انضم إليه من زواغة [١٣٣] وبين أبناء نفوسة المقيمين في هذه المناطق والموالين للإمامة الرستمية.

ومنهم بالمغرب الأقصى أمم أخرى، انظر: ابن خلدون : العبر ج٧ ص ٢ وانظر أيضا :

Gautier : Les Siecles obscurs du Maghrb.P. 264 – 266, Paris, 1937

(١٣١) الشماخى : ج٢ ص٤١٦ / البارونى : الأزهار ج٢ ص٢٦٥ / أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٤٩ / الدرجينى : طبقات الدرجينى ج٢ ص٢٦٥– ٢٩١ / عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ج٢ ص٢٤.

(١٣٢) وفي بعض الروايات أن الطيب هذا هو حفيد خلف وليس ابنه، انظر: الدرجيني: طبقات الإباضية ج١ ص٧٠.

(١٣٣) زواغة : من القبائل التي اعتنقت المذهب الإباضى وكانت تقيم في غرب مدينة تاهرت، قال عنها ابن خلدون : " هؤلاء البطون من بطون البرابرة البتر، من ولد سمكان بن يحيى بن ضرى بن زجيك بن مادغيس الأبتر، ولهم ثلاثة بطون وهى : دمر بن زواغ وبنو واطيل وبنو ماضر ومن دمر بنو سمكان وهم أوزاع في القبائل، ومنهم بنواحى طرابلس مفترقون في براريها، ولهم هنالك الجبل المعروف بدمر وفي جهات قسطنطينة أيضاً رهط من زواغة، وكذلك بجبال سلف بنو واطيل منهم وبنواحى فاس آخرون، انظر : العبر ج٦ ص ٢٦١ ٢٦٤.

أبو منصور إلياس وجهوده في القضاء على بقايا الخلفية

كان والى جبل نفوسة وحيز طرابلس في عهد الإمام أبى حاتم يوسف رجل من أهل تندميرت [١٣٤] وهو أبو منصور إلياس النفوسى الذي وصفه المؤرخون الإباضيون بقولهم: "وكان، بعد أن تولى أمور المسلمين، إذا خرج لقتال العدو يركب ولا يتقى نبلا ولا ضربة على نفسه ولا على مركوبه ولا تقع به، ولم يهزم له جيش ولم تنكس له راية". [١٣٥]

ومعنى ذلك أن الخلفية سيواجهون رجلا قويا من الصعب أن يهزم، وقد بدأ أبو منصور في مطاردة بقايا الخلفية بزعامة الطيب بن خلف، وكان الخلفيون في ذلك الوقت قد ضعفوا نتيجة لصراعاتهم السابقة ولكنهم كانوا يظهرون كلما سنحت لهم الفرصة، فرغم ضعفهم وقلة عددهم إلا أنهم التفوا مرة أخرى وتجمعوا حول الطيب بن خلف، الذي كان متمسكا بمذهب والده وبتعاليمه [١٣٦].

وعندما علم أبو منصور إلياس – والى جبل نفوسة – بتحركات الخلفية، خرج لمطاردتهم خشية أن تزداد ثورتهم ويكثر عددهم ويزداد أتباعهم، وبذلك أراد القضاء على تمردهم والقبض على زعيمهم قبل أن يستفحل أمرهم.

وقد حدث تطور جديد في الأحداث، إذ أن الطيب بن خلف هرب، ولجأ إلى قبائل زواغة عندما علم أن إلياس يبحث عنه ويريد القضاء عليه، ونجح في أن ينشر أفكاره بين الزواغيين.

ومن الملاحظ أنه رغم بعد الزمن بين عصر الطيب وعصر والده إلا أن الزواغيين كانوا لا يزالون على ولائهم للخلفية، ولما كانت منازلهم مجاورة لمنازل نفوسة الموالية للرستميين، فقد صار الاحتكام بينهما أمراً لا محيد عنه [١٣٧].

---

[١٣٤] تندميرت : قرية من قرى نفوسة تقع في الجانب الغربى من الجبل، وفيها مسجد أبى منصور إلياس، ويقال لها تندنميرت وتين دميرت وتندميرة، انظر الشماخى : السير ج ٢ ص ٣٦٤.

Despois : Le Djebel Nefousa , p. 258 , 288.

[١٣٥] انظر : ابو زكريا : سير الأئمة ص ١٤٦. / الدرجينى : طبقات الدرجينى ج١ ص ٨٤ / الشماخى : السير ج ٢ ص ٣٦٤.

[١٣٦] بحاز إبراهيم بن بكير : الدولة الرستمية ص ١٥٠ ط ٢ جمعية التراث، الجزائر ١٩٩٣ م

[١٣٧] إحسان عبد الله : الدولة الرستمية في تاهرت ص ٢٠٩ رسالة ماجستير، جامعة القاهرة ١٩٨٦ م.

وهكذا لجأ الطيب بن خلف إلى تلك القبائل خارج طرابلس في ساحل جزيرة جربة، وقد التف حوله الزواغيون وحصنوه ومنعوه من النفوسيين، إذ كانوا شيعة أبيه وعلى مذهبه[١٣٨].

وفي ذلك يقول صاحب السير : " وخرج مرة – أي أبى منصور إلياس – في طلب ولد خلف [١٣٩] – أي الطيب بن خلف – وقد هرب إلى زواغة، وكان على مذهب أبيه[١٤٠].

وبذلك يمكن القول إن الطيب بن خلف أصبح زعيما على الزواغيين فأصبحوا يدافعون عنه ويحاربون من ضده.

وعندما خرج أبو منصور إلياس لمحاربة الطيب بن خلف والزواغيين في مكان يقال له ريصوا، اجتمع رأى الزواغيين على قتاله ومدافعته ومنعه من النيل من الطيب بن خلف وأتباعه، ولذلك فإن أبا منصور وجدهم يحيطون بالطيب في أعداد غفيرة، وفي ظل هذه الظروف تدخل شيخ من شيوخ بنى يهراسن يسمى أبا سلمة[١٤١] في محاولة منه للصلح بين الطرفين حقنا للدماء والقضاء على الفتنة.

وفي ذلك يقول المؤرخ أبو زكريا : " فقال شيخ من شيوخ بني يهراسن، يسمى أبا سلمة : هل أن تتركوا ريصوا وتتحصنوا بجزيرة جربة، أو ترسلوا إلى الإمام بتاهرت يخرجكم من عمالة نفوسة ويفرد لكم عاملا أو تدفعوا صاحبكم إلى نفوسة وأنا كفيل لكم أن لا يتجاوزوا فيه الحق وحكم الله"[١٤٢].

ومن خلال النص السابق يتضح أن هذا الشيخ عرض على الزواغيين أن يختاروا أحد ثلاثة أمور، فالأمر الأول : أن يتجه الخلفيون إلى داخل جزيرة جربة ليلحقوا بزعيمهم ويبتعدوا عن حيز أبى منصور، والأمر الثاني : أنهم إذا كانوا يريدون أن يستقلوا عن حكم نفوسة وأن هذا هو مطلبهم، فليرسلوا إلى الإمام أبى

---

(١٣٨) الشماخي : السير ج٢ ص ٣٦٤.
ومن الجدير بالذكر أن أنصار الخلفية، من نفوسة وزواغة، ظلوا موالين للطيب بن خلف حتى أواخر حكم بنى رستم.

(١٣٩) ولد خلف : لم تذكر الروايات التاريخية اسمه، وإنما تكتفي بالقول إن والى جبل نفوسة خرج على أيام أبى حاتم يوسف لطلب ولد خلف فهرب لاجئا إلى قبائل زواغة، انظر : د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربى ج ٢ ص ٣٨٤.

(١٤٠) الشماخي : السير ج٢ ص ٣٦٤

(١٤١) وفي طبقات الدرجيني يسمى (أبو سلامة) انظر ج١ ص ٨٤.

(١٤٢) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٤٧.

حاتم ليولى عليهم واحدا منهم، أما الأمر الثالث : فهو أن يقوموا بتسليم الطيب بـن خلف إليه – أي إلى هذا الشيخ – ليسلمه إلى نفوسة على أن يضمن سلامته وأنهم لن يخرجوا فيه عن قانون الحق.

ومن الملاحظ في هذه الأمـور الثلاثـة – وبخاصـة الثالـث منهـا – أن الزواغيين اندفعوا اندفاعا دون تفكير مع الخلفية، بمعنى أنهـم ربمـا يكونـوا قـد تورطوا معهم، وأنهم إذا قاموا بتسليم زعيم الخلفية – بضمان هذا الشيخ – عـادت علاقتهم السلمية مع النفوسيين.

ويرى د. محمود إسماعيل، أنه ربما يكون يعقوب بن أفلح ومن معـه مـن مشايخ الكوفيين وراء حركة التفاف الزواغيين مع الخلفية، بعد أن غادروا تـاهرت ونزلوا على زواغة سنة ٢٨٦هـ/ ٩٠٠م[١٤٣]

وبعد أن عرض الشيخ الأمور الثلاثة وأتم كلامه، فإن الـزواغيين سـفهوا رأيه، ومن المنطقي تصور أنهم يريدون الحرب، ولذلك اتهموا الشيخ بسوء النيـة، وفي النهاية اجتمع أمرهم على لقاء أبى منصور إلياس – فلما بلغهم ناصبوه الحرب فهزموا[١٤٤] وقتل عددا كثيرا منهم، فاضطر الطيب بن خلف أن يلجأ إلـى جزيـرة جربه ويتحصن ببعض قصورها، ولكن أبا منصور إلياس نجح في القـبض عليـه وسجنه، وفي ذلك يقول صاحب السير :

" فدخل ولد خلف إلى جربه، فتحصن ببعض قصورها، ثم أرشى مـن نـزل عنده، فدفعه لأبى منصور وسجنه"[١٤٥] وبذلك استقرت الأمور في جزيرة جربه، فلم تعرف بها فتنة أو قتال تسبب فيها الخلفية.

أما رئيس الحركة (حفيد خلف) فقد كان مكرما في سـجنه معـززا لـشرفه وفقهه وعلمه[١٤٦] و كان مرجع القوم عندما تنزل بهم نازلة أو تعرض لهم قـضية وعرة أو معضلة مما جعله يتساءل متعجبا : يسجنوننى ويسألوننى"[١٤٧]

---

(١٤٣) د. محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب ص ١٨٠.

(١٤٤) ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ أبا زكريا ذكر هذه الحرب في آخر ولاية الرسـتميين وكذلك المؤرخ الدرجيني في طبقاته، ولا شك أنها وقعت قبل موت أبى اليقظان سنة ٢٨١هـ/ ٨٩٤م وأبى منصور إلياس الذى توفي قبل سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م.
انظر : سير الأئمة ص ١٤٧ / طبقات الدرجينى ج١ ص ٨٤، ٨٥.

(١٤٥) الشماخي : السير ج٢ ص ٣٦٥.

(١٤٦) د. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى ج٢ ص ٣٨٧.

(١٤٧) أبو زكريا : ص ٣٣ والدرجينى : الطبقات ج١ ص ٨٤، ٨٥.

وقد أشارت المصادر التاريخية أن حفيد خلف هذا قد تاب وحسنت أحواله، حيث يقول أبو زكريا: "وذكر بعض أصحابنا أنه رجع إلى مذهب أهل الحق وحسنت أحواله، والله أعلم " [١٤٨] وقال الدرجيني أيضا : " إن الفتى تاب ورجع إلى مذهب أهل الحق وحسنت حاله " [١٤٩].

ولا شك هذا انتصار لخصومه من الرستميين، فقد كانت غاية آمالهم أن تستقر الأمور في هذه المنطقة المضطربة البعيدة عن الدولة

وبذلك نجح أبو منصور إلياس في القضاء على بقايا الخلفية بحيث لم تقم لهم قائمة بعد ذلك تهدد أمن الرستميين.

وقد حفلت تواريخ الإباضية بذكر انتصارات إلياس بن منصور على الطيب وأنصاره من الخلفية الذين ولوا الأدبار لاذين بجزيرة جربة وقابس [١٥٠] وسيوف النفوسيين تجهز على فلولهم، ورغم أن تعاليم المذهب الإباضى تحرم تتبع المدبر والإجهاز على الجرحى، فلا غرابة فيما حدث.

ذلك لأن هذه التعاليم الإباضية تشترط في الفارّ المدبر أن يكون بدون مأوى يلوذ به، فإن كان له مأوى جاز تتبعه وقتل حريمه، ولما كان للهاربين من زواغة مأوى في جزيرة جربة، استحل النفوسيون الإجهاز على فلولهم [١٥١].

وبعد وفاة أبى منصور إلياس تولى أفلح بن العباس ولاية جبل نفوسة [١٥٢] وقد استقل جبل نفوسة بعد انقراض الدولة الرستمية وتولى إمارته أحفاد من بنى

---

* وقد أضاف الدرجينيّ أنهم سالوه في قضية رجل رجل، فاختلفوا فقال : تقطع الرجل دون العقب، وعندئذ قال مقالة، جابر بن زيد لما استفتى في السجن وخبره مشهور، وهذا يعنى ان مقالة : يسجنوننى ويسألوننى " هى أصلا لجابر بن زيد، انظر الطبقات ج ١ ص٨٧.

(١٤٨) أبو زكريا : سير الأئمة ص ٣٣.

(١٤٩) الدرجينى : طبقات الدرجينى ج ١ ص٨٧.

(١٥٠) قابس : مدينة تقع على ساحل البحر الرومى، وتنصب إليها أنهار من بعض الجبال التي تليها، فهى بذلك أخصب بلاد إفريقية وأوسعها فواكه وأعنابا، انظر:عبد الواحد المراكشى : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥٠ دار الكتب العلمية، بيروت(د. ت)

(١٥١) الورجلانى : الدليل لأهل العقول ج ٣ ص ٥٤ ط القاهرة ١٣٠٦ هـ

Motylinski : L'Aqida des Abadhites P. 512

أبى منصور إلياس[١٥٣] كما فر عدد كبير من الإباضية الرستميين إلى واحة وارجلان [١٥٤] وأقاموا فيها حتى قدمت جيوش المرابطين فهاجروا إلى مزاب وحولوا الأقاليم الصحراوية هناك إلى واحات خضراء، سميت فيما بعد باسم سبع مدن[١٥٥] ومازال سكان إقليم مزاب إباضية حتى اليوم [١٥٦].



---

(١٥٢) ومن الجدير بالذكر ان أبا منصور إلياس كان واليا على جبل نفوسة في عهد كل من (أفلح بن عبد الوهاب وأبى اليقظان ثم أبى حاتم يوسف) وهو يعد من أشهر الشخصيات النفوسية في تاريخ إمامة تاهرت الرستمية على وجه العموم.

(١٥٣) مختصر تاريخ الإباضية ص ٥٠، تونس ١٩٠٨م.

(١٥٤) وارجلان : بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الجيم كورة بين إفريقية وبلاد الجريد، ضاربة في البر كثيرة النخل والخيرات، يسكنها قوم من البربر، وهى حاليا مدينة ورغلة، واحة في الجنوب الشرقى من البلاد الجزائرية، أضحت أهم مركز للإباضية بعد سقوط تاهرت عاصمة الرستميين، انظر: ياقوت الحموى معجم البلدان ج ٨ ص٤٥٣/ والشماخى: السير ج ٣ ص ٨٧٨.

(١٥٥) محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفة المعهد المصرى، مدريد عدد ٥٤٠، ١٩٥٧ م، ص١٢٧.

(١٥٦) د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامى ص ٤٨٠ نشر مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية سنة ١٩٨٢ م.

نتائـــج البحـــث:

بعد هذا العرض لموضوع " الخلفية وحركتهم الانفصالية في طرابلس الغرب وجبل نفوسة، يمكن استنتاج النقاط التالية : -

- أن فرقة الخلفية ظلت كافتراق في المذهب مثلها مثل النكارية والنفاثية التي ظلت فرقها منشقة عن المجتمع الإباضى إلى ما بعد سقوط تاهرت سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩ م.
- أن قيام الخلفيين في الجهة الشرقية من الدولة الرستمية كان أحد العوامل الرئيسية التي أدت إلى إضعافها وسقوطها فيما بعد.
- أن استقرار الأئمة الرستميين بالعاصمة تاهرت أدى إلى قيام حركات تمردية في مناطق مختلفة من الدولة وبخاصة المنطقة الشرقية وزاد من ذلك إهمال الأئمة لهذه المنطقة.
- كان من نتائج هذه الحركة قيام حروب داخلية بين النفوسيين الإباضيين المؤيدين لأئمة الدولة الرستمية وبين النفوسيين المؤيدين للخلفيين.
- أن قيام هذه الحركة أدى إلى تشجيع البعض الآخر للقيام بحركات مماثلة، فقامت حركة النفاثية بزعامة فرج النفوسى ضد الدولة الرستمية وكانت أحد عوامل إضعافها أيضاً.
- أدى قيام هذه الحركة إلى فقدان الكثير من الرجال والأموال وبخاصة أن منطقة جبل نفوسة كانت تدعم الدولة الرستمية ماديا وعسكريا.
- كان الضعف الاقتصادي في منطقة جبل نفوسة أحد نتائج قيام هذه الحركة نظراً للحروب الكثيرة التي قامت بين زعيم الحركة خلف وأتباعه وبين ولاة الأئمة الرستميين في المنطقة.
- ظهر من خلال هذا البحث مدى حرص الأئمة الرستميين على الجنوح إلى السلم وعدم الدخول في حرب مع معارضيهم خشية أن تزداد شقة النزاع بين الاباضيين.
- أدى قيام فرقة الخلفية وغيرها إلى صراعات حزبية وتكتلات وانشقاقات مذهبية وانشطار في البيت الحاكم نفسه وظهور فرق جديدة أخرى في المذهب الإباضى، وقد عملت كل تلك الآفات على ضعف الدولة وتآكل المذهب فبدأت بوادر الانهيار للدولة الرستمية، ولذلك كان سقوطها سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٩م على يد الشيعة العبيديين أمرا سهلاً.

• أن منطقة جبل نفوسة تحتاج إلى المزيد من الاهتمام من جانب الدارسين في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ومن جانب الجغرافيين أيضاً.

(١) نفوسة : بالفتح ثم الضم والسكون وسين مهملة، وقد افتتح عمرو بن العاص نفوسة، وكانوا نصارى ومن جبل نفوسة رجع عمرو بن العاص بكتاب ورد عليه من عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، انظر ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٨ ص ٣٩٧ دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠٨م.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٨ ص ٣٩٦.

ونفزاوة : هم بنو يطوفت بن نفزاو بن لوا الأكبر، كانت مواطنهم جنوبى شط الجريد، حتى سميت المنطقة ببلاد نفزاوة ثم تفرعت قبائلهم في سائر المغرب واستوطنت في مناطق متعددة منه، انظر : ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١١٤، ط بيروت ١٩٧١، وابن منصور : قبائل المغرب ج ١٠ ص ٢٠٦ ط الرباط ١٩٦٨ م.

(٣) وكانت المدينة التي تميزت بخبز هذا الشعير هي مدينة سروس إحدى مدن هذا الجبل وكان هذا الخبز ألذ من محل طعام، انظر : ياقوت : مرجع سابق ج ٨ ص ٣٩٦.

(٤) انظر في ذلك: ابن حوقل: صورة الأرض ص٩٤-٩٥، وأبو زكريا: سير الأئمة ص ١١٦،١١٥ ، نزهة المشتاق ص٩٧ -٢٩٩، وابن خلدون: العبر ج ٦ ص ٢٣٠.

Despois : Le Djebel Nefousa, p.137 Paris 1935.

Basset : Les Sanctuaires du Djebel Nefousa, Journal Asiatique , p.426 Paris 1899.

(٥) والبربر هم سكان المغرب الإسلامي ، وقد عاشوا على شكل قبائل وجماعات افترشت أرض المغرب، وقد قسم النسابون شعب البربر إلى قسمين كبيرين وهما برانس ومادغيس، ويلقب بالأبتر ومن قبائل البتر التي ساندت الدولة الرستميه نفوسة ولواته وسدراته ولماية، ومن البرانس، هوارة، وعن البربر انظر : ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص٩١، السلاوى: الاستقصا ج١ ص٥٤، ابن خلدون : العبر ج٧ ص٩، وابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص٤٦١ ، ابن منصور : قبائل: قبائل المغرب ج١ص٢٩٩ ، ألفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الأفريقي ص٤٨، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص٢٣، ٢٨ ، د. شكري فيصل : حركة الفتح الإسلامي ص ١٢٦، أحمد توفيق : كتاب الجزائر ص١٠.

(٦) وفي ذلك يقول ياقوت الحموي : "وبها – أي نفوسة – قبيلة يقال لهم بنو زمور لهم حصن يقال له تيرفت في غاية المنعة لا يقدر عليه أحد"، انظر : معجم البلدان : ج٨ ص ٣٩٦.

(٧) صبرة : بالفتح ثم السكون بلد قريب من مدينة القيروان وكانت بلدة حصينة لا تقل حصانتها عن حصانة طرابلس، انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدأن ج٥ ص١٧٧. وعن قبيلة نفوسة : انظر ابن خلدون العبر ج ٦ ص١١٤ وابن منصور : قبائل المغرب ج٣ ص٢٠٤.

(٨) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٥٤ومزاتة : قبائل كثيرة ونسابة البربر يعدون في مزاته بطون كثيرة مثل : بلايان وفرنه وبحيحه ودكمة وحمرة ومدونة، وقد ساندت مزاتة الدولة الرستمية بأموالها، وقد ذكر ابن حوقل صفة الاعتزال التي كانت تغلب على قبيلة مزاتة، انظر : صورة الأرض ص ٩٦ ، أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٥٥ و ابن خلدون : العبر ج ٦ – ص ٢٣٥.

(٩) د. الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي : الحياة الاقتصادية والاجتماعية ص٣، ٤ ط الدار التونسية وانظر أيضاً :

(١٠) ابن خلدون: معجم البلدان ج٨ ص٣٩٦، ياقوت الحموي: العبر ج٦ ص ٢٣٠.

(١١) ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة الرشميين ص٢٧.

(١٢) إحسان عبد الله : الدولة الرستمية في تاهرت ص ٢٨٨، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة سنة١٩٨٦م.

(١٣) طرابلُس : بفتح أوله وبعد الألف باء موحدة مضمومة ولام أيضا مضمومة وسين مهملة، ويقال لها أيضاً : أطرابلس، وتوجد مدينة أخرى في بلاد الشام تحمل اسم طرابلس أيضا، فقيل لهذه طرابلس الغرب تميزا عن الأخرى التي يقال لها طرابلس الشام. وعن طرابلس الغرب : انظر : البكري : المغرب ص ٧،الاستبصار: ص ١١٠.

(١٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٦ ص٢٥٤

(١٥) البكري : المغرب في ذكر بلاد أفريقية ص٧٢٦

(١٦) انظر في ذلك : ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص٧١ ط ليدن،١٩٢٠ م / البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٢٧ ط١١ تحقيق محمد رضوان القاهرة ١٩٥٩م و د. حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب، عصر الولاة ص٥٧، مطبعة مصر ١٩٤٧ م.

(١٧) انظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٥ص٥٩٨، وابن عذارى : البيان المغرب ج١ص٨١ والسلاوى : الاستقصا ج١ ص١١١.وقبيلة ورفجومة : قبيلة صفرية من

نفزاوة، من قبائل البربر، عاثوا فسادا في القيروان وسيطروا عليهـا سـنة ١٣٩ هـ / ٧٥٦ م و نجح أبو الخطاب عبد الأعلى زعيم الإباضية في قتلهم قتلا ذريعا ثم رجع إلـى طرابلس. انظر : ابن عذارى : البيان المغرب ج ١ ص ٧٠، وابن خلدون : العبر ج٦ ص ١٨٠.

(١٨) ابن الأثير : الكامل ج٥ص٥٩٨.ابن خلدون : العبرج٤ص١٩٣.

(١٩) انظر أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٩، ١٢٠.

(٢٠) وكانت هذه الدولة إسلامية في قضائها، عربية في معارفها، بربرية فـي عـصبيتها فارسية في إدارتها، انظر : د. عصام الدين عبد الروؤف الفقى : تاريخ المغرب والأندلس ص١٥٢ مكتبة نهضة الشرق، القاهرة ١٩٩٠ م.

(٢١) وقد علق الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد على اسم خلف بن السمح بقوله : (ونحن لا ندرى إن كان خلف هو اسمه الحقيقي أم أنه اسم تجريح أطلقه عليه الكتاب من خصومة، كما سيطلقون عليه لقب الخبيث بن الطيب تماما كما فعل أهل السنة بمحمد بـن أبى بكر الذي اتهم في مقتل عثمان، وكما فعل كتاب الأمويين بأبان بن عثمان عندما اتهم في فتنة ابن الزبير، انظر : تاريخ المغرب العربي ج٢ ص٣٣٣،٣٣٤ منـشأة المعـارف الإسكندرية ١٩٧٩م.

(٢٢) ومن الجدير بالذكر أن أهم الانشقاقات الإباضية الأخـرى هـي النكاريـة والنفاثيـة والحسينية أو العمرية والسكاكية والفرية، انظر : الشهر ستانى : الملل والنحـل ج ١ ص ١٨٣ ط القاهرة ١٩٥٦ م ، الإسفرايينى : التبصير في الدين ص ٥٧، القاهرة ١٩٥٥ م ، د. عامر النجار : الإباضية ومدى صـلتها بـالخوارج ص ٩٥ – ١٠٨ ط دار المعـارف القاهرة ١٩٩٣ م.

Lewicki : Melanges Berberes , p.269

(٢٣) الإمام عبد الوهاب هو الذي تولى خلفا لوالده عبد الرحمن بن رستم، وقـد اختلـف المؤرخون في مدة حكمه فالشائع بينهم أنها دامت أربعين سنه، وأن سنة توليته الخلافـة سنة١٦٨هـ وأن وفاته كانت سنة ٢٠٨ هـ، وقد ذكر المؤرخ ابن عذارى أن مدة حكمه عشرين سنه بدأت سنة ١٦٨ وانتهت سنه ١٨٨هـ، أما المؤرخ البارونى فـي الأزهـار الرياضية فقد ذكر أنه تولى الحكم سنة ١٧١هـ وأن وفاته كانت سنة ١٩٠هـ، انظـر : الشماخى : السير ج٢ ص ٢٧٢ – ٣٢٤ / ابن عذارى : البيان المغرب ج١ ص ١٩٧.

الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٥٦ – ١٦٦ / أبو زكريا : سير الأئمة ص ٤٧.

Provencal : Histoire de l'Espagane Musulmane , vol, 1, p. 244

(٢٤) انظر : د. محمد ناصر : منهج الدعوة عند الإباضية ص ١٤٩ – ١٥٦ مكتبة الاستقامة سلطنة عمان، ١٩٨٣م.

عمرو خليفة النامي : دراسات عن الإباضية ص ١١٣، ١١٤ ترجمة ميخائيل خوري و د. ماهر جرار ومراجعة د. محمد صالح ناصر دار الغرب الإسلامي ٢٠٠١م.

د. محمود إسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب ص ١٤٤، ١٤٥ دار الثقافة المغرب ط٢ ١٩٨٥ م.

على يحيى معمر : الإباضية في الجزائر ص ٥٦،٥٧ مكتبة وهبة القاهرة ١٩٧٩.

(٢٥) ومن الجدير بالذكر أن ابن الصغير المالكي لم يذكر أو يتحدث عن حركة خلف بن السمح لأن مجال هذا الانشقاق كان منطقة طرابلس وجبل نفوسة وإنما انفرد هو بأحداث العاصمة تاهرت، وقد خصص كل من أبى زكريا والدرجينى والشماخى مساحات في رواياتهم عن أحوال جبل نفوسة وحيز طرابلس.

(٢٦) د. محمود إسماعيل: الخوارج في المغرب الإسلامي ص١٢١ دار العودة – بيروت،١٩٧٦م.

(٢٧) حيز طرابلس: هو المنطقة الواقعة بين مدينة طرابلس وجبل نفوسة.

(٢٨) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٥ وابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٣٨٣ المكتبة التوفيقية، القاهرة (د. ت) / الدرجينى : طبقات الإباضية ج١ ص ٦٥ – ٦٧ / د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ج٢ ص ٢٩. / د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ٤٦٩.

(٢٩) الشماخى : السير ج٢ ص ٢٩٢– ٢٩٤، أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٩، الدرجينى : طبقات الاباضية ج ١ ص٦٨، الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٥٠.

(٣٠) د. سعد زغلول: مرجع سابق ج٢ ص٣٣٣.

(٣١) أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافرى : وأبو الخطاب هذا من وجوه العرب، وهو أحد تلاميذ إمام الإباضية في البصرة بالمشرق (أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة) وقد أخذ عنه أصول المذهب الإباضى وبعد عودته إلى المغرب، تم اختياره ليكون إماما للإباضية، وفي سنة ١٤٠هـ نجح الإباضيون في الاستيلاء على طرابلس ثم القيروان، ولكن هذا النجاح لم يستمر طويلا، إذ أرسلت= =الخلافة العباسية واليها على مصر ابن الأشعث الذي التقى بأبي الخطاب في سرت سنة ١٤٤هـ فقتل (أبو الخطاب) وكثيرًا من أتباعه، انظر: ابن عذارى: البيان المغرب ج ١ ص ٨١، الشماخى : السير ج٢ ص ٢٤٥،٢٤٦، ٢٤٧، الدرجينى: طبقات الدرجينى ج ١ ص ١٩، ابن الصغير المالكي :

أخبار الأئمة الرستميين ص ٢٣٩، ٢٤٠ ، د. عوض محمد خليفات : نشأة الحركة الإباضية ص ١٤٧.

(٣٢) د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ج٢ ص٣٣٣.

(٣٣) على يحيى معمر : الإباضية، دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم ص ٦٨، ٧٠ مكتبة وهبة، القاهرة ط ٢ ١٩٨٧م.

(٣٤) على يحيى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٢٥٨ المطبعة العربية، الجزائر ١٩٨٧م.

(٣٥) د. صابر طعيمة : الإباضية، عقيدة ومذهبا ص ٦٠ ط دار الجيل، بيروت ١٤٠٥ هـ .

(٣٦) انظر : د. عامر النجار : الإباضية ومدى صلتها بالخوارج ص ١٠٣ دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣م.

(٣٧) الشماخى : السير ج٢ ص٣١١ ط دار المدار الإسلامي.

وانظر أيضا : أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٠

(٣٨) أبو زكريا : مصدر سابق ص١٢٢.

(٣٩) أبو الحسن أيوب : هو عامل الإمام عبد الوهاب على جبل نفوسة، انظر: الدرجيني: طبقات الإباضية ج١ص٥٨، ٦٢، ٦٤، ٦٨.

(٤٠) إسماعيل بن درار الغدامسى : هو أحد العلماء الخمسة المعروفين بحجة العلم، وهو غدامس جنوب طرابلس، وقد تلقى دراسته على إمام الإباضية في البصرة وهو أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة .

انظر : د. عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية ص ١٣٧.

(٤١) أبو سفيان محبوب بن الرحيل : هو أحد أئمة علماء وفقهاء الإباضية، نشأ في البصرة ثم انتقل إلى مكة المكرمة وعاش بها حتى وفاته، وهو أحد تلاميذ أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة، له العديد من المؤلفات ولكنها ضاعت ولم يبق فيها إلا بعض الشذرات المبثوثة في كتب الفقه والسير، وكانت وفاته في أواخر القرن الثالث الهجري. انظر : معجم أعلام الإباضية، قسم المغرب، ترجمة رقم ٥٤٤، جمعية التراث القرارة، الجزائر.

(٤٢) د. محمد عيسى الحريري : الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ص ١٣٦ط ٣ دار العلوم ، الكويت ، ١٩٨٧م.

وتاهرت : قاعدة الدولة الرستمية، بناها عبد الرحمن بن رستم، وقد تم تأسيسها سنة ١٦١هـ، وقد أحيطت بسور ضخم يحميها من هجمات الأعداء، وحين اختطها عبد الرحمن كانت في موضع مربع، فقالت البربر نزل تاهرت وتفسيره الدفء لتربيعه، انظر : البكري : المغرب ص٦٦، وياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢ ص٩، واليعقوبي : البلدان ص ١٥٣.

(٣٤) ومما ورد في هذا الكتاب : " بسم الله الرحمن الرحيم من أمير المؤمنين عبد الوهاب إلى جماعة المسلمين بحيز طرابلس، أما بعد، فإني آمركم بتقوى الله وإتباع ما آمركم به واجتناب ما نهاكم عنه، وقد بلغني ما كتبتم به إلي من وفاة السمح واستخلاف بعض الناس خلفا ورد أهل البر ذلك، فإن من ولى خلفا من غير رضا إمامه، فقد أخطأ سيرة المسلمين، ومن أبى من توليته فقد أصاب، فإذا أتاكم كتابي هذا، فليرجع كل عامل استعمله السمح إلى عمله الذي ولى عليه إلا خلفا بن السمح حتى يأتيه أمري وتوبوا إلى ربكم وراجعوا التوبة لعلكم تفلحون "

انظر نص الخطاب في : الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١١، ٣١٢، أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٠، الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص١٥١.

(٤٤) د. محمود إسماعيل عبد الرازق: الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري ص ١٦٣ دار الثقافة، المغرب ط٢ ١٩٨٥ م.

(1) Julian , Andre : Histoire de'l' Afrique du nord.p. 335 , paris 1931

(٤٥) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١١٢، والشماخي : السير ج٢ ص ٣١٢.

(٤٦) أبو زكريا : سير الأئمة صـ١١٢

(٤٧) ابن الأغلب : هو إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال التميمي، مؤسس دولة الأغالبة بالمغرب الأدنى، تولى الحكم سنة ١٨٤ هـ وحتى سنة ١٩٦ هـ، كان فقيها، أديبا، شاعرا خطيبا، ذا رأى ونجدة وبأس، وعلم بالحروب ومكايدها، لم يل إفريقية أحسن سيرة منه، تمهدت إفريقية في أيامه واستقامت الأحوال بها، انظر : ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ص ٤٨، ٤٩ نشر المكتبة العتيقة، تونس ط ٢ ١٩٦٧ م. / الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ص ١٣٠ دار الفرجاني ١٩٩٤ م / ابن الآبار : الحلة السيراء ج١ ص ٩٩ الشركة العربية للطباعة ١٩٦٣ م. / د. بدر عبد الرحمن محمد : دولة الأغالبة والأدارسة في بلاد المغرب ص ١ – ١٥ مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨٦م.

(٤٨) أبو زكريا : سير الأئمة ص١٢٢

(٤٩) الدرجيتي : طبقات الدرجني ج١ ص ٥١ ٥٣، الباروني : الأزهار الرياضية : ج٢ ص ١٥٠، ١٥١

الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٢، الماوردى : الأحكام السلطانية، عقد الإمامة ص٧

(٥٠) يزيد بن فندين : هو زعيم جماعة من الإباضية يطلق عليهم (النكارية)وذلك لأنهم اعترضوا على إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الذي تولى الإمامة في تاهرت سنة ١٧٨هـ وكان مبعث خلافهم أنهم أثاروا نقطة العلم عند الإمام وهل يجوز أن يبقى الإمام في السلطة إذا ما ظهر بين أفراد الجماعة من هو أعلم منه ؟ وبهذا المنطق أثاروا نوعا من الشك في صحة إمامة عبد الوهاب وتطورت هذه الحركة حتى وقع الصدام المسلح بين المؤيدين للإمام عبد الوهاب وبين النكار أسفر عن مقتل زعيم النكار ابن فندين وبعض أنصاره.

انظر : أعمال الأعلام ص٥٣، الإباضية بالجريد ص٧٧،٧٨، الإباضية بين الفرق الإسلامية ص٢٥٨، الفصل في الملل والنحل ج٤ص١٩١، د. سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي ج٢ ص٣١٥، سير الأئمة ص ٩٣

(٥١) شعيب المصري : هو شعيب بن المعروف أحد زعماء الإباضية بالمشرق وكان موجودا بمصر ثم خرج إلى تاهرت طمعا في الإمارة وقد نهاه بعض مشائخ الإباضية في مصر عن المسير إلى تاهرت إلا أنه لم يستجب إلى ذلك وانضم إلى يزيد بن فندين ورأى أن يطور الحركة (النكارية) من حيز النشاط السياسي المؤقت إلى حركة أو مذهب ديني يعتمد مسائل يختلف بها عن جمهور الإباضية، انظر : أبو زكريا : سير الأئمة ص ٩٢. / ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة الرستميين ص ٢٥٠ دراسة وعرض د. حسن على حسن، القاهرة ١٩٨٤ م. / د. صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهبا ص ٥٢ دار الجيل – بيروت ١٤٠٥ هـ.

(٥٢) الشماخي : السير ج٢ ص٢٩٤

(٥٣) هو أبو عبيدة عبد الحميد الجناوني : أحد علماء نفوسة الموصوفين بأخلاق نفيسه مال إلى ما طبع عليه من الورع واطراح الحرص والدنيا وترك الطمع، وكان غاية في إنفاذ الأمور وإمضائها، وقائم بالمدافعة لأحوال البغاة ودفاعها، ووافيا بما أمر من إصلاح النفس والدين والدنيا وتحصينها، فلما ولى " أحسن السيرة، انظر : الشماخي : السير ج.٢ ص ٣١٠.

(٥٤) الشماخي : السير ج ٢ ص ٣١٣

(٥٥) أبو زكريا : سير الأئمة ص١٢٥

(٥٦) الشماخي : السير ج٢ ص٣١٣.

* وتشير بعض الروايات التاريخية بأن كلمة ضعيف التي ذكرها أبو عبيدة يقصد بها، أنه ضعيف المال والبدن والعلم فكتب إليه الإمام يقول : إن كنت ضعيف البدن فادخل في أمور المسلمين يقوى بدنك وإن كنت ضعيف العلم فعليك بأبي زكريا وإن كنت ضعيف المال فبيت المال يسعك ويسع غيرك " انظر : الدرجيني : طبقات الإباضية ج ١ ص ٧١، الشماخي : السير ج ١ ص ٣١٣.

(٥٧) الشماخي : السير ج٢ صـ٣١٤.

* وذكر المؤرخ الدرجيني أن أبا عبيدة استشار عجوزا معروفة بالعلم والورع والدين، فقال لها: إن أمير المؤمنين بعث إليّ بالولاية، فأشيري عليّ، فقالت: إن علمت في نفوسة أفضل منك فتقدمت، فستكون خشبة في جهنم، وإن علمت ليس فيهم أفضل منك، فتأخرت، فستكون خشبة في جهنم، فقال: أما في أمور الرجال، فلا أعلم فيهم مثلي، فرجع إلى المشائخ وقبل الدخول في أمورهم، انظر: الطبقات ج١ ص٧١.

(٥٨) الدرجيني : طبقات الدرجيني ج١ ص ٧٢.

الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٥٤، ١٥٥.

د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٤٣.

الشماخي : ج٢ ص ٣١٤،٣١٣.

(٥٩) الشماخي : السير ج٢ ص٣١٤

(٦٠) د. محمد عيسى الحريري : الدولة الرستمية ص ١٣٧.

(٦١) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٥٥.

*ومن الواضح أن عمرو بن يانس كان على صلة أيضاً بخلف، ويؤكد ذلك ما ذكره المؤرخ الشماخي في السير، حيث يقول : " كان عمرو بلاء على المسلمين، وصاحب خلفا، وأحدث أحداثا على المسلمين وكان يتبع عوراتهم ويكاتب الإمام "، انظر : السير ج ٢ ص٢٩٨.

(٦٢) الشماخي : السير ج٢ ص ٣١٤.

(٦٣) الباروني : ج٢ ص ١٥٥

(٦٤) الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص١٥٧

(٦٥) أبو زكريا : سير الأئمة ص١٢٦، ود. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ج٢ ص٣٣٧.

(٦٦) ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين ص ١٦.

*والنفاثية فرقة من فرق الإباضية، أفرزتها العوامل السياسية والمتغيرات التي كان يتعرض لها الإباضيون، وتنسب إلى فرج بن نصر النفوسى المعروف بالنفاث وهو من القرى القريبة من جبل نفوسة، وقد لقيت هذه الفرقة استجابة كبيرة من جانب الإباضيين في نفوسة، وذلك لمناهضة الدولة الرستمية، ولكن المصادر الإباضية تعتبر هذه الفرقة مارقة وخارجة عن الإمامة الإباضية وذلك لأسباب سياسية وعقدية عندهم، انظر : أبو الربيع سليمان الباروني : مختصر تاريخ الإباضية ص ٣٧، ٣٨، وعلى يحيى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ص ٢٦٥، ود. صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهبا ص٥٥- ٥٧.

(٦٧) ابن الصغير : أخبار الأئمة الرستميين ص ١٧

وتلمسان : بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة، وبعضهم يقول تنسمان بالنون عوض اللام بالمغرب، وهى قاعدة المغرب الأوسط ولها أسواق ومساجد وغلاتها ومزارعها كثيرة وفواكهها جمة وخيراتها شاملة، ولم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة أغمات وفاس أكثر من أهلها أموالا ولا أرفه منها حالا، ولم تزل تلمسان دارا للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك بن أنس رحمه الله " انظر : البكري : المغرب في ذكر بلاد المغرب ص٧٦،٧٧، الاستبصار ص١٧٦، ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٢ص٤٥٤

(٦٨) الشماخي : السير ج٢ص٢٧٢

(٦٩) الباروني : الأزهار ج٢ص١٦٦، وانظر أيضاً : رابح بونار : المغرب العربي، تاريخه وثقافته ص ١١١، ١٣٧ – ١٤٥ ط الشركة الوطنية للنشر بالجزائر (د.ت).

(٧٠) د. إبراهيم العدوى: بلاد الجزائر ص٢٠١

(٧١) ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة الرستميين، ق ١ دراسة وعرض د. حسن على حسن ص ١٥٠.

(٧٢) د. إبراهيم العدوى : مرجع سابق ص٢٠٢

(٧٣) الشماخي : السير ج٢ ص٣١٥

(٧٤) د. محمد عيسى الحريري : الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ص ١٤٤، دار القلم، ط ٣ الكويت، ١٩٨٧ م ص١٤٤.

(٧٥) الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ص١٦٦.

(٧٦) الشماخي : السير ج٢ ص٣١٥

(١)Lewicki , Etudes Ibadites Nord Africaine ,p.115

(٧٧) أدرف : إحدى القرى القريبة من جبل نفوسة، وقد اختلف المؤرخون في اسم القرية حيث يذكرها الباروني باسم " درف " ويذكرها الدرجيني باسم " ويدوف " أو " يدوف " بينما يسميها أبو زكريا " درف " وهى مشهورة باسم " درف " وينسب إليها أبو محمد الـدرفي، انظر : الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ص ١٦٧، والدرجيني : طبقات الإباضـية ج ١ ص ٧٣. والاستبصار ص ١٤٤، والمسالك والممالك ص١٠.

(٧٨) جادو: مدينة كبيرة بجبل نفوسة وهى مدينة جبلية تقع الآن في شمال غـرب ليبيـا وتعرف أحيانا باسم فساطو نسبة إلى القبيلة التي تسكنها وهى تبعد عن العاصـمة لليبيـة حوالي ١٨٠ كم تقريباً، وكلمة جادو تعنى الأرض كثيرة التـراب، وجـادو هـي المركـز الاقتصادي والسياسي والديني للجهة الشرقية من جبل نفوسة وكان لهـذا البلـد القـديم أسواق يسكنها عدد كبير من اليهود، انظر : الشماخي : السير ج٣ ص ٨٤٨ .

(٧٩) الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٦٧.

(٨٠) الشماخي : السير ج٢ ص ٣١٥.

(٨١) إجناون : بلد في منطقة فساطو غربى جادو في جبل نفوسة، ذكرت منذ القرن الثالث الهجري ومازالت عامرة، وقيل إن كلمة (إجناون) بربرية تعنى العبيد، ويذهب البعض إلى كونها الصيغة المحلية لكلمة الأجنة العربية، لما عرفت به من كثرة البساتين، وقـد ذكـر المؤرخ الشماخى أن عين إجناون تدور على اثني عشر ألف زيتونة : انظر : الـشماخى : السير ج ٣ ص ٨٢٥.

(٨٢) الشماخى : السير ج٢ص٣١٥، وقد علق هذا المؤرخ علـى خلـف قـائلا: (فـأبى وتمادى في شن الغارات ونهب الأموال وقتل الأنفس، وما قدروا عليه من الفساد) انظر : ج٢ ص٣١٥.

(٨٣) والمقصود بذلك أن يفصل خلف الحدود الشرقية للدولة الرستمية وهى التي تبدأ من خليج سرت إلى طرابلس وقابس ماعدا مدينة طرابلس والساحل فإنهما يقعان تحت النفـوذ الأغلبى : انظر : محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ج٣ص٥١٦.

(٨٤) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٦٨.

(٨٥) الشماخى : السير ج٢ ص٣١٦ – الباروني : الأزهار ج ٢ ص ١٦٨.

وخلافا للشماخى في السير وللباروني في الأزهار الرياضية، فقد ذكر الدرجينى في طبقـات الإباضية أن عسكر خلف يعد أربعة آلاف، وهذا الرأي هو الصحيح لأنه يتناسب مع جبـل نفوسة من حيث المساحة وعدد السكان، انظر : ج ١ ص ٧٤.

(٨٦) الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٦٨،١٦٩.

(٨٧) النهروان : هي بلد تقع بين بغداد وواسط، دارت فيها المعركة التي هزم فيها على يد أبى طالب الخوارج وقتل أحد زعمائهم وهو عبدالله بن وهب الراسى سنة ٣٨هـ / ٦٥٨ م وإثر معركة النهروان دارت وقعة أخرى في النخيلة قرب الكوفة، انظر : ابن الأثير ج٣ ص٢٢٦، دار التوفيقية للطباعة.

الدرجيني : طبقات ج١ ص٧٤، ياقوت الحموي، معجم البلدان ج٨ ص ٤١٨.

(٨٨) الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٦٩.

(٨٩) اللغة الكانمية: هي لغة أهل كانم من الإمبراطوريات الإسلامية في غرب أفريقيا في العصور الوسطى، وقال ياقوت الحموي عن كانم : هي من بلاد البربر بأقصى المغرب في بلاد السودان. انظر : معجم البلدان ج ٧ ص ١١٦.

(٩٠) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧١، والشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٧.

(٩١) الباروني : الأزهار ج٢ ص ١٧١.

(٩٢) الشماخى : السير ج٢ ص ٣١٧.

(٩٣) شروس : وفي معجم البلدان : شَروس بفتح أوله وضم ثانيه وربما قيل بالشين المعجمة في أوله فتصبح "شروس" وهى مدينة جليلة في جبل نفوسة من ناحية إفريقية وهى كبيرة آهلة، وهى قصبة ذلك الجبل بينها وبين طرابلس خمسة أيام وبينهما حصن لبدة وهى حاليا آثار، انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٥ ص ٤٣.

(٩٤) شاك السلاح أو شاك في السلاح: أي كان لابسا سلاحا تاما وغارقا فيه.

(٩٥) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧٢.

(٩٦) ياقوت الحموي: مصدر سابق ج٥ ص ٤٣.

(٩٧) الشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٧.

(٩٨) السابق ج٢ ص٣٢٠، وانظر أيضاً : الدرجينى، طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٦.

(٩٩) أبو مرداس : هو أبو مرداس مهاصر السدراتى، الساكن بتبرست ولذلك يقال له أحيانا : أبو مرداس التبرستى، بلغ في العلوم النهاية، وجرى في أمر الصلاح الغاية، كان ينفق ماله على الضعفاء، وكان له مسجد في كهف يتعبد فيه، انظر : الشماخى : السير ج ٢ ص ٣٠٢، ٣٠٣.

(١٠٠) سورة البقرة: آية ١٥٦.

(١٠١) الشماخى ج٢ ص ٣١٨.

(١٠٢) نفسه ج٢ ص٣١٨.

(١٠٣) الدرجينى : طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٥،٧٦ / وانظر أيضا : الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٧٣.

(١٠٤) الشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٩

(١٠٥) السابق: السير ج ٢ ص٣١٨.

(١٠٦) جزيرة جربة : تقع بالمغرب من ناحية إفريقية قرب قابس يسكنها البربر فيها بساتين كثيرة وأهلها مفسدون في البر والبحر، وهم خوارج وبينها وبين البر الكبير مجاز، انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٣ ص ٤٢، والبكري : المغرب ص ١٩

(١٠٧) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧٣.

(١٠٨) الدرجينى : طبقات الدرجينى ج١ ص ٧٠

(١٠٩) الشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٩.

(١١٠) الشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٩.

(١١١) انظر : أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٢٥

الدرجينى : طبقات الدرجينى ج ١ ص ٧١.

الشماخى : السير ج ٢ ص ٣١٣.

الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٦٦.

(١١٢) والعباس هذا هو ابن أيوب بن العباس الذي كان واليا على حيز طرابلس وجبل نفوسة في عهد الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وكان له دور منهم في الصراع مع الخلفية، وقد ذكرتها فيما سبق في هذا البحث.

(١١٣) أبو الحسن الأبدلانى : كان واسطة العقد وإنسان العين، تعلم العلوم وعمل بموجبها وتحصن من الشيطان بزهد الدنيا ورفضها، وهو أحد الأربعة الذين تكلفوا بما طلبه الإمام وهو أحد الاثنى عشر المشهورين بإجابة الدعاء في عصر واحد بجبل نفوسة، انظر : الشماخى في السير ج٢ ص ٣٠١، ٣٠٢.

* * ومن الجدير بالذكر أن كل من أبى مرداس وأبى الحسن الأبدلانى كانت مواقفهما تشهد لهما بصدق النية وصفو القلوب، ولكل منهما فضائل عالية ومفاخر ومناقب ذكرها

المؤرخون، انظر البارونى : ج٢ ص ١٧٥ / الشماخى : ج ٢ ص ٣٠٢ / الدرجينى : طبقات الإباضية ج ٢ص ٢٩٢، ٢٩٤.

(١٤) الباروني : الأزهار الرياضية ج٢ ص ١٧٥

(١٥) تيمتى : جاء في المصادر الإباضية أنها قرية في الجهة الشرقية من جبل نفوسة قرب جادو والتسمية الحالية لها هي تيمتلت، وقد ظلت تيمتى مركزا لإباضية جهة طرابلس زمن السمح بن عبد الأعلى، ثم للخلفية زمن خلف بن السمح، وذكرت آر مرة على عهد أبى منصور إلياس في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، انظر : الدرجينى : طبقات الإباضية ج ١ ص ٧٢ والشماخى : السير ج ٣ ص ٨٤٦.

(١٦) الشماخى : السير ج٢ ص٣٣١.

(١٧) نفسه : نفس الجزء والصفحة.

(١٨) لالت : هو الوادي الفاصل بين (الزنتان) من جهة (تغرمين)و(الرجبان)من جهة (فساطو) والذي سمى فيما بعد بوادي الآخرة لصعوبته وعمقه، ويلاحظ في ذلك أن قرية (تغرمين) لم تدخل في الطاعة وتحرز شهرتها في دولة بنى رستم إلا بعد تلك الواقعة وهى حاليا نالوت، وتقع غرب جبل نفوسة، انظر : الباروني : الأزهار ج٢ ص١٧٧.

(١٩) الباروني : الأزهار الرياضية ج ٢ ص ١٧٦.

(٢٠) الشماخى : السير ج٢ ص٣٣١.

(٢١) نفسه : نفس الجزء والصفحة.

(٢٢) الشماخى : ج٢ ص٣٣١.

(٢٣) المقصود بذلك جبل شماخ وجبل يفرن

(٢٤) د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٤٧

Lewicki : Melanges Berberes, ibadites , P.270.

(٢٥) ابن الصغير المالكي : أخبار الأئمة الرستميين ص٢٩٨،٢٩٧ دراسة وعرض د. حسن على حسن، القاهرة ١٩٨٤ م.

(٢٦) ومن الجدير بالذكر أن منصب الإمامة الرستمية قد ضعف بسبب ذلك، لأن معناه أن رجال المذهب الإباضى قد ضعف نفوذهم لدرجة أنهم أبعدوا عن اختيار الإمام، وكان ذلك أحد العوامل الرئيسية للضعف والانهيار الذي أصاب الدولة الرستمية وأدى إلى سقوطها.

(٢٧) الشماخى : السير ج٢ص٤١٦

(٢٨) قبيلة زناته : كانت منتشرة في بلاد المغرب من أدناها إلى أقصاها ومختلطة بغيرها من القبائل، فمواطنها كما يقول ابن خلدون في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغـرب، فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى، ومنهم قوم بالتلول بجبال طـرابلس وضواحي إفريقية وبجبل أوراس، والأكثر منهم بالمغرب الأوسط ومنهم بالمغرب الأقـصى أمم أخرى، انظر: ابن خلدون : العبر ج٧ ص ٢ وانظر أيضا :

Gautier : Les Siecles obscurs du Maghrb.P. 264 – 266, Paris , 1937

(٢٩) الشماخي : ج٢ ص٤١٦ / الباروني : الأزهار ج٢ ص٢٦٥ / أبو زكريا : سـير الأئمة ص ١٤٩ / الدرجيني : طبقات الـدرجيني ج٢ ص٢٦٥– ٢٩١ / عبـد الـرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام ج٢ ص٢٤.

(٣٠) وفي بعض الروايات أن الطيب هذا هو حفيد خلف وليس ابنه، انظـر: الـدرجيني: طبقات الإباضية ج١ ص٧٠.

(٣١) زواغة : من القبائل التي اعتنقت المذهب الإباضي وكانت تقيم في غـرب مدينـة تاهرت، قال عنها ابن خلدون : " هؤلاء البطون من بطون البرابرة البتر، من ولد سـمكان بن يحيى بن ضري بن زجيك بن مادغيس الأبتر، ولهم ثلاثة بطون وهى : دمر بـن زواغ وبنو واطيل وبنو ماضر ومن دمر بنو سمكان وهم أوزاع في القبائـل، ومـنهم بنـواحي طرابلس مفترقون في براريها، ولهم هنالك الجبل المعروف بدمر وفي جهات قـسطنطينية أيضاً رهط من زواغة، وكذلك بجبال سلف بنو واطيل منهم وبنواحي فاس آخرون، انظر : العبر ج٦ ص ٢٦١ ٢٦٤.

(٣٢) تندميرت : قرية من قرى نفوسة تقع في الجانب الغربي من الجبل، وفيها مـسجد أبى منصور إلياس، ويقال لها تندميرت وتين دميرت وتندميرة، انظر الشماخى : السير ج ٢ ص ٣٦٤.

Despois : Le Djebel Nefousa , p. 258 , 288.

(٣٣) انظر : أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٤٦. / الدرجينى : طبقات الدرجينى ج١ ص ٨٤ / الشماخى : السير ج ٢ ص ٣٦٤.

(٣٤) بحاز إبراهيم بن بكير : الدولة الرستمية ص ١٥٠ ط ٢ جمعية التراث، الجزائـر ١٩٩٣ م

(٣٥) إحسان عبد الله : الدولة الرستمية في تاهرت ص ٢٠٩ رسالة ماجستير، جامعـة القاهرة ١٩٨٦ م.

(٣٦) الشماخى : السير ج٢ ص ٣٦٤.

ومن الجدير بالذكر أن أنصار الخلفية، من نفوسة وزواغة، ظلوا موالين للطيب بن خلف حتى أواخر حكم بنى رستم.

(٣٧) ولد خلف : لم تذكر الروايات التاريخية اسمه، وإنما تكتفي بالقول إن والى جبل نفوسة خرج على أيام أبى حاتم يوسف لطلب ولد خلف فهرب لاجئا إلى قبائل زواغة، انظر : د. سعد زغلول : تاريخ المغرب العربي ج ٢ ص ٣٨٤.

(٣٨) الشماخى : السير ج٢ ص ٣٦٤

(٣٩) وفي طبقات الدرجينى يسمى (أبو سلامة) انظر ج١ ص ٨٤.

(٤٠) أبو زكريا : سير الأئمة ص ١٤٧.

(٤١) د. محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب ص ١٨٠.

(٤٢) ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ أبا زكريا ذكر هذه الحرب في آخر ولاية الرستميين وكذلك المؤرخ الدرجينى في طبقاته، ولا شك أنها وقعت قبل موت أبى اليقظان سنة ٢٨١هـ/ ٨٩٤م وأبى منصور إلياس الذي توفي قبل سنة ٢٨٣هـ / ٨٩٦م.

انظر : سير الأئمة ص ١٤٧ / طبقات الدرجينى ج١ ص٨٤، ٨٥.

(٤٣) الشماخى : السير ج٢ ص ٣٦٥.

(٤٤) د. سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ج٢ ص٣٨٧.

(٤٥) أبو زكريا : ص٣٣ والدرجينى : الطبقات ج ١ ص ٨٤، ٨٥.

* وقد أضاف الدرجينى أنهم سألوه في قضية رجل رجل، فاختلفوا فقال : تقطع الرجل دون العقب، وعندئذ قال مقالة، جابر بن زيد لما استفتى في السجن وخبره مشهور، وهذا يعنى إن مقالة : يسجنوننى ويسألوننى " هي أصلا لجابر بن زيد، انظر الطبقات ج ١ ص٨٧.

(٤٦) أبو زكريا : سير الأئمة ص ٣٣.

(٤٧) الدرجينى : طبقات الدرجينى ج ١ ص٨٧.

(٤٨) قابس : مدينة تقع على ساحل البحر الرومي، وتنصب إليها أنهار من بعض الجبال التي تليها، فهي بذلك أخصب بلاد إفريقية وأوسعها فواكه وأعنابا، انظر:عبد الواحد المراكشى : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٥٠ دار الكتب العلمية، بيروت(د. ت)

(٤٩) الورجلانى : الدليل لأهل العقول ج ٣ ص ٥٤ ط القاهرة ١٣٠٦ هـ

Motylinski : L'Aqida des Abadhites P. 512

(٥٠) ومن الجدير بالذكر إن أبا منصور إلياس كان واليا على جبل نفوسة في عهد كل من (أفلح بن عبد الوهاب وأبى اليقظان ثم أبى حاتم يوسف) وهو يعد من أشهر الشخصيات النفوسية في تاريخ إمامة تاهرت الرستمية على وجه العموم.

(٥١) مختصر تاريخ الإباضية ص ٥٠، تونس ١٩٠٨م.

(٥٢) وارجلان : بفتح أوله وسكون ثانيه وفتح الجيم كورة بين إفريقية وبلاد الجريد، ضاربة في البر كثيرة النخل والخيرات، يسكنها قوم من البربر، وهى حاليا مدينة ورغلة، واحة في الجنوب الشرقي من البلاد الجزائرية، أضحت أهم مركز للإباضية بعد سقوط تاهرت عاصمة الرستميين، انظر: ياقوت الحموي معجم البلدان ج ٨ ص ٤٥٣ / والشماخي : السير ج ٣ ص ٨٧٨.

(٥٣) محمد بن تاويت :دولة الرستميين أصحاب تاهرت، صحيفة المعهد المصري، مدريد عدد ٥٤٠، ١٩٥٧ م، ص ١٢٧.

(٥٤) د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ص ٤٨٠ نشر مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية سنة ١٩٨٢م.

❖ د. إبراهيم أحمد العدوى: الجزائر ، تكوينها العربي والإسلامي ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة.

❖ ابن الآبار (أبو عبد الله محمد ت سنة ٦٥٨هـ): الحلة السيراء ، الشركة الوطنية للطباعة ، الجزائر ١٩٦٣ م.

❖ ابن الأثير : (على بن أحمد ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٨ م): الكامل في التاريخ ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة

❖ الإدريسى : (أبو عبد الله محمد – ٥٥٨ هـ): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، روما ١٩٧٢ م

❖ الإسفراييني : (أبو المظفر ت ٤٧١ هـ): التبصير في الدين ، ط القاهرة ١٩٥٦م.

❖ ألفرد بل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقى ، ترجمة د. عبد الرحمن بدوى ، ليبيا ١٩٦٩ م.

❖ الباروني : (سليمان بن عبد الله النفوسى ١٢٥٩هـ): الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، ط القاهرة ١٩٦٧م.

❖ د. بدر عبد الرحمن محمد : دولة الأغالبة والأدارسة في بلاد المغرب ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٦ م.

❖ البكري: (عبد الله بن عبد العزيز ٤٦٠ هـ):المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب،ت ، د. ى. سلين، الجزائر ١٨٧٧م.

❖ البلاذرى : (أبو العباس أحمد بن يحيى ٧٢٩ هـ / ٨٩٢ م): فتوح البلدان ، تحقيق محمد رضوان القاهرة ١٩٥٩ م.

❖ جمعية التراث : معجم أعلام الإباضية ، الجزائر ، قسم المغرب

❖ الحبيب الجنحانى: المغرب الاسلامى، الحياة الاقتصادية والاجتماعية ط الدار التونسية.

❖ ابن حزم الأندلسى:(على بن أحمد، ت٤٥٦ هـ): جمهرة أنساب العرب، ت عبد السلام هارون ، دار المعارف ١٩٧١م

❖ د. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، طبع مكتبة النهضة المصرية سنة١٩٥٧م.

❖ د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب، عصر الولاة مطبعة مصر ١٩٤٧ م.

❖ ابن عبد الحكم : (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ت ٢٥٧ هـ): فتوح مصر والمغرب ط ليدن ١٩٢٠ م.

❖ ابن حوقل: (أبو القاسم محمد ت ق ٤ هـ): صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٩٢م.

❖ ابن خرداذبة:(عبدالله بن خرداذبة ق٣هـ/٩م): المسالك والممالك،مطبعة ليدن ٩٨٩م.

❖ ابن الخطيب: (محمد لسان الدين ت ٧٧٦ هـ): أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، ت. العبادى وآخرون ، أحمد مختار العبادى وآخرون ط الدار البيضاء ١٩٦٤ م

❖ ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ): العبر وديوان المبتدأ والخبر، ط بيروت ١٩٧١ م.

❖ الدرجينى : (أبو العباس أحمد الدرجينى ت ق٧ هـ): طبقات الإباضية، ت. إبراهيم طلاي، قسنطينة(د.ت).

- ابن أبى دينار: (أبوعبدالله محمد ت سنة١١١٠هـ/١٦٩٨م): المؤنس في أخبار إفريقية وتونس،المكتبة العتيقة،ط٢ تونس ١٩٦٧م.
- رابح بونار: المغرب العربي، تاريخه وثقافته، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر(د. ت)
- أبو الربيع سليمان الباروني :مختصر تاريخ الإباضية ، ط ٢ ، تونس
- الرقيق القيرواني: (أبو إسحاق إبراهيم ت ق٥ هـ):تاريخ إفريقية والمغرب، دار الفرجاني ، القاهرة ١٩٩٤ م.
- أبو زكريا: (يحيى بن أبى بكر ق ٤ هـ / ١٠ م): سير الأئمة وأخبارهم ، المعروف بتاريخ أبى زكريا ت إسماعيل العربي ، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٨٩٢م.
- د. سعد زغلول عبد الحميد:(تاريخ المغرب العربي، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٧٩م)
- السلوى: (أبوالعباس أحمد١٣١٥هـ): الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ت. جعفر الناصري سنة ١٩٥٤ م
- د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، نشر مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية سنة ١٩٨٢م.
- الشماخي: (أحمد بن أبى عثمان سعيد عبد الواحد ت ٩٢٨ هـ)، السير، ط دار المدار الإسلامي.
- الشهر ستانى: (محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨ هـ)، الملل والنحل، ط القاهرة ١٩٥٦م.
- د. صابر طعيمة : الإباضية عقيدة ومذهبا، دار الجيل، بيروت ١٤٠٥هـ.
- صالح باجية : الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية تونس ١٩٧٦ م.
- ابن الصغير: (ابن الصغير المالكي ٢٨١ هـ / ٨٩٥ م) :أخبار الأئمة الرستميين ، ت. د /حسن على ، القاهرة ١٩٨٤ م.
- د. عامر النجار : الإباضية ومدى صلتها بالوارج ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٩٣م.
- ابن عذارى : (ابن عذارى المراكشى)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ت إحسان عباس بيروت ١٩٦٧ م.
- د. عصام الدين عبد الرؤوف الفقى : تاريخ المغرب والأندلس ، مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ١٩٩٠ م.

❖ علي يحيى معمر:

❖ – الإباضية بين الفرق الإسلامية القاهرة ط ١ ١٩٧٦ م.

– الإباضية دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم ، مكتبة وهبة القاهرة ١٩٨٧ م.

❖ د. عوض محمد خليفات: الأصول التاريخية للفرقة الإباضية، سقط١٩٨٢م.

– نشأة الحركة الإباضية،عمان سنة ١٩٧٨ م.

❖ الماوردي (أبو الحسن علي بن محمد ت سنة٤٥٠هـ) الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط القاهرة ١٩٧٣م.

❖ محمد بن تاويت : دولة الرستميين أصحاب تاهرت ، صحيفة المعهد المصري – مدريد ، ٥٤٠ سنة ١٩٥٧ م.

❖ محمد علي دبوز : (تاريخ المغرب الكبير) القاهرة ١٩٦٣ م

❖ د. محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ط ٣ دار العلم ، الكويت ١٩٨٧م.

❖ د. محمد ناصر: منهج الدعوة عند الإباضية ، مكتبة الاستقامة سلطنة عمان١٩٨٣م.

❖ د. محمود إسماعيل: الخوارج في بلاد المغرب الإسلامي، دار العودة – بيروت ١٩٧٦م.

❖ المراكشي : (عبد الواحد بن علي ت٦٤٧هـ):المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، دار الكتب العلمية، بيروت (د. ت).

❖ ابن منصور: قبائل المغرب، ط الرباط ١٩٦٨ م.

❖ الورجلاني: (أبو يعقوب يوسف ت ٣٨٠ هـ) : الدليل لأهل العقول ط القاهرة ١٣٠٦هـ.

❖ ياقوت الحموي(شهاب الدين أبو عبدالله ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨م): معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠٨م.

المراجع الأجنبية:

* Basset , Rene : Les Sanctuaires du Djebel Nefousa. Jurnal Asiatique , Tome 13,14.Paris 1899.

* Despois, Jean : Le Djebel Nefusa , Paris ,1935.

* Gavtier , E,F: Les Siecles Obscurs du Maghrb. Paris , 1937.
* Julian , Andre : Histire de , L Afrique du Nord , Paris , 1931.
* Lewicki , t : Etudes ibadites Nord Africaine , Warszaw , 1955.

  Melanges Berberes ibadites , Revue des etudes islam iques Annee ,1936 , Cahiar 3 , Paris , 1936.
* Motylinski , A,De ,C : L' Aqida des Abadhites Actes du Cngres international des rientalistes international des orientalistes, Alger ,1905.
* Provencal ,E,I : Histoire de L'ESPane musul mane , vol,1, Alger,1950.



القضاء في الصعيد الأعلى
خلال العهدين الفاطمى والأيوبى
(٣٥٨ – ٦٤٨هـ / ٩٦٨ – ١٢٥٠م)

د. ممدوح محمد حسن (*)

مقدمـــة

يعرف القضاء بأنه فصل الخصومات وقطع المنازعات على وجه خاص، صادر عن ولاية عامة بالأحكام الشرعية، المتلقاه من الكتاب والسنة النبويـة الشريفة[١]. وبوجه آخر؛ فالقضاء يعنى حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار، أو جعلهم على مقتضى النظر الشرعي المنوط بسيادة الدارين، وهذا أكمل[٢].

لذا يعد القضاء من أجلّ الوظائف المدنية، بل أرفعها وأسماها مرتبة[٣]، لأنها فرض لقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾[٥].

وكان الرسول ﷺ يتولى الفصل في الخصومات بنفسه، ولاسيما أن السلطة التنفيذية والقضائية في الإسلام، آنذاك، لم تكن مميزة أحدهما عن الأخرى[٦]. ولما توفي النبي ﷺ في ١٢ من ربيع الأول سنة ١١هـ/ ٨ يونيه سنة ٦٣٢م، وابتدأ عهد الصحابة بخلافة أبى بكر الصديق (١١-١٣ هـ/٦٣٢-٦٣٤م)، كانت سلطة القضاء يتولاها الخليفة أبو بكر، فلم يتخذ قاضيا يخصه بالقضاء[٧].

أما في عهد عمر بن الخطاب، رضي الله عنه (١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٣م)، الذي اتسعت في حكمه رقعة الدولة الإسلامية، فقد قام بتعيين قضاة في الأقاليم ينوبون عنه وقدم على الأمصار قضاة أقامهم مقامه[٨]، وأشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله: "أول ما دفع (أي القضاء) إلى غيره وفوضه فيه عمر"[٩].

(*) مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية – كلية الآداب، جامعة سوهاج

وأصبح القضاء بذلك من الوظـائف الداخلـة تحـت الخلافـة ومنـدرجاً فـي عمومها[١٠]. ومن ذلك أخذ الخلفاء على عاتقهم الإشراف علـى النظـام القـضائي، وعينوا في الأقاليم القضاة.

ففي مصر نظم عمرو بن العاص[١١] القضاء بها وفق أحكام الشريعة الإسلامية، فعم العدل، وانتشرت المساواة[١٢]، وكان أول من تولى القضاء بمصر هو قـيس بـن أبي العاص[١٣]، (ت٢٣هـ/٦٤٣م)، وكان ولاه عمر بن الخطاب، وكتب بذلك إلى عمرو بن العاص واليه على مصر[١٤]، وظل أمر تعيين القضاة في مصر بيد الخليفة ويكتب بذلك إلى الوالي بتا في عهد الخلفاء الراشدين وكذلك في العهـد الأمـوي، وإن كـان معظم الأمويين استنابوا عنهم في تولية القضاء أمراء ولاياتهم. وفـي عهـد الدولـة العباسية استرد أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٣-٧٧٤م) حق تعيين الخلفاء للقضاة، فولى عبد الله بن لهيعة الحضرمي علـى مـصر سـنة (١٥٥هـ/٧٧١م)[١٥]، وكان لا يتولى القضاء آنذاك إلا كل عالم فقيه مجتهد[١٦].

وهكذا جاء الفصل بين السلطة القضائية والسلطة الإدارية والسياسية، وصار لكـل ولاية قاض يضطلع بشئون العدالة وإقرارها، ويطبق الأحكام وفق الـشريعة الإسـلامية. ومنذ هذا العهد بدأ انطلاق التطور في النظام القضائي انطلاقاً قوياً شمل جميـع الولايـات. وكانت الإدارة القضائية في مصر نموذجاً لهذا التطور المهـم الـذي حـدث فـي النظـام القضائي على عهد عمر بن الخطاب، ثم استقر أمره فيما بعـد خـلال العـصر الأمـوي والعباسي أيضاً[١٧].

وكانت مصادر القضاة في مصر، منذ العهد الراشدي، هي القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع والاجتهاد[١٨]، شأنهم في ذلك شأن قضاة باقي الأمـصار الإسـلامية الأخرى، وخلال العهد الأموي لم يتقيد القضاة في مصر بمذهب بعينه، بل كان للقاضي مطلق الحرية في الفصل في الدعاوى والمنازعات بما يراه وفق اجتهاده وعلمه، وذلك إذا لم يجد حكماً منصوصاً عليه في القرآن والسنة النبوية أو إجماع الصحابة[١٩]، إلا أنه عندما ظهرت المذاهب الفقهية وانتشرت بين الناس بدأ القاضي يفقد طريقته فـي الاجتهاد وأصبح يحكم طبقاً لقواعد مذهب من هـذه المـذاهب، ففـي عهـد الدولـة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ/٨٦٨-٩٠٤م) والإخشيدية (٣٢٣-٣٥٨هـ/ ٩٣٤-٩٦٩م) لم يكن القضاة جميعاً تابعين لمذهب واحد، فمنهم الحنفي[٢٠] ومنهم المالكي[٢١] ومنهم الشافعي[٢٢]، فكان القاضي يحكم وفق عقائد المذهب الذي ينتمي إليه[٢٣]، وذلك ممـا أدى إلى ضعف روح الاجتهاد في الأحكام[٢٤]، وإن كان القضاء آنـذاك فـي الغالـب، يسير طبقاً للمذهب الشافعي[٢٥].

وعندما جاء الفاطميون إلى مصر، وأضحت مقر خلافتهم (٣٥٨هـ/٩٦٨م)، تأثر القضاء بالمذهب الشيعي[٢٦]، وصار قضاة مصر يتبعون ذلك المذهب حتى سقوط الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، وقيام الدولة الأيوبية، وعادت مصر من جديد سنية المذهب، وعاد معها القضاء إلى ما كان عليه قبل مجيء الفاطميين إلى مصر، حيث عزل قضاة الشيعة جميعاً وتولى الشافعية القضاء بمصر ونواحيها[٢٧].

وخلال الصفحات التالية نتناول بالبحث والدراسة موضوع القضاء في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي (٣٥٨-٦٤٨هـ/٩٦٨-١٢٥٠م)، ولكن ليس في القاهرة وسائر أنحاء مصر، بل يقتصر هذا البحث على الصعيد الأعلى، وذلك لأنه قد سبقنا الكثير من الباحثين في الكتابة عن القضاء في مصر، سواء في العهد الفاطمي أو الأيوبي[٢٨]، وكان جل عنايتهم بالفسطاط والقاهرة، ولم تتعرض تلك البحوث والدراسات لموضوع القضاء في الصعيد الأعلى؛ الذي يشكل جزءاً مهماً من أرض مصر، ولعل تركيزهم الحديث عن القضاء في العاصمة، راجع إلى أنها كانت محور الأحداث ومركز السلطة حينئذ، هذا بالإضافة إلى وفرة المادة العلمية الخاصة بالقضاء في الفسطاط والقاهرة في المصادر التاريخية، بينما دراسة القضاء في صعيد مصر، بصفة عامة والصعيد الأعلى بصفة خاصة، لم تتعرض لها المصادر المعاصرة للعهدين الفاطمي أو الأيوبي في الحديث عنه بالقدر الكافي الذي يجذب انتباه الباحثين، وربما ذلك راجع إلى جذب العاصمة القاهرة والمدن الكبرى في مصر، والقريبة من السلطة المركزية، انتباه الكثيرين من مؤرخي العهدين الفاطمي والأيوبي دون غيرهم.

غير أنني حاولت، عن طريق البحث والدراسة، أن أقف على العديد من المعلومات في بطون بعض المصادر التي بين أيدينا، والتي أعطتنا تصورا لا بأس به عن القضاء في الصعيد الأعلى خلال العهدين الفاطمي والأيوبي- محور هذا البحث- وهذه المعلومات كانت دافعاً لي للسير في الكتابة في هذا الموضوع، والجدير بالذكر أيضاً، أن معظم الدراسات السابقة في وقتنا هذا، والتي تناولت تاريخ الصعيد في العصر الإسلامي، لم تعط القضاء في الصعيد الأعلى القدر الكافي لإيضاحه وإبراز أهميته، فجاءت كتابات أحد هذه البحوث عن القضاء بسيطة لا تتعدى بعض الفقرات التي اقتضتها ضرورة أبحاثهم ليس إلا، بينما لم تتعرض باقي هذه الدراسات لموضوع القضاء في الصعيد الأعلى على الإطلاق[٢٩].

وقبل الحديث عن القضاء في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، وجدنا لزاماً علينا أن نتعرف- بإيجاز- على موقع الصعيد الأعلى محور الدراسة، وذلك لما له من أهمية وأثر كبير في التعرف على النظام القضائي في مدن وقرى هذا الجزء من أرض مصر.

يمثل الصعيد بصفة عامة الشطر الثاني من مصر، فمنذ أن تم الفتح العربي الإسلامي لمصر، أطلق العرب على الوجه البحري أسفل الأرض أو الريف، بينما أطلقوا على الوجه القبلي أعلى الأرض أو صعيد مصر[٣٠]. وكان الصعيد يقسم إلى ثلاثة أقسام: الصعيد الأدنى ويبدأ من الفسطاط حتى البهنسا[٣١]، والصعيد الأوسط ويبدأ من البهنسا حتى أخميم[٣٢]، أما الصعيد الأعلى فيبدأ من شمال أخميم حتى أسوان جنوباً[٣٣].

وكان الصعيد (الوجه القبلى)، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، يشتمل على عدة أقاليم هي: إقليم الجيزية، والإطفيحية، والبوصيرية، وإقليم الفيومية، والبهنساوية، والأشمونيين، والأسيوطية، ثم إقليم الإخميمية ثم إقليم القوصية في الجنوب[٣٤].

وكانت هذه الأقاليم يطلق عليها اسم كورة[٣٥]، إذ كانت مصر مقسمة إلى ثلاث وعشرين كورة، اختص الصعيد بتسع كور منها، وهى التي عرفت باسم الأقاليم. وقد ظل هذا التقسيم على هذا النحو حتى عصر المماليك البحرية في سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م، حيث قام السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م) بإجراء تعديلات على التقسيم الإداري لمصر، وحلت الأعمال محل الكور[٣٦].

وأياً لما كان الأمر، فقد كان الصعيد الأعلى خلال العهدين الفاطمي والأيوبي من ولايات مصر المهمة، وقد وصف ناصر خسرو الصعيد الأعلى بأنه "ولاية مصرية في الجنوب يأتي منها ماء النيل إلى مصر، وأكثر ثمارها منه، وهناك على ضفتي النيل كثير من المدن والقرى عظيمة الشأن"[٣٧]، ويمثل الصعيد الأعلى كورة القوصية وقصبتها مدينة قوص[٣٨]، فقد أشار الأدفوى إلى أن الصعيد الأعلى يبدأ من حدود بلاد النوبة جنوباً، حتى مرج بنى هميم المتصلة أراضيه بأراضي جرجا، من عمل أخميم، شمالاً[٣٩].

وعلى هذا النحو فقد ضم الصعيد الأعلى عدة مدن ونواحي جليلة مزدهرة بالأسواق، ودور الصناعة والحوانيت، والحمامات والمارستانات، والمساجد العظيمة، والربط والمدارس والمباني الفخمة. ومن مدن إقليم القوصية من الجنوب إلى الشمال نذكر : أسوان، وأدفو، وإسنا، وأرمنت، والأقصر، وقوص، وقفط، وقنا، ودندرة، ودشنا، وغيرها من النواحي والقرى التي تقع على جانبي نهر النيل حتى شمال أخميم[٤٠]، كما يضاف إلى أراضي الصعيد الأعلى : ثغر عيذاب على البحر الأحمر الذي كان يعد من أعمال قوص آنذاك[٤١]، والجدير بالذكر إن الكثير من مدن الصعيد الأعلى كان له دوره البارز في الحياة السياسية خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، وأثر

تأثيراً واضحاً في سير الأحداث، فقامت بها الكثير من الاضطرابات التي أقلقت السلطة المركزية في العاصمة القاهرة[٤٢].

وقد تولى أمر الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، وال من قبل السلطة المركزية في القاهرة، وكان يعين مع الوالي عامل للخراج وقاض، وكان القاضي يتم تعيينه من قبل قاضي القضاة[٤٣].

وبعد هذه المقدمة – التي أوضحت فيها (بإيجاز) تطور القضاء، وموقع الصعيد الأعلى وأهم مدنه، وكذلك أشرت فيها إلى مدى أهمية موضوع البحث الذي نحن بصدده – نذكر النقاط التي نتناول هذا الموضوع من خلالها، وهي على النحو الآتي: تعيين القضاة في الصعيد الأعلى خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، ثم نتحدث عن مذاهب القضاة في الصعيد الأعلى، ومكانتهم، ومهامهم، ثم معاوني هؤلاء القضاة، ثم ننهي الحديث في هذا البحث بذكر إسهامات القضاة في ازدهار الحياة العلمية والأدبية في الصعيد الأعلى، خلال الفترة البحث، وفيما يلي تفصيل ذلك.

تعيين القضاة في الصعيد الأعلى:

احتفظ القضاء في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، بمكانته السامية التي كان عليها في العاصمة القاهرة وباقي أنحاء مصر، خاصة وأنه بوصول الفاطميين إلى مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م أضحت القاهرة، مثلها مثل بغداد أو قرطبة، مركز خلافة، وعرفت مصر منذ ذلك الحين منصب قاضي القضاة[٤٤] الذي كان يتم اختياره من الفقهاء الإسماعيلية، ويشترط عليه أن لا يحكم إلا بمذهب الدولة[٤٥]، واستمر ذلك إلى أن نجح الناصر صلاح الدين الأيوبي في إزالة النفوذ الشيعي من مصر، وحرص على أن يكون قاضي القضاة شافعياً[٤٦]، وظل الشافعية يتمتعون بذلك التكريم طوال العهد الأيوبي[٤٧].

وكان هناك قاضي قضاة يشرف على القاهرة والوجه البحري، وآخر يشرف على مصر (الفسطاط) والوجه القبلي[٤٨]، وكان قاضي قضاة مصر والوجه القبلي يعين سائر قضاة مصر والوجه القبلي[٤٩]، بمن فيهم من قضاة الصعيد الأعلى، كما كان عليه أن يضع لقضاته (نوابه) في الأقاليم الخطة التي يسيرون عليها في القضاء بين الناس، والأسس التي يستطيعون بفضلها أن يحتفظوا بهيبتهم أمام المتقاضين، وأخذ الحق للمظلومين[٥٠]، وممن تولوا منصب قاضي قضاة مصر والوجه القبلي نذكر: تاج الدين عبد السلام بن الخراط وقد صرف عنه في سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م[٥١].

ثم أسند أمر قضاء مصر والوجه القبلي لقاضي القضاة شرف الدين محمد بن عبد الله الاسكندراني، المعروف بابن أعين، والذي كان يلي أمر قضاء القاهرة والوجه البحري. وظل ابن أعين بجميع أمر قضاء مصر والوجه القبلي وقضاء القاهرة والوجه البحري معاً، إلى أن فصل أمر قضاء مصر والوجه القبلي عن ابن أعين، وأسند إلى القاضي بدر الدين يوسف بن الحسن السنجاري، في ربيع الآخر سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م، وما لبث أن صرف عنه في نفس العام[٥٢]. وتولى الشيخ عز الدين بن عبد السلام قضاء مصر والوجه القبلي بدلاً منه، وكان الشيخ عز الدين قد قدم من دمشق في سنة ٦٣٩هـ، وكان له مكانته العلمية والدينية، فلما وصل إلى مصر تلقاه سلطانها، الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-٦٤٧هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م) وأكرمه وولاه قضاء مصر والوجه القبلي[٥٣]، غير أنه لم يستمر طويلاً وعزل نفسه، وولى بعده أفضل الدين محمد الخونجي، وظل في منصبه إلى أن مات سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م[٥٤].

وممن تولوا منصب قاضي قضاة مصر والوجه القبلي، وكان بيدهم أمر تعيين قضاة الصعيد الأعلى، نذكر أيضاً في أواخر العهد الأيوبي: قاضي القضاة صدر الدين موهوب بن عمر الجزري[٥٥]، ومنهم أيضاً قاضي القضاة شرف الدين أبو حفص السبكى (٥٨٥-٦٦٩هـ/١١٨٩-١٢٧٠م)[٥٦].

وعلى أية حال، فقد كان قضاة الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، تابعين لقاضي قضاة مصر والوجه القبلي فهم بمنزلة النواب عنه، وكانوا يسمون في بعض الأحيان بالحكام[٥٧]، وأشار الأدفوى في طالعه، عند حديثه عن القاضي محمد بن إبراهيم بن أحمد الأسواني، إلى أنه كان حاكماً بأسوان في سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م، وكانت ولايته للقضاء من جهة الخليفة العاضد الفاطمي، وأسند إليه قضاء أسوان واسنا وأرمنت[٥٨]. كما كان علم الملك الأدفوى تغلب بن أحمد بن جعفر بن يونس القاضي حاكماً بأدفو، واستمر لمدة سنتين في ولاية قضاء أدفو، وكانت وفاته في حدود سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م[٥٩]، في عهد الملك الكامل الأيوبي (٦١٥-٦٣٥هـ/١٢١٨-١٢٣٧م)[٦٠]. كذلك كان فخر الدين القنائى القاضي حاكماً بقنا، في أوائل القرن السابع الهجري من جهة قاضي قضاة مصر والوجه القبلي آنذاك[٦١].

والجدير بالذكر أنه كما كان لأصحاب منصب قاضي القضاة مصر والوجه القبلي سلطة تعيين نواب عنه في أقاليم الوجه القبلي كان أيضاً من اختصاصاته عزلهم عن القضاء، ففي الصعيد الأعلى في أواخر العهد الأيوبي كان القاضي أحمد بن محمد بن هبة الله الأرمنتي، الفقيه الشافعي، يلي أمر القضاء في قوص، فجاءه يوماً كتاب قاضي القضاة بصرفه عن قضاء قوص دون أن يبين له سبب ذلك، ويبدو أن أحد الحاقدين عليه قد وشى به عند قاضى القضاة، فتوجه القاضي أحمد بن محمد بن هبة

الله الأرمنتي إليه، ليتبين أسباب ذلك، وحضر مجلس قاضي القضاة آنذاك وأنشده شعرا لنفسه[٦٢]، فأزال غضب قاضي القضاة عليه، وأصدر مرسوماً له بالاستمرار في نيابة القضاء بقوص[٦٣].

وظل القاضي أحمد بن أحمد بن محمد بن هبة الله الأرمنتي يلي أمر القضاء في قوص حتى نهاية الدولة الأيوبية، وكان من الشعراء المجيدين والفقهاء المتأدبين، وقد قرأ الفقه على الشيخ الإمام أبى الحسن على بن وهب القشيرى بن دقيق العيد (٥٨١-٦٦٧هـ/١١٨٥-١٢٦٨م) وكان القاضي أحمد شديد الرحمة بالفقراء، وكانت وفاته في سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م[٦٤].

وكان يتم اختيار القضاة بعناية، وفقاً لشروط معينة، ومن أهم هذه الشروط التي يجب أن تتوافر فيما يتولى منصب القضاء: حبه للإنصاف والعدالة، ومعرفته بالفقه وأحكام الدين[٦٥]. ففي الصعيد الأعلى خلال العهدين الفاطمي والأيوبي كان يتم اختيار قضاته بدقة، ووفق الشروط المعروفة والتي نصت عليها كتب الفقه[٦٦]، ومن أبرز قضاة الصعيد الأعلى حينئذ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر: القاضي الحسين بن إبراهيم بن جابر بن على الأدفوى، المعروف بابن أبى الزمام، المتوفى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٣م[٦٧]. أما القاضي أبو على محمد بن حيدر العبدلى الأسواني، فقد كان من ألمع قضاة الأعمال القوصية في سنة ٥٢٧هـ/١١٣٢م[٦٨].

ومن قضاة الصعيد الأعلى، في أواخر المائة السادسة من الهجرة، والذين عرفوا بعد لهم وإنصافهم: القاضي البهاء بن العجمي، الذي كان يلي أمر القضاء باسنا وأدفو معاً[٦٩]، وكذلك كان القاضي كمال الدين بن شكر قاضي أسوان، في عهد الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي (٥٥٥-٥٦٧هـ/١١٦٠-١١٧١م)[٧٠].

ومن قضاة الصعيد الأعلى البارزين، خلال العصر الأيوبي، نذكر: القاضي إسماعيل بن محمد بن حسان بن جواد بن على بن خزرج أبو الطاهر الأنصاري الشافعي، كان فقيهاً ومحدثاً، وتولى قضاء أسوان مدة ودرس بمدرستها أيضاً، ثم رحل إلى القاهرة وتوفي بها في السابع من شهر رمضان سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م[٧١]، في عهد الملك العادل الأيوبي (٥٩٦-٦١٥هـ/١١٩٩-١٢١٨م)[٧٢]، ومن القضاة النابهين في ذلك الوقت : القاضي الموفق عبد المنعم بن عبد الله بن محمد القفطى، الذي كان يلي قضاء مدينة قوص في حدود سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٧م[٧٣]، والقاضي مظفر بن نوفر بن جعفر بن أحمد بن جعفر بن يونس الثعلبي الأدفوى، كان من قضاة أدفو في العصر الأيوبي، وعرف بعدله وعلمه، وتوفي بأدفو في سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م[٧٤].

ومن قضاة الصعيد الأعلى أيضاً، خلال العصر الأيوبي: القاضي أبو الفضل القنائى جعفر بن محمد بن عبد الرحيم القنائى، كان مولده بقنا سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م

ونشأ وتعلم بها، حتى صار شيخ عصره في الفقه الشافعي، وكان يفتي أكثر من خمسين سنة، ثم ولى أمر القضاء بالأعمال القوصية، ورحل إلى القاهرة وأقام بها يدرس بالمشهد الحسيني[٧٥]، وطال به العمر حتى توفي في سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م[٧٦]، أما القاضي الحسين بن الحسين بن يحيى بن محمد بن أبى على الأرمنتى، فقد كان من فضلاء عصره، وشعراء أرمنت وقضاتها المشهورين، وتوفي بها سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م[٧٧]. كذلك كان القاضي المفضل الأسواني عبد العزيز بن الحسن من قضاة الصعيد الأعلى، في أواخر العصر الأيوبي، وكان قاضياً كريماً عادلاً محباً للعلم، وكانت وفاته في سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م[٧٨].

وقد ظهرت في الصعيد الأعلى، أبان العصر الفاطمي والأيوبي، بعض الأسر التي استأثرت بمنصب القضاء، والتي كانت تهتم بالشرع وعلومه، ومن أشهر هذه الأسر نذكر: أسرة بنو الفضل في أسوان، وذكرهم الأدفوى بقوله: «كان بأسوان القضاة، الفضل وبنوه، وهم أهل علم وكرم ورياسة وحشم،ولهم في المناصب الدينية رسوخ قدم»[٧٩]، أما بنو يحيى في أرمنت، فقد عرفوا بأنهم أصحاب جاه ووجاهة ورياسة ومكارم ومناصب[٨٠]، كذلك كان بنو السديد في إسنا : بيت رياسة ووجاهة وتولى المناصب الدينية، فكان منهم القضاة والفقهاء[٨١]، ومنهم القاضي محمد بن عبد الوهاب بن على بن السديد الإسنائي وكان شافعي المذهب، وتولى قضاء إسنا في أواخر العصر الأيوبي، وكانت وفاته في سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م[٨٢]. وبمدينة إسنا أيضا كانت هناك أسرة بنو النضر رؤساء أعيان[٨٣]، وكان منهم القضاة المشهورين أمثال القاضي على بن النضر الإسنائي قاضي الصعيد الأعلى وكان يلقب (بقاضي القضاة)، وكان يتظاهر باعتناق مذهب الإسماعيلية خوفاً من الفاطميين، وتوفي سنة ٥٠٥هـ/١١١١م[٨٤]، في عهد الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمي (٤٩٥-٥٢٤هـ/١١٠١-١١٢٩م)[٨٥]، ومن قضاة بني النضر أيضاً : القاضي أبو المظفر بن النضر الذي كان يلي أمر القضاء في إسنا في سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م في أواخر العصر الأيوبي[٨٦].

ومن الأسر التي استأثرت بمنصب القضاء أسرة بنو الزبير الأسواني ومنهم: إبراهيم بن محمد بن الحسين بن الزبير القرشي الأسواني القاضي،وكان قد تولى قضاء قوص وأعمالها في سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م[٨٧]، وكان يلقب بالقاضي الرشيد الموفق ثقة الملك[٨٨]، أما حفيدة القاضي الرشيد[٨٩]، الذي يعرف بالقاضي الرشيد بن الزبير، فقد كان قاضياً على الصعيد الأعلى في أيام وزارة المأمون البطائحي[٩٠]، وتوفي القاضي الرشيد في سنة ٥٦٣هـ/١١٦٧م[٩١]، كذلك كانت أسرة بنو عبد الظاهر من الأسر التي تولى بعض أفرادها القضاء في نواحي الصعيد الأعلى، فقد كان بنو عبد الظاهر بيت رياسة وعدالة بقوص، ومن أبرز قضاتهم القاضي ذخيرة الدين،

محمد بن عبد الظاهر بن عبد المولى، القرشي الهاشمي القوصي، وكان قاضياً بقوص، ثم تولى القضاء بالقاهرة وكان موجوداً في سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م[٩٢].

مذهب القضاة في الصعيد الأعلى:

أما عن مذهب القضاة في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، ففي عهد الفاطميين سار القضاة على المذهب الشيعي، خاصة وأنه قد أصبحت رياسة القضاء في يد الإسماعيلية الشيعيين، وعين القضاة، ومعظمهم من الإسماعيلية، وحتم عليهم أن يحكموا بمذهب الإسماعيلية، لا بمذهب الشافعي أو غيره من أئمة المسلمين[٩٣]، وتأثر الصعيد الأعلى بسياسة الفاطميين الرامية إلى نشر مذهبهم وسيادته في أنحاء البلاد، وما زالوا على ذلك حتى أقبل على دعوتهم عدد كبير، واعتنقوا المذهب الشيعي رغبة أو رهبة[٩٤]، وغلب على العديد من مدن الصعيد الأعلى التشيع مثل أسوان، وأدفو التي انتشر بها التشيع بصورة كبيرة، فكان أهلها طائفتين الإسماعيلية والأمامية، وكذلك كان التشيع منتشراً في أرمنت[٩٥]، وإسنا التي كان بها التشيع فاشياً[٩٦]، كذلك كانت بلدة أسفون[٩٧] التي وصفها ابن دقماق بأنها معروفة بالتشيع الشنيع، ولكنه خفي منها وقل بعد ذلك[٩٨]، وقد نجح الفاطميون إلى حد كبير في نشر مذهبهم بمدن الصعيد الأعلى مما كان له أثره الواضح على القضاء هناك في عهدهم.

ولكن الأمر تبدل وتغير بمجيء صلاح الدين الأيوبي، الذي أخذ على عاتقه مهمة القضاء على المذهب الشيعي فبدأ بقطع خطبة الفاطميين[٩٩]، وامتدت أيديه إلى مدن الصعيد الأعلى لإزالة المذهب الشيعي من هناك، حتى قل إتباعهم واضمحل نفوذهم[١٠٠]، وانحسر التشيع في أماكن بعينها، واستمر صلاح الدين في محاربة التشيع حتى فقد من أرض مصر كلها[١٠١]، وساعده على ذلك أنه كان له الإشراف على القضاء والدعوة فقام بعزل قضاة مصر الشيعة، وقطع أرزاقهم وولى بدلاً منهم قضاة سنية على المذهب الشافعي الذي كان يتبعه غالبية المصريين قبل مجيء الفاطميين إلى مصر[١٠٢].

ففي الصعيد الأعلى كان المذهب الشافعي أكثر المذاهب الفقهية انتشاراً بمدنه، قبيل امتداد النفوذ الفاطمي إليه، وتمتع الصعيد الأعلى بوجود نخبة كبيرة من فقهاء الشافعية البارزين، من أشهرهم في أسوان على سبيل المثال: أبو ضيف الأسواني المتوفي سنة ٢٧١هـ/٨٨٤م[١٠٣]، وكذلك الفقيه أبو رجاء محمد بن أحمد بن الربيع الأسواني الأديب الشاعر، المتوفي في سنة ٣٣٥هـ/٩٤٦م[١٠٤]، لذا سرعان ما عاد نفوذ الشافعية من جديد، بعد زوال نفوذ الشيعة أمام جهود صلاح الدين الأيوبي الذي شرد دعاتهم وألغى مجالسهم[١٠٥]، وحل القضاة الشافعية محلهم في القضاء[١٠٦].

وذاع صيت القضاة الشافعية في الصعيد الأعلى، وذلك لعدلهم وحسن سيرتهم بين الناس، ومن بين هؤلاء القضاة : القاضي أبو طاهر الأنصاري إسماعيل بن محمد بن حسان الأسواني، الذي كان يلي قضاء أسوان في العصر الأيوبي وكان قد رحل إلى بغداد لطلب العلم، وتفقه على يد كبار علمائها ثم عاد إلى وطنه، وكانت وفاته سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٢م(١٠٧)،. ومما ينبغي الإشارة إليه؛ أنه إذا كان المذهب الشافعي هو السائد في العهد الأيوبي، وأن السواد الأعظم من القضاة كانوا شافعية، إلا أنه كان يوجد البعض من القضاة السنة ليسوا شافعية، ومما يدل على ذلك ما أشار إليه الأدفوي بأن قاضي قنا الحسين بن رضوان القنائي(١٠٨) كان مالكي المذهب، وكان عالماً، وربما تولى أمر قضاء قنا من جهة قاضي القضاة بمصر(١٠٩).

وأياً ما كان الأمر فقد وقف القضاة والعلماء أيضاً في وجه بقايا الشيعة، في بعض مدن الصعيد الأعلى التي ما زال بها أتباع للشيعة الإسماعيلية، فمن العلماء الذين أخذوا على عاتقهم ضرورة القضاء على التشيع واتبعوا في ذلك كافة الطرق، بعقد حلقات الدرس في المساجد – العالم الفقيه النحوي شيث بن إبراهيم بن الحاج القفطي، (ت٥٩٨هـ/١٢٠١م)، الذي لم يدخر جهداً في التصدي للشيعة في قفط وغيرها(١١٠) من مدن الصعيد الأعلى، كذلك استطاع علي بن هبة الله بن دقيق العيد القشيري المنفلوطي(١١١)، ثم القوصي (٥٨١–٦٦٧هـ/١١٨٥–١٢٦٨م)، أن يزيل المذهب الشيعي ويجري المذهب السني على أسلوب حكيم، فقد كان ابن دقيق العيد يجمع بين العلم والعبادة، والورع والتقوى والزهد، والإحسان إلى الناس مع اختلافهم، وكان كثير التردد إلى والي قوص في قضاء حوائج الناس، وتولى أمر التدريس بالمدرسة النجيبية بقوص في سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، وظل بقوص حتى مات في سنة ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م(١١٢).

ومن بين القضاة الذين تصدروا لبقايا الشيعة في الصعيد الأعلى: القاضي هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل العذري، الذي كان قاضياً لإسنا في أوائل القرن السابع الهجري، وكان يطلق عليه فاتح إسنا، لأنه قضى على التشيع بها(١١٣)، وألف كتاباً لمحاربة التشيع أسماه: النصائح المفترضة في فضائح الرافضة(١١٤)، وامتد العمر بالقاضي هبة الله، فكان مولده في سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م، وتوفي في سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٧م(١١٥).

ونتيجة لذلك، فقد اندثر التشيع في الصعيد الأعلى في العصر الأيوبي، وأصبح من الأمور المشينة، التي إذا ادعى بها على أحد أمام السلطة الحاكمة، يتعرض إلى القبض عليه وتصادر أمواله(١١٦)، وإذا كان صاحب سلطة يستبعد من منصبه، ففي مجال القضاء نذكر القاضي عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن النخعي القوصي، الذي كان يتولى قضاء الأعمال القوصية، وكانت له الصدارة والرياسة والمكانة

الكبيرة، وتصدر أيضاً للفتوى والخطابة بقوص، فرماه بعض الحاقدين عليه بالتشيع وأنه رافضي[١١٧]، ثم حكم بسقوط عدالته واستبعد عن القضاء فغادر قوص إلى القاهرة وتوفي بها في سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م[١١٨]، في عهد الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-٦٤٧هـ/ ١٢٤٠-١٢٤٩م)[١١٩].

مكانة القضاة في الصعيد الأعلى:

تبوأ قضاة الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، مكانة كبيرة لدى السلطة الحاكمة آنذاك، فتمتعوا بثقة السلطة المركزية في القاهرة، وكان ذلك نتيجة لمكانتهم الدينية والعلمية البارزة، هذا بالإضافة إلى ما عرف عنهم من عدل ونزاهة فذاع صيتهم، ونالوا بذلك ثقة الخلفاء الفاطميين، وكذلك السلاطين الأيوبيين من بعدهم، ففي العهد الفاطمي كان الكثير من قضاة الصعيد الأعلى محل تقدير الخلفاء ورجال دولتهم، فقد كان القاضي «حيدر بن الحسين القوصي»، متولي القضاء بالأعمال القوصية في النصف الأول من القرن السادس الهجري، يلقب «بالقاضي النفيس ثقة الخلافة»[١٢٠]، كذلك كان القاضي محمد بن إبراهيم بن أحمد الأسواني قاضي أسوان سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م، ممن نالوا ثقة الخلافة في عهد الخليفة العاضد الفاطمي، ولقبه برضي الدولة[١٢١].

ولم يكن قضاة الصعيد الأعلى في عهد الدولة الأيوبية أقل مكانة عن سابقيهم في العهد الفاطمي، بل كان حكام الدولة الأيوبية يقدرونهم وينزلونهم مكانة عالية لديهم، فيذكر أن القاضي علم الملك الأدفوي، المتوفي سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م، قاضي أدفو، كان الملك الكامل يكاتبه، مما يدل على عظم مكانته لديه[١٢٢].

كما كان للقضاة مكانة رفيعة لدى العامة والخاصة من أهالي الصعيد الأعلى، فكان يقدرهم العلماء والأدباء وغيرهم، فقد حدث أن حضر مرة قاضي قوص إلى أسوان، فخرج منها أربعمائة راكب بغلة للقائه[١٢٣]، وكان أكثرهم من العلماء، إذ كانت أسوان، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، بها الكثير من أهل العلم والدراية والأدب[١٢٤]، وحظي القضاة في هذا العصر بمدح الشعراء، فنجد الشاعر داود بن الحسن الإسنائي، الذي يعد من أشهر شعراء عصره في الصعيد الأعلى، يمدح قاضي إسنا نجم الدين البهنسي لعدله وحسن سيرته في الناس[١٢٥]، كما حدث أن أحد قضاة أرمنت قد مدحه، في أحد الأعياد، خمسة وعشرون شاعراً من مدينة إسنا[١٢٦].

وليس أدل على ارتفاع منزلة قضاة الصعيد الأعلى، لدى رجال العلم والأدب أيضاً، ما قام به أحد أدباء قوص، ويدعى الأديب الفاضل على بن صادق بن على بن محمد بن محمد الخزرجي، من مدح القاضي محمد بن إبراهيم بن محمد بن على بن رفاعة القرشي القوصي، قاضي الأعمال القوصية في العصر الأيوبي، وقد مدحه على

بن صادق بقصائد كثيرة، وكان القاضي محمد بن إبراهيم من أشهر قضاة قوص لعلمه الواسع في كثير من العلوم، وكان ينعت بالكمال، ويكنى بأبي الفتوح، فجمع الأديب الفاضل على بن صادق هذه المدائح في كتاب وقفاها على حروف المعجم، وعمل فيها مقدمة وصفه فيها فقال: «إن القاضي أبا الفتوح، أطال الله بقاءه إطالة، تمدح بأصناف البلاغات، وتمنح بألطاف الكرامات، ويرقى سعدُها في أعلى المنازل، ويبقى مجدها في أمنع المعاقل، متحوفة بتحقيق الآمال، محفوفة بتوفيق الأقوال والأفعال»، وظل القاضي أبا الفتوح، طوال فترة توليه القضاء في الأعمال القوصية، يتمتع بمنزلة كبيرة لدى الناس لعدله وعلمه حتى توفي سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م[١٢٧].

مهام القضاة في الصعيد الأعلى:

تنوعت مهام القضاة واختصاصاتهم في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، فكانت سلطة القاضي غير قاصرة على الأعمال القضائية، بالإضافة إلى الأمور المتعلقة بالقضايا الدينية والمدنية والنظر في الجرائم والشرطة[١٢٨]، بل أسندت إليهم أيضاً بعض الأمور الدينية التي ليس لها علاقة بالقضاء، وضمت إلى نظر القاضي بسبب معرفته للشرع الإسلامي، وأصبحت مقررة في سلطته واختصاصاته، فكانت الأعمال الإضافية تتكون غالباً من الصلاة والخطابة في الجوامع، والإشراف على الأماكن الدينية، والإشراف على أموال الغائبين المفقودين، وغير ذلك من الأعمال الأخرى[١٢٩].

ومن بين هذه الأعمال التي أسندت إلى القضاة آنذاك : مراقبة أموال اليتامى[١٣٠]- أي الإشراف عليها- وكان المتبع في نواحي الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، عند وفاة أحد الأثرياء وعظم ثروته، أن يوكل الوالي أحد القضاة لتسويتها وتوزيعها على مستحقيها، ففي أواخر العصر الأيوبي، على سبيل المثال، عندما مات أحد تجار مدينة إسنا وترك بعد وفاة تركة كبيرة، انتدب لتسويتها وتوزيعها على مستحقيها قاضي قوص نجم الدين عمر بن إبراهيم البهنسي[١٣١].

كذلك تولى قضاة الصعيد الأعلى الإشراف على أموال الأحباس[١٣٢].التي كانت تعد من موارد الدولة وهى الأموال الموقوفة على المساجد والمدارس وغيرها[١٣٣]. وكان ناظر الأحباس بقوص في سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م على بن محمد الإسنائي[١٣٤]. وقد عظم أمر الأحباس في الصعيد الأعلى خلال العهد الفاطمي وظل أيضاً على مكانته طوال العهد الأيوبي، إذ كان أهالي الصعيد الأعلى الأثرياء يتسابقون في وقف الأوقاف، ففي القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) قام أحد أهالي إسنا، ويدعى أحمد بن على الإسنائي ببناء مدرسة بها ووقف عليها أملاكاً جيدة، ووقف على الفقراء بإسنا أملاكاً جيدة أيضاً[١٣٥]، وإلى جانب ذلك، كان يوكل للقضاة الإشراف

على دور الضرب، ففي الصعيد الأعلى أسند لقاضي قوص الإشراف على دار الضرب بقوص[١٣٦]، كذلك كان يوكل لبعض القضاة بعض المهام الأخرى مثل: الإشراف على المنشآت الدينية، ففي سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م أسند للقاضي أبي الحسين علي بن النضر، قاضي أسوان، مهمة الإشراف على بناء مسجد النضر[١٣٧]، وذلك من قبل الأمير بدر الجمالي (٤٨٧هـ/١٠٩٤م) [١٣٨]، كما كان من مهام القضاة في ذلك الوقت أيضاً: تفقد الجوامع والمساجد والإشراف على صيانتها ونظافتها وجمالها، وكان القضاة يحرصون أن لا يدخلها إلا من كان مصلياً أو عالماً أو متعلماً أو مستمعاً[١٣٩].

ومن بين المهام التي أسندت للقضاة في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، الإمامة في الصلاة والخطابة، وذلك لما توافر فيهم من تفقه في أمور الدين، وبراعة العديد منهم في الخطابة، ومن أشهرهم : القاضي محمد بن إبراهيم بن أحمد بن نصر أبو الحسن الأسواني، قاضي أسوان سنة ٥٥٨هـ/١١٦٢م في أيام الخليفة العاضد لدين الله الفاطمي، فقد كان خطيب أسوان بلا منازع[١٤٠]، كذلك كان القاضي أبو المظفر بن النضر من القضاة والخطباء البارعين في بلدة إسنا، في سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، وذاع صيته في أنحاء الصعيد الأعلى خلال العهد الأيوبي[١٤١]. وكان أيضاً عبد الرحمن بن محمد النخعي القوصي المتوفي سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م من أشهر خطباء قوص وقضاتها[١٤٢].

وعلى الرغم من كل تلك المهام التي كان يقوم بها القضاة في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، إلا أنهم لم يكونوا بعيدين عن الأهالي، بل كانوا قريبين منهم، ووقفوا بجانبهم في حل ما شجر بينهم، وإزالة كل المشاكل التي تواجههم، فحينما وقعت المناوشات بين أسرة بني السديد بإسنا، وبين عبد القوى بن عبد الرحمن الإسنائي (ت٦٨٦هـ/١٢٨٧م) الذي تولى الخطابة بإسنا بعد أبيه فاعترض بنو السديد على ذلك، لأنه كان عاقاً لأبيه وأحضر بنو السديد من شهد على عبد القوى الإسنائي بذلك، واشتد الأمر بينهما حتى حضر قاضي قوص آنذاك ليفصل بينهما، وأسند الخطابة لأحمد بن السديد، وذلك عندما ثبت لديه عدم رغبة الناس في عبد القوى الإسنائي، فكان تدخل القاضي سبباً في حسم النزاع بين الطرفين، وهدأت الأوضاع بإسنا[١٤٣].

كما نجح القاضي نجم الدين عمر البهنسى قاضي مدينة إسنا، أواخر العصر الأيوبي، في مساعدة أحد شباب مدينة إسنا ويدعى داود بن الحسن بن منصور الإسنائي، وتوسط له في الزواج من المرأة التي يريد أن يتزوجها، وذلك بعد إقناع أهلها به وكانوا رافضين في أول الأمر واستقر الحال بعدها لداود بن الحسن بن منصور الإسنائي وطال به العمر إلى أن توفي في بداية القرن الثامن الهجري[١٤٤].

وعلى أية حال، فإن وساطة القاضي نجم الدين البهنسي هذه، من الأمور التي تدل على مدى مشاركة القضاة في الصعيد الأعلى للناس في حل مشاكلهم، وذلك على الرغم من أن عمل القاضي الأساسي كان الفصل في الخصومات المدنية والجنائية، وقضايا الأموال الشخصية والمعاملات، إلا أنه كان يجمع بين هذه الاختصاصات والأعمال الأخرى التي لا تقل أهمية وخطورة عما سبق، والتي شملت حق النظر في أمور عدة جعلت سلطته كبيرة، ونفوذه عظيماً، وقريباً من الناس[١٤٥].

كما شارك القضاة في الصعيد الأعلى الناس في العديد من احتفالاتهم، ففي معظم المناسبات الدينية الإسلامية، كان الأهالي في مدن الصعيد الأعلى يقيمون الاحتفالات الدينية في الزوايا والمساجد، ويلقون القصائد الجميلة في مدح الرسول ﷺ وتلاوة القرآن الكريم، ومن أهم هذه الاحتفالات : الاحتفال بموسم الحج، ففي مدينة قوص كان يقام احتفال عظيم بهذه المناسبة، خاصة وأن قوص كانت مركزاً لتجمع الحجاج، فيجتمع الأمراء والوجهاء والفقهاء والصوفية والقضاة للذهاب إلى الحج، وكانوا يقضون الأشهر الطوال بقوص، وكانوا يأتون من مختلف الجهات الإسلامية، وكانوا يقيمون الندوات الإسلامية داخل المساجد، طوال مدة إقامتهم أثناء رحلة الذهاب والعودة، وكان قضاة قوص يشاركونهم في هذه الاحتفالات[١٤٦].

كذلك كان لقضاة الصعيد الأعلى مشاركات واضحة في الاحتفالات التي تقام في أنحاء الإقليم، وخاصة بمناسبة افتتاح دور العلم أو المساجد، حيث كانت العادة المتبعة، عند إنشاء مسجد أو دار علم، أن يحتفل بافتتاحها احتفالاً رسمياً، فيمد السماط ويحضر الأمراء والولاة وعلية القوم، والعلماء والفقهاء والقضاة، ثم يقوم الشعراء وينشدون قصائدهم، ويلقى الخطباء خطبهم، التي يمدحون فيها هذا العمل الإنساني المهم عند المسلمين، وقد ظهر العديد من خطباء الصعيد الأعلى وعلمائه وقضاته الذين كانوا يسهمون بالاشتراك في هذه الاحتفالات الجليلة[١٤٧]، ففي مدينة قوص، عندما أنشأ والى قوص سابق الدين دار الحديث بقوص، وأسند للإمام أبي الفتح محمد بن على بن وهب القشيرى[١٤٨] إدارتها والتدريس فيها، وأقيم الاحتفال بهذه المناسبة، فشارك في افتتاحها القاضي أحمد بن محمد بن هبة الله بن قدس الشافعي، (ت٦٦٢هـ/١٢٦٣م)، قاضى قوص، وكانت له خطبة طويلة أثنى فيها على منشئ هذه الدار وأهميتها للمسلمين، وأشاد بالإمام أبى الفتح محمد القشيرى القائم على هذه الدار ومدرسها الأول[١٤٩]، وقد كشفت هذه الخطبة عن قدرة القاضي أحمد بن هبة الله على الخطابة ومكانته، وحرص القضاة في الصعيد الأعلى، آنذاك، على الإسهام في هذه المناسبات المهمة لأهالي الإقليم.

معاونو القضاة في الصعيد الأعلى:

كان لاتساع مهام القضاة واختصاصاتهم في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، أن وجد من يعاونهم في أداء مهامهم ومعاونتهم لإقرار العدل بين الناس، شأنهم في ذلك شأن باقي قضاة مصر، فكان هناك الشهود والأمناء والكتاب وغيرهم، وفيما يأتي ذكر هؤلاء المعاونين للقضاة في الصعيد الأعلى، وذلك بالقدر الذي أفصحت عنه المصادر التي بين أيدينا.

- الشهود:

كان الشهود من أوائل المعاونين للقضاة، وتعد الشهادة من الوظائف الدينية المهمة التي يقوم بها الشهود العدول[١٥٠] التابعين للقضاء[١٥١]، وذلك لأن الشاهد دليل يمشى القضاء على منهاجه ويستقيم باستقامته ويعوج باعوجاجه[١٥٢]، ويعاونون القاضي في أداء مهامه القضائية، وكان يُعرف الشاهد منهم باسم شاهد العدل، ويعرف رئيس الشهود باسم مقدم الشهود[١٥٣]، وقد كثر الشهود في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، حتى إنه كانت لهم «حوانيت خاصة بهم»[١٥٤] في مدن الصعيد الأعلى مثل مدينة قوص[١٥٥]، وكان يطلق على كل منها : «حانوت الشهود»[١٥٦].

وكان يتم تعيين هؤلاء الشهود واختيارهم من قبل القضاة، وكان معظمهم من الفقهاء، فأورد لنا الأدفوي ما يدل على ذلك، عندما تحدث عن أحد فقهاء قوص ويدعى : عثمان بن مفلح أبو عمرو النجيب، في النصف الأول من القرن السابع الهجري، فقال:... وكان القاضي بقوص أراد أن يثبت عدالة عثمان بن مفلح ويجلسه بحانوت الشهود بقوص، غير أن عثمان بن مفلح لم يتمكن من ذلك، لوقوف جماعة من سادة قوص لمنعه، حسداً منهم لعثمان بن مفلح في أن ينال ذلك، ولعل هذا يبين لنا مدى مكانة الشهود في المجتمع آنذاك، حتى كان يُحسد من يوكل إليه هذا الأمر، ولم يقف عثمان بن مفلح مكتوف الأيدي أمام ذلك، ولجأ إلى قاضى القضاة في مصر حينئذ، والذي سمع شكايته وما فعله أعيان بلده به، واعتراضهم على انضمامه إلى حانوت الشهود بقوص، فكتب قاضى القضاة إلى قاضي قوص بإجلاسه بحانوت الشهود بقوص وإكرامه[١٥٧]، وعاد عثمان بن مفلح، وظل معززاً مكرماً في قوص، حتى رحل عنها بعد ذلك، وقام بالتدريس بالمدرسة العزية بإسنا، وكانت وفاته سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م[١٥٨].

وجدير بالذكر، أنه لما كان الشهود العدول يختارهم القاضي ويعزلهم بنفسه، فإنهم كانوا يعزلون بعزله أو موته أيضاً[١٥٩]، وكان عدد الشهود يزيد وينقص حسب ما يرى القاضي، وحالة الناس في المجتمع، فإذا ما تفشى الانحلال في المجتمع فإن

القاضي كان يستكثر منهم، وكان عدد الشهود- بصفة عامة في المتوسط - يبلغ نحو ثلاثين شاهداً[١٦٠]، ففي الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، لم تعطنا المصادر التي بين أيدينا أعدادهم ولكن يمكننا القول بأن تواجد الشهود بالحوانيت الخاصة بهم، كحانوت الشهود بقوص، يدل على أن أعدادهم لم تكن بالقليلة، ولذا كانوا يتجمعون في مكان خاص بهم.

وكان الشهود يحضرون مجلس الحكم والقضاء، فإذا حضر القاضي المجلس جلس الشهود المعدلون حول القاضي، عن يمينه ويساره، على مراتبهم في أقدمية تعديلهم ويشاهدون ما يقع من الأحكام[١٦١]، وكان القاضي يتصفح أعمال الشهود ويتابع حسن سيرتهم، ليطمئن على عدالتهم، ويأخذ القاضي برأيهم فيما له علاقة بالمتخاصمين. وكان اختصاصهم أيضاً الشهادة على ما يصدره القاضي من الأحكام[١٦٢]، وقد اقتصر بعض الشهود على الشهادة في بعض القضايا دون الأخرى، منهم شهود القيمة[١٦٣]، وهى تكون عند تقويم ما يتنازع فيه الشركاء والتوصل للتقسيم، ويتولى هذا في اصطلاح العصر الخبراء[١٦٤]، وهناك شهادة الأيتام[١٦٥]، ومن الذين اقتصروا على شهادة الأيتام بقوص: الفقيه مظفر بن حسن المجد الإسنائي، وكان دائم الجلوس بحانوت الشهود بقوص، في أواخر العصر الأيوبي، وطال به العمر، وكانت وفاته سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م[١٦٦].

وقد تمتع الشهود العدول، في الصعيد الأعلى، بثقة القضاة والناس، وذلك لما يتمتعون به من علم ودراية بما أسند إليهم، فكان أبو بكر محمد بن إبراهيم بن خالد الأسواني، (ت ٦١٥هـ/١٢١٨م)، مقبول القول عند القضاة[١٦٧]، كذلك كان الفقيه عبد الرحيم بن على الفخر القصوى من الشهود العدول، المعروفين بالأمانة والصدق، وذكره الأدفوى بأنه «اطلع على مكتوب تزكيته والشهادة له بالاتصاف بصفات العدالة والعلم، وإثبات الحكم بقوص في سنة ٦٤٨هـ»[١٦٨]، أيضاً كان على بن مظفر الثعلبي الأدفوى (ت٦٥٠هـ/١٢٥٢م) من الشهود العدول ببلدة أدفو، ومن مقبولى القول عند قضاتها[١٦٩]، ومن الشهود العدول الذين نالوا ثقة القضاة بمدينة قوص: على بن إبراهيم بن عبد الملك القصوى، الذي كان من أبرز علماء قوص ومحدثيها في أواخر العصر الأيوبي، وكانت وفاته في سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م[١٧٠].

- **الأمناء والكتاب:**

ومن أعوان القضاة أيضاً : الأمناء (أمناء القاضي) وهم الذين يتولون التحفظ على أموال الأيتام الغائبين[١٧١]، في الصعيد الأعلى، ومن أشهر الأمناء آنذاك بقوص: نور الدين على بن إبراهيم بن عبد الملك القوصى، وكان من خيار الناس بقوص وعقلائها، عادلاً ثقة، وكانت وفاته سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م[١٧٢]، كذلك كان يعاون القضاة

بالصعيد الأعلى بعض الكتاب[١٧٣] لتسجيل القضايا وأحكامها[١٧٤]، فكان كاتب الجلسة يقوم بتدوين كل ما يدور فيها تحت سمع القاضي وبصره، وتأكيداً لصحة ما دوّن كان يكلف بقراءة ما كتبه على شهود الجلسة، ولذلك كان الكاتب يختار بدقة من العدول الأمناء، حتى لا يضعف أمام رشوة أو محسوبية لقرابة[١٧٥]، ومن أمثلة هؤلاء الكتاب في الصعيد الأعلى : الفقيه إسماعيل بن يوسف بن حُلى بن هبة الله، المكنى بالصدر القوصى المستملي فقد كان يتولى كتابة مجالس الحكم والقضاء بقوص، وكان إلى جانب ذلك فقيهاً فاضلاً محدثاً[١٧٦].

وهناك من يعاونون القضاة في الصعيد الأعلى في أداء مهامهم، من غير الشهود العدول والأمناء والكتاب، وهم الذين كانوا يباشرون التوقيع للقضاة، ونذكر منهم : أحمد بن ناشر بن عبد الله القوصى المولد سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م وكان من علمائها المعروفين بالأمانة والعدل بين الناس، وباشر التوقيع للقضاة، ثم تولى قضاء قوص بعد ذلك، وطال به العمر حتى توفي في سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م[١٧٧]، كذلك كان هناك الحجاب الذين يقفون خارج مجلس القضاة عند الباب ومعهم صاحب الشرطة[١٧٨].

- مجالس القضاة في الصعيد الأعلى:

كانت مجالس القضاة في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، تتميز بالبساطة فقد استمر جلوس القاضي للحكم، بنفس البساطة التي كان عليها في جميع أنحاء مصر الأخرى، فكان يجلس القاضي في الغالب في المسجد، ولم يكن الجامع، كما في أيامنا، مهيناً للصلاة فحسب، وإنما كان أيضاً مكاناً للفصل في أمور الناس[١٧٩]، والجدير بالذكر أن القضاة قد حرصوا على عقد مجالس القضاء في كنف المساجد، لارتباط أحكام القضاء بالشريعة الإسلامية، طبقاً لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وليطمئن كل إنسان على الحصول على حقوقه كاملة[١٨٠]، وكان في الجامع مكان معين يجتمع فيه القاضي بالخصوم، يعرف باسم «مجلس الحكم»[١٨١]، كما كانت تعقد مجالس القضاء في دار القاضي أيضاً[١٨٢].

وكان مجلس الحكم يعقد علناً في أيام محددة[١٨٣]، ويتكون عادة من: القاضي، والشهود العدول، والموقعين الذين يكتبون ما يدور في الجلسة، والحجاب الذين يدخلون المتخاصمين، وعادة كان القاضي يجلس في وسط المجلس، وقد تزيا بالبياض إذا كان شيعياً، وبالسواد إذا كان سنياً، ووضع على منكبيه الطيلسان زى القضاة، الذي هو عبارة عن طرحة وعقد بوسطه سيفاً، ويكون جلوسه على مخدة، وخلفه مسند، وأمامه كرسي توضع عليه الدواة، والشهود العدول عن يمينه وعن يساره[١٨٤].

- إسهامات القضاة في ازدهار الحياة العلمية والأدبية في الصعيد الأعلى:

شاهد الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، حركة علمية وأدبية نشطة في كافة أنحاء مدنه، التي كانت تضاهى باقي عواصم مصر الكبرى، مثل الفسطاط، والقاهرة، والإسكندرية، فقد كانت مدينة قوص عاصمة الإقليم تزخر بنخبة من العلماء والأدباء في كل علم وفن[١٨٥]، وبها العديد من المدارس التي قدرت بحوالي ست عشرة مدرسة[١٨٦]، هذا بالإضافة إلى دار الحديث النبوي الشريف[١٨٧]، أما مدينة أسوان فكانت تعد هي الأخرى من كبريات مدن الصعيد الأعلى، وخرج منها الكثير من أهل العلم والرواية والأدب[١٨٨]، وبها نحو ثلاث مدارس[١٨٩]، كما اشتهرت مدينة إسنا بعلمائها وأدبائها البارزين، حتى قيل أنه كان بها في وقت واحد سبعون شاعراً، وكانت بها مدرستان[١٩٠]، وقد نسبت إلى إسنا بعض الأسر التي كانت لها اهتماماتها العلمية الظاهرة، ومنهم : بنو السديد، وبنو الخطيب، وبنو شواق، الذين كانوا أصحاب علم وفضيلة وأدب[١٩١]، أما أرمنت فقد ازدهرت فيها الحياة العلمية والأدبية، وخرج منها أفاضل العلماء والأدباء والشعراء، وكذلك كانت مدينة فقط، وأيضاً مدينة قنا، من أجل مدن الصعيد بفضل علمائهما وأدبائهما[١٩٢]، وأياً ما كان الأمر، فقد خلف لنا علماء هذه المدن مصنفات عدة في شتى العلوم التي تدل على نبوغهم وعلمهم الغزير، فأسهموا بنصيب وافر في النهضة العلمية والأدبية بالصعيد الأعلى.

وأسهم قضاة الصعيد الأعلى بقسط كبير في هذه النهضة العلمية والأدبية، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، فقد كانوا كسائر قضاة مصر، يتم اختيارهم من بين أفاضل العلماء والفقهاء والمحدثين، بل كان من بينهم عدد كبير من البارزين في علوم اللغة والأدب والشعر، وكذلك في العلوم العقلية، كالطب والفلك والفلسفة وغيرها، كما شارك العديد من قضاة الصعيد الأعلى في التدريس بمدارس قوص وإسنا وأسوان وغيرها، ووضعوا لنا الكثير من المصنفات في مجالات عدة.

ففي مجال العلوم الدينية : برع الكثير من قضاة الصعيد الأعلى في علم الفقه، فمن بين هؤلاء القضاة كان القاضي الفقيه أبو الطاهر إسماعيل بن محمد بن حسان الأسواني الأنصاري الشافعي، (ت٥٩٩هـ/١٢٠٢م)، محباً للعلم كثير الرحلة في طلبه فرحل من بلده أسوان إلى بغداد، وتفقه على كبار علماء عصره، وحدث بها ثم عاد وولى قضاء أسوان، وشارك في التدريس بمدرستها[١٩٣].

كما كان القاضي أبو الفتوح محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن رفاعة القرشي القوصى، من أبرز قضاة الصعيد الأعلى وعلمائه في علم الفقه والأصول، وكذلك التفسير والنحو واللغة[١٩٤]، ومدحه الشعراء لسعة علمه، وذكر أنه «صاحب

علم ثاقب، استوعب أصول الفقه والدين استيعاباً أفحم به فرسان الجدل»[١٩٥]، وكانت وفاة القاضي أبى الفتوح بعد الستمائة من الهجرة في مدينة قوص[١٩٦].

ومن القضاة الذين برزوا في مجال الفقه الشافعي: القاضي أحمد بن محمد بن إسماعيل بن على البعلبكى[١٩٧]، وقد نزح الفقيه أحمد البعلبكي المولد والإسنائى الموطن، من مدينة بعلبك، إلى مدينة إسنا، وكان فقيهاً على مذهب الإمام الشافعي، وقد اشتغل فترة من عمره بالفقه بمدارس بغداد، ثم رحل إلى مصر وتولى القضاء بمدينة قمولا[١٩٨]، ثم أدفو، ثم استوطن إسنا وخلف أولاد بها، وكانوا من علماء الفقه المعروفين باسنا أيضاً، وكانت وفاة القاضي والفقيه البعلبكي في سنة ٦٧٠هـ/١٢٦٩م باسنا[١٩٩]. كذلك كان القاضي جمال الدين محمد بن عبد الوهاب بن على بن السديد الإسنائى، قاضى إسنا في وقته، من فقهاء المذهب الشافعي المعروفين، وقد مات بإسنا سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م[٢٠٠]، بعد أن بذل جهد كبير في ازدهار الفقه الشافعي، وذاع صيته بالصعيد الأعلى، فقد كان القاضي والفقيه جمال الدين ينسب إلى أسرة بنى السديد التي اشتهرت بالعلم والرياسة بإسنا[٢٠١].

أما القاضي هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل القفطى (٦٠٠-٦٧٩هـ/١٢٠٣-١٢٨٠م) قاضى إسنا، فقد كان من أكابر العلماء والمثقفين، وتتلمذ على يديه العديد من الفقهاء والعلماء، ولم يتوان في الاشتغال بالعلم بجانب القضاء، وبرز في العديد من العلوم، ودرس في عدد من المدارس حتى قيل عنه: إنه على معرفة بعشرين علم[٢٠٢]، فذكر السيوطي: "أنه انتهت إليه رياسة العلم في إقليمه (الصعيد الأعلى)، وصنف تفسيراً وكتباً كثيرة في علوم متعددة"[٢٠٣].

ومن قضاة الصعيد الأعلى، النابهين في مجال الفقه، القاضي إسماعيل بن هبة الله بن على بن الصنيعة، المعروف بعز الدين الإسنائي، فقيه إسنا وقاضيها، وكان قد ترك إسنا وذهب إلى مدينة حلب[٢٠٤]، بعد أن مكث بالقاهرة فترة، وتولى بحلب نظارة الأوقاف، غير أنه لم يلبث بها طويلاً، واتهم بالتشيع ونفي ذلك عن نفسه، وألف كتاباً في فضائل أبى بكر الصديق ﵁، ثم عاد إلى القاهرة وأقام بها إلى أن توفي في سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٤م[٢٠٥].

ومن القضاة المحدثين (حفاظ الحديث)، قبل العصر الفاطمي، بالصعيد الأعلى: القاضي إبراهيم بن موسى الأسواني، وهو من مواليد القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)[٢٠٦]، وقد قرب القضاة إليهم حفاظ الحديث، وعملوا على توجيههم حتى نهضوا بعلم الحديث، فكان هناك الكثير من حفاظ الحديث موضع ثقة عند القضاة في الصعيد الأعلى ومن المقربين إليهم، ومنهم: محمد بن إبراهيم بن خالد أبو بكر الأسواني، المتوفي سنة ٣١٥هـ/٩٢٧م، وقد حدث عن كبار محدثى عصره، وكان

مقبول القول عند القضاة بأسوان[٢٠٧]، واستمر تشجيع القضاة للمحدثين في الصعيد الأعلى، في العصر الفاطمي، ومن أمثلة هؤلاء : محمد بن هلال الأسواني، المتوفي سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م[٢٠٨]، وكذلك كان إبراهيم بن أحمد الأسواني، المتوفي سنة ٤١٠هـ[٢٠٩]، ومحمد بن عتيق الأسواني، المتوفي سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م[٢١٠]، من الحفاظ الثقات الذين تأثر بهم القضاة بنواحي الصعيد الأعلى.

ومن قضاة الصعيد الأعلى الذين أسهموا في ازدهار علم الحديث ونبغوا فيه، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي : القاضي محمد بن إبراهيم بن أحمد بن نصر أبو الحسن الأسواني، الذي كان من أبناء أسوان، وولاة الخليفة العاضد لدين الله (٥٥٥-٥٦٧هـ/١١٦٠-١١٧١م) قضاء أسوان وإسنا وأرمنت، عام ٥٥٨هـ/١١٩٢م[٢١١]، ومنهم أيضاً: القاضي محمد بن المفضل بن محمد بن حسان الأنصاري الأسواني، المتوفي سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م، والذي ضرب بسهم وافر في علم الحديث، وولى قضاء أسوان[٢١٢]، كما كان القاضي إسماعيل بن هبة الله الإسنائي- السابق الذكر في علم الفقه- عالماً في الحديث وقاضياً، سمع الحديث من كبار عصره، ومنهم الشيخ قطب الدين أبى بكر محمد بن القسطلاني[٢١٣]، رحل إلى العديد من المدن الإسلامية في طلب العلم، واستقر به الحال في القاهرة، ومات بها سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م[٢١٤].

وفي مجال علم اللغة والأدب: كان لقضاة الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، إسهامات كبيرة في هذا المجال، مما ساعد على ازدهار الحياة العلمية والأدبية في معظم مدن الإقليم، ومن هؤلاء القضاة : القاضي على بن النضر الإسنائي (ت٥٠٥هـ/١١١١م) كان من كبار قضاة الصعيد الأعلى، يحفظ كتاب الله القرآن الكريم، وكان أديباً شاعراً، حفظ كتاب سيبويه في النحو،وله شعر كثير حسن[٢١٥]، وكان يتظاهر بالتشيع خوفاً من الخلفاء الفاطميين، وكان يعرف بالأديب، وحدث أن قدم القاضي على بن النضر على الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (٤٨٧-٥١٥هـ/١٠٩٤-١١٢١م) طالباً منه أن يقضى حاجة له، فلم يجبه الأفضل فأنشده قصيدة منها:

بين التعزز والتذلل	بادي المنار لعين
فاسلكه في كل المواطن	كبر الأبي وذله
ولقد جلبت من الصنائع	لأجل مختار وأكرم
ورجوت خفض العيش	لايدغ أن نفقت

ومن القضاة الأدباء في الصعيد الأعلى: القاضي النفيس ثقة الخلافة حيدرة بن الحسين بن حيدرة بن على بن أحمد بن الغمر، أبو المناقب سراج الدين القوصى، كان عالماً أديباً فاضلاً، ولم تمنعه أعمال القضاء بقوص من اهتماماته الأدبية، حتى أصبح من المعروفين بقوص، وتوفي بها في حدود سنة ٥٣٣هـ/١١٣٨م[٢١٦]، ومن شعره يرثى قزازاً (بائع الحرير) قوله:

بكى فقدك المكوك ... وناح عليك النير

وأعولت الألفاخ ... تدوره فيها أنا ملك

أنامل لم تخلق ... ولقط وتخليص وبا

ومن القضاة الشعراء نذكر: القاضي محمد بن إبراهيم القوصى، المولود سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م، وكان من القضاة البارعين في اللغة والنحو، هذا بجانب كونه عالماً في الفقه والأصول والتفسير أيضاً، وكانت وفاته بقوص سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م، بعد أن ولى قضائها عدة سنوات[٢١٧]، أما القاضي أحمد بن محمد بن هبة الله بن قدس الأرمنتى، الفقيه الشافعي، فقد كان من الشعراء المجيدين والفقهاء المتأدبين، وذكره الأدفوى "بأن له النظم الرائق، والنثر الفائق"[٢١٨]، وكان يلي أمر القضاء في قوص، ومات ببلدة أرمنت في سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م[٢١٩]، وكان له شعر جيد[٢٢٠].

وبالإضافة إلى ما سبق، كان هناك العديد من القضاة في الصعيد الأعلى الذين شاركوا في ازدهار العلوم العقلية، فكانت لهم اهتماماتهم البارزة في علم الرياضيات والفلك والطب والإلهيات والمنطق، وغير ذلك من العلوم العقلية المعروفة في مصر، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي. ومن هؤلاء القضاة الذين تعددت مواهبهم ولم تشغلهم مهام القضاء عن العلم ودراسته، القاضي على بن النضر الإسنائى، فقد كان من علماء إسنا الذين ذاع صيتهم في علم الفلك ونبغ فيه[٢٢١]، ومنهم أيضاً: القاضي محمد بن إبراهيم القوصى (ت٥٩٦هـ/١١٩٩م) قاضى قوص، برع في علم المنطق، وذلك بجانب تفوقه في علم اللغة والنحو والفقه والأصول والتفسير[٢٢٢]، وقد ذكره ناصر خسرو بقوله: «عرفت وأنا في أسوان رجلاً تقياً صالحاً، يعرف شيئاً من علم المنطق»[٢٢٣].

كذلك كان القاضي هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل القفطى (٦٠٠-٦٩٧هـ/١٢٠٣-١٢٩٧م) من بين المهتمين بالعلوم العقلية، وخاصة علم الرياضيات والمنطق، فقد ذاعت شهرته، ووضع المصنفات في الجبر والمقابلة والحساب والمنطق أيضاً[٢٢٤]، ومن قضاة الصعيد الأعلى، الذين عرفوا باهتماماتهم بالطب

آنذاك، القاضي على بن منصور بن محمد بن المبارك الإسنائى، ويعرف بابن شواق، الذي برع في مهنة الطب[٢٢٥]، وأخذ الطب عن ابن بيان[٢٢٦]، واشتهر فيه بالمعرفة والحذق. ومما يدل على براعته الفائقة أنه كان يطلب من الأماكن البعيدة، وكان ابن شواق حسن الخلق وتولى قضاء أسفون[٢٢٧] وغيرها، وتوفي في حدود سنة ٦٦٠هـ/١٢٦١م[٢٢٨].

الخاتمــــة:

وصفوة القول أنه تبين لنا من، خلال هذا البحث، أنه كان للقضاء في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، أهمية كبرى وأثر لا بأس به على أحوال هذا الإقليم من أرض مصر، كما تبين أيضاً مدى الدور الذي قام به قضاة الصعيد الأعلى في إقرار العدل والمساواة والأمن بين الناس، وتطبيق الأحكام الشرعية وحماية الأوقاف وأموال الأيتام، هذا بالإضافة إلى مشاركتهم الواضحة في بعض جوانب الحياة الاجتماعية، كالاحتفالات والمناسبات، والعمل على حل ما شجر بين الناس من منازعات، والسعي في قضاء مصالحهم. كما أظهر البحث أن القضاء في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمي والأيوبي، كان يسير وفق الأسس والشروط المتعارف عليها في اختيار القضاة آنذاك، واتخاذهم معاونين لهم كالشهود والكتاب، وغيرهم من الذين كانوا يساعدونهم في تأدية مهامهم القضائية.

كما بين هذا البحث ما بلغه قضاة الصعيد الأعلى من مكانة وتقدير لدى السلطة الحاكمة، وكذلك بين الخاصة والعامة من أهالي الصعيد الأعلى،وأبان البحث أيضاً: إسهامات هؤلاء القضاء في ازدهار الحياة العلمية والأدبية في الصعيد الأعلى، فقد ظهر من بينهم الكثير من العلماء والأدباء والشعراء البارزين، وكان لكثير منهم مصنفات عدة تدل على نبوغهم وتفوقهم كما تتلمذ على أيديهم العديد من طلاب العلم والمعرفة في مدن وقرى الصعيد الأعلى.

ولعل ذلك يدفعني في النهاية إلى القول إن القضاة في الصعيد الأعلى كانت لهم مكانة ونفوذ كبير في ولاياتهم شأنهم في ذلك شأن قضاة العاصمة في القاهرة وباقي مدن مصر الكبرى.

الهوامش

(١) ابن خلدون: المقدمة، طبعة دار ابن خلدون، الإسكندرية، بدون تاريخ طبع، ص١٥٤؛ محمود محمد عرنوس: تاريخ القضاء في الإسلام، طبعة القاهرة، ١٩٣٤، ص٨٣.

(٢) عادل بسيونى: تاريخ القانون المصرى- مصر الإسلامية، طبعة مكتبة نهضة الشرق جامعة القاهرة، سنة ١٩٨٥م، ص٥٧.

(٣) القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، مطبعة وزارة الثقافة، د.ت جـ٣، ص٣٧٨.

(٤) سورة ص من الآية ٢٦.

(٥) سورة المائدة، من الآية ٤٨.

(٦) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية، ط٥ ١٩٨٦م، ص٤٨.

(٧) عطية مشرفة: القضاء في الإسلام، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٦م، ص٩٢.

(٨) ابن خلدون: المصدر السابق، ص١٥٥. وولى عمر أبا الدرداء على قضاء المدينة المنورة، وولى شريحا بالبصرة، وقيس بن أبى العاص في مصر، وولى أبا موسى الأشعرى بالكوفة، وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذى تدور عليه أحكام القضاة وهى مستوفاة فيه. (ابن خلدون: المصدر السابق، ص١٥٥). وعن نص كتاب عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى (الماوردى الأحكام السلطانية، طبعة القاهرة مكتبة الحلبى، ١٩٧٣م، ص٧١-٧٢).

(٩) المقدمة: ص١٥٥.

(١٠) ابن خلدون: المصدر السابق، ص١٥٥.

(١١) عمر بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى بن غالب القرش السهمى، وكان إسلامه في صفر سنة ثمان قبل فتح مكة بستة أشهر، وقال فيه رسول الله ﷺ: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص»، وكانت وفاته في سنة ٤٣هـ/٦٦٣م (انظر: ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة،تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرون، طبعة دار الشعب بدون تاريخ، جـ٤، ص٢٤٤-٢٤٧).

(١٢) عطية مشرفة: المرجع السابق، ص١٣١.

(١٣) هو قيس بن أبى العاص بن قيس بن عدى بن سعد بن سهم، شهد فتح مصر،واختط بها دارا له (ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، م٤، ص٤٣٢).

(١٤) الكندى: الولاة والقضاة، طبعة القاهرة، بدون تاريخ، ص٣٠١، ص٣٤٨.

(١٥) الكندى: المصدر السابق، ص٣٦٨؛ عطية مشرفة: المرجع السابق، ص١٥٩؛ عبد الله بن لهيعة الحضرمى: هو عبد الله بن لهيعة بن عقبة بن فرعان بن ربيعة بن ثوبان الحضرمى، وكان أول قاضٍ في مصر استقضاه خليفة في عصر الدولة

العباسية. (ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق جابر عبد المجيد، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦١م، ج٢، ص٢٨٧-٢٨٨).

(١٦) عطية مشرفة: المرجع السابق، ص١٥١.

(١٧) إبراهيم أحمد العدوى: النظم الإسلامية، طبعة ١٩٨٨م، القاهرة، ص١٤٤-١٤٥.

(١٨) مناع القطان: النظام القضائي في العهد النبوى وعهد الخلافة الراشدة، طبعة القاهرة ١٩٩٣م، ص٦٧، ص٦٨.

(١٩) الكندى: المصدر السابق، ص٣٠٩؛ الماوردى: المصدر السابق، ص٦٦.

(٢٠) المذهب الحنفي: ينسب إلى الإمام أبي حنيفة وهو النعمان بن ثابت بن زُوطى فارسي الأصل ولد بالكوفة سنة ٨٠هـ/٦٩٩م ونشأ بها، وكان في زمانه بعض الصحابة وكبار التابعين، وتعلم منذ صغره وجلس إلى الاستماع لحلقات العلم بمسجد الكوفة، ودرس الفقه في مدرسة الكوفة، وكانت مدرسة لها رجالها ولها طابعها الخاص، وتوفي أبو حنيفة في بغداد سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م ويذكر ابن النديم أن لأبي حنيفة كتاب الفقه الأكبر، كتاب رسالته إلى البستى، كتاب العالم والمتعلم، كتاب الرد على القدرية، وله رسالة في نصرة أهل السنة. (الفهرست طبعة بيروت بدون تاريخ، ص٢٨٤، ص٢٨٥؛ أحمد أمين: ضحى الإسلام، طبعة القاهرة، بدون تاريخ، ص١٧٦، صس١٨٠، ص١٩٧؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، طبعة دار المعارف مصر سنة ١٩٨٣م، ج٣، ص٢٣٥، ٢٣٧).

(٢١) المذهب المالكي: ينسب للإمام مالك بن أنس الأصبحى المدنى، والأصبحى نسبة إلى ذى أصبح قبيلة يمنية، فهو عربي الأصل، ولد سنة ٩٣هـ/٧١١م وعاش حياته بالمدينة المنورة، وتعلم ودرس بها وسمع الحديث من كثير من شيوخ عصره بالمدينة، ومن أشهر كتبه الموطأ، يعد من أوائل الكتب التى ألفت في الحديث والفقه وقد نشره الآخذون عن مالك في الكثير من الأمصار الإسلامية، وكان للإمام مالك أثر كبير في الحركة العلمية الدينية على اختلاف العصور، وكانت وفاته في سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م ودفن بالبقيع. (ابن النديم: الفهرست، ص٢٨٠-٢٨١؛ أحمد أمين: ضحى الإسلام، ص٢٠٦، ص٢١٥؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج٣، ص٢٧٤-٢٧٦).

(٢٢) المذهب الشافعي: ينسب إلى الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن الشافع بن السائب، أحد الأئمة الأربعة عن أهل السنة، ولد في غزة بفلسطين سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م، ونشأ بمكة، ودرس الفقه والحديث، وأفتى وهو ابن عشرين سنة، زار بغداد مرتين الأولى سنة ١٩٥هـ/٨١٠م، والثانية سنة ١٩٨هـ/٨١٣م، ثم قصد مصر سنة ١٩٩هـ/٨١٤م، وصنف بها كتبا عدة منها الأم، والأمالى الكبرى والإملاء الصغير ومختصر البويطى وغيرها وكانت وفاته بمصر سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م ودفن بالقرافة. (ابن النديم: المصدر السابق، ص٢٩٤-٢٩٦؛ ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة بيروت، بدون تاريخ، ج٢، ص٩-ص١٠؛ أحمد أمين: المرجع السابق، ص٢١٨-٢٣٤).

(٢٣) الكندى: الولاة والقضاة، ص٣٧١؛ عطية مشرفة: القضاء في الإسلام، ص١٥٦.

(٢٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، طبعة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٣م، ج٤، ص٣٧٧.
(٢٥) عادل بسيوني: تاريخ القانون المصري- مصر الإسلامية، ص٦٢.
(٢٦) المذهب الشيعي: هو المذهب الذي يشايع على بن أبي طالب على الخصوص وقال بإمامته وخلافته وقد اعتقد الشيعة أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وهم خمس فرق: كيسانية وزيدية وإمامية، وغلاة وإسماعيلية، وبعضهم يميل في الأصول إلى الاعتزال وبعضهم إلى السنة وبعضهم إلى التشبيه (الشهرستاني: الملل والنحل، طبعة مكتبة السلام العالمية، القاهرة، بدون تاريخ، ج١، ص١٥١، ص١٥٢).
(٢٧) المقريزي: الخطط، ج٢، ص٣٤٣، ص٣٦٣، عبد الناصر هاشم محمد، تاريخ القضاء والمظالم في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي، دكتوراة، آداب سوهاج، ١٩٩٩م، ص١٩٥.
(٢٨) ومن هذه البحوث والدراسات نذكر: عطية مشرفة: القضاء في الإسلام؛ عبد الخالق حسين محمد: القضاء في عهد الفاطميين والأيوبيين، ماجستير سنة ١٩٧٥م، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة؛ عبد الناصر هاشم محمد: تاريخ القضاء والمظالم في مصر من الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الفاطمي؛ محمود محمد عرنوس: تاريخ القضاء في الإسلام.
(٢٩) ومن هذه الدراسات التي تناولت تاريخ الصعيد نذكر: رسالة الأستاذ الدكتور/ محمد أحمد محمد: مظاهر الحضارة في الوجه القبلي منذ قيام الدولة الأيوبية حتى نهاية العصر المملوكي، دكتوراة، آداب سوهاج، جامعة أسيوط، سنة ١٩٨٣م؛ نعمة على مرسي: مصر العليا من الفتح العربي حتى سقوط الدولة الفاطمية، طبعة المنيا سنة ١٩٩٨م؛ صلاح سليم طايع: مدينة قفط ودورها السياسي والحضاري منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية القرن الخامس الهجري من ٢١-٤٧٨هـ، ماجستير، آداب قنا سنة ٢٠٠٢م؛ أحمد حامد أحمد: مدينة اسنا منذ الفتح الفاطمي لمصر حتى نهاية العصر المملوكي الأول (٣٥٨-٧٨٤هـ)، ماجستير، آداب قنا، سنة ٢٠٠٤م.
(٣٠) المقريزي: المصدر السابق، ج١، ص١١٦؛ محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، طبعة القاهرة، سنة ١٩٤٥م، ج١، ص٢٨.
(٣١) البهنسا: من مدن الصعيد الأدنى وتقع غربي النيل، وكانت مدينة عامرة كبيرة كثيرة الدخل، وينسب إليها جماعة من أهل العلم منهم: أبو الحسن أحمد بن عبد الله البهنسي (ت٣١٤هـ/٩٢٦م) (ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٥١٦-٥١٧؛ المقريزي: المصدر السابق، ج١، ص٣٨٢).
(٣٢) إخميم: تقع على الشاطئ الشرقي للنيل بالصعيد، وهي من أهم بلدان الصعيد وأجلها، وينسب إليها ذو النون بن إبراهيم الإخميمي المصري الزاهد المتوفي سنة (٢٤٦هـ/٨٦٠م)، (ياقوت: المصدر السابق، ج١، ص١٢٣-١٢٤).
(٣٣) ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص٤٠٨. أسوان مدينة كبيرة تقع في شرق النيل في آخر صعيد مصر وكان تشتهر بتمورها الجيدة، وينسب إليها الكثير من العلماء والأدباء. (ياقوت: المصدر السابق، ج١، ص١٩١، ١٩٢).

(٣٤) ابن مماتي: قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوريال عطية طبعة مصر سنة ١٩٤٣م، ص١٠٨؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٤م، ص٢٨٩.

(٣٥) الكورة: اسم فارسي أطلق على كل صقع يشتمل على عدة قرى (ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص٣٦).

(٣٦) المقريزي:: الخطط، ج١، ص١١٨.

(٣٧) سفرنامة: ترجمة يحيى الخشاب، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ص١٣١.

(٣٨) ياقوت: المصدر السابق، جـ٤، ص٤١٣؛ وقوص: مدينة كبيرة وعظيمة تقع شرق النيل في الصعيد الأعلى وبينها وبين الفسطاط اثنا عشر يوماً أهلها أصحاب ثروة واسعة وهى محط التجار القادمين من عدن (ياقوت: المصدر السابق نفس الجزء والصفحة، وانظر المقريزي: المصدر السابق، جـ١، ص٣٨١).

(٣٩) الأدفوي: الطالع السعيد لأسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م، ص٨.

(٤٠) أبو الفدا: تقويم البلدان، طبعة باريس، بدون تاريخ، ص١٠٤.

(٤١) ابن الجيعان: التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، ط القاهرة، ١٩٧٤م، ص١٩٥؛ السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط القاهرة، ١٩٧٩م، ج١، ص٢٧.

(٤٢) عطية القوصي: تاريخ الكنوز الإسلامية، طبعة القاهرة، ١٩٨١م، ص ٧٥، ص٧٦.

(٤٣) محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر طبعة دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٤م، ص١٤٤؛ محمد عبده الحجاجي: قوص في التاريخ الإسلامي من الفتح العربي حتى نهاية عصر المماليك، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة لثانية، سنة ١٩٩٦م، ص٢٧.

(٤٤) عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٣م، ج١، ص١٤٠.

(٤٥) أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م، ص٣٦٤.

(٤٦) السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، جـ٢، ص٢٥٢.

(٤٧) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية القاهرة، ١٩٧٦م، ص١٧٤.

(٤٨) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٥٣.

(٤٩) أيمن فؤاد: المرجع السابق، ص٣٦٢.

(٥٠) حسن إبراهيم حسن: طه أحمد شرف: المعز لدين الله الفاطمي إمام الشيعة الإسماعيلية، طبعة ١٩٤٧م، ص١٩٠

(٥١) السيوطي: حسن المحاضرة، جـ٢، ص١٦٠؛ وابن الخراط: هو عبد السلام بن علي منصور الدمياطي ولد بدمياط في سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م، ودرس بها ورحل إلى بغداد

في طلب العلم وتفقه بها، وتميز في الفقه الشافعي، ثم رجع إلى دمياط فأقام بها قاضيا ودرس بمدرستها، ثم ولى قضاء مصر والوجه القبلى، وكانت وفاته سنة ٦١٩هـ/١٢٢٢م. (السيوطى: المصدر السابق، جـ١، ص٤١٠).

(٥٢) السيوطى: المصدر السابق، جـ٢، ص١٦٠.

(٥٣) السيوطى: المصدر السابق، جـ٢، ص ١٦١، ص١٦٢.

(٥٤) السيوطى: المصدر السابق، جـ٢، ص١٦٣، ص١٦٤.

(٥٥) السيوطى: المصدر السابق، ج٢، ص١٦٤.

(٥٦) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٣٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، طبعة دار الغد العربى سنة ١٩٩٢م، م٧، ص٢٥٥-٢٥٦؛ والقاضى شرف الدين السبكى: هو الذى أصدر قرار في سنة ٦١٢هـ/١٢١٥م بتولية على بن وهب بن دقيق العيد القشيرى (٥٨١ -٦٦٧هـ/١١٨٥-١٢٦٨م) بولاية القضاء في أسيوط ومنفلوط وأعمالها (الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٣٤).

(٥٧) الأدفوى: الطالع السعيد، ص١٣٥، ص١٣٦.

(٥٨) المصدر السابق، ص٤٧٦، ٤٧٧.

(٥٩) الأدفوى: المصدر السابق السابق، ص١٧٦.

(٦٠) أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، جـ١، ص١٤٢.

(٦١) الأدفوى: المصدر السابق، ص٢٢٤؛ فخر الدين القنائى هو الحسين بن رضوان بن هبة الله بن صالح بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن الفهم بن عبد الصمد بن الحسين بن عبد الغفار بن موسى بن يعمر بن سعيد بن الحارث الهزلى، وينعت فخر الدين القنائى، وكان عالما ورعا، وكان حيا في سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م. (الأدفوى: المصدر السابق، ص٢٢٣-٢٢٤).

(٦٢) ومن بين الأبيات التى أنشدها القاضى أحمد بن محمد بن هبة الله الأرمنتى لقاضى القضاة:

حاشاكم أن تقطعوا صلة الذى •• أو تصرفوا علم المعارف أحمدا

هو مبتدا نجباء أبنا جنسه •• والله يأبى غير رفع المبتدا

أغريتم الزمن المشت بشمله •• وحذفتموه كأنه حرف الندا

(الأدفوى: المصدر السابق، ص١٣٦).

(٦٣) الأدفوى: المصدر السابق ، ص١٣٥-١٣٦.

(٦٤) الأدفوى: المصدر السابق، ص١٣٥، ١٤٢، ص٤٣٤.

(٦٥) الماوردى: الأحكام السلطانية، ص٦٥-٦٧.

(٦٦) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٥٢.

(٦٧) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٢١٩، ص٢٢٠.

(٦٨) الأدفوى: المصدر السابق، ص٥١٩، ص٥٢٠.

(٦٩) الأدفوى: المصدر السابق، ص٢٣٢.

(٧٠) عطية القوصى: تاريخ دولة الكنوز، ص١٢٦.

(٧١) الأدفوى: المصدر السابق، ص١٦٥، ١٦٦؛ السيوطى: حسن المحاضرة، ج١، ص١٨٥.
(٧٢) أحمد السعيد سليمان: المرجع السابق، ج١، ص١٤٢.
(٧٣) الأدفوى: المصدر السابق، ص٣٤٥.
(٧٤) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٤١٧.
(٧٥) الأدفوى: المصدر السابق، ص١٨٢.
(٧٦) السبكى: طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود الطناحى، عبد الفتاح الحلو، طبعة القاهرة ١٩٦٤م، ج٥، ص٥٣؛ السيوطى: حسن المحاضرة، ج١، ص١٩١؛ ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، د.ت، ج٥، ص٤٣٥.
(٧٧) الأدفوى: المصدر السابق، ص٢٢٢.
(٧٨) الأدفوى: نفسه، ص٣٢١-٣٢٢.
(٧٩) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٣٢؛ ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفي السقا، كامل المهندس، طبعة هيئة الكتاب، ١٩٦٩م، ص٦٨.
(٨٠) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤١.
(٨١) الأدفوى: المصدر السابق، ص٣٨.
(٨٢) الأدفوى: نفسه، ص٥٤٧.
(٨٣) الأدفوى: نفسه، ص٣٨.
(٨٤) ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص١٨٩؛ القفطى: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ط مكتبة المتنبى القاهرة، د.ت، ص١٥٩.
(٨٥) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ج١، ص١٣٣.
(٨٦) الأدفوى: الطالع السعيد، ص٤٠٧؛ القاضى أبو المظفر: هو على بن محمد بن على بن إسحاق بن على بن محمد بن الحسن الإسنائى وينعت بالبدر.
(٨٧) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٦٧.
(٨٨) المقريزى: المقفي الكبير، تحقيق محمد اليعلاوى، طبعة بيروت، ١٩٩١م ج٢، ص٥٣٣.
(٨٩) هو أحمد بن على بن إبراهيم بن على بن الزبير أبو الحسن القرشى الأسدى الأسوانى، ينعت بالرشيد، كان ذو علم غزير شاعراً. لكن أخوه المهذب الحسن بن على بن إبراهيم بن على بن الأثير (ت٥٦١هـ)، كان شاعراً مجيداً وأشهر منه في مجال الشعر والأدب. (انظر: الأدفوى: البدر السافر عن أنس المسافر، تحقيق محمد فتحى، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م، ج١، ص٢٥١-٢٥٢؛ الأدفوى: الطالع السعيد، ص ٩٨، ص١٩٤).
(٩٠) نعمة على مرسى: مصر العليا من الفتح العربي حتى سقوط الدولة الفاطمية، ص١١٠، والمأمون البطائحى: هو أبو عبد الله محمد بن الأمير نور الدولة أبي شجاع فاتك ابن الأمير منجد الدولة أبى الحسن مختار المستنصرى واتصل بخدمة الأفضل بن أمير الجيوش سنة ٥٠١هـ/١١٠٧، وترقى به الحال إلى أن وصل إلى

منصب الوزارة في عهد الخليفة الآمر بأحكام الله وظل في خدمته إلى أن غضب عليه الأمر وقتله في سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م (المقريزى: الخطط، جـ٢، ص٣٤٠-٣٤١).

(٩١) المقريزى: المصدر السابق ، جـ١، ص٥٣٤.
(٩٢) الأدفوى: المصدر السابق، ص٥٣٤.
(٩٣) حسن إبراهيم حسن، طه أحمد شرف: المعز لدين الله إمام الشيعة الإسماعيلية، ص١٩٨.
(٩٤) محمود الحويرى: أسوان في العصور الوسطى، طبعة دار المعارف، ١٩٨٠م، ص١٦٢، وعلى الرغم من أن الخلافة الفاطمية حرصت على نشر مذهبها الشيعي بين أهالي البلاد التى ضمت إلى حوزتها، فإنها لم تنجح في ذلك السبيل، فظل المذهب السنى محتفظاً بقوته، برغم تحول بعض المصريين إلى المذهب الفاطمى، خوفاً من تطبيق القوانين الجائرة التى فرضها الفاطميون على مخالفيهم في المذهب، كذلك كان من الأسباب التى جعلت أهل السنة، في مصر، يحتفظون بمذاهبهم وتقاليدهم، تلك التشريعات التى أدخلها الفاطميون، إذ رأوا فيها ما يتنافى مع ما نص عليه القرآن وما أثر عن السنة (محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، ص٨٤، ٨٥).
(٩٥) الأدفوى: الطالع السعيد، ص٣٤، ص٣٧.
(٩٦) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٣٨.
(٩٧) أسفون: ذكرها ياقوت برسم (أصفون) وهى تقع غرب النيل بالصعيد الأعلى جنوب إسنا (معجم البلدان: جـ١، ص٢١٢).
(٩٨) الانتصار، لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، طبعة بيروت، د.ت، جـ٥، ص٣٠.
(٩٩) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، طبعة الخانجي القاهرة، سنة ١٩٦٢م، ص٨٦.
(١٠٠) الأدفوى: المصدر السابق ،ص٣٤، ص٣٧.
(١٠١) محمود الحويرى: المرجع السابق، ص١٦٣.
(١٠٢) عبد المنعم ماجد: الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية، طبعة دار الفكر العربى، القاهرة، سنة ١٩٩٧م، ص٨٤.
(١٠٣) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٦٩.
(١٠٤) السيوطى: المصدر السابق، جـ١، ص١٨٧.
(١٠٥) عبد المنعم ماجد: المرجع السابق، ص٨٤.
(١٠٦) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص١٧٤.
(١٠٧) السيوطى: المصدر السابق ، جـ١، ص٤٠٨؛ الأدفوى: المصدر السابق ، ٢١٦٥، ١٦٦.
(١٠٨) هو الحسين بن رضوان بن هبة الله بن صالح بن محمد بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن الفهم بن عبد الصمد بن الحسين بن عبد الغفار بن موسى بن يعمر بن

سعيد بن الحارث الهزلى، ينعت فخر الدين القنائى، كان حياً في سنة ٦٦١هـ/١٢٦٢م (الأدفوى: الطالع السعيد، ص٢٢٣، ٢٢٤).

(١٠٩) الأدفوى: المصدر السابق، نفس الصفحات.

(١١٠) القفطى: أنباه الرواه على إنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط القاهرة، ١٩٨٦م، جـ٢، ص٧٣؛ الأدفوى: المصدر السابق ، ص٢٦٢-٢٦٥.

(١١١) المنفلوطى: نسبة إلى مدينة منفلوط التى تقع في غربى النيل بالصعيد الأوسط، (ياقوت: معجم البلدان، جـ٥، ص٢١٤).

(١١٢) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٤٢٤، ص٤٣٤.

(١١٣) السبكى: طبقات الشافعية، جـ٥، ص١٦٣؛ المقريزى: المقفى، جـ١، ص٥٤٣؛ السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص١٩١؛ الداوودى: طبقات المفسرين، طبعة بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، جـ٢،ص٣٤٨، ٣٤٩؛ السيوطى: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار الفكر، ١٩٧٩م، جـ٢، ص٣٢٥.

(١١٤) الداوودى: المصدر السابق، ج٢، ص٣٥٠.

(١١٥) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٦٩١؛ السيوطى: المصدر السابق ، جـ١، ص٤٢٠.

(١١٦) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٢١٠، ص٢١١.

(١١٧) الرافضة: سموا بذلك لرفضهم أبا بكر وعمر ﵄، وقيل لرفضهم زيد بن على ﵁. وقال زيد ﵁ رفضونى فسموا رافضة (الحنبلى: البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، تحقيق بسام العموشى، ط الأردن، ١٩٨٨م، ص٦٥).

(١١٨) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٢٩٤، ص٢٩٥.

(١١٩) أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية، جـ١، ص١٤٢.

(١٢٠) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٢٣٥.

(١٢١) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٧٧.

(١٢٢) الأدفوى: المصدر السابق، ص١٧٦.

(١٢٣) المقريزى: الخطط، جـ١، ص٣٨١؛ ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص٦٧.

(١٢٤) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٢٩.

(١٢٥) ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق حامد عبد المجيد، طبعة ١٩٦١م، جـ٢، ص٩٧.

(١٢٦) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤١.

(١٢٧) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٨٢؛ المقريزى: المقفي، جـ٥، ص٧٣-٧٤.

(١٢٨) نعمة على مرسى: مصر العليا من الفتح العربى حتى سقوط الدولة الفاطمية، ص١٠٩.

(١٢٩) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص٤٨.

(١٣٠) الكندى: الولاة والقضاة، ص٥٦٢؛ عطية مشرفة: القضاء في الإسلامى، ص١٧١.

(١٣١) ابن دقماق: الانتصار، ج٤، ص١٠٧.

(١٣٢) كان ديوان الأحباس من الدواوين المهمة، وذكر القلقشندى "أن الخدمة في ديوان الأحباس لا يخدم فيها إلا أعيان كتاب المسلمين من الشهود المعدلين وفيها عدة مدراء بسبب أرباب الرواتب، وكان فيه كاتبان ومعنيان لنظم الاستمارات ويورد استمارة كل ما في الرقاع والرواتب، وما يجبى له من جهات كل من الوجهين القبلى والبحرى، وكان يوجد في الصعيد الأعلى ديوان للأحباس". (انظر: صبح الأعشى، جـ٣، ص٤٩٨).

(١٣٣) ابن مماتى: قوانين الدواوين، ص٣٥٧.

(١٣٤) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٣٨.

(١٣٥) الأدفوى: المصدر السابق، ص١٠٣.

(١٣٦) المقريزى: الخطط، جـ١، ص١٧٧.

(١٣٧) عطية القوصى: تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، ص٥٩؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية، طبعة بيروت، سنة ١٩٩٣م، جـ٢، ص٦٦

(١٣٨) كان ذلك عندما نجح الأمير بدر الجمالى في الانتصار على قوات كنز الدولة بأسوان حيث التقيا عند بلدة إسنا، وهناك دارت معركة شديدة بين الطرفين، قضى فيها بدر الجمالى على غالبية قوات كنز الدولة الذى فر هاربا إلى أسوان، وتخليداً لهذا الانتصار أمر بدر الجمالى قاضى المدينة الحسن بن على بن النضر ببناء جامع في مكان المعركة، والإشراف عليه عرف باسم جامع النضر (انظر النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٦، ص٧٠؛ عطية القوصى: المرجع السابق، ص٥٨).

(١٣٩) القلقشندى: صبح الأعشى: جـ١٠، ص٢٥٢، ومن أهم المساجد في الصعيد الأعلى، خلال العهدين الفاطمى والأيوبى، المسجد العمرى بأصفون، وجامع النصر بإسنا، والجامع العتيق بقوص الذى يرجع تاريخ إنشاؤه إلى العصر الفاطمى، والمسجد الجامع بأرمنت الذى لازمه العديد من العلماء والفقهاء للتدريس فيه، ومسجد قفط الذى كان معقلاً لنبذ التشيع، كما اشتهرت الأقصر بمسجد أبى الحجاج الأقصرى نسبة إلى العالم الفقيه " أبو الحجاج الأقصرى " (ت٦٢١هـ/١٢١٥م). (انظر الأدفوى: الطالع السعيد، ص٤٧٩، ص٥٠٧-٥٠٩؛ سعاد ماهر: محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية في العصر الإسلامى، طبعة القاهرة، ١٩٦٦م، ص٣٢، ص٣٣؛ سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، طبعة القاهرة، ١٩٧١م، جـ١، ص٧٥، ص١٦٤، ص٢٤١).

(١٤٠) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٤٧٦-٤٧٧.

(١٤١) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٠٧.

(١٤٢) الأدفوى: المصدر السابق، ص٢٩٤.

(١٤٣) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٣٣٣-٣٣٤.

(١٤٤) الأدفوى: المصدر السابق، ص٢٤١.

(١٤٥) محمود عرفة: الدولة الفاطمية في مصر، طبعة دار الثقافة العربية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٣٢٨.

(١٤٦) ممدوح عبد الرحمن الريطى: دور القبائل العربية في صعيد مصر، طبعة مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٦م، ص٢٢٨.
(١٤٧) محمد عبدة الحجاجى: قوص في التاريخ الإسلامى، الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٨٢م، ص٧٠.
(١٤٨) هو محمد بن على بن وهب بن مطيع بن أبى الطاعة القشيرى، أبو الفتح تقى الدين من علماء قوص ورجالها المعروفين البارزين توفي يوم الجمعة حادى عشر صفر عام ٧٠٢هـ (انظر أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، طبعة القاهرة، بدون تاريخ، ج٤، ص٥٠؛ الأدفوى: المصدر السابق ، ص٥٦٧-٥٩٩؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مجلد ٧، ص٣٩٩؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ج٦، ص٥).
(١٤٩) الأدفوى: المصدر السابق ، ص١٣٧، ١٣٨، ص١٤٢.
(١٥٠) القلقشندى: المصدر السابق ، ج٣، ص٤٨٦.
(١٥١) ابن خلدون: المقدمة، ص١٥٧.
(١٥٢) السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٥٧.
(١٥٣) الكندى: الولاة والقضاة، ص٥٦٩.
(١٥٤) ابن خلدون: المقدمة، ص١٥٨.
(١٥٥) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٣٤٦.
(١٥٦) الأدفوى: المصدر السابق، ص٢٠٥، ص٦٤٧.
(١٥٧) الأدفوى: المصدر السابق، ص٣٥٨، ص٣٥٩.
(١٥٨) الأدفوى: المصدر السابق، ص٣٥٩.
(١٥٩) الماوردى: الأحكام السلطانية، ص٧٦؛ آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، الطبعة الثانية، سنة ١٩٩٥م، ص٣١٤.
(١٦٠) محمود عرفة: الدولة الفاطمية في مصر، ص٣٢٤.
(١٦١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٨٦، ٤٨٧.
(١٦٢) محمود عرنوس: المرجع السابق، ص١٣١، ص١٣٢؛ محمود عرفة: المرجع السابق، ص٣٢٤.
(١٦٣) السبكى: معيد النعم، ص٦٤.
(١٦٤) السبكى: المصدر السابق، نفس الصفحة، هامش ١.
(١٦٥) الأدفوى: الطالع السعيد، ص٦٤٧.
(١٦٦) الأدفوى: المصدر السابق، نفس الصفحة.
(١٦٧) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٧٩.
(١٦٨) الأدفوى: المصدر السابق، ص٣٠٨.
(١٦٩) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤١٦-٤١٧.
(١٧٠) الأدفوى: المصدر السابق، ٣٦٣.
(١٧١) السبكى: المصدر السابق ، ص٦٢.
(١٧٢) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٣٦٣.

(١٧٣) الكندى: الولاة والقضاة، ص٥٦٣.
(١٧٤) نعمة على مرسى: مصر العليا، ص١١٠.
(١٧٥) عطية مشرفة: القضاء في الإسلام، ص١٤٩؛ محمود عرفة: المرجع السابق، ص٣٢٣.
(١٧٦) الأدفوى: المصدر السابق ، ص١٧٢، ص١٧٣.
(١٧٧) الأدفوى: المصدر السابق، ص١٥٠.
(١٧٨) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص٥١.
(١٧٩) عبد المنعم ماجد: نظم الفاطميين ورسومهم ج١، ص١٤٨، ص١٤٩.
(١٨٠) محمود عرفة: المرجع السابق، ص٣٢٠.
(١٨١) الكندى: الولاة والقضاة، ص٦٠٤.
(١٨٢) الماوردى: الأحكام السلطانية، ص٧٣.
(١٨٣) القلقشندى: المصدر السابق، ج٣، ص٤٨٧.
(١٨٤) عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، ص٥٠، ص٥١.
(١٨٥) ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ج٣، ص٦٣.
(١٨٦) ابن دقماق: الانتصار، ج٥، ص٢٨؛ الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٤.
(١٨٧) ابن ظهيرة: الفضائل الباهرة، ص٦٦.
(١٨٨) الأدفوى: المصدر السابق، ص٢٩؛ ابن ظهيرة: المصدر السابق، ص٦٧.
(١٨٩) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٤.
(١٩٠) المقريزى: الخطط، ج١، ص٣٨٢.
(١٩١) الأدفوى: نفس المصدر، ص٣٨.
(١٩٢) الأدفوى: نفسه، ص٤١.
(١٩٣) الأدفوى: نفسه، ص١٦٥، ص١٦٦.
(١٩٤) الأدفوى: نفسه، ص٤٨٢.
(١٩٥) الأدفوى: الطالع السعيد، ص٤٨٣.
(١٩٦) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٨٤.
(١٩٧) هذه النسبة إلى بعلبك، مدينة بالشام، بينها وبين دمشق اثنا عشر فرسخاً من جهة الساحل، وينسب إليها العديد من العلماء والفقهاء والمحدثين (ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٤٥٣- ص٤٥٥؛ ابن الأثير: اللباب في تهذيب الأنساب، ص١٦١-١٦٢).
(١٩٨) قمولا: ذكرها ياقوت بأنها بليدة تقع غرب النيل بأعلى الصعيد، كثيرة النخل والخضرة (المصدر السابق، ج٤، ص٣٩٨-ص٣٩٩)
(١٩٩) الأدفوى: المصدر السابق ، ص١٢٨.
(٢٠٠) الأدفوى: نفس المصدر، ص٥٤٧.
(٢٠١) الأدفوى: نفس المصدر، ص٣٨.
(٢٠٢) السبكى: طبقات الشافعية، ج٥، ص١٣١؛ السيوطى: بغية الوعاة في طبقات اللغويين، ج٢، ص٣٢٥.
(٢٠٣) السيوطى: حسن المحاضرة، ج١، ص٤٢٠.

(٢٠٤) حلب: مدينة كبيرة بالشام عظيمة واسعة كثيرة الخيرات، وبينها وبين دمشق تسع أيام، ولها قلعة يضرب بها المثل في الحسن والحصانة، وكان الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين الأيوبى قد اعتنى بها فعمرها. وينسب إلى حلب الكثيرين من أهل العلم والأدب، والنسبة إليها الحلبى، (ياقوت: المصدر السابق ، ج٢، ص٢٨٢-٢٨٦؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج١، ص٣٧٩).

(٢٠٥) عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج٢، ص٢٩٩.

(٢٠٦) الأدفوى: المصدر السابق ، ص٧٨.

(٢٠٧) المقريزى: المقفي، جـ٥، ص٨٥.

(٢٠٨) الأدفوى: المصدر السابق، ص٣٦٧، ص٣٦٨.

(٢٠٩) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤٨.

(٢١٠) الأدفوى: نفس المصدر، ص٥٥١-٥٥٢.

(٢١١) المقريزى: المصدر السابق ، جـ١، ص٤١.

(٢١٢) المقريزى: المصدر السابق ، جـ٣، ص٤٤.

(٢١٣) عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، جـ٢، ص٢٩٩.

(٢١٤) السيوطى: حسن المحاضرة، جـ١، ص٥٤٣.

(٢١٥) ياقوت: المصدر السابق ، جـ١، ص١٨٩.

(٢١٦) الأدفوى: المصدر السابق، ص٢٣٥، ص٢٣٦.

(٢١٧) الداوودى: طبقات المفسرين، جـ٢، ص٥٢، ص٥٣.

(٢١٨) الأدفوى: المصدر السابق ، ص١٣٥.

(٢١٩) الأدفوى: المصدر السابق، ص١٤٢.

(٢٢٠) كان قاضى القضاة في وقته أراد أن يصرفه عن القضاء بقوص فحضر إليه القاضى أحمد بن محمد بن هبة الله وأنشده لنفسه قصيدة منها:

حاشاكم أن تقطعوا صلة الذى ∴ أو تصرفوا علم المعارف أحمدا

هو مبتدا نجباء أبنا جنسه ∴ والله يأبى غير رفع المبتدا

أعريتم الزمن المشت بشمله ∴ وحذفتموه كأنه حرف الندا

فأقره قاضى القضاة في منصبه بعد هذه الأبيات (انظر الأدفوى: الطالع السعيد، ص١٣٥، ص١٣٦).

(٢٢١) القفطى: أخبار العلماء، ص١٥٩.

(٢٢٢) الداوودى: طبقات المفسرين، جـ٢، ص٥٢، ص٥٣.

(٢٢٣) سفرنامة: ص١٣٢.

(٢٢٤) الأدفوى: المصدر السابق، ص٦٩١-٦٩٥.

(٢٢٥) كان هبة الله بن صدقه الأسوانى من أمهر أطباء الصعيد الأعلى في العصر الفاطمى، وكان من أهل أسوان فقد ولد بها سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م وبرع في مهنة الطب حتى أنه تولى رئاسة الأطباء في مصر أواخر العصر الفاطمى في عهد الخليفة العاضد

الذى كان يستعين به للاستفادة من مهارته الطبية وتوفي هبة الله الأسوانى في سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م (الأدفوى: المصدر السابق، ص٦٩٠-٦٩١).

(٢٢٦) ابن بيان: هو سديد الدين أبو الفضل داود بن أبى البيان سليمان بن أبى الفريج إسرائيل بن أبى الطيب سليمان بن مبارك إسرائيلى، ولد بالقاهرة سنة ٥٥٦هـ/١١٦٠م، وكان ابن بيان شيخاً متقناً للطب متميزاً فيه وخبيراً بالأدوية المفردة والمركبة، وقد خدم الملك العادل الأيوبى، وعاش فوق الثمانين سنة، والشيخ سديد الدين بن أبى بيان بعض المصنفات في الطب والأدوية أجاد في جمعها (ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، علق عليه محمد باسل، طبعة بيروت، سنة ١٩٩٨م، ص٥٣٩).

(٢٢٧) أسفون: سبق التعريف بها من قبل.

(٢٢٨) الأدفوى: المصدر السابق، ص٤١٨.



المصادر والمراجع

أولاً: المصـــــادر

١- ابن الأثير: أبو الحسن بن أحمد بن أبى الكرم الشيبانى (ت٦٣٠ هـ/١٢٣٢م)
- اللباب في تهذيب الأنساب، طبعة بيروت سنة ١٤٠٠ هـ/١٩٨٠م.
٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق محمد إبراهيم البنا وآخرون، دار الشعب- د.ت
٣- الأدفوى: أبو الفضل كمال الدين جعفر بن ثعلب (ت٧٤٨ هـ/١٣٤٨م)
ـ الطالع السعيد لأسماء نجباء الصعيد، تحقيق سعد محمد حسن مراجعة طه الحاجرى- طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة سنة ١٩٦٦م.
٤- البدر السافر عن أنس المسافر، تحقيق محمد فتحى محمد الجزء الأول، طبعة الجمعية المصرية لرعاية المواهب، سنة ١٩٩٧م.
٥- ابن أبى أصيبعة: موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة (ت ٦٦٨ هـ/١٢٦٩م)
ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تعليق محمد باسل، طبعة بيروت، سنة ١٩٩٨م.
٦- ابن الجيعان: شرف الدين يحيى بن علم الدين بن الجيعان (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م)
ـ التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية طبعة القاهرة، سنة ١٩٧٤م.
٧- ابن حجر: أحمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٨م)
ـ رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق حامد عبد المجيد، طبعة ١٩٦١م.
٨- الحنبلى: أبو الفضل عباس بن منصور القرينى (ت٦٨٣ هـ/١٢٨٤م)
ـ البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان، تحقيق بسام العموشى، طبعة الأردن، ١٩٨٨م.
٩- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨ هـ/١٤٠٥م)
ـ المقدمة، طبعة دار ابن خلدون، الإسكندرية، بدون تاريخ.
١٠- الداوودى: شمس الدين محمد بن على (ت ٩٤٥ هـ/١٥٣٨م)
ـ طبقات المفسرين، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
١١- ابن دقماق: إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى (ت٨٠٩ هم١٤٠٦م)
ـ الانتصار لواسطة عقد الأمصار في تاريخ مصر وجغرافيتها، تحقيق لجنة إحياء التراث العربى، طبعة بيروت، بدون تاريخ.
١٢- السبكى: تاج الدين أبى النصر عبد الوهاب (ت ٧٧١ هـ/١٣٧٠م)
ـ طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحى، عبد الفتاح محمد الحلو، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٤م.

١٣- معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد على النجار وآخرون،الخانجى القاهرة، ١٩٩٣م.
١٤- السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال (ت ٩١١ هـ/١٥٠٥م)
ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد ابو الفضل إبراهيم، طبعة القاهرة، بدون تاريخ.
١٥- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد ابو الفضل إبراهيم طبعة القاهرة، سنة ١٩٧٩م.
١٦- ابن شداد: بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع (ت٦٣٢هـ/١٢٣٤م)
ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٢م.
١٧- الشهرستانى: ابن أبى الفتح محمد بن أبى القاسم (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م)
ـ الملل والنحل، طبعة مكتبة السلام العالمية، القاهرة، د.ت.
١٨- ابن ظهيره: برهان الدين إبراهيم بن على (٨٨٥ هـ/١٤٨٠م)
ـ الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفي السقا، كامل المهندس، طبعة هيئة الكتاب، القاهرة ١٩٦٩م.
١٩- ابن العماد: عبد الحى بن العماد الحنبلى (ت١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)
– شذرات الذهب في أخبار من ذهب، طبعة المكتب التجارى للطباعة، بيروت، د.ت.
٢٠- أبو الفدا: عماد الدين إسماعيل (ت٧٣٢ هـ/١٣٣١م).
– المختصر في أخبار البشر، طبعة القاهرة، مكتبة المتنبى، بدون تاريخ.
٢١- ــــــــــ: – تقويم البلدان، طبعة مدينة باريس، سنة ١٨٥٠م.
٢٢- القفطى: جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف (ت ٦٤٦ هـ/١٢٤٨م)
– إخبار العلماء بأخبار الحكماء، طبعة القاهرة، مكتبة المتنبى، بدون تاريخ.
٢٣- ــــــــــ: – إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط القاهرة ١٩٨٦م.
٢٤- القلقشندى: أبو العباس أحمد بن على (ت٨٢١هـ/١٤١٨م)
ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا، طبعة مصر، نسخة عن الطبعة الأميرية، بدون تاريخ.
٢٥- ابن كثير: الحافظ إسماعيل عمر الدمشقى (ت ٧٧٤ هـ/١٣٧٢م)
ـ البداية والنهاية، تحقيق محمد عبد العزيز النجار، طبعة دار الغد العربى، سنة ١٩٩٢م.
٢٦- الكندى: أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب (ت ٣٥٠ هـ/٩٦١م)
ـ الولاة والقضاة، طبعة القاهرة، بدون تاريخ.

٢٧- الماوردى: على بن محمد بن حبيب البغدادى (ت ٤٥٠ هـ/١٠٥٨م)
ــ الأحكام السلطانية والولايات الدينية، طبعة مكتبة مصطفي البابى الحلبى مصر سنة ١٩٧٣م، الطبعة الثالثة.
٢٨- المقريزى: تقى الدين أحمد بن على (ت٨٤٥ هـ/١٤٤١م)
ــ الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار)، طبعة مكتبة الآداب، القاهرة، بدون تاريخ.
٢٩- المقفي الكبير، تحقيق محمد اليعلاوى، طبعة بيروت، سنة ١٩٩١م.
٣٠- ابن مماتى: شرف الدين أبو المكارم أسعد (ت ٦٠٦ هـ/١٢٠٩م)
ــ قوانين الدواوين تحقيق عزيز سوريال عطية، طبعة مصر ١٩٤٣م.
٣١- ناصر خسرو علوى: (ت٤٨١ هـ/١١٨٨م)
ــ سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب، طبعة هيئة الكتاب، القاهرة سنة ١٩٩٣م.
٣٢- ابن النديم: محمد بن إسحاق الكاتب (ت٣٨٣ هـ/٩٩٣م)
ــ الفهرست، طبعة دار المعرفة- بيروت بدون تاريخ.
٣٣- النويرى: شهاب الدين أحمد عبد الوهاب (٧٣٣ هـ/١٣٣٢م)
ــ نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٢٦، تحقيق محمد فوزى العنتيل، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٥م.
٣٤- ياقوت: عبد الله الحموى الرومى البغدادى (ت٦٢١ هـ/١٢٢٤م)
ــ معجم البلدان، طبعة دار صادر بيروت، سنة١٩٧٦م

ثانياً: المراجـــع :

٣٥- إبراهيم أحمد العدوى: (دكتور)
ــ النظم الإسلامية، طبعة القاهرة، سنة ١٩٨٨م.
٣٦- أحمد أمين: (دكتور)
ــ ضحى الإسلام، طبعة القاهرة، بدون تاريخ.
٣٧- أحمد السعيد سليمان: (دكتور)
ــ تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة، الجزء الأول، طبعة دار المعارف مصر، ١٩٦٩م.
٣٨- آدم متز:
ــ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجرى، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٥م.
٣٩- أيمن فؤاد سيد : (دكتور)
ــ الدولة الفاطمية في مصر، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ٢٠٠٧م.
٤٠- بروكلمان (كارل):
ــ تاريخ الأدب العربى، الجزء الثالث، طبعة دار المعارف مصر، سنة ١٩٨٣م.
٤١- حسن إبراهيم حسن: (دكتور)
ــ تاريخ الإسلام، جـ٤، طبعة مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٣م
٤٢- تاريخ الدولة الفاطمية، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٤م.

٤٣- طه أحمد شرف:
ــ المعز لدين الله الفاطمى إمام الشيعة الإسماعيلية، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٤٧م.
٤٤- حسن عبد الوهاب:
ــ تاريخ المساجد الأثرية، طبعة بيروت، سنة ١٩٩٣م.
٤٥- سعاد ماهر: (دكتور)
ــ محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية في العصر الإسلامى، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٦م.
ــ مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، الجزء الأول، القاهرة ١٩٧١م.
٤٦- سعيد عبد الفتاح عاشور: (دكتور)
ــ الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، طبعة دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٦م.
٤٧- عادل بسيونى: (دكتور)
ــ تاريخ القانون المصرى (مصر الإسلامية)، طبعة مكتبة نهضة الشرق، جامعة القاهرة، سنة ١٩٨٥م.
٤٨- عبد المنعم ماجد: (دكتور)
ــ تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٨٦م.
٤٩- ــــــــ نظم الفاطميين ورسومهم، الجزء الأول، طبعة مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٧٣م.
٥٠- ــــــــ الدولة الأيوبية وتاريخ مصر الإسلامى، طبعة دار الفكر العربى، القاهرة، سنة ١٩٩٧م.
٥١- عبد الناصر هاشم: (دكتور)
ــ تاريخ القضاء والمظالم في مصر من الفتح الإسلامى حتى نهاة العصر الفاطمى، رسالة دكتوراة، كلية الآداب بسوهاج، ١٩٩٩ (غير منشور)
٥٢- عطية القوصى: (دكتور)
ــ تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٨١م.
٥٣- عطية مشرفة: (دكتور)
ــ القضاء في الإسلام، طبعة القاهرة، سنة ١٩٦٦م.
٥٤- عمر رضا كحالة:
ــ معجم المؤلفين، طبعة بيروت، ١٩٨٠م.
٥٥- محمد جمال الدين سرور: (دكتور)
ــ الدولة الفاطمية في مصر، طبعة دار الفكر العربى، القاهرة، سنة ١٩٧٤م.
٥٦- محمد رمزى:
ــ القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، طبعة القاهرة، سنة ١٩٤٥م.

٥٧- محمد عبده الحجاجى:
ـ قوص في التاريخ الإسلامى من الفتح العربى حتى نهاية عصر المماليك، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.
٥٨- محمود الحويرى: (دكتور)
ـ أسوان في العصور الوسطى، طبعة دار المعارف ١٩٨٠.
٥٩- محمود عرفة: (دكتور)
ـ الدولة الفاطمية في مصر، طبعة دار الثقافة العربية، القاهرة، سنة ٢٠٠٢م.
٦٠- محمود محمد عرنوس:
ـ تاريخ القضاء في الإسلام، طبعة القاهرة، سنة ١٩٣٤م.
٦١- ممدوح عبد الرحمن الريطى: (دكتور)
ـ دور القبائل العربية في صعيد مصر، طبعة مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٦م.
٦٢- مناع القطان:
ـ النظام القضائى في العهد النبوى وعهد الخلافة الراشدة، طبعة القاهرة، سنة ١٩٩٣م.



القدس في رحلة القاضي أبي بكر بن العربي الأندلسي دراســـــة حضاريـــــة

د. محمــد علي دبـــــور (*)

مقدمـــــة

يرتبط مفهوم الرحلة في الأصل اللغوي العربي، بركوب الإبل أو الجياد ونحوهما، وترويضها حتى تصير "راحلة"، وقد نقل ابن منظور عن أبي زيد قوله: "أرحل الرجل البعير(...) إذا أخذ بعيرًا صعبًا، فجعله راحلة"([١])، ثم يضيف ابن منظور: "الراحلة من الإبل البعير القوي على الأسفار والأحمال، وهي التي يختارها الرجل لمركبه ورحله.."([٢])، ونستنتج من هذا القول أن تحقيق متعة الاكتشاف من ناحية، والرغبة في مكابدة الشدائد والتغلب عليها من ناحية أخرى، هما من الأضداد التي ينشدها الإنسان في الرحلة، ويختم ابن منظور هذا العرض اللغوي بقوله: "وقال بعضهم: الرحلة الارتحال، والرُّحلة بالضم الوجه الذي تأخذ فيه وتريده"([٣]).

وتختلف الرحلات باختلاف الأغراض البشرية التي تستدعي القيام بها، غير أن هناك أغراضًا أخرى استدعت كتابتها بعد ذلك، فالرحالون لم يهتموا برحلاتهم إلا في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، واستمر التأليف فيها إلى أن أصبحت فنًا أدبيًا مميزًا، حدده الباحثون حديثًا، وصنفوه ضمن أنماط السرد الذي يتخذ الرحلة موضوعًا له، لكن فريقًا آخر من الباحثين يرون أن لهذا الفن قيمتين: **الأولى علمية، والأخرى أدبية**؛ فهو يتناول الكثير من نواحي الحياة الواقعية: "إذ تتوفر فيه مادة وفيرة مما يهم المؤرخ والجغرافي وعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الآداب والأديان والأساطير"([٤]).

(*) مدرس بقسم التاريخ الإسلامي بكلية دار العلوم جامعة القاهرة.

([١]) ابن منظور: لسان العرب- دار صادر- بيروت، ١٩٥٥ م، مادة: "رحل".

([٢]) المصدر نفسه.

([٣]) المصدر نفسه.

([٤]) حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب- دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- ط ٢ مزيدة ومنقحة، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م، ص ٦.

وهذا يعني أن أي رحلة، كي تعد فنًا، لا بد أن تحمل في الوقت نفسه هاتين القيمتين، أعني: العلمية والأدبية، لكن نسبة إحداهما إلى الأخرى متفاوتة في الرحلات العربية على الأقل، فبعض الرحلات يغلب عليه الجانب العلمي، الجغرافي والتاريخي، وبعضها الآخر يغلب عليه الجانب الذاتي أو الأدبي الوجداني.

وقد بيّن ابن خلدون أهمية الرحلة العلمية في قوله: «إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل تارةً علمًا وتعليمًا وإلقاءً، وتارة محاكاةً وتلقينًا بالمباشرة، إلاّ أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكامًا وأقوى رسوخًا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها، فالرحلة لابد منها في طلب العلم لاكتساب الفوائد والكمال بلقاء المشايخ ومباشرة الرجال»(٥).

فقد كانت الرحلة سجلاً يكشف عن المنابع الثقافية التي ارتوى منها العالم، والأصول التي اعتمد عليها، والتي كانت – دون شك – مرجعًا له فيما ألف من كتب(٦)، كما عُدّت الرحلة جانبًا مهمًا في تقدم الأدب الجغرافي الإسلامي، ومصدرًا موثوقًا به إلى حدٍّ كبير؛ إذ كان الرحالة – في الغالب – دقيق الملاحظة، حاضر البديهة حتى أصبحت كتب بعضهم من معالم الأدب العالمي(٧).

وقد كان اهتمام الرحالين بتدوين رحلاتهم كبيرًا جدًا، ويضيق بنا المقام هنا لتعداد كل المؤلفين في الرحلة، من جغرافيين ومؤرخين وأدباء، وغيرهم من المتخصصين، ولكن نخص بالذكر أشهرهم : اليعقوبي (ت٢٩٢هـ/٩٠٤ م)، مؤلف كتاب: "البلدان"(٨)، وأحمد بن يحيى البلاذري (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م)، صاحب كتاب: "فتوح البلدان"، والمقدسي (ت٣٨٠هـ/٩٩٠م) مؤلف "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"(٩). كما تواصل تأليف الرحلات ذات الطابع الجغرافي والتاريخي، وعظم على

---

(٥) ابن خلدون: المقدمة- تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي- مكتبة الأسرة- القاهرة، ٢٠٠٦ م، ٢/ ٥٣٩-٥٤٠.
وراجع: حسين محمد فهيم: أدب الرحلات- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، ١٩٨٩ م، ص ٨٠.

(٦) د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون- دار البيان العربي- جدة، د. ت، ص ٣٢٢.

(٧) د. حسين مؤنس: الجغرافية والجغرافيون في الأندلس- نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- مدريد- ط ٢، ١٩٨٦ م، ص ٩.

(٨) انظر: زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى-دار الرائد العربي- بيروت، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م، ص ٣٥-٣٦. د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٧١-٧٨.

(٩) انظر: د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٢٩-١٣٥. زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ٤٢-٤٣.

يد عدد من الشخصيات ذات الصيت الذائع أمثال : أبي عُبيد البكري (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) صاحب كتاب:"المسالك والممالك" أو "المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب"(١٠)، وابن جبير الأندلسي (ت٦١٤هـ/١٢١٧م)، صاحب كتاب: "تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار"(١١)، وابن بطوطة المغربي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) صاحب كتاب: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"(١٢)، والقاسم بن يوسف التجيبي (ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م) صاحب كتاب: "مستفاد الرحلة والاغتراب"(١٣)، وعبد الرحمن بن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) صاحب كتاب: "التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا"(١٤).

وقد ألف الرحالون المغاربة والأندلسيون المذكورون رحلاتهم؛ في الفترة ما بين القرنين الرابع والتاسع الهجريين/ العاشر والخامس عشر الميلاديين. وبعد هذه الفترة شهدت الرحلات المغربية والأندلسية بعض التراجع في التأليف؛ لاشتداد وطأة الحروب بين المسلمين والأعداء الأوروبيين كالإسبانيين والبرتغاليين، ولكن الرحلات ما لبثت أن عادت إلى نشاطها ورواجها المعهود في القرن الحادي عشر وما بعده، والمؤسف أن الكثير منها تعرض للضياع، بسبب الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي شهدها الغرب الإسلامي.

وكان المشرق لا يزال محط أنظار المغاربة والأندلسيين، ويسترعي اهتمامهم؛ لما تضمّه بيئته من معالم روحيّة ودينيّة تقصد للعبادة والتبرك والاعتبار، والرغبة في لقاء علماء كبار في مختلف العلوم ومجالستهم والأخذ عنهم، ولما يحسّه الرّحالة من روابط تاريخيّة وحضاريّة تربط بين المشرق والمغرب، واشتراك في الأهل والنسب أحيانًا كثيرة، فالإحساس بالوحشة والاغتراب والحزن يكاد ينعدم عند المغاربة

---

(١٠) انظر: زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ٤٥. د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٤٥-١٥٩.

(١١) انظر: حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ص ١٩. د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٣٢٣-٣٣٨. زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ٧٠-٨٨.

(١٢) انظر: زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ١٣٦-١٧١. د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٣٦٩-٣٨٦. حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ص ٣٥.

(١٣) انظر: د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٣٥٥-٣٥٩.

(١٤) انظر: حسني محمود حسين: أدب الرحلة عند العرب، ص ٥٥-٦٧. د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٢٢١-٢٣٢.

والأندلسيين وهم يزورون المشرق، أو يمكثون فيه لفترات طويلة، بسبب تلكم الروابط الدينية والروحية والاجتماعية التي تربط بين الإقليمين.

ومن هنا كان أدب الرحلات هو ذلك الأدب الذي يصور فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها لأحد البلدان، حيث يسجل انطباعاته، ويصف ما يراه من عادات البشر وسلوكهم وأخلاقهم، كما يهتم بذكر الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والثقافية التي يشاهدها ويتفاعل معها، لذلك فإن أدب الرحلات يُعدُّ مصدرًا مهمًّا للدراسات التاريخية المقارنة، كما تُعدُّ كتب الرحلات من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية، لأن الكاتب يستقي المعلومات والحقائق من المشاهدة الحية، والتصوير المباشر، مما يجعل قراءتها ممتعة مسلية من ناحية، ومفيدة تاريخيًّا وحضاريًّا من ناحية أخرى.





أبو بكر بن العربي وأهمية رحلته

أولاً: أبو بكر بن العربي: المولد والنشأة:

وُلد أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي في أشبيلية، ونشأ نشأة دينيَّة، وحفظ القرآن الكريم ابنَ تسع سنين، ثم أتقن العربيَّة والشعر وعلم الحساب على يد أبيه وخاله، وجلس إلى العُلماء واستمع منهم حتى أصبح من حفاظ الحديث، وبلغ رتبة الاجتهاد في علوم الدين، كما برع في الشعر والأدب(١٥).

"وكان أبوه أبو محمَّد بأشبيلية بدرًا في فلكها، وصدرًا في مجلس ملكها، واصطفاه معتمد بني عبّاد، .... وولاة الولايات الشَّريفة، وبوَّأه المراتب المنيفة"(١٦)، "وكان من أهل التفنن في العلوم، متقدِّمًا في المعارف كلها، متكلمًا على أنواعها، حريصًا على نشرها، وقام بأمر القضاء أحمد قيام، مع الصَّرامة في الحق، والقوَّة والشدَّة على الظَّالمين والرِّفق بالمساكين ...... وقيَّد الحديث، وضبط ما روى، واتَّسع في الرواية، وأتْقَن مسائل الخلاف والأصول والكلام"(١٧).

ثانيًا: أبو بكر بن العربي: الأديب الرحالة:

عرف النَّاس أبا بكر بن العربي قاضيًا وفقيهًا إسلاميًّا كبيرًا، ومفسِّرًا للقرآن وشارحًا للسنَّة، كما أنه يعدُّ أصوليًّا عظيمًا، وتناسى الجميع أنه أديب ورحَّالة مشهور، ربَّما ساعد على ذلك أنَّ أصل رحلة ابن العربي "ترتيب الرحلة للترغيب في الملة" يُعَدُّ

---

(١٥) انظر: ابن العربي: قانون التأويل– دراسة وتحقيق: محمد السليماني– منشورات دار القبلة للثقافة الإسلامية بجدة، ومؤسسة علوم القرآن ببيروت– ط١، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م، ٤١٥– ٤١٩. سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي– دار الغرب الإسلامي– بيروت – ط١، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م، ص ١٨٧–١٩١. حيث ذكر ابن العربي بنفسه نشأته العلمية وما تلقاه من العلوم والمعارف في هذه الفترة الأولى من حياته. وانظر أيضًا: ابن بشكوال: الصلة – الدار المصرية للتأليف والترجمة – القاهرة– سلسلة المكتبة الأندلسية (٤)، ١٩٦٦ م، ١/ ٥٩٠– ٥٩١، الترجمة رقم ١٢٩٧. الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس– دار الكاتب العربي (الهيئة المصرية العامة للكتاب حاليًا) – القاهرة – سلسلة المكتبة الأندلسية (٦) – ١٩٦٧ م، ص ٨٣.

(١٦) المقري التلمساني: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – تحقيق إحسان عباس– دار صادر – بيروت، ١٩٦٨ م، ٢/ ٣٤.

(١٧) المصدر السابق، ٢/ ٢٩.

من مؤلَّفاته المفقودة والَّتى لم تصِل إلينا كاملة، وقد فقد الكتاب فى حياة مؤلِّفه، ويخبِرُنا بذلك ابن العربى نفسُه عندما يقول: "إن الحوادث قد استلبته"(١٨).

ولكن ابن العربى حفِظ لنفسه مكانة متميِّزة فى تاريخ الأدب العربى، كرائد من روَّاد أدب الرحلات، عندما قام بتجريد جانب من رحلتِه: "ترتيب الرحلة للتَّرغيب فى الملة"، أسماه: "شواهد الجلَّة والأعيان فى مشاهد الإسلام والبلدان"(١٩). كما قام ابن العربى بكتابةِ تلخيص آخر لرحلته، فى مقدمة كتابه: "قانون التأويل"، وقد قام الأستاذ سعيد أعراب بتجْريد هذه الخلاصة، وعمِل على تحقيقها، وألْحقها بدراسة له عن ابن العربى(٢٠).

وما قام به ابنُ العربى من تلْخيص لرحلتِه، لا يمكن أن يعوِّضَنا أبدًا عن الأصلِ المفقود لكتابه: ترتيب الرحلة، ولا يمكن تتبُّع كلِّ خطوات رحلة ابن العربى، ولكنَّه يُمَكننا من أن نرسم صورةً واضحة لملامح رحلته، وسوف نعمل على توضيح هذه الصورة أكثر، إذا قُمنا بتجميع ما تناثر فى بطون الكتُب التى صنَّفها ابن العربى، ووصلت إليْنا، مثل كتاب: أحكام القرآن، وكتاب: عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، والتي جاء فيها إشارات مهمَّة عن رحلاته.

ثالثًا: أهمية رحلة أبي بكر بن العربي:

إنَّ ما يجعلنا نهتمّ برحلة أبى بكر بن العربى المعافري إلى المشرق؛ أنَّها كانت أسبق الرّحلات الأندلسيَّة، فهى من حيث التَّاريخ أسبق بنصف قرن، على الأقلّ، من رحلة ابن جُبير الكنانى (المتوفى سنة٦١٤هـ/١٢١٧م)، فأبو بكر بن العربى هو أوَّل أندلسى يصف رحلتَه إلى بلاد المشرق وصفًا دقيقًا، وأوَّل مَن دوَّن رحلته فى كتاب أسماه: "ترتيب الرحلة للترغيب في الملة"(٢١)، وهو بذلك يعدُّ رائدًا لأدب الرحلة

---

(١٨) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤١٤.

(١٩) تمَّ نشْر هذا الكتاب بتحْقيق محمد يعلى- ضمن كتاب: ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي: (كتاب الأنساب لابن عبد الحليم ق ٨ هـ/١٤ م - كتاب مفاخر البربر لمؤلف مجهول- كتاب شواهد الجلة لابن العربي ٥٤٣ هـ/ ١١٤٩ م)- سلسلة المصادر الأندلسية (٢٠)- المجلس الأعلى للأبحاث العلمية- الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي- مدريد-١٩٩٦م.

(٢٠) سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي- دار الغرب الإسلامي- بيروت- ط ١، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م. وانظر: د. أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٣٢٢ حيث أشار إلى أن ابن العربي كان من أوائل الرحالة المغاربة الذين دونوا رحلاتهم.

(٢١) انظر: ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤١٤.

المشرقية والرحلة إلى طلب العلم، ليس في بلاد الأندلس وحسب، بل في بلدان العالم الإسلامي كله بصفة عامة، وفي الغرب الإسلامي بصفة خاصة[٢٢].

عندما أقدم ابن العربي على تدوين رحلته إلى بلاد المشرق، وتدوين مشاهداتِه وانطباعاته التي تركتها هذه الرحلة في نفسه، ووصف البلاد التي مرَّ عليها، وتدوين الأحداث التاريخيَّة التي شاهدها وعايشها، وذِكره للعلماء الذين قابلهم وأخذ عنهم، لفتَ ابنُ العربي بذلك العمل الأنظارَ إليه، وإلى أهميَّة العمل الأدبي الذي قام به، حيث كانت هذه الخطوة هي أوّل خطوة في عمليَّة تدوين أدَبِ الرحلات، فابنُ العربي هو أوّل مَن وضع أسُسِ فنّ الرحلات، وتدوينها على هيئة مذكرات يوميَّة، ووصف مشاهداتِه وانطباعاته بكلّ دقَّة وأمانه في الوصف.

والَّذي يؤكّد على أهميَّة عمل ابن العربي وتميُّزه: أنَّه جاء عملاً مخالفًا لكلّ أنماط الكتابة السَّائدة، والتي كانت تنحصِر – في الغالب–في كتابة التَّقارير العسكريَّة من قادة الجيوش الإسلاميَّة عن طبيعة البلاد المراد فتحها، أو مشاهدات الجغرافيّين، ومعاينتهم لطبيعة الأرض، ووصف تضاريسها ومظاهرها الطبيعيَّة في البلدان المختلفة، أو الحكايات العجيبة والغريبة التي شاهدها بعض التجَّار المغامرين في أسفارهِم ورحلاتِهم، أو كتُب المسالك والممالك، وكتب البلدان، وكتب فضائل المدُن، وكتب الخطط والآثار وغيرها.

رابعًا: الغرض من الرحلة وخط سيرها:

أما عن خطّ سير الرِّحلة فسوف نقوم الآن بمحاولة رسم خطّ سير رحلة ابن العربي، وتتبُّعها من خلال التَّلخيص الَّذي قيَّده في كتاب: "قانون التَّأويل"، ثمَّ نقوم بتجْميع ما تناثر في بطون الكتُب التي صنَّفها ابن العربي، والتي جاءت فيها إشارات مهمَّة عن رحلتِه، ثمَّ ترتيبها حسب السِّياق الزَّمني، لتكون سرديَّة متَّصلة متماسكة، ولا يوجد بين مراحلها أيَّة فجوات تحرِم القارئ لذَّة تتبُّع هذه الرحلة.

أ– الغرض من الرحلة:

تعددت آراء المؤرخين حول الغرض من رحلة القاضي أبي بكر بن العربي إلى المشرق، وسنحاول في السطور التالية أن نسرد تلك الآراء ونناقشها.

---

(٢٢) أغناطيوس كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي– ترجمة: صلاح الدين هاشم– لجنة التأليف والترجمة والنشر– القاهرة، ١٩٦٣ م، ص ٢٩٨.

١- أداء فريضة الحجّ:

عندما بلغ ابنُ العربي سنَّ السابعةَ عشرة، ارتحل به أبوه من إشبيلية Sevilla إلى المشرق، بعد سقوط مملكة بني عباد سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م، واستولى المرابطون على إشبيلية، وصادروا أموال أمرائها ووزرائها(٢٣)، فما كان من الوالد إلاَّ أن اختار أن ينأى بنفسهِ وولده عن جحيم السياسة، بالارتحال إلى المشرق؛ لأداء فريضة الحج، حيث كان الوالد من رجالات بني عباد الملازمين لهم، والعاملين في خدمتهم(٢٤).

٢- طلب العلم:

يذكر ابن العربي غرضًا آخر للرحلة وهو طلبه للعلم، فيقول: "وكانِ الباعث على هذا التشبُّث - مع هول الأمر - همَّة لزمت، وعزمة لَجمت، ساقتها رحمة سبقت، ولقد كنت يومًا مع بعض المعلِّمين، فجلس إلينا أبي- رحمة الله عليه- يُطالع ما انتهى إليه علمي.... فدخل إلينا أحد السَّماسرة وعلى يديه رزمة كتب... فإذا بها من تأليف السمناني شيخ الباجي، فسمعتُ جَميعَهم يقولون: هذه كتُب عظيمة، وعلوم جليلة، جلَبها الباجي من المشرق، فصدعت هذه الكلمة كبدي، وقرعت خلدي، وجعلوا يُوردون في ذكره ويُصدرون، ويحكون أنَّ فقهاء بلادِنا لا يفهمون عنه ولا يعقلون... ونذرت في نفسي طيَّة، لئن ملكت أمري لأهاجرنَّ إلى هذه المقامات، ولأفدنَّ على أولاء الرِّجالات، ولأتمرسنَّ بما لديهم من المعاقد والمقالات، واستمرت عليها نيَّة، واكتنتُها عزيمة"(٢٥).

٣- الغرض السياسي:

يذكر ابن خلدون (المتوفى سنة ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦ م) غرضًا آخَر من أغراض الرِّحلة، وهو الغرض السياسي؛ حيث خرج عبد الله بن العربي وابنه، مُوفدَين من يوسف بن تاشفين إلى عاصمة الخلافة، فيقول: "ولمَّا مُحِي رسْم الخلافة وتعطَّل دَستُها، وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسُف بن تاشفين ملك لمتونة فملك العُدوتين، وكان من أهل الخير والاقتداء، نزعت همَّته إلى الدُّخول في طاعة الخليفة، تكميلاً لمراسم دينِه، فخاطَب المستظهِر العبَّاسي، وأوْفد عليْه ببيعتِه عبد الله ابن العربي،

(٢٣) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٧٧ (مقدمة المحقق).

(٢٤) ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي أبي على الصدفي-سلسلة المكتبة الأندلسية (٧)- دار الكاتب العربي للطباعة والنشر (الهيئة المصرية العامة للكتاب حاليًا)-القاهرة-١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م، ص ٦.

(٢٥) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٢٠-٤٢٢.

وابنَه القاضي أبا بكر من مشيخة إشبيلية، يَطْلُبان توليَته إيَّاه على المغرب وتقليده ذلك، فانقلبا إليْه بعهد الخلافة له على المغرب"(٢٦).

٤- **هذا بخلاف غرَض السِّياحة والتجْوال**، وهذا الغرض واضح جدًّا من خِلال تتبُّع رحلة ابن العربي، وقيامه بجولات استكشافيَّة ووصفيَّة.

قد تتعدَّد الأغراض في الرِّحلة الواحدة، ورحْلة ابن العربي من ذلك النَّوع من الرحلات، وهو نوعٌ يَحتاج رحالة مختلفًا من طراز خاصّ، يكون صاحب ملكات، ومواهب خاصَّة، وثقافة واسعة، وإحاطة بعلوم شتى، وله من العلاقات ما يَجعله يواصل رحلتَه بنفس الكفاءة التي بدأ بها، وقد توافرت هذه المواصفات في ابن العربي.

قلت: إنَّ رحلة ابن العربى كانت لها أغراضها المختلفة، منها أداء فريضة الحج، وطلب العلم، والسياحة والتجوال، ولا يستبعد أبدًا أن يكون لها غرضٌ سياسى، ولكن سياق الرحلة، وما تحصَّلْنا عليه من نصوص مكمِّلة للرّحلة لا يدلّ على ذلك، ربَّما يفيدنا كتاب "شواهد الجلة والأعيان فى مشاهد الإسلام والبلدان" فى إثبات ذلك، ولكنَّا حتى هذا الوقت لم يتيسَّر لنا الاطلاع عليه.

ب- خط سير الرحلة ومضمونها:

إشبيلية ومدن الأندلس: هنا نحاول أن نرسم خط سير هذه الرحلة وما شاهده فيها ابن العربى من معالم حضارية، وآثار ثقافية، وجوانب علمية، وقد بدأه ابن العربى بوصف يوم خروجه هو وأبيه من إشبيلية **Sevilla** بأنه كان يومًا صعبًا، بل يصفه بأنَّه أعجب يوم مرَّ عليه(٢٧)، ويصف ساعة خُروجهم من إشبيلية فيقول: "خرجْنا والأعداء يشمتون بنا"(٢٨)، "خرجْنا مكرمين، أو قُلْ: مُكرَهين، آمنين، وإن شئت خائفين"(٢٩).

خرج الشَّيخ والفتى من إشبيليَّة **Sevilla** صبيحة الأحد مستهلّ ربيع الأوَّل عام ٤٨٥هـ/١٠٩٢ م، متوجِّهين إلى مالقة **Málaga**، ومنها إلى غرناطة **Granada**، التي لم يُطِل فيها المقام، فتابع سيرَه إلى المرية **Almería**، وأوَّل

---

(٢٦) ابن خلدون: مقدّمة ابن خلدون – تحقيق: د. علي عبد الواحد وافي- مكتبة الأسرة- القاهرة، ٢٠٠٦ م، ٢/ ٦١٦-٦١٧.

(٢٧) ابن العربي: قانون التَّأويل، ص ٤٢٠.

(٢٨) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٢٠.

(٢٩) المصدر السابق، ص ٤٢٢.

عمل يقوم به أبو بكر بن العربي في كلِّ بلد ينزل إليه هو البحث عن العُلماء، ومحاولة الاتصال بهم، والجلوس إليهم(٣٠).

* * *

بجاية ومدن إفريقية (المغرب الأدنى): ثمَّ ركب البحْر إلى بجاية، وكان بمرفأ بجاية بعض العلماء، حرص ابن العربي على لقائهم، وكان يجد من حفاوة التَّرْحاب والاستقبال من كبار القوْم والمبالغة في إكرامهم، ولمَ لا وابن العربي الأب وزير سابق في حكومة إشبيلية السابقة؟!

ثمَّ تابعا سيرَهما طورًا بالبَرِّ وطورًا بالبحر، ومرَّا في طريقهما على بونة (أو عنابة)، ثمَّ دخلا تونس، ثم زارا سوسة، والمهدية. وقد التقى أبو بكر بن العربي بجملة من عُلماء وفقهاء القيروان، وقد أبدى إعجابه بما سمع وتعلم، حيث قال: "فلمَّا لمح لي هذا الكوكب بطريقة القيروان، واستنارت لي فيها بنوع من البرهان، واستبرأتُها بواضح من الدلالات غضّ النبات والأفنان، قلت: هذا مطلبي، فأخذت في قراءةِ شيءٍ من أصول الدين، والمناظرة فيها مع الطَّالبين، ولزمتِ مجالس المتفقهين"(٣١)، ولم ينسَ أن يقيِّم ابن العربي حالة الأدَب في القيروان بأنَّها: "على حالة وسطى"(٣٢).

* * *

برقة وساحل طرابلس: ثمَّ ركبا البحْر من المهدية متَّجهين إلى الحجاز، ويصف ابن العربي ركوبَه البحْر أثناء رحلتِه من إفريقية وصفًا دقيقًا ممتعًا، وكيف عصفت بهم الرِّيح، وقسا البحرُ عليْهم، فتحطَّمت السَّفينة، ونجا أبو بكْر وأبوه من الغرق، وكان خروجُهما بموضع من ساحل طرابلس (برقة)، تسكنه بيوت من بني كعب بن سليم، قال: "وقد سبق في عِلْم الله أن يعظم علينا – أي البحْر– بزوله(٣٣)، ويغرقنا في هوله، فخرجنا من البحر خروج الميِّت من القبر، وانتهيْنا بعد خطب طويل إلى بيوت بني كعب من سليم، ونحن من السَّغب(٣٤) على عطب، ومن العري في أقبح زي، قد قذَف البحر زقاق زيت مزَّقت الحجارة هيئتها، ودَسَّمَتِ الأدهان وَبَرَها وجلدتَها، فاحتزمناها أُزرًا، واشتملناها لفقًا، تمجُنا الأبصار، وتخذلنا الأنصار، فعطف

(٣٠) المصدر السابق، ص ٤٢٣-٤٢٤.
(٣١) المصدر السابق، ص ٤٢٧-٤٢٨.
(٣٢) السابق، ص ٤٢٨.
(٣٣) أي: بعجائبه.
(٣٤) السغب: الجوع مع التعب.

أميرُهم علينا..... فأوينا إليه فآوانا، وأطعمنا الله على يديْه وسقانا، وأكرم مثوانا وكسانا"(٣٥).

ثمَّ يحدِّثنا أبو بكر بن العربي عن المبالغة في وصف ما نالهم من إكرام الأمير لهم، وعرضه عليهم البقاء: ".. وأقمْنا عنده حتى ثابت إليْنا نفوسُنا، وذهب عنّا بؤسُنا، وسألَنا الإقامة عنده على أن يُصَيِّر إليْنا صدقات بني سليم كلِّها، فأبيْنا إلاّ الاستِمْرار على العزيمة الأولى، والتصميم إلى المرتبة الكريمة التي كانت بنا أولى، ففارقناهُ، ..... وسرنا حتّى انتهيْنا إلى ديار مصر، فألفيْنا بها جماعة من المحدِّثين والفقهاء والمتكلِّمين"(٣٦).

* * *

مصر: نزل ابن العربى فى مرفأ الإسكندريَّة ولم يطل بهم المقام بها، ومن ثمَّ واصلا سيْرَهُما إلى القاهــرة، وكان وصولهما إليْها في أواخــر ربيع الثاني سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م.

ويصف ابن العربى حالة الركود العلمي لعلماء مصر، والظُروف السيِّئة التي تمرُّ بها البلاد في ذلك الوقت قائلا: "ألفيْنا بها - أي مصر - جماعةً من المحدِّثين والفقهاء والمتكلِّمين، والسلطان عليهم جري(٣٧)، وهم من الخمول في سرب خفِيٍ، ومن هجران الخلق بحيث لا يرشد إليهم جريء، لا ينبسون إلى العلم ببنت شفة، ولا ينتسب أحدٌ منهم في فنّ إلى المعرفة، بله الأدب.."(٣٨).

ورغْم هذه الحالة التي كان عليْها علماء مصر، إلاّ أنَّ أبا بكر بن العربى كان يتردَّد على مجالس القرَّاء، ويبدي إعْجابَه بطريقة القراء المصريين فيقول: "وقَدْ سَمِعْت تَاجَ القُرَّاءِ ابْنَ لُفْتَة بجامِعِ عَمْرٍو يَقْرَأ: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ} [الإسراء: ٧٩]، فكَأنِّي ما سَمِعْت الآيَةَ قَطّ، وسَمِعْتِ ابْنَ الرَّفَّاءِ - وكَانَ مِن القُرَّاءِ العِظَامِ - يَقْرَأ، وأنَا حَاضِرٌ بالقَرافَةِ: {كهيعص} فكَأنِّي ما سَمِعْتهَا قَطّ،..... والقُلُوبُ

---

(٣٥) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٢٨-٤٢٩.

(٣٦) المصدر السابق، ص ٤٣١-٤٣٢.

(٣٧) الجريُ هو الوكيل، والسلطان الذي يعنيه ابن العربي هنا هو: معد بن الظَّاهر بن الحاكم بأمر الله، خامس خلفاء مصر من بني عُبيد (٤٢٠-٤٨٧ هـ/ ١٠٢٨-١٠٩٣ م). انظر: قانون التأويل، ص ٤٣٢، حاشية رقم ٢. وراجع: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة- المؤسسة المصرية للترجمة والنشر- القاهرة - (د. ت)، ٥/ ١٤٠.

(٣٨) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٢.

تَخْشَعُ بالصَّوْتِ الحَسَنِ كَما تَخْضَعُ للوَجْهِ الحَسَنِ، وما تَتَأَثَّرُ به القُلوبُ في التَّقْوَى فهُوَ أَعْظَمُ في الأجْرِ وأَقْرَبُ إلى لِينِ القُلوبِ وذَهابِ القَسْوَةِ مِنْها"(٣٩).

وفى مصر تدرَّب أبو بكر على الجدل، وناظر الشيعة والقدريَّة، ويصف هذه الطَّوائف قائلاً: "أمَّة غلب عليها سوء الاعتقاد، ونشئت من غير فطم بلبن العناد، واستولى اليأس منهم بما هم فيه من الفساد"(٤٠).

* * *

فلسطين: ومن مصر انطلقا إلى فلسطين، وواصلا السير إلى بيت المقدس، وفى هذه الجولة من الرحلة يمدنا ابن العربى بمعلومات مهمة عن الجوانب الدينية والعلمية فى القدس فى هذه الفترة، ويحدثنا عن العديد من جولاته الأثرية فيها، وسنأتى عليها بالتفصيل، فهى موضوع البحث.

* * *

عسقلان وما جاورها: وبعدها يزور مدينة عسقلان، فينجذب إليها، ويعجب بنشاط أهلها، وخفَّة روحهم، فيقيم بها نحو ستَّة أشهر، ويتَّخذ جملة من الرُّفقاء والإخوان، لولا هاتف ديني أوْحى إليه بالرحيل ما كان يترك تلك البلدة رغم إلحاح أبيه عليْه بالرَّحيل، وأفصح لأبيه عن نيَّته في الرَّحيل، فسرَّ بذلك، وركبا البحْر إلى عكا، ثم عرجا على طبرية وحوران، ثمَّ دمشق(٤١).

* * *

دمشق: وقد وصل أبو بكر بن العربى وأبوه إلى دمشق فى الشُّهور الأولى من سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م، واختار ابن العربى من باب الفراديس مقرًّا له، ويصِف هذا الباب فيقول: "بابُ الفرادِيس لَيْسَ فى الأرْض مِثْلُه، عِنْدَهُ كَانَ مَقرِّي، وإليْهِ مِن الوَحْشَةِ كَانَ مَفرِّي، وإليْه كانَ انْفِرادي لِلدَّرْسِ والتَّقرِّي"(٤٢).

لم يطل المقام بابن العربى فى دمشق؛ لأنَّ الحركة العلميَّة فيها تكاد تكون متشابهة مع الحركة العلميَّة التى في القدس كما سنرى، فدمشق لن تضيف إليه جديدًا، فنوى الرَّحيل إلى بغداد، وعلى الرَّغم من قِصَر مدَّة الإقامة فى دمشق، إلا أنَّ ابن العربي كانت له جوْلاته ومشاهداته التي لم يفُته تدوينها، فوصف لنا المعالم

---

(٣٩) ابن العربي: أحكام القرآن- تحقيق: محمد عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية، بيروت- ط ٣، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م، ٤/ ٤-٥.

(٤٠) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٣.

(٤١) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٤٣-٤٤٤.

(٤٢) ابن العربي: أحكام القرآن، ٤/ ٣٩٢.

الأثريَّة والتَّاريخيَّة فى دمشق، كما صوَّر عمران دمشق وتقدُّمها فى أسباب الرَّفاهة والصِّيانة والنَّعيم(٤٣).

* * *

بغداد: لم يطل المقام بابن العربى فى دمشق، فرحل إلى بغداد، فى شعبان سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م، وأهلَّ هلال رمضان والقافلة على مشارف العراق، فلمَّا دخل دار السَّلام، كان أوَّل شىء يفعله هو السُّؤال عن حلقات أهل العلم، فدلّوه على المدرسة النظاميَّة، ولكنَّ إقامة ابن العربى لم تطل بالعراق أكثر من ثلاثة أشهُر(٤٤)، حيثُ نوى أداء فريضة الحجّ هذا الموسم، ورحل ابن العربى إلى الحجاز أواخر ذي القعدة سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م.

* * *

الحجاز: خرج ابن العربى من بغداد، إلى بلاد الحجاز، قاصدًا الحجّ، فأحرم من ذات عرق – وهو ميقات الحجيج القادمين من العراق ونواحيها – يقول ابن العربى: "وأمَّا أنا فجئت مراهقًا من ذات عرق إلى الموقف ليلة عرفة، نصفَ الليل، فأصبحت بها، ووقفتُ من الزَّوال يوم الجمعة سنة سبع وثمانين وأربعمئة(٤٥)، ثمَّ دفعتُ بعد غروب الشمس إلى المزدلفة، فبتّ بها"(٤٦).

ولا يُخفى ابنُ العربى شعورَه الجارف بالسَّعادة لأدائه فريضة الحجّ فى هذا الموسم؛ لأنَّ وقفة عرفة جاءت فى يوم الجمعة، فاجتمع للحجيج فضل اليومين، "لمَّا كانت سنة تسع وثمانين وأربعمائة(٤٧) أهلّ علينا هلال ذي الحجَّة ليلة يوم الخميس...

---

(٤٣) انظر: ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٤٤-٤٤٦.

(٤٤) أفاض ابن العربي في رحلته إلى العراق في الحديث عن العلماء الذين قابلهم وتلقى عنهم، وكانت له معهم مداخلات ومناظرات علمية، حيث يذكر أنه لقي أبا بكر الشاشي فقيه الوقت وإمامه (قانون التأويل، ص٤٤٩)، ولقي الشيخ الطوسي شيخ الشيوخ وصاحب الباع والرسوخ في العلم (قانون التأويل، ص٤٥٢)، كما سرد عددًا من الكتب التي قرأها واطلع عليها خلال هذه الرحلة، مثل: تفسير الثعالبي، وكتاب الماوردي، ومختصر الطبري، وغيرها(قانون التأويل،ص٤٥٥-٤٥٦).

(٤٥) هذا تصحيف والصَّحيح أنَّها سنة تسع وثمانين وأربعمئة.

(٤٦) ابن العربي: عارضة الأحوذي بشرْح صحيح الترمذي- دار الكتب العلميَّة – بيروت – ط١، ١٩٩٥ م، ٤/ ١٥٣.

(٤٧) اتَّخذ البعض من هذا النَّص، والنَّص السَّابق عليه، حجَّة بأنَّ ابن العربي قام بأداء فريضة الحج مرَّتين: المرَّة الأولى: كانت في عام ٤٨٧هـ/١٠٩٣م. والمرة الثانية: كانت في عام ٤٨٩هـ/١٠٩٥م. وهذه مغالطة بُنِيَت على تحريف في النَّصّ، فالفرق بين سنة سبع وثمانين

وقد فرح الناس بوقْفة الجمعة ليجتمع لهم فضل اليومين: فضل يوم عرفة وفضل يوم الجمعة؛ ولأنَّ حجَّ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أيضًا كان يوم عرفة يوم الجمعة"(٤٨).

وقد شاهد قافلةً من الحجيج الشِّيعة القادمين من العراق سنة ٤٨٩ هـ/١٠٩٥م، وقد تركوا الإحرام من ميقات ذات عرق، فـ "الشيعة لا يُحرمون منه"(٤٩).

ومنَ المشاهد المهمَّة التي سجَّلها ابن العربي أثناء إقامته بمكَّة في موسم الحجّ: مشهد مبيت الحجَّاج بعرفة ليلة عرفة، قال: "مررتُ من ذات عرق، فألفيت الحاجَّ كلَّه بائتًا بعرفة ليلة عرفة"(٥٠).

"وهذا بخلاف السنَّة النبويَّة؛ إذ ينبغي أن يكونَ مبيت الحاجِّ في تلك الليلة بمنى لا عرفة"(٥١)، "وليس على مَن فعل ذلك شيء، ولكنه تركَ فعل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ولقد خاب مَن تركه"(٥٢) كما قال ابن العربي(٥٢).

ويعلِّق أحد الباحثين على هذا المشهد، ذاكرًا سبب عدم مبيت الحجيج في منى فيقول: "الحجيج في ذلك الوقت كانوا غير آمنين على أنفُسِهم أثناء تأديتهم لمناسك الحجّ، فاضطروا إلى ترك سنَّة المبيت بمنى في اليوم الثَّامن من ذي الحجَّة، فكانوا يصعدون إلى منى في ذلك اليوم، ثمَّ يتوجَّهون منها مباشرة إلى عرفة؛ خوفًا من غارات محتمَلة قد يشنها بنو شعبة على الحجَّاج أثناء صعودهم لعرفات"(٥٣).

وأربعمئة، وتسع وثمانين وأربعمائة يسير، والدَّليل على أنَّ ابن العربي لم يحجَّ في سنة سبع وثمانين وأربعمئة أمران: أوَّلًا: أنَّه بدأ رحلته، سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م، وكما يقول ابنُ العربي: إنَّه أقام في القدس ثلاث سنوات، فمعنى ذلك أنَّ ابن العربي كان ما زال في القدس سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٣ م. ثانيًا: أنَّ ابن العربي جاء الحجاز قادمًا من العراق، والدَّليل على ذلك أنَّه أحرم من ذات عرق – وهو ميقات الحجيج القادمين من العراق – فكيف لابن العربي أن يَخرج من العراق لأداء فريضة الحج سنة سبع وثمانين وأربعمئة، وهو ما زال بالقدس، والصحيح المتَّفق عليه أنَّ ابن العربي لم يؤدِّ فريضة الحجّ إلاَّ مرَّة واحدة سنة تسع وثمانين وأربعمئة.

(٤٨) ابن العربي: عارضة الأحوذي، ٤/ ٤٩-٥٠.

(٤٩) ابن العربي: عارضة الأحوذي، ٤/ ٤٩.

(٥٠) المصدر السابق، ٤/ ١١٠.

(٥١) انظر: محمد أحمد العقيلي: "قبيلة بني شعبة"- مجلة العرب (ج١١- ١٢) سنة ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م – الرياض- دار اليمامة، ص ٨٩٧-٨٩٩.

(٥٢) ابن العربي: عارضة الأحوذي، ٤/ ١١٠.

(٥٣) محمد أحمد العقيلي: "قبيلة بني شعبة"، ص ٨٩٧-٩٠٠.

ثم يقول ابنُ العربي: "لقد كُنْت بمكَّة مُقيمًا في ذي الحِجَّة، سنَة تِسْع وثَمانِينَ وأربعمِئَة، وكُنت أشْرَبُ ماءَ زَمْزَم كثيرًا، وكلَّما شَرِبْته نوَيْت به العِلمَ والإيمان، حتى فَتحَ اللهُ لي بَرَكَته في المِقْدار الَّذي يَسَّرَهُ لي مِن العِلم، ونَسيت أن أشْرَبَه للعَمَل، ويا لَيْتَني شَرِبْته لهُما حتى يَفتَحَ اللَّهُ عليَّ فيهما، ولمْ يُقَدِّرْ، فكانَ صَغْوي إلى العِلم أكْثَرَ مِنهُ إلى العَمل"([٥٤]).

وصف ابن العربي مشاهداته ودوَّن انطباعاته، فصوَّر لنا معالم الحرم المكّي، كما توقَّف عند المعالم الأثريَّة والتاريخيَّة بمكَّة، وتحرَّى الدقَّة في استقصاءِ الأخبار، وحرص على وصف نُظم التعليم ووسائله في مكَّة، وأبدى إعجابه الشديد بتلك الوسائل، كما أثنى على الطَّريقة المتبعة في التعليم، والتي تقوم على أساس التدرُّج في اكتِساب العلوم، فيقول: "كُنت أحْضُرُ عِنْدَ الحاسِبِ بِتِلْكَ الدِّيار المُكرَّمة، وهُوَ يَجْعَل الأعْدادَ على المُتَعَلِّمينَ الحاسِبِينَ، وأفْواهُهُم مَمْلوءةٌ مِن الماءِ، حتَّى إذا انْتَهى إلقاؤُهُ، وقالَ: ما مَعَكُم؟ رَمَى كُلُّ واحِدٍ بما في فَمِه، وقالَ ما مَعَهُ ليُعَوِّدَهم خَزْلَ اللِّسَان عَن تَحْصيلِ المَفْهُوم عَن المَسْموع، وللقَوْم في التَّعلُّم سِيرَةٌ بَديعةٌ، وهِيَ أنَّ الصَّغيرَ مِنْهُم إذا عَقَلَ بعثُوهُ إلى المكتب، فإذا عَبَرَ المَكتبَ أخَذَهُ بتَعْليم الخطِّ والحِسَاب والعَرَبيَّة، فإذا حَذَقَهُ كُلَّهُ أوْ حَذَقَ مِنْهُ مَا قُدِّرَ لَه، خرَجَ إلى المُقرئ فلقَّنَهُ كِتَابَ اللَّه، فحَفِظَ مِنْهُ كُلَّ يَوْم رُبْعَ حِزْب، أوْ نِصْفَه، أوْ حِزبًا، حتى إذا حَفِظَ القُرْآنَ خرَجَ إلى مَا شاءَ اللَّهُ مِن تَعْليمِ العِلم أوْ تَرْكِه، ومِنهُم- وهُم الأكثَرُ- مَنْ يُؤخِّرُ حِفْظَ القُرآن، ويتَعَلَّمُ الفِقْه والحَديثَ وما شاءَ اللَّهُ، فرُبَّما كانَ إمامًا وهُوَ لا يحفَظُه، وما رَأيت بعَيْني إمامًا يَحْفَظُ القُرْآنَ، ولا رَأيت فَقيهًا يَحْفَظه إلا اثْنَيْن، ذلكَ لتَعلَموا أنَّ المَقصودَ حُدُوده لا حُرُوفَه، وعُلِّقت القُلوبُ اليَوم بالحُرُوفِ وضَيَّعُوا الحُدُودَ..."([٥٥]).

وحدثنا عن مقام إبراهيم وزيارته له وتحديده بدقة فقال: "إن المفسرين استرسلوا فيه على عادتهم، فقالت طائفة: المقام هو مناسك الحج كلها، وقيل: هو الحجر في أقوال لا يتحصل منه على مقتضى الدليل مراد، والصحيح أنه الحجر الذي قام عليه إبراهيم يدعو حين خلف تركته بمكة، وهو الذي قام عليه حين جاء يُطالع تركته في إسماعيل وأهله، وأثر قدمه فيه إلى اليوم، رأيتُه ولمستُه بيدي وخدي؛ تبركًا به في ذي الحجة من سنة تسع وثمانين وأربعمئة، والحمد لله رب العالمين"([٥٦]).

وابنُ العربي في مكَّة والمدينة لا ينسى طلبَه للعلم، فيواصل ابن العربي طلبَ العِلْم على يد مشايخ وعلماء مكَّة والمدينة، فجلس إليهم مدَّة، ثم "عاد إلى بغداد .

([٥٤]) ابن العربي: أحكام القرآن، ٣/ ٩٨.

([٥٥]) ابن العربي: أحكام القرآن، ٤/ ٣٤٩.

([٥٦]) ابن العربي: عارضة الأحوذي، ١١/ ٨٠-٨١.

* * *

العراق: ثمَّ ارتحل ابن العربى راجعًا إلى بغداد مرَّة ثانية بعد أدائه فريضة الحجِّ، وأقام فيها بعض الوقت، "وصحب بها كثيرًا من العلماء والأدباء، فأخذ عنهم وتفقه عندهم، وسمع العلم منهم"(٥٧)، فتتلمذ على يدِ التبريزي العالم اللغوي (٤٢١-٥٠٢هـ/١٠٢٩-١١٠٨م)، وأبى بكر الشاشي الشافعي (٤٢٩-٥٠٧هـ/ ١٠٣٧-١١١٣م). واستمع إلى دروس أبى حامد الغزالى (٤٥٠-٥٠٥ هـ/ ١٠٥٨-١١١١ م)، فى المدرسة النظاميَّة، وقد التقى به برباط أبى سعيد بمدينة السلام، فى جمادى الآخرة سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م، ولا يُخْفِي ابن العربى فرحته بلقاء الإمام الغزالى، وكان يفتخر بالأخذ عنه، فيقول: "ورد علينا دَانِشْمَنْد(٥٨) فنزل برباط أبى سعد بإزاء المدرسة النظاميَّة، معرضًا عن الدنيا، مقبلاً على الله تعالى، فمشيْنا إليْه، وعرضنا أمنيَّتنا عليه، وقلت له: أنتَ ضالَّتنا التى كنَّا ننشد، وإمامُنا الَّذي به نسترشد، فلقينا لقاء المعرفة، وشاهدنا منه ما كان فوق الصِّفة، وتحقَّقنا أنَّ الَّذي نقل إليْنا من أنَّ الخبَرَ عن الغائب فوق المشاهدة ليس على العموم، ولو رآه عليُّ بن العباس(٥٩) لما قال:

إِذَا مَا مَدَحْتَ امْرَأً غَائِبًا ... فَلا تَغْـلُ فِي مَدْحِهِ وَاقْصِدِ
فَإِنَّكَ إِنْ تَغْلُ تَغْلُ الظُّنُو ... نُ فِيهِ إِلَى الأَمَدِ الأَبْعَـدِ
فَيَصْغُرُ مِنْ حَيْثُ عَظَّمْتَهُ ... لِفَضْـلِ المَغِيبِ عَلَى المَشْهَدِ

فقصدت رباطَه، ولزمتُ بساطه، واغتنمتُ خلوته ونشاطه"(٦٠).

ثمَّ قام ابنُ العربى بجولة فى أنحاء العراق، فزار البصْرة، والكوفةِ، والكرْخ، والموصل.

* * *

فى طريق العودة: غادر ابنُ العربى بغداد أواخِر سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م، وغادر العراق إلى الشام، فمرَّ على دمشق والقدس، فجدَّد أبو بكر العهْد بشيوخه في الشَّام، وطاف على مزارات بيت المقدس(٦١).

---

(٥٧) المقري: نفح الطيب، ٢/ ٢٩-٣٠.

(٥٨) دانشمند: كلمة فارسية تعني العارف، أو الحكيم العلامة، والمقصود بها هنا الإمام الغزالي.

(٥٩) هو الشاعر العباسي المعروف بابن الرومي.

(٦٠) ابن العربي: قانون التأويل، ٤٥٠-٤٥١.

(٦١) انظر: ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٥-٤٣٨. أحكام القرآن، ٢/ ٤-٥، ٦، ٧، وسيأتي الحديث عن هذه المزارات بالتفصيل بعد قليل.

* * *

الإسكندرية: ثم انتقل إلى الإسكندرية أوائل سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م، ونزل على أستاذه أبي بكر الطرطوشي، الذي انتقل هو الآخر إلى ثغر الإسكندريَّة ليتخذه مقرًّا له – وكان الصليبيُّون قدِ استولوا على بيت المقدس في شعبان سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م – وقد حرَص بها على لقاء جماعةٍ من المحدِّثين، فكتب عنهم واستفاد منهم وأفادهم.

ويَحكي عن بعض مشاهداته بالإسكندرية فيقول: "وقدْ شاهَدْت بثَغْر الإسْكَنْدَرِيَّة إذا مَاتَ مِنْهُم ميِّتٌ صَوَّرُوهُ مِنْ خَشَبٍ فى أحْسَنِ صُورةٍ، وأجْلَسُوهُ في مَوْضِعِه مِنْ بَيْتِه وكَسَوْهُ بِزّتَه إنْ كَانَ رَجُلًا، وحِلْيَتَها إنْ كَانَتْ امْرَأَةً، وأغْلَقُوا عَلَيْه البابَ، فإذا أصَابَ أحَدًا مِنْهُم كَرْبٌ أو تَجَدَّدَ لَه مَكْرُوهٌ، فتحَ البابَ عَلَيْه وجَلَسَ عِنْدَهُ يَبْكي ويُناجيهِ بكانَ وكانَ، حتى يَكْسِرَ سَوْرَةَ حُزْنِهِ بإهْرَاقِ دُمُوعِه، ثُمَّ يُغْلِقُ البابَ عليْه وينصَرِفُ عَنْه، وإنْ تَمَادَى بِهم الزَّمَانُ يَعْبُدُوها مِن جُمْلَةِ الأصْنَامِ والأوْثَانِ"([٦٢]).

وكانت وفاة والده بالإسكندرية، في محرَّم سنة ٤٩٣هـ/١٠٩٩م، أحد الأسباب القويَّة، التي دفعته للرجوع إلى وطنه، في العام نفسه، بعد رحلة استغرقت ثمانية أعوام([٦٣])، قضاها ابن العربي، متجوِّلًا في بلاد المشرق الإسلامي، طالبًا للعلم تارةً، وحاجًّا تارةً، وسائحًا تارة أخرى.

* * *

المغرب: ومن الصعوبة تحديد طريق العودة إلى الأندلس، أكانت بحرًا أم برًّا؟، إلاَّ أنَّه نزل بتلمسان، وفاس وأملى بهما مجالس علم كانت مثار إعجاب الحاضرين، ثمَّ مرَّ بأرض دُكَّالة، ثمَّ دخل مَرَّاكُش عاصمة المغرب وقابل ابن تاشفين، فتسلم منه المراسم السلطانية التي حملها إليه من عاصمة الخلافة العباسية – بغداد – بتقليده لقب "أمير المسلمين"، وجعله نائبًا عن الخليفة العباسي في أقطار الغرب الإسلامي([٦٤]).

* * *

([٦٢]) ابن العربي: أحكام القرآن، ٤/ ٩.

([٦٣]) لقد استغرقت رحلة ابن العربي ثمانية أعوام حتى وفاة والده، وحوالي عشر سنوات حتى عودته إلى إشبيليَّة، حيث ابتدأ رحلته في مستهل ربيع الأول سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م، وكانت عودته سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠١ م.

([٦٤]) انظر: ابن العربي: قانون التأويل، ص ٨٨-٨٩ (مقدمة المحقق).

الأندلس: ثم عبر من المغرب إلى الأندلس، "وقدم إلى بلده إشبيليَّة، بعلم كثير لم يدخله أحد قبله، ممَّن كانت له رحلة إلى المشرق"(٦٥)، "فحلها والنفوس إليه متطلعة، ولأنبائه متسمّعة"(٦٦).

ويبدو أنَّ ابن العربي، بعد عودته إلى بلاد الأندلس، أكثرَ من الحديث عن رحلتِه، ومشاهداته وانطباعاته عن بلاد المشرق، "ولكثرة حديثه وأخباره، وغريب حكاياته ورواياتِه، أكثر النَّاس فيه الكلام، وطعنوا في حديثه"(٦٧).

وكما شاهد ابن العربي سقوطَ دولة بني عباد على يد يوسف بن تاشفين في أوَّل شبابه، شاهد كذلك سقوط دولة بني تاشفين أو دولة المرابطين على يد عبد المؤمن بن علي، صاحب دولة الموحّدين في أواخر شيخوختِه.

وفي سنة ٥٤٢هـ/١١٤٧م ترأس ابن العربي وفد (إشبيلية)، لمقابلة عبد المؤمن بن علي بمراكش، إلاَّ أنَّ عبد المؤمن حبس هذا الوفد في مراكش نحو عام لانشغاله بحرب بعض الخارجين عليه، ثم سرّحوا، وأُذن لهم بمقابلته، فتقدموا للسلام عليه، ثم قدموا له بيعة أهل إشبيلية، فقبلها منهم واستحسن صنيعهم(٦٨)، وتوفِّي ابن العربي في طريق العودة سنة ٥٤٣ هـ/ ١١٤٨ م بمقربةٍ من مدينة فاس، ودفِن بها(٦٩).



* * *

(٦٥) المقري: نفح الطيب، ٢/ ٢٩-٣٠.
(٦٦) المصدر السابق، ٢/ ٣٤.
(٦٧) المقري: نفح الطيب، ٢/ ٣٠.
(٦٨) ابن العربي: قانون التأويل، ص ١٠٥-١٠٦ (مقدمة المحقق).
(٦٩) انظر: ابن بشكوال: الصلة، ٢/ ٥٩١.

القدس في رحلة أبي بكر بن العربي

كانت القدس والمسجد الأقصى المبارك في طليعة الأماكن التي يتوجه إليها العلماء الرحالة من كل أنحاء العالم الإسلامي، لاسيما من المغرب والأندلس، لأنها تمثل مركز جذب رئيسًا، نظرًا للمكانة الدينية التي كانت تتمتع بها باعتبارها أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشريفين، ومسرى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفضل الصلاة في مسجدها الأقصى كبير، وإليه يشد الرحال، وكانت عملية التواصل معها من قبل علماء الغرب الإسلامي تمثل معلمًا بارزًا من معالم الوحدة الثقافية والحضارية مع العالم العربي والإسلامي عبر العصور.

وفي هذا البحث نحاول أن نتعرف على ظروف القدس وأحوالها السياسية والحضارية من خلال رحلة القاضي أبي بكر بن العربي الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، حيث يمثل رصده لأحوال القدس خلال هذه الحقبة، مصدرًا مهمًّا لمرحلة متميزة من مراحل حياة القدس العربية والإسلامية، ويسد نقصًا حقيقيًّا عجزت المصادر التاريخية التقليدية عن سده؛ لأنها اهتمت بالظروف السياسية وأغفلت الجوانب الحضارية المختلفة إلا ما ندر. ومع هذه الندرة لا نملك إلا الرجوع إلى كتب الرحلات، بمختلف أنواعها، لتكوين صورة متكاملة عن القدس وتاريخها وحضارتها في حقبها المتعددة.

ولا يقف الأمر عند حد الاستفادة مما رصده الرحالة من ظروف وأحوال حضارية في القدس، بل نقف أيضًا عند جهود هؤلاء العلماء القادمين من الغرب الإسلامي، ونشرهم للعلم والمعرفة في القدس، وتواصلهم مع علمائها، واندماجهم معهم، والأخذ عنهم، ومن ثم الرجوع بإرث حضاري متميز من المشرق لنشره في المغرب والأندلس.

القاضي أبو بكر بن العربي في القدس:

بعد زيارة مصر خرج أبو بكر بن العربي وأبوه منها منطلقَيْن إلىٰ فلسطين، وفي نيّتِهما مواصلة السَّيْر، فواصلا المسير إلى بيت المقْدس، قُبَيْل نهاية سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م، وكانت مقاليد الحكم بيَد السَّلاجقة، وكانوا يعتنقون المذهب السنيّ، ويعملون على نشرِ الوعْي الإسلامي، فأسسوا المدارس، وأسقطوا المكوس، وقربوا

العلماء، فوجد فيها ابن العرَبى بُغيَته من طلب العلم، فبها كثرة من العُلماء، وتنوُّع فى المذاهب، ووفْرة في المدارس، وتعدُّد في الأديان(٧٠).

أولاً: الحركة العلمية في القدس:

وقد بُهر ابن العربى بازدهار الحركة العلمية فى القدس آنذاك، وقد عبر عن ذلك بقوله: "ثم رحلنا عن ديار مصر إلى الشام، وأملنا الإمام، فدخلنا الأرْض المقدَّسة، وبلغنا المسجد الأقصى، فلاح لى بدرُ المعرفة، فاستنرتُ به أزْيد من ثلاثة أعوام... فقُلت لأبى رحمة الله عليه: إن كانت لك نيَّة فى الحج فامض لعزْمِك، فإنِّي لست برائم عن هذه البلدة حتَّى أعلم عِلْمَ مَن فيها، وأجعل ذلك دستورًا للعلم، وسلَّمًا إلى مراقيها، فساعدني حين رأى جِدِّي، وكانت صحبته لي من أعظم أسباب جَدّي.."(٧١).

ونلاحظ من خلال هذا النص مدى تعلق ابن العربى بالقدس وجوها العلمى الذي كان يبحث عنه ليروي غلته، حيث تخلى عن صحبة والده حينما أراد الذهاب إلى الحج، مفضلاً البقاء فى القدس لطلب العلم وإجادة ما يجيده علماؤها من علوم مختلفة.

وفي رحاب المسجد الأقصى كان ابن العربى يقْضِي معظمَ أوقاته، يظلُّ نهارَه فى الدرس والتحصيل، ويبيت ليله فى التهجُّد والعبادة، وحرص على طلب العلم، واستيفاء تحصيله العلمى من شيوخها، فحرص على لقاء جماعة من العُلماء والمحدِّثين الفقهاء الَّذين أخذ عنهم، وتتلمذ على يد شيخه الأندلسي أبي بكر الفهري الطرطوشى (٤٥١-٥٢٠هـ/١٠٥٩-١١٢٥م)، حيث لازمه أكثر من خمس سنوات ما بين القدس والإسكندرية، وسمع منه، وتلقى عنه العديد من العلوم حتى بزغ نجمه، وذاع صيته فى الجدل وعلم الكلام، وأصبحت الأنظار ترنو إليه، واحتل مركزه فى صفوف العلماء، واعترف له الشيوخ بالفضل والمزية(٧٢).

وقد أشار ابن العربى إلى أهمية مجلس الطرطوشى العلمى، وتأثيره عليه وعلى سواه من المترددين على مجالس العالم والمعرفة في القدس آنذاك، فقال عن لقائه به: "فشاهدتُ هديه، وسمعتُ كلامه، فامتلأت عيني وأذني منه..... وانفتح لى به إلى العلم كل باب، ونفعني الله به في العلم والعمل، ويسَّر لي على يديه أعظم أمل،

---

(٧٠) ابن العربي: قانون التأويل، ٤٣٣-٤٣٦. وراجع: سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي، ص ١٩-٢٠.

(٧١) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٣-٤٣٥.

(٧٢) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٥. وراجع: سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي، ص ٢٧.

فاتخذتُ بيت المقدس مباءة، والتزمتُ فيه القراءة، لا أُقبل على دنيا، ولا أُكلِّم إنسيا، نواصل الليل والنهار فيه، وخصوصًا بقبة السلسلة...."(٧٣).

وقد طالت إقامة ابن العربي ببيت المقدس أربعين شهرًا – أي: ما يزيد عن ثلاثة أعوام– حيث وجد القُدس بيئة صالحة للتعلّم والتحصيل، كما وجد بها مدارس للشافعية والحنفيَّة، كما أنَّ الشيوخ والعلماء يعقدون مجالس العلم والمناظرة بين أصحاب المذاهب المتعددة، والمناظرة بين أصحاب الديانات المختلفة، لقد أغراه هذا الجوُّ العلمي في القدس، فأقبل على علوم عصرِه يلتهمُها، فاستوفى علم الكلام، وأصول الفقه، ومسائل الخلاف، الأمر الّذي من أجله اتّخذ قرارَ تأجيل رحلته إلى الحج، رغْم إلحاح والده عليه(٧٤).

المناظرات العلمية في القدس:

أشار ابن العربي أكثر من مرة إلى حضوره التناظر بين الطوائف المختلفة، وتردده على المدارس الموجودة في القدس، وحلقات العلم فيها، من ذلك– مثلاً– قوله: "وحين صليت بالمسجد الأقصى، فاتحة دخولي له، عمدت إلى مدرسة الشافعية بباب الأسباط، فألفيتُ بها جماعة من علمائهم في يوم اجتماعهم للمناظرة عند شيخهم القاضي الرشيد يحي....وهم يتناظرون على عادتهم....."(٧٥)، وكذلك قوله: "وأدخل إلى مدارس الحنفية والشافعية في كل يوم لحضور التناظر بين الطوائف، لا تلهينا تجارة، ولا تشغلنا صلة رحم، ولا تقطعنا مواصلة ولي، وتقاة عدو"(٧٦).

(٧٣) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٥. د. إحسان عباس: "رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل"–مجلة الأبحاث– ج ٢–٣، بيروت، ١٩٦٨م، ص٨٠–٨١. وقبة السلسلة: قبة صغيرة تقع إلى شرق مسجد الصخرة، وهي على مثاله. انظر: معجم البلدان لياقوت الحموي– دار إحياء التراث العربي– بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ١٧٠/٤. مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل–منشورات المطبعة الحيدرية–النجف، ١٩٦٨ م، ٢/ ١٨.

(٧٤) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٥–٤٣٨.

(٧٥) المصدر السابق، ص ٤٣٣–٤٣٤.

(٧٦) انظر: د. إحسان عباس: "رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل"، ص ٨١. ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٦.

ومن جملة المناظرين الذين أشار إليهم في مدرسة الشافعية التي تقع بباب الأسباط، شيخ الشافعية بالمسجد الأقصى أبو الفضل عطاء المقدسي(٧٧)، والقاضي يحيى بن علي المعروف بابن الصائغ، وقاضي القضاة مجلي بن جميع المخزومي(٧٨).

ويعود الفضل إلى ابن العربي في إشارته إلى المدرسة الحنفية التي تدعى بمدرسة أبي عقبة ببيت المقدس، والتي لم نسمع بوجودها من مصدر آخر(٧٩)، فقد ذكرها في ثلاثة من كتبه(٨٠)، وأشار إلى المناظرات التي كانت تجري فيها، وأن شيخها كان يدعى القاضي أبو الفضل الريحاني(٨١)، وأورد مناظرة جرت أمامه بين هذا القاضي وعالم غريب دخل إلى المدرسة في أحد أيام الجمع، يدعى الصاغاني(٨٢)، وابن العربي بذلك يوثق لأقدم المعاهد العلمية التي كانت موجودة في القدس قبل احتلال الصليبيين لها، وتدميرهم لتلك المراكز العلمية المهمة.

ويظهر كذلك من كلامه أن القدس كانت مركزًا لنشاط المدارس الإسلامية المختلفة، وملتقى المتناظرين المسلمين وغير المسلمين، فقد ذكر أنه حضر مناظرات لعلماء من ملل مختلفة(٨٣)، كما أشار إلى وجود ثمان وعشرين حلقة لطلب العلم في المسجد الأقصى(٨٤)، وإلى وجود عدد كبير من العلماء الوافدين على المدينة من مختلف أنحاء العالم الإسلامي(٨٥).

كما ناظر هو بنفسه بعض أحبار اليهود، وجرت بينه وبين الباطنية الإسماعيلية مناظرة عظيمة، تحدث عن صعوبتها فقال: "وهي كانت الشدة الرابعة من شدائد

---

(٧٧) انظر: القاضي مجير الدين الحنبلي: الأُنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ١/ ٢٩٨. ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٦.

(٧٨) د. إحسان عباس: "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، بحث سابق، ص ٨٠. ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٤٠.

(٧٩) انظر: كامل جميل العسلي: معاهد العلم في بيت المقدس- جمعية المطابع التعاونية- عمان، ١٩٨١ م، ص ٣١.

(٨٠) انظر: "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، بحث سابق، ص٨٣. ابن العربي: أحكام القرآن، ١/ ١٥٢، وقد ذكرها في هذا الكتاب باسم "مدرسة أبي عتبة" ولعله تصحيف، حيث ذُكرت في بقية المصادر باسم "مدرسة أبي عقبة". ابن العربي: العواصم من القواصم: تحقيق: د. عمار الطالبي- مكتبة دار التراث – القاهرة – د.ت، ص ٤٥. ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٤١.

(٨١) "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، ص ٨٣. ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٩، ٤٤١.

(٨٢) ابن العربي: أحكام القرآن، ١/ ١٥٢. قانون التأويل، ص ٤٤١-٤٤٢.

(٨٣) "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، ص ٦٥، ٨١، ٨٢.

(٨٤) ابن العربي: العواصم من القواصم، ص ٤٥.

(٨٥) "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، ص ٦٥، ٨٢.

عمري التي أنقذني الله منها......"(٨٦)، كما ناظر بعض رجالات الشيعة، وخاض معارك كلامية مع الكرَّامية(٨٧) والمعتزلة وغيرهم، وكانت له الحجة في كل مناظراته، فخرج منها ظافرًا منتصرًا(٨٨).

العلوم والمعارف في القدس:

وكانت العلوم الشائعة في فترة زيارته للقدس هي: علم الكلام، وأصول الفقه، ومسائل الخلاف، حيث يشير إلى اطلاعه عليها هناك(٨٩)، كما يذكر أيضًا أنه اطلع على كتاب المدونة بالطريقة القيروانية، التي تقوم على التنظير والتمثيل، والطريقة العراقية التي تقوم على الاستنباط واستخراج العلل ومعرفة الدليل، وبيّن أن دراسة المدونة- وهي الأصل الثاني للفقه المالكي بعد موطأ مالك- في مدينة القدس، كانت تقوم على الجمع بين هاتين الطريقتين(٩٠).

واهتم ابن العربي بدراسة كتب الحديث في القدس، وأسهم في نقلها إلى المغرب والأندلس، من ذلك مثلًا: كتاب المصباح والداعي إلى الفلاح في حديث رسول الله، تأليف أبي الفتح نصر بن إبراهيم النابلسي المقدسي، توفي سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦- ١٠٩٧م)، الذي سمعه منه بلفظه، وحدّث به أحد تلامذته (علي بن خلف بن ذي النون العبسي)، الذي سمعه بدوره أيضًا عن مؤلفه في القدس(٩١)، واستمرت رواية هذا الكتاب في الغرب الإسلامي لمدة ليست بالقصيرة، حتى وردت

---

(٨٦) ابن العربي: العواصم من القواصم، ص ٤٨.

(٨٧) الكرَّامية: هم أتباع أبي عبد الله محمد بن كرَّام السجستاني (ت ٢٥٥ هـ/ ٨٦٨ م) يوافقون أهل السنة في إثبات الصفات، ولكنهم يبالغون في ذلك إلى حد التشبيه والتجسيم، وكذلك يوافقون السلف في إثبات القدر والقول بالحكمة، ولكنهم يوافقون المعتزلة في وجوب معرفة الله بالعقل. انظر: ابن حزم: الفِصَل في الملل والأهواء والنحل- دار المعرفة- بيروت- ط ٢، ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م، ٤/ ٤٥، ٢٠٤، ٢٠٥.

(٨٨) ابن العربي: العواصم من القواصم، ص ٥٤. وراجع: سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي، ص ٢٣.

(٨٩) "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، ص ٨٢. ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٨.

(٩٠) "رحلة ابن العربي إلى المشرق"، ص ٦٥، ٨٢. ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٨. وانظر: عبد الجليل حسن عبد المهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي- مكتبة الأقصى، ١٩٨٠ م، ص ٣٢.

(٩١) ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٣٤، ٤٤٤. وراجع الحاشية رقم ٥ من ص ٤٤٤.

ضمن ما سمعه ابن خير الإشبيلي في فهرسته عن شيوخه في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي[٩٢]

ويتبين مما سبق أن ابن العربي قضى أكثر من ثلاث سنوات في القدس- كما أشرنا من قبل - رافق فيها الشيخ الطرطوشي في حلقاته العلمية، وزار مدارس القدس، ومعاهدها، ومشايخها، وأخذ العلم عنهم. ومن المرجح أن هذه السنوات الثلاث هي التي تقع بين سنتي ٤٨٦ و ٤٨٩ هـ، لأنه غادر في السنة الأخيرة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، وبعد ذلك رجع مرة ثانية إلى بغداد، حيث لقي فيها أبا بكر الشاشي، وأبا حامد الغزالي، وغيرهما من العلماء والأدباء، ثم غادر إلى مصر، ومنها إلى الأندلس، حيث عاد إليها بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق، وتوفي سنة ٥٤٣ هـ/١١٤٨ م[٩٣].

* * *

ثانياً: المعالم الأثرية في القدس كما شاهدها ابن العربي:

برغْم اشتغال ابن العربي بالدَّرس والتَّحصيل وطلب العلم والمعرفة، والنهل من العطاء الحضاري المتميز لهذه المدينة المقدسة، إلا أنَّه حرَص خلال جولاتِه، على زيارة قبور الأنبياء والصَّالحين، وتسْجيل مشاهداته وانطباعاته، والوقوف على الآثار، وقد سجل لنا في زياراته مشاهد حيةً للعديد من الأماكن الأثرية التي زارها، واهتم اهتمامًا بالغًا بوصف كل ما شاهده، فكان دقيق الوصف، جيد الملاحظة، مستغرق الفكر فيما يشاهده، ويظهر هذا من دقته في حديثه عن الآثار التي استمتع بمشاهدتها، فلم يكن وقوفه أمامها وقوفًا عابرًا، بل وقوف المتأمل المدقق المتريث، فتشعر وكأنه التقط لها صورة فوتوغرافية كاملة المعالم، واضحة المشهد، بحيث لا يغيب عنك شيء من تفاصيلها وجمالها وعظمتها، فكان من أهم هذه المعالم:

- **المسجد الأقصى**: لا شك أنه أكثر الأماكن التي ارتادها ابن العربي، حيث الحلقات العلمية ومجالس العلماء التي هي المطلب الأسمى له في رحلته تلك، ولكن الجديد هنا أنه يمدنا بمعلومات مؤكدة عن مكان هذا المسجد، فيقول: "هذا أمر مستفيض متفق عليه بين الصحابة أن المسجد الأقصى على شرف من الأرض، في سوره

(٩٢) ابن خير الإشبيلي: فهرسة ما رواه عن شيوخه- نشر: فرانشيسكو قديرة إي زيدين، وخليان ريبيرة طراجو- سرقسطة، ١٨٩٣ م، وأعادت نشره في بيروت- دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٩ م، ص ١٥٩.

(٩٣) ابن بشكوال: كتاب الصلة- الدار المصرية للتأليف والترجمة- القاهرة، ١٩٦٦ م، ٢/٥٩١. ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان- تحقيق: د. إحسان عباس- دار صادر- بيروت، ١٩٦٨ م، ٤/ ٢٩٦.

الشرقي باب التوبة والرحمة، يقول الناس إنه الباب الذي أخبر الله عنه بقوله (باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب)، يليه خندق يقال له خندق جهنم، وعليه يُنصب الصراط، وفي ضفة الوادي شرقًا الساهرة، وهي أرض المحشر، فيها مسجد عمر بن الخطاب، صلى به حين افتتحها، وقال: هذه أرض المحشر"(٩٤).

- **قبرُ يُوسف-عليه السلام** – حيث زاره وقضى فيه عدة ليالي، فقال: "لا جرم شاهدت قبره في قبلة قبور آبائه إبراهيم وإسحاق وزوجاتهم في قبلة الحرم الذي فيه هذه القبور، زرناه مرارًا، وذكرنا الله فيه، وبتنا ليالي آمنين عنده والحمد لله"(٩٥)، وقال عنه أيضًا: "شاهدناه سنة سبع وثمانين، وجاورنا فيه أعوامًا وأيامًا آمنين في نعم فاكهين، وعلى الدرس والمناظرة متقابلين، وهو في قرية جَيْرُون(٩٦) التي كانت لإبراهيم الخليل، بينها وبين المسجد الأقصى ستة فراسخ في سفح الجبل الذي كان فيه بيت رامة مُتعبَّد إبراهيم الخليل عليه السلام المشرف على مدائن لوط...."(٩٧).

ولم يكتف ابن العربي بذلك، بل يمضي في جولته الأثرية ليحدثنا عن قبور بقية آل يعقوب، فيقول: "وفي وسط القرية (يقصد قرية جَيْرُون المذكورة آنفًا) بنيان مرصوص من حجارة عظام، سورًا عظيمًا، في داخله مسجد، في الجانب الغربي منه مما يلي القبلة إسحاق (يعني قبر إسحاق عليه السلام)، ويليه في الجانب المذكور إبراهيم الخليل، ويليه في الطرف الجَوَّاني من الجانب الغربي يعقوب على نسبة متماثلة، وفيما يقابلها من الجانب الشرقي قبور أزواجهم على الاعتدال، على كل قبر حجر عظيم واحد، له الطول والعرض والعمق، حسبما بيناه في كتابي ترتيب الرحلة..."(٩٨).

ثم يعود ابن العربي ليحدد بدقة موقع قبر يوسف عليه السلام، ويصف لنا مدى العناية والاهتمام به، حيث كان له قَيِّمٌ مسئول عن صيانته، وكانت له أم تنوب عنه في صيانة القبر إن غاب لأي عارض. ويؤكد على أن هيئة قبر يوسف وشكله الخارجي كهيئة بقية قبور أسرته دون تمييز، فيقول: "وفي الجانب القبلي منه خارج هذا الحرم

(٩٤) ابن العربي: عارضة الأحوذي، ١٣/ ٢٧٧.

(٩٥) ابن العربي: عارضة الأحوذي، ٤/ ٢٧٤.

(٩٦) ذكر ابن العربي في موضع آخر من كتابه أحكام القرآن هذا الاسم على أنه باب من أبواب دمشق، حيث قال عنها: "ولها باب جَيْرُون بن سعد بن عُبادة، وعنده القبة العظيمة والميقاتات لمعرفة الساعات...". انظر: ابن العربي: أحكام القرآن، ٤/ ٣٩٢.

(٩٧) ابن العربي: أحكام القرآن، ٣/ ٧٣-٧٤.

(٩٨) المصدر السابق، ٣/ ٧٤.

قبر يوسف منتبذًا، كان له قيم طرطوشي زَمِنٌ، وله أم تنوب عنه، وهيئة قبر يوسف كهيئة قبورهم، وهذا أصح الأقاويل في موضع قبره....."(٩٩).

- **قبر يونس- عليه السلام** – حيث كان يقع في طريقه من المسجد الأقصى إلى قبر الخليل، وتلقى الكثير من العلم عنده، وقد أشار إلى ذلك فقال: "قصدت قبره مرارًا بقرية جلحون في مسيري من المسجد الأقصى إلى قبر الخليل، وبت فيه، وتقربت إلى الله بمحبته، ودرسنا كثيرًا من العلم عنده...."(١٠٠).
- **باب حطة**: وهو الباب الثامن من أبواب المسجد الأقصى من جهته القبلية، دخله ابن العربي سنة ٤٨٦هـ/١٠٩٢م، فقال: "....هو باب المسجد الثامن، وهو من جهة القبلة معلوم مذكور، دخلته سنة ست وثمانين، وسجدت وخضعت، وقلت لا إله إلا الله، اللهم احطط عني ذنبي واغفر لي، وبقيت فيه أعوامًا، وكل مرة أكرر هذا الكلام، وأكثر من الدخول والقول: سمعنا وأطعنا، والحمد لله رب العالمين"(١٠١).
- **مسجد عمر بن الخطاب**: زاره ابن العربي وصلى فيه، وقال عنه: "روي عن عمر بن الخطاب لما فتح بيت المقدس، وقف على الطور بشرقيه وقال: هذه أرض المحشر، واتخذ به مسجدًا، رأيته وصليت فيه ما لا أحصي، بينه وبين المسجد وادٍ يُسمى وادي جهنم، وللمسجد باب يقال له باب التوبة والرحمة، يقال إنه الباب الذي باطنه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب..."(١٠٢).
- **المائدة بطور زيتا**: تعد صخرة المائدة من أروع الأماكن الأثرية التي وصفها ابن العربي في جولاته الأثرية، حيث قال عنها: "شاهَدْتُ المَائدةَ بطُورِ زَيْتَا(١٠٣) مِرارًا، وأكَلْتُ عَلَيْها لَيْلًا ونَهارًا، وذَكَرْتُ اللَّهَ – سُبْحانَهُ – فِيهَا سِرًّا وجِهارًا، وكَانَ ارْتِفاعُها أَسْفَلَ مِنَ القَامَةِ بِنَحْوِ الشِّبْرِ، وكانَ لَهَا دَرَجَتَانِ قَلْبِيًّا وجَوْفِيًّا، وكانَتْ صَخْرَةً صَلْداءَ لا تُؤَثِّرُ فِيها المَعاوِلُ، فَكانَ النَّاسُ يَقُولُونَ: مُسِخَتْ صَخْرَةً

---

(٩٩) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(١٠٠) ابن العربي: أحكام القرآن، ٢/ ١٩٧.

(١٠١) ابن العربي: عارضة الأحوذي، ١١/ ٧٨.

(١٠٢) ابن العربي: عارضة الأحوذي، ٩/ ٤٦، ١٣/ ٢٧٧.

(١٠٣) طور زيتا: هو جبل الطور المقدسي، ويُعرف في اصطلاح اليوم بجبل الزيتون، وتقع عليه قرية الطور، وهو إلى الشرق من قبة السلسلة الواقعة إلى شرق مسجد الصخرة، واسمه مأخوذ من شجر الزيتون الذي كان موجودًا عليه بكثرة. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٤/ ١٧٠. ابن العربي: أحكام القرآن، ٢/ ٤. مجير الدين الحنبلي: الأُنس الجليل في تاريخ القدس والخليل، ٢/ ١٨.

إذ مُسِخ أربابُها قِرَدَةً وخنازير، والذي عندي أنَّها كانت في الأصل صخرة قُطِعَت من الأرض محلًا للمائدة النازلة من السماء، وكل ما حولها حجارة مثلها، وكان ما حولها محفوفًا بقصور، وقد نُحِتَ في ذلك الحجر الصلد بيوت، أبوابها منها، ومجالسها منها مقطوعة فيها، وحناياها في جوانبها، وبيوت خدمتها قد صُوِّرت من الحجر، كما تُصَوَّرُ من الطين والخشب، فإذا دخلت في قصر من قصورها، ورددت الباب، وجعلت من ورائه صخرة كثمن درهم، لم يفتحه أهل الأرض للصوقه بالأرض، فإذا هبَّت الريحُ وحثت تحته التراب، لم يُفتح إلا بعد صبِّ الماء تحته والإكثار منه، حتى يسيل بالتراب وينفرج منعرجُ الباب، وقد مات بها قومٌ بهذه العلة، وقد كنت أخلو فيها كثيرًا للدرس، ولكني كنت في كل حين أكنسُ حول الباب مخافة مما جرى لغيري فيها، وقد شرحت أمرها في كتاب "ترتيب الرحلة" بأكثر من هذا"(١٠٤).

- **محراب داود عليه السلام**: وصف ابن العربي أيضًا محراب داود-عليه السلام- بالدقة المعهودة عنه فقال: "شاهدت محراب داود - عليه السلام - في بيت المقدس بناءً عظيمًا من حجارة صلدة لا تؤثر فيها المعاول، طولُ الحجر خمسون ذراعًا، وعرضه ثلاثة عشر ذراعًا، وكلما قام بناؤه صغرت حجارته، ويُرى له ثلاثة أسوار؛ لأنَّه في السحاب أيام الشتاء كلها لا يظهر لارتفاع موضعه وارتفاعه في نفسه، له باب صغير، ومدرجة عريضة، وفيه الدورُ والمساكن، وفي أعلاه المسجد، وفيه كوَّة شرقية إلى المسجد الأقصى في قدر الباب... وليس لأحد في هدمه حيلة"(١٠٥).

- **مقارنة بين حال أهل القدس وأهل الأندلس وموقفهم من الثورات**:

خلال الجولة الأثرية لابن العربي، في ربوع القدس، تثير انتباهه بعض المواقف التى تفرض عليه المقارنة بين أهل بلده الأندلسيين وأهل القدس، وموقفهم من الثورات والاضطرابات التى تحدث بين الحين والآخر، فيصف مشهدًا لثائر على واليه، ويقارن بين حال أهل القدس وموقفهم من الثورة، وحال أهل الأندلس وموقفهم من هذه الفتنة لو حدثت في بلادهم، فيقول: "ورأيت فيه - أي: محراب داود عليه السلام- غريبة الدهر، وذلك أنَّ ثائرًا ثار به على واليه، وامتنع فيه بالقوت، فحاصره، وحاول قتاله بالنشاب مدة، والبلدُ على صغره مستمرٌ على حاله، ما أغلقت لهذه الفتنة سوق، ولا سار إليها من العامة بشرٌ، ولا برز للحال من المسجد الأقصى معتكف، ولا انقطعت مناظرة، ولا بطل التدريس، وإنما كانت العسكرية قد تفرقت فرقتين يقتتلون، وليس عند سائر الناس لذلك حركة، ولو كان بعض هذا في بلادنا لاضطرمت نار

---

(١٠٤) ابن العربي: أحكام القرآن، ٢/ ٤-٥.

(١٠٥) المصدر السابق، ٤/ ٦.

الحَرْب فِي البَعِيدِ والقَرِيب، ولانْقَطَعَت المَعَايِش، وغُلِّقَت الدَّكَاكِين، وبَطَلَ التَّعامُلُ لكَثْرَةِ فُضولنا وقِلَّةِ فُضولِهِم"(١٠٦).

- **وصفه لنساء نابلس**: تجوَّل ابن العربي في ربوع القدس وشرق الأردن، فزار أكثَرَ من ألفِ قريةٍ ومدينة، منها **مدينة نابلس**، ووصف نساءَها قائلاً: "ولقد دخلْت نَيِّفًا على ألفِ قَرْيَةٍ من بَرِيَّةٍ، فمَا رأيت نِسَاءً أصْوَنَ عِيالاً، ولا أعفَّ نِساءً من نساءِ نابُلُسَ... فإنِّي أقَمْت فِيها أشْهُرًا، فمَا رأيْت امْرَأَةً فِي طَرِيقٍ نهارًا، إلاَّ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فإنَّهُنَّ يَخرُجْنَ إليْها حتَّى يَمْتَلِئَ المَسْجِدُ مِنْهُنَّ، فإذا قُضِيَتِ الصَّلاةُ، وانْقَلَبْنَ إلى مَنَازِلِهِنَّ، لم تَقَعْ عيْني على واحِدَةٍ مِنْهُم إلى الجُمُعَةِ الأُخْرَى، وسائرُ القُرَى تَرَى نِساؤُها مُتَبرِّجاتٍ بزِينةٍ وعُطْلَةٍ(١٠٧)، مُتَفرِّقاتٍ في كُلِّ فِتْنَةٍ وعُضْلَةٍ(١٠٨)، وقدْ رَأيْت بالمَسْجِدِ الأقْصَى عفائفَ ما خَرَجْنَ منْ مُعْتَكَفِهِنَّ حتَّى استُشْهِدْنَ فِيه"(١٠٩).

* * *

كلمة ختامية:

لقد انشغل القاضي أبو بكر بن العربي في القدس بطلب العلم والمعرفة، والنهل من العطاء الحضاري المتميز لهذه المدينة المقدسة، واضعًا نصب عينيه تدوين مشاهداته وانطباعاته وملاحظاته بدقة متناهية، فلم يترك شيئًا مما حدث له أو رآه إلا وسجله بعناية، مما أعطى مشاهداته وانطباعاته قيمة تاريخية وحضارية مهمة، فأصبحت رحلته إلى القدس سجلاً حافلاً بالعديد من المعطيات العلمية والثقافية والأثرية في آن واحد، تكشف لنا بوضوح عن التطور العلمي والثقافي لتلكم المدينة التاريخية التليدة، وتمكن المشتغلين بالآثار من الوقوف على التطور الأثري للعديد من المنشآت في القدس، وما أُدخل عليها من تعديلات وترميمات، كما تكشف لنا عما ازدانت به المدينة من أساطين العلم وجهابذته، خلال هذه الفترة من تاريخ القدس، في العصر الوسيط.

ومن الجدير بالملاحظة أن رحلة ابن العربي تعد رواية شاهد عيان للأحداث التي جاءت فيها، وشهادة العيان هي قمة ما يصبو إليه المؤرخ لتسجيل الروايات التاريخية، وقد دون خلال هذه الرحلة الكثير من المعلومات التي تعد وثائق من الدرجة الأولى، لما تميزت به هذا الرحالة من دقة الملاحظة، وصريح العبارة، وسلاسة

---

(١٠٦) السابق، ٤/ ٧.

(١٠٧) عطلة: عارية من الزينة.

(١٠٨) عضلة: شجرة تشبه الدفلي.

(١٠٩) ابن العربي: أحكام القرآن، ٣/ ٥٦٩.

الأسلوب، فكما كان فقيهًا ومفسرًا، كان أيضًا أديبًا يمتلك ناصية البيان واللغة، إذ إنه اعتمد أسلوبًا مرنًا أثبت فيه تمكنه من آليات الرصد والتوصيف، فلم يدع تفصيلاً بسيطًا يغيب عنه، ولم يغفل شيئًا مما وقعت عليه عينه، فكانت رحلته من المصادر الأساسية لتاريخ كل مدينة أو قرية مر بها، كما تعد مصدرًا مهمًّا للباحثين في مجالات التاريخ والاجتماع، والحضارة الإسلامية، خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين.



قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصـــادر:

*- ابن الأبَّار (أبو بكر محمد بن عبد الله، ت ٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠م):

- المعجم في أصحاب القاضي أبي على الصدفي-سلسلة المكتبة الأندلسية (٧)-دار الكاتب العربي للطباعة والنشر (الهيئة المصرية العامة للكتاب حاليًا)-القاهرة-١٣٨٧ هـ/ ١٩٦٧ م.

*- ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك، ت ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م):

- الصلـــة- الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة - سلسلة المكتبة الأندلسية (٤)، ١٩٦٦ م.

*- ابن تغري بردي (جمال الدين يوسف الأتابكي، ت ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩ م):

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة - المؤسسة المصرية للترجمة والنشر- القاهرة - (د. ت).

*- ابن حزم الظاهري (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد، ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م):

- الفصل في الملل والأهواء والنحل - دار المعرفة- بيروت - ط ٢، ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥ م.

*- الحموي (أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م):

- معجم البلدان -دار إحياء التراث العربي -بيروت، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.

*- ابن خَلْدُون (عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م):

- المقدمة- تحقيق وتعليق: د. على عبد الواحد وافى - مكتبة الأسرة - القاهرة - ٢٠٠٦ م.

*- ابن خلِّكَان (أبو العباس أحمد بن محمد، ت ٦٨١ هـ/ ١٢٨٢ م):

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان - تحقيق: د. إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت - ١٩٦٨ م.

*- ابن خيـر الإشبيلي (أبو بكر محمد بن خـير بن عمر بن خليفة الأمـوي، ت ٥٧٥ هـ/ ١١٧٩ م):

- فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف - وقف على نسخها وطبعها ومقابلتها على أصل محفوظ في خزانة الإسكوريال الشيخ/ فرانشسكة قدارة زيدين، وتلميذه/ خليان ربارة طرَّاغوه - سلسلة ذخائر التراث العربي - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط٢ منقحة ومنقطة، ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م.

*- الضبي (أحمد بن يحي، ت ٥٩٩ هـ/ ١٢٠٢ م):

– بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس – دار الكاتب العربي (الهيئة المصرية العامة للكتاب حاليًا) – القاهرة – سلسلة المكتبة الأندلسية(٦) – ١٩٦٧ م.

*- ابن العربي(أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد الإشبيلي،ت٥٤٣هـ/١١٤٩م):

– قانون التأويل- تحقيق: محمد السليماني- منشورات دار القبلة للثقافة الإسلامية بجدة، ومؤسسة علوم القرآن ببيروت- ط١، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.

– أحكام القرآن – تحقيق: محمد عبد القادر عطا – دار الكتب العلمية – بيروت- ط٣، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م.

– العواصم من القواصم – تحقيق: د. عمار الطالبي – مكتبة دار التراث – القاهرة – د.ت.

– عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١، ١٩٩٥ م.

– شواهد الجلة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان – تحقيق: د. محمد يعلى – ضمن كتاب: ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي (كتاب الأنساب لابن عبد الحليم ق ٨ هـ/ ١٤ م – كتاب مفاخر البربر لمؤلف مجهول – كتاب شواهد الجلة لابن العربي ٥٤٣ هـ/ ١١٤٩ م)- سلسلة المصادر الأندلسية (٢٠)- المجلس الأعلى للأبحاث العلمية- الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي- مدريد- ١٩٩٦ م.

*- مجيرالدين الحنبلي(أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد العليمي،ت٩٢٧هـ/١٥٢١م):

– الأنس الجليل في تاريخ القدس والخليل – منشورات المطبعة الحيدرية – النجف، ١٩٦٨ م.

*- المَقَّرى (أبو العباس أحمد بن محمد، ت ١٠٤١ هـ/ ١٦٣٢ م):

– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب- تحقيق: د. إحسان عباس- دار صادر – بيروت- ط ١، ١٩٦٨ م.

*- ابن منظور(أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري، ت٧١١هـ/ ١٣١١م):

– لسان العرب – دار صادر – بيروت – ١٩٥٥ م.

ثانيًا: المراجع العربية والمترجمة:

*- د. أحمد رمضان أحمد:

– الرحلة والرحالة المسلمون – دار البيان العربي- جدة، د. ت

*- أغناطيوس كراتشكوفسكي:

– تاريخ الأدب الجغرافي العربي – ترجمة: د. صلاح الدين هاشم- لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة، ١٩٦٣م.

*- حسني محمود حسين:

– أدب الرحلة عند العرب – دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت – ط٢ مزيدة ومنقحة، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.

*- د. حسين مؤنس:

– الجغرافية والجغرافيون في الأندلس – منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم- مدريد، ١٩٨٦ م.

*- حسين محمد فهيم:

– أدب الرحلات- المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب- الكويت، ١٩٨٩م.

*- زكي محمد حسن:

– الرحالة المسلمون في العصور الوسطى-دار الرائد العربي- بيروت، ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م.

*- سعيد أعراب:

– مع القاضي أبي بكر بن العربي – دار الغرب الإسلامي – بيروت- ط١، ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧ م.

*- عبد الجليل حسن عبد المهدي:

– الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي – مكتبة الأقصى- ١٩٨٠ م.

*- كامل جميل العسلي:

– معاهد العلم في بيت المقدس – جمعية المطابع التعاونية- عمّان، ١٩٨١م.

ثالثًا: الدوريات:

*- د. إحسان عباس:

– "رحلة ابن العربي إلى المشرق كما صورها قانون التأويل" – مجلة الأبحاث (ج ٢-٣)- بيروت، ١٩٦٨ م.

*- محمد أحمد العقيلي:

– "قبيلة بني شعبة" – مجلة العرب (ج ١١-١٢)- دار اليمامة – الرياض، ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م.

الإسلام وتنوع الهوية دراسة في الأبعاد الاجتماعية والثقافية والسياسية
ـ الأندلس نموذجاً ـ

د. عبير زكريا سليمان بيومي (*)

الهويـــة الأندلســية :

من المعروف أن الهوية هي مجموعة من الخصائص والصفات والمميزات التي تشكل شعباً أو مجتمعاً بعينه وتميزه عن باقي الشعوب أو المجتمعات، والهوية الأندلسية بدأت مع دخول المسلمين إلى شبه الجزيرة الأيبيرية وتسميتهم لها بالأندلس، وظلت باقية إلى الآن على الرغم من زوال الحكم الإسلامي من الأندلس، لتغلغلها في نفوس أتباعها مع اختلاف عروقهم وأصولهم وماضيهم، لأنهم عاشوا حاضراً مشتركاً وحلموا بمستقبل واحد[1]. ومن هنا جاءت القومية التاريخية الأندلسية التي تجسدت من خلال الخصوصية التي سعى إليها الأندلسيون واستطاعوا تحقيقها.

وهذا البحث يحاول إلقاء الضوء على العوامل التي ساعدتهم على تحقيق هذه الهوية، والمعوقات التي واجهتهم وكيف استطاعوا التغلب عليها، أو التأقلم معها قدر الإمكان، حتى وصلوا في نهاية الأمر إلى هوية تتحدى كثير من الظروف وأكدت حرصهم على البقاء، من خلال العديد من المنظمات والجمعيات والأحزاب التي أصبحت جرسا يدق باسم الأندلس.

الإسلام والهوية السياسية للأندلس

على الرغم من أن جل الفتوحات الإسلامية في الشرق والغرب، تمت في عصر الخلافة الأموية وهو أمر لا يستطيع أحد إنكاره عليها، إلا أن الحكومة الأموية لم تسع لترسيخ قواعد الإسلام في الأقاليم المفتوحة، ولم تحدد سياسة بعينها تجاه هذه الأقاليم، التي لم تنل منها اهتماماً، وتركت ذلك للولاة الذين أعطتهم قدراً من الحرية في إدارة شئون أقاليمهم وحل مشكلاتها مقابل مبلغاً من المال يرسله الولاة إلى الخلافة. وهذا ما حدث في الأندلس بالفعل، حيث وجد الوالي نفسه

(*) مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية كلية الآداب ـ جامعة سوهاج

أمام مجتمع متعدد الديانات والهويات والأجناس، وكان عليه أن يؤلف هذا المجتمع حتى يستطيع أن يحكم البلاد بشكل آمن مستقر. وكانت مهمة استتباب الأمن وتحقيق الاستقرار مهمة صعبة للغاية، نتيجة للصراعات السياسية التي عاشها الأندلس في ذلك الوقت، متخذة شكلاً عصبياً أو عنصرياً أو كلاهما معاً، وهي في الحقيقة طمعاً في السيادة والسلطة بما تقدمه من مميزات اقتصادية واجتماعية. ولم تكن هذه هي المشكلة الوحيدة التي كانت تطفو على السطح في الأندلس، بل هناك مشكلات اقتصادية برزت في تعدد مسئوليات الوالي ومنها مسؤوليته حول الإنفاق على إقليمه من واردات هذا الإقليم، وإرساله قدر من المال للخلافة سنوياً[٢]، كما كان عليه أن يقوم بإنشاء مدن ومساجد ومؤسسات دينية ؛ كمراكز ثقافية لنشر الدين الإسلامي وترسيخ تعاليمه، وكذلك كان عليه أيضاً أن ينفق على الجيش لاستكمال مهمة الجهاد وراء جبال ألبرت، والتوغل في القارة الأوروبية الذي لم يتوقف إلا بعد هزيمة موقعة بلاط الشهداء (١١٤هـ /٧٣٢م).

وقد حاول الولاة، بإمكانياتهم الضعيفة، تحقيق التوازن بين كل هذه الأمور و تحدي المشكلات، والحقيقة أنهم لم يجدوا عناء في إنجاز مهمتهم الأساسية الممثلة في نشر الدين الإسلامي، حيث إنهم باحترامهم للعهود والمواثيق، مثل اتفاقية أو معاهدة تدمير التي عقدت في شرق الأندلس، بين عبد العزيز بن موسى بن نصير وتودمير حاكم هذا الإقليم، ظلت موضع احترام من المسلمين[٣]، كما أنهم بتسامحهم مع أهل الذمة وبترك الحرية لهم في كل أمورهم الحياتية، قد قدموا نموذجاً طيباً دفع كثيرين للدخول في الدين الإسلامي. إضافة إلى الدور الذي لعبه الفقهاء والعلماء في نشر الإسلام، كذلك تبني الولاة فكرة الجهاد والحفاظ على كيان الدولة الجديدة، وتتبع القوط إلى الشمال، وكلها أمور رسخت قواعد الإسلام في الأندلس من جهة، ونالت إعجاب الأسبان الذين تكالبوا على الدين الإسلامي من جهة أخرى.

ولكن الصراعات المستمرة في الأندلس بين عرب الشام وعرب الحجاز، وبين العرب والبربر، وبين عنصري العرب القيسية واليمنية[٤]، كلها أمور أضعفت من الكيان السياسي الجديد وعرقلت مسيرة الولاة نحو تحقيق الهوية السياسية في الأندلس، خاصة و أن الولاة أنفسهم وقعوا فريسة لهذه الصراعات التي اشتركوا فيها حفاظاً على مصالحهم السياسية.

وهكذا فإن الاضطرابات السياسية التي عاشتها الأندلس كانت في حاجة إلى تغيير جذري ينهي هذه الصراعات، ويحقق العدل والمساواة، خاصة وأن الشرق شهد نهاية الخلافة الأموية، وقيام الدولة العباسية وانشغالها بتوطيد أركانها وتتبع الأمويين للقضاء عليهم.

وكان من الطبيعي أن يمر الأندلس بهذه الفترة التي تعتبر مرحلة انتقالية بين حكومات ولت بأنظمتها ومعتقداتها وتوجهاتها وثقافتها، وبين الحكم الإسلامي الذي أحدث تغييراً جذرياً في كل ذلك بما قدمه من إصلاحات وتغيرات في كل جوانب الحياة. وإذا كان الاضطراب السياسي الذي عاشته الأندلس في عصر الولاة سبباً رئيسياً في نهاية هذا العصر فلم تكن بمنأى عن عبد الرحمن بن معاوية الذي فر من المشرق بعد انهيار الخلافة الأموية[٥]، وسار في رحلة طويلة حتى أقام في المغرب الأقصى يتتبع ويراقب شئون الأندلس، ويتعرف على أحوالها السياسية عن كثب، ومعه بقايا البيت الأموي ومواليه الذين عبروا معه إلى الأندلس حيث هزم بهم الولاة، وأقام حكماً جديداً مستنداً فيه إلى مبادئ الحكم الإسلامي في إرساء العدل والمساواة والتسامح مع الآخر، وترك الحريات الدينية ما لم تتعرض للكيان السياسي. وبرغم عدائه للعباسيين، الذين قضوا على دولة آبائه وأجداده، إلا أنه لم يتخذ لنفسه لقب خليفة، ولكنه اكتفى بلقب الأمير حفاظاً على وحدة الخلافة الإسلامية، خاصة وأن المسلمين في ذلك الوقت لم يألفوا تعدد الخلافات وربطوا شرعية الحكم بالخلافة التي هي رمز الوحدة السياسية والدينية.

ولعل كثرة ما واجه الأمير عبد الرحمن الداخل(١٣٨ــ١٧٢هــ /٧٥٦ ــ ٧٨٨م) من مشكلات ــ وثورات حاولت الإطاحة بنظامه الجديد معتمدة على القوى الخارجية المناهضة لها ــ جعلته يعتمد على عناصر الموالي والصقالبة والمتطوعين من البربر في الجيش، كما اهتم في توطيد دعائم دولته بتحصين الثغور، وإنشاء قواعد إستراتيجية دفاعية لحماية الشمال. و مما ساعد على تقوية الدولة أن سكان الثغور، والمنضمين إليهم لحمايتها، أنشأوا الأربطة والحصون[٦]، وتهيئوا للجهاد ضد القوى الخارجية. كما أنه اتخذ سياسة الدفاع والسلم ولم يقم بالهجوم على الأسبان في الشمال[٧] لانشغاله بتقوية دولته داخلياً.

واستطاع بما امتلك من قدرات سياسية ومهارات عسكرية أن يتغلب على أغلب هذه المشكلات وإن كلفه ذلك بعض القسوة أو العنف، كما استعان بالرجال المخلصين من بيوت الموالي في ترسيخ قواعد النظام الإداري في الأندلس[٨]، وحمل على كاهله عبء بناء الهوية السياسية بالتخلص من العنصرية والعصبية بالتسامح ونشر العدالة والمساواة وتقوية دولته لمواجهة الصعوبات داخلياً وخارجيا. وإذا كان البعض قد اتهمه بالأنانية أو الميكافيلية والاستبداد بالحكم[٩] ؛ فإن هذا الاستبداد كان أحد العوامل التي حققت الوحدة السياسية، وسارت بالهوية الأندلسية خطوات ناجحة وساهمت في تذويب العنصرية والقضاء عليها.

ويتضح دور المنهج الإسلامي جلياً في بناء الهوية السياسية للأندلس في عهد الأمير هشام الرضا(١٧٢ ١٨٠هــ/٧٨٨ــ٧٩٦م) الذي لم يكن أكبر أبناء عبد

الرحمن سناً، ولكنه تولى الحكم بسبب ورعه وزهده وتدينه ومساندة الفقهاء له، ويرى البعض أن اختياره شكل تذويباً للعنصرية، حيث كان من أم إسبانية وأنه ولد وتربى في الأندلس(١٠)، وهو نوع من تفتيت القومية الإسبانية وقد يجتمع السببان معاً في بناء الهوية السياسية للأندلس، وهو أمر متفق تماماً مع سياسة الأمير عبد الرحمن الداخل في التقرب من عناصر المولدين الذين شكلوا غالبية السكان، كما أن ورعه وتدينه قد أعطاهم قوة، أي أن هوية الدولة اعتمدت على الوحدة السياسية والوازع الديني(١١). ومما ساعد على ذلك أن طبقة الفقهاء بدأت تظهر في الحياة الاجتماعية، وخاصة بعد اتساع انتشار الدين الإسلامي، كطبقة مميزة لدى الطرفين الدولة والشعب وتلعب دوراً فيما بينهما.

وأمام اتهام الحكام الأمويين بالاستئثار بالسلطة، جاء استناد الأمير هشام إلى الفقهاء مما جعله أكثر تقرباً من العامة ومحبباً لديهم(١٢)، حيث كان الفقهاء لهم مكانة اجتماعية مرموقة أهلتهم للعب دور الوساطة بين السلطة والشعب ازدادت بازدياد انتشار الإسلام واتساع تأثيره في نفوس غالبية السكان(١٣).

كما قام الأمير هشام بالسماح للفقهاء وعلماء الإسلام بالرحلة إلى المدينة وأخذ العلم من الإمام مالك(١٤)، وسمح لهم بنشر تعاليم الإمام مالك وبخاصة فيما يتعلق بالتكاتف والوحدة وترك عوامل التمزق والتفرق، وكلها أمور احتاج إليها الأمويون لتوطيد دعائم دولتهم.

وإذا كان الأمير عبد الرحمن الداخل قد انشغل بإخماد الثورات وحل المشكلات السياسية في الداخل، وحقق الإستقلال الياسي عن المشرق، فإن ابنه الأمير هشام قد رفع راية الجهاد ضد الأسبان في الشمال، وهو أمر لقي قبولاً لدى العامة الذين ربطوا بين الجهاد كفرض وواجب ديني وبين قوة الدولة وعظم شخصية الحاكم من جهة، كما أدركوا قيمة الجهاد في بقاء الهوية السياسية للأندلس من جهة أخرى.

والحقيقة أن الأمير عبد الرحمن بذل جهده في إقرار الأمن الداخلي والقضاء على كل الثائرين بكل توجهاتهم؛ ليرسخ قواعد الحكم، وفضل إتباع سياسة السلم والمهادنة مع الأسبان الشماليين ثم قام الأمير هشام من بعده باستكمال بناء الهوية الأندلسية برد الهجوم الإسباني والتحول إلى الهجوم وإرهاب الأسبان في الشمال، والاهتمام بالثغور لحماية هذا البناء(١٥)، واختيار مذهب مخالف لمذهب العباسيين وهو المذهب المالكي، وبالتالي ساعد على بروز الخصوصية للشخصية السياسية للأندلس.

ومع ذلك ظل استئثار الأمويين بالحكم يشكل عقبة نحو استكمال تحقيق الهوية السياسية للأندلس، فالعرب اليمنيون الذين لم يحصلوا على امتيازات من السلطة ـ ولم تكن لهم مشاركات سياسية بالقدر الذي طمعوا فيه، برغم وقوفهم

إلى جوار عبد الرحمن الداخل أملاً في تحقيق هذه الأطماع ـ قاموا بالثورة على النظام الجديد ولكن الأمير عبد الرحمن تصدى لهم، ولكنهم ما لبثوا أن نشطوا مرة أخرى بعد أن وجدوا الفرصة سانحة أمامهم بسبب خلاف أبناء عبد الرحمن على الحكم[١٦]، وتدخلوا لتوسيع الخلاف وإيجاد ثغرة لتحقيق منافعهم[١٧]. وكأن الاستقرار السياسي داخل الأندلس قد ارتبط بوجود زعامات قوية تستطيع أن تتصدى للمنافسات والأطماع السياسية[١٨]، وهو أمر ساهم في زعزعة الهوية السياسية في الأندلس خلال هذه الفترة.

ويبدو أن هناك عقبات واجهت استكمال بناء الهوية السياسية في الأندلس بتولي الأمير الحكم بن هشام (الربضي)(١٨٠ـ٢٠٦هـ/٧٩٦ـ٨٣٢م) الذي شعر بخطر النزاع القائم بين أبناء البيت الأموي المتمثل في خلافه مع أعمامه حول السلطة، واستغلال الأسبان هذه الفرصة في التقدم نحو الجنوب للإستيلاء على مدينة برشلونة(١٨٥هـ/٨٠١م)، وتكرار المحاولة في الاستيلاء على طرطوشة ووشقه (١٩٣هـ/٨٠٩م). وتحول موقفه من الهجوم إلى الدفاع[١٩]، وهو أمر أضعف من مكانته أمام الأندلسيين ؛ الذين اقترن لديهم نجاح سياسة الحاكم أو إخفاقه بقدرته على مواصلة الجهاد، أو بما يحققه من انتصارات في الشمال، للحفاظ على الوجود السياسي لدولتهم. وقد أدرك الأمير الحكم ذلك وحاول تغييره من خلال الحفاظ على الكيان السياسي فقبض على الحُكم بيد من حديد، وتعامل مع الثائرين عليه ـ والرافضين لسياسته وبخاصة الفقهاء بكل قسوة وعنف ـ وقتل عدداً كبيراً منهم سواء في يوم الحفرة (١٨٩هـ/٨٠٥م) أو في ثورة الربض (٢٠٢هـ/٨١٧م) [٢٠].

وبرز خلال هذه المرحلة دور الفقهاء في بناء الهوية السياسية للأندلس متمثلا في تدخلهم في أمور الحُكم كلما استشعروا خروج الحاكم عن الإطار الذي رسموه له وحاول الاستهتار بهم، وهذا ما حدث حين اتجه الفقهاء إلى أبي القاسم القرشي وهو من أبناء البيت الأموي، لتعيينه مكان الحكم، لولا أن اكتشفت هذه المؤامرة[٢١]، مما دفع البعض إلى اتهامهم بأنهم هدفوا إلى إنشاء دولة دينية وانتزاع السلطة[٢٢].

وعلى أية حال فإن الحكم الربضي حاول أن يحافظ على قوة الأندلس، ويتابع التقدم نحو تحقيق الهوية السياسية للأندلس، مستنداً إلى فكرة الجهاد ومحاربة الأسبان، ومحاولة استعادة برشلونة من جهة، وإدخال المذهب المالكي كمذهب رسمي للدولة لتأكيد فكرة الوحدة الدينية والسياسية، واسترضاءً للعامة من جهة أخرى[٢٣].

ومن العوائق التي صادفت استكمال أو استمرار الهوية الأندلسية منذ عصر الأمير هشام تكون بعض الممالك التي تعبر عن الهوية الإسبانية، التي شكلت تحديا للهوية الأندلسية[٢٤]، فقد كانت هذه الممالك تتحين الفرص للتخلص من هذه الهوية أو التغلب عليها، كما حدث من انتهازهم فرصة انشغال الحكم الربضي في الصراع مع عميه، والاستيلاء على مدينة برشلونة، وهي عقبة أخرى واجهت الحكومات الأندلسية. وكان انشغال عبد الرحمن الداخل بتوطيد أركان دولته داخلياً واكتفائه بحماية حدوده هو الذي سنح لهم بتكوين نواة دولتهم، ومهاجمة الأندلس بعد ذلك.

ثم جاء عهد عبد الرحمن الثاني(٢٠٦ ــ ٢٣٨هــ /٨٢٢ ــ٨٥٢ م) ليشكل تقدماً ملحوظاً في بناء الهوية السياسية للأندلس حيث كادت تكتمل أركان هذا البناء السياسي المميز بما قام به من أعمال تمثلت في مواجهة قوات النورمان والتصدي لهم، وتحصين السواحل الأندلسية[٢٥] وإنشاء الأسطول البحري، وتأسيس العديد من القواعد الإستراتيجية البحرية، التي قامت بمهمة كبيرة في الحفاظ على الكيان السياسي بصد هجمات النورمان، والتصدي للأسطول الفاطمي[٢٦]، بل والامتداد نحو الجزائر الشرقية. كما أحرز تقدماً ملحوظاً في حماية الحدود الشمالية للأندلس وتوسيع هذه الحدود، وعين على الثغور قادة أكفاء، وقاد بعض الحملات بنفسه، وحقق انتصارات على الأسبان في موقعة فج جولين (غرنيق)[٢٧].

وحاز الفقهاء في عصره على مكانة مرموقة وزاد عددهم، فاستقطب عبد الملك بن حبيب وأعطاه لقب رئيس الفقهاء المشاورين[٢٨]، ثم تولى هذا المنصب يحي بن يحي الليثي، بعد وفاة عبد الملك بن حبيب الذي أشار على الأمير عبد الرحمن ببناء سور إشبيليه فأخذ برأيه[٢٩]. فكأن تقريبه للفقهاء نوعا من التغلب على معارضة الشعب لمسألة الانفراد بالحكم، على النهج الذي سار عليه الأمويون، والذي شكل عائقاً أمامهم في السعي وراء الخصوصية السياسية والحضارية للأندلس.

وجاء اكتمال نضج الهوية السياسية بالتنظيم الإداري الذي أدخله عبد الرحمن من نظام الوزارات[٣٠]، وتحديد اختصاصات كل وزارة، واجتماعه بهذه الوزاري للإشراف عليها، وأنشأ دار للسكة في الأندلس بعد أن كانوا يتعاملون بدنانير أهل المشرق[٣١] ، وتلك عوامل أسهمت في نضج الهوية السياسية الأندلسية، ولذا استحق أن يطلق عليه أحد بناة الحضارة الإسلامية.

والحقيقة أن الشخصية الأندلسية المستقلة عن الشرق، الحريصة على الوحدة السياسية، قد ظهرت في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني(الأوسط)، سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية، وإن كان قد واجه مشكلة كبيرة تهدف إلى عرقلة مسيرة الهوية السياسية، وهي حركة المستعربين (أو الاستشهاد كما

عرفت) التي ظهرت في عهده، وعبرت عن الشعوبية أو القومية الإسبانية التي ظلت تحتفظ بوجودها أمام هذا السيل الجارف من التغيرات الدينية واللغوية والثقافية التي شهدتها بلاد الأندلس. وإن كان البعض يرى أن القومية الإسبانية ظلت موجودة وتتحين الوقت للظهور[٣٢]. ولكن هذا الحدث أكد من جهة أخرى نجاح خطوات الأندلسيين، حكاماً وشعباً، في تحقيق الهوية السياسية والثقافية للأندلس، بشكل أثار بعض المتعصبين لدينهم والقلة المتمسكة بقوميتها، وأرادوا أن يواجهوا هذا التيار المتنامي الجارف ـ الذي يزداد المنضمون إليه يوماً بعد يوم ـ نحو تحقيق هوية جديدة على الأراضي الأيبيرية[٣٣].

ولم يتهاون الأمير عبد الرحمن في هذه الأمور التي استشعر أنها تهدد الوحدة السياسية والدينية للأندلس، ولم يكن موقفه ذلك تشدداً أو اضطهاداً لأهل الذمة لأنه حاول استتابتهم، ولم يجد أمامه إلا أن يحكم بالشرع في قتل المرتد[٣٤]، ولم يفعل ذلك مع المستعربين فقط، وإنما ورد عند ابن عذارى أنه قتل رجلا ادعى النبوة وتأول على القرآن، والتف حوله العديد من الناس، بشكل هدد الوحدة السياسية وزرع بذور التفرق والتمزق في الدولة، فقتله وتخلص من حركته[٣٥] وهو أمر أقره الفقهاء في أحكامهم وأجمعوا عليه في شتى العصور[٣٦].

وعلى الرغم من نجاح الحكام الأمويين في تحقيق الهوية السياسية الأندلسية والسير بها خطوات واسعة، إلا أن عصر الطوائف الأول ـ الممتد من عصر الأمير محمد وحتى عصر الأمير عبدالله ـ ٢٣٨ ـ ٣٠٠هـ /٨٥٢ ـ ٩١٢ م) قد شهد انتكاسة كبيرة في الهوية السياسية، لما أصاب الأندلس من النزاع والتفرق والخروج على السلطة المركزية. وتعددت الآراء حول تفسير ذلك فاعتبر البعض أن الثوار خرجوا على الدولة بدافعين هما : القومية الإسبانية والحساسيات العربية[٣٧]، بينما رجح البعض الآخر أن هذه الثورة كانت تعبيراً عن ظلم اجتماعي، أو إهمال من الدولة لشئون هذه الطبقة، كما أشار آخرون إلى أن سيادة النظام الإقطاعي في أوروبا دفعهم إلى تحقيق ذلك النموذج[٣٨]، ورأى أحد المستشرقين أن الوحدة السياسية في الأندلس كانت رهينة لقوة الحاكم، وأن ظهور زعيم ضعيف قد أسهم في أن تطفوا على السطح كل العناصر الثائرة[٣٩].

وكان استئثار الأمويين بالحكم وإصرارهم على المركزية قد أديا إلى غضب العديد من العناصر الداخلية، التي بدأت تتجه نحو الانعزال بالسلطة، وساعدهم على ذلك طبيعة المكان الجغرافية[٤٠]، وربما كان ذلك تأثراً بنظام الدويلات المستقلة الذي ظهر في المشرق وحول النظام العباسي من المركزية إلى اللامركزية، أو تأثراً بالنظام الإقطاعي السائد في أوروبا[٤١]. وقد أثرت هذه الأمور سلبياً على مسيرة الهوية السياسية للأندلس، والتي أصبحت في حاجة إلى البناء بعد انفراط عقد

الوحدة وتوقف حركة الجهاد، وتقوي الشمال الإسباني على حساب السلطة الإسلامية، وتدخله في شئون الأندلس الداخلية، بمساندة بعض الحركات الانفصالية أملاً في انهيار هذه الهوية.

والجدير بالذكر أن القومية الإسبانية لم تكن قوية بالقدر الكافي وكان بإمكانها أن تعبر عن نفسها بحركة انفصالية مستقلة مستندة إلى القوى المسيحية الأوروبية، ولكنها لم تستطع أن تقف بمفردها فوقفت إلى جانب حركة عمر بن حفصون(٤٢)، وربما لم تفكر في القضاء على الحكم الإسلامي الذي حقق لها الحرية والعدالة وقضى على الخلافات المذهبية، واقتصرت رغبتها على المشاركة السياسية في بلادها.

على أن الحركات الانفصالية الداخلية أو الشعوبية الأندلسية قد شكلت العامل الأساسي في مساندة الأسبان في تحجيم الهوية الأندلسية من خلال اعتمادها على المساعدة التي كانت تأتي إليها من القوى الإسبانية الكامنة في الشمال، والتي كانت تنتهز هذه الفرص لتفتيت وزعزعة القوة السياسية والاجتماعية والفكرية للأندلس، وبالتالي ساعدت على نمو حركة الاسترداد الإسباني التي لم تشهد نمواً إلا في فترات الضعف السياسي للأندلس(٤٣). ويرى البعض أنها نتجت عن حركة الشعوبية(٤٤)، أي أن الشعوبية سواء في الداخل أو الخارج أو اتحادهما معاً، كانت تهدف إلى القضاء على الهوية الأندلسية.

وحاول الخليفة عبد الرحمن الناصر(٣٠٠ ــ ٣٥٠هــ/٩١٢ ــ ٩٦١ م) التصدي لهذه الظاهرة أملاً في استعادة الهوية السياسية، من جديد بعدما ذبلت وضعفت خلال عصر الطوائف الأول. على أن ذلك لم يكن يعني أن الأمراء السابقين عليه قد وقفوا عاجزين أمام موجة التمزق السياسي التي كادت أن تطيح بدولتهم ولكنهم حاولوا إيقاف هذا التيار، فقد كان للأمير عبد الله (٢٧٥ ــ ٣٠٠هــ/٨٨٨ ــ ٩١٢م) دوراً مميزاً في مواجهة الثائرين الذين كانوا على وشك الاستسلام بعد أن أضعف قواهم(٤٥)، كما ضعفت أقوى الحركات الانفصالية وهي حركة عمر بن حفصون، وخاصة بعد أن أعلن تنصره، وفقد عدداً كبيراً من المنضمين تحت لوائه، واقتصرت ثورته على المستعربين، وأصبحت محاربته واجبة، كما أشار ابن عذارى إلى اعتبار محاربته جهاداً، وتتابعت عليه الصوائف والشواتي(٤٦).

ولعل ذلك قد أكد تغلب الهوية الإسلامية على الهوية القومية الإسبانية التي ربطت الدين المسيحي بالأراضي الأيبيرية، وهي أمور ساعدت على بقاء الهوية السياسية في الأندلس مرتبطة بحكام بني أمية، لأنهم مع استئثارهم بالحكم كانوا يمثلون الشرعية، ويرفعون راية الإسلام، ويشكلون كياناً سياسياً مستقلاً.

أما عن جهود عبد الرحمن الناصر في استعادة الهوية الأندلسية فقد أدى إعلانه العفو والتسامح مع الثائرين إلى استسلام الكثير من دعاة الشعوبية والثائرين ودخولهم في طاعة الدولة، وبخاصة بعد أن قام بحملة استطاع فيها إسقاط العديد من الحصون(٤٧)، وقام كذلك بإعادة إخضاع الأراضي الأندلسية إلى حوزة الدولة ؛ فعادت الوحدة السياسية إلى الأندلس مرة أخرى، كما اتخذ إجراءات عديدة أكدت القوة السياسية للأمويين، وعادت الهوية السياسية للأندلس قوية بعد أن أدرك الأندلسيون ارتباط الهوية السياسية بالحكام الأمويين ؛ فأعلن الخلافة وبايعه بها الخاصة والعامة(٤٨)، وقام بضرب العملة وتحديد وزنها من الذهب والفضة مما أدى إلى تثبيت العملة واستقرار التعامل بها(٤٩)، وأنشأ مدينة الزهراء كعاصمة جديدة لدولته، واتخذ ألقاب الخلفاء فدُعي بأمير المؤمنين الخليفة الناصر(٥٠)، وحقق انتصارات باهرة على الأسبان في الشمال(٥١)، وهي أمور أبهرت الأندلسيين، ودفعتهم للاعتزاز بوطنهم وحاكمهم.

وقد قامت الهوية السياسية في عهد "الناصر" على أساس الحوار مع الغرب من خلال السفارات المتبادلة بينه وبينهم، فأرسل ريسموند أو ربيع بن زيد المستعرب القرطبي إلى حاكم ألمانيا، وخرجت في عهده سفارات عديدة إلى الشمال(٥٢)، وكأنه بلور كل الخطوات التي سار فيها الحكام نحو الهوية السياسية التي نضجت واكتملت على يديه ؛ فظهرت الشخصية السياسية للأندلس بشكل مستقل أسمياً وفعلياً، وظهرت الخلافة بكل مراسمها، وقوى من القواعد العسكرية البحرية لمواجهة الخطر الفاطمي، وطور الأسطول البحري واستولى على سبته وطنجه في البحر المتوسط حماية لحدود دولته ؛ فوصلت في عهده الهوية السياسية إلى أوج عظمتها وازدهارها(٥٣).

ولأن الهوية الثقافية للأندلس قد ارتبط بناؤها بتوفر الأمن والاستقرار السياسي؛ فإن عصر الحكم المستنصر(٣٥٠- ٣٦٦هـ /٩٦١ - ٩٧٦م) شهد بروز عنصر آخر لهذه الهوية وهو البناء الثقافي للمجتمع الأندلسي بعد أن عادت إليه قوته ووحدته من جديد، وهذا لا يعني أن المستنصر لم يقم بأعمال سياسية للحفاظ على المقوم السياسي لهذه الهوية، بل أنه استمر على سياسة أبيه في الدفاع عن الحدود، والحفاظ على الدولة قوية باستكمال الحملات إلى الشمال، واستمرار السفارات بين الأندلس ودول الشمال(٥٤)، والعناية بالسواحل وحمايتها، أي أنه بشكل عام قد حافظ على المقومات السياسية والثقافية للشخصية الأندلسية.

ومع أن الحكم المستنصر قد ارتكب خطأ فادحاً حينما ترك ولاية العهد لابنه الذي كان لا يزال طفلاً، جعل الخلافة مطمعاً لكل العناصر المحيطة به من رجال الدولة، حتى انتهى الأمر بتولية الحاجب المنصور محمد بن أبي

عامر(٣٦٦ـ٣٩٢هـ/ ٩٧٧ ـ ١٠٠٢م) وصياً على الخليفة وحاجباً له [٥٥]، إلا أن مواصلته حركة الجهاد، و تحقيقه انتصارات عديدة على الشمال الإسباني فقام باثنين وخمسين غزوة دافع فيها عن الأراضي الإسلامية، واستمرار السفارات في عهده التي كانت تأتي إلى قرطبة طالبة الود والصداقة[٥٦]، واحتفاظه بلقب الحاجب حفاظاً على شرعية الخلافة[٥٧]، قد كفلت الحفاظ على الوحدة السياسية للأندلس، ودفعت الأندلسيين إلى تقبل حكمه، وقد أدرك ذلك جيداً فنراه يوصي ابنه قبل وفاته بألا يفكر في الانفراد بتدبير دولته، ويحثه على البقاء وفياً لصاحب القصر، الذي كان رمزاً للوحدة السياسية (يقصد الخليفة هشام المؤيد)[٥٨].

ولعل تجرؤ ابنه عبد الرحمن(شنجول)(٣٩٩هـ/١٠٠٩م)على أخذ ولاية العهد من الخليفة، واختراق الشرعية، كانا من أهم أسباب انهيار الدولة وضعف الهوية، أما الموالي المساندين للسلطة الأموية والمخلصين لها، فقد استبعدهم العامريون وحذر المنصور بن أبي عامر أبناءه من التعامل معهم[٥٩]، وكون حزبا بديلاً عرف بالحزب العامري، ولذلك سعى الموالي إلى إعادة الحكم الأموي الممثل للشرعية السياسية، والمحقق لمصالحهم وأطماعهم السياسية ، ودبروا فتنة للقضاء على الدولة العامرية[٦٠]، وانتهت الفتنة التي اشتعلت بين كل الطامعين في السلطة إلى انفراط عقد الوحدة الساسية، وقيام عصر ملوك الطوائف (٤٢٢هـ/١٠٣١م) وعودة الشعوبية التي أسهمت في تواري الهوية الأندلسية سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية أو الثقافية، فتخلى ملوك الطوائف عن الجهاد المهمة الأساسية للحكام في الأندلس، وتخاذلوا عن الدفاع عن أراضيهم، وتحولوا من موقف الهجوم على الشمال إلى الدفاع عن أراضيهم فاضمحلت بذلك هويتهم السياسية[٦١]، وفضلوا الخضوع ودفع الإتاوات عوضاً عن المواجهة العسكرية[٦٢]، وبدلاً من الإتحاد ووحدة التوجه والاتجاه السياسي حاربوا بعضهم البعض ليوسع كل منهم أراضيه على حساب الآخر، ولم يتنبه هؤلاء الحكام للشعوبية الكامنة في طليطلة المسنودة من الشمال الإسباني والتي ظلت عقبة أمام الحكام رافضة للخضوع والاندماج حتى قويت مع الضعف السياسي[٦٣]، فكان أمراً طبيعياً أن تسقط مدينة طليطلة (٤٧٨هـ/١٠٠٨٥م) الذي يعد سقوطها إنذاراً بسقوط الأندلس هوية ودولة [٦٤].

وعبثاً حاول الأندلسيون استعادة دولتهم، وبقاء هويتهم السياسية الإسلامية، فلم يكن أمامهم سوى العبور إلى المغرب ليستنجدوا بيوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين[٦٥]، الذي رفع لواء الإسلام، وتبنى الوحدة السياسية في المغرب، وبدافع من الحفاظ على الهوية الإسلامية فضل الأندلسيون الانضواء تحت لواء المغرب بعد كل ما عرفوه عن شخصية يوسف بن تاشفين : من الحرص على العدالة والجهاد على أن تسقط سلطتهم وينهار الكيان السياسي لدولتهم.

ولعل معركة الزلاقة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) شهدت مشاركات بين الأندلسيين والمغاربة للدفاع عن الأراضي الإسلامية، وقد نجح المرابطون (٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م) في الحفاظ على الكيان السياسي للأندلس بالجهاد والوحدة السياسية، والتمسك بوحدة المذهب المالكي، ورفع شأن الفقهاء والأخذ برأيهم، واستشارتهم في الأمور السياسية لاسترضاء العامة، واستقطاب هذه الفئة الهامة، مع الحرص على المركزية(٦٦)، وكأنهم ساروا على نفس نهج الأمويين، ولكنهم ضموا المغرب والأندلس تحت حكم واحد، واتخذوا المغرب مركزاً لحكم دولتهم.

على أن الأندلسيين لم يقبلوا استمرار الانضواء تحت حكم المرابطين، وحاولوا بعد انتهاء الأزمة استعادة هويتهم خاصة بعد أن اكتملت شخصيتهم السياسية المستقلة حيث لم يعتادوا التبعية سياسياً أو حضاريا ، فقاموا بالعديد من الثورات ضد المرابطين في أخريات حكمهم للأندلس لتوقفهم عن الجهاد – وهو المهمة الأساسية التي تقبلهم الأندلسيون كحكام على بلادهم من أجله بعد أن تهاوت قوتهم العسكرية (٥٣٩هـ/١١٤٧م)(٦٧)، وفتح هذا الباب لقوة جديدة هي قوة الموحدين (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) الذين لم يجدوا مقاومة، وبخاصة أنهم أحيوا الجهاد ونجحوا في استرجاع المدن التي كانت قد سقطت في غرب الأندلس في أيدي الأسبان.

واستطاع الموحدون القضاء على الشعوبية الإسبانية التي وقفت ضدهم في شرق الأندلس تحت زعامة ابن مردنيش، ونجحوا في تحقيق الوحدة السياسية والعسكرية والدينية للأندلس، وساروا على سياسة المرابطين نفسها في الحفاظ على الهوية الأندلسية، بتقريب مجموعة من الفقهاء والعلماء الأندلسيين لهم، والاهتمام بأحوال الرعية، ورعاية العلماء، وعلى الرغم من أنهم أدخلوا المذهب الظاهري كمذهب رسمي للمغرب والأندلس إلي جانب المذهب المالكي ؛ إلا أنهم لم يفرضوه على الرعية أو يضايقوا فقهاء المالكية في الأندلس(٦٨). ولكن سرعان ما انتهى الوجود السياسي للموحدين في الأندلس بعد هزيمة العقاب (٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) ونزاع الموحدين حول السلطة، ففقدوا قدرتهم في الحفاظ على الهوية السياسية بفقدان الدور العسكري.

أما عن الهوية السياسية في عصر بني الأحمر(٦٢٦– ٨٩٧هـ/ ١٢٣٢– ١٤٩٢م) فقد وصف ابن خلدون عصبية الدولة بالقلة أو الضعف(٦٩)، وهو يعني أن الأسرة الحاكمة كانت قليلة العدد، ورأى أن ذلك سبب في ضعفها، وإن كان الصحيح أن الضعف الذي انتاب بني الأحمر لم يكن راجعاً إلى قلة أعدادهم، وإنما إلى ضعف التلاحم بينهم، أو الخلافات التي دارت حول الحكم، وانشغالهم بمصالحهم الشخصية، واستغناءهم عن مساعدات بني مرين خوفاً من أطماعهم في الوصول إلى حكم

الأندلس، واضطرارهم إلى التعاون مع الأسبان أحياناً في استيلائهم على بعض المدن الأندلسية[٧٠]، وكلها أمور أضعفت الكيان السياسي، لأن خوفهم على الحكم كان أكبر من خوفهم على استمرار الكيان السياسي تحت مظلة الإسلام، أو بمعنى آخر أن المصالح السياسية تغلبت على الهوية الإسلامية، فكان اتحاد جبهة الممالك الإسبانية في الشمال يقابله تفرق الحكام المسلمين في الجنوب، وكان للوازع الديني في الشمال دوره في تقويتهم، فنشطت الجماعات العسكرية الدينية متأثرة بنظام الأربطة التي تولت الجهد الإسلامي، بينما ضعف الوازع الديني في الجنوب أمام صراع السلطة والمصالح، فكأن العوامل التي بني عليها الوجود الإسلامي في الأندلس ـ من الوحدة السياسية واتحاد الكلمة والقوة العسكرية وهيمنة الأيدلوجية الدينية ـ تهاوت لدى المسلمين في عصر بني الأحمر، بينما انتقلت بأكملها إلى الشمال، فكان من الطبيعي أن ينتهي الوجود الإسلامي في الأندلس دولة وهوية [٧١].

ولعل وجود عناصر المدجّنين يؤكد أن بناء الهوية الأندلسية كان يحتاج إلى اكتمال الأضلاع الثلاثة، لأن هذه العناصر كانت على العقيدة الإسلامية ومن الجنس الأندلسي، إلا أن وجودهم في المدن التي سقطت تحت يد النصارى، وفقدانهم للهوية السياسية، أديا إلى فقدانهم لهويتهم الثقافية والاجتماعية، فكانوا أقرب في العادات والتقاليد والثقافة واللغة من الأسبان إلى الأندلسيين[٧٢].

هناك نقطة مهمة تتركز في أن الأمويين تحملوا عبء بناء الشخصية الأندلسية، وسعوا لتحقيق الهوية الأندلسية بمزيج من الهوية الدينية والقومية، وبذلوا جهوداً كبيرة وساعدهم الموقع المتطرف على تحقيق ذلك، ولكنهم ارتكبوا العديد من الأخطاء التي أودت بالهوية السياسية للأندلس، بعد مرور حوالي أربعة قرون من انهيار دولتهم، وهي أمور كاد أن يجمع عليها المؤرخون، وعلى رأسها : أنهم لم يستأصلوا شأفة الممالك الإسبانية التي نشأت في الشمال منذ بداية العصر الأموي، ونمت واتحدت مع نهاية دولتهم، إضافة إلى أنهم اعتمدوا على عناصر المولدين في حماية الثغور برغم تذبذب ولائهم للحكومة، كما أن إصرارهم على الاستئثار بالسلطة وحرمانهم للشعب من المشاركة في الحكم جعل نظامهم مسئولا عن عدم وجود شعوب قادرة على الحفاظ على هويتها، وارتباط الحفاظ على الهوية السياسية بالحكومات لا بالشعوب.

التسامح الديني والتعايش وبناء الهوية الاجتماعية:

أولى الكثير من الدراسات اهتماماً بالمجتمع الأندلسي، وتعرضت هذه الدراسات إلى بنيته ومكوناته والعلاقات الاجتماعية بين عناصر سكانه، وتناولت

قضية التعايش والتسامح الديني بين عناصر السكان في الأندلس، من خلال الاستناد إلى كتب النوازل الفقهية التي ألقت الضوء على الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في الأندلس، بشكل كبير وعلى فترات متعددة، ومن خلال الرجوع إلى كتب الحسبة التي أشارت بشكل واضح إلى تلاحم المجتمع الأندلسي بكل عناصره، برغم ما وجهه الفقهاء من تحذيرات، وكذلك من خلال شهادة العديد من المستشرقين المنصفين المعتنين بالدراسات الأندلسية(٧٣).

ولا يهتم هذا البحث بأوضاع أهل الذمة في الأندلس وهم عناصر المستعربين من النصارى واليهود الذين عاشوا في الاندلس تحت مظلة الحكم الإسلامي، ونعموا بكل أوجه التسامح، فالمسلمون منذ أن وطأت أقدامهم شبه الجزيرة الأيبيرية سمحوا لليهود أن يظلوا في المدن التي تم فتحها مع الحاميات العسكرية الإسلامية، رغم أن هذه الجاليات كانت قليلة العدد والخبرة بالأمور العسكرية، وإنما كان قصد الفاتحون من ذلك غرس الاطمئنان في نفوسهم (٧٤).

وبعد أن تمت الفتوحات الإسلامية للأندلس نعم الأسبان بكل الحريات في ممارسة عقائدهم وطقوسهم ومزاولة حياتهم اليومية، والاحتكام إلى قضاتهم، وامتلاك أراضيهم، والتصرف في أحباسهم، والدفن في مقابرهم، والعيش في مدن أو أحياء خاصة بهم، فأمكنهم الاحتفاظ بتقاليدهم، وعاداتهم دون التعرض لهم أو المساس بحقوقهم(٧٥).

وكان في احترام المسلمين للمعاهدات والاتفاقات التي أبرموها مع كل مدينة تم فتحها والالتزام بها، وعدم تعديهم على الملكيات وإتباعهم نظام المزارعة(٧٦)، ونشرهم العدل والمساواة بين السكان، دافعا لكثير من الأسبان للانضمام إلى الدين الإسلامي، وواكب انتشار الإسلام في الأندلس انتشار اللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم، ووسيلة التعرف على تعاليم الدين الإسلامي، والتعامل مع الحكام، والتواصل مع المجتمع الجديد (٧٧).

ولعب الأمويون دوراً رئيسياً في بناء الهوية الاجتماعية بإعلانهم اللغة العربية لغة رسمية للبلاد، وبتعريبهم لغة الكنائس، فساهم ذلك في إقبال الأسبان الذين ظلوا على دينهم على تعلم اللغة العربية، لتأدية طقوسهم ومحاولة للاندماج في المجتمع، وتحقيقاً لمصالحهم الاقتصادية، والحصول على الوظائف الحكومية. وظهر ما سمي باللغة الرومانسية، وهي خليط بين اللغة العربية واللغة اللاتينية، والتي انتشرت وتغلغلت في المجتمع الإسباني، وأصبحت إحدى أهم ميزاته وأبرز سماته الشخصية، الأمر الذي دفع مستعربي طليطلة للاحتفاظ بهذه اللغة بعد سقوط المدينة بعدة قرون(٧٨). كما حرص الأمويون على صبغ الأندلس :"صبغة العربية

التي أطلق عليها التقليد الشامي(٧٩)، ونشأ تقليداً أندلسياً مميزاً امتزجت فيه التقاليد الإسبانية بالتقاليد الشرقية العربية.

ومع الاعتراف بدور الحكام في حركة التعريب ؛ فإن التعريب الحقيقي جاء من خلال احتكاك وتلاحم الشعب الأندلسي نفسه، وكما كان لهذه الحركة دور كبير في المزج بين عناصر السكان، كان لظاهرة الزواج المختلط دور لا يمكن إغفاله في استكمال حركة التعريب، وتحقيق الهوية الاجتماعية للأندلس، وانتشرت هذه الظاهرة بشكل كبير منذ عصر الولاة وحتى عصر بني الأحمر، وبدأت بالولاة وعلى رأسهم عبد العزيز بن موسى بن نصير(٩٥هـ/٧١٤م)، وزادت في عصر الحكام الأمويين، ثم في عصر العامريين، وامتدت إلى الشعب الأندلسي نفسه، خاصة أن الفاتحين كان منهم الأفراد والقبائل(٨٠)، حتى إنه مع بدايات القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي حدث امتزاج تام بين السكان، وتشابكت الأجناس والأنساب، وتكون جنس جديد هو الجنس الأندلسي، وظهر ذلك جلياً في كتب التراجم والنوازل، وغيرها من المصادر التي تعرضت لأسماء الأندلسيين، حيث اختفى الانتساب إلى القبائل والعائلات، وظهر الانتساب إلى المدن الأندلسية أو إلى الأندلس بأسرها، وهو أمر يؤكد الانتساب إلى الوطن وبزوغ الهوية الأندلسية.

وقد اشترك في هذه الظاهرة كل من الشعب والحكام، في محاولة منهم لتذويب العنصرية والتغلب على القومية الإسبانية، وظهر نتيجة لذلك جيل من المولدين مثل : ابن القوطية وابن حفصون وغيرهم(٨١)، وأسرات مولدة ساهمت بدور كبير في الساحة السياسية والاجتماعية والثقافية، منهم كأسرة بني عمروس وأسرة بني قسيّ وهؤلاء تولوا حماية الثغور الأندلسية، وأسرات وصلت إلى الحكم مثل أسرة بنو مردنيش (٨٢).

وقد واجهت موجة التعريب الجارفة نوعاً من الاعتراض من بقايا الممثلين للقومية الإسبانية، الذين استاءوا من انتشار الإسلام والعروبة، وتناقص أعداد الأسبان المتمسكين بدينهم ولغتهم، وانجذاب الجميع نحو الثقافة واللغة العربية، مما هدد اللغة اللاتينية بالانقراض والاختفاء التام من الساحة الأندلسية. وتجسد ذلك الاعتراض في حركة الاستشهاد التي قام بها بعض القساوسة في عهد عبد الرحمن الأوسط، وقد سبقت الإشارة إلى هذه الحركة وما آلت إليه من فشل، نتيجة لتغلب التعايش والتسامح بين السكان.

وإذا كان البعض يرى أنها حركة قومية، واستدل بها على أن القومية الإسبانية ظلت باقية في الأندلس(٨٣)، فالحقيقة أن المسلمين لم يعارضوا حب الوطن واحترموا القوميات، ولكن متطلبات الحكم الإسلامي، ومقتضيات المجتمع الأندلسي، وما أفرزاه من ثقافة جديدة، وما سار عليه المسلمون في المناطق المفتوحة من

سياسة عرفت بنظام المواطنة، قد فرض هوية جديدة تغلبت بدورها على كل الهويات السابقة عليها.

ومن مظاهر التعايش بين سكان الأندلس ؛ مشاركة المسلمين للأسبان في أعيادهم برغم معارضة الفقهاء لذلك(٨٤)، وفي تقويم قرطبة لعريب بن سعد ما يؤكد معرفة المسلمين بأسماء ومواعيد أعياد النصارى الأسبان(٨٥)، كما اتخذت بعض الحكومات الأندلسية من يوم الأحد يوم عطلة رسمية، وهذا دليل على وجود أعداد كبيرة من الأسبان في الوظائف الحكومية(٨٦)، ودليل أيضاً على محاولة الدولة التقرب لهذه العناصر واحترام طقوسهم، كما استخدم الذميون في العديد من الوظائف الدبلوماسية والإدارية والمالية والعسكرية، كسفراء وحرس وأطباء وجباة أموال وعناصر نظامية في الجيش، وغير ذلك(٨٧).

وقد ربط البعض بين القوة السياسية والهوية الاجتماعية، ورأوا أن الشعوبية عبرت عن القومية الإسبانية في فترات الضعف السياسي(٨٨)، وهذا الأمر صحيح إلى حد ما، برغم أنها ظهرت في الأندلس في عهد عبد الرحمن الثاني، وهو عصر قوة واستقرار سياسي. وكذلك الأمر بالنسبة لعصر مجاهد العامري حاكم دانية في عصر ملوك الطوائف، وظهور ابن غرسيه الذي أظهر الشعوبية في عصره وربما يكون ذلك بتشجيع منه لانتمائه لأصول صقلبية (٨٩)، وعلى أي حال فإنها حركات ضيقة المجال لا تضم إلا أعدادا قليلة من السكان، ولا تعبر عن الغالبية العظمى من الأندلسيين، واعتبرها البعض احتجاجاً على تخلي بعض المولدين عن أسمائهم وأصولهم، والانتساب إلى قبائل عربية واتخاذ أسماء عربية، لتحقيق مصالح بعينها، مما أثار البعض(٩٠).

وإذا جاز هذا التفسير في القرون الأولى من الحكم الإسلامي للأندلس أو فترات القوة فقد تفاقمت هذه المشكلة في قرون لاحقة وأصبحت عقبة واجهت الحكام في تحقيق الهوية الأندلسية، فنرى النصارى المعاهدين يتفقون مع ألفونسو المحارب على الدخول إلى الأندلس(٩١)

برغم ما تمتعوا به من تسامح تحت حكم على بن يوسف، بدافع من القومية وتحقيق الهوية الإسبانية، خاصة وأن الدولة المرابطية كانت قد بدأت مرحلة الضعف في هذه الآونة. وكذلك اليهود الذين فتحوا أبواب غرناطة لابن همشك وخانوا الموحدين(٥٥٧هـ/ ١١٦٢م)(٩٢). ومن الواضح أن بعض هذه العناصر لم تشعر بالانتماء الكامل للمجتمع الأندلسي، ولم تكن جزءاً من الهوية الأندلسية في كثير من الأوقات، وخاصة عناصر اليهود التي انضمت إلى الأسبان بعد توالي سقوط المدن الأندلسية(٩٣).

وإذا كانت الصراعات السياسية قد شكلت عائقاً في بناء الهوية الاجتماعية للأندلس، لما نتج عنها من فقدان للأمن والاستقرار، وحدوث أضرار اقتصادية وخسائر بشرية، فإن أصحاب النظرية العنصرية رأوا أن العصبية قد استأصلت شأفتها في عهد عبد الرحمن الناصر، بعد قضائه على الحركات العنصرية وإعادته للوحدة(٩٤)، بينما رأى آخرون أن تفتيت العصبية حدث في عهد المنصور بن أبي عامر، حينما غير التقسيم القبلي للجيش فتكونت عصبية جديدة هي العصبية الأندلسية(٩٥). والحقيقة أن السلطة قامت بمحاولات وجهود للقضاء على العصبية منذ عهد الأمير عبد الرحمن الداخل، الذي اعتمد في جيشه على البربر والصقالبة والأسبان، كما اعتمد في تأسيس النظام الإداري على الموالي(٩٦).

ولا يمكن اعتبار الفتنة القرطبية (٣٩٩–٤٢٢هـ/ ١٠٠٩/١٠٣١م) فتنة عصبية، ولكنها صراعات قوى سياسية لم تؤثر على بناء الهوية الاجتماعية، وإن كانت قد عرقلت مسيرتها نتيجة لحدوث المجاعات والأوبئة، وانتشار السلب والنهب وعدم استقرار الأمن، وكذلك هجرة أعداد كبيرة من سكان قرطبه إلى مدن أخرى(٩٧).

وحسب إجماع المؤرخين، فإن الهوية الاجتماعية والثقافية للأندلس اكتملت في القرن الخامس الهجري حيث ظهر ذلك جلياً في رسالتي ابن حزم والشقندي في الافتخار بالأندلس وعلمائها(٩٨).

وقد حرص الحكام المرابطون والموحدون على الحفاظ على الهوية الأندلسية بأبعادها الاجتماعية والثقافية، ولعل في وصية يوسف بن تاشفين لابنه "علي" بتقبل المحسن من أهل قرطبه والتجاوز عن المسيء(٩٩) ما يؤكد احترام المرابطين للهوية الأندلسية، وخاصة في قرطبه التي استمرت عاصمة للأندلس على مدى أربعة قرون، وكان لأهلها اعتزازاً بأنفسهم وبقوميتهم بل وأحسوا بالتمايز عن غيرهم من الشعوب(١٠٠)، وعاش المرابطون ومن بعدهم الموحدين كطبقة عسكرية شبه منعزلة عن السكان، ولذا لم يحدث في عهدهم تغير في البنية السكانية(١٠١). ولكنهم ساروا على نظام نشر العدل الاجتماعي بين السكان، والاهتمام بالشعب وتفقد أحواله، إضافة إلى تقريب طبقة الفقهاء كرموز دينية حظيت بتقدير واحترام المجتمع، نتيجة سيطرة الأيدلوجية الدينية عليه(١٠٢)، وبذلك ساهموا بشكل كبير في الحفاظ على الهوية الاجتماعية.

أما ما يخص التعايش بين السكان، أو التسامح مع غير المسلمين، وأثره على بناء الهوية الاجتماعية ؛ فهناك اتهامات من بعض المستشرقين، أو من سار على نهجهم، للمرابطين والموحدين باضطهاد هذه العناصر، مستندين إلى بعض المواقف ومنها : ما ذُكر حول مطالبة يوسف بن تاشفين لليهود بالوفاء بالعهد الذي

أخذوه على أنفسهم في عصر الرسول بترك اليهودية واعتناق الإسلام إذا مرت خمسة قرون ولم يظهر المهدي المنتظر[١٠٣]، وورد أن هذه الوثيقة تم العثور عليها في أوراق ابن مسرة المعتزلي، ويبدو أن هذه القصة كان متفقا عليها بين الأمير يوسف بن تاشفين والفقهاء الأندلسيين، لتقليص نفوذ اليهود الذي وصل إلى درجة كبيرة في عصر ملوك الطوئف[١٠٤]. ونجم عن هذه القصة فرض ضريبة على اليهود القاطنين في مدينة الليسانة[١٠٥]، ولو أن يوسف بن تاشفين كان مضطهداً لليهود لطردهم من مدينة الليسانة وهدم المدينة، خاصة وأنهم كانوا يشكلون قوة اقتصادية قد تهدد أمن دولته، ولكنه اكتفى بتقليص نفوذهم.

أما عصر علي بن يوسف (٥٠٠-٥٣٧هـ/١١٠٧-١١٤٢م) فقد شهد تسامحاً كبيراً مع أهل الذمة حتى وصف بصديق النصارى، وقد استخدمهم كحرس خاص، واستخدم اليهود في جباية الأموال كما اعتاد الحكام المسلمون[١٠٦].

وفي عصر الموحدين اتهموا باضطهاد اليهود وإخلاء البلاد منهم، مستدلين على ذلك بهجرة أعداد من اليهود إلى المشرق، إضافة إلى ما ورد في كتاب عبد الواحد المراكشي من أنه لا يوجد ذمي في المغرب والأندلس، بعد قرار الخليفة عبد المؤمن الموحدي بإخراج هذه العناصر من المغرب والأندلس[١٠٧]، وهو أمر مبالغ فيه، لأن الدراسات أثبتت وجود أعداد من اليهود في عصر بني الأحمر[١٠٨]، كما أن اليهود هاجروا إلى المشرق بعد أن فتح لهم صلاح الدين باب العودة إلى فلسطين[١٠٩]. واستمر التسامح في عصر بني الأحمر واحتفظت الهوية الاجتماعية الأندلسية بقوتها برغم وجود أعداد من المدجنين في المدن الساقطة في أيدي الأسبان، وهجرة أعداد كبيرة من السكان خارج الأندلس[١١٠].

الهوية الثقافية ودور الحكام فيها :

كانت الهوية الثقافية في الأندلس إفرازاً طبيعياً للهوية السياسية والاجتماعية، ولعبت السلطة دوراً رئيسياً في ذلك منذ بداية حكمهم للأندلس، وظهر ذلك في حرص الولاة مع قلة الإمكانات المتاحة لهم على بناء المساجد كمؤسسات دينية وعلمية وثقافية حيث كان لها دوراً كبيراً في نشر الإسلام وبناء الشخصية الثقافية للأندلس[١١١].

وكما كان للأمويين دوراً ريادياً في بناء الهوية السياسية والاجتماعية لم يقبلوا بأقل منه في بناء الهوية الثقافية، وبرز ذلك من خلال إجراءات اتخذوها وخطوات ساروا عليها، بدأت بإصرارهم على اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية في مراسيمهم وأوامرهم وقوانينهم ومعاملاتهم وعملتهم فكانت خطوة إيجابية نحو بناء الهوية الاجتماعية والثقافية، بما قدمته من التقريب بين عناصر السكان وتذويب

العنصرية بكل صورها، وحدوث التلاحم الاجتماعي الذي أدى إلى انصهار ثقافي نتج عن وجود لغة للتواصل الاجتماعي والفكري، كما سبقت الإشارة.

ولعل في اتخاذ الأمويين للمذهب المالكي مذهباً رسمياً للدولة، والسعي لنشره في الأندلس، ما رسخ الوحدة الفكرية، ورجح المذهب السني في نفوس الأندلسيين على غيره من المذاهب، وأبعد الفكر الأندلسي عن الأفكار السائدة في الشرق، كالخوارج والمرجئة وغيرهما، ويرجع ذلك لأن المذهب المالكي قد دخل الأندلس مع بدايات تكون الشخصية الأندلسية، فأحبوه واقتنعوا به، وبخاصة لما امتاز به من المرونة والتناسب مع البيئة الأندلسية، فدافعوا عنه وأصروا عليه، ولم يكن المذهب المالكي مذهباً دينياً فحسب بل كان فكراً وأسلوبا حضارياً دفعهم لحب العلم[١١٢]. ولم يكن تمسك الأندلسيين بالمذهب المالكي حجراً على الفكر، ولكن سادت أجواء من الحرية الفكرية في الأندلس، أو ما سمي بوحدة التنوع.

وكان لأمراء بني أميه دوراً كبيراً في العناية بالدراسات الفقهية، وتشجيع الفقهاء بشتى السبل، حتى ظهر أقطاب للمالكية خلال القرن الخامس الهجري من أشهرهم: أبو الوليد الناجي بمؤلفاته الشهيرة، والطرطوشي وابن عبد البر وغيرهم[١١٣]، واستمرت لهذا المذهب الريادة حتى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، رغم ما أصابه من جمود وتوقف الاجتهاد، والاقتصار على المختصرات والشروح التي تخدم الفقهاء في وظائفهم فقط[١١٤].

مع أن الموحدين دخلوا الأندلس بمذهب وفكر مغاير للمذهب المالكي، وسعوا لنشر مذهبهم الظاهري؛ إلا أن غالبية الأندلسيين تمسكوا بالمذهب المالكي لأنه كان يشكل جزءاً من هويتهم. ولأن ثورة الموحدين كانت فكرية مذهبية، فإنهم سعوا للقضاء على الجمود الذي أصاب المذهب المالكي، بالتخلص من كتب الفروع والعودة إلى الأصول، فنهضوا بالمذهب المالكي.

وعلى الرغم من سيادة المذهب المالكي على الفكر والثقافة الأندلسية، إلا أن هذا لا يعني جموداً فكرياً أو حجراً من السلطة على حرية الفكر الأندلسي التي ظلت سائدة على مر العصور. وهذا يعارض ما رآه البعض من خلال تعرض بعض المفكرين من قبل الحكام على فترات متعددة دليلا على جمود الفكر الأندلسي أو معوقاً للهوية الثقافية، فهذا أمر بعيد عن الصواب، حيث ترجع هذه المحن إلى أسباب سياسية وليست فكرية مثل محنة "أبو الوليد بن رشد" الذي اتهم بالإلحاد ثم تم نفيه[١١٥]، أو لما حدث مع ابن مسرة المعتزلي[١١٦] وابن حزم الظاهري[١١٧]. والحقيقة أن السلطة حاولت استرضاء الفقهاء من جهة، وحافظت على الحرية الفكرية من جهة أخرى، فسمح الأمير محمد للفقيه بقيّ بن مخلد أن ينشر فكره ومذهبه الشافعي، وحماه من فقهاء المالكية[١١٨]، ودخلت في عهده رسائل إخوان

الصفا التي جلبها الفيلسوف الكرماني من الشرق[١١٩]. وكذلك المنصور بن أبي عامر الذي أحب الفلسفة، ولكنه حرق بعض كتبها إرضاء للفقهاء[١٢٠]، ووجود تلاميذ لابن مسرة وعلى رأسهم إسماعيل ارعيني في القرن الخامس الهجري، ما يؤكد تسامح السلطة معهم خلال القرن الرابع الهجري. واستمرت هذه المدرسة إلى القرن السادس الهجري، حيث يعد محيي الدين بن العربي، آخر روادها دليلاً آخر على حرية الفكر خلال عصر المرابطين[١٢١]. ولم تكن المحن هي السائدة في الأندلس، ولكنها مواقف فردية لا يمكن الحكم على الحياة الثقافية من خلالها، كما أن هذه الأمور تكررت في شتى المناطق وعلى مر العصور[١٢٢].

وقد شهد عصر الموحدين، الذي واكب عصر النضج والاستقرار للهوية الاجتماعية، نهضة ثقافية وحرية فكرية نتيجة لتعدد المذاهب الدينية، سواء المذهب المالكي أو المذهب الظاهري، أو المذهب الشافعي الذي انتشر في عصر الموحدين لأنه مذهب الإمام الغزالي الذي تتلمذ ابن تومرت على يديه، وقيام المناظرات والمجالس العلمية بين هذه المذاهب، وازدهار ثقافات جديدة كعلوم الجدل والكلام والمنطق والفلسفة، وغيرها من العلوم العقلية[١٢٣].

واستمرت الحرية الفكرية في عصر بني الأحمر، وتنوعت الثقافات مع تزايد الاختلاط بالحضارة الإسبانية، وتوارى الاهتمام بالفلسفة ليحل محلها الفكر الصوفي نتيجة الضغوط السياسية، ومع ذلك ظهر أكبر عدد من العلماء في هذه الفترة وازدهرت العلوم بشكل كبير[١٢٤].

وساهمت السلطة في البناء المادي للحضارة الأندلسية، من خلال الاهتمام بالعمارة التي تمثلت في بناء العواصم (كالزهراء والزاهرة)، والمدن كمراكز ثقافية وعلمية(مثل غرناطة ومرسية وبطليوس وقلعة رباح وغيرها)، وما تحتويه هذه المدن من المساجد الهائلة الأعداد، والتي شكلت مؤسسات تعليمية وتثقيفية في آن واحد وكان لها دور رئيسي في الحركة العلمية، وخاصة مع تأخر ظهور المدارس إلى عصر بني الأحمر[١٢٥]، إضافة إلى القصور والقلاع والحصون والأسوار والأبراج والقناطر والأسواق والقيساريات[١٢٦]، وغيرها من المعالم التي كانت شاهداً على الحضارة الأندلسية[١٢٧].

وقد ظهر الفن المعماري الأندلسي بكل خصوصياته، حيث مزج بين الحضارات القديمة والحضارة الإسلامية، فيشير بعض المؤرخين إلى أن ثمة تشابه بين مسجد قرطبة الذي أسسه عبد الرحمن الداخل، وبين مسجد دمشق الذي أسسه أجداده الأمويون في المشرق[١٢٨] وبين قصر قرطبة والقصر الدمشقي كنوع من التأكيد على التأثير الشامي على الأندلس[١٢٩]، وهناك الكثير من الكتابات التي تؤكد على تأثر المعمار الأندلسي بالمعمار الشامي طوال عصر الأمويين. ومن ناحية

أخرى نجد الخليفة الناصر لا يستنكف أن يوجه سفارة إلى روما لشراء بعض الأعمدة الرومانية المتخلفة من معابدها، ليستفيد بها في تشييد مدينة الزهراء، كما أرسل سفارة أخرى إلى القسطنطينية لشراء بعض التحف والسواري الرومانية القديمة. وفي عهد الخليفة المستنصر أوفد سفارة إلى بيزنطة لإحضار صانع بيزنطي مختص في تنزيل الفسيفساء في زيادة المسجد الجامع بقرطبة[١٣٠].

واعتنى الحكام أيضاً ببناء المكتبات تشجيعاً للعلماء ومشاركة في ازدهار الحياة العلمية. ومن أشهر هذه المكتبات: المكتبة التي أسسها الخليفة الحكم المستنصر، والتي كانت أكبر مكتبة في العصور الوسطى[١٣١]، والمكتبة التي أنشأها المنصور بن أبي عامر في مدينة الزاهرة[١٣٢]، والمكتبات التي أسسها ملوك الطوائف في العديد من المدن[١٣٣]، ومكتبات أشبيلية التي شهدت نهضة علمية في عصر الموحدين[١٣٤]، والمكتبات التي تأسست في عصر بني الأحمر[١٣٥]، ناهيك عن مكتبات القصور والمكتبات الخاصة التي تواجدت في بيوت العلماء والمثقفين، وشملت حتى غير المهتمين بالعلم، الذين حرصوا على اقتناء الكتب كنوع من التفاخر والتباهي، إضافة إلى مكتبات المساجد، وبدأت هذه الظواهر منذ العصر الأموي، ثم صارت سنة متبعة كجزء من حياة الأندلسيين[١٣٦]. ولا يمكن إنكار دور الحكام الأمويين في سيادة المناخ العلمي في الأندلس، وغرس حب العلم في نفوس الأندلسيين حرصاً منهم على تحقيق السيادة السياسية والتميز الحضاري لدولتهم، ثم اعتنى من جاء بعدهم بالعلم إرضاء للعامة، وإتباعا لسنة الحكام السابقين، وأملاً في الوصول لنفس التميز الحضاري الذي حققه الأمويون وأهم من كل ذلك : السعي للخصوصية التي حازها الأندلسيون وحرصوا على بقاءها.

كما قام الحكام الأندلسيون بتشجيع الرحلات العلمية إلى المشرق الإسلامي للإفادة من الحضارة العباسية، وفتحوا أبواب الأندلس للمشارقة، فتوافدوا على الأندلس، وأثروا على الثقافة الأندلسية بشكل كبير، ومن أشهرهم زرياب المغني، وأبو علي القالي اللغوي، وسنان بن ثابت الحراني الطبيب وغيرهم. وكان للرحلات وما نجم عنها من انتشار الكتب المشرقية في الأندلس، وسعي الحكام لجلبها إلى الأندلس[١٣٧]، دور رئيسي في بناء الهوية الثقافية الأندلسية، التي اعتمدت على الشرق في البداية، ثم أضافت إليه، ومن ثم خرجت بإبداعات ميزتها، وبذلك نضجت الشخصية الأندلسية. ولا يمكن إغفال دور الرحلات الدائمة والمستمرة بين المغرب والأندلس، وخاصة تحت حكم المرابطين والموحدين، وانضمامهم تحت كيان سياسي واحد، ووجود مراكز علمية في المغرب، وخاصة مراكش العاصمة السياسية ومركز الإشعاع الحضاري لكلا الدولتين.

ومن الملاحظ أن الدراسات الدينية كان لها مكان الصدارة من عناية واهتمام العلماء، فقاموا بإنتاج مؤلفات خاصة بهم، وبرزت شخصيتهم من خلال استبعاد الأفكار المتطرفة، وإن قرأوا فيها وتعرفوا عليها ونقدوها، وظهر ذلك جلياً في كتاب ابن حزم الفصل في الملل والأهواء والنحل.

وفي مجال الدراسات اللغوية والأدبية نمت الشخصية الأندلسية بشكل مبكر، نتيجة للبيئة السياسية الآمنة المستقرة في أغلب الأحيان، والبيئة الجغرافية ذات الطبيعة الخلابة والمناخ المعتدل، فتميز الشعر الأندلسي بأغراضه، وظهر النثر الأندلسي بصورتيه الموشح والزجل الذي نتج من انصهار الثقافة الأيبيرية والثقافة الإسلامية' كما أنهم كتبوا بالخط الأندلسي الذي ميزهم عن الخط المشرقي(١٣٨).

وساهمت حركة الترجمة، التي قام بها الخليفة عبد الرحمن الناصر، في تطور العلوم العقلية في الأندلس وخاصة علم الطب، وكان للتسامح الديني أهميته في إتمام هذه الحركة، حيث استعان بطبيبه حسداي بن شبيروط وعدد من النصارى واليهود، ومنهم نيقولا الذي أرسله ملك الروم لمعرفته باللغتين الإغريقية واللاتينية، والذين قاموا بترجمة كتاب ديسقوريدس في الطب(١٣٩). واستمرت هذه الحركة في عهد الخليفة الحكم المستنصر الذي حوت مكتبته أعدادا من كتب أجنبية تمت ترجمتها(١٤٠)، وآتت ثمارها في القرن الخامس الهجري حيث اكتملت الشخصية الأندلسية في العلوم، وانتقلت إلى أوروبا عن طريق مدرسة الترجمة في طليطلة(١٤١).

ومع الإقرار التام بفضل السلطة في بناء الهوية الثقافية الأندلسية، فإن العلماء والمثقفين ساندوا السلطة بشكل كبير في بناء الهوية السياسية للأندلس، من خلال ترسيخهم للمذهب المالكي، الذي يخدم أهداف الدولة، ويحقق مطلبها في الوحدة سواء السياسية أو الاجتماعية أو الفكرية.

وقد أشار الدكتور إبراهيم حركات ـــ في سلسلة مقالاته عن الثقافة الأندلسية من النشأة حتى الاستقرار ـــ إلى الدور الذي قام به العلماء في التقريب بين السلطة والمجتمع في مرحلة النشأة(١٤٢)، ودورهم في الدعوة إلى الجهاد والغزو وتحميس الناس له(١٤٣). والحقيقة أنهم استمروا في التقريب بين السلطة والمجتمع حتى في مرحلة النضج، وليس أدل على ذلك من وصية الباجي لولديه بطاعة ولي الأمر، والبعد عن التفرق، وأن الحاكم الظالم أفضل من التعرض للفتن(١٤٤)' كما أن دورهم في الدعوة إلى الجهاد والغزو استمر في كل المراحل والعصور(١٤٥).

وقد برز دور الفقهاء جلياً في الحفاظ على الهوية السياسية للأندلس، حينما استدعوا المرابطين لإنقاذ دولتهم من السقوط نتيجة لضعف ملوك الطوائف، وسعياً للحفاظ على الوحدة السياسية(١٤٦)' وكان تدخلهم في بعض الأمور السياسية،

خلال عصر المرابطين، بهدف الحفاظ على الهوية السياسية الإسلامية لدولة المرابطين سواء في المغرب أو في الأندلس، مثل فتوى ابن رشد ببناء سور مراكش، أو فتواه بتغريب النصارى المعاهدين بعد اشتراكهم في حملة ألفونسو المحارب (٥١٩هـ/ ١١٢٥م)[١٤٧].

وإن كان للأدباء والشعراء الأندلسيين، الذين برزوا خلال عصر ملوك الطوائف[١٤٨]، دور سلبي تجاه السلطة المرابطية التي أهملتهم ولم تجزل لهم العطاء، أو تحشدهم في بلاطها للتملق والالتفاف حول السلطة كما اعتادوا، فأظهروها بشكل الدولة المتخلفة البعيدة عن العلم، واستغلوا نضج هوية الأندلسيين الثقافية في غرس روح القومية والتعالي[١٤٩] وتوارت الهوية الإسلامية وراء الهوية الأندلسية، فكأنها أعادت روح العنصرية التي حاربها الإسلام، ولذا كره الأندلسيون الحكم المرابطي برغم ما قدمه لهم من جهود حافظت على هويتهم السياسية.

ولم تكن العلاقة طيبة دائماً بين السلطة والمثقفين، فقد سبقت الإشارة إلى تعرض العلماء للمحن من قبل السلطة، فنتج عن ذلك نفور عدد كبير منهم من المناصب أو من التقرب للسلطة، وسبقت الإشارة إلى أن هذه المحن لم تكن مسؤولية السلطة دائما، إذ لعبت الوشايات والدسائس دوراً هاماً فيها، كما أن السلطة كانت تساند المثقفين أحياناً إذا تعرضوا لمثل هذه الوشايات أو الدسائس، مثلما حدث مع بَقِيّ بن مخلد الذي كان على المذهب الشافعي، وأنصفه الأمير محمد على الفقهاء، وسمح له بنشر فكره، وكذلك مساندة الخليفة المنصور الموحدي لأبي بكر بن زهر وحمايته من الوشايات[١٥٠]. وإن كان هذا لا يعفي السلطة من الانقلاب على بعض المثقفين أحياناً مثلما حدث مع أبي حفص الهوزني[١٥١] وابن حزم[١٥٢] وأبي الوليد بن رشد[١٥٣].

أما عن علاقة السلطة بالمثقفين والعلماء في عهد بني الأحمر، والتي أسهمت في ضعف الهوية الثقافية الأندلسية فقد كانت مليئة بالتملق من جانب المثقفين للوصول إلى المناصب، وانتشرت الدسائس بين المثقفين نتيجة ضيق فرص العمل بعد سقوط غالبية المدن الأندلسية وسوء الظروف الاقتصادية والاضطرابات السياسية، ولذلك أصاب الحياة الفكرية نوع من الجمود[١٥٤].

وهناك عثرات واجهت الهوية الثقافية في الأندلس وعرقلتها بعض الشيء كالفتن والاضطرابات السياسية والصراعات حول السلطة، مثلما حدث بعد ثورة الربض من حرمان الأندلس من عدد من علمائها ومثقفيها[١٥٥]، فكان لفتنة قرطبة أثر بالغ على المسيرة الثقافية، حيث تعرضت مدينة قرطبة ومنشآتها للتخريب، وخربت مكتبة الخليفة المستنصر، وتم بيع الكتب الموجودة فيها، كما نهبت سائر

مكتبات قرطبة بعدما تعرض الشعب للمجاعة والقحط، وتعرض عدد من العلماء والمثقفين للسجن[١٥٦].

وكان للتمزق السياسي، الذي عاشته الأندلس في عصر ملوك الطوائف، أثره على الحياة الثقافية، فنشأت طبقة من المتملقين للحكام، والباحثين عن المال والمنصب، من الأدباء والشعراء والطامعين من الفقهاء[١٥٧]، وفي المقابل ظهر العديد من الفقهاء الذين تمسكوا بفكرة الوحدة، ونددوا بملوك الطوائف منهم ابن حزم، وأبو الوليد الباجي، والقليعي، وأبو العباس بن الرميلة، وغيرهم[١٥٨].

وإذا اعتبرنا أن القرن الخامس الهجري شهد نضج واكتمال الشخصية الثقافية للأندلس فإن الفضل في ذلك يرجع إلى جهود بني أمية التي أثمرت في هذه الفترة، ولا يمكن إنكار الإضافة الإسبانية من خلال الحضارة الأيبيرية القوطية والرومانية، وانصهارها مع الثقافة الإسلامية الشرقية بالشكل الذي صبغ الثقافة الأندلسية بطابع شديد الخصوصية[١٥٩]. كما أن تعدد المراكز الثقافية في الأندلس في عصر ملوك الطوائف وحرص الحكام على إنمائها ورعايتها، والتنافس الثقافي فيما بينها وتنوع اهتماماتها، إلى بروز الشخصية الثقافية في عصرهم وظهور الأعلام بإبداعاتهم في المجالات المختلفة[١٦٠].

وبالطبع كان لنمو حركة الاسترداد الإسباني أثراً سلبياً على الحياة العلمية، فهاجرت أعداد كبيرة من العلماء خارج الأندلس، وسادت أجواء الركود والمؤامرات حول الوصول إلى الوظائف كما سبق التنويه في عصر بني الأحمر.

وكما كان للأمن والاستقرار دور رئيسي في نمو الهوية الثقافية، فإن العامل المادي كان له أهمية كبرى في رعاية السلطة للمثقفين ولذا ارتبطت المسيرة الثقافية بالمسيرة الاقتصادية في أحيان كثيرة[١٦١]. وإذا كانت الشعوبية التي ظهرت في الأندلس تأثراً بالمشرق، قد شكلت عائقاً أمام الهوية الإسلامية بكل صورها، فإن نظام المواطنة الذي سارت عليه السلطة، قد فتح باب الأندلس على الحضارات الأخرى، وجعلها تتغلب على مثل هذه النظرات القصيرة الأفق. وهكذا فإن الهوية الثقافية للأندلس بنيت على التسامح، والانفتاح على الحضارات، وتقبل فكر الآخر، وقبول التعددية الثقافية، فيما عرف بتنوع الوحدة أو وحدة التنوع.

الهوامـــش

(١) Andlucia un pais con historia , apuntes para una Historia de Andalucia.

(٢) عبد الواحد طه ذنون: نص أندلسي من تاريخ ابن أبي الفياض، دراسات في تاريخ الأندلس، الموصل، سنة ١٩٨٧م.

(٣) العذري: ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، ت: عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، سنة١٩٦٥م، ص٤، ٥ .

(٤) عبد الواحد طه ذنون: التنظيم الاجتماعي للأندلس في عصر الولاة، مجلة المؤرخ العربي، ع ٣٢، سنة١٩٨٧م، ص١٨٣ ــ١٨٥.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ت: ج. س. كولان، ليفي بروفنسال، الدار العربية للكتاب، ط٣، ج٢، ص٤٢؛ المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ت: يوسف البقاعي، ج٤، دار الفكر، بيروت، سنة١٩٨٦م، ص٢٨

(٦) ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح حتى سقوط الخلافة القرطبية، مج٢، ج١ــ النظم والمؤسسات والحياة الاجتماعية والفكرية، ت: علي عبد الرؤف البمبي، علي إبراهيم المنوفي، صلاح فضل، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، سنة ٢٠٠٠م، ص٧٣. يشير المؤلف إلى أن الثغور التي أنشأها الأمويون في الأندلس صورة مطابقة للثغور العباسية في المشرق.

(٧) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة ١٩٨٨م، ج١، ص١٩٩.؛ محمد أحمد أبو الفضل: بحث حول السفارات الأندلسية إلى دول أوروبا، دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس، دار المعرفة الجامعية، سنة ١٩٩٦م، ص٦٢.

(٨) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، نشر باسكوال جارثيا جومس، سنة ١٩٦٨م، ص٣٠ وما بعدها.؛ مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحرب الواقعة بينهم، نشر: محمد أسامه الكرم، دمشق، مدريد، ط٣، سنة١٨٦٧م، ص٩١.؛ المقري: نفح الطيب، ج٤، ص١٤٧.

(٩) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، سنة ١٩٩٢م، ص٣٠٤.

(١٠) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٦١.؛ عبد المجيد النعني: تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت، سنة١٩٨٦م، ص١٧٢.

(١١) أميركو كاسترو: إسبانيا في تاريخها، المسيحيون ــ المسلمون ــ اليهود، ت: علي إبراهيم منوفي، م: أحمد أبو حامد، المجلس الأعلى للثقافة، ط. سنة١٩٩٤م، ص٥٩.

(١٢) حسين مؤنس: تاريخ المغرب والأندلس، ص٣١٤. حيث يرى أن الأمير هشام تظاهر بالتدين ولم يكن كذلك، وإنما كان سياسياً يجتذب الناس إليه، واستدل على ذلك بأنه سمل عيني شاعر لأنه مدح أخاه .

(١٣) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، نشر: باسكوال ديجاريا نجوس، غوليان ريبيرا، مدريد، سنة ١٩٦٨م، ص٩٢.؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ت: ليفي بروفنسال، ط٢، سنة ١٩٥٦م، ص ١٢. وصف ابن الخطيب الأمير هشام بأنه بمنزلة عمر بن عبد العزيز في قومه.

(١٤) ابن حيان: السفر الثاني من المقتبس في تاريخ الأندلس، ت: محمود مكي، مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث، ط١، سنة٢٠٠٣م، ص١٩٧.

(١٥) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٦٣، ٦٤.

(١٦) ابن حيان: المقتبس، ص١١٦.

(١٧) عبد المجيد النعنعي: تاريخ الدولة الأموية، ص١٧٤.

(١٨) أميركو كاسترو: المرجع السابق، ص٦٠. يرى أن قوة الإسلام مرتبطة بالزعامات القوية القادرة على تشحيذ الهمم بالانتصارات وإبهار الجماهير بالثورات التي كانت في الأندلس. والصواب أن قوة الكيان السياسي الإسلامي في إسبانيا هي التي ارتبطت بالزعامات، وليس الإسلام نفسه لأنه متغلغل في نفوس أتباعه سواء كان الكيان السياسي قائماً أو لم يكن.

(١٩) ابن عذاري: البيان، ج٢، ص٧٢، ٧٤؛ عبد المجيد النعنعي: تاريخ الدولة الأموية، ص١٩٥ـــ٢٠٠

(٢٠) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص٤١، ٥٠، ٥١؛ ابن حيان: المقتبس، ص١٠٥، ١٠٦؛ ابن عذاري: نفس المصدر، ص٦٩.؛ ابن غالب: فرحة الأنفس، ص١١٤.

(٢١) ابن القوطية: المصدر السابق، ص٤١،٥٠،٥١.؛ ابن حيان: المقتبس، ص١٠٥ ــ ١٠٧.؛ ابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، ت. لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، م١، ج٢، سنة ١٩٥٥م، ص١١٤.؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٩٠.؛ ابن عذاري: البيان، ج٢، ص٦٩.؛ ابن السماك: الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة، ت. محمود مكي، منشورات المعهد المصري، مدريد، ص١١٥.

(٢٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، ص٢٣٣.

(٢٣) ابن حيان: المقتبس، ص١٩٧ ــ١٩٩.

(٢٤) حسين مؤنس: تاريخ المغرب والأندلس، ص٣١١، ٣١٢.

(٢٥) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص٦٣ ــ ٦٥.

(٢٦) ابن حيان: المقتبس، ص٤٥٠.

(٢٧) نفس المصدر، ص٢٠٨.؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١٩.

(٢٨) ابن حيان: المقتبس في ذكر رجال الأندلس، ت: محمود مكي، سنة١٩٧١م، ص١٨٠.

(٢٩) نفس المصدر، ص٢٨٣.

(٣٠) نفسه، ص٢٩٤.

(٣١) ابن السماك: الزهرات المنثورة، ص١٣١.

(٣٢) ورد أن سيمونيت أرجع سبب حركة الشهداء إلى اضطهاد النصارى ثم عاد وناقض نفسه حينما أشار إلى توليهم الوظائف والمناصب الكبرى واستخدامهم كعناصر في الجيش، أما ألتاميرا فأشار إلى أن المضايقات جاءت من الشعب نفسه وليس من الحكام. انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج٢، ص٢٧٠، ٢٧١. وللرد عليهم نقول: إن حركة الشهداء لم تكن نتيجة ضيق اقتصادي أو تضييق اجتماعي، وإنما هي ناتج إلحاح الشعور الوطني، والرغبة في المشاركة السياسية، والوصول إلى الحكم، لأنهم سكان البلاد الحقيقيين، أي أن أسباب الحركة سياسية وليست عقائدية أو اجتماعية.

(٣٣) ورد أن زعيم حركه الشهداء يسمى ألبرو يرجع إلى أصل يهودي وهو أمر يفسر تشدده وتعصبه ضد الإسلام خاصة أن اليهود لم يشعروا بالهوية والانتماء تجاه أي شعوب أو حكومات أو دول، لأسباب تخص عقيدتهم.

Simonete: Historia de Mozarabes , Amesterdam ,Oriental ,Press , ١٩٧٦ , p.١١٣.

(٣٤) دوزي: المسلمون في الأندلس، ت: حسن حبشي، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٨م، ص١٠١، ١٠٢.

(٣٥) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٩٠.

(٣٦) القاضي عياض: مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، ت: محمد بن شريفه، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٠م، ص ٨١. يشير إلى أن ذمي استخف بالنبي صلى الله عليه وسلم و بالإسلام فأفتى بأن يسجن فإذا ثبت عليه الأمر يحكم القاضي بقتله.

(٣٧) عبد المجيد النعنعي: تاريخ الدولة الأموية، ص٢٩١.

(٣٨) حسين مؤنس: تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٤٧.

(٣٩) أميركيو كاسترو: أسبانيا في تاريخها، ص٦٠.

(٤٠) عبادة كحيلة: الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية، دار عين للطباعة، ط١، سنة ١٩٩٥م، ص٤٠ حيث يشير إلى أن الطبيعة الجغرافية أثرت على الأندلسيين فعاشوا في مجتمعات منعزلة بعضها عن بعض حتى أصبح الميل إلى الإقليمية يفوق الولاء للدولة الكبيرة.

(٤١) حسين مؤنس: تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٤٤. انظر أيضاً محمود إسماعيل: إخوان الصفا رواد التنوير في الفكر العربي، عامر للطباعة والنشر، المنصورة، ط١، سنة١٩٩٦م، ص٢٤. حيث يشير إلى أن الحركات الانفصالية تعود إلى سيادة النظام الإقطاعي في الأندلس و تأثرها بفكر إخوان الصفا الليبرالي الذي يعد ثورة على النظام الإقطاعي السائد في العالم الإسلامي شرقاً وغرباً .

(٤٢) اعتبر المستشرقون عمر بن حفصون بطلا قوميا يسعى لإحياء القومية الإسبانية، رغم أنه استغل هذه العناصر لتحقيق أطماع سياسية. بدرو شالميتا: ضوابط عمر بن حفصون، فصوص من تاريخ الأندلس، بداية النهاية، ترجمة عبد الفتاح عوض، عين للدراسات الإنسانية، ط١، سنة ٢٠٠١م، ص٩٠.

(٤٣) ساعدت هذه الحركة على توسع الدول الإسبانية المعارضة للعرب في الشمال والتي تمثل صلب حركة الاسترداد. علي أحمد: ظهور حركة الاسترداد الإسباني وتطورها حتى نهاية القرن التاسع الهجري ودور المغاربه في كبح جماحها، جامعة دمشق، التاريخ العربي، ع١، سنة ٢٠٠٢م، ص١٦٦.

(٤٤) فاروق عمر فوزي: حول طبيعة الحركة الشعوبية، من مظاهر الحركة الشعوبية في الأندلس، مجلة المؤرخ العربي، ع٣٢، سنة ١٩٨٧م، ص١٥٤. يرى د/ حسين مؤنس أن هذه الثورات اجتماعية تعبر عن إهمال الحكومة لهذه العناصر وسوء أحوالهم: تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٤٩.

(٤٥) ابن حيان: المقتبس في ذكر رجال الأندلس، ت: إسماعيل العربي، ط١، سنة ١٩٩٠م، دار الأفق الجديدة، المغرب، ص١٤٤،١٤٥.؛ ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص٣٠ وما بعدها.؛ مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحرب الواقعة بينهم، نشر: محمد أسامه الكرم، دمشق، مدريد، ط٣، سنة١٨٦٧م، ص٩١.

(٤٦) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص١٣٩.

(٤٧) ابن حيان: المقتبس، الجزء الخامس، ت: بدرو شالميتا، ف. كورينطي، المعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد، سنة١٩٧٩م، ص٥٨ وما بعدها .؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٣٣؛ مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص١٥٣.

(٤٨) مدونة عبد الرحمن الناصر، ت: ليفي بروفنسال، إميليو غرسيا غومس، مدريد، سنة ١٩٥٠م، ص٣٠ يشير إلى حرصه على مظاهر البيعة في الإسلام، كما كانت أيام الخلفاء الراشدين، وهو أمر يؤكد دور الإسلام في تدعيم الهوية السياسية للأندلس.؛ ابن حيان: نفس المصدر، ص٢٤١.

(٤٩) ابن حيان: المقتبس، ج٥، ص٢٤٣.

(٥٠) يشير صاحب الحلل الموشية إلى أن العامة لقبوه بالخلافة قبل أن يعلنها رسمياً وهذا دليل على سعادة الأندلسيين بالعودة إلى الوحدة وحرصهم على شرعية الحاكم السياسي وارتباطه بالنظام السياسي للحكم. مؤلف مجهول: الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، ت. سهيل زكار، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، سنة ١٩٧٩م، ص٣١.

(٥١) ابن حيان: المصدر السابق، ص٤٣١ وما بعدها.؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص١٨٥.

(٥٢) Ann Christys: Christian in Andlus , published in ٢٠٠٢ , British library , p. ١٠

(٥٣) ابن عذاري: نفس المصدر، ص٢١٢.
(٥٤) نفسه، ص٢٢٥.
(٥٥) اعتبر ابن خلدون أن العصبية أساس قيام الدولة، وأن الدولة الأموية في الأندلس فسدت لما فقدت عصبيتها من العرب، وأن الأمويين استظهروا أنفسهم بالموالي والمصطنعين والطراء على الأندلس من أهل العدوة. ابن خلدون: العبر، ج١، ت. خليل شحادة، سهيل زكار، دار الفكر ــ بيروت، سنة ١٩٨١م، ص١٩٥.
(٥٦) ابن عذاري: البيان، ج٣، ص١٠.
(٥٧) حسين مؤنس: تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٩٧.؛ أحمد محمد عبد الهادي: العرب في الأندلس ــ مركز الراية للنشر والإعلام، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠١م، ص٣٧.
(٥٨) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٨١.
(٥٩) نفس المصدر، ص٨٢.
(٦٠) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٣، ص٥٠.
(٦١) ابن حزم: رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، ت: إحسان عباس، ج٢، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، ط٢، سنة ١٩٨٧م، ص٣٣. يشير إلى الضعف السياسي وتسليم الحصون دون قتال.
(٦٢) علق الطرطوشي على ذلك بأن المسلمين في الأندلس في عصر الطوائف اعتنوا بجمع المال، بينما تقوى العدو على حسابهم بجمع الرجال. سراج الملوك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، سنة ١٤١٢هــ، ص١٠٨. أميركو كاسترو: إسبانيا في تاريخها، ص٦٥. يشير إلى أن الهيبة العسكرية للمسلمين بدأت في الاضمحلال ابتداء من القرن الحادي عشر الميلادي.
(٦٣) يشير سيمونت إلى أن طليطلة مستقلة تحت حماية ملك ليون منذ عصر الأمير محمد.
Simonete : Historia los Mozarabes , Tom x١١١ , Madrid ,١٨٩٧ , P.٥٠٤ -٥٠٦.
(٦٤) مؤلف مجهول: الحلل الموشيه، ص٤١.؛ الناصري: الاستقصار في تاريخ المغرب الأقصى، ت. جعفر الناصري و محمد الناصري ، ج٢، الدار البيضاء، سنة ١٩٥٤م ، ص٢٠٩.
(٦٥) الناصري: الاستقصار، ج٢، ص٢٠٦.
(٦٦) محمود مكي: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، مدريد، سنة ١٩٥٩م، ١٩٦٠م، ص١٤٣، ١٢٦، ١٤٤ .؛ مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص٩٠.
(٦٧) الناصري : المصدر السابق، ص٢٦٠.
(٦٨) ابن أبي زرع: روض القرطاس (الأنيس المطرب)، دار المنصورة للطباعة والنشر، سنة ١٩٧٢م، ص٢٠٦، ٢٠٧.؛ الناصري: الاستقصار، ج٣، ص١١، ١١٥ .
(٦٩) ابن خلدون: العبر، ج١، ص٢٠٧، ٢٠٨.
(٧٠) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص٤٥٣.

(٧١) علي أحمد: ظهور حركة الاسترداد الإسباني، ص١٧٨.

(٧٢) رابح عبد الله المغراوي: تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة من خلال كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب، حوليات كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية ٢٠، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، سنة ٢٠٠٠م، ص٣٨.

(٧٣) أميركو كاسترو: إسبانيا في تاريخها، ص٢٤٢.؛ دوزي: المسلمون في الأندلس، ج٣، ص١٦٣، ١٦٢. رأوا أن التسامح في الأندلس استمر أربعة قرون وانتهى بمجيء المرابطين.؛

Simonete: Historia de los Mozarabes ,p.٧٤ ,٧٥

(٧٤) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبارغرناطه، ت: محمد عبد الله عنان، ج١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، سنة ١٩٧٥م، ص١٠١.؛ اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية، ت: محب الدين الخطيب، القاهرة، سنة ١٩٢٤م، ص١٦.؛ مؤلف مجهول: أخبار مجموعة، ص١٢.؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص٣٥٢.

(٧٥) عبادة كحيلة: النصارى في الأندلس، القاهرة، سنة ١٩٩٣م ، ص٨٥ ــ ١٠٧.؛ عبد الواحد ذنون: التنظيم الاجتماعي للأندلس في عصر الولاة ، ص١٨٨ ــ ١٩١.؛

Dozy: Recherches sur L Histoire et la litterature De L Espange , Leyde ١٨٨١ , p. ٣ – ٦ , Ann chrristys :Christian in Andalus , p.١١.

(٧٦) أحمد الطاهري: الفلاحة والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد، مركز إسكندرية للكتاب، سنة ٢٠٠٤م، ص٢٢ ومابعدها.

(٧٧) نفس المرجع، ص١٤٧ ــ ١٤٩.

(٧٨) نشر المؤرخ جونثالث بالنثيا مجموعة من الوثائق في أربعة مجلدات تتعلق بمستعربي طليطلة خلال القرون ١١، ١٢، ١٣، ١٤ م. عصمت دندش: علاقة الأندلس بمملكة قشتاله من خلال الأقليات إلى القرن السابع الهجري، مؤتمر الغرب الإسلامي والغرب المسيحي، ت. محمد حمام، كلية الآداب، الرباط، سنة ١٩٩٥م، ص١٠٢. ويؤكد العديد من المؤرخين استمرار تأثر المستعربين بالعرب حتى بعد سقوط المدينة.

Alberto Ferreiro: The Visigoths studies in culture E socicety, Leiden, ١٩٩٨ , p. ٣١١.

(٧٩) حسين مؤنس: المغرب والأندلس، ص٣١٠،٣١١.

(٨٠) سحر عبدالعزيز سالم: الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس، ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، الرباط، سنة ١٩٩٠م، ص٤٢.

(٨١) Alberto Ferreiro : The Visigoths studies in culture , p. ٣١١

(٨٢) كمال أبو مصطفى: المولدون في منطقة الثغر الأعلى الأندلسي ودورهم السياسي في عصر الإمارة الأموية، بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، سنة ١٩٩٣م، ص٤٧،٥٠ .

(٨٣) عبد المجيد النعنعي: تاريخ الدولة الأموية، ص٢٦٣، ٢٦٤ .

(٨٤) عمر بنميرة: جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس، كلية الآداب – الرباط، ص٢٠.؛ سحر سالم: الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط، ص٧٠.

(٨٥) عريب بن سعد: تقويم قرطبة، نشر: دوزي، ليدن، سنة ١٨٧٣م، ص١٤.

(٨٦) ابن السماك: الزهرات المنثورة، ص٧٣. ورد في التحقيق أن هذا النظام كان سائدا منذ عصر الأمير محمد.

(٨٧) حول ذلك انظر: عبادة كحيلة: النصارى في الأندلس، ص١١٣، ١١٤.؛ محمد أبو الفضل: حول السفارات الأندلسية، ص٧١.؛ محمد بحر عبد المجيد: اليهود في الأندلس، الهيئة العامة للكتاب، سنة ١٩٧٠م، ص٢٣.؛ إبراهيم القادري: المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس، قرون من التقلبات والإعطاءات، سنة ١٤١٤هـ، ص٢٣٧.

(٨٨) فاروق عمر فوزي: حول طبيعة الحركة الشعوبية، ص١٥٣.

(٨٩) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ت: إحسان عباس، ق٣، مج٢، الدارالعربية للكتاب، ليبيا، تونس، سنة ١٩٨١م، ص٧٠٥.

(٩٠) ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح حتى سقوط الخلافة، مج٢، ج١، ص١٧٣.

(٩١) Claudio Sanchez Albomoz: La Espana muslimana Segon los autares ,Tom ٢, Madrid , Espasa – clape , S.A , ١٩٧٤ , p. ٢٢٢

(٩٢) ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ت: عبد الهادي التازي، ص ١٢٤، ١٢٥، ط٣، دار الغرب الإسلامي، سنة ١٩٧٨م

(٩٣) عبد الوهاب المسيري: الموسوعة اليهودية، مج٤ من النت.

(٩٤) المقري: نفح الطيب، ج١، ص٣٧٣.

(٩٥) نفس المصدر، ص ٣٨٩.؛ ليفي بروفنسال: المرجع السابق، ص١٦٨.؛ إبراهيم القادري: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٨م، ص٥٢.

(٩٦) ابن خلدون: العبر، ج١، ص١٩٥.

(٩٧) ابن حزم: رسائله، رسالة التوقيف على شارع النجاة، ضمن رسائل ابن حزم، ت: إحسان عباس، ج٣ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، سنة ١٩٨٧م، ص٣٢.

(٩٨) ابن حزم: رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، ج٢، ص١٧١.؛ المقري: نفح الطيب، ج٤، ص١٨٠.

(٩٩) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص٨٣.

(١٠٠) عبادة كحيلة: الخصوصية الأندلسية، ص٦٦.

(١٠١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٣٦، ١٣٧.؛ السلاوي الناصري: الاستقصا، ج٣، ص١١٥.

(١٠٢) الناصري: المصدر السابق، ص١١٥.؛ ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص١٣٦، ١٣٧.؛ داود عمر سلامه عبيدات: المرابطون والأندلس، دار الكتاب الثقافي، الأردن، ط١، سنة ٢٠٠٧م، ص٦١.

(١٠٣) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص٨٠.

(١٠٤) ظريف راشد سيد أحمد فشكل: الحياة السياسية لليهود في الأندلس في عهد بني أميه وملوك الطوائف، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، سنة ٢٠٠٣م، ص١٥٩ ومابعدها.

(١٠٥) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، سنة ١٩٩٤م، ص٥٧١.

(١٠٦) نفس المصدر، ج١، ص٢٣٥.؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ت: إحسان عباس، دار ناصر للثقافة ــ بيروت، ط٢، سنة١٩٨٢ م، ص٥٤٦.؛ إبراهيم القادري: المرابطون وسياسة التسامح مع النصارى، ص٢٣٧.

(١٠٧) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ت. محمد سعيد العريان، إشراف محمد توفيق عويضه، القاهرة، سنة ١٩٦٣م، ص٣٨٣.

(١٠٨) ابن الخطيب: الإحاطه، ج١، ص٣٨٨.؛ رابح المغراوي: الأوضاع الحضارية لغرناطة، ص ٣٦.

(١٠٩) عطية القوصي: صلاح الدين واليهود، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مج٢٤، سنة ١٩٧٧م، ص٣٩.

(١١٠) رابح المغراوي: المرجع السابق، ص٣٦، ٣٧.

(١١١) محمد عبد الحميد عيسى: تاريخ التعليم في الأندلس، إشراف د/ لويس سواريث فرنانديث، تقديم: د/عبدالغني عبود، دار الفكر العربي، ط١، سنة ١٩٨٢ م، ص ٢٧٤.

(١١٢) محمد الكتاني: دراسة تحليلية لكتاب عن تاريخ الأندلس في عهد ملوك الطوائف، أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في ق.٥هـ، تطوان، مجلة دراسات مغاربية، مجلة البحث والبيلوجرافيا المغاربية، ع١ ــ ٢، سنة ١٩٩٦م، ص١٠.؛ حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص٨٤.

(١١٣) عبير زكريا: دور الفقهاء السياسي والحضاري في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، دار العلم والإيمان، ط١، سنة ٢٠١٠ م، ص٢٣٢ ومابعدها.

(١١٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٢٣٦.؛ مجموعة رسائل موحدية، إصدار ليفي بروفنسال، مطبوعات معهد العلوم العليا، سنة ١٩٤١ م، ص١٣٢.

(١١٥) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص٣٨٤. ؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء وطبقات الأطباء، ت: نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص٥٣١، ٥٣٢.

(١١٦) ابن حزم: رسائله، ج٢، ص١٨٨.

(١١٧) ابن بسام: الذخيرة، ق١ ــ ج١، ص١٦٨.؛ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب، ج١، القاهرة، سنة ١٩٩٣م، ص٣٥٤، ٣٥٥.

(١١٨) الحميدي: جذوة المقتبس، ج١، ت: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري ــ اللبناني، سنة ١٩٨٣م، ص٤٠.

(١١٩) أنخل جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، سنة ١٩٥٥م، ص٣٣٣.

(١٢٠) ابن صاعد الطليطلي: طبقات الأمم، ت. حياة بوعلوان، بيروت، سنة ١٩٨٥م، ص١٦٤.

(١٢١) بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص٣٣١، ٣٣٢.

(١٢٢) محمد الكتاني: دراسة تحليلية لكتاب جوانب من الواقع الأندلسي، ص١٠؛ إبراهيم حركات: الثقافة وتبليغها في مرحلة النضج، التاريخ العربي، ع٧، سنة ١٩٩٨م، ص٩٨. يشير إلى أن هذه المحن انتشرت في المغرب ومصر وغيرها.

(١٢٣) فاروق حمادة: النهضة الفقهية في ظل دولة الموحدين، مجلة التاريخ العربي، ع٤، سنة ١٩٩٧م، ص١٦٤.

(١٢٤) محمد المنوني: حضارة الموحدين، الدار البيضاء، المغرب، ب. ت، ص٨٢؛ فاروق حماده: النهضة الفقهية في عصر الموحدين، ص١٥٤ وما بعدها.

(١٢٥) ابن الخطيب: الإحاطة، ج٣، ص٧٦؛ خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ت. الطاهر مكي، دار المعارف، القاهرة، د.ت، ص٢١٠.

(١٢٤) تأثر الأندلسيون في بناء القناطر بالآثار الرومانية مثل قنطرة رباح التي بنيت في العصر الإسلامي على نفس نسق قنطرة الوادي التي بنيت في عصر الرومان . Andalucia para Ninas Y Ninos

(١٢٧) تؤكد الدراسات أن الحضارة الأندلسية تأثرت إلى حد كبير بحضارة مصر والمغرب و سوريا، وتأثرهم ببغداد في بناء الأسوار .

.Ann christys: Christian in Andlus , p.١٤

(١٢٨) محمد أبوالفضل : التأثيرات الشامية في حضارة الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل، من كتاب تاريخ وحضارة الأندلس، دارالمعرفة الجامعية، الإسكندرية، سنة ١٩٩٦م، ص٢٧١؛ Ann Christys : opsit , p.١٦

(١٢٩) السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ج١، مؤسسة شباب الجامعة، سنة١٩٨٤م، ص٤٨ ومابعدها.

(١٣٠) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٣٧٢؛ محمد أحمد أبو الفضل: حول السفارات الأندلسية، ص٧١، ٧٢، ٨٧.

(١٣١) ابن صاعد الطليطلي: طبقات الأمم، ص١٦٢،١٦٣؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ت. حسين مؤنس، ج١، سنة ١٩٦٣ م، ص٢٠١. وينسب بناء نواة هذه المكتبة إلى عبد الرحمن

الناصر. حول ذلك انظر. ساميه مسعد: الوراقة والوراقون في الأندلس من عصر الخلافة حتى نهاية عصر الموحدين، دارعين للطباعة والنشر، سنة ٢٠٠٠ م، ص٦ .

(١٣٢) ابن صاعد: المصدر السابق والصفحة.

(١٣٣) خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ص٣٢٤ ــ ٢٢١.

(١٣٤) نفس المرجع، ص٢٢٠.

(١٣٥) نفس المرجع: ص٢٢٠، ٢٢١.

(١٣٦) نفس المرجع، ص٢١٨.؛ ساميه مسعد: المرجع السابق، ص٢٣ ــ ٢٦

(١٣٧) المقري: نفح الطيب، ج١، ص٣٦٩.

(١٣٨) نفس المصدر، ج٤، ص١٥٠.

(١٣٩) ابن جلجل: طبقات الأطباء ت: فؤاد سيد، نشر المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية، سنة ١٩٥٥م، ص٩٨.؛ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٤٩٤.؛ السيد عبد العزيز سالم: الحياة العلمية والأدبية في الأندلس، كتاب تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، سنة ١٩٨٥م، ص٢٨٣

(١٤٠) Claudio Sanchez : la Espana muslimana ,p.٢٣١.

(١٤١) عن مدرسة الترجمة: محمد القاضي: طليطلة مدرسة المترجمين مدرسة الاستعراب الإسباني، مجلة التاريخ العربي، ع١٥، سنة١٤٢١هـ.

(١٤٢) إبراهيم حركات: الثقافة الإسلامية وتبليغها في عصر الريادة، التاريخ العربي، ع٦، سنة ١٩٩٨ م، ص١٢٥.

(١٤٣) المراكشي: المعجب، ص٣٢٨.

(١٤٤) أبوالوليد الباجي: وصيته لولديه، ت: جوده عبد الرحمن هلال، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ع٣، مج١، سنة١٩٥٥م، ص٤٣

(١٤٥) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٢٨.؛ المقري: نفح الطيب، ج ١، ص ١٧٧.؛ إبراهيم حركات: الثقافة وتبليغها في عصر الريادة، ص١٢٥.

(١٤٦) مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص٣٣.؛ محمد عبد الجليل: كيف ساعد الفقهاء يوسف بن تاشفين على خلع ملوك الطوائف، أعمال الملتقى الإسباني الرابع، المعهد الأسباني التونسي، سنة ١٩٨٥م، ص١٣.

(١٤٧) نفس المصدر، ص٩٠، ٩٢.؛ محمود مكي: وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، ص١٢٤.

(١٤٨) Claudio Sanchez Albornoz : La Espana muslimana , t . ١, p. ١١٤

(١٤٩) محمود مكي: وثائق مرابطية، ص١٢١.

(١٥٠) ابن أبي أصيبعة : طبقات الأطباء، ص ٥٢٣.

(١٥١) ابن بسام: الذخيرة، ق١، ج٢، ص٨٢.

(١٥٢) نفس المصدر، ق١، ج١، ص١٦٨.؛ ابن سعيد: المغرب، ج١، ص٣٥٤، ٣٥٥ .

(١٥٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص ٣٨٤.؛ ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ص٥٣١، ٥٣٢.

(١٥٤) إبراهيم حركات: الثقافة وتبليغها في مرحلة الإستقرار، ع ٨، سنة ١٩٩٨ م، ص٣٩ .

(١٥٥) ابن حيان: السفر الثاني من المقتبس، ص١٤٣.؛ حسين مؤنس: تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٢٠

(١٥٦) ابن صاعد: طبقات الأمم، ص١٦٤، ١٦٥.؛ خميس بو لعراس: الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، سنة ٢٠٠٧م، ص٢٧ ـ ٢٩.

(١٥٧) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات في الأندلس، دار المعارف، سنة ١٩٨٩م، ص١٤١، ١٤٢.؛ عبير زكريا : دور الفقهاء السياسي والحضاري، ص ١٣١ ـ ١٣٥.

(١٥٨) عبير زكريا: نفس المرجع، ص ٢٠٦ ومابعدها

(١٥٧) ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية، مج ٢، ج ١، ص١٧٥.

(١٦٠) خميس بو لعراس: الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس، ص ١٢١،١٢٢.

(١٦١) ابن خلدون: العبر، ج١، ص٢٢٦.



قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية:

ـ ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء وطبقات الأطباء، ت: نزار رضا، مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.

ـ ابن أبي زرع: روض القرطاس (الأنيس المطرب)، دار المنصورة للطباعة والنشر، سنة ١٩٧٢م .

ـ ابن الأبار: الحلة السيراء، ت. حسين مؤنس، ج١، سنة ١٩٦٣ م .

ـ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الأندلسي، ت: ليفي بروفنسال، ط٢، سنة ١٩٥٦م .

ـــــــ: الإحاطة في أخبارغرناطه، ت: محمد عبد الله عنان، ج١، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، سنة١٩٧٥م.

ـــــــ: اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية، ت: محب الدين الخطيب، القاهرة، سنة ١٩٢٤م.

ـ ابن السماك: الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة، ت: محمود مكي، منشورات المعهد المصري، مدريد.

ـ ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، نشر: باسكوال ديجاريا نجوس، غوليان ريبيرا، مدريد، سنة ١٩٦٨م .

ـ ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ت: إحسان عباس، ق٣، مج٢، الدارالعربية للكتاب، ليبيا، تونس، سنة١٩٨١م

ـ ابن جلجل: طبقات الأطباء، ت: فؤاد سيد، نشر المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية، سنة ١٩٥٥م .

ـ ابن حزم: رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، ت: إحسان عباس، ج٢، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، ط٢، سنة ١٩٨٧م .

ـــــــ رسالة التوقيف على شارع النجاة، ضمن رسائل ابن حزم، ت: إحسان عباس، ج٣ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، سنة ١٩٨٧م.

ـ ابن حيان: السفرالثاني من المقتبس في تاريخ الأندلس، ت: محمود مكي، مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث، ط١، سنة ٢٠٠٣م.

ـــــــ: المقتبس في ذكر رجال الأندلس، ت. إسماعيل العربي، دارالأفق الجديدة، المغرب، ط١، سنة ١٩٩٠م.

ـــــــــ: المقتبس، الجزء الخامس، ت: بدرو شالميتا، ف. كورينطي، المعهد الأسباني العربي للثقافة، مدريد، سنة١٩٧٩م

ـ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج١، ت. خليل شحاده، سهيل زكار، دار الفكرـ بيروت، سنة ١٩٨١م.

ـ ابن سعيد المغربي: المغرب في حلي المغرب، ج١، القاهرة، سنة ١٩٩٣م .

ـ ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، ت: عبد الهادي التازي، ط٣ دار الغرب الإسلامي، سنة ١٩٧٨م.

ـ ابن صاعد الطليطلي: طبقات الأمم، ت. حياة بوعلوان، بيروت، سنة ١٩٨٥م .

ـ ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ت: ج. س. كولان، ليفي بروفنسال، ج٢، ط٣، الدارالعربية للكتاب

ـ ابن غالب: قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس، ت. لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية ، م١، ج٢، سنة ١٩٥٥م.

ـ الإدريسي: نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، ج٢، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، سنة ١٩٩٤م.

ـ الباجي: وصيته لولديه، ت: جوده عبد الرحمن هلال، معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ع٣، مج١، سنة ١٩٥٥م .

ـ الحميدي: جذوة المقتبس، ج١، ت: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري ـ اللبناني، سنة ١٩٨٣م.

ـ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ت: إحسان عباس، دار ناصر للثقافة ـ بيروت، ط٢، سنة١٩٨٢م.

ـ الطرطوشي: سراج الملوك، دارالكتاب الإسلامي، القاهرة، ط٢، سنة ١٤١٢هـ.

ـ العذري: ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، ت: عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، سنة١٩٦٥م.

ـ القاضي عياض: مذاهب الحكام في نوازل الأحكام، ت: محمد بن شريفه، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، سنة١٩٩٠م

ـ المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ت: يوسف البقاعي، دار الفكر، بيروت، سنة١٩٨٦م.

ـ الناصري: الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى، ت: جعفر الناصري و محمد الناصري ، ج٢، الدار البيضاء، سنة ١٩٥٤م .

ـ عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ت: محمد سعيد العريان، إشراف محمد توفيق عويضه، القاهرة، سنة ١٩٦٣م .

ـــــــ: مجموعة رسائل موحدية، إصدار ليفي بروفنسال، مطبوعات معهد العلوم العليا، سنة١٩٤١م.

– عريب بن سعد: تقويم قرطبة، نشر: دوزي، ليدن، سنة ١٨٧٣م.
– مدونة عبد الرحمن الناصر، ت: ليفي بروفنسال، إميليو غرسيا غومس، مدريد، سنة ١٩٥٠م.
– مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحرب الواقعة بينهم، نشر: محمد أسامه الكرم، دمشق، مدريد، ط٣، سنة١٨٦٧م.
– مؤلف مجهول: الحلل الموشية في الأخبار المراكشية، ت. سهيل زكار، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، سنة ١٩٧٩م.
– وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، ت: محمود مكي، مدريد، سنة ١٩٥٩م، ١٩٦٠م.

ثانيا: المراجع العربية

– أميركو كاسترو: إسبانيا في تاريخها، المسيحيون – المسلمون – اليهود، ت: علي إبراهيم منوفي، م: أحمد أبو حامد، المجلس الأعلى للثقافة، ط. سنة١٩٩٤م .
– إبراهيم القادري: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٨م.
– أحمد الطاهري: الفلاحة والعمران القروي بالأندلس خلال عصر بني عباد، مركز إسكندرية للكتاب، سنة ٢٠٠٤م.
– أحمد محمد عبد الهادي: العرب في الأندلس – مركز الراية للنشر والإعلام، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠١م.
– السيد عبد العزيز سالم: الحياة العلمية والأدبية في الأندلس، كتاب تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، سنة ١٩٨٥م .
–————: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس ، ج١، مؤسسة شباب الجامعة، سنة١٩٨٤م.
– أنخل جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت، سنة ١٩٥٥م .
– حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد، سنة ١٩٩٢م .
– خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ت. الطاهر مكي، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
– داود عمر سلامه عبيدات: المرابطون والأندلس، دار الكتاب الثقافي، الأردن، ط١، سنة ٢٠٠٧م.
– دوزي: المسلمون في الأندلس، ت: حسن حبشي، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٨م.

ــ ساميه مسعد: الوراقة والوراقون في الأندلس من عصر الخلافة حتى نهاية عصر الموحدين، دارعين للطباعة والنشر، سنة ٢٠٠٠م

ــ شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات في الأندلس، دار المعارف، سنة ١٩٨٩م .

ــ عبادة كحيلة: النصارى في الأندلس، القاهرة، سنة١٩٩٣م .

ـــــــــ: الخصوصية الأندلسية وأصولها الجغرافية، دار عين للطباعة، ط١، سنة ١٩٩٥م.

ــ عبد المجيد النعني: تاريخ الدولة الأموية في الأندلس، التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت، سنة١٩٨٦م.

ــ عبير زكريا: دور الفقهاء السياسي والحضاري في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار العلم والإيمان، سنة ٢٠١٠م.

ــ كمال أبو مصطفى: المولدون في منطقة الثغر الأعلى الأندلسي ودورهم السياسي في عصر الإمارة الأموية، بحوث في تاريخ وحضارة الأندلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط. سنة ١٩٩٣م .

ــ ليفي بروفنسال: تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح حتى سقوط الخلافة القرطبية، مج٢، ج١ ــ النظم والمؤسسات والحياة الإجتماعية والفكرية، ت: علي عبد الرؤف البمبي، علي إبراهيم المنوفي، صلاح فضل، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، سنة ٢٠٠٠م.

ــ محمد أبو الفضل: التأثيرات الشامية في حضارة الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل، من كتاب تاريخ وحضارة الأندلس، دارالمعرفة الجامعية، الإسكندرية، سنة١٩٩٦م.

ـــــــــ: بحث حول السفارات الأندلسية إلى دول أوروبا، دراسات في تاريخ وحضارة الأندلس، دار المعرفة الجامعية، سنة ١٩٩٦م.

ــ محمد المنوني: حضارة الموحدين، الدار البيضاء، المغرب، د.ت.

ــ محمد بحر عبد المجيد: اليهود في الأندلس، الهيئة العامة للكتاب، سنة ١٩٧٠م.

ــ محمد عبد الحميد عيسى: تاريخ التعليم في الأندلس، إشراف د/ لويس سواريث فرنانديث، تقديم: د/عبدالغني عبود، دار الفكر العربي، ط١، سنة ١٩٨٢م.

ــ محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج١، مكتبة الخانجي، القاهرة، سنة ١٩٨٨م.

ــ محمود إسماعيل: إخوان الصفا رواد التنوير في الفكر العربي، عامر للطباعة والنشر، المنصورة، ط١، سنة١٩٩٦م.

ثالثا الدوريات:

ــ إبراهيم حركات: الثقافة الإسلامية وتبليغها في عصر الريادة، التاريخ العربي، ع٦، سنة ١٩٩٨م.

ـــــــــ: الثقافة وتبليغها في مرحلة النضج، التاريخ العربي، ع٧، سنة ١٩٩٨م.

ـــــــــــ: الثقافة وتبليغها في مرحلة الإستقرار، ع ٨، سنة ١٩٩٨م .

ـ إبراهيم القادري: المرابطون وسياسة التسامح مع نصارى الأندلس، قرون من التقلبات والإعطاءات، سنة ١٤١٤هـ .

ـ بدرو شالميتا: ضوابط عمر بن حفصون، فصوص من تاريخ الأندلس، بداية النهاية، ترجمة عبد الفتاح عوض، عين للدراسات الإنسانية، ط١، سنة ٢٠٠١م.

ـ رابح عبد الله المغراوي: تاريخ الأوضاع الحضارية لمملكة غرناطة من خلال كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب، حوليات كلية الآداب والعلوم الإجتماعية، الحولية ٢٠، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، سنة ٢٠٠٠م.

ـ سحر عبدالعزيز سالم: الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس، ندوة الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى، الرباط، سنة ١٩٩٠م .

ـ ظريف راشد سيد أحمد فشكل: الحياة السياسية لليهود في الأندلس في عهد بني أميه وملوك الطوائف، مجلة كلية الآداب، جامعة المنوفية، سنة ٢٠٠٣م.

ـ عبد الواحد طه ذنون: التنظيم الاجتماعي للأندلس في عصر الولاة، مجلة المؤرخ العربي، ع ٣٢، سنة١٩٨٧م.

ـــــــــــ: نص أندلسي من تاريخ ابن أبي الفياض، دراسات في تاريخ الأندلس، الموصل، سنة ١٩٨٧م.

ـ عصمت دندش: علاقة الأندلس بمملكة قشتاله من خلال الأقليات إلى القرن السابع الهجري، مؤتمر الغرب الإسلامي والغرب المسيحي، ت. محمد حمام، كلية الآداب، الرباط، سنة ١٩٩٥م.

ـ عطيه القوصي: صلاح الدين واليهود، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مج٢٤، سنة ١٩٧٧م.

ـ عمر بنميرة: جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس، كلية الآداب ـ الرباط، المغرب، د. ت.

ـ علي أحمد: ظهور حركة الاسترداد الإسباني وتطورها حتى نهاية القرن التاسع الهجري ودور المغاربه في كبح جماحها، جامعة دمشق، التاريخ العربي، ع١، سنة ٢٠٠٢م.

ـ فاروق حماده: النهضة الفقهية في ظل دولة الموحدين، مجلة التاريخ العربي، ع٤، سنة ١٩٩٧م.

ـ فاروق عمر فوزي: حول طبيعة الحركة الشعوبية، من مظاهر الحركة الشعوبية في الأندلس، مجلة المؤرخ العربي، ع٣٢، سنة ١٩٨٧م .

ـ محمد القاضي: طليطلة مدرسة المترجمين مدرسة الإستعراب الإسباني، مجلة التاريخ العربي، ع١٥، سنة١٤٢١هـ.

ـ محمد الكتاني: دراسة تحليلية لكتاب عن تاريخ الأندلس في عهد ملوك الطوائف، أحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في ق.٥هـ، تطوان، مجلة دراسات مغاربية، مجلة البحث والبيلوجرافيا المغاربية، ع١ـ ٢، سنة ١٩٩٦م.
ـ محمد عبد الجليل: كيف ساعد الفقهاء يوسف بن تاشفين على خلع ملوك الطوائف، أعمال الملتقى الإسباني الرابع، المعهد الإسباني التونسي، سنة ١٩٨٠م.

رابعا: الرسائل العلمية والموسوعات:

ـ خميس بو لعراس: الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، سنة ٢٠٠٧م.
ـــ عبد الوهاب المسيري: الموسوعة اليهودية، مج٤ من النت.

خامسا: المراجع الأجنبية:

Alberto Ferreiro: The Visigoths studies in culture E socicety , Leiden ; 1998– .
Ann Christys: Christian in Andlus , published in 2002 , British library –
(internet) Andlucia un pais con historia, apuntes para una Historia de Andalucia___
(internet) Andalucia para Ninas Y Ninos___
Dozy: Recherches sur L Histoire et la litterature De L Espange , Leyden , 1881 –
Claudio Sanchez Albomoz : La Espana muslimana Segon los autares ,Tom 1,–
Madrid , Espasa – clape , S.A , 1974 .
Simonete: Historia de Mozarabes , Amesterdam ,Oriental , Press , 1976. ___ , Tom x111 , Madrid , 1897 .

دور مدارس خراسان في تطور النهضة العلمية في العصر السلجوقي
(٤٢٩ - ٥٥٢ هـ / ١٠٢٧ - ١١٥٧م)

د. صلاح الدين على عاشور (*)

خراسان في التاريخ:

خراسان في الفارسية القديمة معناها " البلاد الشرقية " وكان هذا الاسم يطلق في القرون الوسطى بوجه عام على جميع الأقاليم التي تقع شرق الدولة الإسلامية[١]. وتمتد أهمية خراسان في التاريخ من الناحية السياسية بجذورها إلى ما قبل الفتح الإسلامي لبلاد فارس (إيران) حيث ارتبط اسم هذه الولاية سياسيا، واقتصاديا، وثقافيا عند الفرس ببلاد الشمس المشرقة المزدهرة[٢]. ويتمتع إقليم خراسان بموقع جغرافي ممتاز جعله معتدل المناخ ليس فيه مناطق شديدة الحرارة، ولا شديدة البرودة، هذا مع توافر تربة صالحة، وتجارة رائجة مما كان له أكبر الأثر في وفرة أسباب المعيشة، وإنجاب كوكبة من العلماء، والأدباء، شهد لهم بذلك المقدسي في تقاسيمه[٣]. كما وصفهم ياقوت[٤] بقوله:" هؤلاء من أهل الأدب والنظم والنثر الذين يفوت حصرهم ويعجز البليغ عن عدهم " وكانت خراسان قديما في مدلولها الواسع تضم كلاً من "بلاد ما وراء النهر"[٥] ما عدا "سجستان"[٦]، ومعها "قوهستان"[٧] في الجنوب، إلا أن

(*)أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بكلية اللغة العربية بالقاهرة ـ جامعة الأزهر

(١) كانت خراسان إحدى الأقاليم المزدهرة في العصور الوسطى، وهى اليوم تشمل القسم الغربي من أفغانستان. كي لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٢٣، ترجمة : بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة ط٢ بيروت ١٩٨٥م.

(٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٢ ص٣٥٠ دار صادر بيروت ١٩٧٩ م.

(٣) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٥٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٧م.

(٤) معجم البلدان : ج ٢ص ٣٥٤. كي لسترانج : بلدان الخلافة، ص ٤٢٤.

(٥) ما وراء النهر: لفظ استخدمه المؤرخون والجغرافيون المسلمون للتعبير عن المنطقة المحصورة بين نهري جيحون في الجنوب وسيحون في الشمال، وسكان تلك المنطقة من العنصر التركي. بارتولد: تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص ص ٢، ٣. ترجمة أحمد السعيد سليمان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.

حدودها في العصور الإسلامية صارت أكثر تحديدا، فأصبحت تشمل أربعة أقاليم كبري هي : " نيسابور"[٨]، "ومرو"[٩]، و"هراة "[١٠] و"بلخ"[١١]. وبعد الفتح الإسلامي كانت عاصمة خراسان تنحصر في "مرو" ثم "بلخ"، وفي عصور الأمراء الطاهريين (٢٠٥-٢٩٥هـ/٨٢٠-٨٧٢م)[١٢] أصبحت "نيسابور" دار الإمارة الطاهرية. وفي العصر لصفاري[١٣] (٢٥٤-٢٩٠هـ/٨٦٧-٩٠٣م) كانت "خراسان" هي الصخرة التي

---

(٦) سجستان : ناحية كبيرة وولاية واسعة، واسم مدينتها "زرنج "وهي قريبة من هراة.معجم البلدان : ج ٣ص ١٩٠.

(٧) قوهستان : معناها موضع الجبال بالفارسية، وهي الجبال التي بين هراة، ونيسابور، وهي أكبر بلاد العجم، أحد أطرافها متصل بنواحي هراة. معجم البلدان : ج ٤ص ٤١٦.

(٨) نيسابور :مدينة عظيمة من أهم مدن خراسان، خرج منها من أئمة العلم من لا يحصى، النسبة إليها نيسابوري. ياقوت : معجم البلدان، ج ٥ ص ٣٣١.

(٩) مرو : يقال لها أيضاً "مرو الروز" و "مرو الشاهجان" وهى من أشهر مدن خراسان وقصبتها العظمى بينها وبين نيسابور سبعون فرسخاً وبينها وبين سرخس ثلاثون فرسخاً، والنسبة إليها مروزى ومرزوى. ياقوت : معجم البلدان ج٥، ص١١٢.

(١٠) هراة : مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان قال عنها ياقوت : " لم أر بخراسان عند كوني بها في سنة (٦٠٧ هـ/١٢١١م) مدينة أجل ولا أعظم ولا أفخم ولا أحسن ولا أكثر أهلا منها ؛ ياقوت : معجم البلدان، ج٥، ص٣٩٦.

(١١) بلخ : من أجل مدن خراسان، وأكثرها خيرا، وأوسعها غلة، تحمل غلتها إلى جميع خراسان، وإلى خوارزم، ينسب إليها كثير من العلماء، والنسبة إليها بلخي. ياقوت : معجم البلدان، ج ١ ص ٤٧٩.

(١٢) الطاهريون : تنسب الإمارة الطاهرية إلي "طاهر بن الحسين" الفارسي الأصل الذي قاد جيوش المأمون خلال نزاعه مع أخيه الأمين، فقلده عدة وظائف مكافأة له، ولم يلبث أن ولاه على إقليم خراسان سنة (٢٠٥هـ/٨٢٠م) وأضاف إليه بعض ولايات المشرق الإسلامي، فاتخذ من نيسابور(حاضرة إقليم خراسان) عاصمة له، فكانت أول دولة من أصول فارسية تظفر باستقلال ذاتي عن الحكومة المركزية في بغداد.ابن خاوندشاه: روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفا، ص ٤٨، ٤٧. ترجمة د/ أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط ١ القاهرة ١٩٨٨ م ــ محمود عرفة محمود: الدول الإسلامية المستقلة في الشرق وعلاقاتها بالخلافة العباسية، ص ٦٨، دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٨م.

(١٣)الصفاريون: تنسب هذه الجماعة إلي "يعقوب بن الليث الصفار" الذي كان يعمل في صناعة الصفر(النحاس) وقد ظهرت إمارتهم في إقليم سجستان، والتي كانت في بداية أمرها تتكون من المتطوعين الذين أرادوا معاونة الخلافة العباسية ضد أعدائها من الخوارج وقطاع الطرق، ثم سيطر على حركة المتطوعة " يعقوب بن الليث الصفار " الذي

تحطمت عليها الآمال الصفارية في الاستيلاء على المشرق الإسلامي كلـه[١٤]، علـى الرغم من أن الصفاريين لم يتخذوا من خراسان مقرا لحكمهم، وفـضلوا البقـاء فـي سجستان مهد حركتهم، ومنشأ قادتهم، وبنوا سياستهم على تحويل خراسـان ولايـة ممولة لحكمهم في سجستان، مما أفقدها امتيازها السياسي في عصرهم[١٥]. ونتيجـة لمعطيات تلك المنطقة السياسية آنذاك، كان طبيعيا أن يدخل إقليم خراسان في حـوزة السامانيين[١٦] (٢٦١ــ٣٨٩هـ/ ٨٧٤ ــ٩٩٩م) المتطلعين إلى الـسيطرة والنفـوذ، والذين أغرتهم إمكانات الإقليم الاقتصادية والبشرية على تثبيت سـلطانهم[١٧]. ولكـن الحقيقة أن خراسان بأهميتها السياسية سال عليها لعاب كثير من المغامرين الجدد في المنطقة للاستحواذ عليها، حتى أصبحت مطمعا لقوى سياسية جديدة أهمهـا الدولـة

قويت شوكته، واستطاع أن يستولي على سجستان، ثم أخذ يتحرش بالإمارة الطاهرية، حتى تمكن من إسقاطها سنة(٢٥٩ هـ/٨٧٢م). خليل السامرائي: تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي(١٣٢ ـ ٦٥٦ هـ/٧٤٩ ـ ١٢٥٨ م)ص١١٩، طبع جامعة الموصل ١٩٨٨م.

(١٤) ساءت العلاقات بين الصفاريين، والخلافة العباسية وذلك عقب استيلاء "يعقـوب بـن الليث الصفار" على إقليم خراسان، على الرغم من تحذير الخليفة العباسي بعـدم إقدامـه على هذا العمل ــ وذلك للعلاقة القوية التي كانت تربطهم بالطاهريين ــ إلا أن يعقـوب استسلم لأطماعه، ولم يستمع لصوت العقل، ودخل في صراع مع الخلافة ممـا عجـل بنهايته، ونهاية دولته من بعده. للمزيد من التفاصيل أنظـر، محمـود عرفـة : الـدول الإسلامية المستقلة، ص ٢٥٣، ٢٥٥.

(١٥) فتحي أبو سيف: خراسان تاريخها السياسي من سقوط الطاهرين إلى بداية الغزنويين، ص ٨٥، مكتبة سعيد رأفت،ط١ ١٩٨٨ م.

(١٦)السامانيون: تنسب هذه الجماعة إلي إحدى الأسر الفارسية التي ظهرت فـي المـشرق الإسلامي، لاسيما في عهد الخليفة المأمون، حيث نالت حظوة كبيرة عنده، فولاهم بـلاد ما وراء النهر.ومن أشهر حكام هذه الأسرة "إسماعيل بن أحمد الساماني" و" نـوح بـن نصر" وقد ظهر في عهد هذه الأسرة العديد من العلماء الأجـلاء الـذين خـدموا الفكـر الإسلامي. النرشخي : تاريخ بخاري، ص ١١٣، ترجمة أمين عبد المجيد بدوي، ونصر الله مبشر الطرازي، دار المعارف، ط٣ القاهرة ١٩٦٥م ــ أرمنيوس فامبري : تـاريخ بخاري،ص٩٣، ترجمة : أحمد محمود الساداتي، المؤسسة المصرية العامـة للتـأليف، القاهرة (د.ت).

(١٧) محمد سعد السيد عزب: الحياة الفكرية في إقليم خراسـان فـي العـصر الـسلجوقي (٤٢٩ــ ٥٥٨هـ/ ١٠٣٧ــ١١٦٢م).، ص ٥٥، ٥٦،شركة نوابغ الفكـر،ط١ القـاهرة ٢٠٠٩م.

الغزنوية[١٨]، التي بدأ حكامها يعملون على مد نفوذهم السياسي إلى خراسان باعتبارها من أهم الولايات السامانية[١٩]. ولما كان التغير السياسي قدرا تاريخياً حتمياً، وبخاصة في تلك المنطقة الحيوية، دخلت خراسان في حوزة الدولة السلجوقية سنة (٤٢٩هـ/١٠٣٧م) [٢٠]عقب معركة "سرخس"[٢١] الشهيرة، التي انتصر فيها الجيش السلجوقي على الغزنويين، فكان ذلك إيذانا بقيام دولتهم، حيث سار السلطان "طغرل بك" إلى نيسابور فدخلها، وجلس على عرش السلطان مسعود الغزنوي، ولقب نفسه بالسلطان المعظم ركن الدين والدنيا أبو طالب محمد، وأمر أن تضرب النقود باسمه[٢٢]. وقد بلغت خراسان أوج ازدهارها وتفوقها الثقافي في العصر السلجوقي، حيث اعتمدت الدولة السلجوقية على غنى هذا الإقليم اقتصاديا، وبشريا، مما جعل له الزعامة السياسية في منطقة المشرق الإسلامي، واستتبع ذلك زعامة ثقافية على جميع أقاليم المشرق، لاسيما بعد أن تحولت خراسان إلى مركز الثقل الثقافي بين الولايات الشرقية .

---

(١٨)الدولة الغزنوية :هي إحدى الدول الإسلامية التي قامت في شرق الدولة الإسلامية، ويرجع ظهور الغزنويين إلي " البتكين " كبير حجاب الأمير " عبد الملك بن نوح الساماني، وكان البتكين أحد الموالى الأتراك الذين اعتمد عليهم السامانيون في ضبط أمور دولتهم، فعلا شأنه وزاد طموحه حتى أصبح مقربا لرجال الدولة، مما أتاح له أن يتبوأ مناصب رفيعة في الدولة، لمزيد من التفاصيل أنظر : محمود عرفة محمود : الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، ص ٢٥٣، ٢٥٥.

(١٩) فتحي أبو سيف: خراسان تاريخها السياسي، ص ٧.

(٢٠)السلاجقة: يرجع أصل السلاجقة إلى الترك الذين كانوا يقيمون في الصحراء الواسعة التى تمتد من حدود الصين حتى شواطئ بحر قزوين، وقد كثرت هجرتهم إلى المناطق الإسلامية في إيران وقت انهيار الدولة السامانية حيث المراعى الوفيرة، وقد عرف السلاجقة بهذه التسمية نسبة إلى زعيمهم " سلجوق بن دقاق " الذى جمع شملهم ووحدهم تحت زعامته وخضعوا لحكم أبنائه وأحفاده من بعده، ومن أشهر ملوكهم " طغرل بك " و " ألب أرسلان " و "ملك شاه بن ألب أرسلان" "وسنجر بن ملكشاه". الحسينى : زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، ص٢٣، تحقيق د/ محمد نور الدين، دار إقرأ ط١ بيروت ١٩٨٥.

(٢١) سرخس: مدينة كبيرة من أشهر مدن خراسان وتقع في وسط الطريق بين نيسابور ومرو.ياقوت : معجم البلدان، ج٣، ص٢٠٨.

(٢٢) البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٦٨٥، ترجمه إلي العربية د/ يحيي الخشاب، وصادق نشأت، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٥٦ م – الراوندي : راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ص ١٥٨ ترجمة د/ إبراهيم أمين الشواربى وزميلاه دار القلم القاهرة ١٩٦٠م .

وثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام أشار إليها أحد الباحثين(٢٣)، وهي: ذلك التناقض الذي وقع فيه كثير من المؤرخين القدامي، والمحدثين، عندما اعتبروا أن نمو الحركات القومية ـ المتمثل في تجزأ العالم الإسلامي إلى كيانات سياسية متعددة ـ كان نوعا من الضعف أصاب العالم الإسلامي، والذي أدى في النهاية إلي انهياره، متأثرين في ذلك بالأفكار السائدة في عصرهم، والتي كانت ترى عدم استفادة القوميات من هذا الضعف، وهم يتصورون أن التمسك بالوحدة السياسية هو العلاج الناجح للإصلاح السياسي للخلافة العباسية، بما يعتنقونه من فكر تقليدي ساد كتابات هؤلاء المؤرخين، ولم يلتزموا الحيدة التاريخية، إذ كانوا يتمنون عودة الخلافة الإسلامية إلي سابق عهدها وحدة سياسية واحدة، كما كان عليه الحال أيام الخلافة الراشدة، والدولة الأموية. ومع ذلك نجدهم يقعون في تناقض عجيب، وآية ذلك أنهم يذكرون مثلا: فضل الطاهريين، والسامانيين، والغزنويين في حماية الثغور الشرقية، وحين يتحدثون عن التفكك يذكرون أن الحركة الثقافية الإسلامية أفادت من هذا الوضع، الذي كان له مردود إيجابي من الناحية العلمية، واعتبروه نوعا من الحيوية المتدفقة التي دبت في أرجاء العالم الإسلامي، وأوجد نهضة علمية عارمة، وانعكس ذلك في ظهور مراكز علمية في: "بخاري " و " سمرقند " و " خراسان " و " أصفهان " و " القاهرة " و " القيروان " و " قرطبة " وغيرها، نافست بغداد، بل وتفوقت عليها في بعض الأحيان.

وعلى أية حال فإن الفتح السلجوقي لمنطقة خراسان لم يكن حدثا سياسيا، وحربيا فحسب، بل إن هذا الفتح قد تبلور في شكله إلى حدث علمي وثقافي واسع، فقد اختطت الحضارة الإسلامية لنفسها في بلدان المشرق جداول ظلت تتدفق في كل ركن من أركانها، فانتشرت تلك الجداول في كل من: نيسابور، ومرو، وهراة، وبلخ، وأصفهان، والري، وبخارى، وسمرقند، وخوارزم، وطبرستان، وهمذان، وجرجان. فاتقدت فيها مشاعل العلم، وأنارت تلك المدن، وحملت كل واحدة مشعل الحضارة والثقافة والنور في المشرق، وأضحت مركز إشعاع للعلوم والثقافة، وموطن رحل العلماء، وموئل الساعين من طلاب العلم ورواد الثقافة والباحثين عن المعرفة، وأخرجت تلك المدن الكثير من العلماء النابهين، التي تفيض بهم المصادر لتدون أعمالهم الجليلة في خدمة العلم والدين. والواقع أن الطبقة العليا في المجتمع السلجوقي، وكبار رجال الدولة اتخذوا من خراسان مقرا لإقامتهم، فيذكر الراوندي(٢٤) أن قصور السلطان سنجر كانت بمدينة "مرو"، وبجوارها قصور أمراء السلاجقة،

---

(٢٣) حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٣٠٢ دار الفكر العربي، ط ٣، القاهرة، ١٩٧٧م.

(٢٤) راحة الصدور : ص ٢٦٠.

وكانت في غاية من الروعة والفخامة والإبداع. بيد أن النهضة العلمية في المشرق الإسلامي (إيران) اقترنت إلى حد كبير بأسماء العديد من المدن التي قامت بدور بارز في إنعاش الحياة العلمية، وخاصة في العصر السلجوقي، وكان طبيعيا ألا تصل الحياة العلمية إلى هذا الطور من التقدم إلا بفضل تشجيع السلاجقة، واهتمامهم بتلك المراكز العلمية وتقديرهم لرجالها.

هذه إطلالة سريعة على إقليم خراسان وملامحه السياسية والجغرافية عبر التاريخ، لأن البيئة في أي مجتمع تشكل ـ كما هو معروف ـ حياة البشر الذين يعيشون في هذا المجتمع، وتؤثر دائما على تفوقهم الذهني والفكري، فالإنسان دائما ابن بيئته، ولذلك لا نعجب إذا رأينا أن خراسان بثقلها السياسي والثقافي، كانت تهفو إليها نفوس الطلاب والعلماء من شتى بقاع الأرض على اختلاف تخصصاتهم. ومن المسلم به، في العصر الإسلامي، أنه كان لا ينبغ أحد في علم من العلوم إلا إذا كان متمكنا في علوم شتى، ذلك لشدة الارتباط بين العلوم آنذاك، ولم يكن للتخصص الذي ساد بعد ذلك مكان، بل إن الطابع الموسوعي هو الذي كان سائدا.

النهضة الثقافية في إقليم خراسان

استأثرت خراسان باهتمام السلاجقة منذ أن وطئت أقدامهم هذا الإقليم، انطلاقا من عدة معطيات وضعت هذا الإقليم على مستوى التكافؤ مع المشرق كله، إذ تعود أهميته إلى طابعه المركزي، فهو يشكل قلب المشرق، ولحمته وسداه، نظرا لأهميته الاستراتيجية، والاقتصادية، فإقليم خراسان دائما كان نواة لدول أهلها أن تلعب دورا مهما في المنطقة، كما كان الإقليم متاخما لمناطق حضارية عريقة مثل: "خوارزم"، و"بلاد ما وراء النهر" و"أصفهان" و"طبرستان" مما جعله مفتاح النهضة الثقافية للمشرق، وسر قوته، ونهوضه.

وكان طبيعيا أن يعمد السلاجقة إلى اغتنام الفرصة، في تلك التربة الطيبة، التي زخرت بالعلماء والأدباء على مر العصور، لاسيما أنهم ورثة نهضة علمية زاهرة في هذا الإقليم، فكان للتشجيع المادي والأدبي الذي قدمه السلاجقة لهؤلاء العلماء أثر كبير في ازدهار الثقافة في خراسان، إذ كانوا ينفقون المبالغ الطائلة على العلماء، ويقيمون الندوات العلمية والأدبية، والمباريات الشعرية، ويمنحون الجوائز للمبرزين.

كما يمكننا أن نعزو النهضة الثقافية التي عمت إقليم خراسان، في العصر السلجوقي، إلى تعاقب الثقافات المختلفة عليه، بتعاقب الدول من: صفاريين وسامانيين وبويهيين، والذين أغرموا بالثقافة ونشر العلوم، فكان تنوع الثقافات في هذا الإقليم من الأسباب المهمة في وجود حياة علمية وأدبية عالية. كل هذا كان أساسا صالحا بنى عليه صرح النهضة الفكرية والعلمية الشاملة في العصر السلجوقي. ولقد تأثرت النهضة العلمية في خراسان بالعناصر المكونة للأمة الإسلامية والأجناس الداخلة تحت

سلطان الدولة من: فرس وترك وعرب والأقليات الأخرى، حيث قدم كل جنس من هؤلاء ذخائر ما لديه من علوم وفنون، لبناء الصرح الثقافي الإسلامي، مما جعل جغرافيا كالمقدسي [٢٥] يصف الإقليم بقوله: "هو أجل الأقاليم وأكثرها أجلّة وعلماء، ومعدن الخير ومستقر العلم وركن الإسلام وحصنة الأعظم" ويصفه في موضع آخر بقوله: "فيه يبلغ الفقهاء درجات الملوك" [٢٦]. والواقع أن العصر السلجوقي هو العصر الذي انصهرت في بوتقته جميع التيارات والثقافات الإسلامية، مستفيدًا من التراث العلمي الهائل، الذي خلفه علماء العرب والمسلمين في شتى الآداب والفنون، فتفجرت ينابيع الثقافة في العلوم العربية والعقلية وأثمرت تلك العلوم والفنون بفضل تعهد السلاطين والخلفاء لها بالرعاية، فقد أقاموا المساجد والمدارس ودور العلم والمكتبات، وجعلوا منها مجامع علمية تدور فيها المناقشات والمطارحات، حتى أصبح التهافت على نيل العلم واحتواء المعرفة ظاهرة ملموسة في ذلك العصر، واحتشد فيه طائفة من أجل العلماء والأدباء والفقهاء، طبقت شهرتهم الآفاق، وامتازوا بسعة الأفق، وضخامة الإنتاج، وخلفوا لنا ثروة علمية وأدبية في مختلف فروع العلوم الإسلامية والإنسانية.

ازدهار الحركة المدرسية بخراسان في العصر السلجوقي

ازدهرت الحركة المدرسية في العصر السلجوقي ازدهارا ملحوظا، وأصبحت خراسان محوراً لنشاط علمي واسع، ويرجع ذلك إلى ولع سلاطين السلاجقة بالعلم وأهله، محاكين في ذلك البويهيين وحبهم للعلم والعلماء، إذ أحاط السلاجقة أنفسهم بالعلماء والأدباء والشعراء من العرب والفرس، كان لهم نصيب من عنايتهم وتشجيعهم، وكان لحب سلاطين السلاجقة للعلم أبعد الأثر في اختلاط الإيرانيين بالعراقيين، وامتزاج حضارة كل من البلدين، فأصبحا يمثلان صورة صادقة للحضارة الإسلامية.

فقد كان السلطان طغرل بك (٤٢٩-٤٥٥هـ/١٠٣٧-١٠٦٣م) على ما وصفه المؤرخون[٢٧] مسلما يحب أهل السنة ويميل إليهم، ويحرص على أداء الفرائض والتقرب إلى أئمة الدين، ويبني المساجد، ويقول: "أستحي من الله تعالى أن

---

(٢٥) أحسن التقاسيم: ص٢١٢

(٢٦) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٢١٢

(٢٧) العماد الأصفهاني: تاريخ دولة آل سلجوق. ص ٢٨ (اختصار الفتح بن علي البنداري). دار الآفاق الجديدة. ط٣. بيروت ١٩٨٠م.

أبني لي داراً ولا أبني إلى جانبها مسجدًا"، كما كان شديد التقرب إلى العلماء مكرماً إياهم [٢٨].

وعلى الرغم من أن السلاجقة أتراك، وكان من المنتظر أن تروج اللغة التركية في عهدهم، لأنهم أصحاب السيادة والسلطان، إلا أنه حدث عكس ذلك، حيث راجت اللغة والثقافة العربية وكذلك الفارسية في ذلك العصر، وأصبحتا لغتي الكتابة والأدب، ويرجع ذلك إلى اتخاذ السلاجقة مدنا فارسية عواصم لهم أقاموا فيها [٢٩]. ويمتاز عصر السلطان سنجر بن ملكشاه (٥١١ــ٥٥٢هـ/١١١٧ــ١١٥٧م) ــ الذي اتخذ من مدينة مرو عاصمة لمملكته ــ من الناحية العلمية والأدبية بكثير من البهاء، إذ يعتبر عصره من العصور الهامة في تاريخ الثقافة في الدولة السلجوقية، ويتجلى ذلك في سياسته الرامية إلى توفير كل الرعاية للعلماء والأدباء والشعراء، فزخر بلاطه بكثير منهم، تركوا تراثا ضخما من المصنفات في كل علم وفن.

والواقع أنه، في عصر السلطان سنجر أصبحت اللغة الفارسية هي لغة الكتابة والأدب، فقد زاحمت الفارسية العربية، وخاصة في مدن خراسان وما وراء النهر، التي تعد من أهم مراكز الثقافة في المشرق الإسلامي إبان ذلك العصر، وبرز كثير من العلماء في شتى فروع المعرفة، يثرون الحياة العلمية بتراثهم، بفضل اهتمام وتشجيع السلطان سنجر لهم، وأصبح التأليف بالفارسية والعربية معا سمة من سمات ذلك العصر، وصارت خراسان في عصره مقصد كثير من العلماء، ومنهلا للعلوم والمعرفة [٣٠]. كما أصبحت مدن خراسان في عهد سنجر من أكبر مراكز الثقافة، وذات كيان ثقافي مستقل، وغدت تتمتع باستقلال سياسي، لذلك نلحظ تغلب الفارسية على العربية،

---

(٢٨) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج٨ ص١١٦، دائرة المعارف العثمانية ط١ حيد أباد ١٣٥٣هـ ــ ابن الأثير: الكامل في التاريخ. ج٨ ص ٣٩. دار الفكر. بيروت، ١٩٧٨م.

(٢٩) اتخذ سلاطين السلاجقة حواضر خاصة بهم في بلاد المشرق الخاضعة لسلطانهم ولم يتخذوا من بغداد مقرا لإقامتهم كما فعل البويهيون لكنهم أرسلوا نوابا لهم ليراقبوا نشاط الخلفاء العباسيين ووزرائهم، وصاروا يصرفون شؤون الحكم من عاصمتهم فاتخذ طغرل بك أول سلاطين السلاجقة في أول الأمر مدينة "الري" لتكون حاضرة ملكه ثم جعل "نيسابور" واتخذ ألب أرسلان مدينة "مرو" واتخذ ملكشاه مدينة "أصفهان" التي كانت أحب المدن إليه بينما اتخذ السلطان سنجر مدينة "مرو" عاصمة لدولته، ومنذ أن تولى السلطان محمد بن محمود أصبحت "همذان" عاصمة للسلاجقة إلى آخر أيامهم. محمود إدريس: رسوم السلاجقة ص٤٥.

(٣٠) محمود إدريس: السلطان سنجر السلجوقي ص١٢٤، المطبعة التجارة الحديثة،القاهرة ١٩٨٨م.

إذ اهتم بالفارسية سائر أفراد المجتمع، وظهرت مصنفات كثيرة في العلوم الدينية واللغوية، وتم خلال عصره تأليف عدد من أمهات الكتب العربية والفارسية، ومن أشهر المؤلفات الفارسية كتاب: "ذخيرة خوارزمشاهي" وهو كتاب مفصل باللغة الفارسية في جميع فروع علم الطب، ألفه زين الدين أبو إبراهيم الجرجاني المتوفى سنة (٥٣١هـ/١١٣٦م)[٣١] ومقامات القاضي حميد الدين أبي بكر البلخي المتوفي سنة (٥٥٩هـ/١١٦٣م)، [٣٢] وكتاب "جهار مقالة" أو "المقالات الأربع" التي ألفها نظامي عروضي السمرقندي المتوفي سنة (٥٥٥هـ/١١٦٠م) وهو من أقدم الكتب الفارسية التي عالجت جوانب الحياة الأدبية والعلمية في الجانب الشرقي من العالم الإسلامي منذ القرن الثالث الهجري حتى منتصف القرن السادس الهجري[٣٣].

كذلك زخر عهد سنجر بكثير من الأدباء والشعراء بفضل تشجيعه لهم، ودعوتهم إلى بلاطه، وجعلهم من جلسائه، إلى درجة أنه يمكن تعداد أكثر من خمسين شاعرا منهم، غير الوزراء، والأمراء، والأطباء، ومن أشهرهم: "معزى" [٣٤] الذي لقب بالأمير معزى، ويعد من أحسن شعراء الفرس وأجلهم إنشاداً، وقد بلغ من تقدير السلطان سنجر للمعزى أنه كان يناديه بأبيه، ويملأ فمه بالجواهر حين يستحسن أشعاره، ومنحه لقب أمير الشعراء[٣٥].

وقد خدم وزراء السلاجقة الحياة العلمية خدمات جليلة ويرجع الفضل في ذلك إلى سلاطينهم الذين كانوا لا يستوزرون إلا من بلغ مرتبة عالية من الثقافة والمعرفة، وخير دليل على ذلك أن السلطان طغرل بك – أول سلطان سلجوقي – عندما أراد أن يتخذ وزيرا، حرص على أن يكون من رجال العلم والأدب، وأن يكون متقنا للغتين العربية والفارسية، فلما علم أن عميد الملك الكندري على دراية بهما ؛ استدعاه وولاه

(٣١)العروضي السمرقندي: جهار مقالة، ص ١٦٦، ترجمة : عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط١ القاهرة ١٩٤٩ م.

(٣٢)السابق: جهار مقالة، ص ٩٩.

(٣٣) براون: تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى السعدي، ص ٤٢٥، ترجمة د/ إبراهيم أمين الشواربي. مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٥٤م.

(٣٤) معزى: هو محمد بن عبد الملك البرهاني المعروف بمعزى النيسابوري من مشاهير شعراء عصره امتدح السلطان ملكشاه والسلطان سنجر ووزرائهما ولكن نهاية المعزى كانت حزينة فقد قتله سهم انفلت خطأ من قوس سنجر عندما كان يقوم بالرماية وذلك سنة ٥٤٢هـ.رضا زاده شفق: تاريخ الأدب الفارسي ص٨٩.

(٣٥) محمد غنيمي هلال: مختارات من الشعر الفارسي ص ١٤٧، ١٤٨.

وزارته. وكان الكندري معروفاً بالذكاء والفراسة، ومشهورًا بالفضل والكياسة، وكانت له أياد بيضاء في الكتابة والفصاحة[٣٦].

وكان مجلس الوزير نظام الملك [٣٧] عامرا بالفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الدين والتدين، حتى كانوا يشغلونه عن أمور الدولة وأعمالها، فقال له بعض خاصته: هذه الطائفة من العلماء قد بسطتهم في مجلسك حتى شغلوك عن مصالح الرعية ليلا ونهارا، فقال: "هذه الطائفة أركان الإسلام وهم جمال الدنيا والآخرة ولو أجلست كلا منهم على رأسي لاستقللت لهم ذلك[٣٨].

وتعد المدارس النظامية، التي أسسها الوزير نظام الملك في خراسان، من أول المدارس العلمية المنظمة في الإسلام، بل وذهب البعض[٣٩] إلى أن التعليم الجامعي بأسلوبه الذي نعهده اليوم، عرفته إيران منذ القرن الخامس الهجري، فكانت صاحبة ابتكار هذا النوع من الدراسة، الذي نقله عنها الأوربيون بعد ذلك. ويصف العماد الأصفهاني[٤٠] نظام الملك، فيقول: "ولم يزل بابه مجمع الفضلاء، وملجأ العلماء، ومن رآه مستحقا لرفع قدره رفعه وأعلاه، ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه، ورتب له ما يكفيه من جدواه، حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره، وتدريس الفضل وذكره، وربما سيره إلى إقليم خال من العلم ليحلى به عاطله، ويحيى به حقه، ويميت باطله". وقد أقام الوزير نظام الملك الكثير من المؤسسات العلمية في سائر أقطار وأطراف البلاد في فارس والعراق وخراسان، وأوقف على هذه المؤسسات مزارع وضياعاً عامرة[٤١]

---

(٣٦) خواندمير: دستور الوزراء، ص١٣٨، ترجمة : د/ حربي أمين سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠ م ــ الراوندي: راحة الصدور ص ١٨٦، ١٨٧

(٣٧) نظام الملك: هو أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي ولد عام (٤٠٨هـ/ ١٠١٧م) بقرية من نواحي طوس عمل في بداية حياته في دواوين الدولة الغزنوية بخراسان فلما أفل نجمهم انتقل إلى خدمة السلاجقة الذين ورثوا الغزنويين بخراسان ثم لم يلبث أن اتخذه ألب أرسلان وزيرا له فلما قتل ألب أرسلان عام (٤٦٥هـ/١٠٧٢م) اتخذ ملكشاه بن ألب أرسلان وزيرا له إلى أن قتل عام (٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م) على يد أتباع الحسن الصباح.ابن الجوزي: المنتظم، ج٩ ص٦٤. الحسيني: الزبدة، ص١٤٠-١٤٥.

(٣٨) ابن الجوزي: المنتظم ج٩ ص٦٥ ــ خواندمير: دستور الوزراء ص٢٤٨.

(٣٩) صادق نشأت: صفحات عن إيران ص ١٤٢، مطبعة مخيمر، القاهرة ١٩٦٠م.

(٤٠) آل سلجوق: ص٥٩.

(٤١) يحيى الخشاب: نظام الملك المدارس النظامية، ص ٥٥٦، ٥٦٧، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الخامس ١٩٧٥م.

ولا شك أنها أصبحت كما تقول الآية الكريمة: {وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض} [٤٢].

وتفوق على جميع العظماء والفضلاء، وأهل الدولة والسلطان مدة ثلاثين عاما، خلال سلطنة السلطان ألب أرسلان والسلطان ملكشاه، لجمعه لأسباب الفضل والرفعة، وأدوات العلم والمعرفة، وظلت مدارسه تؤدي دورها العلمي والثقافي، وخدمة المعرفة، حتى بعد انقضاء العصر السلجوقي[٤٣]. ويذكر عن نظام الملك أنه كان كثير الإحسان على أهل العلم، حتى إنه رتب رواتب ثابتة تصرف لهم بانتظام، بحيث كان رزقه يجرى على اثني عشر ألف عالم من فقيه وغيره[٤٤]، كما كان يحوط العلماء برعايته وتأييده، فيذكر المؤرخون [٤٥] "إنه كان إذا دخل عليه أبو القاسم القشيري[٤٦]وأبو المعالي الجويني[٤٧] يقوم ويجلسهما، وإذا دخل عليه أبو علي الفارمذي قام وأجلسه مكانه وجلس بين يديه". وتذكر الروايات[٤٨]أن تاج الملك أبا الغنائم، صاحب خزانة السلطان ملكشاه، نقم على الوزير نظام الملك، فوشى به عند

---

(٤٢) سورة الرعد: آية ١٧.

(٤٣)خواندمير: دستور الوزراء، ص٢٤٨، ابن الجوزي: المنتظم، ج٩ ص٦٦، ٦٧.

(٤٤)ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ١٢١. مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨م.

(٤٥)ابن الجوزي: المنتظم ج٩، ص٦٦، السبكي: طبقات الشافعية ج٣، ص١٣٧.

(٤٦)أبو القاسم القشيري: هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد النيسابوري القشيري الفقيه الشافعي شيخ خراسان في عصره كان علامة في الفقه والحديث والتفسير والأصول والأدب وعلم التصوف وكان ثقة حسن الوعظ وله تصانيف مشهورة منها "الرسالة القشيرية" و"التيسير في علم التفسير" وتوفي سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٢م). ابن الجوزي: المنتظم، ج٨ ص٢٨٠.ابن عساكر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ص٢٧٤.

(٤٧) أبو المعالي الجويني: هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني أبو المعالي الملقب بإمام الحرمين أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعي على الإطلاق، المجمع على إمامته المتفق على غزارة علمه وتفننه في العلوم من الأصول والفروع والأدب وهو من أهل نيسابور رحل إلى بغداد ولقي بها جماعة من العلماء وذهب إلى الحجاز وجاور بمكة أربع سنين ولذا قيل له "إمام الحرمين" ثم عاد إلى نيسابور فبنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية فيها وحضر دروسه الأكابر والأئمة وله مصنفات كثيرة منها "العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية" و"الإرشاد" و"الورقات" وغير ذلك وتوفي الجويني سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م).

ابن عساكر: تبيين كذب المفتري، ص ٢٧٨، السبكي: طبقات الشافعي ج٣، ص ٢٤٩.

(٤٨) الحسيني: زبدة التواريخ ص ١٤١، ١٤٢.

السلطان قائلا: "إنه ينفق في كل سنة على الفقهاء والصوفية والقراء ثلاثمائة ألف دينار، ولو جيش بها جيشا لطعن باب القسطنطينية"، فاستحضر السلطان ملكشاه نظام الملك وعاتبه، وطلب منه أن يبرر تصرفاته، فأجابه: "إنك تنفق على الجيوش المحاربة كل سنة أضعاف هذا المال مع أن أقواهم وأرماهم لا تبلغ رميته ميلا، ولا يضرب سيفه إلا ما قرب منه، وأنا أجيش لك بهذا المال جيشاً تصل من دعائهم سهام إلى العرش لا يحجبها شيء عن الله"، فبكى السلطان وقال له: "استكثر من هذا الجيش والأموال مبذولة لك، والدنيا بين يديك"[٤٩]. وقد تضمنت كتب التراجم والتاريخ، والأدب والطبقات، معلومات مفصلة عن العلماء الذين اختصهم نظام الملك برعايته، واستعان بهم في تولي مهنة التدريس في مدارس النظامية، منهم الإمام حجة الإسلام الغزالي أكبر فقهاء الإسلام في عصره.

وكان نظام الملك أينما وجد عالما متميزا، يتبوأ منزلة مرموقة بين العلماء، بنى له مدرسة، وأوكل إليه التدريس بها، والقيام على شؤونها. فيذكر ابن الأثير[٥٠] أن العالم الجليل أبا بكر بن ثابت الخجندي[٥١] سمعه نظام الملك وهو يعظ بمرو، فأعجب به وعرف محله من الفقه والعلم، فحمله إلى أصفهان، وعينه مدرسا بمدرستها النظامية فنال جاها عريضا، كما اهتم نظام الملك بأبي المظفر السمعاني[٥٢] ورفع من قدره، وأناط به مهمة التدريس بمدرسته النظامية بمرو، ووكل له جميع شئونها[٥٣]، كما أن نظامية نيسابور قد بنيت برسم إمام الحرمين أبي المعالي

(٤٩) السابق: زبدة التواريخ ص١٤٢.

(٥٠) الكامل في التاريخ ج٨ ص٢١٩

(٥١) أبو بكر الخجندي: محمد بن ثابت بن علي أبو بكر الخجندي نزيل أصفهان وأصل بيت الخجندي من مدينة خجندة بما وراء النهر، وهو إمام غزير الفضل، حسن السيرة، تفقه فبرع في الفقه حتى صار من جملة رؤساء الأئمة وتخرج به وبكلامه جماعة من أهل العلم وانتشر علمه في الآفاق، وولاه نظام الملك مدرسته التي بناها بأصفهان وتوفي سنة (٤٨٣هـ/١٠٩٠م).الصيريفيني:المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور،ص٦٨، ٦٩.

(٥٢) أبو المظفر السمعاني: نصور بن أحمد بن عبد الجبار بن الفضل بن الربيع بن مسلم بن عبد الله التميمي الإمام الجليل العالم الزاهد أحد أئمة الدين أبو المظفر بن الإمام أبي منصور المعروف بالسمعاني كان الإمام أبو منصور من أئمة الحنفية ثم صار إلى مذهب الشافعي،وكان إمام عصره بلا مدافعة وصار إمام الشافعية بعد ذلك يدرس ويفتي ويصنف في مذهب الشافعي،وتوفي سنة(٤٨٩هـ/١٠٩٥م).اللكنوي:الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص١٧٣،تحقيق السيد محمد بدر الدين مطبعة السعادة،ط١ القاهرة ١٣٢هـ

(٥٣) اللكنوي: الفوائد البهية في تارجم الحنفية ص١٧٣، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣ ص٢١٢.

الجويني، الذي ظل يدرس بها ثلاثين سنة إلى حين وفاته [٥٤]. وكان الوزير نظام الملك على الجملة يحوط هؤلاء العلماء برعايته، ويمده بتأييده، حتى تبوؤا منزلة رفيعة في البلاد التي حلوا بها، وأصبح يشار إليهم بالبنان.

وقد تمكن نظام الملك أن يجذب إلى جانبه عطف وتأييد أعلام العلماء في جميع المراكز المهمة، التي امتد إليها سلطان السلاجقة فتحول كبار العلماء إلى مدرسين في مختلف المدن، حتى راجت سوق العلم في أيامه، وظل العلماء في عهده مرفوعي الهامة.

وثمة حقيقة تاريخية ظاهرة وجدت في المجتمع الإسلامي منذ القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وهي: أنه قبل ظهور السلاجقة كان يسود جو من التعقيد الذي أثر على الفكر الديني، وبخاصة في منطقة خراسان التي ظهرت فيها قوى متصارعة، ومتناقضة فيما بينها من أجل البقاء، أو السيطرة، وبرزت مشاعر الشك والريبة المتبادلة بين المذاهب الدينية، مما سبب تنافرها، وحال دون تآلفها وتفاهمها [٥٥].

كان المذهب الشيعي قد انتصر في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وقامت دولتان شيعيتان كبيرتان في طرفي العالم الإسلامي الشرقي والغربي، أصبحت السيادة والسلطان لهما، فالدولة الفاطمية في الغرب، وتضم إليها بلاد المغرب ومصر واليمن والحجاز والشام، والدولة البويهية في الشرق، ولها السيادة على إيران والعراق قلب الدولة الإسلامية نفسها.

ولم يلبث أن حدث رد فعل قوي في مطلع القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) وبدأ المذهب السني يسود من جديد، بعد أن ضعفت الدولتان الفاطمية والبويهية بظهور دولة سنية كبيرة في المشرق الإسلامي ألا وهي: " الدولة السلجوقية "، والتي كان هدفها الرئيس القضاء على الدول والمذاهب الشيعية في كل مكان، بل وكان جل اهتمام سلاطينها المحافظة على المذهب السني وذيوعه، ويرون ضرورة التخلص من كل الحركات المناوئة له في العالم الإسلامي، وإعادة هيبة الخلافة الإسلامية من جديد على أساس متين.

ويلاحظ أنه حين ظهر السلاجقة ؛ كان المذهب السني مضيقا عليه، سواء في داخل الدولة العباسية أو في خارجها، ففي الداخل كان يسيطر على الحكم "بنو بويه"

---

(٥٤) ابن عساكر: تبين كذب المفتري ص٢٧٨، ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ج٣ ص٣٥٨.

(٥٥) محمد سهيل طقوش: تاريخ السلاجقة في خراسان وإيران والعراق (٤٢٩ـ٥٩٠هـ/ ١٠٣٨ـ١١٩٤) ص ٢٣، دار النفائس ط ١ بيروت ٢٠١٠ م.

الشيعة، الذين ظلوا جاثمين على صدر الخلافة العباسية ما يزيد على قرن من الزمان، أما في الخارج فكانت مصر والشام والحجاز والمغرب واليمن بحكمها الفاطميون، الذين لم يكتفوا باتخاذ التشيع مذهبا رسميا داخل دولتهم، بل عملوا على بث دعاتهم في سائر أنحاء الدولة العباسية، لاسيما في المشرق الإسلامي، من أجل القضاء على دولة السلاجقة (٥٦).

وكان السلاجقة متحمسين للمذهب السني، فتصدوا للدفاع عنه خاصة، وعن الإسلام عامة، وعملوا على تحقيق ذلك بشتى الوسائل، سواء بالقوة العسكرية، أم بالتعليم ونشر المعرفة. والواقع أن العصر السلجوقي يمثل، من الناحية العلمية، ثورة الفكر السني ضد تيارات الفكر الشيعي، والتصدي لها بقوة، حتى خفت صوت الشيعة، وأصبح أمرهم إلى زوال.

كما كان للعلماء المنتمين إلى المذاهب الأربعة دور عظيم في تنشيط الحركة الفكرية، في إقليم خراسان في العصر السلجوقي تمثل في: إنشاء العديد من المدارس الشافعية، والحنفية، والحنبلية، فكان لكل مذهب مدارسه المعروفة. وكان رجال الأمة، الحريصون على مصالح الإسلام، جادين في العمل على دعم النشاط العلمي والثقافي، وإشاعة العلوم الشرعية، وتبني استخدام المنطق والجدل وعلم الكلام للدفاع عن عقيدة أهل السلف. وقد أدي ذلك كله إلى انتعاش علمي هائل تمثل فيما ظهر من مؤلفات علمية مختلفة للدفاع عن العقيدة، وشرح أصولها، وأكبر دليل على ذلك تلك المؤلفات الضخمة لتي خلفها علماء المذاهب المختلفة (٥٧).

وكانت خراسان في منتصف القرن الخامس الهجري قد تنازعت فيها قوتان مهمتان هما: الحنفية، والشافعية، إلا أن شوكة الشافعية بخراسان عامة كانت قد قويت بسبب اهتمام وزراء السلاجقة الشافعية بالناحية العلمية، وكان على رأسهم الوزير السلجوقى نظام الملك الطوسى، الذي بني عدة مدارس عرفت بالنظاميات في

---

(٥٦) قام الفاطميون بمحاولات واسعة لبث الدعوة إلى مذهبهم، وبدأ نشاطهم واضحا في المشرق، وبخاصة منذ بداية القرن الرابع الهجري حتى "الرودكي" شاعر البلاط الساماني يتغنى بالمذهب الفاطمي، ويعلن صراحة تامة محبته، وإخلاصه، للخلفاء الفاطميين الشيعيين. ولم يلبث أن فشا المذهب في خراسان حتى كان يعتنقه الأمير "نصر بن أحمد الساماني" المتوفي سنة (٣٣١هـ/٩٤٢م) فغضب عليه علماء السنة هناك، وأفتوا بتكفيره، وحثوا الجند على أن ينفضوا من حوله، إذ لم يكن من السهل عليهم أن يقبلوا حكاما يجهرون بتشيعهم، أو يدعون إلى التشيع، حتى أجبروه على التخلي عن العرش. بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية ص١٠٤، عبد المجيد أبو الفتوح بدوي: تاريخ المذهب السني ص١٠٢.

(٥٧) محمد سعد عزب: الحياة الفكرية في إقليم خراسان، ص ٩٦.

جميع أنحاء خراسان، في نيسابور، ومرو، وهراة وبلخ. وكان نظام الملك قد جعل في هذه المدارس وقفاً على المذهب الشافعي[٥٨].

وقد عمل نظام الملك – في السنوات العشر التي وزر فيها لألب أرسلان، والعشرين سنة التي عمل فيها مع ملكشاه – على جعل المذهب السني مذهبا عاما للمسلمين، عن طريق إنشاء المؤسسات التعليمية في جميع أرجاء السلطنة، كي تعمل على نشر العلم، ومحاربة الفكر الشيعي حربا لا هوادة فيها، وإقامة الوحدة على أساس متين، وجعل المدارس النظامية – التي جد في إنشائها – تضاهي أزهر الفاطميين، وتقوم بنشر الدعوة للمذهب السني، ردًا على تحدي الدعوة الفاطمية المنظمة [٥٩].كان الحدث العلمي الكبير في عهد السلاجقة، هو: تأسيس المدارس النظامية، ويذكر القزويني[٦٠]: أن إنشاء نظام الملك لهذه المدارس كان بتكليف من السلطان "ألب أرسلان"، فقد دخل يوما مدينة نيسابور، فرأى جمعًا من الفقهاء وطلاب العلم على باب أحد المساجد، وهم في ثياب رثة، فلم يلتفتوا إليه عندما مر بهم، فسأل وزيره عن ذلك، فقال: "هؤلاء طلبة العلم، وهم أشرف الناس نفسًا، ولا حظ لهم من الدنيا، ويشهد زيهم على فقرهم" فلان قلب السلطان لهم، فاستأذنه نظام الملك في بناء أماكن لهم، ليمارسوا بها العلم، وإجراء الأرزاق عليهم، ليتفرغوا لطلب المعرفة [٦١].

ولم يلبث أن أقام الوزير نظام الملك عدداً كبيراً من المدارس، وبخاصة في خراسان، نظرا لأهميتها السياسية، والعلمية، والدينية، وألحق بها مكتبات نفيسة، لينتفع بها الطلبة والعلماء في تحصيل العلم والمعرفة [٦٢].

والواقع أن المدارس التي أنشأها نظام الملك، لم تكن هي بداية ظهور المدارس في العالم الإسلامي، ولم تكن من مستحدثات القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بل كانت من منشآت القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وأن نيسابور كانت مهدًا للمعاهد العلمية، وأن أول مدرسة بنيت بها كانت لأبي إسحاق الإسفراييني[٦٣].

---

(٥٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص٢١١.
(٥٩) يحيى الخشاب: نظام الملك والمدارس النظامية ص٥٥٧.
(٦٠) آثار البلاد: ص ٤١٢.
(٦١) محمد مسفر الزهراني: نظام الوزارة في الدولة العباسية ص ١٩٠.
(٦٢) ابن الجوزي: المنتظم، ج٩ ص٦٤، السبكي: طبقات الشافعية، ج٣ ص١٣٧.
(٦٣) أبو إسحاق الإسفراييني: إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران بن الإسفراييني الملقب بركن الدين الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي أخذ عنه الكلام والأصول عامة شيوخ نيسابور وأقر له أهل العراق وخراسان بالعلم والفضل، وله التصانيف الجليلة، واختلف

وكذلك المدرسة البيهقية للإمام البيهقي[٦٤] المتوفي سنة (٤١٤هـ/ ١٠٢٣م)، بل وتشير بعض النصوص التاريخية إلى أن المدارس في الإسلام أنشئت منذ وقت مبكر، يدل على ذلك ما ذكره ياقوت [٦٥] عند حديثه عن ابن حبان البستي[٦٦] المتوفي سنة (٣٥٤هـ/٩٦٥م) إذ قال: "أبو حاتم بن حبان وداره التي هي اليوم مدرسة لأصحابه، ومسكن للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقهة، وفيها خزانة كتبه في يدي وصي مسلمها إليه ليبذلها لمن يريد نسخ شيء منها من غير أن يخرجه منها" وجاء في بعض المصادر [٦٧]: "إن أبا بكر الحسن بن فورك الأصفهاني [٦٨] المتوفي سنة (٤٠٦هـ/١٠١٥م) أقام بالعراق مدة يدرس العلم، ثم توجه إلى الري، فراسله أهل نيسابور والتمسوا منه التوجه إليهم، ففعل وورد نيسابور، فبني له فيها مدرسة ودارا وأحيا الله به أنواعا من العلوم". وعلى هذا لم تكن النظاميات أول ما أنشئ من المدارس، ولكن يمكن أن توصف بأنها أول مؤسسات تعليمية تدخلت الدولة في تحديد أهدافها، ودراسة مناهجها، واختيار طلابها وأساتذتها، والقيام بالإنفاق عليها، وإمداد طلابها بجميع ما يحتاجون إليه من مرتبات وأرزاق شهرية، فضلا عن الحبر والورق اللازمين للحركة التعليمية.

وكانت هذه النظاميات من المدارس المستقلة عن المساجد، أي أنها لم تكن تابعة لها، ولكن كان ملحقا بكل مدرسة منها مسجد، تؤدى فيه الفرائض والشعائر الدينية [٦٩].

إلى مجلسيه أبو القاسم القشيري والحافظ البيهقي وتوفي الإسفراييني سنة (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م).ابن خلكان:وفيات الأعيان ج١ ص٢٨،ابن كثير:البداية والنهاية ج١٢،ص٢٤.

(٦٤) الإمام البيهقي: هو أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي الفقيه الشافعي الحافظ الكبير المشهور واحد زمانه، وفرد أقرانه في الفنون رحل كثيراً وحصل علما واسعا بالحديث وطلب إلى نيسابور لتدريس فقه الشافعي.ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص٧٥، ٧٦، ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص٢٦٥.

(٦٥) معجم البلدان: ج١ ص٤١٧، ٤١٨.

(٦٦) ابن حبان البستي: أبو محمد بن أحمد بن حبان البستي كان من فقهاء الذين عالما بالطب والنجوم وفنون العلم واللغة والفقه والحديث وألف كتاب "المسند الصحيح". ياقوت: معجم البلدان ج١ص٤١٧، ٤١٨.

(٦٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤ ص٢٧٢، ابن الأثير: اللباب، ج٢ ص٢٤٢.

(٦٨) ابن فورك الأصفهاني: الأستاذ أبو بكر محمد بن بن فورك المتكلم الأصولي الأديب النحوي الواعظ الأصفهاني، كان أحد أوعية العلم وبلغت مصنفاته قريبا من مائة. ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤ ص٢٧٢.

(٦٩) ناجي معروف: علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي ص١٢، مطبعة الإرشاد ط١ بغداد ١٩٧٣.

وكان التعليم في هذه المدارس قائماً على تلقي العلوم الدينية واللغوية، ونشر الفقه الشافعي على وجه خاص، إذ كان من الشروط الواجب توافرها في الملتحق بهذه المدارس، أن يكون شافعياً أصلاً وفرعاً (٧٠) ثم أخذت هذه المدارس تتوسع يوما بعد يوم في إدخال موضوعات جديدة. ولم يبخل نظام الملك بتوفير الإمكانات المادية، التي تعين هذه المدارس على النهوض برسالتها العلمية على أكمل وجه، ولذا نراه ينفق عليها بسخاء، ويخصص لها الأوقاف للإنفاق على عمارتها ودور كتبها، فيذكر ابن الجوزي(٧١) أن نظام الملك وقف على مدرسته ببغداد ضياعًا وأملاكاً كثيرة، بينما يذكر المافروخي (٧٢) أن نظامية أصفهان قدرت نفقاتها وقيمة أوقافها بعشرة آلاف دينار، كما كان لنظامية نيسابور أوقاف عظيمة للإنفاق عليها.

واستقدم السلاجقة لهذه المدارس خيرة العلماء والفقهاء والأدباء في مختلف فروع العلم، وأغدقوا عليهم المال والعطايا، ونقلوا إليها الكثير من الكتب ليستعين بها طلاب العلم، وشجعوا الطلاب من البلاد الإسلامية الأخرى للالتحاق بها، والعلماء للتدريس لطلابها، إذ كان يقوم بالتدريس في هذه المدارس نخبة من مشهوري العلماء المشهود لهم بالعلم والمعرفة وبعضهم كان له من الصيت والشهرة ما يدفع بعض طالبي العلم من البلاد المختلفة لتحمل المشاق للحضور إلى هذه المدارس، للتزود بالعلم على أيدي هؤلاء العلماء، فكان لهم تلامذتهم ومريدوهم، الذين يفدون خاصة لتلقي العلم منهم، والتتلمذ على أيديهم.

وقد أجمعت المصادر على وصف رجال هذه المدارس ــ والذين تعاقبوا على منصب التدريس بها ــ بالفضل والعلم والتقوى، والقدرة على التأليف والإنتاج العلمي، فأبو إسحاق الشيرازي(٧٣) -مدرس نظامية بغداد- عندهم إمام وقته، فاق أهل زمانه بالعلم والزهد، وأكثر علماء الأمصار من تلامذته، ومحاسنه أكثر من أن تحصر(٧٤). وأما أبو بكر الشاشي – مدرس نظامية بغداد أيضا– فتصفه المصادر بأنه فخر الإسلام، يضرب المثل باسمه (٧٥).

---

(٧٠) خواندمير: دستور الوزراء ص٢٥٣، ابن الجوزي: المنتظم ج٩ ص٦٦.

(٧١) المنتظم: ج٨ص ٢٥٦.

(٧٢) محاسن أصفهان: ص١٠٤.

(٧٣) أبو إسحاق الشيرازي: إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي الملقب جمال الدين ضرب به المثل في الفصاحة والمناظرة وكانت الطلبة ترحل إليه من المشرق والمغرف وصنف التصانيف المفيدة منها "المهذب" و"اللمع" و"التنبيه" وغير ذلك وتوفي سنة (٤٧٦هـ/١٠٨٣م). ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١ ص ٣٠

(٧٤) ابن الجوزي: المنتظم ج٩ ص٧.

(٧٥) السبكي: طبقات الشافعية ج٤ ص٥٧.

وأما حجة الإسلام الغزالي – مدرس نظامية نيسابور – فيصفه ابن خلكان [٧٦] بقوله: "لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله"، بينما يصفون الجويني – مدرس نظامية نيسابور أيضا – بأنه أعلم المتأخرين على الإطلاق، المجمع على إمامته المتفق على غزارة علمه [٧٧] والسمعاني مدرس نظامية مرو إمام عصره بلا مدافعة [٧٨] في حين يصفون الخجندي – مدرس نظامية أصفهان – بأنه من جملة رؤساء الأئمة، ومن الذين انتشر علمهم في الآفاق [٧٩].

وهذا خير دليل على المستوى العلمي للمدارس النظامية، وتفوق علماء العصر وأساتذة الجيل بين علماء المسلمين، ممن حملوا عبء التدريس بهذه المدارس.

وكان من الطبيعي أن تؤدي هذه الجهود إلى رواج سوق العلم، فأقبل الجميع على طلبه حتى بلغ عددهم في نظامية بغداد عام (٤٨٨هـ/١٠٩٥م) ثلاثمئة طالب، كانوا يتلقون العلم على الإمام الغزالي[٨٠] أما في نظامية نيسابور فكان يقعد بين يدي إمام الحرمين كل يوم أربعمائة طالب من الأئمة والطلبة، فقد ذاع صيته وطبقت شهرته الآفاق، حتى قصده الكثيرون من جميع البلدان، يطلبون العلم على يديه [٨١].

وكان تأسيس المدارس النظامية رائعًا، والدافع الذي قامت عليه دافعًا قويًا لإيجاد غيرها من المدارس في خراسان، إذ أصبح إنشاء المدارس وإقامة دور العلم والمكتبات ظاهرة طيبة،شملت جميع أفراد المجتمع من مختلف الطبقات.

ووجدت إلى جانب النظاميات عشرات المدارس التي يؤمها أفاضل العلماء وأجلهم، وكان المؤسسون يبغون الثواب، أو خدمة مذهبهم، أو منافسة معارضيهم. ومنذ ذلك الوقت ونتيجة لهذا الاهتمام، ارتبطت رسالة العلم بتلك المدارس، التي أصبحت من المنارات العلمية الكبرى، وسمة ظاهرة من سمات العصر السلجوقي. ولا ريب أن السلاجقة، ببنائهم هذا الكم الهائل من المدارس العلمية والفقهية، تمكنوا من إرساء قواعد النشاط الثقافي في بلادهم على أسس منظمة، إذ غدت تلك المدارس مؤسسات ثقافية لتخريج واستقبال المدرسين والطلاب داخل المنطقة وخارجها. وحسبنا أن نقول: إن إقليم خراسان، وإن كان أعجمياً، إلا أنه خرّج مئات العلماء

---

(٧٦) وفيات الأعيان ج٤ ص٢١٦، ٢١٧، ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ج١ ص٢٥٥.
(٧٧) ابن عساكر: تبين كذب المفتري ص ٢٧٨، ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد ج١ ص٨٥.
(٧٨) اللكنوي: الفوائد البهية في تراجم الحنفية، ص ١٧٣، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣ ص٢١٢.
(٧٩) السبكي: طبقات الشافعية ج٣ ص٥٠، ابن الأثير: الكامل، ج٨ ص٢١٩.
(٨٠) ابن الجوزي: المنتظم ج٩ ص٥٥، السبكي: طبقات الشافعية ج٣ ص١٠٣، ١٠٤.
(٨١) ابن عساكر: تبين كذب المفتري ص ٢٧٨.

والفقهاء، والمحدثين، والمفسرين، والأدباء، الذين كان لهم أثر كبير في الدراسات الإسلامية والفكر الإسلامي، وخلفوا لنا أنهارا من الكتب القيمة. ومن الجدير بالإشارة أن أكثر علماء خراسان – خاصة في العصر السلجوقي – لم يقتصروا على فن واحد من فنون العلم والمعرفة، وإنما كانوا شعراء وكتاباً ثم فقهاء ومحدثين وفلاسفة، وقد حاز بعضهم قصب السبق في العلوم الدينية واللغوية، حتى ظهرت بعض الشخصيات التي أسهمت في كثير من ميادين الحياة العلمية، بل وفرضت نفسها على النتاج العلمي بشتى ميادينه، ويتجسد هذا في المؤلفات الضخمة والأسفار الزاخرة في شتى ميادين الفن والعلم التي ظهرت في هذا العصر، حتى يمكن القول: إن العصر السلجوقي كان من العصور التي وصلت فيها الحياة العلمية إلى قمة ازدهارها وتقدمها، فضلا عما امتاز به هذا العصر من كثرة المؤسسات العلمية في كل ركن من أركان الدولة السلجوقية، إضافة إلى المكتبات الحافلة بأنواع العلوم والفنون والمعرفة.

وهكذا كان العصر السلجوقي هو عصر رواج وانطلاق الحركة المدرسية في خراسان، واستجابة لتطور الحياة العلمية ونموها، حتى أصبحت قاعدة مهمة للتعليم، فلم يكن إنشاء هذه المدارس والإنفاق عليها بسخاء، يرمي إلى نشر العلوم الدينية فحسب، وإنما كان الهدف الأكبر منه هو تحقيق إصلاح جذري في المجتمع، وجمع القلوب والعقول والأفئدة حول سلاطين السلاجقة، والإخلاص للمذهب السني، بعد أن كانت هذه القلوب متفرقة مزعزعة.

ومن أشهر مدن خراسان التي ازدهرت بها الحركة المدرسية: مدينة " نيسابور"، ومدينة "مرو" و مدينة " هراة " و مدينة " بلخ ".

أولاً: الحركة المدرسية بمدينة نيسابور في العصر السلجوقي:

نيسابور من أهم مدن خراسان الأربع (هراة ومرو وبلخ ونيسابور) وإحدى مدن إيران الهامة، وهي مدينة قديمة ذات شهرة في تاريخ الإسلام، وحسب الإنسان أن يقرأ وصف الجغرافيين لها ليعجب لهذه الحركة، التي تعج بها المدينة، في شتى نواحي النشاط الإنساني، يقول ياقوت الحموي [٨٢] "لم أر فيما طوفت من البلاد مدينة كانت مثلها"، بينما يصفها القزويني [٨٣] بأنها "مجمع العلماء، ومعدن الفضلاء، ومن أحسن بلاد الله وأطيبها".

وكانت نيسابور أول مركز علمي مزدهر في المشرق الإسلامي، ظل محتفظا بمكانته العلمية حتى العصر السلجوقي، وقد تقلب حظ هذه المدينة بين الانتعاش

---

(٨٢) معجم البلدان: ج٥، ص٢٣١.
(٨٣) آثار البلاد، ص٤٧٢.

والانتكاس، حتى اتخذها السلاجقة عاصمة لدولتهم منذ قيامها سنة (٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م)، فبدأت تنتعش ولمع اسمها، ووصلت إلى ذروة نهضتها، وأصبحت عنوانا للنهضة الثقافية الإسلامية.

وقد توفرت لنيسابور في هذه الفترة مقومات الازدهار العلمي، وأهمها: الانفتاح الثقافي الذي كان يسود العالم الإسلامي آنذاك، فمن المسلم به أن أهم ما يميز الحياة العلمية أنها حركة عامة، وليست خاصة بإقليم معين، إذ كان كل ما يظهر بإقليم من مصنفات علمية سرعان ما ينقل إلى البلدان الأخرى، من أقصى المشرق في خراسان إلى أقصى المغرب في الأندلس، وكان لموقعها الجغرافي (على أبواب خراسان) ما جعلها مجمع العلماء وملتقى الفضلاء والأدباء. وإذا كان انتشار المدارس في العصر السلجوقي هو الحدث الأكبر والأهم ؛ الذي حققته الحضارة الإسلامية على المستوى الثقافي، والقفزة الكبرى في سلم التطور العلمي ــ بعد أن كان التعليم محصورا في المساجد ــ فقد كانت مدينة نيسابور أولى المدن التي عرفت هذه المؤسسات في العالم الإسلامي، فقد أنشأ فيها علماء المسلمين العديد من المدارس منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) فكانت أول مدرسة بنيت بنيسابور لأبي إسحاق الإسفراييني المتوفى سنة (٤١٨هـ/ ١٠٢٧م) ومن قبلها مدرسة ابن فورك المتوفى سنة (٤٠٦هـ/ ١٠١٥م)، فقد كانا من كبار الأئمة وأولى العلم في نيسابور[٨٤].

وسار السلاجقة على هذا النهج الثقافي، فأنشأوا فيها العديد من المدارس الجديدة، التي أدت دورا مهما في ذيوع العلم وانتشار الثقافة، وطبقت شهرة مدارسها ومكتباتها الزاخرة الآفاق، وتمت فيها العلوم والفنون، وبرز العلماء في الفقه والحديث والتفسير واللغة والأدب، والعلوم الرياضية من هندسة وفلك وحساب، ثم في علوم الطب وغير ذلك من العلوم الوثيقة الصلة بحياة الإنسان، فعطرتها المعرفة بنخبة فريدة من رجال العلم والأدب، بسطوا عليها نور الثقافة، وأضاؤا فيها مصابيح المعرفة.

وكان من أهم علماء نيسابور المشهورين: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، المتوفي سنة (٤٥٨هـ/١٠٦٥م)، كان حجة في الحديث وفقه الشافعي، رحل كثيرا وحصل علما واسعا، قال إمام الحرمين في حقه: "ما من شافعي إلا وللشافعي عليه منة، إلا البيهقي فإن له على الشافعي منة لتصانيفه في نصرة مذهبه"[٨٥].وقال الذهبي[٨٦]: "لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهبا يجتهد فيه ؛ لكان قادرا

---

(٨٤) السبكي: طبقات الشافعية: ج٣، ص٥٢، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٤، ص٢٧٢.

(٨٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١ ص٧٥، ص١٥٩، ابن الجوزي: المنتظم، ج٨، ص٢٤٢.

(٨٦) تذكرة الحفاظ: ج٣ ص١١٣٢.

على ذلك لسعة علومه ومعرفته بالخلاف" وله تصانيف كثيرة منها : "السنن الكبرى" وغير ذلك [٨٧]. وقد خرجت نيسابور كثيرا من العلماء والأدباء، نخص بالذكر منهم: أبا القاسم القشيري، صاحب الرسالة القشيرية في التصوف، والمتوفي سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٣م) كان علامة في الفقه والتفسير والحديث والأدب والشعر والكتابة وعلم التصوف، وهو أحد مشاهير الدنيا في الفضل والعلم والزهد، وكان يعد شيخ خراسان، في عصره، زهدا وعلما بالدين[٨٨].وكان له ابن يقال له عبد الله بن عبد الكريم القشيري، كان إماما كبيرا أشبه أباه في علومه ومجالسه، وقد أنجب عدة أولاد كلهم فضلاء وعلماء مشهورون[٨٩].

ويكفي لفخر هذه المدينة وفضلها أنه ولد فيها علي بن محمد بن علي الواحدي المتوفي سنة (٤٦٨هـ/ ١٠٧٥م)، صاحب التفاسير، وأستاذ عصره في النحو والتفسير وغير ذلك من العلوم، ورزق السعادة في تصانيفه التي أجمع الناس على حسنها، وذكرها المدرسون في دروسهم [٩٠]. قال ياقوت[٩١] عنه: هو الإمام المصنف المفسر النحوي أستاذ عصره وواحد دهره، أنفق صباه وأيام شبابه في التحصيل، وطاف على أعلام الأمة، وقعد للإفادة والتدريس سنين، وتخرج عليه طائفة من الأئمة سمعوا منه وقرءوا عليه وبلغوا محل الإفادة، وكان حقيقا بكل احترام وإعظام، ومن تصانيفه المشهورة "البسيط" في تفسير القرآن، وكذلك "الوسيط" و"الوجيز"، ومنه أخذ أبو حامد الغزالي أسماء كتبه الثلاثة، وله كتاب: "أسباب النزول" [٩٢].

وإمام الحرمين الجويني، المتوفي سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) الذي بنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية بنيسابور، وعهد إليه بالتدريس فيها، ظل فيها مدرسا ثلاثين سنة، يحضر درسه الأكابر والجمع العظيم من الطلبة، وكان يحضر بين يديه كل يوم نحو من أربعمئة رجل من الأئمة والطلبة، وتخرج على يديه جماعة من الأئمة والفحول وأولاد الصدور في زمانه، حتى بلغوا محل التدريس [٩٣]. كما خرجت هذه المدينة الوزير الكبير والعالم الجليل: نظام الملك الطوسي، المتوفي سنة

---

(٨٧) ابن الجوزي : المنتظم، ج٨، ص٢٤٢، السيوطي: طبقات الحفاظ، ص٤٣٢.
(٨٨) ابن الجوزي : المنتظم، ج٨، ص ٢٨٠، السبكي: طبقات الشافعية، ج٣، ص٢٤٣.
(٨٩) الصريفيني : المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور، ص ٢٩٨،تحقيق محمد أحمد عبدالعزيز ، دار الكتب العلمية ط١ بيروت ١٩٨٩ م.
(٩٠) القفطي: إنباه الرواة. ج٢ ص٢٢٣، ياقوت: معجم الأدباء، ج٣، ص٥٥٦.
(٩١) معجم الأدباء، ج٣ ص٥٥٦.
(٩٢) السيوطي: طبقات المفسرين، ص٧٩، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٨، ص٣٢٩.
(٩٣) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري، ص٢٧٨، ابن الجوزي : المنتظم ج٩، ص١٩.

(٤٨٥هـ/١٠٩٢م)[٩٤].

ومن مشاهير العلماء النيسابوريين الإمام الغزالي، المتوفي سنة (٥٠٥هـ/١١١١م)[٩٥].

وأبو المظفر الأبيوردي، المتوفي سنة (٥٠٧هـ/١١١٣م)، الشاعر المشهور، كان فاضلا في العربية والعلوم الأدبية، وكان مهيبا محترما معظما لا يخاطب إلا بمولانا لغزارة علمه، وقد دأب على التدريس والإفادة والتصنيف، وله مؤلفات كثيرة [٩٦]. ومن علمائها الحكيم والفلكي النيسابوري عمر الخيام، المتوفي سنة (٥١٧هـ/ ١١٢٣م)[٩٧].

ومنهم الميداني النيسابوري، المتوفي سنة (٥١٨هـ/١١٢٤م) كان فاضلا عارفا باللغة، وأتقن فن العربية خصوصا اللغة وأمثال العرب، وله فيها التصانيف المفيدة، منها كتاب: "مجمع الأمثال" وكتاب "السامي في الأسامي" [٩٨].

ومن أعلام نيسابور:عبد الغافر الفارسي المتوفي سنة (٥٢٩هـ/١١٣٤م) الفقيه الشافعي، كان إماما في الحديث واللغة والأدب والبلاغة، والتاريخ وله فيه مؤلفات، تفقه على إمام الحرمين، ثم رحل فأكثر الأسفار ولقي العلماء، وله تصانيف منها: "السياق في تاريخ نسيابور" وغير ذلك كثير [٩٩]. ومحمد بن يحيى بن أبي منصور النيسابوري، الملقب محيي الدين، المتوفي سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م) أستاذ المتأخرين وأوحدهم علما وزهدا، برع في الفقه وصنف فيه، وانتهت إليه رياسة الفقهاء بنيسابور، ورحل إليه الناس من البلاد، واستفاد منه كثير حتى صار أكثرهم سادة وأصحاب طرق [١٠٠]، وكان يدرس بنظامية نيسابور، ثم درس بمدينة هراة في المدرسة النظامية.

وقتله الغز [١٠١] لما استولوا على نيسابور في وقعتهم مع السلطان سنجر

---

(٩٤) السبكي: طبقات الشافعية، ج٣، ص١٣٥، ابن الجوزي: المنتظم، ج٩ ص٦٥، ٦٦.
(٩٥) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري، ص ٢٩١، ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٣، ص٢٩٣.
(٩٦) السبكي: طبقات الشافعية، ج٤، ص٦٢، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٩، ٢٨٣.
(٩٧) البيهقي: تاريخ الحكماء، ص١١٩، ابن خاوند شاه: روضة الصفاء ص٢٣٥.
(٩٨) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٩ ص٤٨٩، ابن الأنباري: نزهة الألباء، ص٢٨٨.
(٩٩) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٤ ص١٢٧٥، السبكي: طبقات الشافعية ج٤ ص٢٥٥.
(١٠٠) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٤ ص٢٢٣، الذهبي: العبر، ج٤، ص١٣٣.
(١٠١) الغز: طائفة من التركمان يسكنون في بلاد ما وراء النهر ويدينون بالإسلام ثم أخرجهم منها القرة خطائيون (الخطا) عندما هاجموا بلاد ما وراء النهر واستولوا عليها فسار الغز إلى إقليم خراسان واستقروا في بلخ، وكانوا يدينون بالطاعة للسلطان سنجر

السلجوقي. ومن بينهم ابن فندق البيهقي، المتوفي سنة (٥٦٥هـ/١١٦٩م) كان باحثا ومؤرخا ودرس علم الكلام، واشتغل بعلوم الحكمة والحساب والفلك، وتعلم المناظرة والمجادلة، وصار يعقد مجالس الوعظ، وله تصانيف كثيرة منها: "تاريخ حكماء الإسلام"، و"تاريخ بيهق"، وكتاب "أسامي الأدوية وخواصها ومنافعها" وغير ذلك كثير[١٠٢]. كما كانت نيسابور مركزا هاما للعلماء والأدباء، وكثيرا ما جذبت إليها علماء العالم الإسلامي آنذاك، كي يتلقوا العلم على علمائها، وأوضحت بذلك متدفقة بالحياة والنشاط، زاهرة بمجالس العلم على اختلاف أنواعه، يتصدرها مدرسون من كبار شخصيات الإسلام، ويتزاحم الطلبة الوافدون إليها من مختلف البلدان.

وكانت نيسابور من أولى المدن التي عرفت المدارس في العالم الإسلامي، كما تشهد بذلك النصوص التاريخية فقد أنشأ فيها علماء المسلمين العديد من معاهد العلم منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وسار السلاجقة على هذا النهج، فأنشأوا فيها العديد من المدارس، حيث أدّوا معا دورا مهما في نشر الثقافة والعلوم الإسلامية. والواقع أن كثيرا من مدارس خراسان قد ورد ذكرها في المصادر عرضا، وذلك عند الحديث عن تراجم العلماء والأدباء، في الوقت الذي لم ترد فيها أية معلومات خاصة عن هذه المدارس، ولا تاريخ بنائها وتأسيسها، وإنما يفهم ذلك من خلال تراجم مدرسيها أو العلماء الذين نزلوها أو عقدوا فيها مجالس الإملاء أو المناظرة أو الوعظ.

ويعدد أحد الباحثين[١٠٣] أكثر من ثلاث وثلاثين مدرسة، أنشئت في مدينة نيسابور كان يرتادها العلماء والأدباء والفقهاء، وعقدوا فيها مجالس الوعظ والمناظرة، وبعض هذه المدارس كان موجودا قبل العصر السلجوقي. ولكني سأقصر الحديث على المدارس التي استمرت المصادر والنصوص التاريخية تشير إلى وجودها واستمر العمل بها، وارتادها علماء وأدباء عاشوا في العصر السلجوقي[١٠٤].

السلجوقي ولكن لم يلبث أن انقلبوا عليه فهاجموا مرو ونيسابور وجميع بلاد خراسان ودارت بينهم وبين سنجر حروب انتهت بهزيمة السلاجقة، ووقع السلطان سنجر في الأسر وذلك سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م). الراوندى : راحة الصدور، ص ٢٦٨ ـ محمود إدريس: السلطان سنجر، ص ٨٤.

(١٠٢) ياقوت: معجم الأدباء، ج٤ ص١١٣.

(١٠٣) ناجي معروف: مدارس قبل النظامية، ص ١٢٣، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثاني والعشرين ١٩٧٣م.

(١٠٤) صلاح الدين على عاشور: الحياة العلمية في العراق والمشرق الإسلامي إبان العصر السلجوقي (٤٤٧ـ٥٩٠هـ/١٠٥٥ـ١١٩٣م) ص١٦٠، ١٦١ رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٩٦م.

١-المدرسة الصاعدية:

ورد ذكر هذه المدرسة في كتاب : "منتخب السياق لتاريخ نيسابور" في عدة مواضع، وذلك عند ترجمته لكثير من العلماء، فقد ورد ذكرها عند الترجمة لأبي القاسم الصاعدي المتوفي سنة (٤٧٠هـ/١٠٧٧م) قال عنه: "كان رجلا كبيرا فاضلا مشهورا من الدوحة الصاعدية، حسن الطريقة متعصبا لأهل السنة، تولى القضاء بنسيابور ودرس بالمدرسة الصاعدية سنين، وكانت إليه الفتوى على مذهب أبي حنيفة ". ومن مدرسيها أيضا أبو العلاء صاعد بن منصور المتوفي سنة (٤٩٤هـ/١١٠٠م) أحد وجوه الصاعدية، كان يحضر المجالس والمحافل مع أبيه، وينوب عن والده في الخطابة، وأقعده في المدرسة للتدريس [١٠٥]. كما جاء ذكر المدرسة أيضا عند الحديث عن عبد الملك الصاعدي المتوفي سنة (٥٠١هـ/١١٠٧م) قال عنه: شيخ فاضل فقيه مدرس من وجوه الصاعدية" [١٠٦].

٢-مدرسة سهل الصعلوكي:

ورد ذكر هذه المدرسة في "منتخب السياق" في ترجمة محمد بن يحيى بن أبي زكريا المزكي المتوفي سنة (٤٧٤هـ/١٠٨١م)، وكان من أكابر العلماء، ويحكى أنه كان يحضر مجلس إملائه أكثر من خمسمئة محبرة، وعند وفاته دفن خلف مدرسة سهل الصعلوكي بنيسابور [١٠٧] وقد ذكر المؤرخون [١٠٨] أن سهل الصعلوكي هذا هو: أبو الطيبان بن أبي سهل الصعلوكي العجلي المتوفي بنيسابور (٤٠٤هـ/١٠١٣م) فعلى هذا تكون مدرسته قد أنشئت قبل هذا التاريخ، وكان سهل الصعلوكي مفتي نيسابور، ووصف بأنه جمع بين رياستي الدنيا والدين، ويلقب بشمس الإسلام [١٠٩].

٣- مدرسة الصابوني:

يظهر مما ورد في المصادر أن هذه المدرسة أنشئت قبل سنة (٤٠٥هـ/١٠١٤م) فقد ورد ذكرها في ترجمة لعبد الله بن طاهر البوشنجي، جاء فيها: محترم فاضل قدم نيسابور سنة (٤٠٥هـ، وعقد له مجلس الإملاء في مدرسة الصابوني [١١٠]، مما يدل على أن المدرسة كانت موجودة قبل هذا التاريخ، وقد ذكر المؤرخون أن الشيخ أبا عثمان الصابوني المتوفي سنة (٤٤٩هـ) لما حضرته الوفاة طلب من

---

(١٠٥) الصريفيني: منتخب السياق، ص٢٦٠.
(١٠٦) السابق: منتخب السياق، ص٣٣١، ٣٣٢
(١٠٧) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٣ ص١١٨٣.
(١٠٨) ابن العماد: شذارت الذهب ج٣ ص١٧٢.
(١٠٩) ناجي معروف: مدارس قبل النظامية ص١٢٧
(١١٠) السيوطي: طبقات المفسرين ص٣٦ ـــ ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢ ص٧٦

أصحابه أن يجلسوا في المدرسة، ويساعدوا الأصحاب على قراءة القرآن، كما طلب أن يدفن في المدرسة [١١١]، وبعد وفاته قام ابنه عبد الرحمن الصابوني المتوفي سنة (٥٠٠هـ) بمهمة التدريس بالمدرسة [١١٢].

٤-المدرسة الناصحية:

ذكرها العديد من المؤرخين[١١٣] بصدد ترجمتهم لأحد مدرسيها، وهو: أبو عبد الله الفراوي الملقب بفقيه الحرم، والمتوفي سنة (٥٣٠هـ/١١٣٥م)، قالوا فيه: درس الأصول والتفسير على زين الإسلام القشيري، وتفقه على إمام الحرمين، وحج وعقدت له مجالس العلم بالحرمين، ويروى أنه أملى أكثر من ألف مجلس، وعاد إلى نيسابور ودرس بالمدرسة الناصحية وأفاد الطلبة فيها.

٥- المدرسة البيهقية:

ذكر المؤرخون أن المدرسة البيهقية بنيسابور أنشئت قبل أن يولد نظام الملك أي قبل سنة (٤٠٨هـ/١٠١٧م) ومؤسسها هو: علي بن الحسين بن علي البيهقي المتوفى سنة (٤١٤هـ/١٠٢٣م) كان كاتبا وأديبا من وجوه أصحاب الشافعي، بنى مدرسة من خالص ماله وأنفق على عمارتها ومصالحها آلافاً مؤلفة [١١٤] ومن العلماء الذين ورد ذكرهم في المدرسة البيهقية: الحافظ أحمد بن عبد الملك بن عبد الصمد المتوفي سنة (٤٧٠هـ/١٠٧٧م) الذي كان عليه الاعتماد في الودائع وكتب الحديث المجموعة في الخزائن المعروفة عن المشايخ والموقوفة على أصحاب الحديث وكانت موضوعة عنده في حجرته في المدرسة البيهقية، فكان يصونها ويتعهد حفظها، ويتولى أوقاف المحدثين من الحبر والورق وغير ذلك، كما وكلت إليه أوقاف المدرسة وعمارتها، و كان يقوم إلى جانب ذلك بالوعظ والتدريس بهذه المدرسة[١١٥]، وبعد وفاته قام ابنه أبو الفضائل مقامه في حفظ الكتب ومهمة الوعظ والتدريس في المدرسة [١١٦].

كما ورد في ترجمة إمام الحرمين الجويني، المتوفي سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) أنه كان يذهب طالبا إلى مدرسة البيهقي لتلقي العلم على أساتذتها [١١٧]. وأبو القاسم

---

(١١١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٨ ص٤٠.
(١١٢) الصريفيني: منتخب السياق ص٣١٨
(١١٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٤٦، السبكي: طبقات الشافعية ج٤ ص٩٢
(١١٤) الصريفيني: منتخب السياق، ص١٠٧، ١٠٨، الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٣ ص١١٦٢.
(١١٥) الصريفيني: منتخب السياق، ص١٠٨، الذهبي: تذكرة الحفاظ ج٣ ص١١٦٣.
(١١٦) ناجي معروف: مدارس قبل النظامية ص١٣٥.
(١١٧) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص٢٧٨، السبكي: طبقات الشافعية ج٣ ص٢٤٩.

الأنصاري المتوفي سنة (٥١٢هـ/١١١٨م) كان يخلف الشيخ أبا صالح بعد وفاته في مدرسة البيهقي وعمارتها والسعي في مصالحها وحفظ الكتب، كما كان يقوم بالوعظ في المدرسة [١١٨]. وأبو بكر البوشنجي المتوفى سنة (٥٤٣هـ/١١٤٨م) كان إماما فاضلا ورعا اشتغل بالعبادة وانزوى عن الخلق في مدرسة البيهقي [١١٩].

٦-المدرسة النظامية:

أنشأها الوزير نظام الملك قبل نظامية بغداد بنحو عشر سنوات، فقد أجمع المؤرخون [١٢٠] أن مدرسها الأول إمام الحرمين الجويني، المتوفي سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م)، درس بها نحو ثلاثين سنة، وعلى هذا يكون وقت إنشائها في حدود سنة (٤٤٨هـ/١٠٩٥م)، وذلك وقت أن كان نظام الملك يعمل وزيرا لألب أرسلان أيام ولايته على خراسان، وقبل أن يلي أمور السلطة خلفا لعمه طغرل بك [١٢١].

وتعد نظامية نيسابور من أشهر المدارس الإسلامية التي أنشئت بها، فقد نالت صيتا ذائعا في كل أنحاء العالم الإسلامي، وتولى التدريس فيها أكابر العلماء، ممن كانت لهم قدم السبق في تطوير الحياة الثقافية وإنعاشها، وبما تركوا من مؤلفات نفيسة أصبحت من أمهات الكتب المعتمد عليها في العصر السلجوقي والعصور اللاحقة له "وبما خرجوا من طلبة نجباء فضلاء كان لهم فضل كبير في نشر الثقافة الإسلامية في العالم الإسلامي، وهناك عدد كبير من الأساتذة الذين أسندت إليهم مهمة التدريس بها، أو الذين عقدت لهم مجالس الإملاء أو المناظرة، عدا من تخرج منها، وأشهر مدرسيها: إمام الحرمين الجويني وابنه أبو القاسم المتوفي سنة (٤٩٣هـ/١٠٩٩م) [١٢٢]، وأبو حامد الغزالي المتوفي سنة (٥٠٥هـ/١١١١م) [١٢٣]،

---

(١١٨) الصريفيني: منتخب السياق، ص٢٤٩، الذهبي: العبر، ج٤ ص٢٧.

(١١٩) ناجي معروف: مدارس قبل النظامية ص١٣٨.

(١٢٠) ابن الأثير: اللباب ج١ ص٣١٥، ابن العماد: شذرات الذهب ج٣ ص٣٥٨.

(١٢١) بعد النصر الذي حققه قادة السلاجقة باستيلائهم على منطقة خراسان، رأى السلطان "طغرل بك" كي يضمن قيام الوحدة والترابط بين أفراد البيت السلجوقي أن يستعين بهم في حكم البلاد تحت سلطانه فقسم البلاد فيما بينهم وعين كل واحد منهم حاكما على إقليم وسيره إليه وأعطى له الحق بفتح وضم ما يشاء من البلاد المجاورة لمملكته بحيث لا يتعدى على ممتلكات الآخر فجعل لأخيه جغري بك منطقة خراسان الذي عهد بها لابنه ألب أرسلان وعينه حاكما عليها وعين له وزيرا من قبله هو نظام الملك ثم لم يلبث أن توفي جغري بك فخلفه على الإمارة ابنه ألب أرسلان وأصبح نظام الملك هو المسئول عن كل أعمال ألب أرسلان إلى أن آلت السلطنة إليه، فعلت منزلة وزيره.الحسيني: زبدة التواريخ ص٧٣، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول ص٢٣٧

(١٢٢) ناجي معروف: علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، ص٤٤.

وقطب الدين النيسابوري المتوفي سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م)[١٢٤].

٧-المدرسة القشيرية:

هي منسوبة إلى الأستاذ أبي القاسم القشيري المتوفي سنة (٤٦٥هـ/١٠٧٢م) صاحب الرسالة القشيرية الشهيرة في التصوف. ومن الذين تولوا مهنة التدريس بهذه المدرسة: الفضل بن محمد الفارمذي المتوفي سنة (٤٧٧هـ/١٠٨٤م) [١٢٥] والمطهر بن علي بن العباس الهمذاني المتوفي سنة (٥٠٣هـ/١١٠٩م) فقيه فاضل، ومناظر كبير، عقد له مجلس الوعظ والإملاء في المدرسة القشيرية بنسيابور[١٢٦].

ثانياً: الحركة المدرسية بمدينة مرو في العصر السلجوقي:

مرو حاضرة إقليم خراسان وعاصمتها في عصر السلاجقة العظام، وتعد بلا مراء من أعظم مراكز الثقافة في المشرق الإسلامي، إذ كانت واسطة العقد، والمدينة الكبرى، ومنبع العلماء والفضلاء، ودار الملك لجماعة من سلاطين السلاجقة دهرا طويلا، فبلغت الحضارة الإسلامية فيها مبلغا كبيرا، وأقيم فيها العديد من المدارس العلمية لنشر العلم.

وكانت نظامية مرو، التي أنشأها الوزير نظام الملك، من أهم المدارس التي أسست لأصحاب الشافعي، ووكل أمر التدريس فيها لابن المظفر السمعاني المتوفي سنة (٤٨٩هـ/١٠٩٥م)، وقد تولى التدريس بعده جماعة من مشاهير العلماء [١٢٧]، وبقيت تلك المدرسة مقصد طلاب العلم من مختلف البلدان الإسلامية، ينزلون بها ويتعلمون فيها كلما وفدوا على مرو[١٢٨]. كذلك كانت هناك مدرسة لأصحاب أبي حنيفة، وهي المدرسة العميدية التي أنشأها عميد خراسان "محمد بن منصور" المتوفي سنة (٤٩٤هـ/١١٠٠م)، وجعلها وقفا لأصحاب مذهبه، وكانت تحتوي على خزانة كتب[١٢٩].

وقد ظهرت أهمية هذا الإقليم في عصر السلطان "ألب أرسلان" الذي اتخذ من مرو حاضرة لدولته، حيث ظهرت في عهده نهضة علمية شاملة، فقد بنى الرئيس أبو

---

(١٢٣) ابن عساكر: تبين كذب المفترى، ص٢٩١، ابن الجوزي: المنتظم، ج٩ ص١٦٨.

(١٢٤) ابن قاضي شهبة:طبقات الشافعيةج٢ ص٢٠،السبكي،طبقات الشافعية ج٤ ص٣٠٩.

(١٢٥) ناجي معروف: مدارس قبل النظامية، ص١٥٠.

(١٢٦) ناجي معروف: السابق، ص ١٥١، ١٥٢.

(١٢٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣ ص ٢١٢.

(١٢٨) ناجي معروف: علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي ص ٦١، ٦٢.

(١٢٩) ابن الجوزي: المنتظم ج٨ ص ٢٤٥، ابن الأثير: الكامل، ج٨ ص٢٠٥.

علي المنيعي، المتوفي سنة (٤٦٣هـ/١٠٧٠م)، جامعا بمرو تقام فيه الجمعة والجماعة، وصار جامع البلد المشهور، يدرس فيه العلوم والآداب وشتى نواحي المعرفة[١٣٠].

وكان السلطان "سنجر بن ملكشاه" مع سعة ملكه، قد أختارها على سائر بلاده لتكون مقرا له، وكان يجل العلماء ويقدرهم، فقصده عدد كبير من مشاهير العلماء والأدباء، وتولوا المقاعد التدريسية وحلقات الطلبة، وأسهموا في تنشيط الحركة الثقافية في هذه المدينة، ووكلت إليهم كبرى المناصب القضائية والإدارية، بما عرف عنهم من مقدرة علمية وأدبية رشحتهم لأرقي المناصب، مما يشير إلى مدى ما كانت تتمتع به هذه المدينة من ازدهار علمي وأدبي.

كما بلغت حركة التأليف والنسخ واقتناء الكتب بها شأوا كبيرا. وقد اشتهرت مدينة مرو، فضلا عن مدارسها ومساجدها، بمكتباتها الحافلة بأنواع العلوم والفنون، فيذكر ياقوت الحموي[١٣١] وكان معاصرا، لهذه الفترة: أنه أقام طويلا في مدينة مرو، وأخذ العلم من علمائها، وأفاد من خزائن كتبها، وأن هذه الكتب قد أعانته على جمع مادة كتابه المعروف بـ "معجم البلدان" ويقول: "فإني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف، لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة" ، وكانت خزائن كتبها ملحقة بالمساجد أو المدارس، وكان الاطلاع على تلك الكتب سهلا ميسورا دون قيود، حيث كان يرتع فيها ويقتبس من فوائدها، حتى إن حبه لها أنساه كل بلد، وألهاه عن الأهل والولد[١٣٢].

وقد خرّجت مرو كثيرا من الأعيان والعلماء، وكان لواء الرياسة والصدارة في مرو معقودا لأسرة السمعاني، وهي أسرة علم وفضل، فقد برز من البيت السمعاني أكثر من أربعة عشر، ما بين عالم ومحدث وفقيه وأديب يشار إليهم بالبنان، قد شغلوا وظائف مهمة في القضاء والإفتاء والتدريس، والخطابة ومجالس الوعظ والإملاء، وما كان لهم من خزانة الكتب بمدينة مرو، والتدريس في المدرسة النظامية، وكذلك المدرسة العميدية، كما كانت لهم الخطابة بجامع مرو، وعقدوا فيه المجالس العلمية[١٣٣].

ومن أشهرهم: الإمام أبو منصور محمد بن عبد الجبار بن الفضل بن منصور السمعاني المروزي، المتوفي سنة (٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، كان إماما في النحو واللغة

---

(١٣٠) الصريفيني: منتخب السياق ص٢١٤.

(١٣١) معجم البلدان: ج٥ ص١١٤.

(١٣٢) ياقوت: معجم البلدان، ج٥ ص ١١٤، ١١٥. محمد محمود إدريس : السلطان سنجر، ص ١٣٩.

(١٣٣) منيرة ناجي سالم: تاج الإسلام أبو سعد السمعاني ص ٣٤، ٢٥.

العربية، صنف فيها التصانيف، وكان حنفيا ورعا ومن رؤساء الحنفية بمرو[١٣٤].

أما ولده منصور فكان أولا حنفيا، ثم تحول شافعيا بعد ثلاثين سنة، فصار أولاده وأحفاده كلهم شافعية، وكان أبو منصور هذا مفتي خراسان، قدمه نظام الملك على أقرانه في مرو، وعهد إليه بمهمة التدريس بنظامية مرو[١٣٥] ويوصف بأنه أحد أئمة الدنيا، رفيع القدر، عظيم المحل، صنف في مختلف العلوم والفنون، ومن كتبه: "تفسير السمعاني"، و"المنهاج لأهل السنة"، و" الانتصار لأهل الحديث"، وهو جد أبو سعد السمعاني صاحب "الأنساب" [١٣٦]. ومنهم أيضا تاج الإسلام أبو بكر السمعاني، المتوفي سنة (٥١٠هـ/١١١٦م)، برع في الفقه، وتبحر في علم الحديث ومعرفة الأسانيد والرجال والجرح والتعديل، مع الإحاطة بالتواريخ والأنساب، خلف أباه في مجالس التدريس بنظامية مرو، وخلفه في الوعظ، وزاد عليه في الخطابة والقبول التام بين الخاص والعام، عظمه الملوك والأكابر، وقصر أيامه على الإفادة ونشر العلم، وصنف تصانيف في الحديث، وهو والد صاحب الأنساب [١٣٧]. وأشهرهم جميعا أبو سعد السمعاني المروزي صاحب "الأنساب"، المتوفى سنة (٥٦٢هـ/١١٦٦م) ، كان بيته من أرفع البيوت، وأعلمهما في بلاد الإسلام، وأقدمها في العلوم الشرعية والأمور الدينية، طاف بمراكز العلم في بلاد الإسلام عدة سنوات، ورحل إلى خراسان وأصفهان ونيسابور، والري وهمذان وما وراء النهر، والعراق والحجاز والشام، وطبرستان والجزيرة، وزار بيت المقدس وحج مرتين ثم رجع إلى وطنه [١٣٨].

ومن كتبه المشهورة : "الأنساب"، و"التحبير في المعجم الكبير"، و"تاريخ مرو"، و"ذيل تاريخ بغداد للخطيب" [١٣٩]، وانتهت إليه رياسة آل السمعاني. قال فيه ابن الأثير[١٤٠]: "وأما تاج الإسلام أبو سعد فإنه كان واسطة عقد بيت السمعاني، وعينهم الباصرة، ويدهم الناصرة، إليه انتهت رئاستهم، وبه كملت سيادتهم"، وقد درس بالمدرسة العميدية بمرو ودرّس بها، كما درّس بنظامية مرو، وصارت له شهرة

---

(١٣٤) الذهبي: العبر ج٣ ص٢٢٣.
(١٣٥) الصريفيني: منتخب السياق، ص٤٤٢، السبكي: طبقات الشافعية ج٤ ص ٢١.
(١٣٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣ ص٢١٢، ابن العماد: شذرات الذهب، ج٣ ص٣٩٣.
(١٣٧) ابن الجوزي:المنتظم،ج٩، ص١٨٨،ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج٢ ص١٢.
(١٣٨) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج٤ ٣١٦.
(١٣٩) الذهبي: تذكرة الحفاظ ج٤ ص٣١٦، اليافعي: مرآة الجنان ج٤ ص٣٧١.
(١٤٠) الكامل: ج٩ ص٩٨.

فائقة، وقصده الطلبة من سائر البلاد الإسلامية لتلقى العلم على يديه (١٤١).

وعلي بن محمد بن أرسلان بن محمد الكاتب، المتوفي سنة (٥٣٦هـ/ ١١٤١م)، كان مليح الخط فصيح العبارة، وله شعر وترسل وبلاغة في غاية الحسن، قيل عنه: "اجتمعت فيه أسباب المنادمة والكتابة وصحبة الملوك" (١٤٢)، وله مصنفات كثيرة منها : "تعلة المشتاق إلى ساكني العراق" ويذكر ياقوت الحموي(١٤٣)، نقلاً عن الزمخشري الخوارزمي، أنه قال: "أنشدني الكبير المنتخب أبو علي محمد بن أرسلان لنفسه بيتا لو وقع في شعر المتقدمين لسيرته الرواة، وخلدته الأئمة في كتبهم، وكم من أخوات له ضيعت بضياع الأدب، وقلة النقلة، واتضاع الهمم، وتراجع الأمور على أعقابها (١٤٤). وأبو منصور المظفر بن أبي الحسين أردشير بن أبي منصور العبادي الواعظ المروزي المتوفي سنة (٥٤٧هـ/١١٥٢م) له اليد الطولى في الوعظ، حسن العبارة حتى صار عين ذلك العصر، وشهد له الكل بالفضل وحيازة قصب السبق، قدم بغداد وأقام فيها ثلاث سنوات يعقد فيها مجالس الوعظ ولقي من الخلق قبولا تاما (١٤٥). وأبو محمد الخرقي المتوفي سنة (٥٥٣هـ/١١٥٨م) كان فقيها فاضلا، ثم اشتغل بالحساب وحصل منه طرفا صالحا وجاوزه إلى العلوم الفلسفية وغيرها، وجمع تاريخا لمرو ذكر فيه أحوال الأئمة والمحدثين والعلماء، وله مصنفات غير تاريخ مرو منها "فضائل الأوقات" و"منتهى الإدراك في تقاسيم الأفلاك" (١٤٦) وخرق قرية بين قرى مرو (١٤٧).

١-المدرسة النظامية:

أنشأ هذه المدرسة الوزير السلجوقي الكبير: نظام الملك الطوسي، ولعل تاريخ إنشائها يوافق تاريخ انتقال أبي المظفر السمعاني إلى المذهب الشافعي سنة

---

(١٤١) صلاح الدين علي عاشور: أبو سعد السمعاني وكتابه الأنساب، ص٢٧٢٥، ٢٧٢٦، مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة، الجزء الثالث،العدد الثالث والعشرين، القاهرة ٢٠٠٥

(١٤٢) السمعاني: التحبير في المعجم الكبير ج١، ص٢٤١، تحقيق منيرة ناجي سالم، بغداد ١٩٧٥م.

(١٤٣) ياقوت: معجم البلدان، ج٢ ص٣٦٠.

(١٤٤) معجم الأدباء: ج٤ ص٣١٧.

(١٤٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٥ ص٢١٢،ابن الجوزي:المنتظم ج١٠ ص١٥٠، ١٥١.

(١٤٦) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ج٥ ص١٥٧.

(١٤٧) ابن الجوزي: المنتظم ج٩ ص٦٠.

(٤٦٨هـ/١٠٧٥م)، وربما يكون نظام الملك قد بنى هذه المدرسة باسم هذا العالم الجليل، فيذكر المؤرخون أن هذا الوزير قد رفع من قدره وقدمه على أقرانه، وعقدت له مجالس الوعظ والتدريس بنظامية مرو، وكانت وفاته سنة (٤٨٩هـ/١٠٩٥م)[١٤٨].

وقد درس في هذه المدرسة أغلب الأسرة السمعانية، ومن أشهر مدرسيها: أبو المجد الرازي من أهل الري، فقيه فاضل نزل مرو في المدرسة النظامية عام (٥٢٩هـ/١١٣٤م)، وتولى مهمة التدريس بها [١٤٩]. وأبو القاسم أحمد بن منصور السمعاني المتوفي سنة (٥٣٤هـ/١١٣٩م) وهو العم الأصغر لأبي سعد السمعاني[١٥٠]ثم درس بها الإمام أبو سعد السمعاني صاحب الأنساب، المتوفي سنة (٥٦٢هـ/ ١١٦٦م). ويكفى للدلالة على المنزلة العلمية الرفيعة التى بلغها هذا البيت: أن الوزير نظام الملك الطوسى بنى "المدرسة النظامية" بمرو لأبى المظفر السمعانى جد أبى سعد، وذلك بعد انتقال أبى المظفر جد أبى سعد إلى المذهب الشافعى سنة (٤٦٨هـ/١٠٧٥م)، فرفع نظام الملك من مقامه، وقدمه على أقرانه، وعقد له مجلس التذكير والتدريس في مدرسة أصحاب الشافعي بمرو[١٥١]. وقد درس بها أيضاً أبو بكر السمعانى والد أبى سعد، وكذلك درس بها أبو القاسم عم أبى سعد، ثم درس بها أبو سعد نفسه[١٥٢]. وعندما بنى عميد خراسان محمد بن منصور النسوى، المتوفى سنة (٤٩٤هـ/١١٠٠م)،المدرسة العميدية بمرو،أوقفها على أبى بكر السمعانى

---

(١٤٨) الصريفيني: منتخب السياق ص٤٤٢.

(١٤٩) ناجي معروف: علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي ص ٦٢.

(١٥٠) ابن الجوزي: المنتظم ج ١٠ ص ٨٦.

(١٥١) كانت خراسان في منتصف القرن الخامس الهجرى قد تنازعت فيها قوتان مهمتان هما الحنفية والشافعية، إلا أن شوكة الشافعية بخراسان عامة كانت قد قويت بسبب اهتمام وزراء السلاجقة الشافعية بالناحية العلمية، وكان على رأسهم الوزير السلجوقى نظام الملك الطوسى، فبنى عدة مدارس عرفت بالنظاميات في جميع أنحاء المشرق الإسلامى في نيسابور وهراة وبلخ ومرو، وكان نظام الملك قد جعل في هذه المدارس وقفاً على المذهب الشافعى، فكان من غير المستبعد أن يتطلع أبو المظفر السمعانى (جد أبو سعد) للتدريس في نظاميه مرو لما كان له من مكانة عالية بين الفقهاء، الأمر الذى أدى إلى حدوث اضطرابات شديدة في مدينة مرو، حتى كادت الحرب تقع بين أصحاب أبى حنيفة والشافعى، ومنذ ذلك الحين صار أولاده وأحفاده كلهم شافعية. ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص٢١١.

(١٥٢) الصريفينى : المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور ص ٤٤٢، ٤٤٣، تحقيق محمد أحمد عبدالعزيز ، دار الكتب العلمية ط١ بيروت ١٩٨٩ م.

وأولاده[١٥٣]، حتى قال ابن الجوزى المتوفى سنة (٥٩٧هـ /١٢٠١م): فهم فيها إلى الآن [١٥٤]. وقد برز من هذا البيت مجموعة كبيرة من العلماء ما بين عالم ومحدث وفقيه وأديب يشار إليهم بالبنان، شغلوا وظائف مهمة فى القضاء والإفتاء والتدريس والتحديث والخطابة ومجالس الإملاء والوعظ والتذكير. وكانت لهم خزائن الكتب بمدينة "مرو"وكذلك فى المدرسة العميدية الخاصة بالبيت السمعانى.

والواقع أن البيت السمعانى كان بيت نعمة ويسار فكان لهم عدد من الضياع فى مرو وسرخس[١٥٥]، إضافة إلى ما كان لهم من عبيد وخدم وجوار ومؤدبين ومربيين لأولادهم، كما أن معظم أعيان البيت السمعانى قاموا برحلات كبيرة فى سبيل تحصيل العلم، يوم كانت الرحلة قطعة من العذاب، فضلا عن التكلفة الكبيرة من النفقات، إضافة إلى ما اقتنوه من كتب ومجلدات أثناء رحلاتهم، فتركوا دوياً هائلا فى دنيا البحث والدراسة. وأكبر دليل على المنزلة العلمية الرفيعة التى بلغها هذا البيت: ما كان لهم من خزائن الكتب،(المكتبات) بمدينة مرو، إذ كان لهم فيها ثلاث خزائن للكتب قال عنها ياقوت الحموى عند زيارته لهذه المدينة : " إنها كانت سهلة التناول لا يفارق منها منزلى مئتا مجلد وأكثرها بغير رهن... فكنت أرتع فيها وأقتبس من فوائدها، وأنسانى حبها كل بلد، وألهانى عن الأهل والولد، وأكثر فوائد هذا الكتاب – يقصد معجم البلدان – وغيره مما جمعته، فهو من تلك الخزائن " [١٥٦]. وكانت مساجد مدينة مرو، لاسيما في العصر السلجوقي، من أكبر وأهم المؤسسات العلمية، فعلى الرغم من كون الهدف الرئيس من إنشاء هذه المساجد هوجعلها أماكن للعبادة، إلا أنها قامت بدور مهم في نشر الثقافة والمعرفة، والوعي الديني، فقد ضمت حلقات لتدريس مختلف أنواع العلوم النظرية، والعقلية، حتى صارت أشبه بجامعات يدرس فيها مختلف أنواع التخصصات، وكان يتولى التدريس فيها مشاهير العلماء الذين استقدمهم السلاطين، والأمراء والوزراء للقيام بهذا العمل [١٥٧].

---

(١٥٣) عباس إقبال: الوزارة في عهد السلاجقة ص ص٨٤، ٨٥ ترجمة د. أحمد كمال الدين حلمى جامعة الكويت ١٩٨٤ م. صلاح الدين عاشور: أبو سعد السمعاني، ص ٢٧٢٦.

(١٥٤) ابن الجوزى : المنتظم ح٩ ص ١٢٨.

(١٥٥) سرخس : مدينة كبيرة من أشهر مدن خراسان، تقع في وسط الطريق بين نيسابور، ومرو. ياقوت : معجم البلدان، ج٣، ص٢٠٨

(١٥٦) ياقوت الحموى : معجم البلدان ح٥ ص ١١٤.

(١٥٧) يحيي بن حمزة الوزنة : مدينة مرو والسلاجقة حتى عصر سنجر، ص ١٣٥، مكتبة الثقافة الإسلامية، ط١ القاهرة ٢٠٠٧ م.

٢-المدرسة العميدية:

أنشأ هذه المدرسة عميد خراسان:محمد بن منصور المستوفي، المتوفي سنة (٤٩٤هـ/١١٠٠م)، ووقف فيها كتبا نفيسة ووقفها على أبي بكر بن أبي المظفر السمعاني وأولاده[١٥٨]، ويذكرابن الجوزي، المتوفي سنة (٥٩٧هـ/١٢٠١م) أنهم فيها إلى الآن[١٥٩].

وقد أشار إليها ياقوت الحموي عند زيارته لها سنة (٦١٦هـ/١٢٢٠م)، وذكر أن إحدى خزائن كتب البيت السمعاني كانت موجودة بهذه المدرسة [١٦٠] ومعنى ذلك أن هذه المدرسة ظلت تؤدي دورها العلمي والتعليمي حتى ذلك الوقت.

ثالثا:الحركة المدرسية بمدينة هراة في العصر السلجوقي:

كانت مدينة هراة من أمهات مدن خراسان، يقول عنها القزويني[١٦١] : "ما كان بخراسان مدينة أجمل، ولا أعمر، ولا أحصن، ولا أكثر خيرا منها،" بينما يقول عنها ياقوت الحموي[١٦٢] :"لم أر بخراسان عند كوني بها أجل ولا أعظم ولا أفخم ولا أحسن ولا أكثر أهلا منها".

وكانت مدينة هراة من المدن التي اهتم السلاجقة بنشر الثقافة فيها، فقد أسس بها الوزير "نظام الملك" إحدى نظامياته، واستدعى لها العالم الجليل" أبا بكر الشاشي" للتدريس بها، والقيام على شؤونها، فأصبحت منارة للعلم والمعرفة [١٦٣]. ومن مشاهير علماء هراة : أبو المظفر الإسفزاري، المتوفى سنة (٤٨٠هـ/١٠٨٧م) وهو من الذين اشتغلوا مع الخيام بالعلوم الرياضية، وأحد عظماء المنجمين الذين كلفهم ملكشاه بعمل "التقويم الجلالي"، المعروف بالرصد الملكشاهي[١٦٤]. والشيخ عبد الله الأنصاري الهروي المتوفي سنة (٤٨١هـ/١٠٨٨م)، من مشاهير الصوفية في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، ومن الذين أجادوا اللغتين الفارسية والعربية وألف بهما، وقال الشعر العربي والفارسي، وفرق في أشعاره بين الشعر الصوفي والشعر التعليمي، وكان يلقب بشيخ الإسلام، وتنسب إليه مجموعة من الرباعيات تتضمن أفكارا دينية وصوفية، غير أن شهرته ترجع في المقام الأول إلى

---

(١٥٨) الذهبي: تذكرة الحفاظ ج٤ ص١٣١٦، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٥ ص٣٧٨.
(١٥٩) ابن الجوزي: المنتظم ج٩ ص١٢٨.
(١٦٠) ياقوت: معجم البلدان: ج٥ ص١١٤.
(١٦١) آثار البلاد: ص٤٨١.
(١٦٢) معجم البلدان: ج٥ ص٣٩٦.
(١٦٣) السبكي: طبقات الشافعية ج٣ ص٧٩، ٨٠.
(١٦٤) البيهقي: تاريخ الحكماء، ص١٢٥، العروضي السمرقندي: جهار مقالة، ص١٦٠.

مؤلفاته النثرية العديدة الفارسية والعربية، فمن مؤلفاته الفارسية :"رسالة أسرار"، و"كنز السالكين"، أما تصانيفه العربية فمنها: كتاب "ذم الكلام"، وكتاب "منازل السائرين" (١٦٥).

ومن مشاهير علماء هراة أيضا: عبد الرحمن بن عثمان بن منصور المعدل الهروي، المتوفي سنة (٥٤٦هـ/١١٥١م)، وكان حافظا أديبا يلقب ثقة الدين، وقيل عنه: "حافظ فاضل مقدم المحدثين بهراه له معرفة بالحديث والأدب" (١٦٦).

نظامية هراة:

أنشأها الوزير نظام الملك، وعهد بالتدريس فيها إلى محمد بن علي بن حامد الإمام أبو بكر الشاشي المتوفى سنة (٤٨٥هـ/١١٥٣م) فقيه عصره بقى مدة بهراة يدرس في المدرسة المنسوبة إلى نظام الملك (١٦٧) وقد ذكر ابن الجوزي نظامية هراة في حوادث سنة (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م) عندما وقعت الفتنة بهراة بين الشيخ عبد الله الأنصاري المتوفي سنة (٤٨١هـ/١٠٨٨م) وكان حنبلي المذهب، وأحد الشافعيين فهجم الحنابلة على المدرسة النظامية، فبعث نظام الملك من قبض على الشيخ عبد الله الأنصاري وأبعده عن هراة حتى خبت الفتنة، ثم أعاده إلى هراة مرة أخرى (١٦٨). ومن أشهر الذين تولوا مهنة التدريس بها الشيخ محمد بن يحيى المتوفي سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م) وكان يدرس بنظامية نيسابور، ثم درس بمدينة هراة في المدرسة النظامية، وحضر دروسه فضلاء عصره في مدينة هراة (١٦٩).

رابعا: الحركة المدرسية بمدينة بلخ في العصر السلجوقي:

من أجل مدن خراسان وأكثرها خيراً (١٧٠)، يقول عنها ابن حوقل (١٧١) :"مدينة قديمة أزلية، تجمع جميع التجارات، وتقصد بالأمتعة من سائر الجهات، وفي أهلها علم، ويغلب عليهم الأدب ودقة النظر في الفقه والعلوم الغامضة، وقد خرجت غير رئيس، وعرف من أهلها غير نفس".

وقد عنى السلاجقة بهذه المدينة وعمروها، وأقاموا فيها المساجد والمدارس

(١٦٥) نظام الملك: سياست نامه ص١٧٥. السيوطي: طبقات المفسرين ص٥٧.
(١٦٦) السبكي: طبقات الشافعية، ج٤ ص٢٤٥، ٢٤٦.
(١٦٧) ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ج١ ص٢٧٠،السبكي: طبقات الشافعية ج٣ ص٧٩
(١٦٨) ابن الجوزي: المنتظم ج٩ ص١٥، ١٦.
(١٦٩) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٤ ص٢٢٣.
(١٧٠) القزويني: آثار البلاد ص٣٣١.
(١٧١) صورة الأرض: ص ٣٧٤.

والربط، وأسس فيها الوزير نظام الملك مدرسة لأصحاب الشافعي، هي المدرسة النظامية [١٧٢].

وفوض أمر التدريس بها لعبد الله بن طاهر بن محمد بن شهفور، المتوفى سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٥م)، وكان إماما في الفروع والخلاف والأصول، وله الجاه والمال الكثير والمنزلة الرفيعة، حتى إنه لما قدم بلخ استقبله أهل البلد بحفاوة بالغة [١٧٣].

وعمر بن أحمد بن الليثي الطالقاني البلخي المتوفى سنة (٥٣٦هـ/١١٤١م) الفقيه الشافعي، كان من أفضل الناس في عصره في علم اللغة والأدب، هذا إلى جانب إجادته الفقه وعلم التفسير والحديث مما جعله من أكابر علماء عصره، وبلغ من قدره وعلمه أنه كان أمر بالتدريس بنظامية بلخ، وظل يدرس بها إلى حين وفاته [١٧٤].ويعد القاضي ظهير الدين أبو بكر البلخي من الكتاب الذين تفوقوا في الكتابة الأدبية باللغة الفارسية في العصر السلجوقي، ويتجلى ذلك من خلال مقاماته التي كتبها في سنة (٥٥١هـ/١١٥٦م)، والمسماة "مقامات حميدي"، فهي خير مثال للصورة الأدبية النثرية الفارسية، وهو تقليد فارسي للمقامات العربية التي وضعها "بديع الزمان الهمذاني" و"الحريري". وعلى الرغم من أنها لا تصل إلى مستوى المقامات العربية، من حيث الموضوع وسبك العبارة، إلا أنها تعد من الكتابات النثرية الجيدة [١٧٥]. وينسب إلى هذه المدينة الجليلة جماعة من أهل العلم، على رأسهم محمد بن عبد الجليل الملقب برشيد الدين الوطواط المتوفي سنة (٥٧٣هـ/١١٧٧م) الأديب الكاتب الشاعر، كان من نوادر الزمان وعجائبه، وأفراد الدهر وغرائبه، أفضل زمانه في النظم والنثر، وأعلم الناس بدقائق كلام العرب، وأسرار النحو والأدب، طار في الآفاق صيته، وسار في الأقاليم ذكره، وبلغ به الإتقان أنه كان ينشئ في حالة واحدة بيتا بالعربية من بحر وبيتا بالفارسية من بحر آخر ويمليهما معا، وله من التصانيف "حدائق السحر في دقائق الشعر" باللغة الفارسية، وللوطواط أيضا ديوان شعر، وديوان رسائل عربي، وديوان رسائل فارسي، وغير ذلك كثير [١٧٦].

---

(١٧٢) السبكي: طبقات الشافعية ج٣ ص١٣٥.

(١٧٣) ياقوت: معجم الأدباء، ج٥ ص٤٣٠، السيوطي: بغية الوعاة ج١ ص٢٢٦.

(١٧٤) السبكي: طبقات الشافعية ج٤ ص٢٨٥.

(١٧٥) بروان: تاريخ الأدب، في إيران، ص٤٤١، محمود إدريس، السلطان سنجر السلجوقي ص١٢٧.

(١٧٦) ياقوت: معجم الأدباء، ج٥ ص٤٣٠، السيوطي: بغية الوعاة ج١ ص٢٢٦.

نظامية بلخ:

أنشأها الوزير نظام الملك، ووكل مهنة التدريس فيها للشيخ عبد الله بن طـاهر الإسفراييني، المتوفى سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٥م)، وكان لعبد الله ابن يقـال لـه "أبـو المحاسن" ثقة فاضلا مناظرا، تولى أمر التدريس بعده [١٧٧]. ومن الذين تولوا مهنـة التدريس بها عبد الله بن الحسين البلخي، المعروف بابن الظريف، المتوفى في نفـس العام، وكان إماما كبيرا في الفقه والأصول ذا علوم متعددة [١٧٨] وأبو حفص عمر بن أحمد بن الليث الطالقاني البلخي المتوفي سنة (٥٣٦هـ/١١٤١م)، كان مـن أكـابر العلماء[١٧٩].

وبعد، فهذا موضوع البحث، وهذه رؤيتي، حاولت فيها قدر جهدي الاقتراب من الصواب، فإن وفقت فهذا ما كنت أبغي، وإن جانبني الصواب فحسبي أنني اجتهـدت، والله من وراء القصد، وهو يهدي إلي سواء السبيل.



---

(١٧٧) ناجي معروف: علماء النظاميات ومدارس المشرق الإسلامي، ص٧٠.

(١٧٨) السبكي: طبقات الشافعية ج٣ ص٢٠٤.

(١٧٩) السابق: طبقات الشافعية ج٤ ص٢٨٥.

المصادر والمراجع

أولا ـ المصـــــادر :

* ابن الأثير (ت ـ٦٣٠هـ) على بن أبي الكرم.

١- الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية ط٣، بيروت، ١٩٨٨م.

* البنداري (ت ـ٥٩٧ هـ) الفتح بن علي البنداري الأصفهاني

٢- تاريخ دولة آل سلجوق (اختصار الفتح بن على البندري) دار الآفاق الجديـدة ط ٣ بيروت ١٩٨٠م

* البيهقي (ت ـ٤٧٠هـ) أبو الفضل محمد بن حسين.

٣ ـ تاريخ البيهقي، ترجمه إلي العربية د/ يحيي الخشاب، وصادق نـشأت، مكتبـة الأنجلو المصرية القهرة ١٩٥٦ م.

* الثعالبي (٤٢٩هـ) أبو منصور بن عبد الملك بن محمد النيسابوري.

٤ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر تحقيق د. مفيد محمد متميـة، دار الكتـب العلمية ط١ بيروت ١٩٨٣.

* ابن الجوزي : (ت ـ٥٩٧هـ) جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي

٥ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعـارف العثمانيـة، ط١ حيـدر أبـاد ١٣٥٩هـ.

*الحسيني (ت ـ ٦٢٢هـ) صدر الدين علي بن ناصر

٦ـ زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك الـسلجوقية،تحقيق: د/ محمـد نـور الدين. دار اقرأ. بيروت. ١٩٨٢م.

* ابن حوقل (ت ـ٣٦٧ هـ) أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي

٧ ـ صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت،١٩٧٩ م.

* ابن خاوند شاه. (ت ـ٩٠٣ هـ) محمد بن خاوند شاه بن محمود.

٨- روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ترجمة د. أحمد عبـد القـادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط١ القاهرة، ١٩٨٨م.

* ابن خلدون (ت ـ٨٠٨هـ) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون.

٩ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م.

* ابن خلكان (ت ـ٦٨١هـ) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد

١٠ــ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

*خواندمير(ت ــ٩٤٢هــ) غياث الدين خواندمير

١١ــ دستور الوزراء، ترجمة : د/ حربي أمين سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠ م

*الذهبى (٧٤٨هــ) أبو عبدالله شمس الدين بن محمد الذهبى

١٢ــ تذكرة الحفاظ. دار الكتب العلمية بيروت ١٣٧٤هــ.

١٣ــ سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنــؤوط ومحمد نعيم العرقسوسى، مؤسسة الرسالة، ط١، بيروت ١٩٨٤.

* الراوندي (من علماء القرن السادس الهجري) محمد بن علي بن سليمان

١٤ــ راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة د / إبراهيم أمين الشورابي وزميلاه، دار القلم ــ القاهرة ١٩٦٠ م.

*ابن الساعي (ت ــ٦٧٤هــ) علي بن أنجب

١٥ ــ تاريخ الخلفاء العباسيين، مكتبة الآداب، القاهرة ١٩٩٣م.

*السبكى (٧٧١هــ) تاج الدين بن تقى الدين السبكى

١٦ ــ طبقات الشافعية الكبرى دار المعرفة ط٢ بيروت (د. ت).

*السمعاني (ت ــ٥٦٢هــ)أبو سعد بن محمد بن منصور.

١٧ ــ الأنساب، وضع حواشيه : محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلميــة، ط ١ بيروت ١٩٩٨.

١٨ ــ التحبير في المعجم الكبير، تحقيق : منيرة ناجي سالم، بغداد ١٩٧٥ م.

*السيوطى (٩١١هــ) جلال الدين عبدالرحمن بن أبى بكر

١٩ ــ بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٦٤م.

*الشهرستاني(ت ــ ٥٤٨هــ) أبو الفتح محمد بن عبد الكريم

٢٠ ــ الملل والنحل. مؤسسة ناصر للثقافة. ط١. بيروت. ١٩٨١م.

*الصريفينى (٦٢٢هــ) إبراهيم بن محمد بن الأزهر الصريفينى

٢١ــ المنتخب من السياق لتاريخ نيسابور، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت ط١ ١٩٨٩م

* ابن العبري (ت ــ٩٨٥هــ) غريغرويوس أبوالفرج بن هارون.

٢٢ - تاريخ مختصر الدول، دار الآفاق العربية ط١ ، القاهرة، ٢٠٠١م.

*ابن عساكر (٥٧١هـ)أبو القاسم علي بن الحسين.

٢٣- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، مطبعة التوفيق، دمشق ١٣٤٧هـ.

*العماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ) عماد الدين محمد بن حمد الكاتب.

٢٤ - تاريخ دولة آل سلجوق (اختصار الفتح بن علي البنداري). دار الآفاق الجديدة. ط٣. بيروت ١٩٨٠م.

*ابن قاضى شهبة (٨٥١هـ) أبو بكر أحمد بن محمد.

٢٥ - طبقات الشافعية تحقيق د/ عبد العليم خان، عالم الكتب ط١ بيروت ١٩٨٧م.

* القزويني (ت ٦٨١هـ) زكريا بن محمد بن محمود.

٢٦- آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤م.

* ابن كثير(ت - ٧٧٤هـ) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر.

٢٧ -البداية والنهاية في التاريخ، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٩٣٢م.

*الكرديزي (ت ٤٢٢هـ)أبو سعيد عبد الحي الضحاك

٢٨- زين الأخبار،ترجمة: د/عفاف السيد زيدان،دارا لطباعة المحمدية،القاهرة١٩٨٢م

* أبو المحاسن (ت ٨٧٤هـ) جمال الدين يوسف بن تغرى بردي الأتابكي.

٢٩- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب المصرية، ط١، القاهرة، ١٩٣٥م.

* المقدسي(ت - ٣٨٧هـ) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر.

٣٠- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧م.

* ناصر خسرو (ت ٤٨١هـ) ناصر خسرو علوي

٣١- سفرنامة:، ترجمة : د/ يحيي الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣م.

* النويري (ت ٧٣٣ هـ) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب

٣٢ - نهاية الأرب في فنون الأدب دارا لكتب المصرية القاهرة ٢٠٠٧.

* ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي.

٣٣ - معجم الأدباء أو "إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب"، دار الكتب العلمية، ط١ بيروت، ١٩٩١م.

٣٤ ــ معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

ثانيا ـ المراجــــع :

* أحمد السعيد سليمان (دكتور)

١ تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، دار المعارف القاهرة ١٩٦٩ م.

*أحمد كمال الدين حلمي(دكتور)

٢ــ السلاجقة في التاريخ والحضارة، دار البحوث العلمية. ط١، الكويت، ١٩٧٥.

*أدورد براون.

٣ــ تاريخ الأدب في إيران من الفردوس إلى السعدي، ترجمة د/ إبراهيم أمين الشواربي. مطبعة السعادة، القاهرة ١٩٥٤م.

*بارتولد.

٤ــ تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ص ص ٢، ٣. ترجمة أحمد السعيد سليمان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.

* بدر عبد الرحمن محمد (دكتور)

٥ــ الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في العراق والمشرق الإسلامي من أوائل القرن الرابع الهجري حتى ظهور السلاجقة، مكتبة الأنجلو المصرية ط١، القاهرة، ١٩٨٩م.

* تامارا رايس (دكتور)

٦ ــ السلاجقة تاريخهم وحضارتهم،ترجمة لطفي الخورى،مطبعة الإرشاد بغداد ١٩٦٨م.

*حسن إبراهيم حسن (دكتور)

٧ــ تاريخ الإسلام السياسي،دار الجيل، ط ٨ بيروت ١٩٩٦م.

*حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم الشريف (دكتور)

٨ــ العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، ط ٣، القاهرة ١٩٧٧م.

* حسن سلهب (دكتور)

٩ــ تاريخ العراق في العهد البويهي (دراسة في الحياة الفكرية ٣٣٤ــ٤٤٧هـ/ ٩٤٥ــ١٠٥٥م) دار المحجة البيضاء، ط١ بيروت ٢٠٠٨ م.

* حسين أمين(دكتور)

١٠ــ تاريخ العراق في العصر السلجوقي،مطبعة الإرشاد، بغداد ١٩٦٥م.

* خليل السامرائي(دكتور) وزميلاه د/طارق فتحي سلطان د/ جزيل عبدالجبارالجومرد

١١ــ تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي(١٣٢ ــ ٦٥٦ هـ / ٧٤٩ ــ ١٢٥٨ م) طبع جامعة الموصل ١٩٨٨ م

* شوقي ضيف (دكتور)

١٢- تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات الجزيرة العربية، العراق، إيران)، دار المعارف ط٢، القاهرة، ١٩٨٣م.

*فتحي أبو سيف (دكتور)

١٣ــ خراسان تاريخها السياسي من سقوط الطاهريين إلى بداية الغزنويين، مكتبة سعيد رأفت،ط١، ١٩٨٨ م.

* عباس إقبال .

١٤ ــ تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجاوية، ترجمة د / محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٩ م .

*عبد المجيد أبو الفتوح بدوي (دكتور)

١٥ ــ التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني في المشرق الإسلامي من القرن الخامس الهجري حتى سقوط بغداد، دار الوفاء للطباعة والنشر. ط٢ المنصورة. ١٩٨٨م.

* عبد النعيم محمد حسنين (دكتور)

١٦ ــ سلاجقة إيران والعراق، مكتبة النهضة المصرية. ط١. القاهرة ١٩٥٩م.

*عصام عبد الرؤوف الفقي (دكتور)

١٧ ــ الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٧ م.

* علي محمد الصلابي (دكتور)

١٨ــ دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي، مكتبة جزيرة الورد، المنصورة ٢٠٠٦م .

* كلود كاهن :

١٩ــ تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية، نقله إلي العربية : د/ بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، ط ٣ بيروت ١٩٨٣ م.

* كي لسترانج

٢٠ ــ بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة : بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة ط٢ بيروت ١٩٨٥م

*محمد سعد السيد أحمد عزب (دكتور)

٢١ــ الحياة الفكرية في إقليم خراسان في العصر السلجوقي (٤٢٩ــ٥٥٨هــ/ ١٠٣٧ــ١١٦٢م) شركة نوابغ الفكر، ط١ القاهرة ٢٠٠٩ م.

*محمد عبد العظيم أبو النصر (دكتور)

٢٢ــ السلاجقة تاريخهم السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ٢٠٠٣م.

*محمد محمود إدريس (دكتور)

٢٣ــ سلطان السلاجقة الأعظم السلطان سنجر السلجوقي (سياسته الداخلية وأهم مظاهر الحضارة في عصره) المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة ١٩٨٨ م.

*محمود عرفة محمود (دكتور)

٢٤ــالدول الإسلامية المستقلة في الشرق وعلاقاتها بالخلافة العباسية، دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٨م.

*يحيى بن حمزة الوزنة (دكتور)

٢٥ــ مدينة مرو والسلاجقة حتى عصر سنجر، مكتبة الثقافة الإسلامية ط١ القاهرة ٢٠٠٧م.

ثالثا ـ الرسائل الجامعية :

*صلاح الدين علي عاشور

١ــ الحياة العلمية في العراق والمشرق الإسلامي إبان العصر السلجوقي (٤٤٧ــ٥٩٠هــ/١٠٥٥ــ١١٩٣م) رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٩٦م .

رابعا ـ الدوريات :

*صلاح الدين علي عاشور (دكتور)

١ ــ أبو سعد السمعاني وكتابه الأنساب، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة، الجزء الثالث، العدد الثالث والعشرين، القاهرة ٢٠٠٥ م .

*ناجي معروف (دكتور)

٢ــ مدارس قبل النظامية، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد الثاني والعشرين ١٩٧٣م.

*يحيى الخشاب(دكتور)

٣ــ نظام الملك والمدارس النظامية، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد الخامس ١٩٧٥م.

الصفاريون وإشكالية العلاقة مع العباسيين

(٢٥٤-٢٩٦هـ/٨٦٨-٩٠٨م)

د. محمد طه بن صلاح بن صالح بكري (*)

مقدمـــــــة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.... وبعد

فقد أثار انتباهي منذ زمن بعيد عندما كنت طالبا في الكلية، وبخاصة عند دراسة " تاريخ الدولة العباسية " ذلك التشرذم، والتفكك الذي أصاب العالم الإسلامي، لاسيما بعد عصر القوة الذى تمتعت به تلك الدولة، فخرج من أحشائها كثير من الدول المستقلة، التي رغبت في إقامة كيان سياسي مستقل عن الدولة الأم، وكان من بين تلك الدول "الدولة الصفارية" التي كانت نتاج صراع القوى المحلية للاستئثار بالسلطة والنفوذ في تلك المنطقة وظلت فكرة هذا البحث تراود فكري وعقلي. ولما كانت مادة البحث متوفرة، ولكنها متفرقة متنوعة، ومتناثرة هنا وهناك، دون أن تقوم عليها دراسة مستقلة- على حد علمي - فكان ذلك حافزا لي للسعي لإخراج هذا البحث.

وتطالعنا الروايات التاريخية أن الدولة العباسية، والتي آل إليها أمر المشرق الإسلامي دأبت على إيجاد كيانات سياسية تابعة لها في تلك المنطقة، إذ كان الطاهريون - صنيع العباسيين - يعتبرون أنفسهم شركاء في توجيه سياسة الدولة العباسية في منطقة المشرق، وفي مقابل ذلك تمتعوا باستقلال داخلي. ولكن سرعان ما تبدلت الأحوال، وتضاءلت أهمية الطاهريين، وتقلص دورهم، وازداد ضمور هذا الدور مع ظهور قوة الصفاريين المتنامية، مما أغري العباسيين إلى الاستعانة بهم ضد الخارجين عليهم، لاسيما فرق الخوارج في المشرق.

وكانت إشكالية العلاقة المتوترة والمتأزمة ؛ هي المحور الذي ارتكزت عليه، وحاولت إبرازه في تلك الدراسة ، إذ كان الصفاريون والعباسيون دائمي التشاحن

(*)الأستاذ المساعد بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية جامعة أم القرى مكة المكرمة

والتباغض، إلى درجة يصعب معها إقامة تواؤم بينهما. والمتابع لسير الأحداث يشعر، من الوهلة الأولى، بأن صراعا عربيا فارسيا قد نشأ نتيجة للاحتقان السياسي بينهما، يدفعه شعور بالحقد والكراهية وعداوة شرسة، من جانب الصفاريين الفرس، ضد استئثار العنصر العربي بالخلافة والسلطة. و ما لبثت أن تحولت المجابهة السياسية إلى مجابهة عسكرية ؛ فرضت معطياتها الجديدة على المنطقة. وقد وقر في ذهن الصفاريين أن يكونوا مستقلين، وألا يكونوا أداة تستخدمها الخلافة لضرب القوي المحلية، أو استعمالهم كرديف لسد الفراغ الذي تركه الطاهريون، فعملوا على ترسيخ كيانهم السياسي في المنطقة، في ظل التلاحم القوى بين تلك الثلة السياسية المتشرذمة في المنطقة وبين الخلافة، والتي كانت تحركها مصالحها الخاصة، ولكن كانوا أحيانا يجدون أنفسهم مضطرين للارتماء في أحضانها لدرء غضب حكامها، وغضب الرأي العام الإسلامي آنذاك . بينما كان العباسيون يتعاملون مع الصفاريين بحذر، وبشعور من الخوف نتيجة طموحهم السياسي المتنامي، ولما أحس العباسيون بخطرهم الداهم، وتوجهاتهم الفارسية التسلطية بدأوا يميلون إلى اتخاذ مواقف حاسمة ضدهم، لاسيما وأن الاختلاف في الفكر السياسي بين الطرفين كان عميقا. فبينما كان العباسيون يريدون حكما مستقرا في المشرق الإسلامي، دون خلق أية مشاكل في تلك المنطقة الاستراتيجية، نرى أن الصفاريين كانوا دائمي التنازع والتخاصم مع الخلافة، ولذلك عمل العباسيون للقضاء عليهم بكل ما أوتوا من قوة، واستعانوا في ذلك بقوة جديدة بدت في الأفق، ألا وهي قوة الدولة السامانية الصاعدة، الذين جدوا بدورهم في القضاء على فلول تلك الأسرة وأعوانها، فكانت النهاية الحتمية للدولة الصفارية من على المسرح السياسي للعالم الإسلامي.

حول بلاد سجستان:

سجستان أطلقت عليها المصادر العربية القديمة " سيستان " وهي بلاد سهلية يقع أغلبها حول بحيرة "ذره" [١]. وسيستان: يقال لها بالفارسية " نيمروز" أيضاً، ومعناها الأرض الجنوبية. يصفها ابن حوقل[٢] : بأنها أرض خصبة كثيرة الطعام والتمور والأعناب.... يرتفع منها غلة عظيمة من الحليت (البقل) حتى إنه غلب علي طعامهم. وتنسب سجستان إلي" سجستان بن فارس". وجاءت شهرة سجستان في الأساطير الفارسية القديمة علي أنها موطن "زال" أبي البطل القومي رستم، الذي كان

---

(١) كي لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية، ص ٣٧٢، ترجمة : بشير فرنسيس، وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة ط٢ بيروت ١٩٨٥م.

(٢) صورة الأرض: ص ٣٥٢، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩ م

بالغاً في الشجاعة والفروسية إلي حد أن "الفردوسي" ذكره في الشهنامة [٣]. وسجستان كما وصفها المقدسي [٤] بلاد حارة، أهلها من خيار الناس، مفردة بمحاسن لم تعرف لغيرها من البلدان، وما في الدنيا سوقة أصح معاملة، ولا أكبر مجاملة منهم، وفي رجالهم عظم خلق وجلادة، ويمشون في أسواقهم وبأيديهم سيوف مشهورة.

ولم يكن البلدانيون العرب المتأخرون يعرفونها إلا بمدينة سجستان. وعاصمة الإقليم مدينة " زرنج " وقد وصف لنا " ابن حوقل[٥] " هذه المدينة وصفاً دقيقاً، وكان بها دار الإمارة الصفارية[٦]. وقد أشار المقدسي[٧] إلي غني أهل سجستان وأنهم أصحاب عقل وعلم، ونوّه بقلعتها الحصينة وبمنارتيها المشهورتين في مسجدها الجامع. وكانت قاعدة الإقليم مدينة " زرنج " الشهيرة[٨]. ويؤخذ من أقوال الجغرافيين[٩] العرب أنها كانت قاعدة سجستان، ومن أشهر مدنها "بست" وهي ثانية المدن الجليلة في سجستان، وزي أهلها زي أهل العراق، وبها متاجر الهند، وبها نخيل وأعناب، قال عنها المقدسي[١٠] : لها جامع حسن وأسواق عامرة) وبها بلدة يقال لها " كركوية " كلهم خوارج.ومن عاداتهم أن المرأة لا تخرج من منزلها أبداً، فإن أرادت زيارة أهلها فبالليل. ويقول ياقوت[١١]: وبسجستان كثير من الخوارج يظهرون مذهبهم، ولا يتحاشون منه، ويفتخرون عند المعاملة. ثم أردف قائلاً: حدثني رجل من التجار قال : تقدمت إلي رجل من سجستان لأشتري منه حاجه فماكسته (جادلته) فقال: يا أخي أنا من الخوارج لا تجد عندي إلا الحق، ولست ممن يبخسك حقك، وإن كنت لا تفهم حقيقة ما أقول فسل عنه، فمضيت وسألت عنه متعجباً.

---

(٣) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجاوية. ص٩٧، ٩٨، ترجمة د/ محمد علاء الدين منصور. دار الثقافة والنشر والتوزيع القاهرة. ١٩٨٩م

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٢٤٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٧م.

(٥) صورة الأرض: ص ٣٤٩.

(٦) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج٣ ص ١٩٠، دار صادر بيروت ١٩٧٩ م.

(٧) أحسن التقاسيم: ص ٢٤١.

(٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٠٤، تحقيق : د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨م. كي لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية، ص ٣٧٣.

(٩) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٥٠. ياقوت: معجم البلدان ج٣ ص ١٩٠.

(١٠) أحسن التقاسيم: ص ٢٤١،٢٤٠.

(١١) معجم البلدان: ج ٣ ص ١٩٠.

الفتح الإسلامي لإقليم سجستان:

بدأ الفتح الإسلامي لإقليم سجستان في عهد الخليفة الراشد " عثمان بن عفان سنة (٣٠ هـ/٦٥٠م) إلا أن شعب تلك المنطقة كان عصيا علي الفتح الإسلامي، إذ ثار عدة مرات علي الحكومة المركزية في المدينة المنورة، وكان عمال العرب يؤدبونهم في كل مرة، إلا أنه بعد مرور الوقت أخذ نفوذ الإسلام، والآداب العربية، يزيد يوماً بعد يوم ويتأصل في هذا الإقليم(١٢). وبعد مقتل عثمان دخلت الدولة الإسلامية في حالة من الفتن والقلاقل، ولحق بكثير من الناس الأذى فسلكوا سبيل المخالفة ولحقوا بالخوارج. ولما كان أهل سجستان في شدة نتيجة إيذاء عمال بني أمية لهم، اعتصموا بالولايات البعيدة عن أعين الخلافة، ومن هذه البلدان سجستان التي اتخذوها ملجأ من بطش الحكام(١٣).

ظهور الصفاريين وموقف الخلافة:

في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥-٨٦ هـ/٦٨٤-٧٠٥ م) قام شيخ من كبار العرب يدعي" قطري بن الفجاءة " كان شاعراً فصيحاً وورعاً - من أهل سجستان - علي مظالم الحجاج، وفساد أجهزته، فبايعه جمع كبير منهم وقام بهم ثائراً، ومع أن الحجاج أرسل جيشاً كبيراً لدفعه إلا أنه تمكن من هزيمته، وقتل عدد كبير من جند الحجاج في هذا المعركة.

وكانت سجستان قد أصبحت مركزاً رئيسياً للعيارين(١٤) الذين استطاعوا تنظيم صفوفهم، وتكوين فرقة حربية للوصول إلي مراكز القوة السياسية، والاستيلاء علي الحكومة، لأن البلاد كانت تعج بالفقراء والمعوزين الذين امتهنوا حرفة صيد السمك من نهري "هيرمند"(١٥) و"ولي" (١٦) ونسج الخوص، وعمل القفاف، وعاش أهلها في

---

(١٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٨٥، عني بمراجعته والتعليق عليه. رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣ م.

(١٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٨٧.

(١٤)العياريون: العيار في اللغة هو الكثير المجيء والذهاب في الأرض، وقيل هو الذكي الكثير التطوف، والعرب تمدح بالعيار وتذم به فيقال: غلام عيار نشيط في المعاصي، وغلام عيار نشيط في الطاعة لله عز وجل. ابن منظور في لسان العرب مادة (عير) ج٦ ص ٥٣، دار الحديث للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٣.

(١٥) نهر هيرمند: ويطلق عليه أيضا "هيلمند" وهو من أنهار سجستان المشهورة، ويقع علي بعد ثلاثين ميلا من مدينة "زرنج" عاصمة الإقليم. لسترانج: بلدان الخلافة، ص ٣٧٧

ضيق وشدة لاسيما بعد سنة (٢٢٠ـ/٨٣٥ م) إذ تعرضت البلاد لقحط شديد فحدث كثير من الانفلات الأمني، والفوضى العارمة،الأمر الذي أدي إلي انعدام الأمن، وانتشار الفوضى، فكانت الظروف مهيأة لظهور رجل قوي يستطيع أن ينقذ البلاد و العباد(١٧).

والواقع أن التكوين التاريخي لإقليم سجستان كان خاضعا لمجموعة من المعطيات الجغرافية، والظروف الاقتصادية التي تدخلت بصورة فاعلة في إبراز شخصية سكانها، فظروف سجستان الاقتصادية كانت هي المحرك الرئيس لأهلها لإعلان التمرد علي السلطة المركزية في بغداد، لاسيما بعد تعرض بلادهم للعديد من سنوات القحط والجفاف التي تتعرض لها البلاد معظم الأحيان، بالإضافة إلي قلة المياه الصالحة للزراعة، ثم إن سجستان بحكم موقعها الجغرافي، وبعدها عن مركز الخلافة، أغرت زعماء المعارضة السياسية والمذهبية علي اتخاذها مقراً للعمل ضد الخلافة(١٨).

وكانت قد نشأت في معظم مدن إيران جماعات من الشباب والكبار، من الطبقات الدنيا والمتوسطة، من أهالي سجستان عرفوا بالعيارين، الذين تجمعهم روح التعاون والغيرة والحميّة علي رفعة ومكانة بلدهم، وكانت تجمعهم تقاليد وشروط هي : الفتوة والشجاعة، والاستقامة والصدق وحفظ الأسرار، ولما زادت أعدادهم أخذوا في تنظيم صفوفهم تحت إمرة رؤسائهم.

وكان الصفاريون ينقسمون إلي عدة فرق متناثرة في أنحاء سجستان، لذلك كان من الضروري توحيد صفوفهم تحت قيادة واحدة، وكان الصفاريون يعانون من جشع الطاهريين بهذه المناطق(١٩).

ومن المعروف أن العيارين بدأ ظهورهم في بغداد أواخر القرن الثاني الهجري (٨م) وكان تدخلهم حاسما بين الأمين والمأمون، فاستعان بهم الأمين لما فقد معظم

---

(١٦) نهر لي: ينشق من نهر" هيلمند" كمية كبيرة من الماء تجري في خمسة أفرع كبري تسقي كمية كبيرة من الأراضي بين مدينتي " بست " و" زرنج " منها نهر " لي ". لسترانج : بلدان الخلافة، ص ٣٧٧، ٣٧٨.

(١٧) مجهول المؤلف: تاريخ سجستان، ص ١٥٥، ترجمة :محمود عبد الكريم علي، طبع المجلس الأعلى للثقافة، ط١، القاهرة ٢٠٠٦م.

(١٨) فتحي أبو سيف: خراسان تاريخها السياسي من سقوط الطاهرين إلى بداية الغزنويين، ص ٤١، مكتبة سعيد رأفت،ط١ ١٩٨٨ م.

(١٩) مجهول: تاريخ سجستان، ص ١٥٦.

جيشه، حتى إنه اضطر إلي بيع أواني الذهب، والفضة، والمتاع، والأقمشة النفيسة، وأعطاها للعيارين للدفاع عنه، وعن العاصمة بغداد [٢٠].

لاشك أن ظهور الصفاريين يعتبر الخطوة الأولي في سبيل استرجاع الاستقلال الفارسي للبلاد الفارسية، وحلقة من حلقات التآمر الفارسي علي السيادة العربية[٢١].

ويرجع ظهور هذه الدولة على مسرح الأحداث السياسية إلي زمن خلافة " المتوكل على الله "العباسي سنة(٢٣٧هـ/٨٥١م) حينما كان يلي إقليم خراسان وملحقاته " طاهر بن عبد الله " [٢٢]أحد أمراء الدولة الطاهرية [٢٣]. ولما تولي خراسان " محمد بن طاهر "[٢٤] (٢٤٨ـ٢٥٩هـ/٨٦٢ـ٨٧٢م) لم يعبأ بدولته، في الوقت الذي وقعت فيه السلطة المركزية في بغداد تحت نفوذ الأتراك [٢٥]، وكثرة

([٢٠]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٠٤.

([٢١]) محمود عرفة محمود : الدول الإسلامية المستقلة في الشرق وعلاقاتها بالخلافة العباسية، ص١٠٨ ، دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٨م.

(٢٢) طاهر بن عبد الله: تولي الإمارة بعد موت أبيه " عبد الله بن طاهر " (٢١٣ـ٢٣٠هـ/٨٢٨ـ٨٤٤م)وكان الخليفة العباسي قد أنابه مكان أبيه، وقد ظل يحكم المشرق الإسلامي مدة ثمانية عشر عاما على خراسان وسجستان بعدالة وتقوى. عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ١٧.

([٢٣]) الدولة الطاهرية:(الطاهريون) تنسب هذه الإمارة إلي " طاهر بن الحسين " الفارسي الأصل الذي قاد جيوش المأمون خلال نزاعه مع أخيه الأمين، فقلده عدة وظائف مكافأة له، ثم لم يلبث أن ولاه على إقليم خراسان سنة (٢٠٥هـ/٨٢٠م) وأضاف إليه بعض ولايات المشرق الإسلامي، فاتخذ من نيسابور(حاضرة إقليم خراسان) عاصمة له، فكانت أول دولة من أصول فارسية تظفر باستقلال ذاتي عن الحكومة المركزية في بغداد. محمود عرفة: الدول الإسلامية، ص ٦٨، ٦٩.

([٢٤]) كان محمد بن طاهر آخر حكام الأسرة الطاهرية في المشرق الإسلامي، حيث قدّر لهذه الأسرة أن تزول على أيدي الصفاريين، وكان محمد بن طاهر معاصرا لندين قويَّي الشكيمة هما : الداعي الكبير " الحسن بن زيد العلوي " و" يعقوب بن الليث الصفار " فكان ضحية لثورتيهما على الخلافة العباسية. وقد وصفة المؤرخون بأنه كان رجلا غافلا ضعيف النفس ماجنا، وكان عماله يعاملون الناس في ولاياتهم باستبداد وظلم حتى تمنوا زواله. عباس إقبال : إيران بعد الإسلام، ص ١٧.

(٢٥) نفوذ الأتراك في الدولة العباسية: اعتمد الأمويون على العنصر العربي في جميع شؤون الدولة، وأسندوا إليهم مناصب الدولة، كما اعتمدوا عليهم في الشؤون الحربية، ولما آل الأمر إلى العباسيين اعتمدوا على الموالي من الفرس الذين قامت على أكتافهم دولتهم، وأخذوا عنهم كثيرا من نظم الحكم التي كانت سائدة في العهد الساساني، ولما ولي

منازعاتهم، مما أضر بمركز الخلافة في الأطراف الشرقية، لاسيما خراسان، مما مهد الطريق أمام " يعقوب بن الليث " للظهور على المسرح السياسي للدولة الإسلامية [٢٦].

التوسع الصفاري وموقف الخلافة العباسية:

كان يعقوب مقرباً من القادة والجند كريماً معهم، ينفق ما يكتسبه علي إطعامهم، فساعده طموحه على أن ينتقل من زمرة الصفاريين إلي جماعة العيارين، وأخذ يترقى حتى أصبح رئيس جماعتهم، وزادت أمواله، وكثر أتباعه، لأنه كان يرسل أصحابه إلي المناطق القريبة لمراقبة الطرق، وإرشاد القوافل، وأخذ إتاوات الطريق لها، كما فرض الإتاوات علي الأثرياء في كل المدن، ومنها كان ينفق على متطلبات العيارين وتسلحهم، وكان ينفق كل ما يحصل عليه بسخاء علي أقاربه وأصحابه، مما كان له أبلغ الأثر في احترام يعقوب وتقدمه علي زملائه في كل ما يقومون به [٢٧]. وتمكن يعقوب بقوة جماعته المنظمة أن يفرضوا سيطرتهم وسيادتهم علي مدينة "زرنج" عاصمة سجستان، ثم أخذ طريقه نحو التوسع على حساب ضعف الطاهريين [٢٨].

وبعد أن وطد "يعقوب بن الليث" سلطانه، وأمن شر كل من الأتراك والخوارج [٢٩]، تطلع إلي التوسع، علي حساب الطاهريين ولم يقنع بما تحت يديه،

المعتصم الخلافة، وكانت أمه تركية، تواجد الأتراك بشكل واسع، وأسند إليهم مناصب الدولة، حتى إنه عني بشرائهم من الأسواق، وبذل في ذلك أموالا طائلة. ولم يلبث الأتراك أن أصبحوا معول هدم في جسد الدولة العباسية عندما ضعف خلفاؤها، غير قادرين على الوقوف في وجوههم. بدر عبد الرحمن: الدولة العباسية، ص ١٠٠، ١٠٢.

(٢٦) خواندمير: روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفا، ص٥٧. ترجمة د/ أحمد عبد القادر الشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط ١ القاهرة ١٩٨٨ م

(٢٧) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج ٤ ص٤١٨، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م.

(٢٨) ابن العبري: تاريخ مختصر الدول. ص٣٣٥، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٨٠م.

(٢٩) شهد عصر يعقوب في بدايته معارك طاحنة بينه وبين الأتراك المتحصنين بجبال سجستان المنيعة، إذ كانوا يتمتعون بوفرة الجند والعتاد، وكان يعقوب يعلم أن هؤلاء الأتراك الدائمي التمرد لن يتركوه مطمئنا، وكان هو نفسه يدرك هذه الحقيقة، ويقول :" إذا أنا استرحت فإنهم لن يدعوني أستريح ". أما بالنسبة للخوارج فقد لقنهم يعقوب درسا قاسيا سنة (٢٥١هـ/٨٦٥ م) بعد أن أعلنوا العصيان عليه أكثر من مرة، لاسيما في عهد " عمار

فاتجه صوب " هراة " سنة (٢٥٣هـ/٨٦٧م) والتي كان يحكمها " الحسين بن عبد الله بن طاهر " من جانب الأمير محمد بن طاهر الثاني آخر أمراء هذه الأسرة، وكانت هذه المدينة مثل سائر ولايات خراسان في هذا الوقت ضمن ملك آل طاهر[٣٠]. وكانت هراة تعد بوابة خراسان الشرقية، وهي من الحصانة والمنعة مما يجعل اقتحامها أمرا صعبا، إذ كانت المدينة تقع في أحضان الجبال، ويخترقها نهر عظيم (نهرهراة) ولها قلعة حصينة، فتحصن بها الحسين، الذي أمر بملء الخنادق بالمياه، وتخزين المواد الغذائية، بما يكفي المدينة مدة كبيرة، وهيأ نفسه لحصار طويل، ولكن يعقوب استطاع الاستيلاء عليها بعد أن ضرب حولها الحصار، بل إنه تمكن من القبض على حاكمها " الحسين بن عبد الله "، ثم أرسل إلي الخليفة " المعتز بالله "[٣١] يخبره بانتصاره،ويقول: "إنني طائع لكم وتابع"[٣٢] فأرسل إليه المعتز كتابا أورد ابن خلكان[٣٣] نصه نقلا عن رواية للرسول الذي أرسله الخليفة للصفار، قال فيه: " صرت إليه بكتاب أمير المؤمنين المعتز بالله إلى زرنج (كرسي بلاد سجستان) فاستأذنت عليه فأذن لي، فدخلت ولم أسلم عليه، وجلست بين يديه من غير أمره، ودفعت الكتاب إليه، فلما أخذه قلت له: قبّل كتاب أمير المؤمنين، فلم يقبّله، وفضه، فتراجعت القهقري إلى باب مجلسه الذي كان فيه، ثم قلت: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله، فأعجبه ذلك، وأحسن مثواي، ووصلني، وأطلق الطاهرية "، وتخلي يعقوب عن هراة، ثم حاول ترضية الخليفة بأن أرسل إليه "نموذجاً مصغراً لمسجد من الفضة وكثير من الدواب والثياب الفاخرة" [٣٤]. وبعد عودة يعقوب منتصراً إلي سجستان أنشده أحد الشعراء شعراً بالعربية فلم يفهم واستنكف ذلك، فطلب وزيره " محمد بن صيف السجزي "

الخارجي " الذي علا شأنه وزاد نفوذه، وجمع جيشا عظيما في مدينة " نيشك" (إحدى مدن سجستان) من أجل محاربة يعقوب، ولكن الأخير استطاع القضاء عليه وعلى تمرده. لمزيد من التفاصيل أنظر، محمود عرفة : الدول الإسلامية، ص ١١٦، ١١٧.

(٣٠) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤ ص ٢٢٩، ٢٣٠، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت ١٩٨٥م - خواندمير: روضة الصفا، ص٥٨.

(٣١) المعتز بالله: هو أبو عبد الله بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد، ولد سنة (٢٣٢هـ/٨٤٦م) وأمه أم ولد رومية تسمي " قبيحة " بويع له بالخلافة عند خلع المستعين بالله سنة (٢٥٢هـ/٨٦٦م) وله تسع عشرة سنة، ولم يل الخلافة قبله أحد أصغر منه. السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٠٦. تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت ١٩٨٩م.

(٣٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٩ ص ٤٧٦، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٤، القاهرة ١٩٧٩م.

(٣٣) وفيات الأعيان: ج ٦ ص ٤٠٤.

(٣٤) مجهول: تاريخ سجستان، ص ١٧١، ١٧٢.

خاطره، وأنشده شعراً بالفارسية، عده صاحب تاريخ سجستان أول ما قيل بالفارسية من شعر. وهذا يدل علي حقد يعقوب وشعوبيته علي كل عربي[٣٥].

اتجه يعقوب بقواته ناحية " بوشنج " لمحاربة " إبراهيم بن الياس " (أحد قادة الطاهريين) وترك أخاه " علي بن الليث " مع الأسلحة والأسري في هراة ، فلما التقي الطرفان في بوشنج تلقي إبراهيم وجيشه هزيمة نكراء، وولي منهزما إلي نيسابور، حيث التقي هناك بـ "محمد بن طاهر" وأفهمه أنه لا يمكن القتال مع هذا الرجل (يقصد يعقوب) لأن جيشه مخوف، مما دفع حاكم خراسان الطاهري إلي استمالة "يعقوب" بأن فوض إليه ولاية سجستان، وكابل، فضلا عن كرمان، وفارس، وأرسل إليه الخلع [٣٦].

ويري البعض[٣٧] أن محمد بن طاهر كان يهدف من وراء هذا التفويض صرف نظر يعقوب عن إقليم خراسان، وشغله بصحاري فارس وكرمان، لأنه كان يدرك أطماعة في هذين الإقليمين[٣٨]، غير أن هذه الخدعة لم تنطل على يعقوب، الذي قفل عائدا إلي سجستان، وكتب إلي الخليفة العباسي " المعتز " أن يوليه علي البلاد التي تم الاستيلاء عليها [٣٩].

واتجه فكر يعقوب من أجل زيادة سعة بلاده إلي كرمان وفارس. وكانت كرمان في هذا التاريخ جزءا من أملاك الطاهريين، ولكن بسبب ضعف الأمير "محمد بن طاهر" لم يكن له نفوذ بها، حتى طمع والي فارس "علي بن الحسين بن قريش"، من طرف المعتز، في كرمان، ولما كان الخليفة يخشي من هذا الرجل وعصيانه، واستيلائه علي خوزستان والعراق، فقد أمره بالسيطرة علي كرمان، وأرسل بنفس الأمر إلي يعقوب [٤٠].

والمستغرب أن الخليفة العباسي أعطي ولاية "بوشنج" إلي أكثر من حاكم. فعندما كتب إليه يعقوب أن يوليه علي كرمان وفارس. كان " علي بن الحسين " أحد عمال الطاهريين قد أقره الخليفة علي حكم هذه المناطق نظرا لضبطه الأمور هناك، لاسيما بعد أن ضعف الطاهريون عن حماية تلك المناطق وفي الوقت نفسه أصدر مرسوماً بتولية يعقوب أيضا، مستخدما أسلوب المراوغة السياسية، حتى يتجنب

---

(٣٥) السابق: ص ١٧٠.

(٣٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٠٥ ـ خواندمير: روضة الصفا، ص ٥٩.

(٣٧) فتحي أبو سيف: خراسان، ص٥٤، ٥٥. محمود عرفة: الدول الإسلامية، ص ١٢٠.

(٣٨) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص٢٥٧، تحقيق. سيد كسروي، دار الكتب العلمية ط١بيروت، ٢٠٠٣.

(٣٩) مجهول: تاريخ سجستان، ص ١٧٥.

(٤٠) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٣٨٥. ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤١٩.

الصدام مع الصفاريين، وخاصة بعد تصاعد قوتهم، هادفاً إلى أن يتوالد العداء والقتال بين علي ويعقوب ــ وكان كلاهما يتظاهر بطاعة الخليفة ويبطن العداء له ــ فيستريح من شر الاثنين[٤١] لاسيما أن "علي بن الحسين" حاكم فارس كان قد تلكأ في إرسال الخراج إلي الخلافة، مما اعتبره الخليفة نوعا من الخروج عن الطاعة غير المقبول، والذي يُعد آنذاك نوعا من الخضوع السياسي للخليفة العباسي[٤٢].

ويري البعض[٤٣] أن الخليفة العباسي كان يعلم أن كلا من يعقوب بن الليث وعلي بن الحسين يظهران طاعة غير حقيقية، من أجل خدمة مصالحهما الشخصية، ولذلك كان يريد ضرب أحدهما بالآخر.

وزحف "يعقوب بن الليث" نحو كرمان، ولكن علي بن الحسين كان قد وجه أحد قواده ويدعي "طوق بن المغلس" إلي هناك فتحصن بها، فلجأ يعقوب إلي خداع طوق بأن موّه عليه، فانصرف عنه مرحلتين، فوضع طوق آلة الحرب، وأقبل على الشرب والملاهي، فباغته يعقوب، وأحاط به وبأصحابه، وتمكن من أسره، ودخل كرمان وملكها، ثم سار في العام التالي إلي "شيراز" عاصمة فارس، واستولي عليها بعد أن هزم ابن الحسين، وأخذ ما في بيت المال، وجبى الخراج، فأرسل إليه الخليفة "المعتمد على الله "[٤٤] ينكر عليه فعله بقوله: "طالما أن مملكة فارس لم نعطك إياها، فلماذا تقود الجيوش إليها من فترة إلى أخرى"[٤٥]، وكتب إليه الموفق بولاية " بلخ " و "طخارستان" و"السند" فقبل يعقوب ذلك، وعاد إلى"بلخ" ثم عاد إلي سجستان، وأرسل إلي الخليفة رسولا يحمل إليه كثيرا من الهدايا[٤٦]. ولما فارق يعقوب بلاد فارس استعاد الخليفة سلطانه عليها، وأرسل إليها أحد عماله[٤٧].

---

(٤١)ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٠٥.

(٤٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ١٩٧.

(٤٣) السابق: ج ٦ ص ١٩٧.

(٤٤) المعتمد على الله: هو أحمد بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد، ولد سنة (٢٢٩هـ/٨٤٣م) وأمه رومية اسمها " فتيان " ولما قتل " المهتدي " كان المعتمد محبوسا من قبل أخيه، فأخرجوه وبايعوه، ثم استعمل أخاه " الموفق طلحة " وجعله وليا لعهده، لما كان من ضعفه وعدم قدرته على شؤون الحكم، وانهمك المعتمد في اللهو الملذات، واشتغل عن الرعية فكرهه الناس، وأحبوا أخاه الموفق طلحة.ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٢٧، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٩٣٢م.

(٤٥) خواندمير: روضة الصفا، ص ٥٨.

(٤٦) الطبري: الرسل والملوك،ج ٩ ص ٣٨٣.

(٤٧) ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤١٩، ٤٢.

ويعتبر "يعقوب بن الليث" أول من عمل علي نشر الإسلام في الجزء الشرقي من الدولة العباسية (أفغانستان الحالية) ومد اتساع ورقعة الدين حتى القسم الأعلى لوادي السند قبل الغزنويين[٤٨]. والواقع أن يعقوب كان مدفوعاً بهجومه علي تلك المناطق بتصرفات حاكمها رتبيل (أي راكب الأفيال) الذي أقدم علي مساعدة منافسه " صالح بن نصر الكناني " في سجستان، فلم يتردد في السير بقواته ناحية كابل، وألحق برتبيل هزيمة ساحقة في سنة(٢٥١هـ/ ٨٦٥ م) ومن ثم أصبحت هذه الولاية ضمن الولايات التابعة للصفاريين[٤٩]. ولكن يبدو أن انشغال يعقوب بحروبه في كرمان وفارس جعل الخليفة المعتز يدخل هذه الولاية في طاعته مرة أخري، فغضب يعقوب بسبب أن خراجها يحمل إلي بغداد وليس إلي سجستان، وكان يفكر في العودة إليها مرة أخري لولا أن "ابن رتبيل"، الذي ألقي به في السجن، استغل انشغال يعقوب وهرب من محبسه سنة (٢٥٦هـ /٨٦٩م) حيث تجمع حوله أنصاره ومن والاهم من الناقمين علي حكم يعقوب، ومطالباً بدم أبيه، فسارع يعقوب بجيشه إليهم واستعاد سيطرته علي كابل من جديد، وخرّب كثيراً من المعابد والأصنام البوذية هناك وحمل معه غنائم ضخمة، وعددا من الأصنام الذهبية والفضية البوذية، وأرسل خمسين منها هدية للخليفة المتعمد على الله ليظهر له خدمته للإسلام[٥٠] .

التوجه نحو خراسان:

لما كانت خراسان هي أهم الولايات في شرق الخلافة العباسية، ومركز حكم الطاهريين، رأي "يعقوب بن الليث " أنه لا يكون مطمئنا في حكمه في سجستان إلا أن يصبح هذا الإقليم بين يديه، حتى يأمن شر الطاهريين المتحالفين مع الخلافة ــ لاسيما وأن الأخيرة كانت تماطل في الاعتراف بشرعية حكمه ــ قبل أن يشعرهم بقوته[٥١]. وفي المقابل كان الطاهريون قد وصلوا إلي درجة كبيرة من الضعف والانهيار، الأمر الذي أطمع يعقوب في حكم هذه الولاية، مستندا في ذلك إلي قوة الجيش الذي يمتلكه، وخاصة عندما تمكن من هزيمة "الحسن بن زيد العلوي"[٥٢] صاحب طبرستان، والذي

---

(٤٨) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ١٠٧.

(٤٩)الكرديزي: زين الأخبار، ج١ ص ٢٤٤، ترجمة عن الفارسية : د/ عفاف السيد زيدان، دار الطباعة المحمدية، ط١، القاهرة ١٩٨٢ م - تاريخ سجستان: ص١٧٦، ١٧٧.

(٥٠) الكرديزي: زين الأخبار، ج١ ص ٢٤٤.

(٥١) الطبري: الرسل والملوك،ج ٩ ص ٢٥٩.

(٥٢) الحسن بن زيد العلوي: كان الحسن بن زيد في الكوفة منضماً إلى حركة "يحيي بن عمر العلوي" ضد الخلافة العباسية السنية، ولما قتل يحيي فر بعض من أصحابه ممن نجوا خوفاً من بطش الخليفة العباسي، وكان من بينهم " الحسن بن زيد " الذي توجه إلى الري لاجئاً إليها، وبقي فيها مدة حتى سمحت الظروف أن ينتقل إلى طبرستان ويؤسس ما

كان قد استولي لتوه على جرجان من "محمد بن طاهر" سنة (٢٥٧هـ/ ٨٧٠م)[٥٣] فتوطدت أقدام يعقوب بذلك في سجستان، وهراة، وما حولهما، ولم يبق للطاهريين في خراسان سوي "نيسابور" التى تحصنوا فيها، بعد أن تقلصت ممتلكاتهم في معظم المشرق الإسلامي، والتي تقاسمها كل من يعقوب بن الليث، والحسن بن زيد العلوي، فضلا عن الخوارج، فوجد يعقوب أن الفرصة مواتية ليضم المشرق كله تحت لوائه، وخاصة بعد أن اتصل به بعض أهل نيسابور (عاصمة خراسان) وطلبوا إليه القدوم، لما أحسوا عدم قدرة ابن طاهر على حمايتهم[٥٤].

وقد حاول أمير خراسان آنذاك من قبل الخلافة " محمد بن طاهر" (٢٤٨-٢٥٩هـ /٨٦٢-٨٧٢م) استرضاء يعقوب بأن أرسل إليه بكتاب يعترف فيه بشرعية حكمه علي سجستان، فكان أول اعتراف رسمي من جانب الطاهريين بحقيقة الوضع الجديد[٥٥]. والحقيقة أن " هراة " كانت البوابة الرئيسية لاستيلاء يعقوب علي إقليم خراسان، فبعد أن أخضعها سنة (٢٥١ هـ/ ٨٦٥ م) توجه إلي مدينة " بلخ " ثم توالي سقوط المدن الخراسانية، لاسيما بعد أن عين يعقوب عمالاً من قبله علي هذه الولايات، ولم يبق أمام يعقوب سوي نيسابور عاصمة الإقليم[٥٦].

ولما رأي الصفار أن الخلافة تمر بمرحلة صعبة نتيجة سيطرة الأتراك عليها، ورغبة منه في الحصول علي موافقة الخلافة علي إقراره علي الولايات التي استولي عليها ؛ قام بمراسلة الخليفة المعتمد سنة (٢٥٧هـ/ ٨٧٠م) لاسترضائه، وأرسل إليه العديد من الهدايا كان من بينها أصنام الذهب والفضة – التى استولي عليها من معابد البوذية أثناء استيلائه علي كابل – حتى يبين للخلافة دوره في الدفاع عن نصرة الإسلام. ولم تجد الخلافة بدأ من الاعتراف بولايته علي فارس، وكرمان، وسجستان، فضلاً عن كابل[٥٧].

ويري البعض[٥٨] أن يعقوب أراد أن يؤمن وجوده في كل من كابل، وسجستان، وكرمان، وفارس بضم ولاية خراسان، وأنه أجل هجومه عليها حتى يتمكن من توطيد

يعرف بالدولة الزيدية مستغلاً بعدها من مركز الخلافة، وارتباك الأوضاع السياسية فيها. إبراهيم سلمان الكردي: البويهيون والخلافة العباسية ص٦٣، دار العروبة للنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٩٨٢م.

(٥٣) خواندمير: روضة الصفا، ص٩. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي،ج٣ ص ٧٤.

(٥٤) مجهول: تاريخ سجستان، ص ١٨٥.

(٥٥) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٣٣.

(٥٦) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٠٧.

(٥٧) مجهول: تاريخ سجستان، ص١٨٦.

(٥٨) الكرديزي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٥.

سلطاته علي تلك الجهات أولاً، أو لأنه أراد أن يستغل موارد تلك الولايات الاقتصادية لتزويد جيشه بالعتاد اللازم حتى يتمكن من تحقيق أهدافه، باعتبار أن خراسان هي أهم الولايات التابعة للطاهريين، ومقر حكمهم(٥٩)، فضلاً عن أن يعقوب أحس بالزهو والفخر عندما اعترفت الخلافة بشرعية حكمه في الولايات التي استولي عليها، فأراد أن يحل محل الطاهريين في خراسان. وكان حكم الطاهريين قد تعرض في السنوات الأخيرة للضعف والتراجع، خاصة حكم محمد بن طاهر، وذلك بعد أن فقد الطاهريون هيبتهم وقوتهم، وتفتت أملاكهم بخروج العديد منها مثل: سجستان، وطبرستان، وبلاد ما وراء النهر، مما أدي إلي ضعف اقتصاديات الدولة، ولم يلبث أن كثرت المنازعات بين أبناء البيت الطاهري. وتذرع يعقوب في سنة (٢٥٩ هـ/ ٨٧٢ م) بمطاردة بعض الفارين منه إلي نيسابور عاصمة الطاهريين في خراسان، ويدعي "عبد الله بن محمد بن صالح"، وطلب من الأمير الطاهري تسليمه إياه فاستنكف الأخير من طاعة أمره فهيأ بذلك له حجة قوية لمهاجمة نيسابور(٦٠). ولما كان يعقوب يعلم جيداً مدي العلاقة القوية التي تربط الطاهرين بالعباسيين، فلم يرد أن يعلن حربه علي الطاهرين مباشرة، حتى لا يظهر أمام الرأي العام الإسلامي بصورة العاصي أو المتمرد، فتحرك إلي نيسابور مدعياً أنه يريد محاربة علويي طبرستان الذين عصوا الخليفة، واستولوا علي طبرستان من يد عمال الخليفة، وطلب عبد الله بن محمد بن صالح من الأمير محمد بن طاهر أن يمنع يعقوب، لكنه رفض مجابهته لشدة ضعفه ، قائلاً : لا طاقة لنا اليوم بيعقوب وجنوده، فاضطر عبد الله وأخواه الهرب إلي الدامغان، وجرجان، واعتصموا بالحسن بن زيد الداعي الكبير الذي كان يسيطر آنذاك علي طبرستان، وجرجان. ولما اقترب يعقوب من نيسابور – راسله أتباع محمد بن طاهر وحاشيته وأطلعوه سراً علي سوء وضع الطاهريين، وسهولة استيلائه علي نيسابور(٦١)، وطمأنوا محمد من ناحية يعقوب وحسن سيرته، حتى وصل يعقوب (٢٥٩ هـ/٨٧٢م) إلي نيسابور فقبض علي محمد بعد أن وبخه كثيرا علي عدم كفايته، وضعف رأيه، وعمله، ثم صفده بالأغلال وأرسل معه نحو مئة وستين من حاشيته إلي سجستان فحبسوا هناك، وبذلك سقطت الأسرة الطاهرية علي يد يعقوب(٦٢).

وبعد هذا الانتصار الذي حققه يعقوب،أصبح هو القوة الوحيدة المسيطرة على المشرق الإسلامي، فأراد أن يوليه الخليفة العباسي أمر المشرق، حتى يستمد من تلك

---

(٥٩) حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص ٤٥٩، دار الفكر العربي، ط ٣، القاهرة ١٩٧٧م.

(٦٠) الكرديزي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٤.

(٦١) البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٢٧٠، ٢٧١.

(٦٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٢٦٦. ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٤٢.

التولية نفوذا روحيا يضمه إلي ما حصل عليه من نفوذ عسكري [٦٣]. ويذكر ابن الأثير: أن " يعقوب بن الليث " أرسل إلي الخليفة العباسي المعتمد يصف له أحوال خراسان، وكيف تمكن من القبض على آخر أمرائهم وهو محمد بن طاهر، لعجزه وضعفه، وأن أهل خراسان سألوه المسير إليهم، كما يذكره أيضا بتغلبه على الزيديين في جرجان وطبرستان.

والواقع أن الموقف الذي اتخذه يعقوب بن الليث من الطاهريين كان تحديا سافرا لهيبة الخلافة، وحرمانها من نصير موال لها، على الرغم مما وصل إليه الطاهريون من ضعف وهوان، وإن كان يعقوب نفسه قد وعد الخلافة بالتأييد والطاعة، كما تعهد أن يقدم إلي الخليفة كل ما يحتاجه من أموال، فضلا عن حمله خراج الأقاليم الخاضعة له[٦٤]. على أن الخليفة العباسي لم يكن راضيا عن تصرف يعقوب هذا، على الرغم من حرصه على هيبة الخلافة في المقام الأول، وأن يشعر ولاة الأقاليم بأنهم خاضعين لها، تمام الخضوع، في كل ما يقومون به من أعمال، ولذلك لم تلق مطالب يعقوب بشأن خراسان قبولا حسنا، وردت رسله محملين برسالة من الخليفة جاء فيها: " إن أمير المؤمنين لا يقر يعقوب على ما فعل، وأنه يأمره بالانصراف إلي الذي ولاه إياه، وإنه لم يكن ليعقوب أن يفعل ما فعل بغير أمره، فليرجع، فإن فعل كان من الأولياء، وإلا لم يكن له إلا ما للمخالفين " [٦٥].

يعقوب والحسن بن زيد العلوي:

بعد أن أكمل يعقوب فتح نيسابور، وإسقاط الدولة الطاهرية، ظل مقيما في خراسان حتى جاءته الأخبار بأن "محمد السجزي" سار من الدامغان إلي جرجان، متحالفا مع "الحسن بن زيد العلوي" فقرر مهاجمة جرجان، على الرغم من علمه مدي الخطورة التي يشكلها عبور تلك المناطق لطبيعتها الجبلية، لاسيما غاباتها الكثيفة التي يستعصى معها عبور القوات، فضلا عن أمطارها الغزيرة الدائمة [٦٦]. ومن أجل تجنب ذلك أرسل رسالة إلي الحسن بن زيد يطلب منه تسليم غريمه والذين التجئوا معه إلي جرجان، ولما رأى أن الحسن يماطله تحرك بجيشه متوجها إلي جرجان سنة (٢٦٠ـ/٨٧٣م) وفي نفس الوقت حاول استخدام الحيل العسكرية بأن استمال إليه أحد أعوان الحسن بن زيد ووعده بولايتي جرجان واستراباذ، إن انضم إليه وسهل له مهمته العسكرية [٦٧]. ولما علم الحسن بما عزم عليه يعقوب من مهاجمة بلاده هرب

---

(٦٣) بدر عبد الرحمن: الدولة العباسية، ص ١٣٣.

(٦٤) الطبري: الرسل والملوك،ج ٩ ص ٥٠٧.

(٦٥) خواندمير: روضة الصفا، ص ٥٩.

(٦٦) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٢.

(٦٧) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٤٤.

إلي بلاد الديلم، فما كان من يعقوب إلا أن تعقبه، واستمرت تلك المطاردة مدة شهرين متتاليين حتى أنهك يعقوب وقرر العودة إلي بلاده، وفي أثناء العودة واجهه غضب الطبيعة المتمثل في هطول الأمطار الغزيرة، وما يعقبها من سيول عارمة، والتي قدره المؤرخون بأنها استمرت أربعين يوما دون انقطاع، مما أعاق تحرك الجيش من مكانه، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعرضت المنطقة إلي زلزال عنيف، دفن معه أكثر من ألفي جندي من جنود يعقوب تحت الطين والتراب(٦٨).

ولا شك أن ما تعرض له يعقوب وجيشه قد فت في عضده، وكان له أسوأ الأثر على جيشه فاضطر للعودة إلي بلاده منهكا، وفشلت حملته التي لم تؤت ثمارها، بل دمرت معظم جيشه، ولم يحصد منها أية مكاسب(٦٩).

استيلاء يعقوب علي خراسان وانتهاء العلاقة الحسنة:

أكدت الأحداث التاريخية أن يعقوبا في تعامله مع الخلافة لم يصل إلى مرحلة النضج في تكوينه السياسي، وأثبت أنه قليل الخبرة والدراية السياسية، إذ كان استيلاؤه علي خراسان هو السبب في تغير العلاقة الحسنة التي جمعت بين الصفاريين والعباسيين، حيث شعرت الخلافة بخطورة أطماع يعقوب التوسعية التي أصبحت واضحة، لاسيما بعد سيطرته علي خراسان، وإنهاء الوجود الطاهري فيها. وقد حاول يعقوب أن يبرر فعله بأنه حريص علي هيبة الخلافة في نظر أعدائها لاسيما الشيعة المتربصة بها. وعدم قدرة الطاهريين في الحفاظ علي مكتسباتها السياسية.

وحدث ما لم يكن متوقعاً إذ جاء رد الخلافة مستنكراً لما فعله يعقوب في خراسان، ومطالبته بتركها و ألا يشق عصا الطاعة، وعودته سريعا إلي ولايته في سجستان، وإلا اعتبرته الخلافة خارجاً عن الشرعية، وعاملته معاملة المتمردين(٧٠). وكان يعقوب قد أقدم علي هذا العمل دون مشورة الخلافة وعلي غير رضاها، فزادت هوة الخلاف بينهما. من ناحية أخري أرسل أهالي " جرجان " جماعة من كبرائهم إلي بغداد لمقابلة الخليفة يتظلمون فيها من ظلم يعقوب وسوء معاملته لهم، فغضب غضبا شديدا، وأعلن استنكاره لما قام به يعقوب واعتبره خروجاً عن الطاعة، وأمر أن يلقي القبض على أصحاب يعقوب وغلمانه. الذين أرسلهم يعقوب من قبل لإقناع الخلافة بتفهم موقفه تجاه استيلائه على نيسابور. وسجنهم وصادر أموالهم(٧١).

---

(٦٨) ابن الأثير: السابق، ص ٢٤٦.
(٦٩) تاريخ سجستان: ص ١٩١ ـ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ٣ ص٧٥.
(٧٠) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٠٧ ـ ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٤٣.
(٧١) الكرديزي : زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٦.

وكان واضحا منذ البداية من أن أطماع "يعقوب بن الليث" ليس لها حدود، وظهر ذلك واضحا من خلال طموحاته المتزايدة، ولما أدرك الخليفة العباسي" المعتمد "مدي الخطورة التي يشكلها يعقوب على دولته أضمر له العداء. وتأزمت العلاقة بينهما، وذلك عندما أصدر الحليفة "المعتمد على الله" أوامره لـ" عبيد الله بن عبد الله بن طاهر" وإلي شرطة بغداد [٧٢] بجمع حجاج خراسان، وطبرستان، وجرجان، والري، وهى الولايات التي اشتكت من حكم يعقوب، وألقي عليهم منشور الخلافة الذي جاء فيه : "... لقد كنا منحنا يعقوب بن الليث ولاية سجستان والآن وقد ظهرت علي وجناته علامات الطغيان فإننا نحكم بلعنه "[٧٣]. وفي هذا المنشور يعلن الخليفة أن يعقوبا لم يعد حاكما على خراسان، كما أعلن أنه يعتبر كافرا، بل اتهمه بالتشيع، وعليه أن يعود إلى رشده، وأن سلطته غير شرعية[٧٤]. وقد حاولت الخلافة إثارة المدن الخراسانية ضد يعقوب فأعلنت تشككها في تحول يعقوب إلي المذهب الشيعي لإثارة الأهالي ضده، والتحاقه بأحد الفرق الشيعية، وخاصة فرقة الإسماعيلية التي بدأت تظهر في المشرق الإسلامي[٧٥]، والتي اتخذت طابع السرية في انتشارها فحاولت الخلافة الإساءة إليه، وروجت الإشاعات ضده[٧٦]. ويبدو أن تلك الشائعات قد آتت أكلها، فما إن عاد يعقوب إلي إقليم سجستان سنة (٢٦١هـ/٨٧٤م) حتى سارع عمال المدن الخراسانية بالخروج علي طاعته مستندين إلي ما أشاعته الخلافة ضده، وانتسابه للمذهب الشيعي[٧٧]. ويبدو أن ما أشاعته الخلافة ضد يعقوب قد شجع كثيرا من الأقاليم للخروج عليه، فما إن عاد من جرجان حتى بلغه أن أهل بخاري قد

---

(٧٢) جرت العادة أن يتولي الشرطة في بغداد أحد أعضاء الأسرة الطاهرية، إذ كان الخليفة العباسي عندما يعين أحدهم لإمارة خراسان ينيب أخاه، أو ابنه، أو أحد من بني عمومته في هذا المنصب. والواقع أن الطاهريين كانوا أوفياء للخلافة العباسية، إذ كانوا يعتبرون أنفسهم أمناء على توجيه سياسة العباسين في المنطقة الشرقية من العالم الإسلامي، ولذلك تمتعوا بنفوذ داخلي في إدارة شؤون الإقليم طوال العصر العباسي. عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ١٧ - بدر عبد الرحمن: الدولة العباسية، ص ١٢٩.

(٧٣) الطبري: الرسل والملوك،ج ٩ ص ٥١٢. ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٢٧٢.

(٧٤)ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٣.

(٧٥) فرقة الإسماعيلية : الإسماعيليون من أشهر فرق الشيعة وأكبرها، وهي الفرقة التي ادعت أن الإمام جعفر الصادق قد نص على إمامة ابنه إسماعيل من بعده. وقد ظهرت هذه الفرقة منذ القرن الثالث الهجري(٩م) فصاعدا وهي مزيج من فرق غالية معظمها من الشيعة. محمد السعيد جمال الدين:دولة الإسماعيلية في إيران،٤٧، مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٥ م.

(٧٦) ابن كثير: البداية والنهاية ،ج ١١ ص ٣٩.

(٧٧)الطبري: الرسل والملوك،ج ٩ ص ٥١٢.

أسقطوا اسمه من الخطبة، وأحلوا محله اسم "نصر بن أحمد الساماني" فضلا عن خروج أحد أعوانه المقربين وهو "أحمد بن عبد الله الخجستاني" الذي كان من أشد المخلصين ليعقوب، حتى إنه هاجم نيسابور سنة (٢٦٢هـ/٨٧٦م) واستولي عليها وأخرج عامل يعقوب منها، مستغلا الكوارث والمحن التي تعرض لها الأخير، وضرب السكة باسمه [٧٨].

وقد يسأل البعض: لماذا وقفت الخلافة هذا الموقف العدائي تجاه يعقوب، ألم يكن من الممكن السيطرة علي طموحاته؟. يري البعض[٧٩] أن السبب المباشر لهذا الموقف هو تحريض الطاهريين في بغداد حيث كانت لهم ولاية الشرطة، ولاشك أن الطاهريين كان يملؤهم الحقد والكراهية تجاه الصفاريين لما نالهم منه من إسقاط دولتهم وزوالها[٨٠]. بينما يري البعض الأخر[٨١] أن السياسة التي انتهجتها الدولة الصفارية ،المتمثلة في استعادة أمجاد الفرس، والمناداة بعودة الوجود الفارسي، لاسيما بعد أن أعلن يعقوب انه من سلالة آل ساسان، والتى كان لها صداها السلبي عند العباسيين.

على كل حال لم يعبأ يعقوب بما جاء في رسالة الخليفة، وراح يوطد سلطانه على الأقاليم المتاخمة، حتى بلغت حدوده العراق مقر الخلافة العباسية.

تقدم يعقوب ناحية العراق سنة (٢٦٢هـ/ ٨٧٥م)

ويتضح من معارضة الخلافة سيطرة يعقوب علي خراسان ؛ أنها حاولت أن تضعه في وقف حرج من الناحية الشرعية – وذلك بتحريض أهالي الولايات التابعة له، وأقدمت علي عزله ولعنه، وسارع عبيد الله بن عبد الله بن طاهر – والي شرطة بغداد – بإرسال عشرات النسخ من المنشور إلي كافة الولايات لتذاع بين الناس، وخاصة خراسان لإحراج يعقوب أمام الأهالي، وتحريضهم علي الخروج عليه[٨٢].

وقد أثارت كل تلك التحركات غضب يعقوب، وبدلا من أن يتدارك الموقف، اثبت عدم درايته وقصر نظره السياسي، فتحرك يريد احتلال بغداد، متحديا الخلافة، معتمدا على قوة جيشه وطاعة جنده، وفوجئت القوات الصفارية بأمر يعقوب بالتوجه ناحية العراق، رغبة منه في إسقاط الخلافة العباسية، فسار إلي "الأهواز" وهناك كاتب الخليفة، وسأله ولاية خراسان، وبلاد فارس، وكل ما في حوزة الطاهريين من البلدان،

---

(٧٨) الكرديزي : زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٦.

(٧٩)ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٢. فتحي أبو سيف: خراسان، ص ٥٩.

(٨٠)فتحي أبو سيف: الدولة العباسية، ص ١٤٩.

(٨١) فتحي أبو سيف: المرجع السابق، ص ١٣١.

(٨٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٦٣.

كما سأله أن يعطيه شرطة بغداد، وأن يعقد له على كرمان وسجستان والسند، وأصر يعقوب على أن يحضر الخليفة ومعه الحُجاج، وكل من قرئت عليهم الكتب التي نسخت بعزله ولعنه، في دار "عبيد الله بن عبد الله بن طاهر"، ويذيع فيهم كتاب كتابا آخر يعلن فيه رضاه عنه، فيبطل بهذا الكتاب الجديد الأثر السيئ الذي تركه الكتاب الأول[٨٣].

وتمادي يعقوب في طلباته، فزاد على ذلك بأن طلب من الخليفة أن يقلده شرطة سامراء إضافة إلي شرطة بغداد [٨٤] الأمر الذي أزعج الخليفة، فبادر بإرسال الرسل إلي يعقوب محاولة منه لإثنائه عن التقدم صوب العراق، إلا أن يعقوبا لم يستمع إلى صوت العقل، وقرر المضي في طلبه، فما كان من الموفق أخو المعتمد[٨٥] إلا أن جمع حجاج خراسان في بغداد، وأعلن لهم موافقة الخليفة على توليه يعقوب خراسان، بالإضافة إلي الولايات التي تحت نفوذه مثل: سجستان وكرمان وفارس وكابل، بل وبلغ تدليل يعقوب بأن أوكلت إليه شرطة بغداد التي كان يتولها أبناء البيت الطاهري[٨٦].

والواقع أن الحكمة السياسية كانت تتطلب كل هذا الخضوع لمطالب يعقوب، ومن يطالع تاريخ تلك الفترة يجد أن الكثير من الأخطار كانت تحيط بالخلافة العباسية، وعلى رأس تلك الأخطار " ثورة الزنج "[٨٧] الذين ثاروا منذ سنة (٢٥٥هـ/٨٦٨م) والتي كانت قد امتدت إلي الأهواز، وكان الموفق أخو الخليفة يستعد لقتالهم، وخوف

---

(٨٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص٤١٣.

(٨٤) الطبري: الرسل والملوك،ج ٩ ص ٥١٦.

(٨٥) كان الخليفة المعتمد هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين في الخلافة، فللمعتمد الخطبة والسكة، والتلقب بأمير المؤمنين، ولأبي أحمد الأمر والنهي، وقيادة العسكر، ومرابطة الثغور، وترتيب الوزراء. وعلى الجملة لم يبق للخليفة سوي مكانته الروحية. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٢٧.

(٨٦) الطبري: الرسل والملوك،ج ٩ ص ٥١٦.، ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٣٩.

(٨٧) كان صاحب الزنج قد عرض على يعقوب فكرة التعاون بينهما ضد الخلافة العباسية، لاسيما وأن صاحب الزنج قد خرج على العباسيين في نفس التوقيت الذي خرج فيه يعقوب، ولكن الأخير لم يحاول الاستفادة من هذا العرض، حيث رأي أن أي تعاون مع صاحب الزنج سوف يكون له مردود سلبي، ويصبح أمام الرأي العام الإسلامي متهما بالزندقة والكفر، وفي هذه الحالة لا يأمن من تعرض جيشه لغضب عارم أمام كافة المسلمين ، ولذلك نراه يأمر كاتبه بأن يرسل إليه برسالة شديدة اللهجة جاء في آخرها سورة الكافرون : " قل يا أيها الكافرون الآية. محمود عرفة : الدول الإسلامية، ص ١٣٨، ١٣٩.

الخلافة من حدوث تقارب بينهم وبين الصفاريين حال حدوث مواجهة بينه وبين يعقوب، فرأي من الحكمة ترضية الأخير لكسب ولائه، وإبعاده عن المعركة لحين التفرغ له، فضلا عن ثورات الأتراك المستمرة في بغداد، والذين شكلوا معول هدم في جسد الخلافة، فليس من المستغرب أن يقدم الموفق ــ مدبر أمر المعتمد ــ على اتخاذ مثل هذه الخطوة، و التساهل مع يعقوب ليأمن مكره [٨٨]

ويذكر المؤرخون[٨٩]أن أطماع " يعقوب بن الليث " لم تقف عند حد، ولم يقنع بما تحت يديه، بل إنه كان مصمما على قصد بغداد نفسها لحمل الخليفة على الإذعان لمطالبه، وكان يساعده في ذلك جيش قوي، قدر البعض أن مساحته كانت ميلا في ميل[٩٠]، ولذلك أعاد يعقوب الرسل إلي الخليفة بكتاب ذكر فيه : إنه لا يرضيه ذلك دون أن يسير إلي باب السلطان (يقصد الخليفة) فاستشعر الخليفة الخطر، وخاصة بعد أن علم أن يعقوب قد تحرك ناحية " عسكر مكرم "[٩١]. والحقيقة أن "يعقوب بن الليث" لم يكن مطمئناً لموقف الخلافة المتأرجح، فقرر السير تجاه بغداد، على الرغم من محاولات الخلافة الوقوف في وجه تقدمه، إلا أن يعقوب كانت تدفعه عوامل نفسية لعلها كانت هي المحرك الرئيسي له[٩٢]. ولكن ما هي الأسباب الحقيقة التي دفعت يعقوب للإصرار علي هذا الفعل ؟.يري البعض[٩٣]أن الدافع العنصري كان هو المحرك إذ كان يعقوب فارسياً يكن الحقد والكراهية للعرب ويرغب في القضاء عليهم لأن العرب هم الذين أذلوا أجداده من قبل، ويبدأ ذلك واضحاً من تلك الحركات الشعوبية التي تجسدت في كثير من الحركات السياسية، ولا ننسي أيضاً أن وجود الطاهرين في بغداد وهم الأعداء التقليديون ليعقوب، جعله يفكر في الأمرين معا: القضاء على الطاهريين، وإزالة الخلافة.

ويشترط البعض في رأيه بقوله: إن يعقوب كان يريد أن يجلس علي كرسي الخلافة، وهذا أمر مستبعد، لا يمكن قبوله علي مستوى الرأي العام الإسلامي [٩٤]. وحرصاً من الخلافة علي منع يعقوب من التقدم صوب بغداد، بعث إليه برسالة مفادها، أنه لا عمل لك في بغداد، وخير لك العودة إلي خراسان وبلاد فارس.

---

(٨٨)ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٣١.
(٨٩) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص٤١٤.
(٩٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٦ص ٤١٥.
(٩١)ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٦٢.
(٩٢)الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٠٨ ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٦ص ٤١٥.
(٩٣) محمود عرفة: الدول الإسلامية، ص ١٦.
(٩٤) فتحي أبو سيف: الدولة العباسية، ص ١٤٩.

وزاد من خطورة الوضع أن يعقوب اغتر بما حققه من انتصارات علي الجبهات الفارسية والهندية، حتى جاءته الوفود من مختلف الأقاليم تعكس ولاءها له حتــى زاد إحساسه بالفخر وعدم المبالاة علي رد الخلافة. ولم يلبث أن وصلت الخلافــة أخبــار الوفود التي أتت إلي يعقوب وانضمامها إليه، الأمر الذي أقلق بال الخلافــة، وبــدأت تستشعر خطورته.

وكانت قوة يعقوب المتنامية وعلو شأنه، قد أغريا الطامعين في تبوئ منــصب الخلافة بالاستعانة به للوصول إلي أهدافهم، فيذكر الكرديزي[٩٥] أنــه كانــت هنــاك مراسلات بين الموفق طلحة ــ أخي المعتمد وولي عهده ــ وبين يعقوب للتآمر ضــد المعتمد، كما كان الموفق يريد أن يستغل قــوة الــصفارين الفارســية ضــد الأتــراك المستحوذين علي بغداد. والمحتمل أن الخلافة أرادت أن تستعين بالصفاريين في ولاية شرطة بغداد لمواجهة سيطرة الترك علي اعتبار أنهم من الفرس المناوئين للترك.

وتذكر الروايات التاريخية [٩٦] أن هناك مكاتبات دارت بين يعقــوب وبعــض أبناء الواثق ــ خليفة العباسيين السابق – وطلبوا مساعدته ضد أبناء المتوكل الــذين تولوا الخلافة واستأثروا بها. فقد التقي" عبد الله بن الواثق " بيعقوب، ودعاه للقــدوم إلي بغداد للقضاء على المعتمد، ومساعدته على تولي سدة الخلافة، مما جعل يعقــوب يبتعد عن محالفة الموفق.

بيد أن السبب الرئيسي الذي كان وراء إصرار يعقوب على التوجه إلي عاصمة الخلافة ؛ تلك الانتصارات المتعاقبة التي حققها في المشرق الإسلامي، وجعلت طموحه لا حدود له. ولما تيقن الموفق من فشل خطته، وتصميم يعقوب على السير إلي بغداد ؛ قرر القضاء عليه حتى إنه تولي قيادة جيش الخلافة بنفسه.

واستدعي الخليفة المعتمد كبار رجال الدولة، وأعلن فيهم: أن يعقــوب شــق عصا الطاعة، وهو قادم إلي هنا، ولم آذن له في الحضور إلينا، وأمرته بالعودة فلــم يرجع، وإذن فهو يحمل في قلبه الخيانة، ولهذا لا يجب الغفلة عــن اتخــاذ الحيطــة. وأمام الخطر الداهم الذي شكله يعقوب فكرت الخلافة في درء هذا الخطر عن طريــق استدراج يعقوب للقدوم إلي بغداد ليحظي بتقدير الخلافة ومكافأته علي ما قام به مــن أعمال ضد أعدائها، فأرسل إليه المعتمد رسالة جاء فيهــا : " ولــتعلم أننــا نرضــي بالخطبة، لأننا من بيت المصطفي صلي الله عليه وسلم، وتقي أنــت دينــه، لأن لــك غزوات كثيرة في ديار الكفر... وأثر سيفك واضح على الكفار في كــل مكــان، وقــد

(٩٥) زين الأخبار: ج١ ص ٢٢٥.

(٩٦) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٠٩.

أصبح حقك واجبا على كل المسلمين، وقد أمرنا أن يخطب لك في الحرمين... ونحن والمسلمون الآن عون لك حتى تعود الدنيا على يديك إلي دين واحد هو دين الإسلام".

والواقع أن تلك الرسالة، وهذا الأسلوب الاستعطافي، من جانب المعتمد جعل يعقوب متحرجا أمام جيشه برفض طلب أمير المؤمنين. وهكذا نجح المعتمد في خداع يعقوب وإيقاعه في حرج أمام جيشه. ولكن يبدو أن يعقوب كان متوجسا خيفة من الخليفة وأخيه، فسار يعقوب بجيشه من "عسكر مكرم" إلي "واسط"، ومن هناك أرسل برسالة إلي الخليفة يطلب منه أن يصدر منشورا بحكم الولايات التي وعده إياها من قبل[٩٧]. ولكن الخليفة لم يرد على طلب يعقوب، بل أمر بلعنه على المنابر ووصفه بالعاصي، ولابد من حربه. ولما وصل يعقوب إلي مدينة عسكر مكرم " بالأهواز"[٩٨]، أرسل من هناك كتابا إلى الخليفة العباسي يعلن فيه الخضوع والتضرع، ويخبره أنه لم يجئ إلا لخدمة أمير المؤمنين، والتشرف بالمثول بين يديه، والنظر إليه، وأن يموت تحت ركابه [٩٩].

ولكن الخلافة أعلنت استنكارها لفعل يعقوب، واتهمته بالتشيع، وخروجه عن المذهب السني، وأظهر يعقوب تحديه للخليفة وأمره بترك بغداد ليدخل هو وجنوده إليها. أوكل المعتمد قيادة جيش الخلافة إلي أخيه الموفق[١٠٠] الذي سار بالجيش إلي قرية " دير العاقول (شرق دجلة) ولما التقي الجمعان، خرج أحد قادة الخليفة وخاطب الجيش الصفاري بصوت مرتفع قائلا: " يا أهل خراسان وسجستان، ما عرفناكم إلا بطاعة السلطان (يعني الخليفة) وتلاوة القرآن، وحج البيت وطلب الإنكار، وإن دينكم لا يتم إلا باتباع الإمام، وما نشك أن هذا الملعون قد موه عليكم، وقال لكم إن السلطان قد كتب إليه بالحضور، وهذا السلطان قد خرج لمحاربته، فمن آثر منكم الحق وتمسك بدينه وشرائع الإسلام فلينفرد عنه إذ كان شاقا للعصا محاربا للسلطان... " [١٠١].

([٩٧]) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٧١.

([٩٨]) الأهواز إقليم مهم جدا بالنسبة للعراق وبالنسبة لفارس، ولم تكن أهميته خافية على كل من يريد قصد العراق، فالذي يملك الأهواز يستطيع أن يسد كل الطرق المؤدية إلي فارس، لاسيما العسكرية منها، فوجود أي قوة عسكرية قوية في هذه المنطقة الاستراتيجية، سوف يكون حائلا أمام أي تقدم ناحية العراق، فالأهواز مفتاح الدخول إلي العراق من ناحية فارس. وكان يعقوب يدرك ذلك، ولهذا حاول وضع يده على هذه المدينة لأنها المعبر الرئيسي له للعراق. حسن أحمد محمود :العالم الإسلامي، ص ٥١٦.

([٩٩]) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٧.

([١٠٠]) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج ٥ ص ٣٣، دائرة المعارف العثمانية، ط١ حيدر أباد ١٣٥٩هـ.

([١٠١])ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٨.

والحقيقة أن أغلب جيش يعقوب، وكبار قادته، قد تأثروا برؤية الخليفة العباسي أمامهم في ميدان القتال، وتخلوا عن يعقوب، ولحقوا بجند الخلافة، وقالوا: "لقد ظننا أنه قادم إليك طائعا مسلما، ولكن لما بدت لنا مخالفته وعصيانه تركناه" (١٠٢).

ولما بدأت المعركة جعل الموفق على ميمنة الجيش " موسي بن بغا " وعلى ميسرته "مسرور البلخي" وتولي هو قيادة الجيش بنفسه. وقد أحرز يعقوب نصرا أوليا في بداية المعركة، إذ حملت ميسرته على ميمنة الموفق فكسرتها، وقتل جماعة من قادة الموفق، وكادت الهزيمة تحل بجيش الخلافة، إلا أن الموفق ثبت في المعركة، وكشف رأسه وقال: "أنا الغلام الهاشمي" وهجم ومن معه على جند يعقوب، واقتتلوا قتالا شديدا حتى العصر، وتحولت الهزيمة إلي نصر مؤزر، حتى اضطر يعقوب أمام شدة المقاومة إلي التقهقر ومن معه من الجنود، وأصيب هو بثلاثة أسهم في حلقه وفي يديه، ولم تزل الحرب قائمة حتى انهزم يعقوب وجنوده، وتبعهم أصحاب الموفق قتلا وأسرا، وغنموا ما في معسكرهما، واستطاعوا تخليص " محمد بن طاهر" من الأسر — والذي كان قد اصطحبه يعقوب معه في المعركة. فخلع عليه الموفق وأعطاه شرطة بغداد (١٠٣). بينما أصدرت الخلافة كتابا بلعن يعقوب، واعتبرته خارجا على أمير المؤمنين، منكرا للنعم، ساعيا إلي الفساد.

وقد أورد الطبري(١٠٤) مضمون الكتاب الذى أمر الخليفة بأن يقرأ على الناس ببغداد، والذي أخذ يعدد مساوئه فيه قائلا: " ولم يزل الملعون المارق المسمّى يعقوب بن الليث ينتحل الطاعة، حتى أحدث الأحداث المنكرة، من مصيره إلي صاحب خراسان، وغلبته إياه عليها، وتقلده الصلاة والإحداث بها، ومصيره إلى فارس مرة بعد مرة، واستيلائه على أموالها، وإقباله إلى باب أمير المؤمنين مظهر المسألة في أمور أجابه أمير المؤمنين منها ما لم يكن يستحقه، استصلاحا له، ودفعا بالتي هي أحسن، فولاه خراسان والرى وفارس وقزوين وزنجان والشرطة بمدينة السلام، وأمر بتكنيته في كتبه، وأقطعه الضياع النفيسة، فما زاده ذلك إلا طغيانا وبغيا، فأمره بالرجوع فأبي، فنهض أمير المؤمنين لدفع الملعون حين توسط الطريق بين مدينة السلام وواسط، وأظهر يعقوب أعلاما على بعضها الصلبان، فقدم أمير المؤمنين أخاه أبا أحمد الموفق بالله ولى عهد أمير المسلمين في القلب... فحاربه حتى أثخن بالجراح، وحتي انتزع أبو عبد الله محمد بن طاهر سالما من أيديهم، وولوا منهزمين مسلوبين، وسلم الملعون كل ما حواه ملكه".

---

(١٠٢) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٧١.

(١٠٣) الطبري: الرسل والملوك،ج ٩ ص ٥١٧، ٥١٨.

(١٠٤) الرسل والملوك: ج ٩ ص ٥١٨، ٥١٩.

وتتراجع الحملة الفاشلة بعد الهزيمة الساحقة التي مني بها يعقوب فقفل عائدا إلي"خوزستان" بعد أن تفرق عنه معظم جيشه، وهلك كثير من دوابه[١٠٥]. ولم يلبث أن جاءه نبأ استيلاء " أحمد بن عبد الله الخجستاني" (أحد رجاله السابقين) على نيسابور، مستغلا غيابه، وسيطرته على الأوضاع هناك، فزاد ذلك من مرارة الهزيمة، مما كان له بالغ الأثر على صحته، وضعف روحه المعنوية إلي درجة كبيرة[١٠٦].

والواقع أن تساهل الخلافة مع يعقوب جعله يبالغ في ثقته بنفسه، لاسيما وأن معه جيشا كثيفا، ولكن الحقيقة التي غابت عن ذهن يعقوب؛ أن الأوضاع كانت قد تغيرت في عاصمة الخلافة، التي بدأت تسترد هيبتها ومكانتها، وخاصة بعدما تولى الموفق قيادة دفة الحكم في بغداد، فخانه التوفيق في ذلك، حتى اتهمه البعض[١٠٧] بالغباء السياسي، إذ لم يكن بعيد النظر حين خاصم الخلافة، كما كان في إمكانه الاستعانة بصاحب الزنج الذي عرض عليه التعاون ضد الخلافة[١٠٨]، فرفض ذلك مستنكرا فعله. كذلك كان الصفار قصير النظر حين أفرط في ثقته بجنده، خاصة وإنه كان مقربا منهم، شديد الإحسان إليهم، ضابطا لأمورهم، حتى أحبوه وأخلصوا له، ولكن نسي يعقوب أن هؤلاء الجنود من المتطوعة الذين جندتهم الخلافة لنصرتها ضد الخارجين عليها في المشرق الإسلامي. ولم يكن من المتوقع أن ينتصروا ليعقوب ضد الخليفة العباسي، لاسيما لما خرج الخليفة المعتمد مع الجيش ليحدث وجوده التأثير الروحي على جند الصفار حين يرونه يقاتل صاحبهم[١٠٩]، فكان ولاء أكثرهم لشخص الخليفة لا لشخص يعقوب. ولذلك كان طبيعيا أن يتخاذلوا عن يعقوب عندما رأوه يقاتل خليفتهم، فتخاذلوا عنه وانضموا للموفق، فكانت بداية النهاية ليعقوب الصفار[١١٠]. ويذكر ابن خلكان[١١١] أن الموفق أخي الخليفة كشف رأسه وقال: أنا الغلام الهاشمي، وحمل على أصحاب الصفار، وقتل بين الطائفتين خلق كثير، فلما رأي الصفار تلك الحال ولي راجعا تاركا أمواله وخزائنه وذخائره، ومضي على وجهه فلم تتبعه العساكر، وما أفلت من أصحابه رجل إلا بسهم أصابه، وأدركهم الليل فتساقطوا في الأنهار لازدحامهم، وثقل الجراح بهم. وأعادت الخلافة محمد بن طاهر

---

(١٠٥) ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤٢٢.

(١٠٦) الكرديزي : زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٥.

(١٠٧) حسن أحمد محمود : العالم الإسلامي، ص ٤٦١.

(١٠٨) المسعودي : مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٢٨.

(١٠٩) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥١٨.

(١١٠) تاريخ سجستان: ص١٨٩، ١٩٠.

(١١١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٥.

ـ الذي كان قد فرّ من أسر الصفار ـ إلي منصبه [١١٢] رئيسا لشرطة بغداد، بينما عاد يعقوب إلي إمارته ليستعد لخوض معركة أخري ضد الخلافة، فاستولي على الأهواز من صاحب الزنج، والأهواز كما هو معلوم مفتاح العراق من ناحية فارس.

حاول يعقوب إرضاء الخلافة العباسية بشتى الطرق فنراه يحارب الخوارج في سجستان وكرمان، وينكل بزعمائهم [١١٣]، بل ويرسل برؤوسهم إليها، كما نراه يشن حرباً ضد الزيديين في جرجان وطبرستان لينال ود الخليفة السني [١١٤]. ولكن، في الواقع كانت سيطرة يعقوب علي خراسان هي التي فجرت الصراع بينه وبين الخلافة، فتحولت العلاقة إلي عداء سافر. ولما رأي الخليفة المعتمد انتصارات يعقوب المتعاقبة، وأيقن أن القوة الصفارية أصبحت لها الزعامة، أرسل برسالة إلي يعقوب عبّر فيها عن رضا الخلافة عن الصفاريين، ومحاولا أن يثنيه عن معاودة التفكير في مهاجمة بغداد مرة أخري، واسترضائه بأن عفا عنه وعما بدر منه تجاه الخلافة، بل ومنحه إمارة خراسان. وتأكيدا على العلاقات الطيبة أطلق الخليفة المعتمد أسري الصفاريين الذين تم القبض عليهم من قبل،عندما استولي يعقوب على خراسان، وحبس محمد بن طاهر عامل الخليفة هناك [١١٥].

ولما انتهي يعقوب من سماع رسالة الخليفة، أمر أن يحضروا له قطعة من الخبز الجاف، وبصلة، ووضعوهما بجانب سيفه الذي كان أمامه، ثم قال للرسول: "إنني صفار وقد تعلمت هذه الصنعة من أبي، وكان طعامي خبز الشعير والسمك والبصل والكرات، وحصلت على هذا الملك والثروة والنعمة عن طريق العيارة والشجاعة، وليست ميراثا عن أبي، أو عطاء منك... وقد عقدت العزم على ألا أستريح حتى أقهر الخليفة، فإن مت فقد استرحت منك واسترحت مني، وإن عوفيت فليس بيني وبينك إلا هذا السيف، حتى آخذ بثأري أو تكسرني، وأعود إلي هذا الخبز والبصل" [١١٦].

---

(١١٢) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥١٩. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١١ ص ٣٩.

(١١٣) حاول يعقوب استرضاء الخلافة بقتله عبد الرحمن الخارجي الذي استغل غياب يعقوب عن سجستان وأعلن خروجه عن الخلافة، وأطلق علي نفسه لقب المتوكل علي الله، ولكن يعقوب تمكن من القبض عليه وأرسل برأسه إلي الخليفة المعتمد الذي أمر بأن يطاف برأسه في شوارع بغداد، وعاودت الخلافة الاتصال بيعقوب وعادت العلاقات الدافئة بينهما. ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٢٦٦.

(١١٤) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٠٨.

(١١٥) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥١٦.

(١١٦) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٨٣ ـ خواندمير: روضه الصفا، ص ٥٩.

ويبدو أن يعقوب لاحظ عدم جدية الخلافة، وتناقض مواقفها حول شرعية حكمه سواء في خراسان، أو سجستان، وكانت الهزيمة التي لحقت بـه جعلتـه يفكـر فـي الانتقام ليثأر لنفسه، ويسترد كرامته التي أهدرت أمام جنوده ورعاياه، فقرر مواصلـة الحرب ضد الخلافة، حتى إنه بدأ بتحريك جيوشه ناحية العراق(١١٧). ولكن القـدر لـم يمهله إذ لم يلبث بعد عودة الرسول أن توفي يعقوب في "جند يسابور" إحـدى مـدن الأهواز، بعد حكم دام إحدى عشرة سنة (٢٥٤ـ٢٦٥هـ/٨٦٨ـ٨٧٨م) ودفـن بهـا بعد مرض ألم به دام ستة عشر يوما (١١٨). ويقول صاحب تاريخ سجستان: "ثم مرض يعقوب هناك، وكان مرضه شديداً، وعندما تم له أمر الـدنيا كلهـا لحـق النقـصان بالتمام". ثم يقول في موضع آخر: "وكان له عمال في خراسـان وسجـستان وكابـل والسند والهند وفارس وكرمان...ودان له الناس في مختلف الأماكن وامتثلوا لأمـره، وكانت بلاد الكفر ترسل إليه في كل عام الهدايا، وكانوا يسمونه ملك الدنيا لمدة طويلة من الزمان، وإذا أحصيت مناقبه كلها لكانت قصصا كثيرة ولطال هذا الكتـاب..."(١١٩). وبعد دفنه وجد مكتوبا على قبره :

ملكـت خراسان وأكتاف فارس وما كنت من ملك العراق بآيس

سلاما على الدنيا وطيب نسيمها إذا لم يكن يعقوب فيها بجالس (١٢٠)

ومن هذين البيتين يتضح أن يعقوب بن الليث كان قد امتـد طموحـه بالفعـل ليشمل عاصمة الخلافة نفسها، وإعادة دولة الفرس كما كان يحلم جميع من خرج على العباسيين من الفرس. ولكن من سوء حظ يعقوب أن حركته جاءت في وقـت كانـت فيه الخلافة في أوج نشاطها، خاصة في عهد المعتمد وأخيه الموفق إذ كانا من القـوة بحيث أمكنهما كبح جماح الطامعين، ومع ذلك يحسب ليعقوب أنه استطاع الوقوف في وجه كل الحركات المناهضة للخلافة، لاسيما الخوارج المنشقين عن الدولة العباسـية، والزيديون الذي كانوا شوكة في ظهر العباسيين في منطقة المـشرق الإسـلامي(١٢١). ومع ذلك فقد تمكن يعقوب في النهاية من الحصول على اعتـراف الخلافـة بـشرعية حكمه على خراسان، والتي كانت سببا في تدهور علاقته بالعباسيين.

---

(١١٧) فتحي أبو سيف: خراسان، ص ٨٠.

(١١٨)ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤٢٥ ـ خواندمير: روضه الصفا، ص ٥٩.

(١١٩) مجهول:تاريخ سجستان، ص ١٩١.

(١٢٠) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٠.

(١٢١) بدر عبد الرحمن محمد : الدولة العباسية، ص ١٣٨.

عمرو بن الليث والخلافة العباسية (٢٦٥-٢٨٧هـ/٨٧٨-٩٠٠م)

كان طبيعيا أن يخلف عمرو بن الليث ــ الرجل الثاني في الدولة الصفارية. أخاه يعقوب[١٢٢]، الذي حاول أن يكون حسن السياسة والتدبير حتى قيل عنه: ما أدرك من حسن السياسة للجنود، والهادية إلي قوانين المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن الليث[١٢٣]. وكان الجند قد بايع عمرو بن الليث بعد وفاة أخيه يعقوب سنة (٢٦٥هـ/٨٧٨م) لاسيما بعد أن كتب عمرو إلى الخلافة بطاعته، فأرسل إليه الموفق التقليد بولاية خراسان، وفارس، وأصفهان، وسجستان، والسند، وكرمان، وبذلك أصبح يمتلك ما كان بيد أخيه[١٢٤]، وزادت الخلافة على ذلك بأن أعطته شرطة بغداد، الذي أوكلها بدوره إلي " عبيد الله بن عبد الله بن طاهر"[١٢٥]. بيد أن عمرو بن الليث لم يجد مبررا للاستمرار في حرب الخلافة، لاسيما بعد أن أعطته ولاية خراسان خالصة له[١٢٦]. ولكن بدا لعمرو أن الجيش الصفاري في حاجة إلي الراحة، خاصة بعد الحروب الطاحنة التي خاضها يعقوب ضد الخلافة[١٢٧]، حتى إن بعض فرق الجيش وخاصة الخراسانية كانت ترفض الاشتراك في حروب ضد الخلافة، على اعتبار أن الخليفة العباسي هو الرمز الديني للمسلمين في العالم الإسلامي، كما أن ولاية خراسان كانت تربطها علاقة قوية بالخلافة، على اعتبار أنها كانت مهد الدعوة العباسية في مراحلها الأولى[١٢٨]. وهكذا فضل عمرو أن يهادن الخلافة ــ متخليا عن فكرة سلفه يعقوب بالسير إلى بغداد ــ وأن يعقد صلحا مع الخليفة المعتمد العباسي، تم بموجبه إنهاء الحرب بين الطرفين، وتقليد عمرو على ولايات خراسان، وسجستان، فضلا عن كرمان، وفارس، على أن يرسل مقابل ذلك خراج قدره عشرون مليون درهم سنويا[١٢٩]. وتأكيدا من " عمرو "على حسن المودة والصداقة بينه وبين الخلافة، بعث إلى الموفق بالعديد من الهدايا من بينها عمود من الذهب[١٣٠].

---

(١٢٢) كان عمرو بن الليث قد تولي قيادة جيوش الصفاريين لأخيه يعقوب في حروبه ضد الخوارج في سجستان كما تولي عمرو أيضا قيادة الجيش الصفاري في حروب يعقوب بكرمان، وفارس. أبو سيف : خراسان تاريخها السياسي، ص ٨١.

(١٢٣) تاريخ سجستان: ص١٩١.

(١٢٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤١٩.

(١٢٥) ابن الأثير: الكامل، ج ٦ ص ٢٨٤.

(١٢٦) فتحي أبو سيف: الدولة العباسية، ص ١٦٥.

(١٢٧) البيهقي: تاريخ البيهقي، ص ٣٢٢.

(١٢٨) الكرديزي : زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٥.

(١٢٩) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٥ ص ٥٠ . خواندمير : روضه الصفا، ص ٦٠، ٦١.

(١٣٠)الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٤٩.

وعلى الرغم من أن عمرا كان أبعد من أخيه نظرا وروية وحسن سياسية ؛ إلا أن طموحه الزائد، ورغبته المتعطشة للحكم، جعلته غير راض عما حققه من مكاسب، وجعلته يبذل المزيد من الجهد للحصول على الأراضي المتاخمة له. وكانت الخلافة من جانبها تدرك هذا الطموح، والرغبة التوسعية الجامحة لدي الصفاريين، ولذا كانت تتوجس خيفة من تلك الرغبة، وتترقب الفرصة للقضاء عليهم. ولم يلبث إلا قليلا حيث ساءت العلاقات بين الخلافة العباسية والصفاريين، وذلك عندما أقدم الخليفة المعتمد على عزل "عمرو بن الليث" عن البلاد التي ولاه إياها، وأمر بلعنه على المنابر، ومن العجيب أنه أعلن هذا القرار على ملأ من حجاج خراسان، حتى إنه لعنه بحضرتهم، وأخبرهم أنه قلد "محمد بن طاهر"محله[١٣١]. ولكن محمد بن طاهر فضل المقام في بغداد، وأناب بدلا منه أحد قادته ويدعى "رافع بن هرثمة" لإدارة شؤون الإقليم[١٣٢].

ولكن ما هو السبب الذي دفع الخلافة لاتخاذ هذا الموقف من "عمرو بن الليث"، لاسيما بعد أن هادنها وأظهر الطاعة والولاء ؟. يقول المؤرخون[١٣٣] إن الخلافة بررت العزل بوصول شكايات من أهالي خراسان للخليفة ضد عمال الصفاريين، الذين وصفوا بالتعسف في معاملة الأهالي، كما كان الخطأ الفادح الذي ارتكبه الصفاريون هو: عدم اتخاذهم خراسان عاصمة لملكهم ــ كما جرت العادة لمن سبقهم ــ ولكنهم فضلوا البقاء في سجستان موطنهم الأصلي، مما أفسح المجال للطامعين والمحرضين ليلعبوا دورا مهما في غضب الخلافة المتزايد على الصفاريين[١٣٤]. كما أسهمت الخلافة بزيادة حدة التوتر الدائر بين الأمراء الطامعين في السيطرة على خراسان، فبعد أن هادن عمرو الخليفة "المعتمد على الله" وأظهر الطاعة والولاء، اصطدم بقوة "أحمد بن عبد الله الخجستاني"[١٣٥] الذي كان قد استفحل أمره بعدما استولي على كثير

---

(١٣١) الكرديزي : زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٧.

(١٣٢) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٥ ص ٥٦ ـ خواندمير : روضه الصفا، ص ٦١.

(١٣٣) النرشخي: تاريخ بخاري، ص ١١٨، ترجمة وتحقيق: د/أمين عبد المجيد بدوي، ونصر الله الطرازي، ط٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣م.

(١٣٤) فتحي أبو سيف: الدولة العباسية، ص ١٦٦.

(١٣٥) أحمد بن عبد الخجستاني: أحد قادة يعقوب بن الليث الصفار، وأحد القوميين الخراسانيين الذين تولوا مهمة الدفاع عن خراسان ضد العدوان الخارجي، إذ عمل في بداية حياته بحراسة القوافل التجارية، ثم أصبح أحد قادة الطاهريين المشهورين، وطمع أن يكون له شأن فالتحق بخدمة الصفاريين، ثم لم يلبث أن انقلب عليهم، وجمع حوله الأنصار والأعوان لإخراج الصفاريين من خراسان، وكان يظهر الميل للطاهريين مستميلا

من أملاك الصفاريين – مستغلا حالة الإرباك التي كانت تعاني منها الأخيرة قبيل وفاة عاهلها الأول. والذى تعتبر حركته من أقوى حركات المعارضة الخراسانية للحكم الصفاري – حيث هاجم "جرجان" سنة (٢٦٥هـ/٨٧٩م) وبلغ من جرأته أنه سار إلى نيسابور واستولي عليها، غير مكترث بقوة الصفاريين[١٣٦].

ولما علم "عمرو بن الليث" بذلك توجه على رأس جيش كبير، هو وأخوه "علي بن الليث" وابنه "محمد" ناحية نيسابور لمحاربة الخجستاني، ولكن حلت الهزيمة بالصفاريين، وفرّ عمرو إلى هراة، بينما استقر الأول في نيسابور، وأحكم السيطرة عليها، وكان ذلك سنة (٢٦٧هـ/٨٨٠م) ثم قام بسك العملة باسمه، واسم الخليفة العباسي دليلا على تبعيته للعباسيين[١٣٧]. ولم يلبث أن قتل "الخجستاني" في العام التالي على يد أحد غلمانه[١٣٨]، فأجمع جيشه على تولية "رافع بن هرثمة"[١٣٩] حاكم هراة، فسار بجيشه إلى نيسابور، فدخلها سنة (٢٦٩هـ/٨٨٢) وخطب فيها باسم "محمد بن طاهر"[١٤٠].

وظلت خراسان عقبة كؤوداً في وجه أي تقارب صفاري عباسي، فعندما حاول "عمرو بن الليث" استرداد إقليم خراسان، نراه يواجه غضب الخلافة، التي كانت قد أوكلت أمر خراسان إلي "رافع بن هرثمة". ويبدو أن الخلافة حاولت إثارة القلاقل في وجه عمرو عن طريق تأييدها لحركات المعارضة الخراسانية ضده، إذ كانت تستشعر دائما الخوف من طموح الصفاريين المتزايد، المتحفز دائما للخروج عن الطاعة، وخوفها أيضا من أن يفكر عمرو بالسير مجددا تجاه بغداد، كما فعل أخوه من قبل. ولذلك حاولت أن تجد لعمرو منافسا قويا من أجل الإيقاع به. وظلت العلاقات يحكمها

بذلك قلوب أهل نيسابور، لمعرفته بمحبتهم للطاهريين.ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٣، ٤٢٤. فتحي أبو سيف: الدولة العباسية، ص ١٧٢.

(١٣٦) الكرديزي: زين الأخبار، ج١ ص ١٢٦ - ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤٢٥، ٤٢٦.

(١٣٧) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٦٠٠.

(١٣٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٤.

(١٣٩) رافع بن هرثمة: كان " رافع بن هرثمة " أحد الأعوان " لأبي ثور " وكان أبو ثور أحد قادة " محمد بن طاهر " فلما استولي يعقوب على نيسابور، دخل أبو ثور في طاعته منصرفا عن محمد بن طاهر، ولما رجع يعقوب إلى سجستان، اصطحب معه أبا ثور، ومعه رافع بن هرثمة، يصفه " ابن خلكان " بأنه رجلا طويل اللحية، كريه الوجه، فدخل يوما على يعقوب، فلما خرج من عنده قال يعقوب: إني لا أميل إلى هذا الرجل، فليلحق بما شاء، فترك سجستان، وظل مبعدا حتى استقدمه " أحمد بن عبد الله الخجستاني " وجعله قائد جيشه. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٣، ٤٢٤.

(١٤٠) الطبري: الرسل والملوك، ج ٩ ص ٥٧٧.

سوء الفهم بين الطرفين حتى نجح رافع في حمل الخليفة "المعتمد على الله" على إصدار منشور بمعاقبة عمرو[١٤١].

والواقع أن هناك عدة اعتبارات جعلت الخلافة تقدم على هذا العمل ضد عمرو، كان في مقدمتها تخلص الخلافة من أكبر خطر كان يتهددها، ألا وهو "ثورة الزنج" والقضاء عليها التي أقلقت مضاجع العباسيين، فالتخلص من ثورة الزنج كان معناه أن الخلافة أصبحت حرة طليقة ؛ في مواجهة الخارجين عليها من حكام الأقاليم بكل قوة وإصرار، كما أن الخلافة بدأت تعتمد على ظهور قوة جديدة بدت في الأفق، ألا وهي قوة السامانيين الفتية، الراغبين دائما في كسب رضا الخلافة، فأصدر المعتمد العباسي قرارا بعزل "عمرو بن الليث" عن البلاد التي ولاه إياها، وأعلن هذا البيان على ملأ من حجاج خراسان الذين حضروا إلى بغداد، وأعلن فيهم: "إنني عزلت عمرو بن الليث عن خراسان، وأمرت بلعنه"[١٤٢] ثم كلف "محمد بن طاهر" بأمر خراسان[١٤٣]. ولم يلبث أن أرسل المعتمد جيشا من واسط بقيادة "صاعد بن مخلد" لمحاربة عمرو بن الليث، فلما التقى الجمعان هزم الأخير، ونجا بأعجوبة بعد أن كاد يقع في الأسر، حيث غادر أرض المعركة متجها إلى "فارس" ثم اتجه منها إلى "سجستان" إعادة تنظيم صفوفه، وتدبير أمره لخوض مرحلة جديدة ضد الخلافة[١٤٤].

ومن المستغرب، خلال تلك الحقبة التاريخية، ذلك التردد الواضح من العباسيين تجاه حكام الأقاليم في المنطقة الشرقية لاسيما الصفاريين، فنراهم يتحالفون معهم، ثم يعودون في سرعة عجيبة وينقلبون عليهم مرة أخرى، في تسارع عجيب. فبعد أن استفحل أمر "رافع بن هرثمة"، بعد أن استولى على "الري" و"بلاد الجبل"، حتى اتصل بحدود "قزوين" تتطاير خبره إلى الخليفة "المعتضد بالله" الذي أمر بتخليه عن مدينة الري، و لكن رافعا لم يذعن لأمر الخليفة، وشق عصا الطاعة، فكتب الأخير إلى "عمرو بن الليث" يعلمه بتوليته أمر خراسان، وبالمسير إلى رافع للقضاء عليه، فلما تقابلا عند الري انهزم عمرو، لكنه اتجه إلى "نيسابور" من أجل إرباك رافع، بينما اتجه الأخير إلى "طبرستان" سنة (٢٨١هـ/٨٩٥م) وخلع طاعة الخليفة العباسي، وقام بمراسلة "محمد بن زيد العلوي" وخطب له على منابر طبرستان، لكنه لم يستجب لطلبه، ولم يمده بأحد، وتفرّق عنه أصحابه، وغلمانه، ثم سار رافع إلى نيسابور لمداهمة عمرو هناك، وجرت بينهما معارك حامية الوطيس انتهت بهزيمة ساحقة لرافع الذي فر ملتجئا إلى "أبيورد" — من نواحي نيسابور — ولكنه لم يلبث أن قتل سنة

---

(١٤١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٤.

(١٤٢) مجهول: تاريخ سجستان، ص ٢٠٥.

(١٤٣) ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤٢٧.

(١٤٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٥.

(٢٨٣هـ/٨٩٦م) وحمل رأسه إلى "عمرو بن الليث" وهو بنيسابور[١٤٥]، الذي أرسلها بدوره إلي الخليفة العباسي المعتضد بالله [١٤٦].

ولم تلبث أن تحسنت العلاقات بين عمرو والخلافة بعد النصر المؤزر الذي حققه على "ابن هرثمة"، والذي كان يصب في المقام الأول في مصلحة الخلافة، وذلك لردع كل من تسول له نفسه الخروج عليها[١٤٧].

والواقع أن الخليفة "المعتضد بالله" فرح فرحا شديدا، وقد عبّر عن فرحه ذلك بأن أرسل إليه الخلع واللواء، دليلا عن رضائه عنه، وأمر الخليفة أن يكتب اسم "عمرو بن الليث" على الفرش والمقاعد والأعلام، بل إن الخليفة، وكالعادة، أمر بجمع حجاج خراسان، وأن يقرأ عليهم منشورا بتوليه خراسان وملحقاتها[١٤٨]. ورد عمرو على ذلك بأن أرسل هدايا قيمة إلى قصر الخلافة في بغداد، وذلك سنة (٢٨٤هـ/٢٨٤م) قدرها البعض بأربعة ملايين درهم، تعبيرا عن فرحته هو الآخر، وامتنانه لفعل الخليفة . ولكن في الوقت نفسه طالب عمرو بضم ولاية "ما وراء النهر" إلى أملاكه، وهي الولاية التى كانت تابعة إداريا للسامانيين، بحجة أن تلك الولاية، كانت تتبع من قبل إقليم خراسان[١٤٩].

ثم ساءت العلاقات بين عمرو بن الليث والخلافة، وذلك عندما طلب الأول من الخليفة المعتضد أن يوليه على "بلاد ما وراء النهر" [١٥٠] التابعة للسامانيين[١٥١]. ويبدو أن عمرا لاحظ نمو وازدياد العلاقة الودية التي كانت تربط بين العباسيين

---

(١٤٥)ابن الجوزي: المنتظم،ج ٥ ص ١٦١ ـ تاريخ سجستان: ص ٢٠٦.

(١٤٦)المعتضد بالله:هو أبو العباس ابن ولي العهد طلحة بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد ولد سنة (٢٤٢هـ/ ٨٥٦م) وأمه أم ولد اسمها " صواب " وصفه المؤرخون : بأنه كان ملكا شجاعا مهيبا، وكان فهما جلدا، موصوفا بالرجولة. ابن الجوزي: المنتظم، ج ٥ ص ١٢٣ ـ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤١٧.

(١٤٧)ابن الجوزي: المنتظم،ج ٥ ص ١٧٠.

(١٤٨) الكرديزي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٢٩.

(١٤٩) كانت بلاد " ما وراء النهر " منذ الفتح العربي، وبخاصة منذ عهد " الوليد بن عبد الملك " تتبع إقليم خراسان، ولما جاء العباسيون أبقوا لعامل خراسان حق الإشراف الإداري على هذه البلاد، لاسيما في عهد الدولة الطاهرية، وظل هذا الوضع قائما حتى صدر منشور من الخلافة سنة(٢٥١هـ/٨٦٥م) يفصل ولاية ما وراء النهر عن إقليم خراسان، نظرا لقوة حكم السامانيين في تلك المنطقة. النرشخي: تاريخ بخارى، ص ١١٨ ـ ابن الأثير: الكامل، ج ٦ص ٢٨٨ـ فتحي أبو سيف: الدولة العباسية ص١٦٨.

(١٥٠) ابن خلدون: العبر، ج ٤ ص ٤٣١.

(١٥١) خواندمير: روضه الصفا، ص ٦٣.

والسامانيين، فأراد أن يختبر متانة تلك العلاقة بهذا الطلب، وفي الوقت نفسه كان يحلم بمد نفوذه إلى "ما وراء النهر"، بحكم أنها كانت من قبل تتبع إقليم خراسان. والواقع أن الخلافة من جانبها كانت تخشى من اتساع نفوذ "عمرو بن الليث" وتحاول تطويق طموحه والحد من خطره من أجل المحافظة على توازن القوي السياسي في المنطقة، فانتهز الخليفة الفرصة فأراد أن يضرب عمراً بقوة السامانيين النامية في بلاد ما وراء النهر، فوجه إليه الخلع واللواء وهو بنيسابور، وأظهر له موافقته على مطلبه، بينما كانت الخلافة تتصل سرا بـ" إسماعيل بن أحمد الساماني " وتثبته على ولايته[١٥٢]. غير أن عمرا اعتذر عن قبول هذه الخلع، وأصر على طلبه، ولم يجد الخليفة مفرا من إجابته لطلبه، وهو يقدر مدي الخطر والمغامرة التي يتعرض لها عمرو الذي لم تقف أطماعه عند حد[١٥٣]. وقد صدق تقدير الخليفة، حيث إن "إسماعيل بن أحمد الساماني" هب للدفاع عن مكاسبه السياسية، ورفض الانصياع لأمر الخليفة، وتسليم الإقليم، وكتب إلى عمرو يثنيه عن الإقدام على مثل هذا العمل: إنك قد وليت دنيا عريضة (يقصد أملاكا كثيرة) وأنا في يدي ما وراء النهر، وأنا في ثغر، فاقنع بما في يدك، واتركني مقيما في هذا الثغر، فأبي إجابته إلى ذلك، وذكر له من أمر نهر بلخ، وشدة عبوره. ولكن عمرا أخذته العزة والغرور، ورد عليه قائلا: "لو شئت أن أسكره ببدر الأموال، وأعبره لفعلت"[١٥٤]. ولكن عمرا لم يقدر الصعاب التي قد تقف في سبيله، وتحول دون تحقيق أمنيته برغم قيادته لجيش جرار قدره المؤرخون بسبعين ألف، فعبر "نهر جيحون" سنة (٢٨٧هـ/٩٠٠م) والتقيا في "بلخ" ـ من أعمال خراسان. ولكن دارت الدائرة على "عمرو بن الليث"، وحلت الهزيمة به وبجيشه، ووقع أسيرا في قبضة "إسماعيل بن أحمد الساماني"، بعد أن تشتت شمل جيشه[١٥٥] فقال قولته الشهيرة: " أصبحت أميرا، وأمسيت أسيرا "[١٥٦].

ولما علم الخليفة "المعتضد" بما حل بعمرو بن الليث من الهزيمة ؛ سر غاية السرور، وأشاد بفعل "إسماعيل بن أحمد"[١٥٧]. ويذكر خواندمير[١٥٨] : أن إسماعيل الساماني لم يكن راغبا في تسليم عمرو للخلافة، بل إنه أكرمه، وأحسن إليه، بعدما قبض عليه، إلا أن الخليفة المعتضد أرسل إليه يقول: "الرحمة لإسماعيل واللعنة على

---

(١٥٢) فتحي أبو سيف: الدولة العباسية، ص ١٦٨، ١٦٩.
(١٥٣) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٢٨٩.
(١٥٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان، ج ٦ ص ٤٢٧.
(١٥٥) خواندمير : روضه الصفا، ص ٦٢.
(١٥٦) الكرديزي : زين الأخبار، ج ١ ص ٢٣١.
(١٥٧) خواندمير : روضه الصفا، ص ٦٢.
(١٥٨) روضة الصفا: ص ٦٢، ٦٣.

عمرو"، وأرسل الرسل بعد ذلك لإسماعيل ليسلمه عمرا. ولم يلبث أن سير إسماعيل "عمرو بن الليث" إلى الخليفة في بغداد، الذي أمر بحمله على جمل له سنامان، كان عمرو قد أهداه للخليفة من قبل، وأدخل إلى دار الخلافة مشهرا ذليلاً، وعمرو رافع يديه بالتضرع والدعاء دهاء منه، حتى رقت له العامة، وأمسكت عن الدعاء عليه، ثم قام الخليفة بتوبيخه بقوله: "شكرا لله الذي أوقعك في يدي، وكفانا شرك"(١٥٩). ثم أمر الخليفة بحبسه في غرفة قد أعدت لذلك، وظل محبوسا بها حتى مات ودفن، وقيل إنه قتل(١٦٠). وأرسل "المعتضد" بالخلع إلى إسماعيل الساماني، وولاه ما كان بيد عمرو من البلدان، وأصبحت خراسان ضمن ممتلكاته(١٦١).

على كل حال كانت هذه المعركة من المعارك الحاسمة التي أدت إلى سقوط الدولة الصفارية، وقيام الدولة السامانية على أنقاضها(١٦٢).

خلفاء "عمرو بن الليث" والخلافة:

كانت الأمور في الدولة الصفارية تسير بخطى سريعة نحو الانهيار، إذ انتقل حكم الصفاريين بعد أسر الأمير "عمرو بن الليث" إلى أحد أحفاده وهو "طاهر بن محمد بن عمرو" سنة (٢٨٨هـ/٩٠٠م)، وأرسل إليه الخليفة بالخلع بولاية فارس وسجستان، إلا أنه لم يقدر المسؤولية الملقاة على عاتقه. فقد وصفه المؤرخون(١٦٣) بأنه تشاغل باللهو والصيد، ولم يهتم بالملك، وقضى ليله ونهاره في الشرب، وترك الأمور كلها بيد أحد غلمان "عمرو بن الليث" المقربين، ويدعى "سبك السبكري"(١٦٤).

ولما رأي كبار القادة والأمراء هذا السلوك خشوا من عاقبة الأمور، وقالوا له: لقد أخذنا هذا الملك بسيوفنا، فهل تريد أن تحفظه بلهوك، إن الملك لا يبقى بالهزل(١٦٥). ولكن طاهرا لم يعبأ بهذا الكلام، واستمر في لهوه، الأمر الذي مكن للسبكري من القبض عليه، وعلى، أخيه "يعقوب بن محمد بن عمرو بن الليث" سنة (٢٩٦هـ/٩٠٨م) وبعث بهما إلى بغداد تقربا إلى الخلافة، حتى تصفو له الأمور، ولا يبقى له شريك في الملك، وتغلب على البلاد، وضرب العملة باسمه(١٦٦). ظل السبكري

---

(١٥٩) السابق: ص ٦٣.

(١٦٠) الكرديزي : زين الأخبار، ج ١ ص ٢٣١، ٢٣٢.

(١٦١) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٢٩٩.

(١٦٢) تاريخ سجستان: ص٢١١.

(١٦٣)ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٣٢٢.

(١٦٤) خواندمير : روضه الصفا، ص ٧٢.

(١٦٥) السابق: ص ٦٥.

(١٦٦) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١١ ص ٦٧.

يحكم سجستان، فضلا عن بلاد فارس، حتى طرده" الليث بن علي بن الليث الصفار" فاستنجد السبكري بالخليفة "المقتدر بالله" فأمده بجيش استطاع أن يلحق الهزيمة بالليث سنة (٢٩٧هـ/٩٠٩م) ووقع في الأسر[١٦٧]. ولم تلبث الخلافة أن واجهت ثورة جديدة بسبب عصيان السبكري، الذي امتنع عن إرسال الأموال المقررة عليه إلى بيت مال الخلافة، مما اضطر الخلافة لإرسال الجيوش للقضاء عليه، ولكن فشلت جميع الحملات التي شنتها عليه، حتى تمكن "أحمد بن إسماعيل الساماني" من الاستيلاء على سجستان، والقبض على "محمد بن على بن الليث الصفار" الذي كان قد غلب على سجستان، ثم على "السبكري"، وبعث بهما إلى بغداد في سنة (٢٩٨هـ/٩١٠م) فأدخلا بغداد مشهرين على فيلين[١٦٨]. ثم طارد "أحمد الساماني" جميع أفراد الأسرة الصفارية، حتى أسرهم جميعا، ونكل بهم، ومن ثم زالت الدولة الصفارية من الوجود، والتي لم يقتصر خطرها على إقليم المشرق الإسلامي، بل امتد خطرها إلى بغداد نفسها.

وهكذا زالت الإمارة الصفارية بعد عمر قصير، على الرغم من قوة جيشها، وحسن تسليحها وبرغم اتساع البلاد التى وقعت تحت يديها، وامتلاء خزائنها بالأموال. ويعود السبب في ذلك إلى أن الصفاريين وجهوا جهدهم الحربي إلى الداخل، واتجهت أطماعهم إلى قلب نظام الحكم في عاصمة الخلافة، الأمر الذي أفقدهم تعاطف القوي المحلية في المنطقة، فضلا عن غضب الرأي العام الإسلامي. ولو أنهم وجهوا جهدهم العسكرى إلى المجال الخارجي، واكتساب أقاليم جديدة، تدخل في حوزة الإسلام لكان خيرا لهم، ولاكتسبوا عطف الخلافة، وعطف مؤيديها، لكنهم لم يستطيعوا الاحتفاظ بإمارتهم، وسقطوا سريعا.

والحقيقة أن ضعف الإمارة الصفارية وزوالها ؛يعود إلى موقف الخلافة العباسية العدائي منها،إذ لم تدخر وسعا في القضاء عليهم،لاسيما بعد التعامل غير المسئول من جانب الصفاريين تجاههم، فضلا عن موقف السامانيين العدائي للصفاريين المدفوع من قبل العباسيين،كما كان لعصيان"سبك السبكري" غلام"عمرو بن الليث" أسوأ الأثر في التعجيل بانهيارها، وزوالها في النهاية من على مسرح التاريخ.

وأقول، كما قال الشافعي رحمه الله: (ألفت هذه الكتب ولم آل فيها، ولابد أن يوجد فيها الخطأ، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] فما وجدتم في كتابي هذا، أو كتبي مما يخالف الكتاب والسنة، فقد رجعت عنه).

---

(١٦٧)ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج ٤ ص ٣٢٧.

(١٦٨) الكرديزي: زين الأخبار، ج ١ ص ٢٣٢.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً ـ المصــــادر :

= ابن الأثير (ت ــ٦٣٠هــ) على بن أبي الكرم.

١- الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية ط٣، بيروت، ١٩٨٨م.

= البلاذري (ت ــ٢٧٩ هـ) الإمام أبو الحسن أحمد بن يحيي البلاذري

٢ ــ فتوح البلدان، عُني بمراجعته والتعليق عليه. رضــوان محمــد رضــوان، دار الكتــب العلمية، بيروت ١٩٨٣ م.

= البيهقي (ت ــ٤٧٠هــ) أبو الفضل محمد بن حسين.

٣ ــ تاريخ البيهقي، ترجمه إلي العربية د/ يحيي الخشاب، وصادق نشأت، مكتبــة الأنجلــو المصرية القاهرة ١٩٥٦ م.

= ابن الجوزي : (ت ــ ٥٩٧هــ) جمال الدين أبو الفرج بن الجوزي

٤- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دائرة المعارف العثمانية، ط١ حيدر أباد ١٣٥٩هــ.

= ابن حوقل (ت ــ٣٦٧ هـ) أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي

٥ ــ صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت،١٩٧٩ م.

= ابن خلدون (ت ــ٨٠٨هــ) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون.

٦- العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٠م.

= ابن خلكان (ت ــ٦٨١هــ) أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد.

٧- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق د. إحسان عبــاس، دار صــادر، بيــروت، ١٩٦٨م.

= خواندمير (ت ــ٩٠٣ هــ) محمد بن خاوند شاه بن محمود.

٨- روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء، ترجمة د. أحمد عبد القادر الــشاذلي، الدار المصرية للكتاب ط١ القاهرة، ١٩٨٨م.

= السيوطي (ت ــ ٩١١ هــ) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر

٩ ــ تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،المكتبة العصرية بيروت ١٩٦٤م.

=الطبري (ت ــ٣١٠هــ) محمد بن جرير الطبري.

١٠- تاريخ الأمم والملوك، دار المعارف، ط ٤ القاهرة، ١٩٧٦م.

= ابن العبري (ت ــ٩٨٥هــ) غريغوريوس أبو الفرج بن هارون.

١١ – تاريخ مختصر الدول، دار الآفاق العربية ط١ ، القاهرة، ٢٠٠١م.

= ابن كثير(ت ــ ٧٧٤ــ) عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر.

١٢ –البداية والنهاية في التاريخ، دار الفكر العربي، ط١، القاهرة، ١٩٣٢م.

=الكرديزي (ت ــ٤٢٢هــ)أبو سعيد عبد الحي الضحاك

١٣ــ زين الأخبار، ترجمة: د/ عفاف السيد زيدان، دارا لطباعة المحمدية، القاهرة ١٩٨٢م.

=مجهول المؤلف

١٤ــ تاريخ سجستان، ترجمة :محمود عبد الكريم علي، طبع المجلس الأعلى للثقافة، ط١، القاهرة ٢٠٠٦م.

= المسعودي (ت ــ٣٤٦هــ) على بن الحسين بن على المسعودي.

١٥ ــ مروج الذهب ومعادن الجوهر، شرح وتقديم د. مفيد محمد قميحة دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٥.

= ابن مسكويه (ت ــ٤٢١هــ) أحمد بن محمد بن يعقوب.

١٦ ــ تجارب الأمم. تحقيق: سيد كسروي، دار الكتب العلمية ط.١بيروت، ٢٠٠٣.

= المقدسي(ت ــ ٣٨٧هــ) شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر.

١٧– أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٧م.

=ابن منظور (ت ــ٧١١هــ) محمد بن مكرم المصري

١٨ــ لسان العرب، دار الحديث، القاهرة ٢٠٠٦ م.

=النرشخي (ت ــ ٣٤٨هــ) أبو بكر محمد بن جعفر

١٩ــ تاريخ بخاري، ترجمة وتحقيق: د/أمين عبد المجيد بدوي، ونصر الله الطرازي، ط٣، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٣م.

= ياقوت الحموي (ت ــ٦٢٦هــ) أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي.

٢٠ ــ معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.

ثانيا ـ المراجـــع :

= إبراهيم سلمان الكروي (دكتور)

١ــ البويهيون والخلافة العباسية، دار العروبة للنشر والتوزيع ط١ بيروت، ١٩٨٢م.

= أحمد السعيد سليمان (دكتور)

٢ــ تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة، دار المعارف القاهرة ١٩٦٩ م.

=حسن إبراهيم حسن (دكتور)

٣ ــ تاريخ الإسلام السياسي، دار الجيل، ط ٨ بيروت ١٩٩٦م.

= حسن أحمد محمود، وأحمد إبراهيم الشريف (دكتور)

٤ــ العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر العربي، ط ٣، القاهرة ١٩٧٧م.

= عباس إقبال .

٥ ــ تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجاوية، ترجمة د / محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة، القاهرة ١٩٨٩ م .

=عصام عبد الرءوف الفقي (دكتور)

٦ ــ الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٧ م.

= فتحي أبو سيف (دكتور)

٧ ــ الدولة العباسية والمشرق الإسلامي، دار المؤيد، الرياض، ط ١ ٢٠٠٧.

٨ــ خراسان تاريخها السياسي من سقوط الطاهريين إلى بداية الغزنويين، مكتبة سعيد رأفت، ط١ القاهرة ١٩٨٨م.

=كي لسترانج

٩ــ بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة : بشير فرنسيس، كوركيس عواد، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٥م.

= محمود عرفة محمود (دكتور)

١٠ ــ الدول الإسلامية المستقلة في الشرق وعلاقاتها بالخلافة العباسية،دار الثقافة العربية، القاهرة ٢٠٠٨م.

تاريخ المسلمين في فراكسنيتوم
٢٧٧ - ٣٦٥هـ/٨٩٠ - ٩٧٥م

د. وفاء مختار غزالي علي (*)

بداية نزول المسلمين إلى فراكسنيتوم عام ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م :

سنتناول في هذا البحث تاريخ المسلمين في فراكسنيتوم Fraxinetum[1] ذلك الموضوع الذي لم ينل حظه الكافي من الدراسة سواء من الباحثين العرب أو الأوروبيين، وربما يرجع ذلك إلى ضآلة المعلومات التاريخية الواردة عنه في المصادر العربية واللاتينية على السواء ففي الوقت الذي اكتفت فيه المصادر العربية بالإشارات المختصرة له نرى المصادر اللاتينية تسهب بعض الشيء لكن تورد أخباراً مختلطة يغلب عليها التحامل على المسلمين وتشويه تاريخهم في تلك المنطقة ووصفهم - كما اعتادت دائماً - بالقرصنة واللصوصية والاعتداء على الأرواح والمقدسات دون مراعاة للأديان أو الأعراف.

أطلق المؤرخون العرب اسم جبل القلال على الحصن أو القلعة التي اتخذها المسلمون قاعدة لهم لشن هجماتهم على غرب أوربا في الوقت الذي أطلق عليها

(*) مدرس تاريخ العصور الوسطي بكلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر

(1) يجب أن نشير إلى أننا نعرف القليل جداً عن هذه الدولة التى استمرت نحو خمس وثمانون عاماً وعن نظام حكمها وعن قادتها ومؤسسيها، فالغموض يحيط بتاريخها بصفة خاصة وبتاريخ مملكة البروفانس التى كانت فراكسنيتوم جزءاً منها بصفة عامة خلال النصف الأول من القرن العاشر الميلادي فليس هناك سجل محلي يدون ذلك التاريخ بل إشارات عابرة جاءت ضمن سجلات بعيدة عن ذلك الموضوع وغير دقيقة لذلك كان الوقوف على تاريخ المسلمين في تلك المنطقة صعباً ويشوبه الريب.

Previte – Orton, Italy and provence 900-950, The English Historical Review, Vol. XXXII, July, 1917, P. 335.

عبدالرحمن على الحجي، العلاقات الدبلوماسية مع أوربا الغربية خلال المدة الأموية (١٣٨-٣٦٦هـ/ ٧٥٥-٩٧٦م) دراسة تاريخية، أبوظبي، الإمارات المتحدة العربية، ٢٠٠٤م، ص٢٧٤.

المؤرخون الأوروبيون فراكسنيتوم؛ فقد ذكر ابن حوقل "ولجبل القلال الذي بنواحي إفرنجة بأيدي المجاهدين عمارة وحرث ومياه وأراضي تقوت من لجأ إليهم، فلما وقع عليه المسلمون عمّروه وصاروا في وجوه الإفرنجة والوصول إليهم ممتنع لأنهم يسكنون في وجه الجبل فلا طريق إليهم ولا متسلق عليهم إلا من جهة هم منها آمنون ومقداره في الطول نحو يومين[٢].

أما الأصطرخي فيقول: "وأما جبل القلال فإنه كان جبلاً فيه مياه خرارة فوقع إليه قوم من المسلمين فعمروه وثاروا في وجوه الإفرنجة لا يقدر عليهم لامتناع مواضعهم ومقداره في الطول يومان"[٣].

اختلف المؤرخون الأوربيون في موقع فراكسنيتوم التي احتلها المسلمون فترة طويلة فالفرنسيون يذكرون أنها في خليج سانت تروبيز St. Tropez وهو المعبر بين فرنسا وإيطاليا بالقرب من جبل المور. أما المؤرخون الإيطاليون فيذكرون أن موقع فراكسنيتوم في البروفانس بالقرب من آرل أو خلف جبال الألب وآخرون يعتقدون أنها تقع في شبه جزيرة S. Ospizio قرب نيس (نيقه) Nice. لكن من المرجح أن موقعها هو نفس الموقع الذي تقع عليه حالياً قرية لاجارد فريينة La Garde- Freinet في سفوح جبال الألب في البروفانس جنوب شرق فرنسا على خليج سانت تروبيز بين هيير Hyeres وفريجوس Frejus[٤].

يعتبر ليتوبراند أسقف كريمونا Liudprand of Cremona (٩٢٠-٩٧٢م) الذي عاش في القرن العاشر الميلادي شاهد عيان لكثير من الأحداث التي أرخ لها وتختص بتاريخ المسلمين في فراكسنيتوم، ولقد انفرد بذكر تفاصيل كيفية وصول المسلمين واتخاذهم فراكسنيتوم قاعدة لهم في عام ٢٧٧هـ/ ٨٩٠م فيقول: "بناء على إرادة الله التي لا يدرك سرها، فقد جاء عشرون مسلماً في مركب صغير من سواحل أسبانيا قذفت بهم الريح فاضطروا للهبوط رغماً عنهم في خليج سانت تروبيز في البروفانس فنزلوا إلى البر في جنح الليل على عادة اللصوص وتسللوا

---

(٢) ابن حوقل، صورة الأرض، طبعة القاهرة، د. ت، ص١٨٥.

(٣) الاصطرخي، مسالك الممالك، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٣٧، ص٧١.

(4) Gallega, S. History of piedmont, London, 1955, P.149.
- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, Paris, 1836. p.160.
- Kaeppen Adolphus, The World in the Middle Ages New York, M. Dcce. LIV (1854), P.52.
- Setton K.M, A History of the Crusades, Vol.1, Wisconsin, 1969, P.51.

إلى قرية تروبيز وفتكوا بأهلها المسيحيين واستولوا على المكان، ثم اتخذوا الجبل المُسمى موروس Maurus معقلاً لهم ليكونوا في مأمن من أعدائهم وللتصدي لهجمات جيرانهم ، وكان هذا الجبل مغطى بالأشجار الشائكة التي كانوا يحتمون بأشواكها وألفافها ولم يجعلوا فيها سوى ممراً ضيقاً جداً لأنفسهم يمرون منه وما عداه أصبح مستحيلاً، وهذا المعقل سُمي فراكسنيتوم ويحده البحر من جهة ومن جهة أخرى غابة متشابكة الأغصان ومن أراد الدخول عرقلته الأشواك الحادة مثل: "السيف" أو "الحراب" فلا يستطيع أن يتقدم أو أن يتأخر، فأمنوا في هذا المعقل المنيع وصار لهم مركزاً يهجمون منه على الجهات المجاورة بدون خوف واثقين في مناعة معقلهم هذا ثم أنفذوا رسولاً إلى أسبانيا ليرغب الآخرين من رفاقهم في الالتحاق بهم، فمدح الرسول المكان وأطمع الناس فيه، وقال إن أهالي تلك البلاد لا يخشى بأسهم وليسوا بقوة، فلم يلبث إلا قليلاً حتى عاد ومعه مائة رجل من المسلمين جاءوا ليتحققوا ما ذكره لهم الرسول عن هذا الموقع وطيب نجعته"[٥].

يتضح مما ذكره ليتوبراند طبيعة فراكسنيتوم ذلك المكان الحصين الذي يمتد بين التلال والغابات والذي امتاز بمميزات طبيعية خاصة، فالبحر كان للمسلمين باباً لتلقي الإمدادات التي يحتاجون إليها والبر كان منفذاً إلى النواحي التي يريدون الإغارة عليها والغابة المتشابكة ذات الأحراش والأشواك كانت لهم معقلاً يلجئون إليه عند الضرورة؛ مما جعل فراكسنيتوم بمنأى عن التهديدات الخارجية وملائماً للتصدي لأي محاولة تستهدف الوصول للمسلمين والقضاء عليهم؛ مما جعلهم آمنين في سربهم وأدى إلى استقرارهم هناك وتوسعهم فلم تمض أعوام قلائل حتى أنشأوا لهم سلسلة من المعاقل والحصون التي تمتاز بالقوة والمناعة واستطاعوا من خلالها شن الهجمات على المناطق المحيطة بعد أن سيطروا على الساحل الجنوبي للبروفانس فجنوا مغانم كثيرة من تلك البلاد الخصيبة مما أدى إلى توسيع ممتلكاتهم ونفوذهم واستمرار وجودهم ككيان إسلامي قوي يبث الرعب والذعر في مناطق غرب أوربا لمدة خمس وثمانون عاماً تقريباً[٦].

---

(5) Liudprand of Cremona, The Works of Liudprand of Cremona, ed., Bekker, Trans, Wright. F. A., London, 1930, Antapodosis, Book1, Chapter 3, PP.33-34.

(6) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 161.
- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy , University Press of Cambridge, 1912, P.5.
- شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٥٢هـ، ص١٦١.

اختلف المؤرخون في ماهية المسلمين الذي استقروا في فراكسنيتوم فبينما ينظر إليهم المؤرخون المسلمون على أنهم مجاهدون مسلمون استطاعوا أن يفرضوا سيادتهم ويؤسسوا حصناً قوياً للإسلام في غرب أوربا اتخذوا منه مركزاً ثابتاً ومستقراً لغزو جنوب فرنسا وشمال إيطاليا حتى حدود ألمانيا[٧]، إلا أن المؤرخين الأوربيين ينفون عنهم ذلك (تلك الصفة) ويصفونهم بالقرصنة ويذكرون أن أهدافهم لم تكن دينية وأن الهجمات التي قاموا بها لم تكن ذات مغزى سياسي ولا ترمي إلى توسيع رقعة الدولة الإسلامية وقصارى ما كانت ترمي إليه هو أن تستولي على الغنائم وتنهب الأديرة والمدن، والمعاقل ويعتبرونهم جاليات مرتزقة مستقلة استغلت الفوضى والنزاعات المحلية للبلاد فقامت بالسرقة والنهب في ريف البروفانس وفي المياه الساحلية للبحر المتوسط بدليل أنهم لم يخلفوا ورائهم أية وثائق خاصة بهم تزيل الغموض عن أصلهم وعن حجمهم وهدفهم ووضعهم السياسي[٨].

نلاحظ من رواية المؤرخ المعاصر ليتوبراند أن عدد المسلمين الذين استقروا في فراكسنيتوم كان قليلاً جداً ولنا أن نتساءل كيف استطاعت هذه المجموعة الصغيرة أن تنشأ لها معقلاً قوياً ظل يمثل مصدر رعب وذعر لغرب أوربا مدة

- فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ترجمة شكيب أرسلان، ضمن كتاب تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرة وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، ص٢٤٥.

(٧) محمد مرسي الشيخ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية، ١٩٨١م، ص١٩٠-١٩١.

- عبدالعظيم رمضان، الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١٩٨-١٩٩.
- على بن المنتصر الكتاني، المسلمون في أوربا وأمريكا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٥، ص١٩٩.
- عبدالمنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ١٩٦٦م، ص١٠٥.

(8) **Bruce, An abbot between two Cultures, Maiolus of Cluny Considers The Muslims of La Garde – Freinet , Early Medieval Europe, Journal Compilation, 15, (4), Oxford, 2007, PP. 431-432.**

فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٤٥-٢٤٦

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France,pp.161 – 163

طويلة؟!

لكن بالنظر إلى الأحوال السياسية العامة لتلك البلاد نجد أن النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي شهد انهيار إمبراطورية الفرنجة الموحدة وتفسخها إلى عدة ممالك مستقلة ذاتياً فبالإضافة إلى فرنسا وإيطاليا وألمانيا – الممالك الثلاثة الكبيرة – نشأت عدة كيانات صغيرة مستقلة كان منها برجنديا والبروفانس في جنوب فرنسا والتي نشأت عندما ضعفت السلطة المركزية في فرنسا فاندلع الصراع بين النبلاء والسلالة الكارولنجية مما أدى إلى قيام الثورات في تلك المنطقة واستغلال النبلاء تلك الفوضى في الخروج على السلطة وإعلان الاستقلال، فقد أعلن أحد النبلاء ويسمى بوزو Boso استقلاله بولايتي الدوفيني Dauphiny والبروفانس Brovence، ولقب نفسه بملك آرل فتصدى له بعض المنافسين الطامعين في السلطة مما أدى إلى اندلاع حروب أهلية وصراعات داخلية استغلها المسلمون ووجدوا فيها فرصة كبيرة لغزو واحتلال تلك المناطق[٩]. التي تركت للدفاع عن نفسها[١٠].

ولقد وجد المسلمون الفرصة مواتية ليس للإغارة والعودة محملين بالغنائم والأسرى فقط وإنما للاستيلاء والاستقرار في جهات كثيرة من جنوب فرنسا وحفزهم على ذلك ما كان بين أهل البلاد من الشقاق والتنافس وقتال بعضهم البعض مما جعلهم في غفلة عما يحيط ببلادهم من خطر المسلمين حتى أنهم استعانوا بهم في قتال بعضهم البعض وبذلك ازدادت وطأة المسلمين في تلك الجهات وازداد

([9]) Reinaud, Invasions, des Sarrazins en France P. 158.
- Chambers R., Medieval History, London, 1855, PP. 74-75, Gibbon. E, The History of The Decline, and fall the Roman empire.vol. 6 , Boston ,1854. p. 324.
- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, PP.1-4.
- محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤١٧، ط٤، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص٤٦٧.
- Comyn R., The History of the Western Empire, Vol.1, London, 1841, P.88.

([10]) Gregorovius, History of the City of Rome in The Middle Ages, Translated from the fourth German edition by Hamilton A, vol. III, London, 1895, Book VI, Chapter1, P,262.

عددهم بالتعزيزات المستمرة التي كانت تأتي لهم من أسبانيا حتى أصبحوا قوة كبيرة وهاجموا المناطق المحيطة وثبتوا أقدامهم فيها(١١). واستقروا في هذه الأقاليم وتزوجوا من نسائها وقاموا بزراعة الأراضي ولم يسع الحكام المحليون إلا أن يسلموا بالوضع الجديد واكتفوا بجباية الضرائب منهم(١٢).

اجتياز مسلمي فراكسنتيوم جبال الألب والتوغل في أراضي ايطاليا وسويسرا

بدأ المسلمون بشن هجماتهم في النواحي القريبة منهم في البروفانس حتى نمت شوكتهم وأصبحوا قوة يُخشى بأسها وسعى إليهم بعض الأمراء والسادة المتنافسين يطلبون مساعدتهم فلبوا الدعوة بعد أن رأوا في ذلك فرصة لفرض نفوذهم وتوسعهم فيما حولهم وأعلنوا أنفسهم سادة في الأنحاء المغلوبة وبثوا الذعر والرعب في جنوب البروفانس لما امتازوا به من القوة والبأس وكانت هذه أول خطوة في توسع المسلمين في جنوبي فرنسا والتي استندت إلى مركز ثابت مستقر استطاعوا من خلاله الوصول إلى بلاد الدوفيني لفرض سيادتهم على جنوبي فرنسا والانطلاق إلى غزو بيمونت Piemont وسويسرة وشمال ايطاليا(١٣).

---

(11) Liudprand of Cremona, Antapodosis, Book1, Chapter IV, P.34.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France,PP. 161-162
- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٦٧- ٤٦٨.
- فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٤٥.
- شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرة، ص١٦١.

(١٢) محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص٢٠١.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins, en France P. 179.

(13) Liudprand of Cremona, Antapodosis, BookII, Chapter XLIII, P.90.

- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P.138.

فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص ٢٤٦- ٢٤٧

بيمونت: اقليم إيطالي يقع غرب ايطاليا يحده شرقاً اقليم لومبارديا وغرباً فرنسا وإقليم ليجوريا Liguria وجنوباً وادي أوستا Aosta وسويسرة من ناحية الشمال

اخترق مسلمو فراكسنيتوم بلاد الدوفيني Douphine وتقدموا نحو جبال الألب شمالاً وغرباً وعبروا مونت سني Mont Cenis أهم ممرات الألب الفرنسية واستولوا في عام ٩٠٦م/٢٩٤هـ على دير نوفاليزا Novalesa أشهر الأديرة وأغناها والذي يقع على مقربة من سوسا Susa بحذاء جبل سنيس Senis على حدود بيمونت فهرب الرهبان حاملين معهم ما في الدير من النفائس ومن جملتها خزانة الكتب النفسية وأغار المسلمون على المناطق المجاورة ونهبوها ودارت اشتباكات بينهم وبين سكان تلك المناطق أدت إلى أسر بعض المسلمين واقتيادهم إلى تورينو Turin بايطاليا حيث تم اعتقالهم في دير القديس أندرواس إلا أنهم استطاعوا أن يحطموا القيود وأشعلوا النيران في الدير وفي المدينة وفروا عائدين إلى زملائهم[١٤].

اشتد بأس المسلمين في تلك الأنحاء واحتلوا معظم ممرات جبال الألب فسيطروا بذلك على الطرق التي تربط بين فرنسا وايطاليا وعانت ايطاليا من هجماتهم حتى أقفرت وديان الألب والطرق العظيمة والأديرة الغنية ثم انحدروا من



CanderJ., Dictionary of Geography, London, 1834, p. 526

الدوفيني: هى مقاطعة فرنسية تحدها سافوى Savoy وهى عبارة عن سلاسل جبلية تمتد من جبال الالب الى وادى الرون Rhon، ومن أهم أنهار الدوفيني بالاضافة الى نهر الرون نهر ايسرIsere , والذى يصب في سافوى ونهر دورانس Durance , ونهر دروم Drome، وأهم المدن هى فيينا Vienne , وجرينوبل Grenoble وفالينسيا Valence وجاب Gap

- Cander, Dictionary of Geography, p185.

(14) Chronicon Novalicienes, Monumenta Germaniae Historica Recudi Fecit, VII, ed. Pertz, Hannoverae, 1846, libri IV, PP.59-60.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 163.
- تورينو هي مدينة تقع شمال غرب إيطاليا وتحديداً على الضفة الغربية لنهر البو PO وهي عاصمة إقليم بيمونت. Cander, Dictionary of Geography, PP. 576-677.

آكام الألب إلى سهول بيمونت واخذوا في شن الغارات على سهولها[١٥].

أغلق المسلمون طريق الألب إلى ايطاليا والذي كان يمر به آلاف الحجاج قاصدين روما ولم يسمحوا لهم بالمرور إلا بعد أن يتقاضوا منهم الأموال الباهظة[١٦]. وروى المؤرخ فلودوارد Flodoard أسقف ريمز Reims (٨٩٤-٩٦٦م) أن المسلمين في عام ٩٢١م أتوا على قافلة حجاج إنجليزية كانت ذاهبة إلى روما فلقوها في بعض أودية الألب واستأصلوها وبعد ذلك بعامين لقوا قافلة إنجليزية أخرى ففتكوا بها ثم أنهم في عام ٩٢٩م تصدوا لقافلة أخرى من الحجاج فاضطرت إلى الرجوع قبل الوقوع في أيديهم[١٧].

---

(15) Previte – Orton, Italy In The Tenth Century, In The Cambridge Medieval History, Vol. III, New York, 1922, Chapter VII, P.152.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 163.
- عبدالعظيم رمضان، الصراع بين العرب وأوربا منذ ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية ،، ص٢٠٠. محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٦٨.

(16) Robertson, History of The Christian Church, Vol. II, Third edition, London, 1868, P. 420.

- Previte – Orton, Italy In The Tenth Century, In Cam. Med. His, Vol. III, P.152.
- فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٤٨.

(17) Annales de Flodoard, ed. Lauer ph., Paris, 1905 a. 921, P.5-6, a.923, P.19, a. 929, PP.43-44.

فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٤٨-٢٤٩.
بالغ المؤرخون الأوربيون في وصف الهجمات التي قام بها مسلمو فراكسنيتوم وما نجم عنها من تنكيل بالأهالي والسكان؛ لذا لابد من توخي الحذر عند تعاملنا مع هذه الروايات خاصة وأن مؤرخي ذلك العصر كانوا من القساوسة ورجال الدين الذين غلب عليهم النظرة العدائية للإسلام والمسلمين لكن ذلك لا يجعلنا نرفض كل ما جاءت به هذه الروايات والأجدر بنا أن نشير إلى تباعد مسلمي فراكسنيتوم عن الأهداف الدينية الجليلة التي نادى بها الإسلام وهي الجهاد في سبيل الله واقترابهم إلى حد كبير من الأهداف الدنيوية والعمل على الفوز بالمغانم والأسلاب وجعلها هدفاً سياسياً وما يدل على ذلك ما أشارت إليه المصادر من منعهم الحجاج الذاهبين إلى روما من المرور لأداء المناسك المقدسة وغير ذلك من الأعمال التي يرفضها الإسلام والعقيدة القويمة.

اتسعت أراضي مسلمي فراكسنيتوم حتى أنها امتدت إلى الشمال والشرق واستولوا على ممر سانت برنارد العظيم وأسسوا مستوطنات لهم في سانت موريس St. Maurice وشمالي لومبارديا في إيطاليا وسانت جال St.Gall وخور "كور" Chur في سويسرة[١٨].

استمر مسلمو فراكسنيتوم في التقدم إلى أواسط أوربا فاندفعوا بهجماتهم إلى بيمونت ومونتفرات Montferrat في إيطاليا فيخبرنا مؤرخ دير نوفاليزا أنهم وصلوا في أوائل القرن العاشر الميلادي إلى حدود ليجوريا Liguria في إيطاليا على شاطئ خليج جنوة[١٩]. كما يذكر المؤرخ ليتوبراند أن مسلمي فراكسنيتوم قاموا في عام ٩٠٦م بغزو مدينة آكي Aqui من أعمال مونتفرات الشهيرة بحماماتها المعدنية وأنهم قاموا بغزوها مرة أخرى عام ٩٣٥م بقيادة زعيم لهم يدعى ساجيتوس Sagittus لكنهم هزموا وأنهم دخلوا جنوة وقتلوا ونهبوا وأسروا كثير من النساء والأطفال وروعوا المنطقة بأسرها[٢٠].

استمرت السرايا الإسلامية في الهبوط على سواحل فرنسا الجنوبية لاسيما البروفانس للإغارة والاستيلاء على الأموال والغنائم فقد كانت الأديرة والكنائس تغص بالأموال والنفائس لذلك كانت مطمح أنظارهم ففي عام ٩٠٨م/٢٩٦هـ هبطت سرية قوية من البحارة المسلمين على شاطئ البروفانس وانتشرت في جميع الأنحاء المجاورة ونهبت الأديرة واجتاحت ما في طريقها من الأراضي وهاجمت مرسيليا وهدمت كنيستها وغزت ايكس Aix وأسرت النساء للزواج منهن وهجر

([18]) Previte–Orton, The Early History, of the House of savoy P.5.
- Robertson, History of The Christian Church, Vol. II, P. 420.

فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٤٩-٢٥٠.

عبد الرحمن على الحجي: العلاقات الدبلوماسية مع أوربا الغربية، ص٢٧٣.

([19]) Chronicon Novalicienes, libri IV, P.67.
- Sismondi J., History of The Italian Republics in the Middle Ages, London, N. d, P.24.

ليجوريا: أحد اقاليم ايطاليا يقع في غرب البلاد ويطل على البحر الليجوري جنوباً ويحده شمالاً اقليم بيمونت وشرقا اقليمي إميليا رومانيا وتوسكانيا Tuscany وعاصمته جنوة.

- Cander Dictionary of Geography, P. 362.

([20]) Liudprand of Cremona, Antapodsis, Book II, Chapter XLIII, P.90, Book IV, Chapter IV, P.144.

- مدينة أكوي Aqui مدينة إيطاليا تبعد حوالي خمسين ميلاً من بافيا شمال إيطاليا.
- Liudprand of Cremona,Antapodsis,Book IV,Chapter IV, P.144.

الأهالي حصونهم وقصورهم خشية القتل والأسر فاحتلها المسلمون(٢١).

هاجم المسلمون في عام ٩٣٠م/ ٣١٨هـ فريجوس Frejus أكبر وامنع ثغور فرنسا الجنوبية(٢٢). وكذلك ثغر تولوز فهرب السكان إلى الجبال، وفي عام ٩٣٩م/٣٢٧هـ غزا المسلمون منطقة فاليس Valais في جنوب سويسرة ونهبوا أديرتها واتخذوها قاعدة لهم للإغارة على المناطق المحيطة في سويسرة وايطاليا ومنها اخترقوا منطقة جريزون Grisons إلى وسط وشرق سويسرة(٢٣). حتى وصلوا في غزواتهم إلى بحيرة جنيف وجاوزوها إلى مفارز جورا Jura الواقعة في شمالها المتاخمة لبرجنديا ، وانبسط المسلمون في المناطق الفسيحة بين بحيرة كونستانس Constance في الشمال الشرقي من سويسرة وبين مدينة كور Chur في شرق سويسرة(٢٤).

اشتدت وطأة المسلمين في تلك النواحي وعاثوا في الجهات المجاورة وأنزلوا الخراب والدمار بالمدن والحصون وأضرموا النيران في الأديرة والكنائس وحملوا معهم الغنائم والأسلاب وبلغ السخط من هجماتهم ذروته(٢٥). إلا أنه لم يكن هناك من يستطيع التصدي لهم وفشلت المحاولات الاوربية في مقاومتهم فلقد ضعفت

---

(21) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 166.

محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٦٨.

محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص١٩٣.

(22) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 167.

- Daniel N., The Arabs and Medieval Europe, London, 1975, P.52.

- محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٦٩.
- عبد العظيم رمضان ، الصراع بين الغرب وأوروبا ، ص ٢٠٠ ، محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس العصر الأول ، القسم الثاني ، ص ٤٦٩ .

(23) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 172.

(٢٤) محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين ، ص٢٠٠-٢٠١.

- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الاندلس في الاندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٦٩.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسره في أواسط القرن العاشر، ص٢٥١-٢٥٢.

(25) Chronicon Novalicienes, libri IV, PP.59-60.

محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٦٩.

محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص١٩٥.

السلطة المركزية في المقاطعات وكان لكل بلدة قلعة غير محصنة وتركت الأديرة للدفاع عن نفسها[٢٦]. وحارب القادة منفردين في الوقت الذي كان يجب توحدهم لمواجهة ذلك الخطر لكنهم انشغلوا بمنافسة بعضهم البعض ومنافسة الملك في الوقت الذي انضم إلى المسلمين عدد من سكان تلك المناطق بالإضافة إلى الأمراء الذين استعانوا بهم في قتال بعضهم البعض[٢٧].

وبذلك نرى أن نفوذ مسلمي فراكسنيتوم امتد خلال القرن العاشر الميلادي، الرابع الهجري الي مناطق البروفانس وسافوي Savoy وسويسرة وسيطروا على ممرات جبال الألب وعلى الحدود بين جنوبي فرنسا ولومبارديا في شمال ايطاليا وبينها وبين سويسرة واستولوا في سويسرة على ولاية فاليس وبعض جهات كور واحتلوا في ايطاليا ولاية ليجوريا بعد أن اخترقوا إلى بيمونت ومونتفرات بايطاليا وأنشأوا مراكزاً وقواعداً وحصوناً لتكون نقط انطلاق لهم في شمال أيطاليا وسويسرة مثلما فعلوا في البروفانس وجنوبي فرنسا حتى أصبحت البلاد الواقعة بين نهري البو Po والرونRhon مجالاً لغاراتهم[٢٨].

المحاولات التي قامت بها القوى المسيحية الغربية للقضاء على مسلمي فراكسنيتوم

أثارت الإغارات التي قام بها مسلمو فراكسنيتوم وما تبعها من تدمير وتخريب ضد مناطق جنوب فرنسا وسويسرة وشمال ايطاليا حنق الشعب المسيحي بصفة عامة والحكام بصفة خاصة وقامت عدة محاولات للقضاء على المسلمين في تلك الجهات لكنها لم تحقق الأهداف المرجوة منها وكانت أولها ما قام به

([26]) Gregorovius, History of the City of Rome, Book VI, Chapter1, P. 262.

([27]) Previte – Orton, Italy In The Tenth Century, P. 152.

- Bruce, An abbot between two Cultures, P. 430.
- شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا، ص١٦٩ ، عبد الرحمن على الحجى، العلاقات الدبلوماسية مع أوروبا الغربية ، ص ١٧٣ .

([٢٨]) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٧٠.

- محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص٢٠١-٢٠٢.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسره في أواسط القرن العاشر، ص٢٤٧.
- Keappen ., The World in The Middle Age, P. 52.
- سافويSavoy: منطقة في أوربا الغربية تقع بين بحيرة جنيف Geneve في الشمال وموناكو Monaco وساحل البحر المتوسط في الجنوب وكانت تابعة لمملكة برجنديا في تلك الفترة
- Cander., Dictionary of Geography, P. 574.

البيزنطيون عام ٩٣١م/٣١٩ هـ إذ استطاع الأسطول البيزنطي أن يهاجم معقل المسلمين في فراكسنتيوم على ساحل البروفانس وهو المعقل الذي ربما كان المسلمون يتصدون منه لتجارة المدن الساحلية الإيطالية إلا أن هذا الأسطول فشل في تحقيق أهدافه ولم تؤد هذه المواجهات إلى نتائج حاسمة بسبب حاجة الأسطول إلى مساعدة من القوات البرية(٢٩).

أدى الضعف السياسي لإيطاليا إلى زيادة الطامعين في عرشها فقام هيو كونت البروفانس بالاستيلاء على عرش المملكة اللومباردية وذلك بناء على استدعاء الإيطاليين له وتوج ملكاً عام ٩٢٦م(٣٠).

ازدادت هجمات مسلمي فراكسنيتوم على ممرات الألب الغربية وازداد صريخ رعايا الملك هيو مما عانوه من عيث العرب فصحت عزيمته للقضاء عليهم ومهاجمة حصنهم المنيع فراكسنيتوم الذي يلوذون به ويتخذون منه قاعدة لتأمين مواصلاتهم مع الأندلس من ناحية ومع أفريقيا من ناحية أخرى ومركزاً للهجوم على الجهات الداخلية(٣١).

---

(29) Annales de Flodoard, a. 931, P.47.
- Liudprand, Antapodosis, Book IV, Chapter 4, P. 144.
- Previte – Orton, Italy In The Tenth Century, In (Cam. Med. Hist., III), P.155.
- أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) ترجمة أحمد عيسى مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت، ص٢٣٤.

(30) Regesta Chronologico– Diplomatica Karolorum,ed. Bohmer, Frankfort,1833, P. 129.
- Liudprand of Cremona, Antapodsis, Book III, Chapter XII, P. 114.
- Arnulf of Milan, The Book of Recent Deeds, Trans by North N.w, From The Edition of Claudia Zey (MGH. Scripteres Rerum Germanicarum 67), Hannover, 1994, Book1, Chapter1.

(٣١) محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٦٩.
- محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص١٩٦.
- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 176.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٥٣.

لذلك أرسل الملك هيو إلى القسطنطينية للتحالف مع الامبراطور البيزنطي رومانوس الأول ليكابنوس[٣٢] Romanus LLecapenus (٩٢٠-٩٤٤م) ضد مسلمي فراكسنيتوم الذين ازدادت هجماتهم على ممرات الألب حتى وصلت إلى سوابيا كما أنهم أزعجوا البيزنطيين بحراً أيضاً وليطلب منه امداده بالنار الإغريقية التي تحرق السفن وأراد هيو تطويق المسلمين من ناحيتي البر والبحر فعندما يقوم هو بمهاجمتهم براً يقوم البيزنطيون بحصارهم بحراً وبذلك يمنع بالكامل وصول أي امدادات غذائية أو عسكرية لهم من أسبانيا[٣٣].

---

(٣٢) ارتبط الملك هيو بعلاقات وطيدة مع القسطنطينية وذلك يخالف ما عرف عن طبيعة العلاقات العدائية التي غلبت على الفترات السابقة بين حكام ايطاليا والأباطرة البيزنطيين وربما يرجع ذلك إلى حاجته لتدعيم حكمه فقد كان يعاني اضطرابات كثيرة ومنافسين له لذلك عمل على التحالف مع الامبراطور البيزنطي بعد أن مكن البيزنطيين مع استعادة أملاكهم المفقودة في أبوليا في جنوب ايطاليا وأكد هذا التحالف بزواج ابنته من الامبراطور البيزنطي القادم رومانوس الثاني Romanus II وقد استجاب البيزنطيون لطلب هيو في التحالف ضد المسلمين لأنهم عانوا أيضاً كثيراً من هجمات المسلمين على أملاكهم.

- Liudprand of Cremona, Antapodosis, Book V, Chapter XIV, P. 184.
- Previte – Orton, Italy In The Tenth Century, In (Cam. Med. Hist. III), P.155.

(33) Liudprand of Cremona, Antapodosis, Book V, Chapter IX, PP. 181-182.
- Annales de Flodoard, a. 942, P.84.
- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 176-178.

النار الاغريقية اختراع لمهندس يوناني من أصل سوري يدعى كالينكوس

والنار عبارة عن مخلوط كيماوى قابل للاشتعال يجرى قذفه بانابيب خاصة فاذا احتك بسفينة العدو اشتعلت واحترقت ومن خصائص هذه النيران أنها تستعمل في الماء.

Oman,C.Ahistory of The Art of War in The Middle Ages,vol .2,London 1924,pp.206- 209

لويس أرشيبالد القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ،ترجمةأحمد عيسى القاهرة ١٩٦٠ ص٩٧

وافق البيزنطيون على خطة الملك هيو لذلك جمع هيو جيشه عام ٩٤٢م/ ٣٣١هـ ومضى براً من ناحية بافيا في شمال ايطاليا ووصل الأسطول البيزنطي إلى خليج سانت تروبيز St. tropez على ساحل البروفانس وحاصر سفن المسلمين واستطاع حرقها بالنار الإغريقية مما أدى لتدميرها بالكامل في الوقت الذي استطاع الملك هيو وجيشه أن يشق طريقه بالقوة إلى حصنهم المنيع وأرغم المسلمين على التراجع إلى جبال المور (موروس) المجاورة والاعتصام بالآكام والربى وكانت النتائج تنذر بالقضاء الحاسم على مسلمي فراكسنيتوم واستئصال شأفتهم إلا أن الظروف التي كانت تمر بها ايطاليا حالت دون ذلك وأدت لفشل المحاولة الثانية للقضاء عليهم[٣٤].

كان برنجار الثانيBrenger II ماركيز افرياIvrea الواقعة في شمال غرب ايطاليا منافساً قوياً للملك هيو في ايطاليا فهو الحفيد والوريث الشرعي للإمبراطور برنجار الأول (٩١٥-٩٢٤م)[٣٥]. وأراد الاستيلاء على العرش الايطالي فقام الملك هيو بمحاولة قتله عندما رأى ازدياد نفوذه فهرب برنجار الثاني عبر المضائق الجبلية الوعرة لممر القديس برنارد العظيم[٣٦]. إلى دوقية سوابيا Swabia

---

([34]) Liudprand of Cremona, Antapodosis, Book V, Chapter XVI, PP. 186-187.
- Annales de Flodoard, a. 942, P.84.
- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 176-179.
- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P. 139.

(٣٥) استولى برنجار الأول حاكم ماركية فريولي وحفيد الإمبراطور لويس التقي (٨١٤-٨٤٠م)- من ناحية أمه جزيلا ابنه الامبراطور- على حكم ايطاليا عام ٨٨٨م وتوج امبراطوراً عام ٩١٥م وفي عام ٩٢٢م استدعى النبلاء الإيطاليون رودولف الثاني ملك برجنديا وطلبوا منه طرد برنجار والاستيلاء على العرش وحدث ذلك فعلاً وتوج رودولف ملكاً على ايطاليا في نفس العام وظل برنجار الأول محتجزاً في ملكه في ماركية فريولي حتى مقتله عام ٩٢٤م.
- Regesta Chronologico, Diplomatica karolorum PP. 122- 129.

(٣٦) يعتبر ممر القديس برنارد العظيم أهم وأعظم ممر خلال جبال الألب الغربية ويمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي لايطاليا خلال فاليس الألب Valais Ales المعروفة سابقاً بأبنينيس الألبApenine Alps وتأتي أهمية هذا الممر من أنه يربط

الألمانية فاصطحبه دوقها إلي بلاط الملك أوتو الأول Otto1 (٩٣٦-٩٧٣م) ملك المانيا الذي استقبله استقبالاً حسناً وأمده بالأموال والقوات التي تمكنه من دخول ايطاليا ومواجهة الملك هيو بعد أن حصل منه على قسم الولاء والتبعية(٣٧)، وعندما علم الملك هيو بذلك عدل عن عداوة المسلمين المتحكمين في تلك الطرق التي تربط بين ايطاليا وسوابيا إلى مسالمتهم لأنه كان يخشى أن يتمكن برنجار من جمع القوات من فرنسا وألمانيا وينقض على ايطاليا ويغتصب منه عرشه لذلك أثر مصالحه الخاصة على المصلحة العامة وأمر بعودة البيزنطيين إلى بلادهم وأوقف مشروعاته ضد المسلمين وأبرم معهم معاهدة ترتب عليها الاعتراف لهم بحق البقاء في مواقعهم في جبال الألب وممراتها بشرط أن يمنعوا خصمه برنجار الثاني من المرور إذا حدث وقاد جيشه خلال ذلك الطريق إلى ايطاليا(٣٨).

بذلك اقتنع الملك هيو بأنه من الأفضل له محالفة المسلمين واتخاذهم سنداً له ضد منافسه برنجار الثاني وذلك لمعرفة المسلمين بتلك المناطق بعد أن تمرسوا

بين سويسرة Switzerlano وإيطاليا عن طريق اقليم فاليس السويسري ووادي أوستا الايطالي Aosta وبذلك يعتبر المدخل الرئيسي الايطالي.

- The Columbia Encyclopedia, Second Edition, New York, 1950, PP. 1731- 1732.

(37) Widukindi Monachi Corbeiensis, Rerum Gestarum Saxonicarum, Liber Tres, ed. Lohman, MGH, Hannoverae, 1935, Liber III, Chapter II, P. 110, Liudprand, of Cremona Antapodosis, Book V, Chapter X-XII, P. 182-184.
- Gregorovius, History of the City of Rome Vol. III, Book VI, Chapter2, P.320.

(38) Liudprand, Antaposis, Book V, Chapter XVII, P. 187.
- Annales de Flodoard, a. 942, P.84.
- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 176-179.
- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P. 139.
- محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٧٠.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٥٤.
- Previte – Orton, Italy In The Tenth Century, In (Cam. Med. Hist. III), P.155.

على الحرب بها والتحكم في دروبها وممراتها والمناطق المجاورة وغدى بوسعهم إغلاق هذه الممرات في وجه من يريدون[٣٩]. وكانت نتائج المعاهدة التي أبرمها هيو ملك ايطاليا في صالح مسلمي فراكسنيتوم فلقد جاءت كاعتراف من السلطة الإيطالية بشرعية وجودهم في مواقعهم لذلك استعادوا قلاعهم وحصونهم وسيادتهم في جنوب البروفانس وازدادت جرأتهم واستقرت أقدامهم في البلاد كأنهم سيلبثون فيها أبداً وواصلوا مشروعاتهم التوسعية في تلك الجهات وزادت سيطرتهم على ممرات الألب وفرضوا المكوس والضرائب على المسافرين وتقدم المسلمون بعد ذلك إلى نيس أونيقة التابعة يومئذ لمملكة آرل ولا يزال إلى اليوم حي يعرف بحي العرب Canton des sarrazims ثم نفذوا إلى المناطق التي تجري فيها روافد نهر الرون بعد أن استولوا على جرينوبل Grenoble وواديها الخصيب وشكلوا عنصراً هاماً في الأحداث في تلك الأنحاء بعد أن تزوجوا من السكان المحليين وأخذوا يزرعون ويحرثون الأرض كسائر الفلاحين وأصبحت لهم سطوة بين السكان وتحكموا في المرور بين فرنسا وايطاليا وبين سويسرة وايطاليا[٤٠].

قامت عدة محاولات أخرى لطرد مسلمي فراكسنيتوم منها ما قام به الأمراء والزعماء والأهالي في البروفانس بعد أن أدت إغارات المسلمين على المناطق المجاورة إلى تأليب سادة هذه الجهات لحربهم ومحاولة طردهم من مستعمراتهم الجديدة، فقد جمع كونت البروفانس وبعض سادة المناطق المجاورة قوات كبيرة واتفقوا على مواجهة المسلمين والقضاء عليهم[٤١].

ويذكر مؤرخ دير نوفاليزا تفاصيل ذلك قائلاً "إن العرب كان يسبون النساء والأطفال والخيل وغير ذلك وكان قد دخل معهم آفاق يدعى أيمون Aymon طمعاً في الغنائم وفي ذات يوم وقعت بين السبايا امرأة فائقة الجمال فأستأثر بها أيمون لنفسه، فجاء أحد زعماء المسلمين وانتزع تلك الجميلة من يد أيمون بالقوة فغضب وثار للانتقام منهم وذهب إلى الكونت روتبلدسRotbadus صاحب السيادة في

([٣٩]) محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص١٩٧.

([40]) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 180-181.

- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٥٤-٢٥٥.
- عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوربا، ص٢٠١.
- محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص١٩٨-١٩٩.

([41]) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 182.

- محمد مرسي الشيخ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص ٢٠٢-٢٠٣.

البروفانس العليا وأخبره سراً عن الرغبة في طرد المسلمين من البلاد وكان للمسلمين جواسيس في كل مكان فعمل أيمون على إخفاء مخططة بكل وسيلة ممكنه حتى تمكن من استنفار الناس بدون أن يشعر المسلمين واجتمع الزعماء والأمراء وقادوا الأهالي وهاجموهم وأخمدوا جمرتهم ورفعوا نيرهم عن أعناق الأهالي(٤٢)".

نزلت بالمسلمين تلك الكارثة بعد أن أخذوا على غرة فاضطروا إلى الجلاء عن كثير من قلاعهم وحصونهم في تلك الجهات واستولى عليها الاوربيون الذين استمروا في مطاردتهم ووضعوا بذلك حداً لإغارات المسلمين وتوسعهم في لومبارديا وشمال ايطاليا وعلى حدود ليجوريا.

قامت محاولة أخرى للقضاء على مسلمي فراكسنيتوم عام ٩٥٢م/٣٤١هـ في جورا Jura في سويسرة وتذكر الروايات المعاصرة أن كونراد الأول(٩٣٧-٩٩٣م) ملك برجنديا عاني كثيراً من إغارات مسلمي فراكسنيتوم بالإضافة إلى الهنغاريين الذين اكتسحوا الألزاس وصارت جميع بلاد جورا مُعرضة لغزواتهم(٤٣). لذلك فكر في التخلص منهما معاً بالحيلة والدهاء فأرسل رسالة إلى المسلمين يحرضهم على محاربة الهنغاريين وانتزاع ما بأيديهم من أراضي وضياع وفي نفس الوقت أرسل إلى الهنغاريين يستحثهم على حرب المسلمين ومحاولة إجلائهم من قلاعهم وحصونهم وامتلاكها لأنفسهم واقترح على كل فريق مكاناً يصلح للقاء والمعركة وفي نفس الوقت جهز جيشه وأخذ يترقب ما سوف تسفر عنه الأحداث(٤٤).

تم فعلاً ما خطط له الملك كونراد فاشتبك المسلمون مع الهنغاريين في حرب ضروس هلك فيها جمع كبير من الفريقين وعندئذ انقض كونراد بقواته فبدد شمل الباقين من الفريقين وبذلك تخلص من عدويه معاً(٤٥). وبالرغم من أن الرواية لم تحدد المكان الذي تمت فيه المعركة والذي كان قد اقترحه كونراد على الفريقين إلا

---

(42) Chronicon Novalicienes, lipri IV, PP.71-72.
- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P. 146.

(43) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 183.
جورا: عبارة عن سلسلة من الجبال تمتد من الشمال الى الغرب ويحدها بحيرة جنيف على طول حدود فرنسا وسويسرة حتى الوصول الى الجزء الفرنسى من نهر الراين
Cander., Dictionary of Geography, P.338.

(44) Chronicon Novalicienes, libri IV, PP.56-85.

(45) Chronicon Novalicienes, libri IV, PP.56-85.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٥٧.

أن من المعتقد أنه كان في سافوى لأنها نقطة متوسطة بين أملاك المسلمين في البروفاس وأملاك الهنغاريين في الإلزاس[٤٦].

على الرغم من تلك المواجهات العسكرية التي تمت بين مسلمي فراكسنيتوم والقوى السياسية المعاصرة فلازال المسلمون يحتلون مواقع كثيرة في سويسرة وفي معابر الألب الغربية[٤٧] وذلك يرجع إلى قوة بأسهم وتمرسهم في حرب العصابات وبراعتهم في القتال في الجبال والآكام مما أدى إلى استمرار تلك المواجهات للقضاء التام عليهم[٤٨]. فلقد ذكر مؤرخ سانت جال Saint Gall أن رئيس دير سانت جال الذي كان يدعى فالتون Waltone جمع عدداً من الرجال الأشداء وسلحهم بالحراب والفئوس وهاجموا المسلمين بغته فقتلوا كثيراً منهم وقبضوا على الباقين وأخذوهم إلى الدير فرفض هؤلاء أن يأكلوا أو يشربوا حتى هلكوا جوعاً[٤٩].

على الرغم من تلك المواجهة فقد ارتد كثير من المسلمين إلى حصونهم وظلت الامدادات تصل إليهم من الأندلس ومن المغرب التي تمدهم بأسباب الجرأة والقوة على أن هذا الوجود العربي الإسلامي في تلك المناطق الأوربية لم يلبث أن أخذ يقترب من نهايته منذ منتصف القرن العاشر الميلادي [٥٠] فقد حدثت مواجهة أخرى معهم عام ٩٥٦م اسفرت عن طردهم من مدينة جرينوبل ومن واديها الخصيب، بعد أن قام أحد أساقفة هذه المدينة ويدعى إيزارون Isarn باستنهاض الهمم لتجميع القوات لقتال المسلمين عن طريق الوعود التي وعد بها الناس بتقاسم أملاك المسلمين الخصبة إذا هم ظفروا بالنصر عليهم وتقاسمها بينهم كل بحسب شجاعته في القتال واقدامه على الحرب حتى تشجع الناس وقاتلوا بحماسة كبيرة أدت إلى انتصارهم على المسلمين وتوزيع أملاكهم فيما بينهم مما أدى إلى ثراء بعض العائلات وإعلان ايزارون نفسه أميراً على جرينوبل وعلى واديها الخصيب[٥١].

---

(46) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 184.

(٤٧) فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٥٧.

(٤٨) محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص٢٠٤.

(49) Monumenta Germaniae Historica Scriptorum II, ed. Pertz, Hannoverae, 1829, PP.137-138.

(٥٠) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٧١-٤٧٢.

(51) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 198.

- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس،العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٧٣.

وفي عام ٩٦١م اضطر المسلمون للخروج من معاقلهم في ممر سانت برنارد وعلى الرغم من أنه لا توجد تفاصيل عن تلك الواقعة إلا أنه من المعتقد أن المسيحيين تجمعوا في تلك الأنحاء لحرب المسلمين وطردهم من ذلك المعقل المهم الذي يتحكم في المرور بين سويسرة وإيطاليا ويربط إيطاليا ببقية دول أوربا ويبدو أن القديس برنارد الذي بني له حصناً في أعلى ذلك الجبل ونسبت إليه سلسلة هذه الجبال كلها كان أحد قادة تلك المعركة التي أدت إلى طردهم من تلك المنطقة(٥٢).

بذلك نرى أن استقرار المسلمين في تلك البقاع الأوروبية أخذ في التراجع وأن ذلك التقهقر كان يزيد من أطماع الأهالي في التخلص منهم والقضاء عليهم تماماً، ففي عام ٩٦٨م نادى أوتو الأول ملك ألمانيا بهذا المشروع وكان يخطط له، وذلك بعدما ازدادت قوته ونجح في إخضاع ما حوله من الشعوب وتأمين حدوده وهزيمة الهنغاريين في موقعة ليخفيلد Lechfeld عام٩٥٥م(٥٣). كما استطاع أن يفرض سيطرته على منطقة برجنديا عام ٩٤١م(٥٤)، وعلى لومبارديا في شمال

- عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوربا، ص٢٠١.

(52) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 195.

- محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٧٢-٤٧٣.
- محمد مرسي الشيخ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص٢٠٦.

(53) Widukindi Monachi Corbeiensis, , Liber III, Chapter 70, PP. 146-147.

وضع أوتو الأول حداً لغارات الهنغاريين المدمرة على أوربا الغربية بعد انتصاره الكبير عليهم في معركة ليخفيلد وأزال خطرهم وحقق بذلك شهرة كبيرة وتبوأ موقع الزعامة في أوربا مما مهد لتتويجه الإمبراطوري في الثاني من فبراير عام ٩٦٢م . عن تفاصيل ذلك انظر:

Widukindi Monachi Corbeiensis, Liber III, Chapter 70, PP. 126- 128.

Thietmari Merseburgensis, Episcopi Chronicon, Rerum Germanicarum in Usum Scholarum ex monumentis Germaniae Historicis Recusi, ed. Kurze F., Hannoverae, 1889, Liber III, Ch. 10, P. 23-24.

(٥٤) قام أوتو الأول عام ٩٣٨م بغزو برجنديا وأخذ الملك كونراد الشاب بن رودولف الثاني الوريث الشرعي لعرش برجنديا أسيراً إلى ألمانيا وبقى مدة ثلاث سنوات هناك تابعاً له يخضع لأوامره وبذلك استولى أوتو الأول على الملك والمملكة.

إيطاليا عام٩٥١م وأصبح حكام هذه المناطق أفصالاً إقطاعيين يدينون بالولاء والتبعية له[٥٥].

شكى الرهبان والأمراء في البروفانس وشمال إيطاليا إلى الملك أوتو الأول من غارات المسلمين المدمرة والذين ألفوا سكنى الجبال والغابات والسير في الأدغال والأحراش مما أدى إلى توسعهم في غاراتهم على تلك المناطق وأسسوا المزيد من الحصون وهددوا المسافرين عبر جبال الألب وأصبحوا يمثلون مصدر رعب وخطر كبير هدد القوى الأوربية المجاورة لهم عندما هاجموا الأديرة وأسروا الرهبان والنساء وانضم إليهم العديد من سكان تلك المناطق ولجأ إليهم العديد من الثائرين الذين طلبوا مساعدتهم ضد منافسيهم وتضرر أوتو الأول منهم عندما هرب أدالبيرت الثاني Adelpert II بن برنجار الثاني وشريكه في حكم إيطاليا أثناء مطاردة أوتو الأول له بسبب تمرده عليه ونقض يمين الولاء والتبعية الذي أداه له وإثارة القلاقل في إيطاليا ولجوئه إلى مسلمي فراكسنيتوم وطلب مساعدتهم وحمايته ضد الملك الألماني[٥٦].

كما تعرضت بعض أملاك ألمانيا للخراب نتيجة لغارات المسلمين عليها فتوجد كتابة في دورنبورج Dornburg مؤرخة بعام ٩٥٥م تفيد أن الإمبراطور أوتو الأول كان عائداً من إيطاليا فشاهد بعينيه آثار تخريب المسلمين وبناء على التماس

- Widukindi, Liber II, Chapter 35, PP. 94 - 95.
- Annales de Flodoard, a. 940, P.78.
- Barraclough G., The Origins of Modern Germany, Oxford, 1947, PP. 50-51.

(٥٥) قام الملك أوتو الأول بحملة لغزو إيطاليا عام ٩٥١م وحاصر بافيا Pavia عاصمة اللومبارديين ودخلها منتصراً في سبتمبر من نفس العام واستولى على التاج اللومباردي وتوج ملكاً على اللومبارديين وأدى برنجار الثاني ملك إيطاليا يمين الولاء والتبعية له وأصبح فصلاً إقطاعياً لملك ألمانيا الذي أرغمه على التنازل عن حقوقه في حكم إيطاليا.

Widukindi, Liber III, Chapter 9-10, PP. 109- 110.
Thietmar Chronicon, Liber II, Chapter 5, P.21.
Annales de Flodoard, a. 951, P.131.

(56) Liudprand of Cremona, Gestis Ottonis, Chapter 4, PP. 216-217.
- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France,PP.158-167, 1980.

أخيه برونو رئيس أساقفة كولونيا أنعم على دير كور Chur بهبات كثيرة، وكان ذلك من قبيل نذر نذره من أجل عودته موفقاً من إيطاليا عن طريق جبال الألب وأتبع ذلك هبات أخرى كثيرة، كما شكا أساقفة كور من غارات المسلمين المدمرة على أملاكهم فأقطعهم أوتو الأول أملاكاً على سبيل تعويضهم مما لحق بهم من أضرار وذلك بموجب مرسوم مؤرخ بعام ٩٥٦م(٥٧).

اعتبر أوتو الأول أن مسلمي فراكسنيتوم تابعين لخليفة الأندلس ويحظوا بحمايته وتأييده(٥٨)، وهو آنذاك عبدالرحمن الثالث الناصر لدين الله(٥٩)، والذي كان في ذلك الوقت قد بلغ مكانه كبيرة في العالم الإسلامي، وأصبح يمثل أكبر قوة للإسلام في الغرب، وهذا ما دفع أوتو الأول لإقامة علاقات سياسية معه بهدف وقف اعتداءات مسلمي فراكسنيتوم عن برجنديا ولومبارديا وجنوب فرنسا، وقد اتجه أوتو الأول للطرق السلمية في البداية للوصول إلى أهدافه لانشغاله بمشاكله الداخلية والخارجية، واعتمد على المفاوضات الدبلوماسية مع الخليفة الأندلسى لردعهم، وقد تحدثت المصادر عن تلك السفارات التي أرسلها أوتو الأول والتى كان أهمها سفارة يوحنا الجورزى Johan of Gorze عام ٩٥٦/٣٤٤هـ والتي بدأها أوتو الأول

---

(57) Diplomatum Regum et Imperatorum Germaniae, Tomus 1, in Monumenta Germaniae Historica, Hannoverae, 1879-1884, PP. 256-257.

- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, PP. 174-175.

- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٥٥-٢٥٦.

(58) Liudprand of Cremona, Antapodsis,Book 1,Chapter II,P.33.

(٥٩) عبدالرحمن الناصر هو إبن محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالرحمن أمير الأندلس تولى الخلافة في غرة ربيع الأول ٣٠٠- ٣٥٠هـ/ ٩١٢-٩٦١م بعد وفاة جده عبدالله وكان آنذاك لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره لكنه أظهر نبوغاً في العلم والمعرفة ومهارة في الحرب والفروسية وبراعة في النحو والشعر والتاريخ وهو ما خول أنظار الناس إليه وتعلقت به آمالهم للنهوض بالخلافة الأموية في الأندلس من نير الفتن والاضطرابات وكان هو أول من تلقب بأمير المؤمنين في الأندلس، وقد بلغت الأندلس في عهده مكانة كبيرة بعد أن أخمد الثورات في الداخل وأذعن له الأعداء في الخارج وجاءته السفارات من كل البلدان تتقرب إليه وتخطب وده.

ابن خلدون، العبر، ج٤، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١٧٦

محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٣٧٣-٤٦٣.

إلى عبد الرحمن الناصر ويشكو فيها من غارات مسلمي فراكسنيتوم على رعاياه ويطلب فيها منه التدخل لقمع عدوانهم واستعمال نفوذه للحد من خطرهم لكن عبدالرحمن الناصر اعتذر عن تلبية طلبه وذلك لأن تلك المستعمرات الإسلامية لا تدخل في نطاق سلطته ولا يملك أي نفوذ عليها(٦٠).

نلاحظ أن ما ذكره عبدالرحمن الناصر يتناقض مع ما ذكرته المصادر الغربية المعاصرة فيؤكد المؤرخ ليتوبراند الذي عاش في تلك الفترة وكان شاهد عيان لأحداثها أن إمارة فراكسنيتوم كانت تحت حماية عبدالرحمن الناصر خليفة قرطبة ويمدها بالتشجيع والعون(٦١)، وربما ذلك هو ما حمل أوتو الأول إلى التجهيز لحملة كبيرة ضد مسلمي فراكسنيتوم، وجاء ذلك في الخطاب الذي أرسله من إيطاليا إلى قادته في ألمانيا عام ٩٦٨م لكن انشغاله بمشاكله الداخلية والخارجية حال دون ذلك(٦٢).

---

(60) Vita Johannis abbatis Gorziensis abbatis Gorziensis auctoro Johanno Abbato S. Arnulf, MGH, SS., IV, ed., Pertz, Hannoverae, 1841, PP. 369-377, Daniel, The Arabs and Medieval, Europe, PP. 65-69.

O' Callaghan J.F, A History of Medieval Spain, New York, 1975, PP. 119-120

ابن خلدون، العبر، ج٤، ص١٨٣.

المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ح١، ط١، المطبعة الأزهرية، ١٣٠٢هـ، ص١٧٠، ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلسي والمغرب، ج٢، تحقيق ومراجعة كولون، ج.س، ليفي بروفنسال، ط٣، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣، ص٢١٨.

Leyser. K, Communication and Power in Medieval Europe, ed., Reuter T. London, 1994, PP. 126- 135.

عبدالمجيد نعنعي، الدولة الأموية في الأندلس، التاريخ السياسي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٦، ص٣٧٤، ٣٧٥.

عبدالرحمن على الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ط٢، دار القلم، دمشق، بيروت، ١٤٠٢هـ، ١٩٨١م، ص٣١٩.

(61) Antapodsis, Book1, Chapter II, P.33.

(62)Widukindi Monachi Corbeiensis, Liber III, Chapter 70, PP.146-147.

وبذلك فشلت المحاولات العديدة العسكرية والسلمية التى قامت بها القوى الاوربية للقضاء عل مسلمي فراكسنيتوم حتى وقعت حادثة مهمة كانت بداية النهاية لوجودهم في تلك البقاع.

حادثة القديس مايول St. Maioli

كانت سيطرة مسلمي فراكسنيتوم على ممرات الألب وآكامها تمثل خطراً كبيراً هدد الاوربيين في بلاد غرب أوربا، وذلك لأنها تتحكم في الطرق الموصلة إلى المزارات والأماكن المقدسة في روما التي يقصدها الحجاج المسيحيين كما أنها تعتبر طريق تجاري هام للمسافرين يربط بين إيطاليا وبقية دول أوربا يسلكه التجار سعياً وراء الربح الذي سيحصلون عليه من تجارتهم[٦٣]، وقد استغل المسلمون تلك المميزات في فرض المكوس والضرائب والإتاوات، وقاموا بالتعرض بالأسر أو القتل لمن يرفض الإذعان لابتزازهم وهكذا ابتعدوا عن الأهداف السامية التي خرجوا من أجلها والتي دعي لها الإسلام مما أدى إلى ازدياد الحنق عليهم والرغبة في الانتقام منهم والقضاء عليهم وذلك في الثلث الخير من القرن العاشر الميلادي[٦٤].

في تلك الفترة اشتهر رجل بصفاته الكريمة وأعماله الجليلة وكان يذكر اسمه دائماً مقروناً بالتبجيل وبلغ من شهرته بالفضائل أن تحدث الناس بانتخابه لمنصب البابوية وهو القديس مايول St. Maioli الذي كان راهباً(٩٥٤-٩٩٤م)، في دير كلوني Cluny الشهير في برجنديا(*). وقد قام مايول بالذهاب إلى روما للحج وزيادة الأضرحة المقدسة وانضم إليه وهو عائد عدد غفير من الحجاج القافلين من روما رغبة في صحبته والاحتماء به من خطر المسلمين الذين كانوا يحتلون البلاد الواقعة بين جاب Gap وإمبران Embrun ويتمركزون في أعالي وادي دراك

- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P.5.
- Cam. Med. His, Vol. III, P.168.

(63) Bruce, An abbot between two Cultures, PP. 429-430.

(٦٤) محمد مرسي الشيخ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص٢٠٧.

(*) قام دير كلونى بدور هام في عملية الاصلاح الكنسى وتحرير الكنيسة من سيطرة الحكام العلمانيين ونفوذهم واستطاع دير كلونى أن يتزعم مجموعة من الاديرة ذات الطابع الخاص التى نجحت في أن تحرر نفسها من سيطرة الأساقفة المحليين ، لتصبح تحت السيطرة المباشرة للبابا وكان مقدم دير كلونى لـه الحق في تعيين رؤساء هذه الأديرة وبذلك أصبح دير كلونى بمثابة الدير الرئيسى العام في هذا التنظيم الكلونى الجديد.
سعيد عاشور،أوربا العصور الوسطى ، الجزء الثانى ، النظم والحضارة ، مكتبة الأنجلو المصرية ،١٩٩١،ص٣٥-٣٦ .

Drac[(١٥)] .

عبر القديس مايول ورفاقه في ٢٢ يوليو عام ٩٧٢م مرتفعات جبال الألب حتى وصلوا إلى قرية واقعة إلى الشمال من معبر سانت برنارد العظيم على ضفة نهر درانس Drance تسمى بونز أرساري Pons Arsarii وعندما وصلوا إلى ضفاف الوادي سائرين في الوادي المنحصرة بين الجبل والنهر انقض عليهم المسلمون وحصرهم وقبضوا عليهم وأوثقوهم بالقيود وجردوهم من كل ما يملكون ثم ساقوهم إلى أحد الكهوف وسجنوهم فيه وأصيب القديس مايول بجرح غائر في يده عندما أراد أن يفتدي أحد رفاقه من طعنة وجهها له المسلمون، ولقد عرف المسلمون في القديس مايول الصلاح والتقى وظنوا أنه من أثرياء القوم فسألوه عن ذلك فأجابهم أنه كان منهم لكن زهد كل ما يملك فتجرد من أملاكه وتفرغ لعبادة الله وهو الآن راهب في دير ذي أملاك وأراضي كثيرة فساوموه على فداء نفسه بألف قطعة من الفضة وطلبوا منه أن يرسل أحد رفاقه إلى ديركلوني لجمع الفدية وحددوا له موعداً لا يتأخر عنه إلا عرض نفسه ورفاقه للقتل[(٦٦)].

كتب القديس مايول إلى رفاقه في الدير قائلاً: "مايول التعس الأسير، يرسل التحيات إلى القادة والأخوة، رهبان ديركلوني، قد أحاط بي حشود من Belial[(٦٧)]

[(65)] Syrus[, Vita Sancti Maioli, in Agnimmaculati, Paris, 1988, III, 5, P. 253.
- Rodulphus Glaber, Historiarum, Libri Quinque 1, 4, 9, ed., and Trans, John France, in Rodulphus Glaber, The Five Books of Histories and The Life of Abbot William, Oxford, 1989, PP. 18-24.
- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 201.

[(66)] Rodulphus Glaber, Historiarum, libri Quinque 1, 4, 9, PP. 18-20.
- Syrus, Vita Sancti Maioli, III, 5, P. 253.
- Bruce, An abbot between two Cultures, PP. 426-432.
- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 201- 203.
- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P.146

[(٦٧)] استعمل مايول في خطابه كلمة Belial للدلالة على المسلمين والتي تعني أبناء إسماعيل وشاع ذلك الوصف للمسلمين عند الغرب الأوروبي.
- Bruce, An abbot between two Cultures, PP. 434.

وقبضوا على، لذلك أرجو منكم بكل الوسائل إرسال الفدية لفك أسرى أنا وأولئك الذين معي".

"Dominins et Fratibus Cluniensibus Frater Maiolus Miser et Captus Torrentes Belial Circumded erunt me, Praeccupauerunt me Laquei Mertis Nunc Uero Si Placet at his qui mecum capti tenentur redemptionem mittite"(٦٨).

لما وصل هذا الكتاب إلى دير كلوني ارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل من قبل رفاقه الرهبان وهبوا جميعاً في تدبير الأموال اللازمة لذلك حتى أنهم جردوا الكنيسة من زخرفها فقد كان محبوباً لديهم وأرسلوا كل ما استطاعوا جمعه من الأموال إلى المسلمين حتى يطلقوا سراح القديس ورفاقه، وتم ذلك بعد أن أخذ المسلمون ألف قطعة من الفضة لفك أسر القديس وقطعة واحدة عن كل واحد من رفاقه وعادوا جميعاً بعد إطلاق سراحهم إلى بلادهم وكلهم حنق وكراهية ضد المسلمين(٦٩).

انتشرت أخبار حادثة القديس مايول وصار له صدى كبير بين الناس وأثارت غضب واستياء الرأي العام وسعى القادة والنبلاء للأخذ بالثأر وبتأثير من القديس نفسه عمل الاقطاعيون في شرق وغرب الألب على توحيد جهودهم وتقديم المساعدات للتجهيز لحملة ضد مسلمي فراكسنتيوم الذين روعوا أهالى تلك المناطق(٧٠).

تزعم هذا المشروع أحد النبلاء ويدعى بوبون **Bobon** الذي اجتهد في تجميع القوات وتوحيد الجهود ثم بنى حصن في نواحي سيسترون **Sisteron** موازياً لحصن المسلمين هناك الذي يقع على رأس جبل بترا إمبيا **Petra-Empia** وقام بمراقبتهم حتى أتيحت له فرصة اقتحام حصنهم مستخدماً عامل

---

(68) Rodulphus Glaber, Historiarum, Liber Quinque 1, 4, 9, PP. 20- 22.
- **Syrus, Vita Sancti Maioli, III, 5, P. 253.**

(69) Rodulphus Glaber, Historiarum, Liber Quinque 1, 4, 9, PP. 18- 24.
- **Syrus, Vita Sancti Maioli, III, 5, P. 253.**

(70) Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P.146.
- **Bruce, An abbot between two Cultures, PP. 432.**

الخيانة بمساعدة أحد الحراس وتمكن من ذبح المسلمين داخل الحصن بعد مداهمتهم وأخذ الباقين أسرى واضطر بعضهم للتنصر، ورفعت الكنيسة بوبو إلى مصاف القديسين(٧١) .

ألهبت هذه الانتصارات حماسة الاوربيين في الجهات الأخرى خاصة في الدوفيني فقد ثار سكان جاب Gap مركز مقاطعة الألب العليا والتف المحاربون حول قائد يدعى وليام William وهاجموا قلاع وحصون المسلمين في الدوفيني ونجحوا في الانقضاض عليهم وتفتيت شملهم وإجبارهم على الجلاء عن البلاد وبذلك تخلصت بلاد الدوفيني العليا من قبضتهم ولم يبق للمسلمين سوى حصونهم في البروفانس(٧٢).

معركة تورتور Tourtour وسقوط معقل فراكسنيتوم عام ٩٧٥م/٣٦٥ هـ

تشجع وليام بعد انتصاره على المسلمين في الدوفيني على مواصلة حربه ضدهم في البروفانس بعد أن استطاع الوصول إلى السلطة وتلقب بلقب كونت البروفانس واستغل حب شعبه له فعمل على استنفار أهالي البروفانس والدوفيني ونيس لقتال المسلمين وإسقاط معقلهم الحصين فراكسنيتوم وتصفية الوجود الإسلامي نهائياً من تلك المناطق، ووحد وليام كونت البروفانس جهوده مع القادة والزعماء المجاورين له وحشد القوات الضخمة لتحقيق هدفه وبدأ بالتخطيط للهجوم على فراكسنيتوم(٧٣).

(4) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 205

- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٧٣.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٦١.

(72) Rodulphus Glaber, Historiarum, Liber Quinque 1, 4, 9, P. 22.

- Bruce, An abbot between two Cultures, PP. 432.
- محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص٢٠٨-٢٠٩.
- عبد العظيم رمضان: الصراع بين العرب وأوربا، ص٢٠١.
- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P.146.
- محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٧٣.

(73) Rodulphus Glaber, Historiarum, Liber Quinque 1, 4, 9, P. 22-24.

- Bruce, An abbot between two Cultures, PP. 432.

عندما علم المسلمون بأن وليام كونت البروفانس يخطط لحربهم عملوا على الاستعداد للمعركة للحفاظ على وجودهم في تلك المناطق لكنهم تخلوا في هذه المرة عما اعتادوا عليه من وسائل الكر والفر والهجمات الخاطفة التي ميزت حربهم في الماضي وكانت السبب في نصرهم واعتمدوا في هذه المعركة على الحرب المنظمة فنزلوا من الجبال واحتشدوا حشوداً في السهول المجاورة ودافعوا عن أنفسهم في صفوف منتظمة وبذلك فقدوا أهم ميزة تميزوا بها خلال تاريخهم في هذه البلاد(٧٤).

اندلعت المعركة في عام ٩٧٥م / ٣٦٥ هـ في مكان يسمى تورتور Tourtour في منطقة دراجينجمان Dragengman وشن القادة الاوربيون هجمات شديدة أدت إلى هزيمة المسلمين وارتدادهم إلى معاقلهم للاحتماء بها خاصة فراكسنيتوم المعروف بحصانته، لكن الاوربيين طاردوهم وحاصروهم في معقلهم فراكسنيتوم وأخيراً وبعد مقاومة مستميتة من المسلمين اقتحموا المعقل وقبضوا على من حاول الهرب منهم وأمعنوا فيهم القتل والأسر وأبقوا على من استسلم منهم وعلى المسالمين وأجبروهم على التنصر فظل كثير منهم باقين يمارسون حرفة الزراعة في الضياع المجاورة واختلطوا بالسكان وتزاوجوا معهم ولا تزال آثارهم باقية مبعثرة في أماكن كثيرة(٧٥).

بسقوط معقل فراكسنيتوم المركز الأساسي لجميع المسلمين المنتشرين في فرنسا وشمال ايطاليا وسويسرة لم يبق شيء للمسلمين بعد أن استولى الاوربيون على ممتلكاتهم وكنوزهم المكدسة هناك، فوزع وليام كونت البروفانس هذه الغنائم على جنوده ومقاتليه الذين أبلوا بلاءاً حسناً في الحرب ضد المسلمين كما نالت الكنيسة أيضاً نصيباً كبيراً منها فقد كان رجالها في طليعة المنادين بحرب المسلمين وكان لهم دوراً واضحاً في تلك المعركة بعد أن عانوا كثيراً من هجماتهم المدمرة

- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P.146.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٦١.

(74) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 207.
- محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤٧٤.
- محمد مرسي الشيخ: دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، ص٢٠٩.

(75) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 207-212.
- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, P.146 - 147.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٦١.
- عبد المنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ، ص١٠٥.

على الكنائس والأديرة(٧٦).

كما قضى الاوربيون على المستعمرات الإسلامية في الألب وممراته ولم يقترب القرن العاشر الميلادى من نهايته حتى كانت سيادة المسلمين قد زالت من تلك المناطق ولم يستطع حكام الأندلس أن يمدوا لهم يد العون لانشغالهم بمشاكلهم الداخلية والخارجية(٧٧).

هكذا انهارت بسقوط معقل فراكسنيتوم سيادة المسلمين في البروفانس وجنوب فرنسا وشمال ايطاليا وسويسر بعد أن استمروا في تلك المناطق زهاء الخمس والثمانين سنة معقلاً للإسلام والمسلمين وبذلك انتهت السيادة الإسلامية في تلك الجهات(٧٨).

---

(76) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 209-212.
- فرديناند كلر: كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ص٢٦١.

(77) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 209-212.
- محمد عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، ص٤١٤.

(78) Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, P. 209-212.

قائمة المصـــادر والمراجـــع

أولاً: المصادر الاجنبية:

The Original Sources:

- Annales de Flodoard, ed. Lauer ph., Paris, 1905.
- Arnulf of Milan, The Book of Recent Deeds, Trans by North N.w, From The Edition of Claudia Zey (MGH. Scripteres Rerum Germanicarum 67), Hannover, 1994.
- Chronicon Novalicienes, Monumenta Germaniae Historica Recudi Fecit, VII, ed. Pertz, Hannoverae, 1846.
- Diplomatum Regum et Imperatorum Germaniae, Tomus 1, in Monumenta Germaniae Historica, Hannoverae, 1879-1884.
- Gregorovius, History of the City of Rome, in The Middle Ages, Translated from The Fourth German Edition by Hamilton A., Vol. III, London, 1895.
- Liudprand of Cremona, The Works of Liudprand of Cremona, Translated from The First Time into English by Wright. F. A., London, 1930.
- Monumenta Germaniae Historica Scriptorum II, ed. Pertz, Hannoverae, 1829.
- Regesta Chronologico – Diplomatica Karolorum, ed. Bohmer, Frank Fort, 1833.
- Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, 1836.
- Rodulphus Glaber, Historiarum, Liber Quinque 1, 4, 9, ed., and Trans, John France, in Rodulphus Glaber, The Five Books of Histories and The Life of Abbot William, Oxford, 1989.
- Syrus, Vita Sancti Maioli, in Agni immaculati, Paris, 1988.
- Thietmari Merseburgensis, Episcopi Chronicon, Rerum

Germanicarum in Usum Scholarum ex monumentis Germaniae Historicis Recusi, ed. Kurze F., Hannoverae, 1889.

- Widukindi Monachi Corbeiensis, Rerum Gestarum Saxonicarum, Liber Tres, ed. Lohman, MGH, Hannoverae, 1935.
- Vita Johannis abbatis Gorziensis abbatis Gorziensis auctoro Johanno Abbato S. Arnulf, Monumenta Germaniae Historica Scripteres IV, ed., Pertz, Hannoverae, 1841.

ثانياً : المصادر العربية:

- ابن حوقل أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٢م) كتاب صورة الأرض، طبعة القاهرة، د.ت.
- ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، العبر، ج٤، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ /٢٠٠٠م.
- ابن عذاري المراكشي أبو العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي (ت٧١٢هـ/١٣١٢م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج٢، تحقيق ومراجعة كولون ج. س، ليفي بروفنسال، ط٣، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨٣
- الاصطرخي أبو القاسم إبراهيم (ت القرن الرابع الهجري)، مسالك الممالك، مجلد ١، ط ليدن، ١٩٣٧.
- المقري أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن أبي العين التلمساني، ج١، ط١، المطبعة الأزهرية، ١٣٠٢هـ.

ثالثاً: المراجع الأجنبية:

Modern Works:

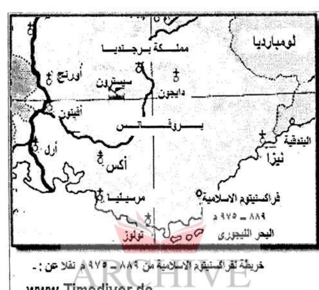
- Barraclough G., The Origins of Modern Germany, Oxford, 1947.
- Bruce, An abbot between two Cultures: Maiolus of Cluny considers The Muslims of La Garde – Freinet, Journal Compilation, Early Medieval Europe, , 15, (4), Blackwell Publishing, Oxford, 2007.
- Cambridge Medieval History, Vol. III, New York, 1922.

- Cander J., Dictionary of Geography, London, 1834.
- Chambers R., Medieval History, London, 1855.
- The Columbia Encyclopedia, Second Edition, New York, 1950.
- Comyn R., The History of the Western Empire, Vol.1, London, 1841.
- Daniel, The Arabs and Medieval Europe, London, 1975.
- Gallega, S. History of piedmont, London, 1955.
- Gibbon. E, The History of The Decline, and fall of the Roman Empire, Vol.6, Boston, 1854.
- Kaeppen Adolphus, The World in the Middle Ages New York,1854.
- Leysey. K, Communication and Power in Medieval, Europe, ed., Reuter T. London, 1994.
- O' Callaghan J.F, A History of Medieval Spain, New York, 1975.
- Oman,C.Ahistory of The Art of War in The Middle Ages ,vol . 2 ,London ,1924.
- Previte – Orton, The Early History of The House of Savoy, University Press of Cambridge, 1912.
- Previte – Orton, Italy and provence 900-950, The English Historical Review, Vol. XXXII, July, 1917.
- Previte – Orton, Italy In The Tenth Century, In The Cambridge Medieval History, Vol. III, New York, 1922.
- Robertson, History of The Christian Church, Vol. II, Third Edition, London, 1968.
- Setton K.M, A History of the Crusadas, Vol.1, Wisconsin, 1969.
- Sismondi J., History of The Italian Republics in the Middle

Ages, London, N. d.

رابعاً: المراجع العربية والمترجمة للعربية:

- أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠-١١٠٠م) ترجمة أحمد عيسى مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.
- سعيد عاشور،أوربا العصور الوسطى ،الجزء الثانى ، النظم والحضارة،مكتبة الأنجلو المصرية ،القاهرة ،١٩٩١.
- شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرة وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٥٢هـ.
- عبد الرحمن علي الحجّي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ط٢، دار القلم، دمشق، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.
- عبدالرحمن علي الحجي، العلاقات الدبلوماسية مع أوربا الغربية خلال المدة الأموية (١٣٨-٣٦٦هـ/ ٧٥٥-٩٧٦م)، دراسة تاريخية، أبو ظبي، الامارات المتحدة العربية، ٢٠٠٤م.
- عبد العظيم رمضان، الصراع بين العرب وأوربا من ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصليبية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م.
- عبد المجيد نعنعي، الدولة الأموية في الأندلس، التاريخ السياسي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٨٦.
- عبد المنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ١٩٦٦م.
- علي بن المنتصر الكتاني، المسلمون في أوربا وأمريكا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥م.
- فرديناند كلر، كتاب غارة العرب على سويسرة في أواسط القرن العاشر، ترجمة شكيب أرسلان ضمن كتابه تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرة وايطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٥٢هـ.
- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، العصر الأول، القسم الثاني، الخلافة الأموية والدولة العامرية، ط٤، مكتبة الخانجي،القاهرة ١٤١٧هـ/١٩٩٧م
- محمد مرسي الشيخ، دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي، مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.



خريطة لفراكسنيتوم الاسلامية من ٨٨٩ ـ ٩٧٥ م نقلا عن :-



سفارة يوحنا الجورزي الى عبد الرحمن الثالث عام ٩٥٦ م   www.google.com

معركة ميركيفالون (٥٧١هـ/١١٧٦م)
بين سلاجقة الروم والإمبراطورية البيزنطية

د. آمال حسن عبد الحافظ الخطيب (*)

مقدمـــــة

في (٤٦٧هـ/١٠٧٥م) وبعد خمسة وثلاثين عاما من تكوين إمبراطورية السلاجقة في فارس، تأسست دولة سلاجقة الروم في الأناضول على يد "سليمان بن قتلمش" كنتيجة مباشرة لمعركة مانزيكرت في ٤٦٣هـ/١٠٧١م. فقد اتجه "قتلمش" أبن عم "طغرلبك"،مع طائفة من التركمان، إلى الجبال الواقعة جنوب بحر قزوين، إذ اعتبر نفسه أحق بالملك منه، ولأن أباه كان أرشد أفراد الأسرة السلجوقية، ويرجع نسل هؤلاء السلاجقة إلى أبي الفوارس "قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق الذي عينه السلاجقه في فترة الفتوحات الأولى حاكما على الموصل ودياربكر والشام.(١)

تطلع زعيمهم "قتلمش" إلى الاستقلال بالحكم عقب وفاة السلطان "طغرلبك" في عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م، وتولية ألب أرسلان عرش السلاجقة، فخرج قتلمش على الب ارسلان فقتله الأخير، وأراد أن ينتقم من أسرته ويقضى عليها، لولا تدخل وزيره "نظام الملك" الذي أعدله خطة تدل على ذكائه ونفذها السلطان ألب أرسلان، فمنح أسرة قتلمش جيشا ليشغلهم بالفتوحات، وأصدر أوامره إلى "سليمان بن قتلمش" بالتوجه إلى الحدود البيزنطية مع أسرته، ونجح السلطان ألب أرسلان في تثبيت السلاجقة في آسيا الصغرى، حين وجه سليمان بن قتلمش إليها، لأنه رأى أن سهول وسط آسيا، التي عمل البيزنطيين على تحويلها إلى مراعي للمواشي، خير ما يلائم جماعته الأتراك السلاجقة، فسمح لسليمان ورجاله بأن يستوطنوا تلك البقاع ويقيموا فيها دولة لهم، وهكذا تأسست دولة "سلاجقة الروم" كنتيجة لموقعة ملاذكرد (مانزكرت) التي تعتبر هزيمة البيزنطيين فيها نقطة تحول خطيرة في التاريخ الإسلامي والتاريخ البيزنطي. ولا تقل أهمية هذه المعركة ونتائجها عن معركة اليرموك، فإذا كانت معركة اليرموك قررت مصير بلاد الشام، فإن معركة " منازكرد " قررت أيضاً مصير آســـيا الصغرى ، إذ نجح

(*) أستاذ مساعد تاريخ العصور الوسطي بكلية التربية للبنات بجدة

الأتراك السلاجقة في فتحها والتوغل فيها، ولم تستطع بيزنطة الوقوف في وجه توسعهم. وكانت هذه الأقاليم الشرقية ـــ وبخاصة أرمينية وقبادوقيا ـــ على جانب كبير من الأهمية للدولة البيزنطية، لأنها أمدت الإمبراطورية بكثير من الأسرات الحاكمة، وعدد لا حصر له من أمهر الرجال في شئون الحرب والسياسة، وكانت خسارة هذه الولايات، التي استقر فيها الأتراك السلاجقة، إرهاصا بقرب موت الدولة البيزنطية أو بداية النهاية لحياتها. وكما يقول الأستاذ فريونس Vryonis : عندما فقدت الدولة البيزنطية ولايتها الغنية في آسيا الصغرى؛ أصبحت القسطنطينية رأساً حُرم من الجسد الذي يسنده. وبتوغل السلاجقة في آسيا الصغرى انتقلت هذه البلاد من الحضارة اليونانية، والديانة والآداب المسيحية، إلى العقيدة والحضارة الإسلامية. وخلال السنوات العشر التالية لموقعة "منازكرد"؛ غمرت القبائل السلجوقية معظم آسيا الصغرى، ولم يجد السلاجقة سوى مقاومة ضعيفة، فعاشوا واندمجوا مع السكان الأصليين.(٢)

وكان الأتراك السلاجقة قد أتوا إلى آسيا الصغرى لكي يستقروا، فأحضروا مع جيوشهم كل قبائلهم وأسرهم ومواشيهم. ويشير الأستاذ كلودكاهن، في دراسة له عن المراحل الهامة للغزو السلجوقي في آسيا الصغرى، إلى أن حادثة منازكرد كانت مرحلة هامة ضمن مراحل طويلة للتوغل التركي في آسيا الصغرى، وتم توحيد الأتراك فيها تحت ظل دولة سلاجقة الروم وعاصمتها قونية. ومنذ أوائل القرن الثالث عشر كان الفارق واضحا، أمام المؤرخين البيزنطيين، بين الأتراك المستقرين والأتراك الرحل، الذين أطلقت عليهم حنة كومنين AnnaComnena اسم تركمان Turcomans، تمييزا لهم عن الأتراك المستقرين. وبرغم أن سليمان بن قتلمش ابن إسرائيل بن سلجوق مؤسس دولة سلاجقة الروم، فإنه لم يكن بين القادة الذين أرسلهم الب أرسلان بعد مانزكرت، فقد أرسل أرتوك بك، وإليه يرجع الفضل في التوغل التركي داخل الأناضول، ولقد استغل سليمان بن قتلمش فرصة انشغال كل من السلاجقة وبيزنطة في مشاكلهم الداخلية للتوسع في آسيا الصغرى(٣).

واستمر حكم هذه الدولة مدة ٢٢٠عاما من (٤٧٠ ــ ٧٠٠هـ / ١٠٧٧ ــ ١٣٠٠م)، ويعود الفضل إليها في تتريك المنطقة، أي صبغها بالصبغة التركية، والتمهيد فيما بعد لدولة غُزية أخرى أستطاعت الاستيلاء على القسطنطينية نفسها، وهي الدولة العثمانية". ويعتبر استقرار الترك في الأناضول أو آسيا الصغرى، أفدح خسارة لحقت بالكنيسة والإمبراطورية" من وجهة نظر "إدوارد جيبون". وكان سليمان أهلا لأن يلقب بالغازي ــ البطل المقدس لنشره الدين الإسلامي. وقد أضيفت مملكته الرومية الشرقية الجديدة إلي جداول الجغرافية في المشرق، وكانت تمتد من الفرات إلى القسطنطنينة، ومن البحر الأسود إلى حدود سورية، وكانت غنية بمناجم الفضة والحديد والشب والنحاس، وذات إنتاج وفير من الحبوب والكروم، زاخرة بالماشية والخيول الأصيلة. (٤)

وقد بدأ استقرار سلاجقة الروم، في آسيا الصغرى، بقيادة "سليمان بن قتلمش" – في زمن الإمبراطور البيزنطي "ميخائيل السابع" الذي استعان بسليمان أكثر من مرة في مواجهة الخارجين عليه. وحين ثار "نقفور بوتنياتيس" قائد ثغر الأناتوليك استعان "ميخائيل" بقوات سليمان، وبدخول السلاجقة إلى الجيش البيزنطي بدأ استقرارهم الدائم في أراضي بيزنطة، ثم تخلى سليمان وأخوه منصور عن ميخائيل وانضما إلى "بوتنياتيس" الذي أعلن نفسه إمبراطورا في ٧ يناير١٠٧٨م وأدخلهما إلى نيقية. وبعد ذلك عاونوه في الاستيلاء على نيقوميديا وخلقدونية وكريسوبوليس، وأُجبر ميخائيل على الذهاب إلى الدير.ولما حاول الإمبراطور الجديد إجلائهم عن الأراضي التي دخلوها رافعوا راية العصيان، وأعلن "سليمان نيقية" عاصمة لدولتهم عام ٤٦٦هـ/١٠٧٥م، وكانت تبعد مئة ميل عن القسطنطينية.(٥)

ثم سيطر سليمان على كل آسيا الصغرى من" قيليقيا إلى هلسبونت، " وبذلك تكونت مملكة سلاجقة الروم. وسارع التركمان المنتشرون في آسيا الصغرى إلى الاعتراف بسلطانها عام (٤٦٩هـ/١٠٧٧م)، وكان هذ إيذانا بفقد بيزنطة لآسيا الصغرى وانهيار نظام الدفاع والإدارة في الولايات الآسيوية.(٦)

وهكذا فقدت الإمبراطورية البيزنطية ممتلكاتها في آسيا الصغرى، التي حرص البيزنطيون منذ القدم على أن تكون هي وبلاد الأرمن والكرج ـــ باعتبارها من أهم طرق العبور إلي البلاد الشرقية المتاخمة لهاـ تحت سيطرتهم. ولم يفلح الفرس أو المسلمون، قبل ظهور السلاجقة، في إخراج البيزنطيين من آسيا الصغرى. وحين انشغلوا عن حماية حدودهم الشرقية والجنوبية، بمطامع قادتهم ونبلائهم، جعل الجنود يتركون مهامهم الأساسية ليؤيدوا هذا أو ذاك، في حروب أهلية داخلية، مما مكن السلاجقة من مد نفوذهم والاستيلاء على آسيا الصغرى والاستقرار بها تماما.(٧)

سلاجقة الروم بعد مقتل سليمان بن قتلمش :

تمكن القائد البيزنطي "الكسيوس كومنين" من عزل الإمبراطور "نقفور بوتنياتس"، وتم تتويج "الكسيوس" سنة ١٠٨١م. وفى أيامه اتجه "سليمان بن قتلمش" إلى محاولة الاستيلاء على بلاد الشام، وبعد عدة معارك لقى مصرعه سنة ١٠٨٦م في مواجهة مع تتش حاكم دمشق، وكان لذلك أثر سلبى على دولة الروم السلاجقة. فبعد مقتل سليمان انهارت الوحدة السياسية التي أقامها السلاجقة، وأُرسل أبناؤه إلى ملكشاه، في الفترة ما بين ٤٧٩-٤٨٥هـ/١٠٨٥-١٠٩٢م، كرهينة لضمان عدم تدخل سلاجقة الروم في شئون الشام، ولقد تركت آسيا الصغرى بدون حاكم يسيطر على أمورها. فلقد ترك سليمان طفلا صغيرا هو "قلج أرسلان" الذي ظل في أسر ملكشاه فترة ، وتولى أمر إدارة. الدولة السلجوقية "أبو القاسم" الذي كان سليمان قد أنابه عنه أثناء ذهابه إلى قيليقية وأنطاكية وقد أراد ملكشاه، بعد مصرع سليمان، إخضاع دولة سلاجقة الروم، لكن وفاته ٤٨٥هـ/١٠٩٢م أنقذت نيقية من الحصار،

وساعدت المنازعات التي ثارت على العرش بعد وفاته "قلج أرسلان الأول" بن سليمان على العودة إلى منصبه ١٠٩٢م حيث أستقبله الترك بحفاوة بالغة، ويدأ عهده بتجديد بناء عاصمته وتعيين قادة جدد.[٨]

ثم دخل في صراع مع بيزنطة حيث قامت قواته بطرد القوات البيزنطية التي حاولت الاستقرار على شواطئ بحر مرمرة، ولكنه ما لبث أن عاد للتحالف معها، فعاونته القوات البيزنطية في التخلص من خصمه حاكم أزمير، ووفقا لمعاهدته مع بيزنطة أصبح من حقه التوسع في إتجاه الشرق. وفي (٤٨٩هـ/١٠٩٦م) حاصر ملطية ولكن أهل المدينة عرضوا عليه تسليمها صلحا، تخلصا من حاكمهم جبريل الذي كان يضطهدهم لمخالفتهم له في المذهب الديني. ولكن قلج أرسلان أضطر للعودة للدفاع عن عاصمته أمام الخطر الصليبي[٩]؛ القادم من الغرب، فيما سمى بالحرب الصليبية الأولى.

ولم يكن سلاجقة الروم الطائفة الوحيدة التي استقرت في آسيا الصغرى، فهناك فرق تركية أخرى من الغز استقرت في المنطقة، وكانت أشد خطرا على بيزنطة، واستغلت ضعف الدولة السلجوقية بعد وفاة سليمان لإقامة ممالك مستقلة دخلت في صراع مع سلاجقة الروم وبيزنطة. وهذه الممالك تعتبر أهم، في تاريخ الترك، من الإمبراطورية السلجوقية نفسها، فقد امتدت أراضي دولة سلاجقة الروم من نيقية إلى قونية وعلى الممرات بشمال جبال طرسوس.[١٠]

الأسرة الكومنينية :(١١٤٣–١١٨٠م) –

ينتمى الكومنينيون إلى أسرة من الأسرات الإقطاعية الكبيرة في الإمبراطورية البيزنطية. وقد نجح آل كومنين في أن يقيموا من جديد السلطان الإمبراطوري المنهار، ويعيدوا الحيوية للإمبراطورية التي أنهكت قواها الفوضى التي استمرت نحو ثلاثة عقود، ويعطرها قرنا آخر من العظمة والمجد، وبالرغم من الصعاب الكبرى التي صادفوها، كان أباطرة الأسرة الكومنينية محاربين قبل أي شئ آخر، ويظهر اسمها في كل صفحة من صفحات التاريخ البيزنطي في القرن الحادي عشر الميلادي. ويرجع أصل هذه الأسرة إلى قرية "كومن" في وادي تونجا قرب ماوريانوبل، وقد حصلت الأسرة بجدها وكفاحها على ثروة طائلة ، وغدت من كبار الأسرات الإقطاعية في آسيا الصغرى وأباطرة الأسرة هم :-

١– "الكسيوس" وهو مؤسس الأسرة (١٠٨١–١١١٨م) يمثل اعتلاؤه العرش انتصار الجهاز العسكري على الجهاز البيروقراطي، ويعتبر من أكثر الأباطرة كفاءة عسكرية وإدارية، ومن أشهر رجال هذه الأسرة وباني مجدها الحقيقي، اتصف هذا الإمبراطور بالحنكة السياسية والبراعة العسكرية، وكان رجلا ذكيا، حاضر الذهن، قوي الإدارة، قائدا عظيما، ودبلوماسيا ماهرا، وقد ظهر في تلك الفترة العصيبة من

تاريخ الإمبراطورية إذ أعاد سلطة القانون والنظام داخلها. وكانت أهم الأخطار التي واجهته حين صعد العرش البيزنطي. خطر النورمان، وخطر الأتراك السلاجقة.

٢ ــ أما "حنا كومنين John Comnenus" (٥١٢-٥٣٨هـ/١١١٨-١١٤٣م) فقد خلف أباه الكسيوس كومنين الذي توفى بعد مرض أليم لازمه زمنا طويلا، وهو الابن الأكبر له، ولم يكن دونه في التحلي بالمؤهلات العالية؛ وقد نشأ نشأة صارمة، وكان على خلق قويم، كما كان لا يقر حياة الترف والإسراف ، وقد عرف عنه الكرم والذكاء. وهكذا استحق بفضل شخصيته وخصاله لقب "يوحنا الطيب".[١١]

٣ ــ الإمبراطور مانويل كومنينوس :

خلف مانويل كومنين (١١٤٣ــ ١١٨٠م) والده يوحنا الرابع بعد وفاته، وهو أصغر أبنائه الأربعة، من زوجته الهنغارية، وكان يبلغ من العمر آنذاك عشرين عاما، وكان أحب الأبناء إلى قلب أبيه.

وكان أباطرة بيزنطة يمتازون بعامل السياسة والدهاء والحكمة وبعد النظر مما كان له أكبر الأثر في الإبقاء على الدولة البيزنطية عشرة قرون أو يزيد. ونلمس هذا بوضوح في موقف حكام بيزنطة من الأجناس الجرمانية ومن المسلمين ومن جيرانها العرب سواء كانوا فاطميين أو عباسيين أو سلاجقة.[١٢]

السلاجقة ومانويل كومنين:

بعد أن فرغ مانويل من مشكلاته في أوروبا وعقد الصلح مع البنادقة بدأ يتطلع إلى الاهتمام بشؤون آسيا الصغرى، بعد حوالي أثني عشر عاما قضاها قلج أرسلان الثاني " في تدعيم نفوذه ، وأدرك أن إحكام السلطان قبضته على المنطقة، دون منازع، يشكل خطرا كبيرا على السياسة البيزنطية، بالإضافة إلى أنه أراد أن يكفل الأمن للطريق الذي يجتاز بلاد الأناضول أمام البيزنطيين، فشعر نتيجة ذلك بقصر نظره وتقصيره في حقل سياسة الأناضول ، إذ أتاح للسلطان أن يوحد كلمة الأتراك، كما راح شعر بالضغط التركي المتزايد على حدود الإمبراطورية الشرقية بسبب قيام السلاجقة بتهديد وادي المياندر، وإنزالهم بأهل الريف خسارات متتالية. وقد شغلت شئون آسيا الصغرى آل كومنين أكثر من البلقان، فإن نجاح الأتراك السلاجقة المتواصل قد تسبب في طرد البيزنطيين تدريجيا من معظم ممتلكاتهم في الشرق، وحكم سليمان في "قيزيقوس ونيقية"، واضطر الكسيوس كومنين- الذي كان يرزح تحت مهام أخرى أكثر خطورة – لأن يعترف عام١٠٨٢م بما نجح الأتراك في غزوه من البلاد، وسقطت أنطاكية عام١٠٨٥م في أيدي السلاجقة. وكان من حسن حظ بيزنطة أن موت ملكشاه عام (١٠٩٢م) أدى إلى تجزئه الإمبراطورية السلجوقية، واستغل البيزنطيون ذلك ليستعيدوا مركزهم في "بيثينية" ، واضطر سلطان قونية

الجديد وهو " قلج أرسلان الأول " (١٠٩٢ـ١١٠٦م) للموافقة على عقد الصلح مع الإمبراطورية. وعندما مات أول الأباطرة الكومنينية كانت الإمبراطورية تشمل (الأناضول وطرابيزون وكل ساحل البحر الأسود وكل الشريط الساحلي في جنوب آسيا الصغرى حتى مشارف أنطاكية وكل البلاد الواقعة غرب الخط الممتد من سينوب وجانجرا وعمورية وفيلوميلون). وهكذا نجح "الكسيوس " فإعادة نفوذ بيزنطة ومجدها في آسيا، مثل نجاحه في شبه جزيرة البلقان. وواصل "مانويل كومنيين" في بادئ الأمر سياسة أبيه، فتقدم حتى وصل إلى أسوار"قونية" عام (١١٤٦م) ولكن الغزو النورماني والحملة الصليبية الثانية عام (١١٤٧م) اضطرته ليولي اهتمامه إلى اتجاه آخر، ولكنه بالرغم من تطلعه إلى فرض سيادته على الدويلات الأرمينية واللاتينية ونجاحه في هذا الصدد، إلا أن سياسته مع الأتراك كانت أقل ثباتا وقوة. والواقع أنه، عند منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، لم يستلزم الأمر إلا بعض الجهد للقضاء على سلطنة الروم، واستعادة كل البلاد الآسيوية حتى جبال طوروس. كما أن القبائل السلجوقية الرحل كثيرا ما قامت بانتهاك حدود الإمبراطورية، ولكن السلطان قلج أرسلان كان في منتهى الذكاء والدهاء، عندما اعتذر للإمبراطور عن مثل هذه الأعمال، موضحا أنه غير راض عن هذه الانتهاكات، وقدم له بعض الهدايا. وبهذه التسويات الودية نجح السلطان السلجوقي في كسب الوقت لدعم نفوذه في آسيا الصغرى، على العكس من الإمبراطور الذي لم يقم بأي عمل في آسيا الصغرى، سوى إقامة بعض التحصينات الدفاعية، والقضاء على منافسيه الواحد تلو الآخر، وخلق دولة متجانسة بدلا من الإمارات المتنافسة. وبدلا من أن يقوم مانويل لمقاتلته أتبع لمدة إحدى عشرة سنة (١١٦٤ـ١١٧٥م)، سياسة دفاعية محضة اقتصرت على إقامة التحصينات على حدوده، وعندما تنبه في النهاية لازدياد الخطر السلجوقي، وبدأ هجومه كان متأخرا في عمل ذلك.

إلا أن الأتراك أصبحوا عند نهاية حكم "مانويل" أقوى بمراحل منهم عند توليه للعرش، وقد أصبحت إمارة سلاجقة الروم دولة قوية. وأتبع مانويل الوسائل الدبلوماسية المعتادة، التي اشتهر بها البيت الكومنيني، في التفريق بين سلاطين البيت السلجوقي وأمرائهم في قونية وأنقرة. وكانت العلاقات البيزنطية السلجوقية قد بدأت في التوتر عام ١١٧٣م، عندما تحالف نور الدين مع قلج أرسلان لقتال البيزنطيين، وأتصل بالسلطان السلجوقي وأوضح له أنه على استعداد لمهاجمة نور الدين مقابل انسحاب قلج أرسلان من هذا التحالف، ويبدوا أن قلج أرسلان وافق الإمبراطور مانويل على طلبه، ثم ما لبث أن توفى نور الدين، فارتاح الإمبراطور البيزنطي من خطر كان يهدده، وبدأت علاقات ودية ظاهريا، ولكن حقيقة الأمر كانت غير ذلك، فقد كان كل جانب يستعد ليغتنم الفرصة لقتال الطرف الآخر، وهو أحسن استعدادا من خصمه.

وفي عام ١١٧٤م فر أميرن من وجه قلج أرسلان وهما "شاهنشاه وذو النون" والتجأ إلى الإمبراطور مانويل في القسطنطينية، فرحب بهما، مما أثار مخاوف قلج أرسلان، وطلب منه أن يعيد أملاك الأميرين، وإعادة المدن التي لم يكن قد أعادها من قبل، وكانت الجيوش البيزنطية على أهبة، في حين لم يكن قلج مستعدا، فأرسل يعلن موافقته للإمبراطور حتى يجهز جيشا، وليظهر حسن نواياه للإمبراطور وأن الرفض لم يأت من جانبه، وأن سكان المدن يرغبون ببعض المزايا فانحاز السكان للسلاجقة ورفضوا تسليم المدن للمندوب البيزنطي، مما أغضب الإمبراطور. وعمد مانويل إلي تحصين مراكز الحدود لإغلاق المداخل إليها، وبخاصة "برغمة" "وكلبارا" وخطي الدفاع على نهري "الميياندر"و"هرمز" و"ملاجنة" في مقاطعة نيقية التي جعل منها خط دفاع آخر. وبهذا العمل يكون مانويل قد بنى ما يشبه السد لحماية ممتلكاته في غربي آسيا الصغرى من هجمات السلاجقة، وتقع دور يليوم المهمة عسكريا على هذا الخط الذي يصل إلى قونية، وتتحكم في العديد من الطرق التي تتشعب منها إلى كافة الاتجاهات، وقد اتخذها قاعدة لعملياته وحصنها بشكل لافت(١٣).

أسباب معركة ميروكيفالون :

استغل مانويل حالة التشرذم والانقسام التي كان عليها أمراء سلاجقة الروم، في محاولة لاستعادة ممتلكات إمبراطوريته منهم في آسيا الصغرى، فحاول إشعال نار الوقيعة بين أمراء قونية في الجنوب وأنقرة في الشمال، وال الدانشمند أمراء قبادوقيا في الشرق، غير أن وجود سلطان ذكي وقوي في قونية، واسمه "قلج أرسلان" أفسد مخططاته، وبالرغم من أن سياسة مانويل، مع هذا السلطان، اتسمت بالود لبضع سنين في بداية توليه العرش، لكنها تحولت إلى عداء محكم فيما بعد.

اتجه "قلج أرسلان الثاني "للتوسع في آراضي بيزنطة ،وشجعه على ذلك أمور منها: انصراف الإمبراطور البيزنطي إلى الاهتمام بالأمور السياسية في أوروبا، ومنها النزاع مع الإمبراطور"فريدريك بربا روسا"، إذ عمد فريدريك إلى إثارة المتاعب ضد الإمبراطور البيزنطي، بتشجيع "قلج أرسلان" على الثورة على بيزنطة ،والتوغـل في أراضي آسيا الصغرى عام ١١٧٥م. وتحول "قلج أرسلان" إلى صداقة عدوه "فريدريك برباروسا"، وقام قلج أرسلان الثاني بزيارة رسمية إلي القسطنطنية في (ربيع عام٥٥٨هـ/١١٦٢م)، ونزل ضيفا على مانويل الذي استقبله بالحفاوة والتكريم، وأنزله أجمل قصوره وغمره بالهدايا ، وشاهد كنوز وثروات القسطنطينية، وشاهد عرضا للنار الإغريقية، ويبدو أن الذي حمله على القيام بهذه الزيارة ، هو الوقوف عن كثب على ما يجرى في البلاد البيزنطية من مؤامرات تحاك ضده، من قبل ياغي أرسلان وأخيه خلعه عن الحكم ، وإحلال أخيه مكانه. وأثناء إقامة السلطان السلجوقي في العاصمة البيزنطية، التي استمرت ثمانين يوما، تباحث العاهلان خلالها في إمكان إعادة النظر في الاتفاقية المبرمة بينهما، وإجراء بعض التعديلات عليها،

استنادا للظروف السياسية التي استجدت منذ إبرامها في العام الماضي ، وقد وافق الطرفان على التعديلات الخاصة بقلج أرسلان الثاني وهى أن:

— يعترف بأن أعداء الإمبراطور هم أعداء له أيضا.

— يعيد لمانويل المدن التي كانت سابقا جزءا من الإمبراطورية البيزنطية وبخاصة أماسية وجوارها.

— يتعاون مع مانويل وفقا لرغباته.

— يشكل فرقا عسكرية تجوب مناطق الحدود، بشكل مستمر، لحمايتها من غزوات القبائل التركمانية.

— لا يبرم أي معاهدة، ولا يعقد أي صلح مع طرف ثالث، إلا بعد موافقة الإمبراطور.

أشاعت زيارة قلج أرسلان الثاني للقسطنطينية جوا من الارتياح في العاصمتين السلجوقية والبيزنطية ، وقد سر الإمبراطور أن يقوم أقوى الأمراء المسلمين بزيارته ليقدم له الولاء أمام شعبه.غير أن الزيارة لم تؤد إلى نتائج سياسية مهمة ، ولعلها كانت نوعا من التجسس على مانويل للوقوف على مواطن الضعف والقوة في الإمبراطورية. ومما لاشك فيه أن السلطان السلجوقي اطلع على أسرار كثيرة من أسرار لقصر الإمبراطوري، وبخاصة مدى اتصال الدانشمنديين بالإمبراطور، دليل أن قلج أرسلان الثاني صرح أمام أتباعه، بعد عودته إلى عاصمته، أنه بقدر ما يلحق بالإمبراطورية البيزنطية من أضرار. ولقد ظن مانويل أنه أخضع السلاجقة لسلطانه ، لكن هذا الخضوع كان مؤقتا، وكل ما حققه هو نصر ظاهري، استغله قلج أرسلان الثاني في صراعه مع الدانشمنديين، إذ استمرت الغارات السلجوقية على طول الحدود البيزنطية الشرقية خلال الأعوام (٥٥٨-٥٦٩هـ/١١٦٢-١١٧٣م). ومن ناحية أخرى استطاع "فريدريك برباروسا" أن يكسب إلى جانبه السلطان "قلج أرسلان" ودخل في مفاوضات معه باعتباره أشد أعداء الإمبراطورية البيزنطية في الشرق وحثه على قتال الإمبراطور مانويل، وأوغر صدره ضده، وأغراه على التقدم لفتح ممتلكات البيزنطيين في آسيا الصغرى، وذلك عندما تورط "مانويل" في محاولة فتح جنوب ايطاليا، وكان "فريدريك" يقصد من وراء ذلك أن يتحول الإمبراطور"مانويل" عن المسائل الأوربية إلى الاهتمام بأمور آسيا الصغرى. وعلى الفور قام سلطان قونية السلجوقي بالقضاء على مناوئيه من الدانشمند، وهم العدو الذي كان يهدد ظهره أثناء حروبه مع الإمبراطورية البيزنطية، كما ذلك إن آل دانشمند اعتمدوا على مساندة "نور الدين" الذي ازداد نفوذه في الفترة الأخيرة، وقيام الخليفة العباسي في بغداد بإصدار إعلان يقضى بتعيين "نور الدين" حاكما على "الموصل والجزيرة وإربل وخلاط والشام وديار بكر وبلاد قلج أرسلان". "وأخيرا فإن أمن السلاجقة لا يتحقق من ناحية الحدود الغربية إلا باستيلائهم على بقية الممتلكات البيزنطية الواقعة في آسيا الصغرى. أما

الإمبراطور "مانويل" فهناك عوامل أدت إلى قيام الحرب بينه وبين السلاجقة في هذا الوقت. فمن الأسباب الأوربية يمكن القول : إن الإمبراطور مانويل قد فرغ من مشاكله لبعض الوقت، بعد ما عقد الصلح مع البنادقة، يضاف إلى ذلك أن استئناف الصراع بين البابا وفريدريك برباروسا، قد أعطى الفرصة للإمبراطور مانويل لاستئناف الحرب مع السلاجقة، وإعادة حقوق الإمبراطورية في آسيا الصغرى، ووضع حد للتوسع السلجوقي.[١٤]

أما الأسباب الشرقية: ـــ فمما لاشك فيه أن فرار"ذي النون وشاهنشاه "كان من العوامل التي ساعدت على تجدد القتال بين الإمبراطورية والسلاجقة، خاصة وأن هذين الأميرين كانا يعتمدان على بعض العناصر المؤيدة لهما في الإمارات الدانشمندية، يضاف إلى ذلك أن التحصينات التي أقامها مانويل في مدينة "لاودكيا"، في وادي نهر المياندر وهرموس، قد شجعت بعض العناصر الوطنية البيزنطية على العودة إلى هذه المنطقة، وتعميرها وإمداد الخزانة البيزنطية بالضرائب في هذه المناطق، حتى لا يهجروها ويكفوا عن دفع الضرائب.

ابتدأت العلاقة بين السلاجقة والبيزنطيين بالتوتر في عام (٥٦٨هـ/ ١١٧٣م) عندما تحالف قلج أرسلان الثاني مع نور الدين محمود، حيث عد مانويل هذا التحالف موجها ضده، فاشتد به القلق، وراح يعمل على إفشاله، فاتصل بالسلطان السلجوقي وأبدى استعداده بمهاجمة نور الدين إذا قام بمهاجمة السلاجقة مقابل انسحابه من التحالف. ويبدو أن قلج أرسلان الثاني وافق على العرض الإمبراطوري، لكن وفاة نور الدين محمود أوقفت الجهود المبذولة للتفاهم. وعادت العلاقة لتكون ظاهريا ودية، لكن في حقيقة الأمر كانت غير ذلك، فقد كان كل طرف يستعد لمهاجمة الطرف الآخر، ويتحين الفرصة لذلك. أما السبب المباشر الذي أدى إلى قيام الحرب بين الإمبراطورية البيزنطية والسلاجقة، فهو هي أن الإمبراطور مانويل أتيحت له الفرصة فعلا، في عام (٥٧٠هـ/١١٧٤م) حيث ظهرت في الأفق السياسي بعض العوامل التي ساعدت على نشوب الحرب، منها ما يختص بالسلاجقة، ومنها ما يختص بالبيزنطيين"١٥".

ففيما يختص بالسلاجقة يمكن رصد العوامل التالية:

التجاء كل من شاهنشاه وذي النون إلى القسطنطينية، وترحيب الإمبراطور بهما، مما أثار مخاوف قلج أرسلان الثاني. دخول الإمبراطور الألماني فريدريك بربروسا على الخط السياسي، حين تبادل الرسائل مع قلج أرسلان الثاني بوصفه أقوى وأشد أعداء الإمبراطورية البيزنطية في الشرق، وحثه على قتال البيزنطيين ،وكان يهدف إلى تحويل أنظار مانويل عن الاهتمام بالمسائل الأوربية.

أن قضاء قلج أرسلان الثاني على الإمارة الدانشمندية، في سيواس، شجعه على قتال مانويل ،بعد أن شعر بأن أمن السلاجقة على الحدود الغربية لا تحقق إلا بضم ما تبقى من الممتلكات البيزنطية في آسيا الصغرى "١٦".

وفيما يختص بالبيزنطيين يمكن توضيح العوامل التالية: ـ

أن فراغ مانويل من مشكلاته في أوروبا، بعقده معاهدة مع البندقية، الإضافة إلي استئناف الصراع بين البابوية وفريدريك بربروسا، أعطياه الفرصة للتفرغ لأمور الشرق، واستئناف القتال مع السلاجقة، إعادة حقوق الإمبراطورية في آسيا الصغرى، ووضع حد للتوسع السلجوقي.

أن لجوء كل من الأميرين شاهنشاه وذي النون إلى البلاط البيزنطي، شجعه على القيام بحملة على آسيا الصغرى، وأعطاه حجة استغلها بذكاء.

أن تحصين مدينة "لاذيق" في وادي نهر الميآندر شجع العناصر الوطنية البيزنطية على العودة إلى هذه المنطقة وتعميرها، فأمدوا الخزانة الإمبراطورية بالضرائب، وشعر مانويل بهذه الفائدة، فرأى أن عليه تأمين بقاء السكان فيها"١٧".

فأرسل إلى السلطان :قلج أرسلان" يطلب منه إعادة المدن التي لم يكن قد أعادها حتى ذلك الوقت، طبقا لمعاهدة عام(٥٥٨هـ/١١٦٢م)، وفي الوقت الذي أرسل فيه مانويل إلى السلطان السلجوقي يطلب منه تحقيق ذلك، كانت القوات البيزنطية على أهبة للقتال، مما يشير إلى أن الإمبراطور البيزنطي قد عقد العزم على قتال السلاجقة ، وافترض مقدما عدم قيام السلطان بتحقيق رغبات الإمبراطور. وعلى ما يبدوا أن " قلج أرسلان" لم يكن قد استعد للقتال، ودل بتصرفه على أنه رجل دولة من الطراز الأول ، إذ إنه نفذ خطة ذكية، وحتى يعمل على كسب الوقت أبدى موافقته على رد المدن للإمبراطورية البيزنطية، وطلب من الإمبراطور مانويل إرسال مندوب عنه لاستلام هذه المدن، فأرسل الإمبراطور البيزنطي قائده "الكسيوس أوف أولبس " Alexius of Aulps"، ومعه قوة بلغ تعدادها ما يقرب من ستة الآف من الجنود البيزنطيين لتنفيذ هذه المهمة، ولما كان "قلج أرسلان" عازما على عدم رد هذه المدن للإمبراطور"مانويل"، وحتى يظهر حسن نواياه تجاه الإمبراطور، وأن الرفض لم يأت من جانبه ، أرسل إلى سكان هذه المدن واعدا إياهم على ما يبدو ببعض المزايا إذا بقيت مدنهم تابعة للسلاجقة، كما وعد أيضا بمساندتهم ضد البيزنطيين، فانحاز السكان إلى جانب السلطان السلجوقي، ورفضوا تسليم المدن إلى المندوب البيزنطي، فعاد دون أن يحقق المهمة التي أوفد من أجلها، الأمر الذي أغضب الإمبراطور "مانويل" وأعتبره خدعة من جانب السلطان "قلج أرسلان "١٨".

وإذا كان الإمبراطور "مانويل" قد أحس بالدور الذي لعبه " قلج أرسلان الثاني " ونتج عنه عدم رد المدن للإمبراطورية، فإن الإمبراطور أدرك أيضا أن السلطان

السلجوقي سوف لا يوافق على رد أملاك آل دانشمند وذي النون، وكذلك إعادة مدينتي ـ أنقرة وجانجرس ـ Gangres ـ إلى شاهنشاه، وبدأ التفكير في استعمال القوة ضد السلاجقة في الوقت الذي وصلت فيه القوات البيزنطية بقيادة الإمبراطور "مانويل" إلى مدينة "ضوروليوم" Drylaeum، والواضح أن شاهنشاه قد لعب دورا في هذا الوقت، وحرض الإمبراطور على مهاجمة مدينة "أماسية" التي تقع إلى الشرق من "جانجرس"، وهون الأمر على الإمبراطور، وأوضح له أن بعض أعوانه في هذه المدينة، التي لا تخضع للسلطان السلجوقي، سوف يقدمون له المساعدة، ولعل شاهنشاه كان يقصد من وراء ذلك أن يتسلم هذه المدينة ليحكمها، عوضا عن أملاكه التي استولى عليها أخوه " قلج أرسلان الثاني ". وفي ذلك الوقت، أو بعده بقليل، بدأ الإمبراطور "مانويل" في العمل على زيادة تحصينات الحدود البيزنطية في آسيا الصغرى، والحقيقة أن الوقت كان متأخرا جدا بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية للقيام بمثل هذا العمل، بعد ما سيطر"قلج أرسلان" تقريبا على معظم آسيا الصغرى، وهزم منافسيه واحدا بعد الآخر، وكون دولة متجانسة قوية تحل محل الإمارات الصغيرة المتنافسة ،التي طالما خدم تنافسها الإمبراطورية، وعلى أية حال فقد خطط "مانويل" لإقامة عدة تحصينات عند مدينة "ضروليوم"، التي كانت خربة في هذا الوقت، لأن هذه المنطقة تمثل نقطة إستراتيجية هامة في قلب آسيا الصغرى ، وتتحكم في عديد من الطرق التي تتشعب منها إلى كافة الاتجاهات."١٩"

ولكي يقيم "مانويل" مثل هذه التحصينات ،كان عليه أن يقوم بطرد السلاجقة الرحل الذين كانوا يضربون خيامهم حول هذه المنطقة ، ثم بدأت أعمال التحصينات، وسار العمل على قدم وساق حتى تم إعداد السور خلال أربعين يوما، كما تم حفر خندق أمام هذا السور، ولم تسلم القوات البيزنطية من مهاجمة القبائل السلجوقية أثناء إقامة هذه التحصينات، كما أن السلطان "قلج أرسلان" اعتبر قيام مثل هذه الأعمال الدفاعية دليلا على سوء نية الإمبراطور، وأنه يعد العدة لمحاربته، لذلك أرسل "قلج أرسلان " إلى الإمبراطور"مانويل" يستفسر منه عنه الأسباب التي دعت إلى بناء هذه التحصينات، فأوفد "مانويل" أحد قواده ويدعى " توماس Thomas " ليبلغ السلطان بأنه الذي بدأ بالعدوان، وأنه كان السبب في إخفاق "جابراس" في مهمته، وطالب أيضا السلطان بتسليم مدينة"أماسية"،ولكن "قلج أرسلان" لم يوافق على طلب الإمبراطور،فعاد المبعوث البيزنطي فاشلا في مهمته.

بدأ الموقف يزداد توترا بين السلطان والإمبراطور، وبازدياد هذا التوتر زادت إقامة التحصينات، فبعدما فرغ "مانويل" من إقامة التحصينات عند "ضروليوم" اتجه إلى مدينة "لوباديون Lopadium" لتفقد القوات البيزنطية هناك، ثم اتجه جنوبا إلى وادي نهر "الميآندر"، وأقام هناك لبعض الوقت تم فيه تحصين المنطقة، وخاصة مدينة "سوبلايون Soublaion"، للسيطرة على الطرق المواجهة لمدينة "قونية"، ثم عاد إلى

العاصمة البيزنطية في أواخر عام ١١٧٥م، وأثناء إقامة الإمبراطور"مانويل" في القسطنطينية حدث أمران:

أولهما: أن الإمبراطور عاقب "جابراس" بالسجن لفشله في الاستيلاء على مدينة "أماسية ".

ثانيهما : أن السلطان "قلج أرسلان " أرسل إلى الإمبراطور "مانويل" رفض هذا العرض، وبذلك بات واضحا أن الحرب واقعة لا محالة بين الإمبراطورية البيزنطية والسلاجقة، وأخذ كل منهما يستعد للقتال ،والواقع أن الإمبراطور "مانويل" كان أكثر استعدادا للقتال بعد ماكرس كل همه لهذا الغرض ، وأعد العدة لحرب طويلة مع السلاجقة، وظل حتى ربيع عام ٥٧١هـ/١١٧٦م، تقريبا يعمل على خزن كميات كبيرة من المؤن عند معسكره الذي أقامه عند "لوباديون"، كما قام بحشد قواته في هذا المعسكر، بالإضافة إلى القوات التي انضمت إليه من الصرب وهنغاريا، بحكم ولائهما للإمبراطورية، ولم يكتف الإمبراطور بهذا الحشد من القوات البيزنطية التي اشتملت أيضا على عناصر صليبية وإنجليزية، وهي العناصر اللاتينية التي تعمل في القوات البيزنطية، بل أرسل إلى البابا "الكسندر الثالث" ١١٥٩–١١٨١م خطابا في التاسع والعشرين من يناير عام ١١٧٦م، يبلغه بتطورات الموقف في آسيا الصغرى، ويطلب منه إرسال نجدات من الغرب الأوربي لمساعدة الإمبراطورية في حروبها ضد السلاجقة ، وقد لبى البابا نداء الإمبراطور، وكلف أحد الكرادلة ويدعى "شريزوجون Chrysogone" بالتوجه إلى ملك فرنسا يحثه على حمل الصليب، وانتشرت الأخبار في كل ربوع أوروبا باستعداد الإمبراطور "مانويل" لحرب السلاجقة، وظهر أمام الغرب والبيزنطيين والصليبين، أن الإمبراطور "مانويل" يـعد العدة لحملة صليبية ضخمة لقتال السلاجقة والمسلمين على حد وصف بعض المؤرخين. وفي أوائل عام (٥٧٢هـ/ صيف ١١٧٦م) كانت القوات البيزنطية البرية قد استعدت للقتال."٢٠"

أحداث معركة ميرو كيفا لون :

تقدم مانويل في أواخر(٥٧١هـ/صيف ١١٧٦م) باتجاه الأراضي السلجوقية، على رأس جيش كبير بلغ تعداده مئة ألف مقاتل، مصطحبا ديلون التركي وذي النون الدانشمندي ، متخذا طريق "لاذيق" والوادي الأعلى لنهر المياندر، وعندما وصل إلى منطقة الجبال الواقعة قرب الحدود، وصلت إليه رسالة من السلطان السلجوقي، يطلب منه تجديد المعاهدة، لكنه رفض ذلك أيضا، وتجمع الجيش كله أمام لوباديوم أرتأى مانويل قبل الخروج من لوباديوم ، أن يقسم جيشه إلى قسمين، تولى القسم الأول أبن عمه أندرونيكوس فاتازس، ومعه ذو النون حاكم سيواس السابق، وتقدم قواتهما بثلاثين ألف جندي، ومهمته مهاجمة السلاجقة من الشمال وإعادة ذي النون إلى بلاده

، في حين قاد مانويل القسم الثاني وهو القسم الرئيسي ، ومهمته التوجه إلي قونية من ناحية الغرب"٢١".

اجتاز القسم الأول من الجيش "بافلاجونيا" متوجها إلى "نيكسار"، وكانت تحت حكم ذي النون من قبل ، وذلك لوجود بعض الموالين لآل دانشمند فيها، ولما وصل أفراده إلى المدينة ضربوا الحصار عليها مركزا وشديدا، ونظرا لضخامة القوات وفر بها من إقليم بافلاجونيا، التي أمدها بالرجال والمؤن والسلاح ولما رأى قائد حامية المدينة أنه لا طاقة له بمقاومة الجيش البيزنطي والمتحالفين معه، لجأ إلى الخدعة، فأمر بإرسال السهام إلى المعسكر البيزنطي، وهي تحمل رسائل موجهة إلى القائد البيزنطي، تتضمن إنذارا بأن الدانشمنديين، الذين سلمت إليهم القيادة، يحاولون خيانة البيزنطيين، ويعملون على إيقاع القائد البيزنطي في أيدى السلاجقة الذين أعدوا الكمائن، وهم ينتظرون الفرصة المناسبة. صدق "فاتزاس" مضمون الرسائل بعد أن أطلع عليها، وبدأ يتوقع خيانة ذي النون، فتأخرت بذلك عملية اقتحام المدينة، كما أشاعت الفوضى داخل المعسكر البيزنطي، وبدأ التوتر ينتشربين الجنود البيزنطيين، ومما زاد في إشاعة الفوضى والاضطراب بين القوات البيزنطية، تلك الإشاعة التي أطلقها السلاجقة عن موت الإمبراطور مانويل؛ فاضطروا إلى رفع الحصار عن المدينة والإنسحاب دون نظام، فتعقبهم السلاجقة وقاتلوهم أمام أسوار المدينة وانتصروا عليهم، وكبدوهم خسائر فادحة في الأرواح، كان من بينها القائد فاتازس الذي حمل رأسه إلى السلطان السلجوقي "٢٢".

انزعج مانويل عندما بلغته نبأه هزيمة جيشه أمام نيكسار، و كان في طريقه إلى قونية، فظن أن القوة السلجوقية لازالت في الشمال ، و أن العاصمة السلجوقية خالية ممن يحميها و يدافع عنها ، فأغذ السير ليفاجئ السلاجقة ، فلم يسلك طريق دوريليوم، وهو الطريق الطبيعي للوصول إلى قونية ، و إنما توجه إلى لاذيق الواقعة على نهر المياندر، واخترق وادي النهر حتى وصل إلى "سوبلايون"، ثم سار شمال بحيرة أجر دير، ومضى إلى التلال المؤدية إلى سلسلة الجبال الضخمة المعروفة باسم جبال السلطان، إلى الشرق من سوبلايون، بالقرب من قونية، وحاول عبور الممر الواقع في هذه الجبال المعروف باسم ممر تزيبرتز الذي يقع في نهايته حصن "ميريوكيفالون" الخرب، ليكون في مواجهة قونية مباشرة. كان قلج أرسلان الثاني، في غضون ذلك، يرصد زحف الجيش البيزنطي متبعا خطة البدو، فدمر الطرق التي لابد أن يجتازها الجيش، وأحرق المحاصيل الزراعية، وأتلف المؤن في المدن والقرى التي تقع في الأراضي التي سيمر بها، كما سمم الآبار والينابيع لمنع البيزنطيين من الاستفادة من التموين والاستراحة والماء. وجند في الوقت نفسه، العساكر حتى صار جيشه يضارع الجيش الإمبراطوري في العدد، غير أنه يقل عنه عدة، لكنه يتفوق في التعبئة وسرعة الحركة نظرا لما يمتاز به الفرسان السلاجقة من الخفة وحرية

الحركة، ثم وزع قواته على المرتفعات والتلال، وأقام هو على مرتفع يشرف على تحركات الجيش البيزنطي."٢٣"

ارتكب مانويل أثناء زحفه خطأين جوهريين:

الأول: عندما أهمل استكشاف المنطقة،وهو أول عمل يقوم به العسكريون عادة.

الثاني: عندما رفض نصيحة قادته بالتروي والحذر، وعدم سلوك الممر الجبلي المواجه للعدو.

والواقع أن مانويل تأثر بآراء الأمراء الذين غرهم إقدامهم حتى وثقوا من بسالتهم، واشتد حماسهم لإحراز نصر كبير، كما أن الإمبراطور نفسه كان متحمسا للقتال بعد الاستعدادات الضخمة التي أنجزها من أجل القيام بهذه الحملة.

قرر مانويل المضي في سلوك الممر الضيق، فأمر جيشه بالتقدم. ولم يتعرض السلاجقة في تلك اللحظات للجيش البيزنطي، واكتفوا بمناوشة أفراده فقط، ثم انسحبوا وفق خطة عسكرية لإغراء الجيش البيزنطي على الدخول في الممر. وهكذا اجتازت مقدمة الجيش مدخل الممر وأوغلت فيه، وتوهم البيزنطيون أن السلاجقة غير قادرين على خوض الحرب، فتمادوا في التوغل في داخل الممر وهم مطمئنون، في الوقت الذي انتشرت فيه القوات السلجوقية فوق رؤوس الجبال، وفي الأماكن المختفية عن أعين القوات البيزنطية، وتركزت على جانبي الممر ومن حوله. كان الجيش البيزنطي يحاول أن يقطع الممر البالغ طوله عشرة أميال بسرعة، للخروج بعد ذلك إلى السهل المنبسط أمام مدينة قونية، لذلك اندفع أفراده مع عرباتهم ومعداتهم حتى تكدس بهم الممر، وسار الجنود إلى جانب الدواب والعربات المتلاصقة، وانتشر بينهم مرض الإسهال فخارت قواهم. على أن العربات الثقيلة، التي حملت آلات الحصار والمؤن، أبطأت في سيرها، فوجد الجنود أنفسهم وقد حشروا حشرا، وتعذر عليهم التقدم حين تسببت المقدمة والمؤخرة في غلق الممر من الأمام ومن الخلف. حدث هذا تحت بصر السلاجقة الذين كانوا يراقبونهم، منتظرين اللحظة المناسبة للانقضاض عليهم دون تهور أو اندفاع. أدرك مانويل، في هذا الوقت الحرج، مدى ما ارتكبه من خطأ عسكري عندما حشر جيشه ونفسه في ذلك الممر الضيق. وحتى يشغل القوات السلجوقية، أرسل صهره بلدوين الأنطاكي على رأس قوة عسكرية من الخيالة، ارتقى معها التل وهاجم قوة سلجوقية، غير أنه هزم ولقي مصرعه مع رجاله. وشهد الجنود الذين في الوادي ما حل بالفرقة من هزيمة، فدب الذعر فيهم وتضعضعت صفوفهم وهبطت معنوياتهم. وضربت القوات السلجوقية، في اللحظة المناسبة، مقدمة الجيش البيزنطي بهدف شل حركته ومنعه من التقدم. نجحت بالصمود واحتمى أفرادها ببعض التلال، بينما بقيت المعدات في الممر، فأدت إلى وقف تقدم الجيش الذي أضحى أسيرا

في قبضة القوات السلجوقية. وبعد أن نجح السلاجقة في وقف تقدم الجيش البيزنطي، هاجموا القلب بهدف شطره إلى قسمين، ونجحوا في ذلك عندما ارتكب قائد المؤخرة خطأ بابتعاده عن جسم الجيش، وشكلت الحيوانات حاجزا ففصلته عن القلب. عندئذ ركز السلاجقة سهامهم على الثيران التي تجر العربات، وقتلوا عددا كبيرا منها، مما زاد في العرقلة واتساع الهوة بين شطري الجيش، فتفككت عندئذ، الجحافل البيزنطية، وتجمع كل شطر حول نفسه مكونا جسما ضخما جامدا، وبلغ من شدة التصاق الجنود ببعضهم أنه لم يكن بوسعهم أن يحركوا أيديهم إلا نادرا، ففقدوا بذلك حرية الحركة التي هي عنصر أساسي من عناصر الانتصار، كما تعذر عليهم القيام بالحركات العسكرية الضرورية، التي تجعلهم قادرين على مجابهة العدو بصفوف منتظمة ومتأهبة للقتال. ثم هاجمت القوات السلجوقية مؤخرة الجيش البيزنطي، فتشتت، ولما حاول أفرادها بلوغ إحدى القمم أثار تحركهم الفوضوي الغبار، والتراب من حولهم، فاستحالت رؤية القوات لبعضها، فاصطدمت ببعضها، مما أدى إلى وقوع كارثة حقيقية. ركز السلاجقة بعد ذلك ضغطهم على القسم الآخر من الجيش، وأمطروه وابلا من السهام، كما دفعوا بكتل الأحجار الضخمة من أعلى قمم الجبال، مما زاد في إرتباك القوات البيزنطية"٢٤".

نتيجة لهذا الوضع العسكري المتردي، حاولت القوات البيزنطية الخروج من هذا المأزق الصعب بأي وسيلة، لكنها فشلت في ذلك بعد أن أغلق السلاجقة المنافذ، كما سدت العربات الطريق الضيق، فدب اليأس في نفوس الأفراد وانهارت قواهم، وفقدوا شجاعتهم. وكان مانويل أول من استبد به الذعر والقلق، فحاول الفرار طلبا للنجاة. وحتى يزيد السلاجقة من إثارة الذعر في نفوس القوات البيزنطية، فإنهم عمدوا إلى وضع رأس القائد بلدوين الأنطاكي على عصا طويلة وطافوا به أمامها، كما عمدوا إلي ترديد نداءات ليلية تشير إلي أنهم أعدوا العدة لإبادتهم مع طلوع الفجر، وكان لهذه النداءات أسوأ الأثر في نفوسهم.

وجاءت أخيرا لحظة الإجهاز على الجيش البيزنطي المرتبك، فانقض السلاجقة عليه، وراحوا يقتلون أفراده كيف شاءوا، وتوغلوا بينهم حتى وصلوا إلى مكان وجود الأمتعة والعربة الملكية التي تركها الإمبراطور خلفه حين تقدمه، فنهبوها وأحرقوها، واستمر القتال حتى حلول الظلام. ونجح مانويل بعد ذلك في الخروج من الممر إلى أحد شعاب الوديان المتفرعة، كما استطاعت بعض قواته اللحاق به، لكن السلاجقة كانوا لهم بالمرصاد، فانقضوا عليهم، وقتلوا وأسروا عددا منهم، وتمكن مانويل من الفرار، وراح يتنقل في الوديان المجاورة حتى اتصل ببعض قواته، فطارده السلاجقة أيضا وحاصروه من جديد. واستمر القتال مدة سبعة أيام في ظروف غير عادية.

كانت حالة الجيش البيزنطي بعد الهزيمة تدعو للرثاء، فقد قتل وأسر العديد من أفراده، وتشرد من نجا بين هائم على وجهه في شعاب الوديان، وجريح في أرض

المعركة. ولم يجد مانويل أمامه، في هذه الظروف الصعبة سوى طلب الصلح. ويروى ميخائيل السرياني أنه أرسل إلى قلج أرسلان يعرض الصلح عليه وتسليمه المدن التي حصنها الإمبراطور مؤخرا، وهي دوريليوم وسوبلايون، مقابل إنقاذ ما تبقى من القوات البيزنطية والسماح لها بالانسحاب."٢٥"

ويذكر المؤرخ "نيكتاس" أن السلاجقة تقدموا "باتجاه القوات البيزنطية، وينتقل فجأة إلى القول بأن أحد القادة الأتراك أصدر أوامره إلى القوات السلجوقية بالتوقف عن القتال، ثم تقدم إلى الإمبراطور وقدم له جوادا مسرجا كهدية من السلطان، وطلب منه عقد الهدنة مقابل تدمير تحصينات دوريليوم وسوبلايون. ويروى الإمبراطور البيزنطي حول الصلح مع السلاجقة – في الكتاب الذي أرسله إلى الملك هنري الثاني – أن السلطان السلجوقي توسل إليه في عقد الصلح مقابل إطلاق سراح جميع الأسرى البيزنطيين، والتحالف مع الإمبراطورية ضد أعدائه، وأنه استجاب لهذا النداء، بعد أن أدرك أن لا جدوى من مواصلة القتال بسبب فقدانه آلات الحصار ومعدات الحرب. ووصف مانويل، في رسالة أخرى، أرسلها إلى الإمبراطور الألماني فريدريك بربروسا، موقف السلطان السلجوقي بأنه ضعيف، لكن فريدريك اعلم بعد ذلك بحقيقة الموقف ، وأجابه على رسالته بأن الإمبراطور الألماني، الذي استمد قوته من الأباطرة الرومان العظماء، يجب أن يحكم الإمبراطورية الرومانية بشقيها الشرقي والغربي."٢٦"

وتتفق الروايات الثلاث على بأن مبدأ الصلح قد تقرر بين السلطان والإمبراطور، وأن القوات البيزنطية كانت في حالة سيئة للغاية لا تمكنها من مواصلة القتال، في حين كانت القوات السلجوقية لا تزال في حالة تأهب ومستعدة لمواصلة القتال، ولكنها تختلف في تحديد البادئ بطلب الصلح وبنوده. وتتبني الباحث رواية ميخائيل السرياني، لأنها صادرة عن مؤرخ محايد من جهة، ومن جهة ثانية، كانت حالة الجيش البيزنطي يرثى لها، ولا يستطيع المقاومة ولا الحرب، لكن يختلف معه في أن الصلح كان في مقابل تدمير تحصينات مدينتي دوريليوم وسوبلايون، وليس تسليم هاتين المدينتين إلى السلاجقة، وذلك استناد إلى الأحداث التاريخية التي تلت ذلك. ومهما يكن من أمر فقد استقرت قاعدة الصلح على البندين التاليين:

– يبادر مانويل فورا بالانسحاب من الأراضي السلجوقية.

– يدمر التحصينات التي أقامها مؤخرا في دوريليوم وسوبلايون.

ولهذا البند الأخير أهمية كبيرة للسلاجقة، لأنه سمح لهم بالتقدم دون عائق إلى وادي نهر المياندر. وهناك إشارة عند ميخائيل السرياني تسمح بافتراض أن السلطان فرض على الإمبراطور دفع ضريبة باهظة.

وأرسل قلج أرسلان الثاني بعد عقد الصلح قوة عسكرية بقيادة ثلاثة من الأمراء رافقت مانويل حتى حدود، بلاده لئلا يتعرض لغارات التركمان"٢٧".

ويبدوا أن القبائل البدوية التركمانية غضبوا لهذا الصلح ولاموا السلطان على تصرفه. والواقع أنهم الفئة الأكثر احتكاكا بالبيزنطيين لقربهم من مناطق الحدود، وهم أعلم بمصلحتهم من السلطان الذي يعيش بعيدا عنهم. لقد كانوا بحاجة إلى أراض جديدة نظر الظروف حياتهم المتنقلة، وازدياد أعدادهم بفعل الهجرات المستمرة، لذلك اختلفت وجهة نظرهم مع وجهة نظر السلطان، وكان الأجدر به أن يأخذ بوجهة نظرهم، لكنه لم يستمع إليهم وأصر على رأيه. ونتيجة لذلك راح هؤلاء يهاجمون الجيش البيزنطي المنسحب، فاستاء البيزنطيون من هذا التصرف، وألقوا اللوم على القوة السلجوقية المرافقة لهم، إلا أن هؤلاء برروا موقفهم بأن ذلك من عمل التركمان ولا سلطان لهم عليهم.

وهذه المعركة الهامة سجلها المؤرخ البيزنطي "نيقتاس خونياتس Nicetas Choniates" ووصفها "فريونس Vryonis" بأنها كانت "منازكرد" ثانية للعسكرية البيزنطية، تلك المعركة التي حدثت قبل ذلك بقرن من الزمان، كما شبهها مانويل نفسه بهزيمة "منازكردعام٤٦٣هـ/١٠٧١م" ليقارن نفسه "برومانس الرابع ديوجينيس" حين أسر في حين ظل هو حرا مطلق السراح. "٢٨".

نتائج المعركة :

قال "شارل ديل Charles Diehl": معقبا على نتائج هذه المعركة: أن بيزنطة فقدت في يوم واحد (٥٧١ هـ/١٧سبتمبر١١٧٦م) كل المكاسب السابقة التي عمل من أجلها الأباطرة السابقون عبر قرون طويلة ، ووضعت هذه المعركة نهاية لسيادة بيزنطة على آسيا الصغرى إلى الأبد، وأملى السلطان السلجوقي المنتصر شروطه على إمبراطور الروم المهزوم. وصور المؤرخ البيزنطي نيقتاس خونياتس Nicetas Choniates الموقف بقوله " أن اللتين يطمعون في ممتلكاتنا، ويرغبون في تدمير سلالتنا، بيننا وبينهم فجوة واسعة مع الكراهية، ووجها ت نظرنا تختلف إختلافا تاما وطريقنا يسير في اتجاه معاكس "٢٩".

– فرار الإمبراطور بعد أن خانته شجاعته ، وحاول من تبقى من الجيش أن يتبعه، ولكن لم يحظ بذلك إلا عـدد قـليل نظرا لأن الترك سدوا جميع المنافذ ولم يسمحوا لهم بالفرار."٣٠"

– حدثت مذبحة هائلة للبيزنطيين ، وأنفذ "قلج أرسلان " رسولا يعرض الصلح على الإمبراطور الذي كان يجمع فلول جيشه في السهل، في مقابل أن يعيد إليه قـلعتي "ضريليوم وسيليوم Doryleaum Sublaem، بعد نزع سلاحهما، فبادر الإمبراطور بقبول العرض، وأرسل بصحبة الإمبراطور ثلاثة من الأمراء الترك، وحامية لحما يته من التركما ن أثناء تراجعه نحو القسطنطينية."٣١"

– هدم وإزالة جميع الحصون والقلاع الحربية في آسيا الصغرى، التنازل عن ادعاءاته في أراضي السلاجقة.

وكان قبول هذا الشرط هو بمثابة الاعتراف بعجز الإمبراطورية عن طرد السلاجقة الأتراك من آسيا الصغرى ، وكان من نتائجه:- أن بدأت جحافل التركمان تتدفق من منابع الأنهار الأسيوية فوق المرتفعات متجهة نحو مصباتها في بحر إيجه.

– ضياع هيبة البيت الكومنيني ،فـقـد قضي على الجيش البيزنطي الذي أعده كلٌ من "الكسيوس وحنا كومنين ".

– ضياع أمل الدولة البيزنطية في استرجاع ممتلكاتها في آسيا الصغرى من قبضة السلاجقة القوية، على نحو يجعل "ميروكيفالون" مكملة لمانزيكرت. ولكن "قلج أرسلان الثاني " لم يدرك أهمية انتصاره كما حدث مع "ألب أرسلان " من قبل، ولعل ذلك إلا أنه ركز كل اهتمامه في الجهة الشرقية، إذ كان كل ما يريده هو تأمين حدوده فقط، فقد استولى على ملطية عام ١١٧٧م، كوتيا، وإسكى شهر عام ١١٧٢م، وحاصر انطاليا، وأصبحت الأناضول فعلا أرض الترك، وفي أواخر القرن الثاني عشر أصبحت المصادر الغربية تطلق عليها أرض الأتراك"٣٢".

ــ وضعت حدا لمحاولات الإمبراطور "مانويل" في طرد السلاجقة نهائيا من آسيا الصغرى، فقد استولوا عليها للأبد.

ضاعت هيبة الإمبراطورية البيزنطية ومكانتها السياسية والعسكرية، التي كانت سلاحها الأول في مواجهة منافسيها في الغرب الأوربي، وكذلك كحامية للأمارات الصليبية في الشرق اللاتيني.

ثم إن هذه الهزيمة التي نزلت بالدولة البيزنطية عام ٥٧١هـ /١١٧٦م على يد القوى السلجوقية التي كان معظمها آخذ قي التدهور والإنحلال ،تتضح أهميتها في أن قوى عربية جديدة كانت قد أخذت في الظهور ذلك الوقت لتحل محل القوى السلجوقية المفككة في آسيا الصغرى ،ونعني بذلك ظهور"الدولة الأيوبية "بمصر والشام، التي أخذت تتزعم الجبهة العربية في الشرق الأدنى ضد اللتين الدخلاء "٣٣".

ــ والواقع أن هزيمة الجيوش البيزنطية على يد السلاجقة أتاحت الفرصة للدولة الأيوبية الناشئة لتعزيز مركزها حتى تستطيع مجابهة كلٍ من البيزنطيين والصليبين.

ــ اعتبرت المعركة انتصارا كبيرا للإمبراطورية الغربية و"لفريدريك برباوسا ١١٥٢ــ١١٩٠م" نفسه، والذي توهم الإمبراطور البيزنطي أنه ندله، فبعد هزيمة "مانويل" أمام السلاجقة أرسل "فريدريك برباروسا" – وكانت فرحته لا توصف بهزيمة "مانويل" وسخر من خسارته وتشفى فيه – بخطاب يقطر احتقارا، ويسخر فيه من

أحلامه الواهمة في استعادة الإمبراطورية الرومانية القديمة تحت عرشه، ولا ينقصه سوى استعادة سيطرته على الإقليم اليوناني الشرقي (يقصد الإمبراطورية البيزنطية)، وأنه ليس من حق "مانويل" أن يحمل لقب إمبراطور، وأن عليه أن يتنازل عن لقب (ملك الروم) إلى الإمبراطور الروماني. ولما كان "فريدريك برباروسا " قد أعلن نفسه وريثا لأباطرة الرومان، لذلك رأى أن يمتد سلطانه على بلاد الروم (الدولة البيزنطية) ذاتها.

ـ أضعفت مشروعات "مانويل "موارد الدولة المالية،وبرهنت على استحالة إبقاء سيادته على كل من أوروبا والشرق الأدنى، أمام دول غربية لاتينية مسيحية، وحلقة قوية من القوى الإسلامية، ففشلت كل مشروعاته الشرقية، بل وانهار وضع بيزنطة في العالم، فطردت بيزنطة من إيطاليا، وأصبحت تواجه القوى الغربية ضعيفة منهكة. حتى مشروع التعاون مع روما انتهى وصور المؤرخ البيزنطي Nicetas Choniates الموقف بقوله "أن اللتين يطمعون في ممتلكاتنا، ويرغبون في تدمير سلالتنا، بيننا وبينهم فجوة واسعة مع الكراهية، ووجهات نظرنا تختلف اختلافا تاما، وطريقنا يسير في إتجاه معاكس"٣٤".

ـ وإذا كان انهيار الدولة البيزنطية قد بدأ بعد موت "باسيل الثاني "عام ١٠٢٥م، أي في عصر الأسرة المقدونية، ونجح كل من الكسيوس كومنين وحنا كومنين في تأخير سرعة هذا الانهيار، إلا أنهما فشلا في إيقافه. أما السياسة الخاطئة التي أتبعها "مانويل كومنين " فقد قادت الدولة البيزنطية مرة أخرى إلى طريق الانهيار التام"٣٥".

ـ كانت الهزيمة بالغة الأهمية بالنسبة للاتي في الشرق، فقد أدركوا أهمية بيزنطة بالنسبة لهم وشعروا بأن وجود بيزنطة مهم لمواجهة القوى الإسلامية النامية، في حين أن الزنكيين في الشام، الذين تنازعوا الوصاية على "إسماعيل" بعد وفاة "نور الدين"، لم يشعروا بأهمية تلك المعركة بالنسبة لمستقبل اللتين في الشرق.

ـ حاول الإمبراطور في سبتمبر عام ١١٧٦م، التحالف مع بلدوين ملك بيت المقدس لمهاجمة صلاح الدين في مصر، ولإزالة آثار هزيمة "ميريوكيفالون " وأرسل أسطولا لعكا، ولم يلقى البيزنطيون استجابة، وكانت هذه آخر محاولة من جانب "مانويل".

– جاءت هزيمة ميريوكيفالون، وعلى ذلك النحو المهين، من جانب الأتراك السلاجقة، لأنها كانت بمثابة " الاحتفال المئوي بكارثة مانزيكرت "، وقد جاء الانتصار السلجوقي علي بيزنطة في أحد الممرات الجبلية بآسيا الصغرى، ليقضى على ما بقى للجيش البيزنطي من هيبته.

– ومما يدل على عظمة كارثة ميريوكيفالون على الإمبراطورية البيزنطية؛ أنه بعد (٢٨) عاما فقط من تلك الهزيمة، كانت القوات الصليبية من الغرب الأوربي تعبث فسادا في القسطنطينية. وتحتلها لأول مرة في تاريخها وذلك عام ١٢٠٤م، بعد أن تزايدت الأطماع اللاتينية فيها، وجاءت المعركة المذكورة تعبيرا عن الضعف الداخلي الذي لم يدرك الإمبراطور المذكور حقيقته، فقد تصور مانويل أنه ند لأباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة مثل فردريك بربروسا Frederick Barbarossa (١١٥٢–١١٩٠م) وكان ذلك قصر نظر واضح تماما. "٣٦"

أحوال السلاجقة والبيزنطيين بعد معركة "ميروكيفالون" :

رفض مانويل بعد أن عاد إلى عاصمته، تنفيذ البند المتعلق بتدمير تحصينات دوريليوم وسوبلايوم، على الرغم من أنه أصدر أوامره بإزالة تحصينات المدينة الثانية أثناء مروره فيها، في طريق عودته إلى بلاده. ويبدو أنه عدل عن قراره هذا عندما وصل إلى عاصمته، على الرغم من معاتبة قلج أرسلان الثاني له، الذي استاء أخيرا من عدم استجابة الإمبراطور لنداءاته المتكررة بشأن ذلك. ولم يكن أمام الزعيم السلجوقي سوى الضغط عليه بمهاجمة الأراضي البيزنطية قبل أن يستعيد الجيش البيزنطي قوته التي فقدها في ميريوكيفالون، فأرسل جيشا مؤلفا من أربعة وعشرين ألف مقاتل للإغارة على وادي نهر الميآندر، في الجزء الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى، وتمشيط المنطقة حتى البحر. ونجح الجيش السلجوقي في تنفيذ المهمة بدليل توغله في وادي النهر،ونهبه مدن "بلاتيه" و"ترالس" وأنطاكية.

خشى مانويل بعد أن علم بأنباء التوغل السلجوقي في أراضيه، أن يقود الجيش بنفسه للقاء العدو، لأنه كان لا يزال يعاني من أثر الصدمة التي لحقت به في ميريوكيفالون، كما أن حالته الصحية كانت لا تسمح له بالقيام بذلك؛ فعهد إلى بعض قادته بالتصدي للسلاجقة، وطلب منهم عدم التسرع في الدخول في معركة إلا بعد ضمان النصر حتى يتجنبوا كارثة أخرى مثل ميريوكيفالون، وحقق الجيش البيزنطي نصرا جزئيا على الجيش السلجوقي. وقرر مانويل أن يقوم بنفسه بمحاربة السلاجقة ووقف تسللهم ، إلا أنه فشل في تحقيق هدفه. وتشير المعارك التي حصلت بين السلاجقة والبيزنطيين، بعد ميريوكيفالون، أن السلاجقة عملوا على كسب أراض جديدة على حساب الدولة البيزنطية"٣٧".

مات الإمبراطور مانويل كومنين في عام(٥٧٧هـ/ ١١٨١م)، كسير الفؤاد، تاركا إمبراطورية البيزنطيين تعاني من التدهور والاضطرابات والضعف والإفلاس، بسبب سياسته وأحلامه الواهمة، فعلى الصعيد الداخلي أدت الحروب الكثيرة إلى زيادة نفوذ الإقطاعيين الذين استفادوا من نظام الهبات العسكرية، "برونويا Pronoia، الذي ضمن لهم حقوقا مالية وقضائية جعلتهم دويلات داخل الإمبراطورية، وهذا مما أضعف السلطة المركزية للدولة، فلم يعد بوسعها مواجهة ضغط العناصر التركية النازلة على

حدودها. وواكب ذلك تردي الأحوال الاقتصادية، بسبب كثرة الضرائب لتمويل المعارك والحروب، فضلا عن أن طرد التجار البنادقة، دون ترتيب مخطط وبطريقة مفاجئة غير مدروسة، أحدث هزة في السوق التجارية، وانهيارا مفاجئا في الاقتصاد البيزنطي.

وفي أثناء إنشغال مانويل بالمعارك مع السلاجقة عام ١١٦٨م، كانت زوجته الأنطاكية "ماريا" قد أنجبت له وريثا للعرش، أسمته "الكسيوس الثاني كومنين "، كما اتخذت لها عشيقا راحت تلهو معه، غير عابئة بمشاعر الناس، حتى لاكت الألسن سيرتها. وبعد موته عام ١١٨٠م أصبحت الملكة الأنطاكية هي الوصية على أبنها الصغير، وكما تركت نفسها لعشيقها، تركت له تصريف شئون حياتها، وتركت له أيضا تصريف شئون الإمبراطورية المنهارة ومن حولها بطانتها من اللتين الأجانب."٣٨".

وتدل معركة "ميروكيفالون" على قوة السلاجقة الحربية ، بل إن الدولة السلجوقية شرعت في إعداد نظم إدارية، وتنمية مظاهر الحضارة الإسلامية، وفي إثارة النشاط الاقتصادي، وإيجاد قانون منظم، فكان هذا نواة الوحدة السياسية التي اكتملت في القرن التالي، على أن هذه الحقبة في التوسع كانت فترة لازمة، وهذا الازدواج استمر طوال تاريخ سلاجقة الروم"٣٩".

وكان اهتمام السلاجقة بفرض سيطرتهم على الغزاة والتركمان، وخاصة الدانشمند، أكثر من اهتمامهم بعلاقتهم مع بيزنطة، وكان اهتمامهم في هذه الفترة موجها للشرق، وظهرت منذ عام ١١٨٥م، ولأعوام عديدة، حركة تركمانية واسعة، بدأت من أعالي الجزيرة، وانتشرت إلى أرمينية ثم إلى حدود جورجيا، ومنها إلى قبادوقيا السلجوقية، ثم امتدت إلى قيليقة وشمال الشام، وكان زعيم تلك الحركة شخص يدعى "رستم " لا توجد عنه تفاصيل واضحة، بالإضافة إلى أن التركمان في شرق الأناضول تأثروا ببني عمومتهم في إيران: حضاريا وثقافيا "٤٠".

التفت قلج أرسلان الثاني بعد انتصاره في ميريوكيفالون نحو الشرق، للقضاء على آخر إمارة دانشمندية في ملطية، وضم أراضيها إلى سلطنته، وتوحيد أتراك الأناضول تحت قيادته. وأضحت هذه الإمارة ساحة للصراع الجديد بين القوتين السلجوقية والدانشمندية. شن السلطان السلجوقي هجوما عنيفا على ملطية في عام (٥٦٧هـ/١١٧١م) منتهزا فرصة نشوب نزاع داخلي بين أعيانها حول وراثة العرش، بعد وفاة الأمير الدانشمندي أبي القاسم بن ذي القرنين، حيث انقسموا إلى فريقين، ونجح السلطان السلجوقي في مهاجمتها بقوات كثيفة، وضرب عليها حصارا مركزا، استمر مدة أربعة أشهر تعرض السكان خلالها للضيق، بسبب تناقص الأقوات وحلول فصل الشتاء. ودخل قلج أرسلان الثاني إلى المدينة في (٢٩ربيع الآخر٥٧٣هـ/٢٥أكتوبر١١٧٧م) وبذلك سقطت آخر إمارة دانشمندية، ولم يعد في بلاد الأناضول سوى الأتراك السلاجقة. وكان"قلج أرسلان" قد تقدمت به العمر وأراد إرضاء أبنائه، وخشي من تضارب الأطماع وقيام صراع عند وفاته، أو استغلال

البعض لتلك الظروف، فبدأ بتوزيع مملكته بينهم، فقسم المملكة أحد عشر إقطاعا؛ وزعها على أبنائه التسعة وشقيقه وابن أخيه ، وذلك في عام ١١٨٦م، غير أن الخلاف يلبث أن دب بين الأخوة، وترتب على ذلك الاستعانة بالتركمان بقيادة رستم، فاستعان بهم "قطب ملكشاه" أمير سيواس، أكبر أبناء "قلج أرسلان "،فقد أراد أن يلي أمر السلاجقة بعد أبيه، والاستئثار بالأمر دون إخوته، فأرغم أباه على أن يجعله قسيما في الحكم ، وفي أثناء ذلك وصلت طلائع الحملة الصليبية الثالثة، التي كان من قادتها "فريدريك بربااروسا " حليف "قلج أرسلان "، وكان أبناء "قلج أرسلان " الباقيين مشغولون في التوسع على حساب بيزنطة. كل هذه العــوامل جعلت بيزنطة تبحث عن حليف ولم تجد غير الإلتجاء إلى " صلاح الدين الأيوبي"٤١"



الهوامــــش

١- البيروني: الآثار الباقية، ص١٣٢، ابن الأثير: الكامل، ج٩،ص٥٣٤، اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي،ج٢، ص٢٤٠، سعيد عاشور: الحركة الصليبية،ج١،ص٧٥، حسنين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية،ص١٩٣؛ محمد كرد على: خطط الشام ،ص٢٦١. كانت آسيا الصغرى تضم أهم الولايات البيزنطية، كأرميناك والأناتوليك، ومن مدنها خرج عدد كبير من أباطرة الدولة، إلى جانب أنها مصدر بشري عام لجند الإمبراطورية.أنظر: زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى،ص٤٣.

2- Vryonis: Byzantium and Europe. London,1967,p134.

٣- سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى،ص ص٢٢٦،٢٢٧، الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص٧٣٨، عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ، ص٦٤، أحمد حلمي : السلاجقة، ص٨٧ احمد رمضان: المجتمع الإسلامي في بلاد الشام، ص٥٠، فيليب حتى: تاريخ سورية، ج٢،ص٢٠٥، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج١، كامبردج ١٩٥٤م، ص١٠١، سعيد عاشور: الحركة الصليبية،ج١، القاهرة،١٩١٣م، ص٩٦

Crousset, L Empiredu Levant.p169.،Setton: Hist of Crusades,p21

شهاب الدولة قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق انشق على حكم ابن عمه "طغرل"، وانضمت إليه أعداد كبيرة من الترك، وكان أبوه أكبر أفراد الأسرة السلجوقية ،فاعتبر نفسه أحق بالملك من طغرل ، وقام أبناء قتلمش بالثورة على "ألب ارسلان" وانضمت إليهم العناصر التركمانية. أنظر: الحسيني : أخبار الدولة السلجوقية، ص ٣١،٣٠؛ زبيدة عطا : الترك في العصور الوسطى،ص٥٦ص٥٧.

طغرل بك: أحد زعماء الأتراك السلاجقة، خرج مع جماعته من براري القرغيز في التركستان، واستقر بالقرب من بخارى في بلاد ما وراء النهر، وهناك اعتنق وجماعته الإسلام على المذهب السني، وفي سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م دخل طغرل بك بغداد، وأنهى بذلك نفوذ بني بويه. أنظر: ابن الأثير: الكامل ،ج٩، ص ١٧٦؛ الأصفهاني: مختصر تواريخ آل سلجوق ، ص١٢؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر،ج ٢،ص٧٣؛ ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر،ج ١،ص٥٣٦.

٤- سعيد عاشور : الحركة الصليبية،ج١،ص٩٢، حسنين محمد ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١٩٠، احمد العبادي: التاريخ العباسي والأندلسي، ص١٨٧، إبراهيم العدوى: التاريخ الإسلامي، ص٣٥٦، أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي،ج٣، ص٤٣٨، عبد القادر احمد اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية ،ص٩٣، أحمد عبد الكريم

سليمان: المسلمون والبيزنطيون (في شرقي البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث والسادس هـ/التاسع والثاني عشر الميلادي) ج١،الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م،ص٢٤٢.

مانزيكرت: مدينة من مدن أرمينية شرق الأناضول على امتداد الفرع الجنوبي للفرات الأعلى، في ولاية موش الحالية على نهر مرادصو "الفرات الشرقي" وتسمى "مانزيكرت" الآن "زابيسكى" Zapiski ، وكانت جزءا من الاتحاد السوفيتي. وقد استفاد السلاجقة من موقعة "مانزيكرت" فوسعوا نفوذهم في آسيا الصغرى وسقطت في أيديهم "قونية" ثم "نيقية" واستولى الأتراك السلاجقة على الأراضي البيزنطية شرقي "كبادوكيا"، وأقرت المسلمين نهائيا في أرمينية. انظر ياقوت: المصدر السابق، ج٥، ص٢٠٢، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص٨٨، عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، ص١٧٤، أسد رستم: الروم، ج٢، ص١١٢، فليب حتى : تاريخ سورية، ج٢،ص٢٠٥.

5- Grousset : Histoire de Aremeni, p628

Setton and Baldwin: AHist.of Crusades,Vol,1P150,Cedrnos,Synopsus Historon,ed.Bekker.C.H.S,1938,II,PP.634,638,Zonoras,Epitomeed Buttner,Wobst.Bonn,1989,II,pp.189,191Crousset: H istoire.der Aremeni,p 628

ـ زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص٥٨، جوزيف نسيم يوسف : العرب والروم واللاتين، ص٢٢٢-٢٢٣، اوستركورسكي: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة: جون هسي، اكسفورد، ١٩٥٤م، ص٣٠٧.

نيقية: مدينة شرق القسطنطينية عقد بها أول مجمع مسكوني في تاريخ الكنيسة، دعا إلى عقده الإمبراطور "قسطنطين الأول" لحل الخلاف بين أريوس Arius، وأثناسيوس Athanasius، وهما قساوسة من كنيسة الإسكندرية، اختلفا حول ألوهية السيد المسيح، فدعا الإمبراطور إلى عقد المجمع عام٣٢٥م،ولبى الدعوة ٣١٨ أسقفا من أساقفة العالم المسيحي. أنظر: حسنين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص٢٨، ص٢٩، أسد رستم: الروم،ج١،ص٥٥ـ٥٩، الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص٢٨ـ٢٩، إسحاق عبيد: الإمبراطورية الرومانية ،ص٨٣.

٦- ستروكورسكي: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية،ترجمة: جون هيسي، اوكسفورد، ١٩٥٤، ص٣١٤،

Vasiliev:History of the Byzantine Empire324-1453,2vols,Madison,II,PP395-6,Camb.Hist of Islam vol I,p23.

٧- ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١١،١٢؛ عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ،ص٥٥؛ حسين محمود، احمد الشريف: العالم الإسلامي، ص٥٧٣ ؛ أسد رستم: الروم، ج٢، ص١١١، الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص٧٤٥، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص١٠٥،

Stevenson: The Crusadersin theEast,p:6

٨- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٥، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص١٩٤، Camb.Hist. of Islam,vol1, P236

٩- زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص٦٣، Setton: AHist. Of the Crusades,1Vols,p213

١٠- زبيدة عطا: المرجع السابق،ص٦٥، استركورسكي: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية،ص٣٢٠،

Camb.Hist.of Islam,vol1,P237

١١- الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص٧٣٢، ص٧٣٣، عبد القادر اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية، بيروت، ١٩٦٦م، ص١٤٤، ص١٥٠، محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد مانويل الأول، ص٥٢، هسي: العالم البيزنطي، القاهرة، ١٩٧٧م، ص٦٠-٦٢، محمد محمد مرسى الشيخ : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص٣٤٦، ص٣٤٧،

Anna Comnena: The Alexiad, london1969.p93.Ki nnamos :Deeds of John and Manuel Comnenus,Trans.byCharles M. Brand, Colombia 1976.pp.13-31

١٢- ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٥ـ١٧، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٦٠٣ـ٦٠٧، حامد غنيم أبو سعيد، الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ،ج١، ص٢٥٩ـ٢٦٤، حسنين ربيع: جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين، ص١٨٣، أسمت غنيم : العلاقات البيزنطية الألمانية أثناء الحملة الصليبية الثانية في ضوء وثائق كيناموس، الإسكندرية ١٩٨٧م،

Setton, Hist. of the Crusades, I. pp. 460-462.

عن أحداث الحملة الصليبية الثانية ، انظر : ابن العبري : تاريخ الزمان ،١٦٣، سعيد عاشور: الحركة الصليبية ،ج٢، ص٦٠٧-٦١٦، حسنين ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٢١٩-٢٢٣، محمود سعيد عمران : السياسة الشرقية ، ص ١٥١، حسن حبشي : نور الدين والصليبيون، ص ٥٥-٥٦، عبد القادر اليوسف : العلاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، ١١٨-١٢٠، حسين مؤنس : نور الدين محمود، ص ٢٠١-٢٠٢، إسحاق عبيد: روما وبيزنطة، ص١٨٦-١٩٠، عزيز سوريال عطية : العلاقات بين الشرق والغرب تجارية ثقافية، ترجمة: فليب صابر يوسف، ص ٦٠،

Nicetas: op. cit. p.80-81, Kinnamos; op. Cit. P.58,Setton: op. cit. Vol.I, P. 469-470

لويس السابع : اعتلى عرش فرنسا بعد وفاة أبيه لويس السادس ، وقد أشتهر لويس السابع بالرقة والعطف والتقوى ، وكان يميل إلى الزهد والتقشف، كان الملك لويس السابع مصرا على اتخاذ الطريق الذي سلكه الصليبيون في الحملة الصليبية الأولى ،وبعودة الملكين لويس السابع وكونراد الثالث إلى بلديهما تكون الحملة الصليبية الثانية قد انتهت بالفشل ،ولم تحقق أي هدف من أهدافها. أنظر: الباز العريني: أوروبا العصور الوسطى، ص٥٢٤-٥٢٥، Setton: op.cit.vol 2 ,P422

١٣- سيد أحمد الناصري: الروم، ص٤١٨، محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، بيروت، ١٩٨١م، علية الجنزوري : إمارة الرها الصليبية، القاهرة ١٩٧٥م، عبد الحفيظ محمد علي : المسلمون والبيزنطيون في شرق البحر المتوسط فيما بين القرنين ٣-٦هـ/٩-١٢م،ج٢، القاهرة ١٩٨٢م. ص٢٧٥، رنسيمان : المسيحيون العرب في فلسطين، اسكس ١٩٦٨م، ص١٤.

١٤- ابن العبري : تاريخ الزمان، بيروت، ١٩٨٦، ص ١٧٥، الذهبي: دول الإسلام، ج١، ص٧٤، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٦٧٩، حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص٢٢٩-٢٣٠، فشر: المرجع السابق، ص ١٩٠، سيد أحمد الناصري : الروم، ص٤١٩،٤١٨.، أسد رستم : الروم، بيروت.١٩٥٥-١٩٥٦م، ج٢، ص٤١٧، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٥٧٦.،

Kinnamos,John: Epitome Historiarum -in C.S.H.B,Bonn 1836.pp204-205-207,Michel Le Syrien:vo 111,pp319-355.

١٥- عمر توفيق : مملكة بيت المقدس الصليبية ص١٤٠، محمود سعيد عمران : المرجع السابق ، ص٣٣١.

١٦- أسد رستم : الروم ، ج ٢ ، ص ٤١٧ ، رنسيمان :ج ٢ ، ص٥٦٧.

١٧- محمود عمران: المرجع السابق، ص٣٣٣، عمر كمال توفيق: المرجع السابق، ص ١٤٤.

١٨- محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص ٣٣٣، ٣٣٤، Kinnamos: p292، Nicetas:p159

١٩- حسنين ربيع: دراسات ،ص٢٢٩، محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص٢٧٦، عمر كمال توفيق: مملكة بيت المقدس الصليبية ،الإسكندرية ١٩٥٨م، ص١٤٠، هسي: العالم البيزنطي، ص٦٢،

Vryonis, Byzantium, p.145,Vasiliev,Byz. Empire,II,pp.427-428,Kinnamos:p292,Michel le Syrien:vol 111,p368.

٢٠-ابن الأثير: الكامل، ج١٠، ص١٥، التاريخ الباهر، ص١٦٠-١٦١، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص٣٥٦-٣٥٨، أبو شامة: الروضتين، ص ٣٠٨، ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج١، ص٢٣٣، سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، ج١، ص١٨٨، حسنين ربيع: دراسات،ص٢٣٠، محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص٢٨٧-٢٨٨، رنسيمان: الحضارة البيزنطية، القاهرة،١٩٦٧م، ج٢، ص ٤١٢، استركورسكي: المرجع السابق، ص٣٣٩،

Camb. Med. Hist, vol,2,p,355.4,p377

٢١- Kinnamos:pp296-297. يقدر ميخائيل السرياني عدد هذا القسم من الجيش بخمسين ألف مقاتل ص ٣٦٩.

٢٢- ابن العبري: تاريخ الزمان ،ص١٩٢ـــ١٩٣؛ Michel le Syrien:vol 111,p 369

٢٣- .Nicetas:p 230,Vasilev:vol 11 ,p82، استوركورسكي: تاريخ الدولة البيزنطية، ص٣٤٧.

٢٤- Nicetas:pp236-248,Michel le Syrien:vol 111,PP369-372

٢٥- Nicetas :p249,Kinnamos:p297.

٢٦- أشار إلى الرسالة المؤرخ "روجر هوفندن" في كتابه "التاريخ" الجزء الثاني، ص١٠١، أسد رستم : الروم، ج٢، ص٤٣، Vasiliev: vol11,p 436

٢٧- ابن العبري ، المصدر السابق ص١٩٣؛ محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد مانويل الأول، القاهرة '١٩٨٥م ، ص٣٤٩.

٢٨- حسنين ربيع : دراسات، ص٢٣٠ــ٢٣١، سعيد عاشور: الحركة الصليبية ، ج٢، ص٧٠٥، أوروبا العصور الوسطى، ج١، ص١٨٩، زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى ،ص٩٩؛ محمد عبد الشافي المغربي : آسيا الصغرى في العصور الوسطى دراسة في التاريخ السياسي والحضاري القرن (١١-١٣) ط. الإسكندرية،٢٠٠٣م، ص٢٢٠-٢٢١، محمد مرسي الشيخ : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ٢٧٢، ص ٢٧٣، أسد رستم: الروم، ج٢، ص١٥٧ - ١٥٨، علي صالح المحيميد : الدانشمنديون وجهادهم في بلاد لأناضول ، ط. الإسكندرية ،١٩٩٤م، ص ٢٣٣، محمد زكي نجيب :علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية في عصر أسرة كومنين ١٠٨١ــ١١٨٥م، ص ١٨٤، فشر: تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ص ٢٠٢ــ٢٠٣، فازيلييف: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية،ج، ص٤٢٨-٤٣٠؛ استركورسكي: تاريخ الحضارة البيزنطية، ص٣٤٧، شارلز أومان: الإمبراطورية البيزنطية، ص٢١؛ رنسيمان. الحضارة البيزنطية ،ج٢،ص٤١٢؛ هسي: العالم البيزنطي، ص٦٢.

Kinnamos.p.146-147 ,Camb.Med,Hist,vol.Iv.p37,Diehl:Hist.of

the Byzantine Empire,p114.

ميركيفالون"MyroKephalon: في منطقة فريجيا Phrygia في آسيا الصغرى Asia Minor إلى الشرق من كوما Choma، ويلاحظ أن كلمة ميركيفالون ذاتها – تعني ألف رأس – ومما يذكر أن الآلاف من البيزنطيين هلكوا في ذلك الموقع أكثر من مرة. أنظر:

Nicetas Choniates,O, city of Byzantium,Annales of NiKetas Choniates,Trans by:Harry Magoulias,Detriot,1984,pp.101-107,Diehl,History of the Bzantine Empire,p.119.

.Vryonia Byzantium,pp.144-145,Charles Diehl,Byzantium,p.208,Camb,Med,Hist,vol IV,p.378.

٢٩- استركورسكي:المرجع السابق، ص٣٤٧، رنسيمان: المرجع السابق، ج٢،ص ٤١٨، فازيلييف: المرجع السابق، ج٢ص، ص٤٣٠، هسي : العالم البيزنطي ، ص٦٢-٦٣، Diehl: Hist,of the Byzantine Empire,p 114

٣٠- زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص٩٩، رنسيمان: المرجع السابق،ج٢، ص٣٧٨، استركورسكي، المرجع السابق، ص٣٤٦، Camb.Hist. of Islam,vol,12,p.233,Came.Med.Hist,vol,1V,P378,.

٣١- زبيدة عطا :المرجع السابق، ص١٠٠، هسي: العالم البيزنطي، ص٦٣، فازيلييف: الإمبراطورية البيزنطية، ج٢، ص٤٢٦، رنسيمان :الحضارة البيزنطية،ج٢، ص٤١٤، Vryonis,Byzantium,p144

٣٢- حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٢٣٠-٢٣١، زبيدة عطا: المرجع السابق،ص١٠١،

Diehl: Hist.of Byzantine Empire,p114,Nicetas Choniates : History, Bonn 1835,p629.

٣٣- أراد الإمبراطور البيزنطي أن يقوم بعمل حربي ضد "صلاح الدين"، يعوضه الهزيمة القاسية التي أنزلها به سلاجقة الروم في (سبتمبر١١٧٦م)، والتي قضت على هيبة الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى، فضلا عن بلاد الشام، فأرسل سفارة إلى بيت المقدس لتعرض على الملك "بلدوين الرابع " إحياء فكرة القيام بحملة مشتركة لغزو مصر، ولكي يكسب الإمبراطور "مانويل كومنين" عرضه صفة جدية ، أرسل إلى عكا أسطولا من سبعين سفينة تحمل قوة كثيرة من المحاربين أستعدادا لغزو مصر. وحاول التحالف مع "بلدوين الرابع" ملك بيت المقدس، ولما كان "بلدوين الرابع" مريضا لا يستطيع المشاركة بنفسه في الحملة الصليبية البيزنطية على مصر، وبعد أن طال الأخذ والرد حول ذلك الموضوع والأسطول البيزنطي رابض في مياه عكا يئس المبعوثون البيزنطيون من جدية تفكير الصليبيين في مشروع غزو

مصر فأنسحبوا ومعهم سفنهم إلي البسفور. أنظر: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢، ص٧٢٦، زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى،ص ١٠٢، p.595,Michel Le Setton:AHistory of the Crusades ,1vols, Syien,p.367-372

٣٤- جدير بالإشارة أن الإمبراطور المذكور حل العقدة المستحكمة في العلاقات البيزنطية الصليبية ممثلة في المشكلة الأنطاكية، والواقع أنه كان أضعف من أن يجد لهاحلا. وعلى الرغم من استخدامه كافة الوسائل السياسية والدبلوماسية، إلا إن ذلك لم يمكنه من تجاوزها، ولقد ألزم "مانويل كومنين" أميرانطاكية "ريموند دي بواتييه Raymond de Poiticers ١١٣٦ – ١١٤٩م، بالحضور إلى القسطنطينية، – وهو فارس فرنسي قدم إلى بلاد الشام خلال أحداث الحملة الصليبية الثانية ١١٤٧-١١٤٩م برفقة الملك لويس السابع، وقد تزوج من الأرملة "كونستانس" أميرة انطاكية عام ١١٥٣م، وقد وقع في أسر المسلمين سبعة عشر عام، وتزوج ستيفاني دي ميلى، وقد أخضع قلعة الكرك لسطرته، وبالتالى اعترض طريق دمشق- القاهرة. وأعد حملته على الأماكن المقدسة الإسلامية عام١١٨٢م، ولكن تم إجهاضها، وقد قتل صلاح الدين الأيوبي "أرناط" في ٤ يوليو ١١٨٧م، في معركة حطين الحاسمة – وقد قدم اعتذاره للإمبراطور بل إنه أعتبر نفسه تابعا له عام ١١٤٥م. ومن بعد ذلك، وفي عام ١١٥٨م قام ذلك الإمبراطور بغزو كليليكيا Cilicia في آسيا الصغرى، وعامل أمير انطاكية "رينودي شاتيون" Renauld de Chatillon (١١٥٣-١١٦٢م) على نحو قاس الزمه بالخضوع له. أنظر: عبد المنعم ماجد: الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية، القاهرة ١٩٩٧م، ص٧٤، عبد الرحمن زكي ومحمود عيسى: الحروب بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٤٧م، ص٣٢،عائشه بنت عبدالله: البحر الأحمر في العصر الأيوبي، مكة المكرمة ١٩٨٠م، ص٤١-ص٤٤، محمد مؤنس عوض: في الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية، ص١٩٢، William of Tyre,vol.11,p.276,Diehl.History of the Byzantine Empire,p.125.

٣٥- حققت الإمبراطورية البيزنطية في عهد "باسيل الثاني" ما حقق في عهد "جستنيان" من انتصارات حربية عظيمة والتي أعادت الهيبة والإحترام للإمبراطورية البيزنطية. ومن الناحية الدينية : حققت كنيسة القسطنطينية أعظم انتصار لها باعتناق الروس في "كييفKiev" المسيحية في عهد الإمبراطور "باسيل الثاني"، وصاحب هذا التقدم، في الزراعة والصناعة والتجارة ونشر المسيحية، تقدم في الحياة الفكرية في الدولة البيزنطية. وإستعادت الإمبراطورية على يديه قوتها لتدافع عن نفسها ضد أعدائها الذين كانوا يتربصون بها من كل جانب، وجعل من جيوشها قوة مرهوبة الجانب، ومن عاصمتها منارا يستطع نوره على ثقافات وفنون وحضارات العالم ، فكان آخر الأباطرة العظام. أنظر: حسنين ربيع، دراسات، ص١٦٢، جوزيف نسيم: تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية، ١٩٨٤م، ص١٨٢-١٨٣، أسمت غنيم : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية ،١٩٨٧م، ص٩٨-٩٩، رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ص٤٩.

Vryonis, Byzantium, p.110,Bury.Roman Emperos from Basil11 to Isaac,p52.

٣٦- ابن العديم: زبدة الحلب، ج٢، ص٨٦- ٨٩، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج١، ص ١١٤، زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص ٦٦، محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص١١، Camb. Hist of Islam,vol 1,p 238

عن فردريك بربروسا أنظر: حامد زيان: فردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٤٠، كمال الدسوقي : تاريخ ألمانيا ، القاهرة ١٩٦٩م، ص٣٩.

37- Nicetas:p251-254-257,Ramsey,Sir William Mitchell:Historical Geography of Asia Minor.London1890,p401,Camb. Hist.of lalam;vol 1,p244.

يكاد يكون المؤرخ البيزنطي نيكيتاس الوحيد الذي أرخ لهذه الفترة بعدميريوكيفالون.

٣٨- حسنين ربيع : دراسات، ص ٢٣٢، هسي : العالم البيزنطي، ص١٩٧-١٩٨، Nicetas:op.cit.p 356,Vasiliev,Byz. Empire.11,pp432-433.

وإذا تتبعنا أحوال الدولة البيزنطية بعد وفاة الإمبراطور "مانويل الثاني" نجد أن ابنه القاصر "الكسيوس الثاني" Alexius 11 قد إعتلى عرش بيزنطة، وكان في الثانية عشرة من عمره، تحت وصاية أمه اللاتينية "ماريا الأنطاكية". ولكن لم يهنأ ذلك الإمبراطور بتوليه العرش إلا لمدة ثلاث سنوات. فقد اضطربت الأحوال في القسطنطينية وثار سكانها نتيجة لسيطرة العنصر اللاتيني على الأحوال الأقتصادية، وعندئذ تمكن "اندرونيقوس الأول" - Anderonicus 1- من انتزاع الحكم من "الكسيوس الثاني" وأمه اللاتينية وقتلهما. وأدى الشغب الذي جرى في شوارع العاصمة، في ابريل١١٨٢م، الى هجوم على أرواح وممتلكات اللاتين في المدينة. ولذا يرى البعض أن حوادث سنة ١١٧١م - عندما تم القبض على جميع البنادقة في أنحاء الدولة البيزنطية، وحوادث سنة ١١٨٢م - كانت علامة هامة أدت إلى الغزو اللاتيني للقسطنطينية سنة ١٢٠٤م.

أنظر: حسنين ربيع: دراسات، ص٢٣٢، عمر كمال توفيق: تاريخ الدولة البيزنطية، ص١٩٥، اسمت غنيم : تاريخ الدولة البيزنطية، ص١٤٨-١٤٩، عبد القادر اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٥٠، هسي: العالم البيزنطي، ص١٩٨، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٢، ص٦٩١، Vryonis, Byzantium, p 145, Vasiliev. History of the Byzantine Empire 424-1453, vol 2, pp 430-433.

٣٩- زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص ١٠٢، Setton,op. cit. vol 1,p 48, Camb. Hist., of Islam, vol 1,pp244-299,

٤٠- زبيدة عطا: المرجع السابق، ص ١٠٣، استركورسكي: المرجع السابق، ص٣٥١، رنسيمان: المرجع السابق، ج٢ص٩،

Camb.Hist,of Islam,vol,1,p244,Setton,op.cit.vol,1p 49.

٤١- إمارة الدانشمند: أقامها احمد غازي دانشمند في عام (٤٧٤هـ/١٠٨٤م)، ودانشمند هو أحد زعماء التركمان التابعين لسليمان بن قتلمش، واشترك معه في حروبه ضد ملطية، وسيطر على سيواس وأماسية وقيصرية وأنقرة، وكل الطرق التي تجتاز شمال آسيا الصغرى، ومالبث أن نقض عهده لسلاجقة الروم، وأعلن تبعيته لملكشاه، وبعد وفاته خلفه ابنه غازي كمشتكين الذي سار على سياسة أبيه في مناصبة سلاجقة الروم العداء. أنظر. ابن العديم : زبدة الحلب، ج٢، ص٨٦-٨٩؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية ،ج١، ص١١٤؛ زبيدة عطا: الترك في العصور الوسطى، ص٦٦؛ محمود سعيد عمران: معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص١١؛ .Camb.Hist. of Islam,vol 1,p238

٤٢- ابن الأثير: الكامل، ج١١، ص٣٨، أبو شامة: الروضتين، ج٢، ص١٥١، ابن شداد: النوادر السلطانية، ص٢٠٦.، ابن العبري: تاريخ الزمان، ص١٨٤-١٩٤، Michel Le Syrien: vol 111,p 373

انتهت أسرة كومنين بثورة سنة ١١٨٥م، وتولى عرش الدولة البيزنطية، في الفترة من سنة ١١٨٥ الى سنة ١٢٠٤م، أباطرة من بيت انجيلوس، وتنسب هذه الأسرة الى قسطنطين انجيلوس Constantine Angelus الذي كان معاصر الالكسيوس كومنين، وتزوج من ابنة الكسيوس. وقسطنطين انجيلوس هو جد اسحاق الثاني انجيلوس أول أباطرة هذه الأسرة التي تنتمي إلى أسرة كومنين من ناحية الأم. أنظر: حسنين ربيع: دراسات، ص٢٣٧، Vasiliev, Byz. Empire.11.p437-438,Vryonis,Byzantium,p.145.

المصادر والمراجع

أولا:المصادر والمراجع باللغة العربية :-

أ ـ المصادر:

١ـ ابن الأثير(عزالدين محمد ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م):

ـ الكامل في التاريخ ،أجزاء ٩-١٠-١١،.ليدن ١٨٥١-١٨٧٦م،

ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر طليمات، القاهرة ١٩٦٣ م.

٢ـ ابن تغري بردي (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ت ٨٧١هـ/١٤٦٩م):

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جزءـ ٥، القاهرة ١٩٢٩م.

٣ـ ابن خلكان (أبوالعباس شمس الدين أحمد بن محمد، ت ٦٨١هـ/١٢٨١م):

ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ،تحقيق : إحسان عباس ،بيروت، ١٩٦٨م

٤ـ ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد)

ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد الدكن ١٣٥٩هـ.

٥ـ ابن شداد (بهاء الدين يوسف ت ٦٣٢هـ/١٢٣٤م):

ـ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ،تحقيق: جمال الدين الشيال،القاهرة١٩٦٢م.

٦ـ ابن العبري (غريغوريوس الملطي ت ٦٨٥هـ/١٢٥٦م):

ـ تاريخ مختصر الدول، بيروت ١٩٨٦م.

ـ تاريخ الزمان ، ترجمة الأب إسحاق أرمله، ١٩٤٩-١٩٥٦م.

٧ـ ابن العديم (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ت ٦٦٠هـ/١٢٦١م):

ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب،تحقيق:سامي الدهان ،جزءـ١ـ دمشق ١٩٥١م.

٨ـ ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن أسد ،٥٥٥هـ/١١٦٠م):

ـ ذيل تاريخ دمشق، تحقيق : آمدروز، بيروت - ليدن ١٩٠٨م.

٩ـ ابن كثير (الحافظ عماد الدين إسماعيل ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م):

ـ البداية والنهاية ،القاهرة ب ـت.

١٠ـ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م):

ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جزء ١-٣، تحقيق : جمال الدين الشيال، القاهرة ١٩٥٣-١٩٥٧م، الجزء الرابع تحقيق: حسنين ربيع، القاهرة ١٩٧٤م.

١١- ابن الوردي (أبو حفص زين الدين عمر المظفربن عمر بن محمد بن أبي الفوارس، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م):

ـ تتمة المختصر في أخبار البشر، ج٢،بيروت. ب.ت.

ـ خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، القاهرة ١٩٣٩م.

١٢- أبوشامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي ت ٦٥٥هـ/١٢٦٧م):

ـ كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: محمد حلمي أحمد، القاهرة ١٢٨٨هـ.

١٣ـ أبو الفداء (الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن محمد ت٧٣٢هـ/١٣٣١م):

ـ المختصر في أخبار البشر، جزء ٢-٣، بيروت ١٩٦٠.

١٤ـ البيهقي (أبوالفضل محمد بن حسين البيهقي ،ت ٤٧٠هـ/١٠٧٧م):

ـ تاريخ البيهقي ،ترجمة : يحي الخشاب وصادق نشأت ،القاهرة ١٩٥٦م.

١٥ـ البلاذري(أحمد بن يحي بن جابر):

ـ فتوح البلدان ، نشره : صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٦م

١٦ـ البيروني: (أبو الريحان محمد بن أحمد ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م):

ـ الآثار الباقية عن القرون الخالية ، طبعة أدوارد سخاو.

١٧ـ الإدريسي (الشرف الإدريسي ت ق ٦هـ/١٢م):

ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، بيروت ١٩٨٩م.

١٨ـ الحسيني (صدر الدين علي بن ناصر أبو الحسن القرن ٦هـ/١٢م):

ـ أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق :عباس إقبال ، بيروت ١٩٨٤م.

١٩ـ الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ت ٨٧٦هـ/ ١٢٢٨م):

ـ معجم البلدان ،٦أجزاء ، بيروت ١٩٧٩م.

٢٠ـ الراوندي (أبو بكر محمد بن علي):

– راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة: شواربي، الصياد وحسنين، القاهرة ١٩٦٠م.

٢١– زامبا ور(ادوارفون):

– معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ،ترجمة: زكي حسن، وحسن محمود جامعة القاهرة ١٩٥١.

٢٢– الذهبي (الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني ،ت ٧٤٨هـ):

– دول السلام ،جزءان ،حيدرأباد ،١٣٦٤هـ.

٢٣– سبط ابن الجوزي (شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزاوغلي هلي بن عبد الله ، ت ٦٥٤هـ/١٢٥٦م):

– مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ،ج٨، حيدر آباد،١٣٧٠هـ/١٩٥١م.

٢٤– الطبري(أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن قدير بن خالد ت ٣١٠هـ/٩٢٢م):

– تاريخ الأمم والملوك،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الجزءان ١٠،١١القاهرة ١٩٩٦م.

٢٥– عماد الدين الأصفهاني(عبدالله محمد بن صفي الدين ،ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م):

– تاريخ دولة آل سلجوق ،إختصار الفتح بن علي البنداري، بيروت ،١٩٧٨م.

٢٦– العيني (بدر الدين محمود):

– عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ،ج١،تحقيق: محمد أمين ،القاهرة ١٩٨٥.

٢٧– القرماني (أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقي):

– أخبارالدول وآثارالأول،تحقيق :محمد أمين،بغداد١٢٨٢هـ.

٢٨– القزويني (زكريا بن محمد بن محمود ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م):

– آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٠م

٢٩– المسعودي (أبو الحسن علي ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م):

– التنبيه والأشراف، بيروت ١٩٦٨م.

– أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان، بيروت ١٩٩٦م.

٣٠– المقدسي (شمس الدين أبو عبدالله المعروف بالبشاري):

– أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم ، بيروت ١٩٨٧م.

٣١– المقريزي (أبو العباس أحمد بن علي بن عبد القادر ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) :

– كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ،الجزء الأول ،القاهرة ١٩٥٦–١٩٥٧م.

٣٢– النرشخي (أبو بكر محمد بن جعفر):

– تاريخ بخارى ،القاهرة ١٩٦٢م.

٣٣– اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن وهب بن واضح):

– تاريخ اليعقوبي،بيروت ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.

٣٤– يحي بن سعيد الأنطاكي :

– تاريخ يحي بن سعيد الأنطاكي، نشر: كراتشوفسكي وفازيلييف ،باريز١٩٢٤م،بيروت.

المصادر المعربة:

١– مجهول :(مؤرخ سرياني مجهول) الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية ،ضمن كتاب الحروب الصليبية ،ترجمة: سهيل زكار،دمشق ١٩٨٤م.

٢– وليم الصوري :

– تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار،بيروت، ب–ت.

– تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ،عمان ١٩٩٠م.

ثانيا: المراجع العربية والمعربة:

١– إبراهيم العدوى :

– الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية ،القاهرة ١٩٥١م.

٢– أحمد رمضان :

– المجتمع الإسلامي في بلاد الشام،

٣– أحمد عبد الكريم سليمان:

– المسلمون والبيزنطيون في شرق البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث والسادس الهجري/ التاسع والثاني عشر الميلادي،الجزء الأول ،القاهرة ،١٤٠٢ه/١٩٨٢م.

٤– أحمد شلبي:

– موسوعة التاريخ الأسلامي ،القاهرة ١٩٧٨م.

٥– أحمد كمال الدين حلمي :

– السلاجقة في التاريخ والحضارة ،الكويت،١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

٦– أحمد مختار العبادي :

– التاريخ العباسي والأندلسي ،بيروت ب ـــ ت.

٧– إدوارد جيبون :

– إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ،ج١،ترجمة :محمد علي أبوريدة، القاهرة ١٩٩٧م.

٨– أرنست باركر:

– الحروب الصليبية ، ترجمة :السيد الباز العريني،بيروت،١٩٦٧م.

٩– إسحاق أرملة :

– تاريخ الأمة الأرمينية ،الموصل ١٩٥١م.

١٠– إسحاق تاوضرس عبيد:

– روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين، ٨٦٩هـ/ ١٢٠٤م، القاهرة ،١٩٧٠م.

– الإمبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ،القاهرة ١٩٧٢م.

١١– أسد رستم :

– الروم في سياستهم وحضارتهم ،دينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ،الجزء الثاني ، بيروت ١٩٥٦م.

١٢– أسمت غنيم :

– تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ٣٢٤هـ/١٤٥٣م،الإسكندرية ،١٩٨٧م.

– "معركة مانزكرت في ضوء وثائق بسللوس"كلية الآداب ،الأسكندرية عدد عام ١٩٨٣م.

١٣– السيد الباز العريني:

– الدولة البيزنطية ٣٢٣–١٠٨١م،القاهرة ،١٩٦٠م.

– تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، بيروت، ١٩٦٨م

- المغول، بيروت ١٩٦٧م.

١٤- اوستركورسكي:

- تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ،ترجمة :جون هسي،إكسفورد ١٩٥٤م.

١٥- بارتولد :

- تاريخ الترك في آسيا الوسطى ،ترجمة:أحمد السعيد،القاهرة ١٩٥٨م.

١٦- جوزيف نسيم :

- تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤-١٤٥٣م)، الأسكندرية،١٩٨٤م.

- العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية الأولى ،الأسكندرية ،١٩٨١م.

- تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها،بيروت ١٩٨٧م..

١٧- ج.م هسي :

- العالم البيزنطي ،ترجمة :رأفت عبد الحميد،القاهرة،١٩٨٢.

١٨- حامد زيان غانم :

- الإمبراطور فردريك بربروسا والحملة الصليبية الثالثة،القاهرة ،١٩٧٧م

١٩- حامد غنيم أبوسعيد:

- الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ،الجزء الأول،القاهرة ١٩٧١م.

٢٠- حسن إبراهيم حسن :

- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي ،الجزء الرابع ،القاهرة ١٩٦٧م.

٢١- حسن حبشي:

- نور الدين والصليبيون حركة الإفاقة الإسلامية في القرن السادس الهجري ، القاهرة.١٩٤٨.

٢٢- حسن محمود وأحمد إبراهيم الشريف:

- العالم الإسلامي في العصر العباسي،القاهرة ١٩٨٠م.

٢٣- حسنين محمد ربيع :

- دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ،القاهرة ،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

- جهاد صلاح الدين الأيوبي ضد الصليبين ،رسالة المسجد،العدد الرابع (١٤٠١هـ/ ١٩٨١م)
٢٤- رايس (تامارا تالبوت):
- السلاجقة تاريخهم وحضارتهم، ترجمة لطفي الخوري وإبراهيم الداقوتي، بغداد ١٩٦٨م.
٢٥- زبيدة عطا :
- الترك في العصور الوسطى -بيزنطة وسلاجقة الروم والعثمانيون—د.ت.
٢٦- ستيفن رنسيمان :
- تاريخ الحروب الصليبية ،نقله إلى العربية السيد الباز العريني،٣ أجزاء، بيروت ١٩٦٨م.
- المسيحيون العرب في فلسطين ،إسكس ١٩٦٨م.
- الحضارة البيزنطية ،ترجمة :عبد العزيز توفيق جاويد ،مراجعة زكي علي ،القاهرة ١٩٦٤م.
٢٧- سعيد عبد الفتاح عاشور:
- الحركة الصليبية،جزءان،القاهرة ١٩٧١م.
- بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ،بيروت ١٩٧٧ م.
- أوروبا العصور الوسطى ،القاهرة ١٩٦٢م.
٢٨- سهيل زكار:
- المدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ،بيروت ،١٩٧٢م.
٢٩- سيد أحمد الناصري :
- الروم تاريخهم وحضارتهم وعلاقاتهم بالمشرق العربي ،القاهرة ١٩٩٣م.
٣٠- شارلز أومان :
- الإمبراطورية البيزنطية ،ترجمة مصطفى طه بدر، القاهرة ١٩٥٣م -١٩٦٠م.
٣١- شاكر أبو بدر:
- الحروب الصليبية والأسرة الزنكية ،بيروت ،ب- ت.

٣٢- عبد الغني محمود عبد العاطي:
- السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الكسيوس كومنين ١٠٨١-١١١٨م، القاهرة ١٩٨٣م.
٣٣- عبد القادر اليوسف :
- لإمبراطورية البيزنطية ،بيروت ١٩٦٦م.
- العلاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، صيدا ١٩٦٩م.
٣٤- عبد المنعم ماجد:
- الدولة الأيوبية في تاريخ مصر الإسلامية ،القاهرة ١٩٩٧م.
- العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ،بيروت ١٩٦٦م.
٣٥- عبد النعيم حسنين:
- سلاجقة إيران والعراق،القاهرة ١٩٧٠م.
- دولة السلاجقة ،القاهرة ١٩٧٥م.
٣٦- عبد الرحمن زكي ومحمود عيسى :
- الحروب بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ،القاهرة ١٩٤٧م.
٣٧- عزيز سوريال عطية :
- الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب ،ترجمة :فيليب صابر، القاهرة ١٩٧٧م.
٣٨- عصام الدين عبد الرؤوف :
- الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، القاهرة، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.
٣٩- على صالح المحيميد:
- علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية في عصر أسرة كومنين ١٠٨١-١١٨٥م.
٤٠- علية عبد السميع الجنزوري :
- مارة الرها الصليبية، القاهرة ١٩٧٤م.

– المرأة البيزنطية، القاهرة ١٩٨٠م.

٤١- عمر كمال توفيق :

– تاريخ الدولة البيزنطية، الإسكندرية ١٩٧٧م.

٤٢- ديفـــــز:

– أوروبا في العصور الوسطى ،ترجمة :عبد الحميد حمدي محمود، الإسكندرية ١٩٥٨م.

٤٣- زاكية رشدي :

– الخلفاء العباسيون والحروب الصليبية من مخطوطة ميخائيل السرياني، كلية الآداب، جامعة القاهرة،١٩٧٢م.

٤٤- فازيليف:

– العرب والروم، ترجمة : محمد عبد الهادي شعيرة، ومراجعة فؤاد حسين، القاهرة، ب- ت.

٤٥- فيليب حتى :

– تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة : كمال اليازجي ،بيروت ١٩٥٩م.

٤٦- فايز نجيب إسكندر:

– البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد(٤٦٣هـ/١٠٧١م) في مصنف نقفور برنينيوس مقارنة للمصادر، الإسكندرية ١٩٨٤م.

٤٧- قاسم عبده قاسم:

– الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية ،القاهرة ١٩٨٣م.

٤٨- كارل بروكلمان :

– تاريخ الشعوب الإسلامية ،ترجمة :نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ،بيروت ١٩٩٨م.

٤٩- كمال الدسوقي :

– تاريخ ألمانيا،القاهرة ١٩٦٩م.

٥٠- محمد عبد الشافي المغربي:

– آسيا الصغرى في العصور الوسطى –دراسة في التاريخ السياسي والحضاري للقرنين (١١-١٣م)، الإسكندرية ،٢٠٠٣م.

٥١- محمد زكي نجيب :

- علاقة سلطنة سلاجقة الروم بالدولة البيزنطية في عصر أسرة كومنين ١٠٨١-١١٨٥م،

٥٢- محمد سهيل طقوش :

- تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ٤٧٠-٧٠٤هـ/١٠٧٧- ١٣٠٤م، بيروت، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.

- تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام ،بيروت ،١٩٩٩م.

٥٣- محمد كرد علي :

- خطط الشام ،القاهرة ،١٩٥٧م

٥٤- محمود سعيد عمران:

- عالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية مدخل إلى التاريخ السياسي والحربي الإسكندرية ١٩٨١م.

- السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل الأول ١١٤٣-١١٨٠م، الإسكندرية ١٩٨٥م

- معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، الإسكندرية ١٩٩٨م

٥٥- محمود شاكر :

- التاريخ الإسلامي -الدولة العباسية -الجزء الثاني ،بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

٥٦- نور الدين حاطوم :

- تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، دمشق ١٩٨٢م.

٥٨- نبيه عاقل:

- الإمبراطورية البيزنطية.دراسة في التاريخ السياسي والثقافي والحضاري.دمشق ١٩٦٩م.

٥٩- نورمان بينز :

- الإمبراطورية البيزنطية ،ترجمة: حسين مؤنس ومحمود زايد ،القاهرة ١٩٥٧م.

٦٠- نورمان كانتور:

- التاريخ الوسيط ،ترجمة قاسم عبده قاسم،القاهرة ١٩٩٧م.

٦١- وديع فتحي :

- العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي (١٢٤-٢٠٥هـ/٧٤١-٨٢٠م)، الإسكندرية ١٩٩٠م.

٦٢- هربرت فشر:

- تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ترجمة: محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، القاهرة ١٩٥٧م.

المصادر البيزنطية :

- **Anna Comnena:**

  The Alexiad (tran, From the Greek by E.R.A.Sewter)Great Britain 1969.

- **Kinnamos:**

  Deeds of Gohn and Manule Comnenus (tran, by C.M.Brand) Columbia university pres New York 1976.

- **Nicetas, ch:--**

  Historia in (C.S.H.B)Bonn1835.

- **Zonaras:**

  Epitomae Historiatum in (C. S. H. B)

المصادر اللاتينية :

- **William of Tyre:**

  A History of Deeds done beyond the Sea (tran, by E. A. Babcock and A.C.Krey)New York 1943.

المصادر السريانية :

- **Michel le Syriens:**

  Chronigue de Michel le Syrien Patriarch d'Antioche 1166-1199(editee et traduit en Français Par J.B. Chapot.) Paris 1906.

المراجع الأجنبية :

- **Bury,J.B.: --**

A History of the Eastern Roman Empire , London, 1952.

Vol 1V, V,Cambridge,1926. Cambridge Medieval History,

- Cambridge History of Byzantine E mpire, ed. By J.M.Hussey,Camb.Univ.Press 1966.—

- Cambridge History of Ialam.

- Diehl,Charles :

  By zantium Great ness and Decline, New York 1957.

- Gibbon E.:

  The decline and Fall of the Roman Empire ,vol 111,New York 1995.

- Cedrnos ,:-

  Synopsus Historon, ed. BeKKer.C. H,1936.

- Grousset, R:

  Histoire des Aremeia ,le monde Mongol, Paris 1922.

- 0strogorsky, G:

  History of the Byzantine state, (tran by John Hussey)O xford 1968.

- Runciman, S :-

  History of Crusades vol. 1,1968, vol. 2,1962.

  Ramsey,Sir William Mitchell:

  Historical Geography of Asia Minor. London 1890.

- Setton, K. M.:

  A History of the Crusades, university of Wisconsin Press, vol.1, Edited by Marshall W.Baldwin, London, 1969.

- Sevenson, W,B :

The crusades in the East, Cambridge Universty press Lebanon Bookshops, Beirut, 1969.

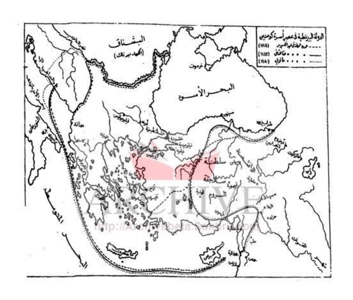
- Vasiliev,H:--

  History of the Byzantine Empire 424—1453,2vols The university of Wisconsin press 1980.

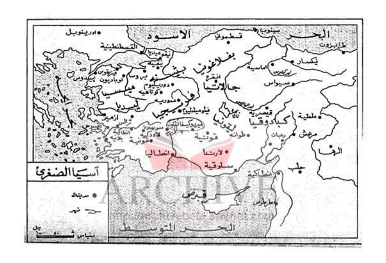
- Vryonis,S :

  Byzantium and Europ ,London 1967.





حسنين محمد ربيع : دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٢١٧



أنظر محمد سهيل طقوش: تاريخ سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ص٣٧٦

البصرة والخليج في النصف الثاني من القرن التاسع عشر
(دراسة وثائقية)

د. مصطفى حبشي محمد زهران (*)

مقدمـــــــة

يتناول هذا البحث، بالدراسة والتحليل، جوانب من أحـوال مدينـة البـصرة ومحاولات إصلاحها ، ولا سيما أوضاع الأسطول ، والدور الذي قـام بـه متـصرف البصرة "معشوق باشا" بخصوص إيجاد صلات متينة وعلاقات وطيدة ومـستمرة مـع الكيانات العربية القائمة في الخليج العربي، أواسط القرن التاسع عشر ، ومدى النجاح المتحقق في هذا المجال ، وأسباب ذلك ، لما لهذا الموضوع من أهمية بالغة بالنـسبة لسياسة الباب العالي في اسطنبول، الرامية إلى امتداد السيادة العثمانية علـى الخلـيج العربي بصفة عامة، والبصرة بصفة خاصة، في وقـت اشـتد فيـه الـصراع وازداد التنافس بين القوى الدولية والمحلية، لإيجاد مواطئ قدم ومصالح اقتصادية وسياسـية دائمة في المنطقة الذي يبرزها هذا البحث واتجاهاته، محدده بحدود المعلومات التـي أمدتني بها الوثائق العثمانية المتوافرة لدى، والتي حصلت عليها من مركز الوثـائق والمخطوطات بالجامعة الأمريكية بالقاهرة : حافظة رقم ٢٩١٤ بتاريخ ١٩٧٧ د (شئون إسلامية وعربية)، وهذه الوثائق تمثل المراسلات المتبادلة بـين متـصرف البـصرة والمندوب العثماني، في لجنة تحديد الحدود مع إيران، درويش باشا، ورسالتين باللغة العربية موجهتين من سلطان مسقط وعمان (سعيد بن سلطان وإبنـه ثـويني) إلـى (معشوق باشا)، إضافة لما يتطلبه البحث من معلومات توضـيحية ومكملـة للـنقص الحاصل في معلومات الوثائق المذكورة، مما تضمنته الكتـب والدراسـات المنـشورة المتخصصة في شئون العراق[١].

وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر حدث صراع حاد وتنـافس محمـوم بين القوى البحرية البرتغالية والهولندية والإنجليزية والفرنسية . وقد تنازعت السيادة على المنطقة قوى عربية متعددة : كالعمـانيين (اليعاربـة والبـوعلي والبوسـعيد) والقواسم والوهابيين وبني كعب . وحاول الإيرانيون منذ عهد نادر شـاه (١٧٣٦-

---

(*) أستاذ مساعد بكلية السياحة والفنادق بكينج مريوط – الأسكندرية.

١٧٤٧) تأسيس قوى بحرية فعالة في الخليج العربي لغرض هيمنة إيرانية على المنطقة، والتوسع باتجاه الحدود الشرقية للوطن العربي ، بيد انهم فشلوا فشلا ذريعا في هذا الميدان .اما القوة البحرية العثمانية في البصرة؛ فقد كانت متخلفة وضعيفة ، ولم تقم بدور يذكر في التأثير على مجريات الصراع الدائر وتوجه مساراته ، وترتب على ذلك انحسار نفوذ ولاة بغداد والبصرة عن منطقة الخليج العربي، وتعرض الأمن الوطني للعراق لمخاطر عديدة ، ولا سيما منطقة البصرة التي تعرضت للحصار وللاحتلال الأجنبي عدة مرات، نتيجة لإهمال القوة البحرية وضعف القوات البرية .واستمر الوجود العثماني في الخليج العربي، حتى أواسط القرن التاسع عشر، ضعيفا وهامشيا ، بل لا يكاد يذكر في خضم صراع الاستراتيجيات الدولية المحتدم حينذاك ، وذلك يعود لعدة أسباب ، منها : ضعف الأسطول العثماني بوجه عام، وضعف أسطول البصرة بوجه خاص ، وانشغال الدولة العثمانية بمشاكلها الداخلية المستعصية: كمشكلة محمد علي باشا والي مصر، واندلاع الانتفاضات القومية في ولايات البلقان والوطن العربي ، وحروبها الخارجية مع روسيا وإيران، والقوى الأوربية الأخرى الجامحة والهوجاء، وقد جرت عدة محاولات للتوجه العثماني نحو منطقة الخليج العربي، إلا أن ضعف القدرات المالية والعسكرية للدولة العثمانية ، ونجاح السياسة البريطانية في إبعاد العثمانيين عن المنطقة المذكورة ، بإشغالهم في الصراع مع إيران تارة، والوهابيين وقوات محمد علي باشا تارة أخرى حالا دون إنجاح ذلك التوجه. فقد كانت البصرة من المراكز التجارية الحيوية في الشرق، حيث تكدست في أسواقها ومخازنها مختلف السلع والبضائع الهندية والصينية والأوروبية؛ المتدفقة عن طريق الخليج العربي والبحر المتوسط، والمنقولة منها إلى بغداد والموصل وبلاد الشام، وشبه جزيرة العرب والأناضول وإيران، عن طريق نهري دجلة والفرات، وأيضًا القوافل البرية، وصولا إلى سواحل البحر المتوسط فأوربا، عن طريق وادي الفرات إلى بيروت وموانئ الساحل الفينيقي، مرورا بدمشق وطريق وادي دجلة إلى الإسكندرية مرورا بحلب .كما أن صادرات تلك الأقطار، وخاصة المنسوجات وأدوات الزينة كانت تتجمع في مخازن البصرة لتنقل منها إلى الهند ، وهكذا كانت التجارة تشكل موارد أساسية لخزينة بغداد واقتصاديات الولاية. وكان الأسطول العثماني في البصرة يتولى مهمة الدفاع عن المدينة وحماية الملاحة في الخليج وشط العرب ونهري دجلة والفرات، وأنيطت مهمة قيادته إلى ضابط يلقب بـ (قبودان باشا) أي قائد الأسطول، ويأتي في المرتبة الثانية بعد متصرف البصرة من حيث التسلسل الإداري، وكانت له دار خاصة تقع على شط العرب في قرية المناوي، تصطف أمامها قطع الأسطول ، وهي سفن صغيرة مسلحة تعرف بـ (الثكنات) ، تتميز بقعرها المسطح المطلي بالقار السميك. وكانت هذه السفن تشكل العمود الفقري لأسطول البصرة حتى سنة ١٨٦٥، وتم استبدالها بعد ذلك بالغلافات وهي أنواع حديثة من

السفن العصرية، وبأنواع أخرى من السفن المتطورة، لمواجهة التحديات البحرية الجديدة في شط العرب والخليج العربي[٢].

وفي أواخر عام ١٨٦٥ انضمت إلى إسطول البصرة سفينتان كبيرتان نسبيا تم بناؤهما في الهند ، تحمل كل منهما أربعة عشر مدفعا ، واطلق عليهما اسما دجلة والفرات ، ومع ذلك فإن هذا الأسطول ظل دون مستوى الأهداف المطلوبة منه، بسبب النقص في عدد السفن التي يتألف منها ، وتدني نوعياتها ، ونقص الأعداد والكوادر الفنية والعسكرية المستخدمة على ظهر هذه السفن وقلة خبرتها. كما حاول والي بغداد سليمان باشا الكبير (١٧٧٩- ١٨٠٢) تحت إدارة السلطان العثماني سليم الثالث (١٧٨٩- ١٨٠٧) في بداية حكمه. تعزيز أسطول البصرة، فطلب من شركة الهند الشرقية البريطانية في بومباي بناء ست غلافات كبيرة، تحمل كل واحدة منها ستة مدافع ، بيد أن تلك المحاولة كانت بدون جدوى، لأن الإنجليز لم يكن من مصلحتهم في ذلك الوقت تعزيز القدرات العسكرية لولاة بغداد، وذلك لاخضاعهم لمشيئتهم وابتزازهم، من أجل الدوران في أفلاكهم والارتماء بين أحضانهم، فادّعوا أنهم يخشون وقوع تلك الغلافات بأيدي أعداء والي بغداد، وأعداء الإنجليز من القواسم وكعب، فعملوا على شرنقتها[٣].

تقرير معشوق باشا متصرف البصرة عام ١٨٦٦ :

بدءا من منتصف القرن التاسع عشر أخذ العثمانيون يبدون اهتماما، وإن كان سطحيا، بشئون الخليج العربي ، ويرقبون تطورات الأحداث فيه ، وقاموا بجمع المعلومات عن القوى السياسية المحلية والأجنبية الموجودة في هذه المنطقة الحساسة من العالم في القرن التاسع عشر ، فشرعوا في إرسال المبعوثين إلى مشايخ العشائر العربية المتنفذة لجس نبضهم، ومعرفة ميولهم واتجاهاتهم، ومدى استعدادهم لتقبل السيادة العثمانية حتى ولو إسميا، أو التعاون مع الدولة العثمانية؛ على أقل تقدير بصفتها دولة إسلامية ، وانطلاقا من هذا الموقف الجديد في السياسة العثمانية كلف الباب العالي متصرف البصرة معشوق باشا للقيام بهذه المهمة ، فبادر الأخير إلى إرسال عدة أشخاص إلى كل من الكويت والحسا والقطيف ومسقط، واتصل بعدد من التجار وذوي المصالح مع البلدان المذكورة، بهدف جمع المعلومات المتيسرة واستقصاء الحقائق واستكشاف ردود فعل الأمراء والمشايخ العرب .فورد في تقرير معشوق باشا، المرفوع إلى الصدارة في أواخر عام ١٨٥٠م، معلومات مبتسرة عن كيفية نشأة امارة الكويت ، حيث يشير إلى أن بعض عربان نجد كانوا يأتون إلى الكويت لأجل صيد الأسماك، وأثناء راحتهم وبغية الوقاية من ضربة الشمس وحرارتها الشديدة؛ شيدوا لهم بيوتا صغيرة من القصب، تحولت بمرور الزمن إلى بيوت مبنية

باللبن ، وكان منشأ هذه الإمارة في أواخر القرن الثامن عشر، ولكونها كانت حرة ومستقلة فقد اصبحت ملجأ ومسكنا آمنا للهاربين من جور حكام البصرة وغيرها، وبلغ عدد بيوتها ستة آلاف بيت، وكان أهالي الامارة غير مكلفين بدفع أي نوع من الضرائب ، عدا الجمرك المفروض على الأمتعة والبضائع الواردة عن طريق البحر ، وبمعدل ريالين عن كل نوع ، وبلغ وارد الجمرك مئة ألف ريال سنويا. ونظرا لكون الضريبة الجمركية المفروضة على البضائع التجارية المطروحة في ميناء الكويت تعد خفيفة نسبيا ، لذا كان اغلب التجار يفضلون انزال تجارتهم في الميناء المذكور ، ونقلها برا إلى العراق وبلاد نجد والحجاز والحسا والقطيف وغيرها. وكان أمير الكويت " الشيخ جابر " يبادر إلى تقديم الإمدادات والمساعدات إلى أهالي البصرة، برا وبحرا، عندما يحل الخطب بهم وتتعرض مدينتهم لحصار العمانيين أو تسلط الكعبيين، ومقابل هذه الخدمة كان امير الكويت يحصل على مئة وأربعين كارة[٤] من التمور سنويا من حكومة البصرة .وذكر معشوق باشا أن مسألة ربط الكويت بإدارة البصرة، واستثمار موارده الاقتصادية لحساب خزينة البصرة، وقطع عطية التمور السنوية؛ رهين بتقوية أسطول البصرة، وتعزيز قوتها العسكرية بفرقة نظامية كاملة على أقل تقدير ، وأضاف أن أهالي الكويت يبدون وكأنهم تابعين للبصرة ، إلا أن موارد هذا البلد وحاصلاته ترجع إلى مشايخه؛ الذين لا يراجعون إدارة البصرة فى أي موضوع أو مادة ، وإذا كان لا بد من وضع الكويت والبحرين تحت الحماية – على الرغم من إظهارهم الميل إلى جانب الدولة العثمانية بحكم العاملين الجغرافي والديني لكون السلطان العثماني خليفة المسلمين وحامي حمى الحرمين– فإن واقع الحال يقتضي إظهار سطوة السلطة السنية وجانب من قدراتها العسكرية ، لكي لا يعطوا أذنا صاغية لدسائس بعض الأطراف الدولية والمحلية . وبخصوص مقاطعتي الحسا والقطيف، اللتين كانتا خاضعتين لحكم ابن سعود، تشير معلومات معشوق باشا إلى أن الأمير السعودي يستوفي منهما سنويا مئة ألف ريال (أربعة آلاف كيس) باسم بدل جمرك وميري ، مقابل مبلغ زهيد يدفعه إلى خزينة جدة، وأنه يحتفظ بقوة عسكرية رمزية تقدر بمئتي عسكري في كل منهما ، واستنادا إلى إفادة عدد من أبناء الحسا والقطيف القادمين إلى البصرة؛ فإن الأهالي هناك مستاءون ومتنفرون، وراغبون في الانضواء تحت الحكم العثماني. ولتحقيق هذا الهدف أكد معشوق باشا على أهمية وضرورة بناء الأسطول، وتعزيز القوات البرية لمنطقة البصرة، حتى يتسنى لها التحرك لفرض السيادة العثمانية على تلك الجهات . وقد تضمن تقرير معشوق باشا ، زيادة على ما تقدم ، عدة مقترحات لإصلاح أحوال مدينة البصرة، وانتشالها من حال التردي الذي أصابها، وتطويرها حسب الإمكانات المتاحة. ومما يذكر أن أهالي البصرة والعاملين فيها، من أتراك وأجانب، كانوا يعانون من وخامة الهواء وارتفاع نسبة الرطوبة، بسبب إحاطة المدينة بالمستنقعات والبحيرات الناتجة من طغيان نهر الفرات، وانهيار بعض السدود التي كانت تتحكم في توزيع فائض مياهه، لدرجة ساد فيها التفكير

بضرورة نقل البصرة إلى موقع آخر ، فقد أرسلت الصدارة في عام ١٨٦٧م، بناء على طلب والي بغداد السابق، لجنة مكونة من قائم مقام مكتب الحربية على بك ، والخواجة الثاني للمكتب المذكور أمين أفندي، وقد تضمن تقريرهما تحديد سبب وخامة طقس البصرة بوجود المقبرة العامة بين محلات المدينة ، وجريان المياه الآسنة والثقيلة في أزقة المدينة، وعدم تطهير مضيق العشار منذ مدة طويلة ، وتجمع المياه داخل الحدائق الموجودة بالمدينة وعدم تصريفها ، وتعفنها ، ووجود سوق الأسماك وسط المدينة وما يعثه من عفونة وروائح كريهة تزكم الأنوف ، وانهدام السدود القريبة من البصرة، والمعروفة باسم (سلحه)، وتحول نهر الفرات عن مجراه القديم، مما أدى إلى انتشار المستنقعات والبحيرات، وتعرض المدينة إلى وباء الكوليرا الذي أهلك وشرد عددا كبيرا من أهاليها، يقدر بخمسمائة شخص عام ١٨٦٤م، تحولت بيوتهم إلى خرائب ومزابل ، وحدوث ظاهرة المد والجزر باستمرار .لذا تقرر في الصدارة اختيار موقع العشار لبناء المدينة الجديدة عليه بصورة تدريجية، وكمرحلة أولى تقرر بناء جامع يحمل اسم السلطان العثماني، ودائرة للجمرك، ومقر القائمقام والأبنية الاجتماعية، وعدد مناسب من الحوانيت الكبيرة والدكاكين الصغيرة، وحمام يوقف لحساب الجامع، ودور للعلم، وعلى أن تتم تسوية تكاليف هذه المنشآت، البالغة بصورة تخمينية (ثلاثة آلاف كيس) من ناتج الحاصلات الجديدة للمدينة. ولكن معشوق باشا، بعد توليه لمهام منصبه، ومطالعته لجميع التقارير المكتوبة حول إصلاح أحوال البصرة، واطلاعه ميدانيا على واقع المدينة، أقنع الصدارة بإمكان معالجة مشاكل المدينة دون الحاجة إلى نقلها إلى مكان آخر، فعمل على إزالة الأسباب المؤدية إلى وخامة الجو، وطلب من الصدارة إرسال طبيب وصيدلي لمعالجة المرضى، حيث ينعدم وجود الطبيب في المدينة وقتذاك، كما قام ببناء دوائر للحجر الصحي ((تحفظ خانة)) وجمركا وخانا وعددا من الدكاكين في العشار، وابدى مساعدته لكل راغب من الأهالي في بناء دور لهم في الموقع المذكور، وتعهد معشوق باشا للصدارة بأنه سيعمل على اتخاذ التدابير والإجراءات المؤدية إلى عودة المهاجرين من أهالي البصرة الذين تركوها في الأزمان السابقة وسكنوا في الكويت والمحمرة وغيرها ، وحدد أسباب هجرة الأهالي بما يلي :

١- الظلم والتعدي الذي لحق بهم .

٢- عدم تمكن حكام البصرة السابقين من إنقاذ الأهالي من تعديات العشائر .

٣- وجود إدارة حرة ومستقلة في كل من الكويت والمحمرة جذب أهل البصرة إليهما.

٤- تعرض البصرة إلى الوباء عام ١٢٤٦ هـ/١٨٣٠م والكوليرا عام١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م، لانعدام المؤسسات الاجتماعية المختلفة.

٥- وخامة جو البصرة الزائد عن التحمل، بسبب انتشار المستنقعات والبحيرات، وامتلاء الأزقة بالمياه الآسنة والثقيلة، وانتشار الخرائب والمزابل، وما شابه ذلك من انبعاث الروائح الكريهة المكتنفة بالزواحف والقوارض الخطيرة.

وبذل معشوق باشا مجهودات كبيرة – حسب ما ذكر في تقريره – من أجل إعادة النازحين والمقيمين في الكويت والمحمرة من أهالي البصرة إليها وتحويلها إلى منطقة جذب، فاتصل سرا بهم ورغبهم في العودة إلى بيوتهم، واستخدم أقاربهم وأصدقاءهم لتحقيق هذا الغرض وانخراطهم معًا، كما عمل على منع تعدي عشائر المنتفق على الحاصلات الزراعية العائدة إلى أصحاب بساتين النخيل في منطقة البصرة(٥).

بيد أن الباب العالي – الذي كان مشغولا بحرب القرم حامية الوطيس مع روسيا (١٨٥٣- ١٨٥٦) التي سال لعابها وظلت تلهث من أجل تسييس الباب العالي لهويتها لكن خاب أمل روسيا بعد تدخل قطبي القوى الأوروبية (إنجلترا وفرنسا) بجانب الباب العالي الذي سحب البساط من تحت أقدام روسيا التي تجرعت مرارة الهزيمة الدبلوماسية قبل العسكرية منهما وتمرغت في أوحالها – وجد نفسه عاجزا عن تلبية مطالب متصرف البصرة، ولم يجد بدا من التوصية باتخاذ التدابير الممكنة لاستمالة أهالي الخليج العربي وترغيبهم بقبول التبعية للدولة العثمانية (السلطنة السنية)(٦).

تقرير درويش باشا متصرف البصرة عام ١٨٧٥م:

من خلال قيام المندوب العثماني في اللجنة الدولية لتحديد الحدود مع إيران بمهام عمله – الذي يتطلب التجوال والمشاهدة الشخصية للمناطق المتنازع عليها، من أجل إعادة ترسيم الحدود العراقية الإيرانية – اطلع درويش باشا عن كثب على الأوضاع المزرية لأسطول البصرة وقواتها العسكرية البرية والبحرية، فبادر إلى تسجيل ملاحظاته ورفعها بتقرير مستعجل إلى الصدارة، في ٢١ ربيع الثاني ١٢٧٠ هـ / ٦ مارس ١٨٧٥م، بناء على التعليمات السرية التي زودته بها الأجهزة الخاصة في الباب العالي، عند تكليفه بهذه المهمة، والتي كانت تقتضي جمع المعلومات وتقصي الحقائق عن أحوال وأوضاع إيالات العراق، زيادة على مهمته الأساسية. ابتدأ درويش باشا تقريره بتبيان أهمية موقع البصرة ، فذكر إن البصرة من المواقع التي تتطلب العناية الكبيرة والاهتمام الاستثنائي، نظرا لإشرافها على عدد كبير من القرى والمقاطعات وديار العشائر، ولمجاورتها إيران وعشائر عربية غير منقادة (كعب والمنتفق وبني لام)، مما يتطلب وجود قوات برية وبحرية قادرة على تحقيق الأمن الداخلي، وحماية الحدود البرية ومياه شط العرب وخليج البصرة، بيد أن واقع الحال يشير إلى خلاف متصاعب، إذ أن موجود القوات العسكرية في البصرة لا يتعدى ٧٠

– ٨٠ جنديا من صنف المدفعية و ٢٥٠ جندي مشاة (باشبوزق بيادة)، علما أن أكثر من نصف صنف المدفعية المذكورين أعداد غير صالحة للخدمة العسكرية لكونهم مرضى ومعوقين، أما المدافع فهي على قلتها فإنها من النوع القديم وينقصها بعض قطع الغيار (المواد الاحتياطية). وتناول في تقريره واقع أسطول البصرة ، فذكر أنه يتألف من ست قطع بحرية كبيرة، إلا أن إحداها غير صالحة للخدمة على الإطلاق، وقد سحبت إلى البر في مضيق العشار لأجل تعميرها فأهملت ، وهي الآن معرضة للتلف يوما بعد يوم ، والسفينة الأخرى يمكن استعمالها بعد إجراء صيانة واسعة عليها ، أما السفن الأربع الباقية فهي أيضا غير صالحة، ليس لركوب البحر فحسب، وإنما غير صالحة للاستخدام حتى في مياه شط العرب ، وينقص أشرعتها جميع الأدوات اللازمة لتشغيلها، لذلك وضعت كل واحدة من هذه السفن الأربع في موضع معين لتحصيل الرسوم الجمركية. في حين يتجول في خليج البصرة أسطول انجليزي يتألف من ٥ – ٦ قطع بحرية نوع ((بريق)) و ((قروت)) بحجة ملاحقة القراصنة، ومنع تجارة الرقيق، وحماية صيادي اللؤلؤ، لكن في الحقيقة هي إحكام قبضتها القوية على تلك الأصقاع. وكان قائد الأسطول الانجليزي يقيم في البصرة أو في ميناء بوشهر أو البحرين خلال تجوال سفنه في مياه الخليج وشط العرب، حتى إن القائد المذكور يرابط قبل عدة أيام من تاريخ كتابة هذا التقرير بسفينة القيادة التابعة للأسطول الإنجليزي أمام ميناء المحمرة. واستنادا للمعلومات المتجمعة لدى درويش باشا فإن النفوذ الانجليزي امتد إلى عدة جزر في سواحل خليج البصرة، ومنها جزيرة ((قشم)) الواقعة في مضيق هرمز، والتي أقام الانجليز على الجانب الشمالي منها، في غضون عام ١٨٧٥م، أبنية ومنشآت عديدة مثل: الحصون والأبراج لمراقبة حركات وسكنات أهلها، وحتى لو لم تحصل هذه التطورات فإن من أهم مهام السلطنة السنية إزاء موقع مهم كالبصرة – التي تعتبر من المناطق الحدودية الرئيسية والموانئ الكبيرة – لتهيئة أربع سفن حربية على الأقل، نوع ((فرقتين وقروت وبريق))، وسفينة بحرية تجارية كبيرة، وباخرتين للنقل النهري في دجلة والفرات، تعملان بين بغداد والبصرة ومدخل الخليج ((مضيق خليج البصرة))، وإعادة تنظيم وتشغيل ترسانة البصرة القديمة .وأضاف درويش باشا : إنه في حال تعزيز القوات البرية والبحرية في هذه المنطقة، فإن كل أمور وأوضاع إيالة البصرة سوف تسير في الاتجاه الصحيح، ويتحقق الإصلاح المطلوب والرقي المنشود، وسوف تعود الحسا والقطيف – اللتان كانتا تعدان قديما من مضافات البصرة ثم خرجتا من التبعية العثمانية بسبب تسيب وضعف الإدارة في العراق – إلى السيادة العثمانية، وأنه لأمر واضح أن يبادر سلطان مسقط – الذي يخشى الانجليز ويدور في أفلاكهم ويخاف – إلى طلب حماية دولة إسلامية عظيمة . وبقصد تسهيل إعادة تنظيم أسطول البصرة، اقترح درويش باشا تعيين ((مباشر)) للإشراف على ذلك، وعند صدور الأمر السامي ببناء السفن والبواخر المذكورة في بومباي، وحين إكمالها يصادر إلى تعيين قائد

مناسب لقيادة الأسطول من ضباط قيادة البحرية في اسطنبول مع عدد مناسب من الضباط المختصين بفنون البحر لتعليم وتدريب العساكر والسفانة المحليين. ولما كان تحقيق هذا الأمر يحتاج إلى وقت ليس بالقصير؛ فان المصلحة العامة للدولة تتطلب الإيعاز إلى قائد فيلق الحجاز والعراق ليقوم بإرسال طابورين مشاة من القوات النظامية، ومقدارا مناسبا من جنود الفرسان والمدفعية، مع عدد من المدافع إلى البصرة كتعزيز سريع لقدراتها الدفاعية (٧) .

وفي مذكرته المرفوعة إلى متصرف البصرة "معشوق باشا" في غرة شعبان ١٢٧٠ هـ / ١٢ حزيران ١٨٧٦م، أشار درويش باشا إلى وجود سفينتين من أسطول البصرة وهما (فتجعلي وصالحي)، ترابطان أمام مضيق نهر بهمشير (٨) .

وفي عام ١٢٧١ هـ / ١٨٧٧م كلف السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (١٨٧٦- ١٩٠٩) متصرف إيالة البصرة معشوق باشا بدراسة أحوال منطقة الخليج العربي ، ومعرفة مدى إمكان مد جسور التعاون والالتقاء مع الكيانات المحلية القائمة هناك ، لا سيما مع سلطان مسقط وعمان السيد سعيد الثاني بن سلطان (١٨٧٢- ١٨٩٨) ، والعمل على جذبها إلى حظيرة الدولة العثمانية، وكان الباب العالي يرصد حينذاك دخول سعيد بن سلطان في دائرة واسعة من العلاقات والمصالح مع سائر الدول ، على الرغم من تظاهره بالميل نحو الدولة العثمانية، لذا طُلب من متصرف البصرة مراسلته سرا من أجل استمالته إلى الصف العثماني، ومعرفة حقيقة الأخبار الواردة إلى مسامع الخارجية العثمانية حول حدوث نزاع بين سلطان مسقط والانجليز، بسبب عدم إيفائه بالاتفاق المعقود معه من جانب بريطانيا بخصوص منع تجارة العبيد(٩).

أفاد معشوق باشا في مذكرته الجوابية، المرسلة إلى الباب العالي بتاريخ ١٥ شوال ١٢٧٢هـ/١٥ حزيران ١٨٧٨م، استنادا إلى المعلومات المتجمعة لديه من التجار العاملين بين البصرة ومسقط ، وأن علاقات سلطان مسقط مع الدول الأجنبية متأتية من الصلات والمعاملات التجارية القائمة بين سلطنة عمان والموانئ الهندية القريبة من سواحل بلاد العرب الجنوبية الشرقية ، وبحكم خضوع بلاد الهند للهيمنة البريطانية، فإن الضرورة تقتضي عقد العلاقات الاقتصادية والسياسية مع بريطانيا كذلك. واحتمال ميل سلطان مسقط للدولة العثمانية يقع في إطار السياق السابق نفسه؛ الذي تحتمه المصالح التجارية التي تقوم وترتكز عليها سلطنة مسقط وعمان. وبغية الوقوف جليا على هذا الحال، ومد جسور الاتصال مع السلطنة المذكورة، أرسل معشوق باشا رسالتين : إحداهما إلى السلطان سعيد الموجود وقتئذ في عمان، والأخرى إلى ابنه ثويني وكيله في مسقط ، تضمنتا عبارات المودة والاستفسار عن الخاطر، وكيفية وصوله إلى البصرة ومباشرته مهام منصبه. ويلاحظ هنا ابتعاد

متصرف البصرة معشوق باشا ، بناء على توجيهات الباب العالي، عن الإشارة إلى المسائل المتعلقة بمصالح الدولة العثمانية في الخليج العربي في رسالتيه المذكورتين، وذلك تجنبا من وقوع الطرف الآخر في دائرة سوء الفهم، أو الشكوك في المقاصد العثمانية التي تنطوي عليها سياستهم الجديدة في المنطقة المذكورة ، كما يلاحظ في هذه الوثيقة، وفي الأدبيات العثمانية كافة، ورود اسم سعيد بن سلطان مقترنا بلقب (الإمام)، بينما المعروف أن لقب الإمامة لم يحمله من أسرة البوسعيد إلا مؤسس هذه الأسرة الإمام أحمد بن سعيد (١٧٤٤ – ١٧٨٣) الذي قضى على حكم أسرة اليعاربة في عام ١٧٤٤ م وورث اللقب من بعده سعيد (١٧٨٣ – ١٨٠٣) دون انتخاب أو مبايعة أو اعتراف، فقد اتخذ حكام البوسعيد المتأخرون لقب (السيد) (١٠)

كما شاع استخدام لقب (السلطان) لا سيما في الأدبيات والكتابات والتقارير الأوروبية ، ويبدو أن الأتراك العثمانيين فضلوا استخدام لقب (إمام) لأنهم لا يعترفون بالسلطنة وألقاب السلطان إلا لملوكهم من آل عثمان .وفي الوقت والسياق ذاته أرسل معشوق باشا رسالة ثالثة إلى أحد تجار البصرة البارزين ، يدعى (عبد الله جمال الجلبي) كان مقيما منذ فترة طويلة في سلطنة مسقط وعمان وبالرغم من وصول رسالة ثويني الجوابية، المؤرخة في الرابع عشر من شوال ١٢٧٣هـ / ٢٣ آب ١٨٧٩م، إلى البصرة في شهر رمضان ١٢٧٤ هـ / حزيران ١٨٨٠م، إلا أن معشوق باشا آثر تعليق إرسالها إلى الصدارة لحين ورود رسالة والده الجوابية. وعندما عاد السيد سعيد بن سلطان من عمان إلى مسقط، في ٩ رجب ١٢٧٥ هـ / ١٠ مايو ١٨٨١م، بادر إلى تحرير رسالة جوابية إلى متصرف البصرة، مؤرخة في ٢٩ رجب ١٢٧٥ هـ / ٣٠ مايو ١٨٨١م، وصلت إلى البصرة في الشهر التالي لتحريرها ، وفيما يلي نصها الحرفي، يليه نص رسالة ثويني :

(الجناب المستطاب ذو الشوكة والإجلال العالي جاه الأفخم الأحشم الأخ معشوق باشا المكرم دام إجلاله وحرسه الله سبحانه من شر الأشرار وأمنه من عواطف الأكدار ورواجف الأخطار بحق محمد سيد الأبرار آمين رب العالمين :

أما بعد ، فالغرض الأهم والمطلب الأتم من تحرير قيمة الوداد وتأنيق أنيقة الاتحاد هو السؤال عن أحوال سلامة تلك الذات الجامع لمكارم الأخلاق والصفات حرسها رب الأرضين والسموات وفي أبك الأوقات وأشرف الساعات ورد علينا كتابكم الكريم المنبئ عن الود القويم والاتحاد والجنان ونحن قد وصلنا مسقط في ٩ من رجب وإن شاء الله المحبة من الطرفين ثابتة الأركان مشيدة البنيان ، لا يغيرها غِيَر ، ولا يشوبها كدر والمأمول إدرار المراسلات مع شرح أحوال سلامة تلك الذات وبما يبدو من المهمات بعون الله ليقضي بمجرد الإعلام والسلام خير مبدأ وختام) (١١) .

هذا من المحب

الواثق بالله عبده سعيد بن سلطان

تحرير ٢٩ في رجب الأصم سنة ١٢٧٥هـ

وفيما يلي نصر رسالة ابنه ثويني :

(الجانب المستطاب ، مركز كرة الأبهة والرأي ، ثمرة شجرة العزة والسياسة نتيجة الأشراف من آل عبد مناف ، الأفخم المحترم معشوق باشا المكرم والي حكومة البصرة ونواحيها دام إجلاله وحرسه الله سبحانه وتعالى من شر الأشرار وآمنة من عواطف الاكدار ورواجف الأخطار بحق محمد سيد الأبرار آمين رب العالمين :

أما بعد ، فالغرض الأهم والمطلب الأوفى الأتم من تحرير رقيمة الوداد وأنيقة المودة والاتحاد هو السؤال عن أحوال سلامة تلك الذات الجامعة لمكارم الأخلاق والصفات ، حرسها رب الأرضين والسموات ، وفي ابك الأوقات وأشرف الساعات ورد علينا كتابكم الكريم المنبئ عن الود القويم والاتحاد المستقيم فكان أعز واصل وأجل نازل ، وجميع ما اشتمل عليه من درر المعاني وغرر البيان فقد ارتسم في الخاطر والجنان ، لا سيما من طرف وصولكم إلى البصرة وتفويضكم أمر ايالتها وحومتها مع جميع ملحقاتها وعشيرة المنتفك . فقد استبشرنا بذلك غاية البشارة وسررنا بذلك كثيرا ، فكذلك من طرف إثبات المحبة والمودة فنحن من جانبنا ثابتة الأركان لا يغيرها غير ولا يشوبها كدر ما دامت الأرواح في الصور ، والكتاب الذي باسم جناب سيدنا الوالد حفظه الله وصلنا حال تحريره لنرسله لجنابه إن شاء الله ليكون معلوما . . هذا والمأمول إدرار المراسلات مع شرح أحوال سلامة تلك الذات وبما يبدو لكم من المهمات في هذه النواحي والجهات ليقضي بعون الله بمجرد الإعلام ، والسلام خير مبدأ وختام) [١٢] .

هذا من المحب

الواثق بالله عبده ثويني بن سعيد بن سلطان

تحرير ١٤ في شوال المكرم سنة ١٢٧٦هـ

لقد تضمنت مذكرة معشوق باشا – زيادة على ما تقدم من معلومات مهمة عن أحوال الأسرة الحاكمة للسلطنة العمانية– أن السلطان سعيد كان يميل إلى اشتراك ابنه الصغير ثويني في تدبير شئون الإدارة في مسقط أثناء غيابه، فجعله وكيلا عنه، مما أثار حفيظة ابنه الكبير هلال وأوغر صدره فهرب إلى مصر، ومكث هناك مدة من الزمن بأمل تحقيق مطالبه الشخصية ولكن بدون جدوى، إذ إنه لم يجد أذنا صايغة لمطالبه، فشد الرحال إلى انجلترا، وبعد مرور سنتين على مكوثه في انجلترا عاد إلى

مسقط بواسطة الحكومة البريطانية ، بيد أن والده لم يغير موقفه منه ولم يسند إليه أي عمل إداري أو رسمي (١٣).

ومن الجدير بالذكر هنا إن السيد سعيد بن سلطان كان له عدد كبير من الأبناء من بينهم : هلال وخالد وثويني وتركي وبرغش ، وأنه كان على خلاف عميق مع ابنه البكر هلال تسبب في حرمانه من ولاية العهد. أما أسباب الخصام العائلي فتعود على ما يبدو إلى أن الابن الأكبر يعتبر في قصور الملوك والسلاطين موضع ريبة أبيه وشكه ، وخصوصا إذا امتلك الابن قدرا من الشجاعة وعلو الهمة وسعة الطموح، وكانت أم خالد الأخ الأصغر لهلال ، ذات حظوة ونفوذ لدى زوجها السلطان فاستغلت منزلتها لتحصل لابنها على ولاية العهد ، بالرغم من كونه غير محبوب من الناس لا نهماكه في التجارة وجمع المال ، في حين اتصف هلال بالشجاعة والفروسية ، فحظي بحب الناس واحترامهم ، إلا أن ميل أبيه إلى أخيه خالد وتفضيله عليه دفعه إلى الشكوى ثم المعارضة فالتمرد .وزاد الطين بله اكتشاف السلطان سعيد قيام صلات وثيقة بين سلوك ابنه الأكبر وشكوكه فيه ، وكان السيد سعيد يشعر بالشك والريبة في نوايا الفرنسيين تجاهه ، تلك النوايا المتمثلة في بسعيهم إلى الاستحواذ على أملاكه في إفريقيا الشرقية ، لذا أقدم في عام ١٨٤٤ على استشارة الحكومة البريطانية برغبته في أن يرثه على ملكه في عمان ابنه ثويني، وعلى ملكه في إفريقيا الشرقية ابنه خالد، وكان جواب الحكومة البريطانية أنها لا تتدخل في الشئون الداخلية للسلطنة، ولكنها نصحت السلطان سعيد بصورة غير مباشرة بضرورة المصالحة والتفاهم مع ابنه .ويبدوا أن سيل غضب الأب على ابنه قد بلغ الأفق، عندما قام هلال في شهر أيلول من عام ١٨٨١ بزيارة سرية مفاجئة إلى لندن، فصمم أبوه على حرمانه من حقوقه، وتعيين أبنية ثويني وخالد وكيلين له في مسقط وزنجبار. وعند عودة هلال إلى زنجبار على ظهر باخرة بريطانية، في شباط ١٨٨٢، ازداد والده حنقا عليه وضاق به ذرعا ، فنفاه عام ١٨٨٤ إلى جزيرة "لامو" حيث مكث فيها ولم يغادرها إلا لأداء فريضة الحج ، ثم وافته المنية في ٢٢ أيلول ١٨٨٦ في مدينة عدن، في طريقه إلى مكة المكرمة (١٤) .

نعود إلى مذكرة معشوق باشا؛ لنستعرض بعض الجوانب الخفية من الصراع الدائر بين النفوذين البريطاني والأمريكي في المحيط الهندي وبحر العرب والخليج العربي ، فقد ذكر معشوق باشا أن إحدى السفن الأمريكية جاءت إلى سواحل عمان وأخذت أعدادا كبيرة من العبيد ، وأن هذا العمل أثار استياء وعدم رضا قائد الوحدة البحرية البريطانية المتواجدة في هذه المياه ، والمؤلفة من سفينتين من نوع (بيلك) وطلب القائد المذكور من سلطان مسقط منع الأمريكان وأهالي السلطنة الذي يتعاطون هذه التجارة ، استنادا إلى الاتفاقية المعقودة بين الطرفين بخصوص العمل المشترك من اجل منع ممارسة تجارة العبيد في سواحل الخليج العربي وجنوب الجزيرة العربية

.وقد أجاب السلطان سعيد بعدم إمكانية منع هذه التجارة داخل سلطنته، وعدم اقتداره على منع الأمريكان من ممارستها .وبالفعل أخذ الأمريكان ما يشاؤون من العبيد ، وأثناء مغادرتهم السواحل المذكورة لم يفعل القائد البريطاني سوى الادعاء بأنه سوف يتعقب السفن الأمريكية ويمنع نشاطها ، بيد أنه لم يصنع شيئا ، بل استمر الأمريكان في مزاولة تجارة العبيد في السواحل المذكورة وداخل السلطنة ، مما أثار الجدل المستمر بين الحكومة البريطانية وسلطان مسقط (١٥) .

والمعروف أن مسقط كانت تعتبر سوقا كبيرة من أسواق بيع الرقيق، وتصديره إلى أوربا وأمريكا، ومدن الخليج العربي والبصرة وبغداد ، وكان حكام عمان يمارسون هذه التجارة لحسابهم الخاص ، ويحصلون على دخل سنوي يقدر بثلاثة عشر ألف باون. وذكر كرزن (Curzon) أن إيراد السلطان سعيد من تجارة الرقيق، قبل إلغائها، كان يشكل ربع إيراده الإجمالي البالغ ثمانين ألف باوند سنويا ، واستنادا إلى معلومات شركة الهند الشرقية، عام ١٨٧٢، فإن عدد الرقيق المصدر من زنجبار إلى مسقط والهند وجزر موريشيوس، يتراوح بين ٦٠٠٠ – ١٠٠٠٠ نفر سنويا ، وأن عدد السكان الأحرار في هذه الأماكن لا يتجاوز ٢٥ % من التعداد العام للسكان، ومن المألوف هناك أن يمتلك بعض الأشخاص من الأثرياء حوالي ٨٠٠ – ٩٠٠ نفر من العبيد، يعملون على خدمته كمًا وكيفًا، وذوبانهم في خدمة إقطاعاته قلبًا وقالبا(١٦) .

لذلك خسر السلطان سعيد موردا ضخما عند توقيعه معاهدة ١٨٦٢ مع بريطانيا لمكافحة تجارة الرقيق، وأصبح لسفن الأسطول البريطاني الحق في تفتيش السفن المشتبه في ممارستها هذه التجارة المحرمة دوليا. كما أثارت هذه المعاهدة استياء التجار العمانيين الذي كانت تجارة الرقيق تشكل مهنتهم الرئيسية ، ومعارضة رجال الدين المتعاطفين مع التجار ، ولذا فإن حجما واسعا من هذه التجارة ظل مستمرا ، مما تطلب التأكيد على تحريم تجارة الرقيق بالمعاهدات المبرمة في أعوام ١٨٦٣، ١٨٦٩، ١٨٨٠. ولكن نجاح الفرنسيين في إبرام معاهدة مع السيد سعيد عام ١٨٧٠ منحتهم الحصانة الدبلوماسية ، وأمنت لهم ولنا الحماية من المتابعة والتفتيش ، مما أدى إلى استمرار تجارة الرقيق تحت العلم الفرنسي ، ولم تستطيع صرامة معاهدة ١٨٦٩م مع انجلترا مكافحتها والقضاء عليها نهائيا(١٧) .

ومما يجدر ذكره هنا أن الفرنسيين كانت لهم علاقات تجارية مبكرة مع عمان، وأثناء الحملة الفرنسية على مصر، وخشية بريطانيا من سيطرة الفرنسيين على طريق الهند، سارعت إلى عقد معاهدة مع عمان في ١٢ تشرين الأول أكتوبر ١٧٩٨ حصلت بموجبها على حق فتح وكالة لها في بندر عباس تكفلت بحمايتها ذاتيا ، وبعد عامين عقدت معاهدة ثانية تضمنت وجوب وجود وكيل بريطاني مقيم في

مسقط ، إلا أن هذا البند من المعاهدة لم يدخل حيز التنفيذ إلا بعد مرور أربعين عاما .ويبدو أن الحكومة البريطانية ، حتى عام ١٨١٦ ، كانت غير راغبة في التدخل المباشر في شئون عمان ، ليس عزوفا عن مبدأ التدخل في شئون الغير ، وإنما لخوفها من مغبة التورط، ولقصور رؤيتها عن إدراك نطاق مصالحها الحقيقية في تلك المنطقة الحيوية ، ومقدار الفوائد المتحققة نتيجة هذا التدخل ، وقد تصدت سفن بعض المواطنين من العمانيين والقواسم للسفن الانجليزية، وأنزلوا بسفن أعدائهم خسائر جسيمة ، سواء أكانت تجارية أو حربية[١٨] .

لذلك أطلق الإنجليز على ساحل عمان الذي يمتد غربا إلى شبه جزيرة قطر اسم (ساحل القرصنة)، وبعد إخضاع العمانيين والقواسم لمشيئتهم وتقييدهم باتفاقيات غير متكافئة أطلقوا على الساحل نفسه اسم (ساحل عمان المهادن) أو (ساحل عمان المتصالح)[١٩].

وعندما اقتنع سلطان عمان بعدم جدية الانجليز والإيرانيين في تحالفهم معه، لأن كل واحد منهم كان يبحث عن تأمين مصالحه الذاتية في ميدان الصراع ، عاد مجددا لمغازلة الفرنسيين ، وعقد لتفاقا معهم في ٣ آذار(مارس) ١٨٧٧، اتفاقا ظل معمولا به حتى توقيع المعاهدة التجارية الفرنسية – العمانية عام ١٨٩٠[٢٠] .

وبعدم نجاح قوات محمد علي باشا في احتلال الدرعية، وأسر عبد الله بن سعود (١٨١٨ – ١٨١٩) وجد السيد سعيد بن سلطان إن الوقت قد حان للقضاء على القواسم بمعاونة القوة البحرية البريطانية [٢١] .

فتم له ما أراد هذه المرة، بالرغم من المقاومة الضارية للقواسم الذين اجبروا على توقيع معاهدة في ٨ كانون الثاني ١٨٢٠، تعهدوا بموجبها بعدم ممارسة أعمال الغزو في البر والقرصنة في البحر مستقبلا [٢٢] .

وفي تموز (يوليه) ١٨٧٠ حاول السلطان سعيد محاصرة بوشهر والاستيلاء عليها، ولكنه عدل عن ذلك بناء على طلب من المقيم البريطاني ، وقد تمكن من أسر حاكمها الإيراني الذي كان مبحرا إلى بلاده ، ومكث في الأسر عدة أشهر ، كما أرسل في تشرين الثاني (نوفمبر) من السنة ذاتها حملة بحرية إلى البصرة، لإرغام الوالي العثماني على دفع المنحة السنوية التي قررها السلطان مصطفى الرابع، عام ١٨٠٦، إلى الإمام أحمد بن سعيد، مقابل نصرته للبصرة عند حصار الإيرانيين لها [٢٣] .

وخلال السنوات الممتدة بين ١٨٥٨ – ١٨٧٦ تمكن سلطان أفريقيا الشرقية السلطان خالد من الاستيلاء على ممباسة وزنجبار .ومن الجدير بالذكر إن بريطانيا كانت تعتمد على سعيد بن سلطان للحفاظ على الوضع الراهن في الخليج العربي، بما يؤمن استمرار المصالح البريطانية الاقتصادية والسياسية ، لذلك قدمت إليه الدعم

والإسناد المباشر وغير المباشر في صراعه مع القواسم وآل سعود، ومع الطامعين في السلطة من أبناء أسرته وغيرهم من زعماء القبائل في السلطنة[٢٤] .

وإزاء تصاعد نشاط محمد علي باشا ونزوعه نحو تكوين دولة كبيرة، وبعد سير الخديوي إسماعيل باشا على منواله (١٨٦٣/ ١٨٧٩) بهدف التوسع في جزيرة العرب والهلال الخصيب ، إضافة لمصر والسودان - اقتنعت حكومة الهند البريطانية بضرورة إقامة علاقات أوثق بين سلطنة عمان وبومباي ، فقررت إرسال وكيل بريطاني إلى مسقط ، وبناء على ذلك فقد عين اللورد دامون (Lord Damon) في عمان عام ١٨٧٠ ، ولكن اتخاذ السلطان سعيد زنجبار مقرا لحكومته، في ذلك الوقت، جعل القنصل المذكور يتجه إليها ويتخذها هو الآخر مقرا له [٢٥] .

وقد ذكرنا في بداية البحث ، ومن خلال عرض ما ورد في تقرير درويش باشا ، أن أسطول البصرة لم يقم بدور مؤثر في مياه الخليج العربي، من النواحي السياسية والعسكرية والتجارية ، وأنه كان عاجزا حتى عن تأمين الحماية للبصرة ذاتها بسبب تدهوره وتردي الأحوال فنيا ونوعيا ، كما وكيفا. وقد اشرنا إلى أسباب هذا التدهور والتردي الكامن في الولاة الحاضرين بشخوصهم الغائبين بسلطانهم، ولا نجد ضرورة لتكرار ذلك. كان يوجد في ترسانة البصرة أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر سبع سفن إحداها تصلح للتجارة البحرية بعد صيانتها وتسمى (فتح على) والست الأخرى تصلح للتجارة النهرية ، وهي : بتار، وفتح خيبر، وتكبير، وبغداد، وعطية الرحمن، وصالحي ، وبناء على طلب كل من والي بغداد وقائد أسطول البصرة من الصدارة الموافقة على شراء خمس سفن صغيرة إحداها من نوع (قروت)، واثنين من نوع (بريق) واثنين من نوع (أوسقونة)، وكذلك سفينتين كبيرتين نهرية وبحرية، بغرض تحديث ميناء البصرة، فقد تمت مفاتحة الجهات المعنية في لندن لبناء السفينتين الأخيرتين ، وتقرر تصنيع السفن الخمس الأخرى في ترسانة اسطنبول [٢٦].

وبناء على مقترحات مجلس البحرية، في الباب العالي، الواردة في المذكرة المرفوعة إلى الصدارة، بتاريخ ٥ جمادى الثاني ١٢٧٨هـ / ٢٨ نيسان ١٨٧٩م، من قائد (قبودان) البحرية العثمانية سليمان باشا، والمقترنة بموافقة الصدارة في السابع من جمادى الثانية ، ومصادقة السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦- ١٩٠٩) في الثامن منه، تقرر ما يلي : للنهوض بالبصرة والمشمول بإحلال وتجديد جميع المؤسسات الاجتماعية والدواوين الأخرى:

١- تعيين قائد السفينة الحربية (مسعودية) ميرالاى بيربك قائدا لأسطول البصرة ، ومنحه صلاحية إعادة تنظيم القوات البرية وتعمير السفن الموجودة في ترسانة البصرة ، ومنحه كذلك رتبة (رياسة همايون).

٢-تعيين رستم أغا ، وهو أحد ضباط البحرية في اسطنبول ، مساعدا لقبطان البصرة ، ومنحه رتبة (بكباشى)

٣-إرسال مجموعة من الضباط والمراتب من صنف البحرية الحربي والفني وكما هو مبين أدناه:

الرتبة	الصنف	العدد
قول اغاسى	حربي	١
يوزباشي	حربي	٣
ملازم	حربي	٢
جاويش	حربي	٥
اونباشي	حربي	٥
أونباشي أغاسي	حربي	١
يوزباشى أغاسي	حربي	٣

جنود فنيين حدادة ونجارة، وذلك لبناء عدد مناسب من تلك الوحدات، بهدف تحديث البصرة لكونها مدينة هامة وميناءً حيويا للباب العالي (٢٧).

تم تعاقد مجلس البحرية مع أحد التجار الأجانب المدعو (قرة ين) لاستيراد أربع بواخر من انجلترا لاستخدامها في البصرة وجدة ونهر الطونة ، مع آلاتها وأدواتها ولوازمها الأساسية والاحتياطية كافة ، مقابل ١٥٦٥٠ كيس (٢٨) .

وقد تضمنت المقاولة المعقودة بين الطرفين، في ١٧ رمضان ١٢٨٠ هـ / ١٦ تموز(يوليه) ١٨٨٤م، تعهد الطرف العثماني بقيام خزينة الدولة المركزية بدفع ١٢٠٠٠ كيس من أصل المبلغ المذكور، على شكل أقساط شهرية اعتبار من شهر تموز، وبمعدل ٧٥٠ كيسا للقسط الواحد ، أما المبلغ المتبقي فيدفع بنسبة الأقساط ذاتها من قبل خزينة ترسانة اسطنبول ، على أن لا يطلب الطرف الثاني أي شئ كتعويض للضرر والخسائر؛ التي قد يدعي حصولها عند تسديد مستحقاته، عن طريق النقد أو القوائم أو أي وسيلة أخرى. كما نصت المقاولة على وجوب تسليم الباخرتين لأسطول البصرة بعد مرور ثمانية شهور من تاريخ إبرامها (٢٩) .

ولكن الطرف العثماني لم يتمكن من الوفاء بالتزاماته المالية، بسبب تردي الهوية العثمانية حسب المواعيد المقررة بين الطرفين ، ففي ظرف ثمانية شهور سددت وزارة المالية ٢٢٥ كيسا من أصل ستة آلاف كيس، واجبة الدفع خلال المدة المذكورة ، مما أدى إلى تأخير تسليم الباخرتين (٣٠) .

واستمر الحال على هذه الشاكلة لعدة سنوات ، بسبب العجز المالي الذي كانت تعاني منه الدولة العثمانية الحاضرة بشخصها الغائبة بسلطانها، ولانشغالها بحرب

القرم، وغيرها من الحروب الخارجية، مع القوى الأوروبية المستأسدة والفتن والاضطرابات الداخلية التي أجهزت على الإدارة العثمانية وتأثير سلبيات ذلك على ميناء البصرة، وما تعرضت له من مصاعب وعقبات، ومعوقات مقصودة من جانب انجلترا التي كانت تسعى سعيًا حثيثًا من أجل نجلزة أملاك الرجل المريض، وغيرها من القوى البحرية التي كانت لها مصلحة في إبقاء الأسطول العثماني في البصرة على مياه شط العرب والخليج العربي، بحرية تامة ودون مضايقة أو رقابة أو منافسة، لتثبيت أقدامها في تلك المنطقة البحرية الزاخرة بالثروات، وأيضًا لموقعها الحيوي وكبح جماح الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، تمهيدًا لسحب البساط من تحت أقدامها، وابتلاع أملاك الدولة العثمانية التي داعبت أحلام إنجلترا كثيرًا، بعد تحزيم وتطويق غريمتها فرنسا. وعند ورود رسالة سلطان عمان؛ جدد والي بغداد مطالبته بإرسال عدد من السفن من ترسانة اسطنبول، بالشراء من انجلترا وبومباي لتعزيز أسطول البصرة، واستمالة السيد سعيد بن سلطان، كما أعلم الصدارة بأن من مقتضيات المصلحة العامة للدولة إرسال مبعوث مناسب، أو قائد أسطول البصرة القومندان بيربك (PruBic) إلى المنطقة المذكورة، وأرسل بالفعل رسالة أخرى إلى حاكم عمان تضمنت تبريكه وتهنئته بمناسبة عودته إلى مسقط، كما تضمنت عبارات التلطيف والمجاملة دون التطرق إلى أي شئ آخر [٣١].

وفي الباب العالي تقرر إجابة متصرف البصرة بتخويله اتخاذ التدابير المؤدية إلى جلب حاكم مسقط واستمالته إلى الصف العثماني، وإعطائه التأمينات والتأكيدات اللازمة لتحقيق هذا الهدف، لحين تشكيل القوة البحرية المطلوبة في خليج البصرة [٣٢].

وكان متصرف البصرة "معشوق باشا" قد اعد دراسة مفصلة إلى الصدارة تضمنت جملة من المقترحات لأحياء أسطول البصرة، وتنشيط الحركة التجارية مع الهند، ووضع أسس جديدة لدور عثماني مؤثر في الخليج العربي [٣٣]

وتتمثل هذه المقترحات في الأمور التالية من أجل الارتقاء بالبصرة التي تمثل القلب النابض بالنسبة للسلاطين العثمانيين:

١- بناء خمس سفن إحداها بحرية مسلحة لمقاومة القراصنة، والأربع الأخرى نهرية من نوع (قروت، وبريق، وأوسقونة)، واقترح ثلاثة طرق لتأمين هذه السفن وهي : المبادرة ببناء هذه السفن في ترسانة البصرة، ويتطلب ذلك جلب الأخشاب والمواد الأخرى اللازمة لبناء السفن من الهند مباشرة، أو عن طريق الكويت، وكذلك جلب عدد من العمال والمهندسين من الهند أو اسطنبول، والطريق الثاني هو استيرادها من أحواض بناء السفن في بومباي وكلكتا ! أو عن طريق بنائها في ترسانة اسطنبول. وأضاف أن

طريق الشراء الجاهز، أو التوصية على بنائها بالمواصفات المطلوبة من الهند، يوفر وقتا أقل وكلفة تقل بنسبة ٣٠ % مما لو تقرر بناء هذه السفن في البصرة أو اسطنبول أو انجلترا، كما أن الأخشاب الهندية المستخدمة في صناعة السفن أكثر مقاومة من الأنواع الأخرى. وقد استقى معشوق باشا هذه المعلومات من قبطان السفينة الانجليزية العاملة في نقل البريد البريطاني بين الهند وبغداد، وكذلك من التجار المترددين على الموانئ الهندية .

٢- تعيين قنصل (شهبندر) عثماني في ميناء بومباي، لرعاية المصالح العثمانية الهندية ، كالقيام بمعاملات بناء وشراء السفن من الموانئ الهندية ، وحماية مصالح التجار من التبعية العثمانية المترددين على الموانئ المذكورة، وإنقاذهم من الاضطرار إلى قبول الحماية البريطانية تحت مغريات الامتيازات والضمانات والتسهيلات التي يحصلون عليها من جراء ذلك، سواء في الموانئ الهندية أو في عرض البحار ، في حين يلاقي التجار وأصحاب السفن العثمانيين، الرافضين قبول الحماية الأجنبية، صنوف الأذى والمعاملة الجافة في الموانئ الهندية ، بقصد إرغامهم على قبول الحماية البريطانية. وطلب من الباب العالي أن تقوم وزارة الخارجية العثمانية بلفت نظر سفارة انجلترا في اسطنبول وتنبيهها إلى العواقب الوخيمة المترتبة على استمرار هذه السياسة التعسفية .

٣- وضع النجمة العثمانية على مقدمة السفن التي يمتلكها رعايا الدولة العثمانية كافة، وتزويدهم مجانا بالأعلام العثمانية، وأوامر تحريرية باللغتين العربية والتركية تتضمن منح حامليها الحرية والرعاية عند دخولهم المياه العثمانية في شط العرب وسائر الجهات الأخرى. وقد اتخذ معشوق باشا هذا الإجراء كرد وقائي على قيام قائد الأسطول البريطاني، المتجول في الخليج العربي وساحل عمان، بمحاولة فرض الحماية البريطانية على أهالي الكويت والبحرين، إذ إن القائد المذكور كلف أهالي الكويت والبحرين قبول الحماية البريطانية، مقابل تأمين سلامة سير سفنهم بحرية في مياه الخليج العربي والمحيط الهندي، وطلب منهم إجابته خلال ستة أشهر، ولكن أهالي الكويت والبحرين رفضوا العرض البريطاني بطريقة دبلوماسية .

٤- تأسيس أسطول حربي عثماني، يتألف من عدة سفن مسلحة، للتجول في مياه شط العرب والخليج العربي، لتأمين الحماية للسفن التجارية العثمانية ولمدينة البصرة بقوة عسكرية برية إضافية، لما لذلك من أهمية في امتداد النفوذ العثماني إلى الكويت والحسا والقطيف، والوقوف بوجه التوسع

الإيراني. ومن الجدير بالإشارة أن الدولة العثمانية لم تكن تمتلك أية سفينة بحرية في مياه الخليج العربي ، حربية كانت أم تجارية ، وكان التجار والحجاج من رعايا الدولة العثمانية يركبون السفن البريطانية إلى ميناء جدة بقصد الحج، أو إلى بومباي بهدف المتاجرة. وقد خصص الانجليز سفينة بحرية للقيام برحلة سنوية واحدة بين البصرة وجدة في موسم الحج ، مرورا بمينائي بوشهر ومسقط ، وكانت هذه الرحلة تستغرق اثني عشر يوما للذهاب فقط، وحققت في عام ١٢٨٣هـ / ١٨٨٦ م إيرادا مقداره ٣٥٠٠٠ روبيه هندية، من نقطة انطلاقها في ميناء البصرة. يضاف إلى ذلك ما حققته من إيرادات مضاعفة أثناء مرورها بمينائي بوشهر ومسقط .لذا طالب "معشوق باشا" حكومته المركزية بشراء سفينة بحرية من انجلترا، أو إرسال إحدى السفن البحرية الموجودة في ترسانة اسطنبول لاستخدامها في الملاحة مع ميناء جدة في موسم الحج ، وبمعدل رحلة أو رحلتين، ومع بومباي بمعدل أربع رحلات سنويا، وأكد على ما سوف تحققه هذه العملية من فوائد مادية ومعنوية ، حيث ستمخر عباب البحر أمام السواحل العربية والهندية سفينة يرفرف على ساريتها العلم العثماني ، ومن الناحية العسكرية والإدارية فإن هذه العملية ستحقق اتصالات ومخابرات سريعة بين اليمن والبصرة أو الحجاز ، ومنها إلى اسطنبول[٣٤] .

نتائج البحث

١- ألقى هذا البحث الضوء على الأحوال العامة لمنطقة بلاد الرافدين وتخومها من سكان الخليج العربي، في خضم التكالب العالمي على تلك المناطق الحيوية الزاخرة بالثروات الطبيعية والبشرية التي أسالت لعاب قوي الضد.

٢- أشار هذا البحث إلى أبعاد العلاقات الحيوية بين ميناء البصرة وحواضر التخوم المجاورة لها والتي استلهمت منهم العطاء.

٣- تناول هذا البحث أبعاد التضعضع والضعف في هياكل الدولة العثمانية المتشرنقة، والتي كانت حاضرة بشخصها غائبة بسلطانها، تمهيدًا لسقوطها في حبائل الذئاب الأوربية الجامحة والهوجاء، بعد أن تنازلت عن كبريائها .

٤- أوضح هذا البحث مدى انصهار ميناء البصرة ديموغرافيًا مع شتى القوى الإسلامية في تلك الإصقاع، كمًا وكيفًا، عمقًا وإتساعًا.

٥- ابرز هذا البحث مدى أهمية مدينة البصرة التي جسدت مركز إشعاع تجاري وثقافي، سواء في الداخل أو الخارج، اشرأبت الأعناق إليها بعد أن اتجهت إنذار الحشود العربية إلى هذا الصقع كمدينة وميناء حيويين.

٦- عالج البحث حرص الإدارة العثمانية على ميناء البصرة لحيويته، ولكونه صمام أمان لها، وبالتالي إرسال كيانات قوية لإدارته ودرأ الأخطار التي تهدده.

٧- برهن هذا البحث على مدى احتقان الكيان العثماني وعجزه عن الدفاع عن مدينة البصرة، فصار يدور في أفلاك القوى العظمى من أجل الارتماء بين أحضانها.

٨- أكد هذا البحث على محاولات حكام البصرة درأ الأخطار التي حيكت على ميناء البصرة، الذي يجسد صمام أمان للحكم العثماني، لكن هيهات .

٩- أوضحت الدراسة مدى المحاولات الكثيرة، من جانب حكام البصرة العثمانيين، في تكتل وضم العديد من الحواضر المتاخمة للبصرة، من أجل إعطائها دماء جديدة، وكانت إحدى المحاولات المطروحة للحفاظ على هوية مدينة البصرة.

١٠- ألقى البحث الأضواء على انغماس الباب العالي، الذي عفا عليه الزمن، في المشاكل الملتهبة، سواء في الداخل والخارج، التي جعلته يغمض عينيه عن ميناء البصرة.

١١- كشف هذا البحث النقاب عن العديد من الرسائل المدونة من جانب متصرف البصرة العثماني إلى الباب العالي، لتبيان الأحوال المتدنية لمدينة البصرة، في ظل التنافس الاستعماري المحموم.

١٢- أشار هذا البحث إلى العديد من التقارير الصادرة والواردة من متصرف البصرة العثماني وحكام دول التخوم، من أجل تطبيع العلاقات بينهما، ورد الفعل في ذلك الصدد.

١٣- قنن هذا البحث مدى قوة الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس في استقطاب تلك الكيانات العربية وتطويقها، من أجل نجلزة ميناء البصرة الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى من الوقوع بين براثن هذا المغامر العنيد.

١٤- حققت الدراسة عدة قرائن عن أسطول البصرة البحري وقوتها البحرية، وهيكل النظام المعمول به في تلك الحاضرة البحرية التي تمثل القلب النابض للتجارة، وأيضًا مقترحات تحديثها كمًا وكيفًا.

١٥- عالجت الدراسة العديد من الاقتراحات الحيوية للنهوض بمدينة البصرة، بحكم موقعها الاستراتيجي وأهميتها للباب العالي المحتقن في تلك الفترة .

١٦-أثبتت الدراسة أن محاولات الباب العالي قد ضاعت سدى، وعجز عن تحقيق أهدافه، حيث كان يعاني من سكرات الموت، بعد أن ظل يترنح أمام القوى العالمية الكاسرة التي سعت سعيا حثيثا من أجل تمزيقه، تمهيدًا للانقضاض على أملاكه، بعد أن توارى مأسوفًا عليه، وتحويلها إلى فرائس سائغة الالتهام والابتلاع.

الهوامــــش

١. يمثل الخليج العربي أحد الطرق العالمية القديمة الثلاثة (الجنوبي والأوسط والشمالي) التي تربط الشرق بالغرب ، فالطريق الأوسط للتجارة الشرقية يمر عبر الخليج العربي وسهول العراق وبلاد الشام إلى موانئ الساحل الشرقي للبحر المتوسط ،وقد قام هذا الطريق بدور هام في النقل التجاري والبشري والحضاري منذ أقدم العصور حتى إفتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م ، ففقد كثيرا من أهميته، واستطاع العرب اعتمادا على سواحلهم الطويلة التي تسيطر على بعض مداخل ومخارج التجارة الشرقية في البحر العربي والمحيط الهندي ، خلال حقبة طويلة من التاريخ الإنساني، أن يكونوا سادة للتجارة والملاحة المارة عبر الطرق البحرية والبرية الموصلة بين العالمين القديم والجديد، وانتشرت مسكوكاتهم ومعارفهم على هذه المسالك بين الصين وشبه جزيرة اسكنديناوة، مما يدل على عمق نفوذهم الاقتصادي وتأثيرهم الحضاري . انظر : د. إبراهيم شريف : الشرق الأوسط ((دراسة لاتجاهات سياسة الاستعمار حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق)) ، (بغداد ، ١٩٦٥) ، ص ١٧ ، ١٩ ، ٢٣ - ٢٤ .

٢. Alderson, A: The structure of the Ottoman Dynasty (Iraq Affais). (N.Y, 1970).

٣. كارستين نيبور : مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلة سنة ١٧٦٥ ، ترجمة سعاد هادي العمري ،(بغداد ، ١٩٥٥) ص ١٢٠ . ستيفن همسلي لونكريك : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة جعفر الخياط ، (بغداد ، ١٩٨٥) ط ٦ ، ص ٣٦٢ . د. عبد الأمير محمد أمين : القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ، (بغداد ١٩٦٦) ، ص ٩ - ١٢ ، ٦٥ ، ٧٤ - ٧٥ .

٤. د. عبد الأمير محمد أمين: المصدر السابق، ص ٦٥، ٧٥ - ٧٦ - ٨٣.

٥. الكارة : أحد أنواع المكاييل المستخدمة وقتذاك وتعادل ألف أوقية اسطنبولية .

٦. أرشيف الباب العالي في اسطنبول / تركيا / إرادة : مجلس والا ، رقم الوثيقة ٥٥٠٠ .

٧. Ahmed, F: The young Turks, the Committee of notion and progress in Turkish politics (1809- 1911) [London,1960].

٨. أرشيف الباب العالي: إرادة / خارجية، رقم الوثيقة ٢١٢٦، لف ٦ (من المأمور المخصوص لتحديد حدود إيران محمد أمين درويش باشا إلى الصدارة، ٢١ ربيع الآخر ١٢٦٦ هـ / ٦ مارس ١٨٥٠ م).

٩. أرشيف الباب العالي:إرادة / خارجية، رقم الوثيقة ٣٢٧٩، لف ١ (مذكرة درويش باشا إلى متصرف البصرة معشوق باشا، غرة شعبان ١٢٦٦ هـ / ١٢ حزيران ١٨٥٠ م).

١٠. أرشيف الباب العالي : إرادة / داخلية ، رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ ، بحرية لف ١ (من متصرف إيالة البصرة إسماعيل معشوق باشا إلى الصدارة ، ١٥ شوال ١٢٦٧ هـ / ١٥ حزيران ١٨٥١ .

١١. Hammer,J: History of Empire Ottoman (IraqAffais) (N.Y, 19).

١٢. ينظر : رودولف سعيد روث : سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١ - ١٨٥٦ ، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي ، (مطبعة جامعة البصرة ١٩٨٢) ، ص ٤١ - ٤٧ . د.جمال زكريا قاسم : دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا ١٧٤١ - ١٨٦١ ، (القاهرة ١٩٦٢) ، ص ٤٠ - ٤٦ . عايشة السيار: دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا في الفترة من ١٦٢٤ - ١٧٤١ ، (بيروت ١٩٧٥) ، ١٨٢وما بعدها .

١٣.أرشيف الباب العالي :إرادة/ داخلية ، رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ (بحرية لف٣) .

١٤.Cales, R : The Ottoman impact in Europe, (Iraq Affais) (London, 1965).

١٥.أرشيف الباب العالي :إرادة/ داخلية ، رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ (بحرية لف١) .

١٦.رودولف سعيد روث : المصدر نفسه ، ص ١٢٤ – ١٢٥ . السيدة سالمة بنت السيد سعيد : مذكرات أميرة عربية ، ترجمة عبد المجيد القيسي (مطبعة جامعة البصرة ، ١٩٨٠) ، ص ١٨٤ – ١٨٨ .

١٧. Berkes, Nazi : The Development of Secularism in tourkey (Iraq Affais) (London , 1960).

١٨. رود لف سعيد : المصدر السابق ، ص ١٥٩ – ١٦٤ .

١٩. رود لف سعيد : المصدر نفسه ، ص ٦٤ – ٦٥ – ٦٧ – ٧٦ – ١٥٦

٢٠. د. إبراهيم شريف : الشرق الأوسط ، ص ٢٥ .

٢١. Braude, B. and .B. Lewris Christians and jews in the Ottoman Empire (N. Y, 1970).

٢٢. كانت القوة العسكرية البريطانية بقيادة السير دبليو كرانت كير ، وتضم السفينة ليفربول المجهزة بخمسين مدفعا ، والسفينة ايدن المجهزة بستة وعشرين مدفعا والسفينة كورلا المجهزة بثمانية عشر مدفعا . وست سفن أخرى وكان على ظهرها ١٦٠٠ جندي من الأوربيين و ١٤٠٠ من الهنود. زيادة على ثلاث سفن عمانية و ٤٠٠٠ جندي عماني . انظر : رودلف : المصدر السابق ، ص ٨٢ .

٢٣. من المعروف أن الأسطول العماني تدخل كذلك في أيلول ١٧٧٥ لفك الحصار الذي فرضه الحاكم الإيراني صادق خان على البصرة ، وأخذت القطع البحرية العمانية موقعها في مدخل شط العرب وسيطرت على الشط لفترة من الزمن ، وقامت بتأمين وصول المؤن والذخيرة إلى المدافعين عن البصرة، فعززت صمودهم في وجه الغزاة الفرس . ولكن الأسطول العماني انسحب فجأة وعاد إلى بلاده . ويبدو أن ابتعاد الأسطول عن قواعده وخوف سلطان عمان من قيام الإيرانيين بالتعرض إلى عمان نفسها، وربما مداخلة الانجليز ومشورتهم، دفعت العمانيين إلى الانسحاب. وكان الأسطول العماني المرابط بمدخل شط العرب مؤلفا من عشر سفن كبيرة وعدد أكثر من الغلافات والترانكي والسفن الصغيرة الأخرى. وقد أدت هذه المشاركة العمانية إلى حدوث خلاف عنيف بين سلطان عمان ووالي بغداد، وذلك لادعاء الأول أن له ديونا في ذمة الوالي الذي اضطر إلى تسوية خلافه مع حاكم عمان تجنبا لمجابهة بحرية لا له بها. ينظر: رودولف سعيد : المصدر نفسه، ص٨٦. د.عبد الأمير محمد أمين: المصدر نفسه، ص٧٣ –٧٨.

٢٤. Brokleman.C: History of Islamic People (Iraq Affais) (London, 1960).

٢٥.رودلف سعيد : المصدر نفسه ، ص ١١٠ ، ١٢٢ .

٢٦.أرشيف الباب العالي :إرادة / مجلس والا ، وثيقة رقم ٥٥٠٠ .

أرشيف الباب العالي : إرادة / داخلية ، رقم الوثيقة ١١٠٠٧ (تلطيفات لف ١)، مذكرة قيودان سليمان باشا إلى الصدارة ، ٥ جمادى الثانية ١٢٦٥ هـ / ٢٨ نيسان ١٨٤٩ م

٢٧. الكيس: وحدة حسابية عثمانية تساوي ٦٠٠٠٠ آقجة ، أو ٥٠٠ قرش أو ٢٠٠٠٠ بارة ،والكيس الرومي يساوي ٥٠٠٠٠ آقجة . ينظر : د.مهدي جواد حبيب البستاني : أزمة النقود في ولاية بغداد ومحاولات معالجتها ١٨٢٠ – ١٨٥٦ ، المجلة التاريخية ، تونس ، العدد الأول .

٢٨. أرشيف الباب العالي :إرادة / داخلية ، وثيقة رقم ١٣٨٣٠ (بحرية لف٢)

٢٩. أرشيف الباب العالي:إرادة / داخلية، وثيقة رقم ١٣٨٣٠ (بحرية لف ١) من ناظر المالية إلى الصدارة، ١٤ جمادى الثانية ١٢٦٨ هـ.

٣٠. أرشيف الباب العالي :إرادة/ داخلية، وثيقة رقم ١٤٦٤٦ (بحرية لف٣).

٣١. أرشيف الباب العالي:إرادة / داخلية، وثيقة رقم ١٤٦٤٦ (بحرية لف٤) مذكرة الصدارة إلى السلطان ومصادقة السلطان عليها، ١٩ ذي الحجة ١٢٦٧ هـ.

٣٢. أرشيف الباب العالي :إرادة / مجلس وإلا ، وثيقة رقم ٥٥٠٠ .

٣٣. أرشيف الباب العالي : الوثيقة السابقة .



قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

وثائق عثمانية منشورة بمركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأمريكية بالقاهرة- حافظة رقم ٢٩١٤ بتاريخ ١٩٧٧، شئون إسلامية وعربية.

١- أرشيف الباب العالي في إسطنبول- تركيا- إرادة مجلس والا- رقم الوثيقة ٥٥٠٠ نقلا عن دار الوثائق والمخطوطات، د/ عبد العزيز سليمان نوار- الجامعة الأمريكية، مركز الوثائق- مارس ١٩٧٧.

٢- أرشيف الباب العالي في إسطنبول- تركيا- إرادة خارجية- رقم الوثيقة ٣١٢٦- لف رقم ٦، نقلا عن د/ عبد العزيز سليمان نوار- الجامعة الأمريكية- مركز الوثائق والمخطوطات، مارس ١٩٧٧.

٣- أرشيف الباب العالي في أسطنبول- تركيا- إرادة خارجية- رقم الوثيقة ٣٢٧٩- لف رقم ١، نقلا عن د/ عبد العزيز سليمان نوار- الجامعة الأمريكية مركز الوثائق والمخطوطات سبتمبر ١٩٧٧.

٤- أرشيف الباب العالي في إسطنبول- تركيا- إرادة خارجية رقم الوثيقة ١٤٦٤٦ لف ٢- ٤ سبتمبر ١٩٧٧، نقلاً عن د/ عبد العزيز سليمان نوار- الجامعة الأمريكية- مركز الوثائق والمخطوطات.

٥- أرشيف الباب العالي في إسطنبول تركيا- إرادة خارجية رقم الوثيقة١١٠٠٧ لف رقم ١ إبريل ١٨٦٩م، نقلاً عن د/ عبد العزيز سليمان نوار- الجامعة الأمريكية مركز الوثائق والمخطوطات سبتمبر ١٩٧٧.

٦- أرشيف الباب العالي في إسطنبول- تركيا- إرادة خارجية رقم الوثيقة ١٣٨٣٠ لف رقم ٣ إبريل ١٨٦٩، نقلا عن د/ عبد العزيز سليمان نوار- الجامعة الأمريكية مركز الوثائق والمخطوطات سبتمبر ١٩٧٧.

ثانيًا: المراجع العربية والمعربة

١- إبراهيم شريف: الشرق الأوسط- دراسة لاتجاهات سياسة الاستعمار حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في الواحة- بغداد ١٩٦٥.

٢- جمال زكريا قاسم: دولة بوسعيد في عمان وشرق أفريقيا (١٧٤١- ١٨٦١) القاهرة ١٩٦٢.

٣- رودلف سعيد روث: سلطنة عمان خلال حكم سعيد بن سلطان (١٧٩١- ١٨٥٦) (ترجمة عبد المجيد القيسي) البصرة ١٨٦٢.

٤- ستيفن همسلي لونكريك: أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث (ترجمة جعفر الخياط) بغداد ١٩٥٨.

٥- عائشة السيار: دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا (١٦٢٤- ١٧٤١) بيروت ١٩٧٥.

٦- عبد الأمير محمد أمين: القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر بغداد ١٩٦٦.

٧- كارستين نيبور: مشاهدات نيبور في رحلته من البصرة إلى الحلة ١٧٦٥، ترجمة (سعاد هادي العمري) بغداد ١٩٥٥.

ثالثًا: المراجع الأجنبية

1. Ahmed, F: The young Turks, the Committee of wotion and progress in Turkish politics (1809- 1911) [London,1960].
2. Alderson, A: The structure of the Ottoman Dynasty. (Iraq Affais) (N.Y, 1970).
3. Berkes, Nazi : The Development of Secularism in Turkey (Iraq Affais) (London , 1960).
4. Brokleman.C: History of Islamic People (IraqAffais) (London, 1960).
5. Braude, B. and .B. Lewris Christians and jews in the Ottoman Empire (Iraq Affais) (N. Y, 1970).
6. Cales, R : The Ottoman impact in Europe, (London, 1965).
7. Hammer, J : History of Empire Ottoman (Iraq Affais) (N.Y, 1966)

موقف العرب العمانيين في زنجبار من القضية الفلسطينية في الفترة ما بين ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ في الصحافة العربية العمانية في زنجبار

صحيفة الفلق نموذجا

د. ناهد عبد الكريم (*)

مقدمـــــة

منذ صدور وعد بلفور البريطاني عام ١٩١٧ بالعطف على أماني اليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين مرورا بقيام الانتداب البريطاني على أرض فلسطين عام ١٩٢٠ وسعيه لتحقيق هذا الهدف تصدرت القضية الفلسطينية والأراضي المقدسة وفي مقدمتها القدس، قضايا العرب والمسلمين، وتركت تأثيرها في مختلف نواحي حياتهم، واستنزفتهم نفسيا وسياسيا واقتصاديا وأمنيا.

وأسهمت أخبار فلسطين والظلم الذي لحق بالفلسطينيين إلى جانب أخبار الثورات التي عمت الأراضي المقدسة وصولا إلى ثورة عام ١٩٣٦، التي أربكت كلا الطرفين البريطاني والإسرائيلي، والتي ردت عليها السلطة البريطانية بكل عنف وقسوة، كل هذا أسهم في خلق استياء عربي وإسلامي عام انصب على بريطانيا واليهود، ولم تخل بقعة عربية مهما كان موقعها بعيدا من تعقب ما كان يجري في فلسطين، وكان لوقع ثورة عام ١٩٣٦ الأثر الأكبر لتخطيها حدود الأراضي الفلسطينية وانخراط مقاتلين عرب من أنحاء الوطن العربي في القتال إلى جانب الثوار الفلسطينيين ضد بريطانيا والعصابات الصهيونية. وتحولت القضية الفلسطينية إلى محفز لحركات التحرر العربية.

وخلال السنوات التي تلت ثورة عام ١٩٣٦ والأحداث التي ألمت بها وواكبتها، كان الشعب العربي والإسلامي يقف متابعا لكل ما يحدث، وتنوعت أشكال استجابته، بين مشاركة واحتجاج وثورات ومظاهرات. إضافة إلى دور مميز للإعلام العربي وفي مقدمته الصحف والمجلات المصرية والعربية عموما، فقد تولت نقـل أخبـار فلسطين

(*) أستاذ مساعد بجامعة السلطان قابوس ــ مسقط.

والممارسات القمعية للسلطة البريطانية ومعاناة الشعب الفلسطيني، ونشرت نداءات الهيئات الفلسطينية والعربية الداعية للوقوف مع الفلسطينيين، إضافة إلى استنهاض المشاعر العربية والإسلامية، ودعوات للتبرع وغير ذلك.

ولم يحل البعد المكاني بين فلسطين وزنجبار(١) من معايشة عرب ومسلمي زنجبار لمأساة إخوانهم في فلسطين، لذلك تأتي أهمية هذا البحث من كونه أول بحث – حسب علمي– يكشف عن أثر القضية الفلسطينية وما كان يحدث في القدس الشريف على العرب العمانيين والمسلمين المقيمين في زنجبار في شرق أفريقيا من خلال ما كانت تنشره الجرائد العربية هناك كجريدة الفلق بشكل أساسي في الفترة التي تلت ثورة عام ١٩٣٦، وهي الأعوام الأشد على الشعب الفلسطيني.

ثم بعد ذلك جريدة النهضة(٢)، وهذه تأخر صدورها حتى عام ١٩٥١، أي في وقت متأخر عن موضوع البحث، لكن مؤسسها كان قبل ذلك من رواد جريدة الفلق.

أما أهداف البحث فهي الكشف عن موقف العرب العمانيين في زنجبار من قضية فلسطين ووقائعها كما عكستها صحيفة الفلق. بالإضافة إلى التعرف على ردود أفعالهم. وتوضيح مدى إطلاعهم ومتابعتهم لما كان يجري. وبالتالي التعرف على أحد نماذج تداعيات القضية الفلسطينية لدى الشعب العربي في أقصى البقاع فكيف هي في قلب الوطن العربي؟

وتكمن إشكالية البحث في الإجابة على عدد من التساؤلات منها:

١- ما هي الصورة التي نقلتها الصحافة العربية العمانية في زنجبار عن القضية الفلسطينية وما هي المواضيع التي طرحتها جريدة الفلق بشكل محدد فيما يخص فلسطين.

٢- ما هوأثر أخبار ما كان يحدث في فلسطين على العرب العمانيين في زنجبار؟

٣- ما أشكال الدعم الذي قدمه العرب العمانيون والمسلمون في زنجبار لفلسطين.

٤- ما هوأثر أحداث فلسطين على العلاقة العربية البريطانية في زنجبار؟

٥- ما أهمية الدور الذي قامت به جريدة الفلق وغيرها للوقوف إلى جانب الفلسطينيين.

وسيتم تناول البحث وفق منهجية العرض والتحليل والربط، وذلك بتعريض النصوص التي نشرتها صحيفة الفلق للمناقشة والتحليل ومن ثم إعادة ربط أحداثها للخروج بصورة عما كان يحدث هناك بشأن القضية الفلسطينية.

كما يتألف البحث من عدة محاور هي:

١- تمهيد عن أهم أحداث القدس وفلسطين في الفترة من ١٩٣٦ وحتى ١٩٣٩.

٢- تعريف بالصحافة العمانية في زنجبار بشكل عام وجريدة الفلق بشكل خاص.

٣- تصنيف الموضوعات المتعلقة بفلسطين كما نشرتها الفلق

٤- دور الفلق كصحيفة عربية في الكشف عن ما كان يخطط لفلسطين والقدس

٥- أثر أحداث فلسطين على نظرة عرب عمان لبريطانيا كما عكستها مقالات جريدة الفلق.

٦- ثم خاتمة البحث وأهم ما تم التوصل إليه من نتائج.

وقد تم اعتماد أعداد جريدة الفلق الصادرة في فترة البحث بشكل رئيسي، على الرغم من بعض الأخطاء في أرقام أعدادها وسيتم التركيز على تواريخ صدورها كلما دعت الحاجة. كما سيتم اعتماد بعض المراجع العربية الحديثة التي تناولت مواضيع ذات صلة بالبحث مثل كتاب الدكتور محسن الكندي الصحافة العمانية المهاجرة وشخصياتها، وكتاب الدكتور عبد الله الكندي بدايات الصحافة العمانية في زنجبار. بالإضافة إلى بعض المراجع الأجنبية التي تناولت تاريخ زنجبار.

أ- الأوضاع في فلسطين بين ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ (الثورة الفلسطينية الكبرى):

بسبب سياسة سلطة الانتداب البريطانية الداعمة لليهود، والتسهيلات التي كانت تقدمها لهم منذ عام ١٩٢٠؛ تاريخ بدء الانتداب، أكان عن طريق فتح الأرضي الفلسطينية للمهاجرين اليهود، أوتمكينهم من الاستيلاء على الأراضي العربية، إضافة إلى تردي أوضاع الفلسطينيين وانتشار البطالة بين الشباب الفلسطيني نتيجة خسارتهم لأراضيهم من جهة وإعطاء سلطات الانتداب الوظائف لليهود المهاجرين من جهة أخرى، كل ذلك جعل النظرة المعادية واحدة للبريطانيين واليهود، بل غدا الاتجاه ضد بريطانيا متقدما بحكم كونها السبب في ما أصبح عليه الوضع في فلسطين [٣]، فاشتعل الشارع الفلسطيني عام ١٩٣٦ ،متأثرا بشجاعة ثورة الشيخ عز الدين القسام التي سبقتها وأسست لها منذ عام ١٩٣٥ وانتشار أفكاره الثورية[٤].

ولتوحيد الصف تجمعت القوى الفلسطينية وشكلت اللجنة العربية العليا برئاسة الشيخ أمين الحسيني ؛ مفتي القدس، وأعلنت إضرابا عاما في ٢٠ نيسان ١٩٣٦ شمل أنحاء فلسطين كلها بما فيها القدس بهدف الضغط على سلطة الانتداب البريطاني للاستجابة للمطالب الفلسطينية بوقف الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، ووقف انتقال الأراضي الفلسطينية لليهود وغير ذلك. لكن تجاهل سلطات الانتداب البريطانية للمطالب الفلسطينية واستمرار فتح باب الهجرة نقل العمل الفلسطيني إلى مرحلة الكفاح المسلح.

حققت الثورة في مرحلتها الأولى حتى عام ١٩٣٧ انتصارات حقيقية استعادت فيها بعض القرى الفلسطينية من أيدي الصهاينة والبريطانيين(٥) ، وهاجمت المستعمرات اليهودية والمراكز البريطانية مما يدل على ربط الفلسطينيين بين البريطانيين واليهود.

لكن هذه الانتصارات استفزت بريطانيا ودفعتها إلى ممارسة شتى أصناف العقوبات على الشعب الفلسطيني ، وعملت مجتمعة مع العصابات المسلحة اليهودية لقمع الثورة ولما فشلت في تهدئة الأوضاع استعانت ببعض القيادات العربية لإقناع الزعماء الفلسطينيين بإيقاف العمل المسلح وتولي بريطانيا حل الأزمة مع الزعماء العرب. وأرسلت الحكومة البريطانية اللجنة الملكية التي عرفت باسم لجنة بيل عام ١٩٣٧ لتقصي الحقائق في فلسطين وانتهت هذه اللجنة إلى وضع تقرير أكدت فيه أن مخاوف العرب من إقامة الوطن القومي الصهيوني على أراضيهم، وزيادة أعداد الهجرة اليهودية السبب الرئيس في هذه الثورة. كما قدمت اللجنة توصية بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية وأخرى يهودية مع إبقاء القدس وبيت لحم تحت الحماية البريطانية. وبناء عليه وافقت عصبة الأمم على إرسال لجنة فنية إلى فلسطين بتاريخ ١٦ أغسطس ١٩٣٧ لوضع خطة التقسيم وتحديد الحدود. عندها قاطع العرب لجنة التقسيم وانتشرت الدعوات لحث الشعب العربي لنصرة الموقف الفلسطيني (٦)، وخلال تلك الأحداث قامت الصحافة العربية بدور كبير في تعميم أخبار ما يجري في فلسطين على الشعب العربي، مما أسهم في خلق حالة شعبية عربية حانقة على التمادي الاستعماري في خيانة العرب والاعتداء على حقوقهم.

وكان من أبرز تبعات الثورة الفلسطينية التي استمرت حتى عام ١٩٣٩؛ وهوالعام الذي شهد قيام الحرب العالمية الثانية، محاولة بريطانيا تهدئة العرب بدعوة زعمائهم إلى مؤتمر لندن (مؤتمر سان جيمس) في العام نفسه، ولكن هذا المؤتمر فشل وانسحب العرب منه(٧). ومع بداية الحرب العالمية الثانية هدأت أحداث ثورة فلسطين ليس بسبب وقف الهجرة اليهودية ولا وقف التعديات اليهودية على حقوق الفلسطينيين ولكن بسبب السياسة القمعية البريطانية وتدهور أوضاع الفلسطينيين الاقتصادية وانحلال اللجنة العربية(٨)، وانقسام الرأي حول الاستفادة من ظروف الحرب، كل ذلك كان وراء حالة الهدوء والترقب في فلسطين وحتى في غيرها من الدول العربية.

ألقت التطورات السابقة بثقلها على الشعب العربي في كل مكان، ومن ضمنه العرب العمانيين الذين كانوا يعيشون في زنجبار ويحكمونها في ظل الهيمنة البريطانية عليهم، لذلك لم يكن الشعور بالمصير المشترك مع الفلسطينيين غريبا وقد عكسته الصحافة العربية في زنجبار وعلى رأسها جريدة الفلق. التي أسهمت بدور فاعل في

تأكيد التواصل مع كل ما يحدث في فلسطين ونشر أخبارها بل والتشجيع على دعم الفلسطينيين بكل الإمكانات، إلى درجة أثارت بريطانيا نفسها.

ب- الصحافة العمانية العربية في زنجبار، جريدة الفلق نموذجا:

تعود نشأة الصحافة العربية العمانية في زنجبار إلى مطلع القرن العشرين[٩]؛ وهي الفترة التي أعقبت نقل إدارة زنجبار من وزارة الخارجية البريطانية إلى وزارة المستعمرات[١٠] وإلغاء الإشراف الثنائي البريطاني العماني على زنجبار بعد عام ١٩١٣ وخروج النفوذ السياسي من يد العرب العمانيين وانتقاله إلى البريطانيين مع بقاء شخصية السلطان العماني كشخصية رمزية[١١]. وفي هذه الفترة اشتدت الهيمنة البريطانية على زنجبار بعد إطاحتها بحكم السلطان علي بن حمود البوسعيدي لتوجهاته العربية والإسلامية[١٢]. وإيصال السلطان خليفة بن حارب البوسعيدي إلى السلطة ومن ثم جعل الإشراف المباشر على زنجبار مسؤولية المعتمد البريطاني[١٣].

وتجسد رد الحركة الوطنية في زنجبار على السياسة البريطانية بتأسيس أول حزب وطني عام ١٩١٧، تألف من المثقفين العرب الذين طالبوا بإنهاء الحماية البريطانية على زنجبار وقد اعتقلتهم بريطانيا ونفتهم إلى سانت هلينا[١٤]. ثم تأسست الجمعية العربية بزنجبار عام ١٩٢٥ كرد فعل على دور الجمعية الهندية في زنجبار[١٥]، التي تلقت دعما واضحا من البريطانيين[١٦]. ويمكن القول أن ظهورها كان تجسيدا حقيقيا لوعي الذات العربية عند العمانيين في زنجبار، وردا على سياسة التهميش والغبن وإثارة الطائفية والقومية خاصة في فترة الثلاثينات[١٧].

وأسهم في نموهذا الوعي أثر البعثات العلمية على الطلبة المبعوثين إلى بلدان عربية كانت تشهد تحولات سياسية واجتماعية وثقافية وتحررية مثل العراق ومصر ولبنان وبلدان غير عربية مثل الهند. حيث شاهدوا وعاصروا ما جرى هناك[١٨]. وقد رفضت بريطانيا إقامة الجمعية العربية وسعت لدى السلطان خليفة بن حارب لإقناع الشيوخ العرب بإيقافها[١٩]. ولكن الجمعية تمكنت من الظهور، ولإيصال أفكارها اقترحت عام ١٩٢٦ إنشاء صحيفة عربية لنقل أفكار الجاليات العربية في زنجبار. فتم إصدار جريدة الفلق عام ١٩٢٩ وباتت تطبع وتنشر من قبل الجمعية العربية، وغدت أحد أهم إنجازاتها وبمثابة الناطق الرسمي لها والمجال الخصب للتيار الوطني الممثل لهموم العرب[٢٠]. وقد اختير محمد البرواني مديرا للجريدة ورئيسا للتحرير. وتلقت هذه الجريدة دعما من الفئات العربية العليا في المجتمع، وكانت تصدر باللغتين العربية والانكليزية وأحيانا بالسواحلية.[٢١] وقد أقبل العرب على قراءتها في مناطق مختلفة من الوطن العربي لأهمية المواضيع التي كانت تطرحها[٢٢].

وعلى الرغم من أن نشأة بعض الصحف العمانية في زنجبار يعود إلى عام ١٩١١ كما هوحال جريدة النجاح[٢٣]، التي صدرت في عهد السلطان علي بن حمود إلا

أن الدور المميز الحقيقي يبقى لجريدة الفلق التي استمرت في الصدور حتى عام ١٩٦٤(٢٤). وكانت جريدة سياسية من الدرجة الأولى حيث بلغت نسبة مقالاتها السياسية ٤٠% من مقالاتها(٢٥). ركزت فيها على قضايا العرب العمانيين في زنجبار وعمان، والقضايا العربية في كل بلد عربي مما جعلها محط اهتمام متابعيها(٢٦). وقد تبنت قضايا التحرر العربية فأبرزتها. وأبرزها قضية العرب الأولى، قضية فلسطين خاصة في الفترة التي أعقبت ثورة عام ١٩٣٦ في فلسطين، لذلك عكفت على نقل أخبارها وقدمت ما كان بإمكانها لدعم الحقوق الفلسطينية بالقول والعمل.

١- الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦:

أ- موقف عرب زنجبار من الثورة وأصداؤها في جريدة الفلق:

أججت أحداث الثورة في فلسطين مشاعر الغضب لدى المواطنين العرب العمانيين في زنجبار خاصة وأنهم كانوا يشاركون الفلسطينيين جهة الاحتلال البريطاني نفسها، ويتعرضون إلى عملية تطهير عرقي مماثل، لذلك كثيرا ما ربطوا بين رغبتهم في تحررهم وتحرير فلسطين من السيطرة الاستعمارية(٢٧). وتمحور موقفهم مما يجري في فلسطين حول أمرين، الأول: إجرائي عملي، والثاني: استخدام الصحافة للتوعية بما يجري في فلسطين وإيجاد موقف شعبي مؤيد للثورة.

فبالنسبة للأمر الأول: أنشأت الجمعية العربية في زنجبار لجنة "لإغاثة منكوبي فلسطين"(٢٨). وكان من أشكال الدعم التي قدمها عرب عمان في زنجبار:

- التبرعات:

كان الدعم الشعبي العربي والإسلامي لفلسطين في زنجبار أسرع من الدعم الرسمي الذي ركز على الجانب السياسي. وكانت أخبار الفواجع في فلسطين تثير الضمير الشعبي وتدفع الناس لجمع التبرعات لمنكوبيها ومشرديها وكانت جريدة الفلق تنقل عن اللجنة العربية الفلسطينية في مصر الدعوة إلى الإسراع في جمع هذه التبرعات، كما كانت تعين أسماء الهيئات الموثوقة لتوصيل الإعانات(٢٩).

ومن الاجتماعات التي عقدت لهذا الغرض، اجتماع الهيئة التنفيذية لجمعية الشبان المسلمين بدار اللجنة العربية في ليلة الجمعة ٢٢/ ٤/ ١٩٣٨، بهدف أولا تقديم احتجاج للمقيم البريطاني في زنجبار على الممارسات السيئة للسلطة البريطانية ضد عرب فلسطين، وثانيا جمع التبرعات لمساعدة منكوبي فلسطين، وقد ألقى رئيس جمعية الشبان المسلمين الشيخ سالم بن عبد الله ودعان كلمة حث فيها المسلمين على جمع التبرعات لمساعدة المتضررين في فلسطين. ويلاحظ شمولية كلمة المتضررين من العرب وغيرهم باعتبار أن القضية الفلسطينية عربية إسلامية. وسعى في هذا الاجتماع إلى دعوة اللجنة العربية إلى اجتماع عام لهذا الغرض(٣٠).

وانتخبت لجنة لمساعدة الفلسطينيين باسم(لجنة إعانة مسلمي فلسطين) وتألفت من رئيس هو الأمير سيف بن حمود بن فيصل(٣١)، وعدد من الأعضاء وذلك بناء على اجتماع عمومي للجمعيات الإسلامية في زنجبار دعت إليه جمعية الشبان المسلمين وكان الهدف من الاجتماع " الكلام عن فلسطين وما يعانيه هناك إخواننا العرب من الظلم والعدوان على يد السلطة، ولمناشدة المسلمين أن يمدوا يد المعونة والنصرة نحو منكوبي فلسطين، ولتقديم احتجاج إلى فخامة مقيم بريطانيا على ما ترتكبه سلطة فلسطين(سلطة الانتداب) من الفظائع نحو عرب فلسطين"(٣٢) وكانت لجنة إعانة مسلمي فلسطين تعقد اجتماعاتها بشكل متكرر في دار الجمعية العربية لمتابعة تحقيق أهدافها الثلاث التي سبق ذكرها(٣٣).

ومن هذه الاجتماعات، الاجتماع العمومي الذي دعت إليه لجنة إعانة مسلمي فلسطين في زنجبار يوم ٢٧ مي ١٩٣٨ بهدف إعانة منكوبي فلسطين(٣٤)، وكان مؤسس هذا الاجتماع والمحرض لعقده هو الأمير سيف بن حمود بن فيصل الذي اشتهر بمساعيه الكبيرة في إثارة الشعور الإسلامي لدى مسلمي زنجبار لمساندة الفلسطينيين(٣٥). وجاء انعقاد هذا الاجتماع في الموعد المحدد حيث عقد أمام مدرسة البحرة، وتم فيه انتخاب حافظ بن محمد؛ رئيس الجمعية العربية، رئيسا لهذا الاجتماع. كما سعى المجتمعون لضم مسلمي زنجبار لتأييدهم وترجموا كلمات المتحدثين من العربية إلى السواحلية ليفهمها من هو غير عربي. كما حدث في الكلمة التي ألقاها رئيس الاجتماع والتي أوضح من خلالها أغراض الاجتماع(٣٦).

وكان من المشاركين ممثلا عن فلسطين علي محمد الجمالي وقد ألقى كلمة وضح فيها معاناة الشعب الفلسطيني(٣٧).

كذلك شارك غلام علي المحامي الذي ألقى كلمة مطولة باللغة الانكليزية حاول فيها استنهاض المقيم البريطاني في زنجبار هثورني هول لحث حكومته على تخفيف معاناة الشعب الفلسطيني ووقف المجازر ضده. وقد ترجمت الكلمة من الانكليزية إلى السواحلية بواسطة الشيخ راشد رضا ناتاني(٣٨).

وكان من الشخصيات التي حضرت الاجتماع الشيخ عبد الله بن سليمان الحارثي(٣٩)، والنائب علي بن عمير المرهوبي. وقد أيدا كلمتي غلام علي المحامي وعلي محمد الجمالي. وخرج الاجتماع بقرار جاء فيه: " قرر هذا الاجتماع العام من مسلمي زنجبار أن يظهر عواطفه وإحساساته الصادقة الأخوية نحو إخوانه مسلمي فلسطين لما يقاسونه من أرزاء ومصائب، ضارعا لله تعالى أن يمن عليهم بالأمن الشامل والهناء الدائم"(٤٠).

وقد لفت النظر في هذا الاجتماع العام غياب عدد من الشخصيات العربية والهندية وربما كان ذلك لعدم إثارة غضب البريطانيين، مما دفع جريدة الفلق إلى التعليق

على هذا الغياب بهدف إثارة حميتهم للتبرع. كما أظهر بوضوح مدى الدور الإسلامي في دعم ثوار فلسطين، حيث كانت الدعوة لتقديم الدعم المادي للفلسطينيين تقترن دائما بتذكير المتبرع أن "ما يبذله في سبيل تخفيف ما يقاسيه عرب فلسطين من المحن والآلام إنما يبذله في نصرة دينه وقرآنه ونبيه"(٤١).

وكان من أبرز نتائج هذا المؤتمر: جمع المال والتبرعات، والاتفاق على تكليف رؤساء الجمعيات والفرق الإسلامية بجمع الأموال وإيجاد طريقة سريعة لذلك. أما عن إيصال هذه الأموال إلى فلسطين، فاقترح أن يتم ذلك بواسطة الشخصيات أو المؤسسات المعروفة التي تولت إعانة منكوبي فلسطين.

وتحسبا من إعاقة البريطانيين توصيل هذه الأموال للفلسطينيين تم التمني على المقيم البريطاني هول أن يسمح بإرسال أموال الإعانة مباشرة للمتضررين الفلسطينيين، دون مرورها على حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين. وقد ذكرت جريدة الفلق أن المسلمين والبلدان الإسلامية لم تكن ترسل إعاناتها لفلسطين عن طريق حكومة الانتداب بل كانت تنقلها "بواسطة الشخصيات المعروفة، أو المؤسسات الشهيرة في مصر وسوريا والعراق وغيره"(٤٢). ويؤكد ذلك قلة ثقتهم بتلك السلطة ويقينهم بتحيزها إلى الجانب الإسرائيلي ضد العرب.

وتحسبا لرفض المقيم البريطاني هول إرسال المعونات مباشرة للفلسطينيين وإصراره على مرورها عبر سلطات الانتداب البريطانية، كان هناك اقتراح بتسليمها لشيخ جامع الأزهر بمصر لمكانته الدينية في العالم الإسلامي وأنه لن "يوصل المال المرسل من زنجبار للثوار في فلسطين" أي أنه سيتم توصيلها للمدنيين الفلسطينيين(٤٣).

- **الاحتجاجات:**

بقيت الأوضاع في فلسطين تلقى انتقادا حادا من العرب والمسلمين في زنجبار، وكان البعدان القومي والديني للأراضي الفلسطينية المقدسة محفزين على توحيد الصفوف والمواقف واضطر القياديون المثقفون العرب العمانيون في زنجبار إلى الاعتماد على الاحتجاج أكثر من غيره من وسائل المقاومة، لذلك تكررت لقاءات مناصري فلسطين لجمع المعونات ورفع الاحتجاجات، وهذا أقصى ما كان من الممكن عمله بسبب وجود الاستعمار البريطاني في زنجبار، ولعدم امتلاكهم القوة الكافية والوعي الشعبي الداعم لهم(٤٤). ويمكن رصد حركة الاحتجاجات هذه من خلال ما نشرته جريدة الفلق والذي سيرد لاحقاً.

- **التعاون مع القيادات الفلسطينية:**

في عام ١٩٣٥م قام الشيخ سليمان بن ناصر اللمكي بزيارة لافتة للنظر إلى فلسطين وذلك قبيل وفاته. وتزامنت زيارته مع قيام ثورة عز الدين القسام هناك، ولسنا

نعرف بالضبط غرض هذه الزيارة، ونرجح أنها كانت للاطلاع على ما كان يجري هناك(٤٥).

كما جرى تواصل بين قيادات الحركات العربية من جهة والشخصيات القومية العربية والإسلامية العمانية في زنجبار مثل "الهيئة التنفيذية لجمعية الشبان المسلمين" و" الجمعية العربية" وذلك لتنسيق المواقف وتقديم الدعم للفلسطينيين. فقد أرسل أسعد داغر؛ السكرتير العام للجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني، رسالة إلى الشيخ سليمان بن ناصر اللمكي(٤٦) يدعوه فيها إلى تأييد السياسة والمطالب التي يستشهد العرب من أجلها. وتضمنت الرسالة قرار اللجنة العربية العليا لفلسطين بمقاطعة اللجنة البريطانية الفنية التي دعا وزير المستعمرات البريطاني لتشكيلها. وأوضحت أسباب مقاطعة اللجنة العربية ولماذا تدعو العرب لدعم هذه المقاطعة ومما جاء من أسباب في تلك الرسالة أن أهل فلسطين يدعمهم العالمين العربي والإسلامي رفضوا مشروع التقسيم من أساسه لأن اللجنة التي شكلتها بريطانيا تقوم على أساس التقسيم وبالتالي فهي مرفوضة بطبيعة الحال(٤٧).

وأشارت الرسالة إلى أن موعد حضور لجنة التقسيم إلى فلسطين سيكون في ٢٧ أو ٢٨ أبريل ١٩٣٨، وأن مقرها سيكون في القدس، لذلك فإن الغرض من الرسالة رغبة اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني في القاهرة، أن يكون هنالك موقف عربي موحد يدعم ويؤيد موقف الشعب الفلسطيني الرافض للتقسيم، وحرصا على مصلحة البلاد الفلسطينية المقدسة. والمطلوب أيضا أن يرسل زعماء العرب والمسلمين وهيئاتهم في العالم كله برقيات إلى لجنة تقسيم فلسطين يرفضون فيها التقسيم ويطالبون بإعطاء العرب الفلسطينيين حقوقهم كاملة، وأن ترفع بريطانيا الظلم والجور الواقع على الفلسطينيين(٤٨).

وذكر أسعد داغر أن اللجنة التنفيذية هي التي كلفته بمهمة الاتصال بالشيخ سليمان بن ناصر اللمكي ليقوم الأخير بمهمة الحصول على تأييد الشعب العربي والمسلم في زنجبار للموقف العربي الرافض للتقسيم وحتى تدرك لجنة التقسيم البريطانية والحكومة البريطانية "أن العرب والمسلمين جميعا يؤازرون أهل فلسطين مؤازرة حقيقية ويؤيدونهم في جميع أعمالهم الوطنية"(٤٩) واختتم الرسالة بدعوته الشيخ اللمكي للإسراع في تنفيذ الطلب.

أصداء القضية الفلسطينية في جريدة الفلق:

اهتمت جريدة الفلق بمتابعة أخبار فلسطين بشكل مبكر(٥٠). وحظيت القضية الفلسطينية بحضور مكثف في مقالاتها وخاصة في الفترة من ١٩٣٧ إلى ١٩٣٩ وذلك بسبب تصاعد المقاومة الفلسطينية في مواجهة زيادة الأعمال القمعية البريطانية وارتفاع أعداد المهاجرين اليهود إلى فلسطين، وبسبب انتقال المقاومة الفلسطينية إلى مرحلة

الاحتضان الشعبي العربي ممثلة بمشاركة العديد من القادة والعسكريين العرب الذين وقفوا إلى جانبها ودربوا المقاتلين واشتركوا في القتال نفسه.

وقد أسهمت جريدة الفلق بدور فعال في جمع التبرعات للفلسطينيين، وحرصت على نقل مقالات الاحتجاج على الوجود الصهيوني والسياسة الاستعمارية في فلسطين بهدف إثارة مشاعر عرب زنجبار ومسلميها وإطلاعهم على مواقف غيرهم من العرب في المناطق الأخرى ليشدوا أزرهم في مواجهة ما يخطط لفلسطين ومثال ذلك ما نشرته جريدة الفلق من كتاب الاحتجاج الذي أرسله المرشد العام لجمعية الإخوان المسلمين بمصر إلى المندوب السامي البريطاني في فلسطين عام ١٩٣٨ والذي لفت فيه نظر المندوب إلى سياسة العنف والقمع والإرهاب التي مارستها وتمارسها سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين، وأشار الكتاب إلى أن ما تنشره الصحف من فظائع على الرغم من الرقابة المسلطة عليها كاف لإثارة غضب وقهر الشارع العربي والإسلامي فأخبار القتل والمصادرة والتشريد والاعتداء بكل أشكاله تدفع إلى استفحال الثورة في فلسطين وتدفع بأبنائها إلى التضحية بأرواحهم لإنقاذ " كيانهم المهدد بالزوال وأراضيهم المهددة بالتهويد والضياع، ومقدساتهم المهددة بالاجتياح، وذراريهم المهددين بالموت جوعا أو بالجلاء من البلاد"(٥٠).

وعلى الرغم من تقطع أخبار فلسطين وانشغال العرب والمسلمين في زنجبار بمشاكلهم، إلا أن ارتفاع الصوت العربي في زنجبار استمر وخاصة في الفترة من عام ١٩٣٧ إلى عام ١٩٣٨ وحتى عام ١٩٣٩ وما بعده، لدعم الفلسطينيين والأراضي المقدسة فيها، وجاء كشكل من أشكال الرفض للنفوذ البريطاني في زنجبار نفسها الذي اضطهد الوطنيين العرب وشتت شملهم في المعتقلات. لقد كان هناك تشابها كبيرا بين ما كان يحدث في فلسطين وما يحدث في زنجبار، ففي كلا الطرفين كان العنصر العربي يعاني اضطهادا لصالح عرقيات أخرى غريبة كاليهود في فلسطين والهنود والشيرازيون في زنجبار. إضافة إلى سياسة نقل الأراضي من العرب إلى اليهود في فلسطين، ومن العرب إلى الهنود في زنجبار حتى خسر العرب أراضيهم في البلدين. فمنذ عام ١٩٣٧ أدرك عرب زنجبار وطأة الدعم البريطاني للهنود وسيطرتهم على تجارة القرنفل، مصدر رزق كثير من العرب العمانيين، لذلك تصاعدت مطالبهم بمراعاة حقوقهم وأمدتهم مقاومة أهالي فلسطين بالقوة(٥٢)، وتزامن هذا مع نمو الوعي الوطني وتحوله إلى حركة وطنية في زنجبار قادها العرب بشكل أساسي(٥٣).

وتنوعت عناوين موضوعات جريدة الفلق المتعلقة بفلسطين، حتى بلغ عدد مقالاتها خلال عامي ١٩٣٨ و١٩٣٩ ما يزيد على عشرين مقالة(٥٤)، وكان منها مقالات تفصيلية تحليلية عن القضية الفلسطينية ونشأتها، ومنها بيانات ونداءات

واحتجاجات لرفع الروح المعنوية وشحذ الهمم لتقديم المساعدة والتبرعات(٥٥). ويمكن تصنيف هذه الموضوعات كالتالي:

أولا: موضوعات إخبارية:

اهتمت فيها جريدة الفلق بنقل أخبار الحوادث التي تقع في فلسطين، وكانت مصادر أخبارها إما عن طريق أشخاص يراسلونها من فلسطين مباشرة أي مراسليها، أومن اللجان الفلسطينية في الخارج وأحيانا كثيرة من جرائد أخرى إذا تعذر حصولها عليها مباشرة، وقد أشارت إلى ذلك عند إيرادها كل خبر(٥٦).

ومن تلك الحوادث، إصدار المحكمة العسكرية في فلسطين حكما بالإعدام على فلاح عربي يدعى منجد حمدان(٥٧). كما نقلت عن (رويتر) خبر مقتل أربعة من اليهود وفقد ثلاثة كانوا يركبون سيارة في صفد في فلسطين على يد الثوار الفلسطينيين، وأن الشرطة قامت بتفريق الثوار وقتلت ثلاثة أشخاص(٥٨).

ونقلت الفلق عن أخبار رويتر حادثا لافتا للنظر وله دلالة مهمة في المعنى والتوقيت حيث جاء في الخبر أن طالبين ألمانيين متخصصين بعلم الأديان وجدا مقتولين بعيارات نارية " على مقربة من مدفن قتلى الحرب في القدس"(٥٩)، ويظهر وراء هذا الخبر، التعصب الصهيوني إذا ما أخذنا بالاعتبار وضع اليهود في ألمانيا في ذلك الوقت.

ولعل من الأخبار الهامة التي أوردتها جريدة الفلق، أخبار الثورة الفلسطينية في مختلف المناطق ومنها: معركة حدثت في ناحية جنين في فلسطين بين المجاهدين العرب وبين الجيوش البريطانية، وانتهت بمقتل جنديين بريطانيين وجرح آخرين، ومقتل ١٥ من العرب، أما جرحى العرب فغير معروف عددهم. وذكرت في الخبر أن خمس طائرات بريطانية اشتركت بالقتال(٦٠). مما يشير إلى التفاوت الشديد بين قدرات المقاومة العربية والقدرات البريطانية. كما يؤكد سياسة البطش المفرط التي اتبعتها بريطانيا.

وعن أخبار القدس في ٢٢ ديسمبر ١٩٣٨، أشارت إلى نشوب معركتين في منطقة نابلس بين الثوار وجنود الاحتلال البريطاني وذلك بعد أن حاصرت القوات البريطانية قرية (بورين) بعد تلقيها أنباء عن وجود ثوار فيها. ويبدو أن القتال هناك كان شديدا حيث استخدمت فيه القنابل المضيئة التي كانت الطائرات تقوم بإلقائها، وأسفرت المعارك عن مقتل ١٥ وجرح كثيرين من الطرفين(٦١).

ومن أنباء الثورة في جبال نابلس، في شهر يناير ١٩٣٩، نقلت الفلق أخبارا عن اشتداد المعارك هناك ونجاح الثوار في أسر ستة من الجنود البريطانيين. كذلك نقلت أخبار معركة وقعت في ٢٢ ديسمبر على طريق جنين نابلس بين الثوار ودورية لسيارة مصفحة لقوات الاحتلال البريطاني بعد أن أقام الثوار كمينا على الطريق، وأنه بسبب

وصول نجدات للطرفين؛ اشتد القتال واستمر الثوار في استهداف إمدادات الاحتلال من القوات، ونتج عن المعركة مقتل جنديين بريطانيين وثلاثة من العرب، كما أسر الثوار ستة من جنود الاحتلال(٦٢). واعتمدت جريدة الفلق في نقل هذه الأخبار على بعض مراسليها من الأراضي المحتلة وعلى البرقيات الأجنبية التي كانت تردها. وذكرت أن فرحة كتّاب الفلق بانتصارات الثوار كبيرة(٦٣). وحسب رواية جريدة الفلق فإن القوات البريطانية قامت بالانتقام من مدينة نابلس وروعت الأهالي بجرائمها ضدهم. وردا على ما فعلته ذكر تلغراف قادم من القدس لجريدة الفلق في ٢٣ ديسمبر أن زعيم الثورة الفلسطينية أصدر بيانا جرى تعليقه على الجدران في مختلف المدن الفلسطينية يدعو إلى إضراب عام احتجاجا على ما قامت به قوات الاحتلال من الجرائم في نابلس والقدس(٦٤).

ثانيا- الموضوعات التحليلية ووصف معاناة الشعب الفلسطيني:

وهي موضوعات تناولت ما يحدث في فلسطين من جانب العرض والتحليل ولعل من أبرزها ما نشرته جريدة الفلق من أحداث ثورة عام ١٩٣٦ بعد محاولات السلطة البريطانية حجب أخبارها واعتماد الفلق على منشور وصلها من (مكتب الاستعلامات الفلسطيني العربي) يفند ما عرف بأحداث يوم الثلاثاء ٣٠ يونيو/ حزيران ١٩٣٦ في فلسطين؛ وهو اليوم الذي اقتحمت فيه بريطانيا مدينة يافا الفلسطينية بعد أن مهدت لهجومها بالحصار الذي فرضته على فلسطين بشكل عام، وبمنع الصحافة من الدخول أو الخروج إليها بهدف التعتيم على ما كان يجري. وبحسب المنشور فإنه في وقت مبكر من صباح ذلك اليوم أرسلت سلطة الانتداب عددا من المهندسين من ضباط الجيش البريطاني ترافقهم قوات عسكرية تحميهم، وكان الهدف محاصرة يافا ثم اقتحامها ونسف بيوتها، ومعاقبتها باستخدام المهندسين المتخصصين بالتدمير بواسطة الديناميت للإجهاز على المدينة ودفع أهلها للفرار منها، ولم يترك الانكليز في يافا "دورا بل أنقاضا"(٦٥) حيث انتشرت أصوات الانفجارات ونسف البيوت في المدينة، مما سهل السيطرة التامة عليها.

وقد علق المراسل الذي نقل أخبار مجزرة يافا على ما قامت به القوات البريطانية بقوله: " وأخذ ضباط الدولة المتمدنة يقومون بعملية التخريب الفظيعة ليؤمن بفضائل الاستعمار من لم يكن مؤمنا بها إلى الآن"(٦٦).

وكان مما نقلته الفلق أيضا أخبار الزيادة اللافتة في أعداد القوة العسكرية البريطانية في بعض المراكز في فلسطين والتي بدت حين رست البارجة (ربلس) في حيفا يوم ١٢ يوليه ١٩٣٨، ونزل منها ٢٠ ضابطا و٢٥٤ جنديا من جنسيات متعددة للمساعدة في ضبط الأمن أو قمع الثورة الفلسطينية، وكانت حمولة البارجة سبعة آلاف طن(٦٧). وقد أثارت هذه الأعداد بعض مراسلي الفلق ودفعت بأحدهم لسؤال المندوب

السامي عن سبب هذه الزيادة الكبيرة في قواتهم مع أن الشعب العربي الفلسطيني في فلسطين لم يتعد تعداده ستمائة ألف نسمة بين رجل و امرأة وطفل. وتساءلت الفلق كيف سيتمكن الفلسطينيون من التزود بالسلاح لمواجهة هذه الأعداد من قوى الاحتلال(٦٨). وتجدر الإشارة هنا إلى تنبه جريدة الفلق إلى التصعيد العسكري البريطاني في فلسطين وتزايد أعداد العسكريين حيث ارتفع عددهم بعد ثورة عام ١٩٣٦ ومنذ حوالي عام ١٩٣٧ إلى ٢٠ ألف ويزيد في مقابل أعداد المقاومين الذين كانت تطلق سلطات الاحتلال البريطانية عليهم اسم (الإرهابيين) والذين قدرت عددهم بستة آلاف عام ١٩٣٨(٦٩). وعلى الأرجح فإن بريطانيا تذرعت بتصاعد أعمال المقاومة ضدها لتبرير زيادة أعدادها في فلسطين لضبط الأوضاع المتفجرة بين الفلسطينيين واليهود بسبب الهجرة اليهودية المتزايدة من ناحية، وتحسبا للتطورات الدولية التي سبقت الحرب العالمية الثانية من ناحية أخرى، وكذلك بسبب ظهور تحول في مواقف اليهود المهاجرين المتشددين الذين كانوا يؤيدون بريطانيا في بادئ الأمر بسبب كرههم للنازية في ألمانيا، ثم انقلبوا عليها لمحاولاتها تهدئة العرب بضبط الهجرة اليهودية إلى فلسطين(٧٠).

وبعد انقضاء عامين على بدء ثورة عام ١٩٣٦ نشرت جريدة الفلق تقييماً للأوضاع في فلسطين أكدت فيه أنه على الرغم من مضي عامين على قيام الثورة الفلسطينية، أي حتى عام ١٩٣٨، فإن الأمور في فلسطين كانت تسير من سيئ إلى أسوأ، والتدخل العربي لإيقاف الثورة على أمل المساعدة البريطانية أثبت فشله، وزادت السياسة البريطانية القمعية تجاه عرب فلسطين فأتلفت مؤن القرى، ودُمر كثير من المنازل وتم إلقاء القبض على الزعامات والقيادات الفلسطينية فمنها من أودع السجن ومنها من نفي خارج فلسطين، ومن اتهم بالجهاد تم إعدامه. هذا عدا الغرامات التي فرضت على الشعب الفلسطيني لزيادة الضغط عليه وإجباره على قبول الأمر الواقع. وكان أيضا أن أغلقت المدارس الفلسطينية وتحولت إلى ثكنات للجنود البريطانيين وتصف جريدة الفلق الحالة في فلسطين في تلك الفترة بأنه "لا يرى فيها إلا شهيدا أو قتيلا، ولا تسمع إلا نوح أيم أو يتيم فالخراب والدمار في كل مكان"(٧١).

ويظهر المقال عمق الأسى الذي خلفته أحداث فلسطين. وأن الهدف من نشره هو وضع العرب العمانيين في زنجبار في صورة ما كان يحدث لكسب تعاطفهم مع إخوانهم الفلسطينيين من ناحية ، ولفت النظر إلى تنسيق العمل الذي كان قائما بين البريطانيين والإسرائيليين لتحويل حياة العرب الفلسطينيين إلى جحيم يدفع بهم إلى مغادرة فلسطين وتركها للإسرائيليين يقيمون دولتهم عليها.

وبسبب تصاعد أعمال العنف التي تقوم بها قوات السلطة البريطانية ضد الفلسطينيين وانتشار أخبارها من جهة، ومخاوف بريطانيا من زعزعة ثقة العرب بها

في وقت بدت فيه نذر الحرب العالمية الثانية واضحة، سارعت بريطانيا لتقديم بيان عن طريق وزارة خارجيتها عام ١٩٣٩ نقلا عن وزارة الحربية، تكذب فيه الاتهامات الموجهة ضد جنودها، واعتبرت أن هذه شائعات مغرضة للنيل من بريطانيا في إشارة إلى الدعاية التي كانت تبثها دول المحور ضد السياسة البريطانية في فلسطين بشكل خاص(٧٢).

ونظرا لأهمية الموضوع، ووقوفا مع الفلسطينيين، سارعت جريدة الفلق لنشر رد الزعماء الفلسطينيين على بيان وزارة الخارجية البريطانية الذي تضمن عدة نقاط هي:

١- أن البيان هو التفاف على الحقائق لإخفاء السياسة البريطانية القمعية القائمة وأشار إلى وجود شهود ومستندات تؤكدها.

٢- ذكر الرد الفلسطيني أن عدد الثوار الفلسطينيين يتجاوز العشرة آلاف ثائر وليس كما ذكره البيان البريطاني ١٥٠٠ ثائر.

٣- وبالنسبة لتكذيب إعدام السلطة البريطانية للمعتقلين العرب ، أكد الفلسطينيون خبر الإعدامات واستشهدوا على ذلك بقضية مقامة في يافا على أربعة من النبلاء الانجليز.

٤- وأشار الرد الفلسطيني إلى الشهداء المدنيين من الفلسطينيين الذين تجاوز عددهم عدد الشهداء من الثوار.

٥- وعلق الرد الفلسطيني على أعمال تدمير الأحياء والمنازل الفلسطينية في يافا مستشهدا بما أورده تقرير لجنة بيل عن الأحداث في فلسطين واعتبار اللجنة " أن تدمير الأحياء في يافا انتقام لا مبرر له"(٧٣). وذكر الرد الفلسطيني أن أعمال تدمير المنازل طالت جنين والسبيلة، وكثير من المدن والقرى الفلسطينية.

٦- ونفى الرد الفلسطيني المزاعم البريطانية عن وجود خلاف بين الثوار، واعتبر أن بريطانيا تستخدم رجالا ضعاف النفوس لنشر أخبار كاذبة لتزعزع ثقة الفلسطينيين بقياداتهم.

٧- ورد الفلسطينيون على تكذيب البيان البريطاني وادعائه بعدم المساس بالمساجد، واتهم البيان السلطة البريطانية بتدمير أو إصابة ثلاثين جامعا في فلسطين بأضرار منها جوامع جنين وشراب ويافا وغيرها.

٨- وبالنسبة للجامع الأقصى في القدس لم يسلم هو الآخر من الاعتداء عليه، حيث أصيب برصاص أدى للتخريب فيه. والأكثر إثارة لمشاعر المسلمين إقدام سلطات الانتداب على إقامة مخافر عسكرية في نطاق الحرم بالقدس، حيث كان الجنود

البريطانيون يشربون الخمر علنا مما أساء لمشاعر المسلمين واعتبروه تعديا على حرمة المسجد(٧٤).

٩- وعن التضييق على المواطنين الفلسطينيين والضرائب والغرامات التي أنكرت بريطانيا فرضها رد البيان بأن هذه الضرائب استنفذت ثروات الفلسطينيين واعتبر أن السبب الرئيس في الثورة هي حالة الإحباط واليأس عند الفلسطينيين(٧٥)، وليست من عمل المفتي أمين الحسيني، وأن المفتي واللجنة العربية العليا تمثل حالة اليأس عند الشعب العربي. وفي ذلك إشارة إلى الاتهامات التي وجهتها بريطانيا للمفتي الشيخ أمين الحسيني عن دوره في التحريض ضد بريطانيا.

١٠- واتهم الرد السلطة البريطانية بمنع حرية الرأي على الفلسطينيين وصحفهم في حين يترك لليهود ومناصريهم حرية الكتابة وحرية الصحافة ليقوموا بالترويج للسياسة البريطانية المعادية للعرب. وأخيرا اقترح الرد الفلسطيني مدعوما من العرب تشكيل لجنة محايدة لتقصي الحقائق في فلسطين (٧٦).

ثالثا- استنهاض الشارع العربي:

سعت جريدة الفلق باستمرار للربط بين القضايا التحررية المختلفة التي يعاني منها الشعب العربي وبين ما يحدث في فلسطين، فعندما قام التحالف الثلاثي بين السعودية والعراق واليمن عام ١٩٣٨، عقد العمانيون في زنجبار عليه الأمل في توحيد الصف العربي بل دعوا لتوسيعه بانضمام سورية ومصر وذلك بهدف توحيد الجهود بحيث يكون تحالفا خماسيا بهدف تحرير فلسطين والإمارات العربية الواقعة على الخليج العربي وشمال إفريقيا، وحضرموت وزنجبار من سيطرة الغرب ولإنهاء الويلات التي تتعرض لها هذه الأقطار بالإضافة للنهوض بالعرب وتوحيد طاقاتهم بعد أن ضاق العرب بما يحدث من تعديات على بلدانهم(٧٧).

وكانت الفلق تنشر لمحب الدين الخطيب(٧٨) مقالات داعية للوحدة العربية للوقوف في وجه الاستعمار في الجزائر وفلسطين وفي عدن ومن مقالاته: " قد يكون العربي في الجزائر أوفي فلسطين أوفي عدن لا يستطيع أن يحقق أمانيه القومية بقوة من جنس القوة التي سلبته تلك الأماني، ولكن هل يستطيع العربي في الجزائر أوفي فلسطين أوفي عدن أن يدعي بأن قوة في الدنيا قادرة على منعه من الإيمان بحقه واقتناعه بأن سعادته لا تتم إلا إذا اجتمع شمل قومية الضاد"(٧٩).

وعلى الرغم من وصف ما قامت به جريدة الفلق بأنه " أقرب إلى الانفعال العاطفي نصرة وتمجيدا، أكثر من عنايتها بالمستوى التحليلي والخطاب التفكيكي" (٨٠) إلا أننا نرى أن هذا الكلام ربما انطبق على بعض دعوات الاحتجاج والنداءات، لكن ما تعلق بشرح الواقع الفلسطيني ووضعه في إطاره التاريخي مثل اتفاقية سايكس بيكو

ووعد بلفور، والمقارنة بين وضع اليهود في العالم وكيفية التعامل معهم ووضعهم في فلسطين يشير إلى فكر تحليلي يسعى لنقل وجهة نظر عربية متضامنة مع معاناة الفلسطينيين وغيرة على الأماكن المقدسة وخاصة هوية القدس.

رابعا: كشف الدور البريطاني في دعم الأماني الصهيونية في فلسطين:

فقد نشرت جريدة الفلق مقالا أكدت فيه أن بريطانيا تسعى لخلق كيان على الضفة الأخرى لقناة السويس يكن لها الولاء، وتساءل كاتب المقال:" هل من عاقل يظن أن الانكليز يريدون فعل ذلك محبة باليهود أو عداوة للعرب بل هي المصلحة التي تهم الدول الاستعمارية"(٨١). لقد أكدت أحداث ما يجري في فلسطين والقدس قناعة العرب بالدور الاستعماري الذي كانت تمارسه بريطانيا في جميع مراكز نفوذها في المنطقة العربية.

وللدلالة على الدور المزدوج الذي مارسته بريطانيا مع العرب واليهود وفي وقت متقارب، استشهدت الفلق بوعود بريطانيا للعرب بتخليص أرضهم من الأتراك وذلك خلال مراسلاتها مع الشريف حسين بن علي التي انتهت بقيام الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦، وفي الوقت نفسه منحت اليهود وعد بلفور عام ١٩١٧ بحجة العطف على أمانيهم في وطن قومي لهم في فلسطين. وقد ورد في مقال نقلته جريدة الفلق عن قس بريطاني قوله أن " بريطانيا خدعت العرب"(٨٢).

وأكدت مقالات عديدة في جريدة الفلق أن بريطانيا تعرف المطالب العربية في فلسطين ورغبتهم في استقلالها، وأن هذا أيضا ما "يريده العالم الإسلامي رضيت اليهود أم لم ترض"(٨٣).

وكما استغربت ما تفعله بريطانيا في فلسطين من تشجيع للهجرة الصهيونية ودعم وتعصب لليهود ضد الفلسطينيين وهو أقسى وأشد غرابة مما فعلته ايطاليا في طرابلس الغرب من حيث إحلال الايطاليين محل العرب، ففي حين تتهم بريطانيا ايطاليا بالتعصب، تمارس هي دعما مطلقا لليهود ضد العرب، وفي الوقت الذي كانت تتباهى به بريطانيا بالعدالة والديمقراطية فإن ما كانت تفعله في فلسطين كان منافيا لذلك، وهذا ما دفع أحد الكتاب إلى التساؤل إن كان العدل هو" ما نشاهده من الفظائع بالأراضي المقدسة"(٨٤). وذكر بريطانيا بصداقتها لبعض حكام العرب مثل ملك الحجاز والملك عبد العزيز، وملك مصر والعراق، وسلطان المكلا وسلطان لحج. وطالب المقال بريطانيا بإيجاد حل للمعضلة الفلسطينية، وأن عليها تقدير وقوف العرب إلى جانبها خلال الحرب العالمية الأولى وعلى الأخص الفلسطينيين ، مشيرا إلى الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ والدور الذي لعبته قبائل بلاد الشام إلى جانب بريطانيا(٨٥).

لقد أفقد ما كان يحدث في فلسطين ثقة المواطن العربي في كل ما تقوم به حكومة الاحتلال البريطاني فيها، وعزز فكرة تواطئها مع الأطماع الإسرائيلية في فلسطين وقد نشرت صحيفة الفلق نماذج من هذا التواطؤ من ذلك ما أوردته عن قيام القائد العام للجيش البريطاني في فلسطين بتحويل حكم للإعدام كان قد صدر من المحكمة العسكرية بحق اليهودي (التمان) لقيامه بإطلاق الرصاص على بعض العرب، إلى حكم بالمؤبد، وشكك صاحب الخبر بأن يقضي التمان حكم المؤبد وذكر: "رأينا في هذا القرار أو الحكم أن الخواجا (التمان) سوف يعود إلى بيته وإخوانه وأصدقائه ومسدسه أو بندقيته بالسلامة دون أن يقضي أياما كثيرة في السجن فضلا عن أيام حياته كلها"(٨٦).

وتابعت جريدة الفلق نشر المقالات التي تكشف التواطؤ البريطاني وكان منها ما كتبه علي الجمالي موضحا التعديات التي تقوم بها السلطة البريطانية في فلسطين على المقدسات الإسلامية وعلى القرآن الكريم، فقد استعرض أساليب الاستفزاز التي يتعرض لها المسلمون على يد القوى الاستعمارية في كل مكان " من مكافحة الإسلام في بلاده وبين أهله وأبنائه، إلى نشر للنصرانية بل بث الرذائل الغربية بينهم، إلى قتل اللغة العربية لتصرفهم عن النظر إلى محاسن الإسلام وفضائله، إلى السعي في إغلاق المدارس، إلى التضييق على زعماء المسلمين وعلماء الإسلام وأئمة الأدب وفطاحل اللغة العربية، بل إلى اضطهادهم ونفيهم......"(٨٧).

كما اهتمت الفلق بتعقب المقالات والكتب المختلفة التي تناولت القضية الفلسطينية مثل الكتاب الذي نشره موزلي؛ رئيس اتحاد الفاشست البريطاني، عن المشكلة اليهودية وبريطانيا، والذي أكد فيه على أن حل مشكلة اليهود لا يكون على حساب العرب في فلسطين لأن العرب حصلوا على وعد من بريطانيا ووثقوا بها لتحرير بلادهم وإقامة دولتهم، وأن أقصى ما يمكن أن يطمع به اليهود في فلسطين هو احترام أماكنهم المقدسة، والسماح لهم بزيارتها. كما رأى صاحب الكتاب أن حل مشكلة الوطن القومي لليهود يمكن أن تكون في أي مكان في العالم غير فلسطين لأن فلسطين وطن للعرب(٨٨).

وعبرت جريدة الفلق عن الشعور بالإحباط الكبير والغبن والقهر من السياسة البريطانية في فلسطين فنشرت الآتي: "إن قرأت عن حرية فاعلم أنها حرية القائل القوي لا حريتك أنت أيها القارئ. فإن قرأت عن المساواة فاعلم أنها مساواة الفرنسي بالانجليزي مثلا ومساواتنا بالبهائم على الأكثر"(٨٩).

وسعت مرارا لتذكير قراءها بال عهود البريطانية التي لم تنفذ للعرب مثل اتفاقياتها مع الشريف حسين بن علي ممثل العرب في التفاوض مع بريطانيا خلال الحرب العالمية الأولى، وكان مما ركزت على نشره تعهد بريطانيا بتشكيل حكومة عربية مستقلة داخليا وخارجيا وأن تكون حدودها شرق من الخليج العربي إلى البحر الأحمر

وحدود مصر والبحر المتوسط، وشمالا حتى حدود ولاية حلب والموصل إلى نهر الفرات بما في ذلك نهر دجلة حتى مصب النهرين في الخليج العربي(٩٠). ووصفت تلك العهود بالعرقوبية (٩١). وعن وعد بلفور لمن أسمتهم شياطين الصهاينة نشرت: " إن في المسألة مهزلة وجب أن تؤلف منها رواية أشخاصها بلفور ولويد جورج والحسين شريف مكة وأمثالهم"(٩٢).

وخلال سعي القائمين على جريدة الفلق للحصول على المعلومات، تم اللجوء إلى ما كانت تنشره الصحف والجرائد العربية الأخرى مثل (الشباب) و(الفطرة الإسلامية) لإعادة نشره حتى تعم الفائدة أكثر. وقد نقلت عن جريدة الفطرة الإسلامية نص المعاهدات السرية التي عقدتها فرنسا وبريطانيا وروسيا وخاصة اتفاقية سايكس بيكو. وركزت على ما ورد في هذه الاتفاقات بشأن فلسطين واعتبارها منطقة خارجة عن النفوذ العثماني. وأشارت الفلق إلى عدم ذكر فكرة الوطن القومي لليهود في فلسطين وإنما أشير إلى وضعها تحت إدارة خاصة وقد توقعت جريدة الفلق أنه بسبب عداوة روسيا الشديدة لليهود تجنبت بريطانيا ذكر الوطن القومي واكتفت بوصف الإدارة في فلسطين بأنها إدارة خاصة. لكننا نستبعد مجاملة بريطانيا لروسيا بهذا الأمر، فقد خططت بريطانيا لهذا مع زعماء الحركة الصهيونية لإبعاد فرنسا عن فلسطين وحتى لا تتلامس مناطق نفوذها في مصر مع مناطق النفوذ الفرنسية. وعند صدور وعد بلفور كانت معطيات جديدة قد دخلت بما فيها وقوف الصهاينة مع بريطانيا ماديا وسياسيا وعلميا خلال الحرب العالمية الأولى وجر أمريكا للحرب بجانب بريطانيا تحت ضغط النفوذ اليهودي الأمريكي.

لكن الاستنتاج الذي توصلت إليه الفلق من أن الوطن القومي اليهودي ليس إلا لحماية الاستعمار البريطاني فيه كثير من الصحة حيث تم فصل الجسد العربي بكيان عازل هو إسرائيل. وقد أثبتت الأحداث ذلك لاحقا(٩٣).

وكان ممن أثارتهم سياسة التعسف البريطانية ضد علماء المسلمين وملاحقتهم واضطهادهم فئات إسلامية مختلفة منها جماعة الإخوان المسلمين بقيادة المرشد العام بمصر الذي أرسل كتابا إلى المندوب السامي البريطاني لحكومة فلسطين في القدس تضمن احتجاجا على السياسة التعسفية والإرهابية التي تمارس ضد الفلسطينيين(٩٤).

الموقف العربي من القضية الفلسطينية، كما أوردته جريدة الفلق:

في أعقاب الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦، وقيام اللجنة العربية الفلسطينية في القاهرة لمتابعة الأوضاع القائمة في فلسطين، كان السخط العربي والإسلامي عاما للأخبار الواردة من فلسطين، وكانت اللجنة العربية الفلسطينية تقوم بالرد على التساؤلات الكثيرة التي ترد من العرب والمسلمين من أنحاء العالم عما حدث ويحدث في فلسطين(٩٥). وقد أسهمت جريدة الفلق في نقل البيانات الهامة التي كانت تصدر عنها

من ذلك بيان اللجنة العربية عن الهجرة اليهودية إلى فلسطين عام ١٩٣٨ والذي تضمن احتجاجا على استمرار تدفق الهجرة اليهودية، وأوضحت اللجنة سخط الشعب العربي على ما ورد في كتاب وزير المستعمرات البريطاني المرسل إلى المندوب السامي البريطاني في فلسطين بتاريخ ١٩٣٨/٣/١٠ والمتضمن سياسة الهجرة للأشهر الستة القادمة.

كذلك أكد البيان أن بريطانيا لا تزال مستمرة في سياستها الضارة بالشعب الفلسطيني رغم الاحتجاجات لذلك لا يركن إلى حسن نيتها(٩٦)، وهي بدلا من أن تسعى إلى تهدئة الأوضاع، وإنهاء الاضطرابات بالاستجابة لنداءات الفلسطينيين وبعض الأقطار العربية بوقف تدفق الهجرة اليهودية، فهي تيسر دخول الآلاف منهم، وقد تمادت في استهانتها بالمطالب العربية بأن تراجعت حتى عن بعض القيود التي وضعتها عام ١٩٣٥ بناء على توصية اللجنة الملكية البريطانية، فتركت الحد الأعلى الموصى به للمهاجرين وأطلقتها بشكل كامل في مناطق أخرى وخاصة "للطلاب والأقرباء"(٩٧) مما يسمح بتدفق أعداد كبيرة من اليهود تحت هذين المسميين.

وعبرت اللجنة العربية العليا لفلسطين في هذا البيان عن غضبها من الاعتذار الذي وجهه وزير المستعمرات للمفوض السامي في فلسطين عن القيود الموضوعة على الهجرة اليهودية التي وصفها بأنها " قيود تحكمية" وأن بريطانيا ستسعى إلى تخفيفها بمجرد وضع المشروع النهائي لتقسيم فلسطين، وعندها سيعود تدفق اليهود بكثرة، ولكن على اليهود أن يصبروا(٩٨).

ومما نبه إليه البيان؛ خطورة الهجرة اليهودية على فلسطين واعتبرها " في مقدمة الأخطار الواقعية التي تهددها في كيانها وفي مصيرها وأنها: "في مقدمة الأسباب التي أدت إلى الاضطرابات في " الأراضي المقدسة" وتسببت بالضيق والفقر والبطالة، وحتى الجوع. كما أن وقف الهجرة اليهودية كان دائما من المطالب الرئيسية للشعب العربي(٩٩).

وعن تشكيل لجنة تقسيم فلسطين ومغادرتها لندن متجهة إلى فلسطين في ٢١ أبريل عام ١٩٣٨ نقلت جريدة الفلق عن جريدة " ديلي تلغراف" أن هذه اللجنة ستمضي الصيف هناك في "البحث وفي الطواف بداخلية البلاد"(١٠٠). ولم يلق تشكيل هذه اللجنة ترحيبا من اللجنة العربية العليا لما يحمله من غبن للشعب الفلسطيني. لذلك أصدرت بيانا إلى الشعب العربي نشرته جريدة الفلق حول لجنة تقسيم فلسطين التي عرفت باللجنة الفنية، وأكد البيان أن هذه اللجنة تقوم على فكرة تقسيم فلسطين التي أجمع العرب والمسلمون على رفضها من أساسها لأنها تهدد بفقدان الأمة العربية لأراضي فلسطين المقدسة. كما اعتبر البيان أن عملية تقسيم فلسطين وإقامة دولة يهودية في قلب البلاد العربية تحمل أخطارا ليس على فلسطين وحدها بل على الأمة العربية كلها

ومن جميع النواحي القومية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. وأكد البيان على عروبة فلسطين ماضيا وحاضرا ومستقبلا، وعلى فشل حل مشكلة اليهود بإحلالهم مكان الفلسطينيين. وأوضح بشكل خفي الدور البريطاني في خلق هذه المشكلة وأنه ليس من حقها منح اليهود فرصة إقامة وطن لهم في فلسطين التي لا تملكها وأنه " ليس في الوطن العربي أقسام للمنح والهبات"(١٠١).

وردا على أن هذه اللجنة ليس هدفها إلا التقسيم، وهو مضر بالمصلحة العربية؛ أعلنت اللجنة العربية العليا مقاطعتها لهذه اللجنة ورفض الاتصال بها. كما دعت جميع العرب في فلسطين وخارجها إلى مقاطعة هذه اللجنة.

وفي هذا السياق أبدت جريدة الفلق موقفها من الهجرة اليهودية إلى فلسطين بإشارتها إلى أن الأحوال في فلسطين قبل الاحتلال البريطاني لها عام ١٩٢٠، وخلال الوجود العثماني كانت هادئة، عاش فيها أعداد من اليهود مع سكان فلسطين العربية بهدوء وسلام، ومع بروز فكرة إقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين، وما تلاها من صدور وعد بلفور والممارسات التي لحقت به لتنفيذه، كل ذلك أساء للعلاقة بين الفلسطينيين واليهود المقيمين والقادمين الجدد(١٠٢).

وأشارت جريدة الفلق إلى أنها تتفهم رغبات اليهود في إنشاء وطن قومي لهم ولكن لم يكن مقبولا أن يأتي هذا الوطن على حساب السكان العرب في فلسطين. وذكرت أنه: "على ساسة أوربا، وبالأخص بريطانيا أن يفتشوا عن اقليم يفيدهم لإنشاء وطن لهم – اليهود– غير فلسطين العربية،.... وأن فلسطين العربية للعرب وحدهم ولا يمكن إنشاء وطن قومي لليهود فيها، هذه كلمة واحدة يقولها العالم العربي والناطقون بالضاد أجمعون"(١٠٣).

ولم تكن بيانات اللجنة العربية العليا وحدها التي تفند وتندد بما يحدث في فلسطين، فقد نشرت جريدة الفلق احتجاجا أرسلته جمعية الإخوان المسلمين بمصر للمندوب البريطاني في فلسطين ومما جاء فيه "إننا لا ننكر على فخامتكم أن العالمين الإسلامي والعربي قد يئسا كل اليأس من عدالة الحكومة البريطانية، وإن ما يتشدق به المسؤولون في لندن والقدس وجنيف عن الرغبة في إنصاف العرب وتأمينهم على حقوقهم وبلادهم ومقدساتهم إن هو إلا كلام أثبتت الوقائع عدم صحته، بل إن السلطة البريطانية تعمل على النقيض من ذلك"(١٠٤) وأشار الاحتجاج إلى ضيق المسلمين في كل أنحاء العالم للظلم والفظائع التي يتعرض لها الفلسطينيون لأنهم يعتبرون فلسطين جزءا منهم. وأن المسلمين لن يسكتوا على ما يحدث في فلسطين " ويأسفون لهذا العناد والإصرار من جانب السلطة البريطانية على خدمة شديدة الضرر عظيمة الخطورة"(١٠٥). وقد أكد الإخوان المسلمون أن الحل الوحيد لفلسطين ليس في سياسة القمع والتعذيب والاضطهاد وإنما " بالاعتراف بحقوقهم في بلادهم والتسليم بمطالبهم الأساسية التي

عاهدوا الله على تحقيقها"(١٠٦). وقد وقع الاحتجاج حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين.

الدور البريطاني والإسرائيلي في تهويد مدينة القدس ورصد جريدة الفلق له:

شكلت أوقاف فلسطين الموجودة في المسجد الأقصى أهمية عالية-ليس فقط لقيمتها المادية ولكن أيضا لما كانت تمثله من تثبيت حقوق ملكيات الشعب الفلسطيني في فلسطين فهي " تمثل نوعا من الارتباط بالأرض واندماج الفرد في مجتمعه الذي عاش فيه قرونا"(١٠٧).

وقد تنوعت أوقاف القدس فمنها: ما أوقف على الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، وما أوقف على المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة، وعلى قبور الأنبياء في القدس وعلى قبر الخليل عليه السلام وغيره(١٠٨). ونظرا للحقوق التاريخية التي تمثلها تلك الأوقاف سعت السلطة البريطانية مدعومة من الحركة الصهيونية إلى طمس الهوية العربية للقدس عن طريق وضع يدها على وثائق الممتلكات العربية المحفوظة في المسجد الأقصى تمهيدا لإخفائها، وانتقاما من الحاج أمين الحسيني أحد زعماء الثورة الذي اعتصم بالمسجد الأقصى بعد محاولة اغتياله(١٠٩)، كذلك انتقاما من أهالي القدس لتشكيلهم اللجان القومية التي قادت الإضراب في فلسطين عام ١٩٣٦. وقد رصدت جريدة الفلق السطو البريطاني على تلك الوثائق في مقالاتها وبينت أساليب تهويد مدينة القدس معتمدة على بيان أصدره مسلمو فلسطين عن هذه الإجراءات التي اتخذت. وفيما يلي أهم النقاط التي تضمنها كما نشرتها جريدة الفلق(١١٠):

١- قيام الحكومة البريطانية في فلسطين بتنفيذ مخططها لنقل دوائر المجلس الإسلامي الأعلى والأوقاف من مكانها الحالي في المسجد الأقصى إلى إحدى دوائر حكومة فلسطين في القدس.

٢- غاية الحكومة البريطانية من نقل هذه الجهات هووضع يدها على سجلات هذه الدوائر بما فيها " من وثائق ومستندات وحجج مثبتة لوقف عقارات الأوقاف وأملاكها وأراضيها في فلسطين".

٣- وجود عدد من موظفي الحكومة البريطانية من اليهود ممن يسعون لإجلاء العرب والمسلمين الفلسطينيين عن هذه المناطق المقدسة وحرمانهم من حقوقهم فيها، وبالتالي فإن وجود هذه الوثائق والحجج عند حكومة الانتداب البريطانية سيسهل لهؤلاء الموظفين إتلاف حجج أوقاف المسلمين ووثائقهم ومستنداتهم أكان بذريعة التلف أو الحرق غير المتعمد

٤- دور السلطة البريطانية في فلسطين في تسهيل الهيمنة اليهودية على المسجد الأقصى لتحويله إلى كنيس يهودي على أنقاض هيكل سليمان المزعوم وجوده تحت المسجد الأقصى وتحقيق وعد بلفور الذي ألزمت بريطانيا نفسها به عام ١٩١٧.

٥- إذا تحقق للصهاينة إتلاف تلك الحجج فإن حقوق الأوقاف الإسلامية وممتلكاتها الموقوفة للإنفاق على الأماكن المقدسة سيقضى عليها وستحرم تلك الأماكن بما فيها المسجد الأقصى والمساجد الإسلامية الأخرى في فلسطين من الإنفاق عليها وسيؤدي ذلك إلى خرابها وبالتالي تعطيل إقامة الشعائر فيها وتشتيت رجال العلم والشؤون الدينية، الذين تعتقد بريطانيا والصهاينة معا أن دورهم محوري في بث الوعي الوطني والديني في الشعب الفلسطيني مما يعرقل المخططات الإسرائيلية التي تهدف إلى ترحيل الفلسطينيين والسيطرة على أراضيهم وممتلكاتهم، وهذا يطرح رمزية المكان المقدس بالنسبة لليهود، لأنهم ينتمون إلى أعراق مختلفة لا يجمعها سوى الرابط الديني، لذلك كان لابد من إيجاد مكان يحج إليه يهود العالم ويكون جاذبا لهم.

٦- قيام سلطة الانتداب البريطانية المشرفة على إدارة الأوقاف الإسلامية بعدة خطوات لتأمين السيطرة الصهيونية على المسجد الأقصى والأماكن المقدسة الإسلامية وعلى مراحل منها: إلغاء دائرة المعاهد الدينية في المجلس الإسلامي الأعلى وعزل مديرها(١١١). وهدفها من ذلك إزالة عقبة من أمام عملية التبشير والتضليل التي لجأت إليها السلطة البريطانية والتي قامت بتمويلها وحمايتها لتهيئة البيئة الحاضنة للوطن الصهيوني الذي وعدت بتحقيقه عام ١٩١٧.

٧- ومع بدء أحداث الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ وحتى من قبل ذلك أي منذ ثورة الشيخ عز الدين القسام أدركت بريطانيا خطورة دور رجال الدين المسلمين وتأثيرهم على الشارع الفلسطيني لذلك عمدت إلى " اعتقال جماعة من خيرة العلماء والوعاظ والمدرسين والخطباء وغيرهم من أصحاب الوظائف الدينية ". وزجت بهم في السجون دون أن تتمكن من توجيه تهم معينة. وبدا واضحا أن الهدف هو الحيلولة دون نشر الوعي ضد الاحتلال وضد الوجود الصهيوني، ومنع نشر ثقافة المقاومة بين الفلسطينيين.

٨- قيام السلطة البريطانية بعزل مراقب شؤون التبشير في المجلس الإسلامي الأعلى وألغت وظيفته من ميزانية عام ١٩٣٨. ثم عزلت واعظ سجن القدس.

٩- ومما يؤكد رغبة السلطة البريطانية في إضعاف النفوذ الإسلامي في القدس هو تسهيلها عقد المؤتمر التبشيري المسيحي على جبل الزيتون بالقدس منذ عام ١٩٢٧. حيث حضره مبشرون من كافة أنحاء العالم.

وخوفا على عروبة القدس نشرت الفلق النداءات التي كان يوجهها الفلسطينيون لإخوانهم العرب والمسلمين ومنها أخبار المحاولات التي كانت تقوم بها سلطات الانتداب البريطاني لطمس هوية القدس العربية والهيمنة على مقدسات المسلمين وأوقافها. ودعوة العالم الإسلامي لتدارك الخطر الذي يهدد النفوذ الإسلامي في القدس. ومما نشرته في أحد مقالاتها هذا البيت من الشعر:

" تداركونا وفي أغصاننا رمق فما يعود اخضرار العود إن يبسا"(١١٢).

مؤتمر لندن عام ١٩٣٩ والموقف العربي منه، ورصد جريدة الفلق له:

سبق انعقاد المؤتمر الذي دعت إليه بريطانيا في لندن عام ١٩٣٩؛ مؤتمر المائدة المستديرة، انعقاد مؤتمر عربي في القاهرة في فبراير عام ١٩٣٩(١١٣)، حيث عقدت ثلاثة اجتماعات في رئاسة مجلس الوزراء في القاهرة برئاسة محمد محمود باشا رئيس الحكومة المصرية بهدف بحث الموقف العربي الذي سينقله الوفد إلى مؤتمر لندن. وقد صدر عن هذا المؤتمر ثلاثة بلاغات أصدرتها رئاسة مجلس الوزراء المصرية تضمنت توحيد وجهات النظر العربية حول المطالب التي سينقلها الوفد العربي إلى لندن. وقد نشرت جريدة الفلق خبر انعقاده باسم؛ مؤتمر القاهرة التاريخي، وأوردت فيه أسماء ممثلي الدول العربية المشاركة(١١٤). كما أوردت تشكيل الوفد المصري المشارك للوفد العربي كما أمر به الملك فاروق، وتشكيل الوفد الفلسطيني(١١٥).

وبعد ذلك تابعت الفلق تطور أخبار الوفد العربي منذ وصوله إلى لندن، وأكدت أن ما يطالب به الوفد هوحق وأنه يمثل مطالب العالمين العربي والإسلامي(١١٦). في محاولة منها لدعم موقف الوفد العربي.

وفي ٢٥ فبراير ١٩٣٩، نشرت مقالا بعنوان "العالم العربي ينتظر إنصاف عرب فلسطين" وطالبت الوفد العربي؛ الذي حسب قولها يمثل حكومات عربية مستقلة لها صداقة مع بريطانيا، طالبته أن لا يرجع "بدون فائدة للفلسطينيين"(١١٧).

الخاتمـــــــة:

لقد خلص البحث إلى مجموعة من النتائج منها:

١- أن القضية الفلسطينية كانت حاضرة في أذهان العرب العمانيين في زنجبار، كما كانت حاضرة لدى جميع الشعوب العربية، ولم يؤثر البعد الجغرافي ولا الوجود الاستعماري البريطاني في زنجبار على التعبير عن مشاعر الغضب لما يتعرض إليه الفلسطينيون والأماكن المقدسة الفلسطينية.

٢- أن الصحافة العربية في زنجبار وجريدة الفلق بشكل خاص أسهمت بدور فاعل في نقل أحداث ما يجري في فلسطين، وفي إثارة مشاعر الجماهير العربية والإسلامية لدعم القضية الفلسطينية.

٣- أن اللجنة العربية العليا؛ التي أشرفت على إدارة المقاومة العربية في فلسطين منذ عام ١٩٣٦، كانت على تواصل مع الزعماء والمثقفين العرب العمانيين في زنجبار للاستفادة من دعمهم للقضية الفلسطينية.

٤- تنوعت أشكال الدعم العماني العربي في زنجبار للقضية الفلسطينية، وخاصة بعد تشكيل اللجنة العربية في زنجبار" للجنة دعم مسلمي زنجبار" بين الاحتجاجات التي كانت تقدمها للمقيم البريطاني في زنجبار، وبين جمع التبرعات وإرسالها إلى منكوبي فلسطين، بالإضافة إلى دعم الموقف العربي والإسلامي الرافض لسياسة تقسيم فلسطين وللممارسات القمعية للسلطة البريطانية فيها. كذلك الكشف عن الممارسات البريطانية والصهيونية في تهويد القدس وفلسطين والاستيلاء على حجج الأوقاف الفلسطينية لطمس الوجود التاريخي والحقوق الفلسطينية في أرض فلسطين.

٥- وأوضح البحث الأسى الذي كان يستشعره عرب زنجبار العمانيين جراء ما يلقاه إخوتهم في العقيدة والعروبة من معاناة.

٦- أن النداءات التي كانت ترد على صفحات جريدة الفلق حملت في طياتها تحذيرا من مغبة النوايا الصهيونية والبريطانية تجاه فلسطين ودعوة للعرب حتى لا يخذلوا الفلسطينيين.

٧- وأخيرا لابد من القول أن من يستعرض مواقف عرب عمان في زنجبار كما عرضتها الصحافة هناك لابد أن يصل إلى مدى عمق الأذى الذي ألحقته الممارسات البريطانية الداعمة للحركة الصهيونية في العلاقات العربية البريطانية. ويفتح هذا الباب واسعا أمام دراسة الأخطاء التي ترتكبها القوى الداعمة لإسرائيل على حساب الحق العربي.

الهوامـــــش

1- تقع جزيرة زنجبار في مقابل الساحل الشرقي لإفريقيا، وتعتبر اليوم جزءا من تنزانيا، وقد استقر العرب فيها منذ عهود مبكرة ، ثم امتد إليها نفوذ دولة اليعاربة العمانيين مع غيرها من مناطق الساحل الشرقي لإفرقيا في بدايات النصف الثاني من القرن السابع عشر، وفي عام ١٨٣٢ غدت زنجبار عاصمة لدولة آل بوسعيد العمانية زمن السيد سعيد بن سلطان، واستمر الحكم العربي فيها حتى عام ١٩٦٤م على الرغم من تقسيم الدول الاستعمارية لها وفصلها عن عمان عام ١٨٦١. لمزيد من الاطلاع يمكن العودة إلى مقدمة كتاب
Bin Shahbal, Suleiman Said, Zanaibar, The Rise and Fall of an Indpendent State 1895- 1964, Dubai, Emerge Puplishing,2002

2- جريدة النهضة صاحبها ورئيس تحريرها سيف بن حمود بن فيصل آل سعيد، جريدة أسبوعية تصدر يوم الخميس من كل أسبوع. بدأ صدورها عام ١٩٥١م

3- حوراني، فيصل، جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨ - ١٩٤٨، شرق برس، نيقوسيا، قبرص، ١٩٩٠، ص ١٥٧- ١٦٣.

4- الكيالي، عبد الوهاب، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٩، ١٩٨٥، ص ٢٦٠. وانظر إبراهيم إبراش، البعد القومي للقضية الفلسطينية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٧، ص ٦٤ ، للإطلاع على أسباب ثورة ١٩٣٥

5- الكيالي، مصدر سابق، ص ٢٦٩.

6- حول الدعم العربي للفلسطينيين انظر، حوراني، مصدر سابق، ص ٢٤٥- ٢٤٦

7- مصطفى، أحمد عبد الرحيم، بريطانيا وفلسطين ١٩٤٥-١٩٤٩، دراسة وثائقية، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٦، ص ٧.

8- مصطفى، المصدر السابق، ص٨.

9- الكندي، عبد الله بن خميس، بدايات الصحافة العمانية في زنجبار، دراسة تاريخية_ تحليلية. المجلة العربية للعلوم الانسانية، مجلس النشر العلمي جامعة الكويت، العدد ٨٨، خريف ٢٠٠٤، ص ٧٥.

10- Middleton , John & Jane Campbell, Zanzibar, Its Society and its Politics, Green wood press, Publishers, Oxford University, 1965, p 43. كما يمكن العودة إلى Hollingsworth, L.W. Zanzibar Under the Foreign Office 1890- 1913, Greenwood Press, Publishers, Westport, Connecticut, pp 207- 216.

11- الشبلي، أحمد، الأوضاع السياسية في زنجبار في عهد السلطان خليفة بن حارب البوسعيدي ١٩١١- ١٩٦٠، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة السلطان قابوس، ٢٠٠٩، ص ٩٤. كما يمكن العودة إلى Middleton مرجع سابق ص ٤ ، للإطلاع على تطور زنجبار السياسي.

١٢- زاهر بن حارث المحروقي، الصحافة العمانية في زنجبار /1324 / www. Alfalaq. Com

13- قاسم، جمال زكريا، دولة البوسعيد في عمان وشرق إفريقيا منذ تأسيسها وحتى نهاية حكمها في زنجبار وبداية عهدها الجديد في عمان ١٧٤١- ١٩٧٠، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٠. ص ٣٥٦- ٣٥٧. وانظر حول ذلك

Elspeth Huxley, East Africa, Rocks Press, William Collins of London, 1941, p 22 :
للاطلاع على التطور السياسي الذي طرأ على زنجبار في أعقاب الحرب العالمية الأولى والسيطرة البريطانية.

14- طنش، أحمد محمد، زنجبار والسياسة البريطاني ١٩١٤- ١٩٣٩، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القادسية، ٢٠٠٠، ص ٨٧.

15- طنش، مصدر سابق، ص٨٨. وكان ظهور هذه الجمعيات(الشيرازية، والقمرية، والإفرقية وغيرها) بتشجيع من السلطات البريطانية بهدف تعزيز العنصرية في زنجبار وقتل الولاء الوطني وتفتيت الوحدة الاجتماعية. حيث أشاعت ومنذ نهاية القرن ١٩ أن الأفارقة الذين يشكلون ٨٠% من السكان يعاملون كأرقاء. حول ذلك انظر
Holligsworth, op. cit., p. 216

16- Harlow, Vincent & Chilver, E.M, History of East Africa, vol, 11, Oxford, Clarendon press, 1965, pp 663-666. حول الدعم البريطاني للهنود على حساب العرب والسواحليين في زنجبار وخاصة في الفترة من١٩٣٣إلى ١٩٣٩

17- قاسم، مصدر سابق، ص ٣٥٨- ٣٥٩. وانظر، ناجية محمد الصالح الخريجي، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لسلطنة زنجبار الإسلامية في شرق أفريقيا ١٨٠٦- ١٩٤٧، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٣، ص١٠٤-١٠٥ للاطلاع على الضغوط التي مارسها الهنود على العرب في تجارة القرنفل.

18- الشبلي، مصدر سابق، ص ١٧٧. كما يمكن العودة إلى جريدة الفلق، ١/٩/ ١٩٣٧. وإلى جمال زكريا قاسم، مصدر سابق، ص ٣٩٥.

19- الشبلي، مصدر سابق، ص ١٣٤.

20- Shahbal, op.cit, p 97-98
كما يمكن العودة إلى الحارثي، عبد الله بن ناصر بن سليمان، دور آل بوسعيد في تنشيط الحركة الثقافية في عمان وشرق أفريقيا، وزارة التراث والثقافة، مسقط،٢٠٠٦.ص٤٠.

21- الكندي، محسن، الصحافة العمانية المهاجرة وشخصياتها ا الشيخ هاشل بن راشد المسكري نموذجا، رياض الريس، لبنان، ط٢، ٢٠٠٩، ص ٦٤.

22- الحارثي، مصدر سابق، ص ٤٠.

23- الكندي، محسن، مصدر سابق، ص ٤٠- ٤٥. كما يمكن العودة إلى الكندي عبد الله، بدايات الصحافة، مصدر سابق، ص٧١.

24- أغلقت هذه الصحيفة لمدة عام في الفترة من ١٩/٦/١٩٥٤ إلى ١٩/٦/١٩٥٥، بتوجيه ثمانية اتهامات ضدها منها أربعة بتهمة تحريض الشعب. انظر عبد الله الكندي، مصدر سابق، ص ٩١..

25- الكندي، عبد الله، مصدر سابق، ص ٨٢. ويذكر عبد الله الكندي ثلاثة أهداف لاهتمامها بالموضوعات السياسية، حول ذلك انظر المصدر نفسه ص ٨٣.

26- الحارثي، مصدر سابق، ص ٤٠.

27- الفلق، الحلف الثلاثي، العدد ٤٧٣، ٥ فبروري ١٩٣٨، ص١

28- الشبلي، مصدر سابق، ص ١٤٢.

29- الفلق، فلسطين، بيان عن مصائب فلسطين ونكباتها ووجوب إغاثتها العدد ٤٨١، ٢أبريل ١٩٣٨، ص ٢.

30- الفلق، من أجل فلسطين، العدد ٤٦٥، ٣٠ مي ١٩٣٨، ص ٤.

31- الأمير سيف بن حمود بن فيصل آل سعيد ١٩١٩- ١٩٦٣م، واجه سلطات الاحتلال البريطاني في زنجبار وترأس الجمعية العربية فيها، وشارك في جريدة الفلق بعدة مقالات وتولى رئاستها من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٠. ثم أسس جريدة النهضة عام ١٩٥١م. حول تاريخه انظر ناصر بن عبد الله الريامي، زنجبار شخصيات وأحداث ١٨٢٨-١٩٧٢م، دار الحكمة لندن، ٢٠٠٩، ص ص ٢٠٣- ٢٠٦. وقد وصفه جمال زكريا بأنه كان من أبرز الزعماء المتشددين الذين تحدوا بريطانيا حتى أنه تعرض للسجن والاعتقال مرات عديدة. انظر جمال زكريا قاسم، مصدر سابق، ص ٣٦١. وحول إصداره جريدة النهضة يمكن العودة إلى Bin shahbal,op.cit, p 97-98

32- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، الفلق، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.

33- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، الفلق، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.

34- الفلق، إعلان، العدد ٤٨٨، ٢١ مي ١٩٣٨، ص ٤.

35- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.

36- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.

37- الشيخ علي محمد الجمالي هوموظف مساعد للمستشار المالي لسلطان زنجبار.

38- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.

39- الشيخ عبد الله بن سليمان الحارثي ١٨٨٦- ١٩٧١م. من أعضاء الحزب الوطني في زنجبار. وصف بأنه أحد أقطاب الأدب العماني، وبأنه أحد قادة التنوير في زنجبار. وبأنه " محرك عقيدة الرأي العام العربي في زنجبار"، حول ذلك انظر الريامي، مصدر سابق، ص ص ١٦٢- ١٦٥.

40- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.

41- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٣.

42- الفلق، يوم فلسطين في زنجبار، الفلق، العدد ٤٩٠، ٤ جون ١٩٣٨، ص ٤.

43- شكلت التبرعات التي جمعت من الدول العربية والإسلامية لدعم الثورة الفلسطينية ومساعدة المنكوبين هناك مخاوف لكل من البريطانيين واليهود. انظر الكيالي مصدر سابق، ص ٣٨٠- ٣٨١ وغيرها من الصفحات.

44- طنش، مصدر سابق، ص ٨٩.

45- المغيري، سعيد بن علي بن جمعة، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق محمد علي الصليبي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٥ ص ٤٦٩.

46- يعتبر الشيخ سليمان بن ناصر اللمكي ١٨٦٣- ١٩٣٥م من رواد السياسة والدبلوماسية في زنجبار، ومن الذين نفتهم بريطانيا إلى الهند خلال الحرب العالمية الأولى، حول ذلك انظر الريامي، مصدر سابق، ص ص ٨٧- ١٠٦.

47- الفلق، هل، اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني، العدد ٤٨٨، ٢١ مي ١٩٣٨، ص ٣. كما يمكن العودة إلى عبد الوهاب الكيالي، مصدر سابق، ص ٢٨٤ ، حول موقف اللجنة العربية العليا في فلسطين.

48- الفلق،هل، اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني،العدد٤٨٨،٢١ مي١٩٣٨، ص ٣

49- الفلق، هل، اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني،العدد٤٨٨،٢١مي ١٩٣٨، ص٣

50- الكندي، محسن، مصدر سابق، ص ١١٢.

51- الفلق، احتجاج جمعية الإخوان المسلمين بمصر على السياسة الظالمة في فلسطين، العدد ٤٨٧، ١٤ مي ١٩٣٨، ص٣-٤.

52- حول دور جمعية منتجي القرنفل يمكن العودة إلى كتاب المغيري، مصدر سابق، ص ٤٣٦.

53- قاسم، مصدر سابق، ص ٣٦٠- ٣٦٢.

54- الكندي، محسن، المصدر السابق، ص ٢٠٤- ٢٠٥.
55- الفلق، فلسطين، بيان عن مصائب فلسطين ونكباتها ووجوب اغاثتها، العدد٤٨١، ٢ أبريل١٩٣٨، ص٢. كما يمكن العودة إلى الكندي، محسن، مصدر سابق، ص ٧٧- ٨٠.
56- الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٧١، ٢٢ يناير ١٩٣٨، ص٤. وهناك إشارات كثيرة في أعداد مختلفة إلى جهات حصول الفلق على معلوماتها. كما يمكن العودة إلى عبد الله الكندي، مصدر سابق، ص ٨٠.
57- الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٧١، ٢٢ يناير١٩٣٨، ص٤.
58- الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٨١، ٢أبريل ١٩٣٨،
59- الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٨١، ٢ أبريل ١٩٣٨،
60- الفلق، عن وكالة رويتر، العدد ٤٧٣، ٥ فبراير ١٩٣٨، ص٤.
61- الفلق، معارك شديدة، العدد ٥٢٣، ٢١ جنوري ١٩٣٩، ص ٣.
62- الفلق، معارك شديدة، العدد ٥٢٣، ٢١ جنوري ١٩٣٩، ص ٣.
63- الفلق، معارك شديدة، العدد ٥٢٣، ٢١ جنوري ١٩٣٩، ص ٣.
64- الفلق، معارك شديدة، العدد ٥٢٣، ٢١ جنوري ١٩٣٩، الشباب، ص ٣
65- الفلق، النظرات، العدد ، السبت ٧ جولاي ١٩٣٨، ص١.
66- الفلق، النظرات، العدد ، السبت ٧ جولاي ١٩٣٨، ص١.
67- الفلق، فلسطين، العدد ٤٩٦، ١٦ جولاي ١٩٣٨، ص ٣. ويمكن العودة للمقال نفسه للإطلاع على جنسيات الجنود.
68- الفلق، فلسطين، العدد ٤٩٦، ١٦ جولاي ١٩٣٨، ص٣.

69 – Hilton, Richard, The Thirteen Power The Middle East and The World Situation, Christopher Johnson, London, 1958, p. 96.

70 – Hilton, op.cit,pp 96-97.

71- الفلق، فلسطين، العدد ٤٨١، ٢ أبريل ١٩٣٨، ص٢.
72- الفلق، رد على بيان وزارة الحربية البريطانية من الزعماء الفلسطينيين بالقاهرة يدحضون الدعاوي الانكليزية، ، العدد ٥٢٩، ٤ مارس ١٩٣٩، ص٢.
73- الفلق، رد على بيان وزارة الحربية البريطانية، المصدر السابق، العدد ٥٢٩، ٤ مارس ١٩٣٩، ص٢
74- الفلق، رد على بيان وزارة الحربية البريطانية، مصدر سابق،، العدد ٥٢٩، ٤ مارس ١٩٣٩، ص٢.
75- حول تردي أوضاع الفلسطينيين في تلك الفترة انظر، الكيالي، مصدر سابق، ص ٢٨٢- ٢٨٣
76- الفلق، رد على بيان وزارة الحربية البريطانية، مصدر سابق،، العدد ٥٢٩، ٤ مارس ١٩٣٩، ص٢.
77- الفلق، الحلف الثلاثي، العدد ٤٧٣، ٥ فبراير ١٩٣٨. ص١.
78- محب الدين الخطيب ولد في دمشق عام ١٨٨٦، وأسهم في تأسيس عدد من الصحف، كما أنشا جمعية الشبان المسلمين في القاهرة بعد أن لجأ إليها فارا من وجه الاحتلال الفرنسي، له الكثير من المؤلفات. لمزيد من الإطلاع يمكن العودة إلى كتاب الأعلام للزركلي.
79- الفلق، العدد ٤٨٤، ٢٣ أبريل ١٩٣٨.
80- الكندي، محسن، مصدر سابق، ص ١١٢.
81- الفلق، فلسطين، العدد ٤٨٨، ٢١ مي ١٩٣٨، ص ٢
82- الفلق، قس بريطاني يقول أن بريطانيا خدعت العرب،العدد ٤٨٩، ٢٨ مايو١٩٣٨، ص٣.
83- الفلق، فلسطين العربية، العدد ٥٣٠، ١١ مارس ١٩٣٩، ص١.
84- الفلق، فلسطين العربية، العدد ٥٣٠، ١١ مارس ١٩٣٩، ص١.

85- الفلق، فلسطين العربية، العدد ٥٣٠، ١١ مارس ١٩٣٩، ص١.
86- الفلق، نقلا عن أخبار رويتر، العدد ٤٧٤، ١٢ فبراير، ١٩٣٨، ص ٤.
87- الفلق، أمس واليوم، العدد ٤٨٩، ٢٨ مي ١٩٣٨، ص ١.
88- الفلق، المشكلة اليهودية وبريطانيا، العدد ٤٩٢، ١٨ جون ١٩٣٧، ص ٣. ونلاحظ في هذا المقال إدراك دول المحور مدى تأثر العرب بأحداث القضية الفلسطينية ومحاولة استغلالها لزيادة كراهية العرب ببريطانيا المؤسسة للكيان الصهيوني في فلسطين.
89- الفلق، النظرات حول المهازل السياسية المألوفة في العالم، العدد، السبت١٦ جولاي ١٩٣٨. ص١.
90- الفلق، أخبار وحوادث عهود بريطانيا للعرب في الحرب الكبرى، العدد ٥٣٠، ١٨ مارس، ١٩٣٩، ص ٢.
91- الفلق، النظرات حول المهازل السياسية المألوفة في العالم، العدد ، السبت ١٦ جولاي ١٩٣٨، ص ١.
92- الفلق، النظرات حول المهازل السياسية المألوفة في العالم، العدد ، السبت ١٦ جولاي ١٩٣٨، ص ١.
93- الفلق، المعاهدات السرية، العدد ٥٣٢، ٢٥ مارس ١٩٣٩، ص ٢.
94- الفلق، احتجاج، العدد ٤٨٦، ٧ مي ١٩٣٨، ص ٢
95- الفلق، فلسطين، العدد ٤٨١، ٢ أبريل ١٩٣٨، ص٢.
96- الفلق، بيان، العدد ٤٨٦، ٧ مي ١٩٣٨، ص ٣
97- الفلق، بيان، العدد ٤٨٦، ٧ مي ١٩٣٨، ص ٣
98- الفلق، بيان، العدد ٤٨٦، ٧ مي ١٩٣٨، ص ٣
99- الفلق، بيان، العدد ٤٨٦، ٧ مي ١٩٣٨، ص ٣
100- الفلق، أخبار خارجية ، العدد ٤٨٣، ١٦ أبريل ١٩٣٨، ص٤
101- الفلق، مشكلة فلسطين، العدد ٤٨٥، ٣٠ أبريل ١٩٣٨، ص ٣
102- الفلق، العدد ٤٨٩، ٢٨ مايو١٩٣٨، ص٣.
103- الفلق، فلسطين العربية، العدد ٥٣٠، ١١ مارس ١٩٣٩، ص١.
104- الفلق، احتجاج جمعية الإخوان المسلمين بمصر على السياسة الظالمة في فلسطين، العدد ٤٨٧، ١٤ مي ١٩٣٨، ص٣-٤.
105- الفلق، احتجاج جمعية الإخوان المسلمين بمصر على السياسة الظالمة في فلسطين، العدد ٤٨٧، ١٤ مي ١٩٣٨، ص٣.
106- الفلق، احتجاج جمعية الإخوان المسلمين بمصر على السياسة الظالمة في فلسطين، العدد ٤٨٧، ١٤ مي ١٩٣٨، ص٣.
107- عطا، زبيدة محمد، عروبة القدس من واقع وثائق الأوقاف المقدسية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر، ٢٠٠٧، ص ١٣٨.
108- عطا، مصدر سابق ، ص ٢٤.
109- الكيالي، مصدر سابق، ص ٢٨٥.
110- الفلق، بيان ونداء، العدد ٤٨٤، ٢٣ أبريل ١٩٣٨، ص٢.
111- كانت هذه الدائرة مؤلفة من تشكيلات لها نظمها وقوانينها ويتبعها عدد من الوعاظ والمدرسين والخطباء ورجال الدين، وكانت تمارس دورا هاما في التوعية والإرشاد عن طريق إرسال عدد من رجال الدين للمدن والريف وحتى إلى البادية لإلقاء الخطب والدروس الدينية وإبعاد المواطنين هناك عن خطر التبشير والتضليل. حول ذلك انظر جريدة الفلق، بيان ونداء، العدد ٤٨٤، ٢٣ أبريل ١٩٣٨، ص٢.
112- الفلق، بيان ونداء، العدد ٤٨٤، ٢٣ أبريل ١٩٣٨، ص٢.
113- الفلق، مؤتمر القاهرة التاريخي، العدد ٥٢٦، السبت ١١ فبروري ١٩٣٩، ص ٢

114- الفلق، مؤتمر القاهرة التاريخي، العدد ٥٢٦، السبت ١١ فبروري ١٩٣٩، ص ٢. وكان من المشاركين الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود ممثلا عن السعودية ومعه في الوفد فؤاد حمزة وكيل وزارة الخارجية السعودية، وإبراهيم السليمان بن عقيل رئيس ديوان نائب الملك في الحجاز. وحضر ممثلا لليمن الأمير سيف الإسلام الحسين، يرافقه القاضي العمري. وعن العراق حضر نوري السعيد رئيس الوزارة العراقية. وعن حكومة شرق الأردن حضر الشيخ فؤاد الخطيب. أما الوفد الفلسطيني فتألف من عدد من الشخصيات وغاب عن وفدها أحمد حلمي بدعوى اعتلال في صحته. ومن بيروت جاء جمال الحسيني. وحضر ألفريد روك من أعضاء اللجنة العربية العليا لفلسطين. حول ذلك انظر المصدر نفسه.

115- تألف الوفد المصري من: الأمير عبد الله المنعم نجل الخديوي السابق، وعلي ماهر رئيس الديوان العالي الملكي، وحسن نشأت سفير مصر في لندن. أما الوفد الفلسطيني فقد قررت اللجنة العربية العليا تمثيله برئاسة المفتي أمين الحسيني، وكانت هذه اللجنة تتألف من عشرة أعضاء. لكن المفتي أمين الحسيني امتنع عن رئاسة الوفد إلى لندن وأرسل جمال الحسيني نائبا عنه لرئاسة الوفد. كما امتنع عضوان آخران من اللجنة العربية العليا عن المشاركة في الوفد وهما: أحمد حلمي، وعزة دروزة. فاستعاض الوفد عنهم من غير هيئة اللجنة بثلاثة هم: جورج أنطونيوس وأمين النعيمي، وموسى العلمي. وكان سبعة فقط من أعضاء الوفد الفلسطيني سيتولون المفاوضات وهم: جمال الحسيني وعوني عبد الهادي وحسين الخالدي وألفريد روك وموسى العلمي، وأمين النعيمي، وجورج أنطونيوس الذي استلم أعمال السكرتارية. أما الثلاثة الباقون فكانوا بصفة مستشارين وهم: عبد اللطيف صلاح، ويعقوب الغصين، وفؤاد سابا. انظر: مؤتمر القاهرة التاريخي، الفلق، العدد ٥٢٦، السبت ١١ فبروري ١٩٣٩، ص ٢.

116- الفلق، فلسطين العربية، العدد ٥٣٠، ١١ مارس ١٩٣٩، ص١.

117- الفلق، العالم العربي ينتظر إنصاف عرب فلسطين، العدد ٥٢٨، ٢٥ فبراير ١٩٣٩، ص٢

المصـــادر والمراجـــع

- إبراش، إبراهيم، البعد القومي للقضية الفلسطينية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٧.
- جريدة الفلق، المشكلة اليهودية وبريطانيا، العدد ٤٩٢، ١٨ جون ١٩٣٧
- جريدة الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٧١، ٢٢ يناير١٩٣٨
- جريدة الفلق، الحلف الثلاثي، العدد ٤٧٣، ٥ فبراير ١٩٣٨
- جريدة الفلق، عن وكالة رويتر، العدد ٤٧٣، ٥ فبراير ١٩٣٨
- جريدة الفلق، فلسطين، بيان عن مصائب فلسطين ونكباتها ووجوب إغاثتها، العدد ٤٨١ ، ٢ أبريل ١٩٣٨.
- جريدة الفلق، أخبار خارجية، العدد ٤٨١، ٢أبريل ١٩٣٨
- جريدة الفلق، فلسطين، العدد ٤٨١، ٢ أبريل ١٩٣٨
- جريدة الفلق، بيان ونداء، العدد ٤٨٤، ٢٣ أبريل ١٩٣٨
- جريدة الفلق، مشكلة فلسطين، العدد ٤٨٥، ٣٠ أبريل ١٩٣٨
- جريدة الفلق، من أجل فلسطين، العدد ٤٨٥، ٣٠ أبريل ١٩٣٨
- جريدة الفلق، بيان، العدد ٤٨٦، ٧ مي ١٩٣٨
- جريدة الفلق، احتجاج جمعية الإخوان المسلمين بمصر على السياسة الظالمة في فلسطين، العدد ٤٨٧، ١٤ مي ١٩٣٨
- جريدة الفلق، فلسطين، العدد ٤٨٨، ٢١ مي ١٩٣٨
- جريدة الفلق، قس بريطاني يقول أن بريطانيا خدعت العرب، العدد ٤٨٩، ٢٨ مايو١٩٣٨
- جريدة الفلق، النظرات، العدد ٤٩٥، السبت ٧ جولاي ١٩٣٨
- جريدة الفلق، فلسطين، العدد ٤٩٦، ١٦ جولاي ١٩٣٨
- جريدة الفلق، معارك شديدة، العدد ٥٢٣، ٢١ جنوري ١٩٣٩
- جريدة الفلق، رد على بيان وزارة الحربية البريطانية من الزعماء الفلسطينيين بالقاهرة يدحضون الدعاوي الانكليزية، العدد ٥٢٩، ٤ مارس ١٩٣٩
- جريدة الفلق، فلسطين العربية، العدد ٥٣٠، ١١ مارس ١٩٣٩
- الحارثي، عبد الله بن ناصر بن سليمان، دور آل بوسعيد في تنشيط الحركة الثقافية في عمان وشرق أفريقيا، وزارة التراث والثقافة، مسقط، ٢٠٠٦.
- حوراني، فيصل، جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨-١٩٤٨،شرق برس، نيقوسيا، قبرص، ١٩٩٠
- الخريجي، ناجية محمد الصالح، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لسلطنة زنجبار الإسلامية في شرق أفريقيا ١٨٠٦- ١٩٤٧، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٣.
- الريامي، ناصر بن عبد الله، زنجبار شخصيات وأحداث ١٨٢٨-١٩٧٢م، دار الحكمة لندن، ٢٠٠٩.
- الشبلي، أحمد، الأوضاع السياسية في زنجبار في عهد السلطان خليفة بن حارب البوسعيدي ١٩١١-١٩٦٠،رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة السلطان قابوس، ٢٠٠٩.
- طنش، أحمد محمد، زنجبار والسياسة البريطانية ١٩١٤- ١٩٣٩، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة القادسية، ٢٠٠٠
- عطا، زبيدة محمد، عروبة القدس من واقع وثائق الأوقاف المقدسية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، مصر
- قاسم، زكريا، دولة البوسعيد في عمان وشرق إفريقيا منذ تأسيسها وحتى نهاية حكمها في زنجبار وبداية عهدها الجديد في عمان ١٧٤١- ١٩٧٠، مركز زايد التراث والتاريخ، العين، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٠.

- الكندي، عبد الله بن خميس، بدايات الصحافة العمانية في زنجبار، دراسة تاريخية تحليلية. المجلة العربية للعلوم الانسانية، مجلس النشر العلمي جامعة الكويت، العدد٨٨،خريف ٢٠٠٤
- الكندي، عبد الله بن خميس، www.nizwa.com/articles بحث بعنوان مكونات التنوير وشخصياته في صحافة المهجر العماني صحيفة الفلق الزنجبارية نموذجا، منشور في مجلة نزوى،العدد ١٨ تاريخ ٢٨/٦/ ٢٠٠٩.
- الكندي، محسن بن حمود، الصحافة العمانية المهاجرة وشخصيتها الشيخ هاشل بن راشد المسكري نموذجا، ط٢، رياض الريس للكتب والنشر. ٢٠٠٩.
- مصطفى، أحمد عبد الرحيم، بريطانيا وفلسطين ١٩٤٥-١٩٤٩، دراسة وثائقية، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٨٦
- المغيري،سعيد بن علي بن جمعة، جهينة الأخبار في تاريخ زنجبار، تحقيق محمد علي الصليبي، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ١٩٨٥
- Bin Shahbal, Suleiman Said, Zanaibar, The Rise and Fall of an Indpendent State 1895- 1964, Dubai, Emerge Puplishing,2002
- Elspeth Huxley, East Africa, Rocks Press, William Collins of London, 1941
- Harlow, Vincent & Chilver, E.M, History of East Africa, vol, 11, Oxford, Clarendon press, 1965
- Hilton, Richard, The Thirteen Power The Middle East and The World Situation, Christopher Johnson, London, 1958
- Hollingsworth, L.W. Zanzibar Under the Foreign Office 1890-1913, Greenwood Press, Publishers, Westport, Connecticut

القدس في حرب ١٩٤٨م

د. هيا عبد المحسن محمد البابطين (*)

مقدمة

تعد مدينة القدس من أهم المدن في العالم، ولها منزلة خاصة في التاريخ، فهي من أقدم مدن العالم، واستهدفت من قبل معظم القادة والحكام .

وهي تتألف في العصر الحديث من قسمين: القدس القديمة، والقدس الحديثة، أما القدس القديمة فهي التي تقع على جبل موريا، ويحيط بها سور قديم من جهاتها الأربع، وفيها كل المقدسات الإسلامية والمسيحية، كالمسجد الأقصى، وقبة الصخرة، وكنيسة القيامة، وفي الجهة الغربية من الحرم القدس يقع حائط البراق[١]، وفي الجهة الشمالية مقبرة مأمن الله ، ويروى أن فيها قبور سبعمائة شهيد استشهدوا في الحروب الصليبية[٢].

أما القدس الجديدة فتقع خارج السور الكبير القديم، وهي تتميز بالعمران الحديث، والأحياء الجديدة، وفيها مسجد الصحابي الجليل سلمان الفارسي، ومسجد رابعة العدوية، واحتلها اليهود سنة ١٩٤٨م، وأكملوا احتلالها سنة ١٩٦٧م .

وكان اليهود يحلمون بالسيطرة على فلسطين عامة، والقدس بصفة خاصة، منذ أن طردهم منها الملك البابلي، نبوخذ نصر، وشتتهم في أماكن عديدة فيما يعرف بالأسر البابلي . وتناقلت هذه الأطماع أجيال اليهود، حتى ظهرت بصورة واضحة في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، على يد زعيمهم هرتزل، الذي طلب من السلطان

(*) أستاذ مشارك بقسم التاريخ والحضارة بكلية الآداب جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن

(١) يسمى بالبراق لأن الرسول ﷺ عندما أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ربط الدابة التي حملته في رحلته عنده، وكانت تسمى البراق، ويطلق عليه اليهود حائط المبكى لأنهم يبكون عنده مجدهم الضائع، أو حائط هيكل سليمان الذي تم تدميره كما يزعمون، ويريدون إعادة بنائه.

(٢) حول اليهود هذه المقبرة إلى حديقة بعد تسوية قبورها.

العثماني عبد الحميد الثاني سنة ١٨٩٦م ، الحصول على مستعمرة بالقرب من القدس، مقابل دعم مادي كبير للدولة العثمانية، ولكن السلطان رفض عرضه[٣].

ولم ييأس اليهود فقاموا بمحاولة أخرى سنة ١٩٠٢م، وأرسلوا وفداً لمقابلة السلطان عبد الحميد، ولكنه رفض مقابلتهم، فقدموا عرضاً لرئيس الوزراء تحسين باشا يتضمن تعهد اليهود بسداد ديون الدولة العثمانية، وتقديم قرض قيمته ٣٥ مليون ليرة ذهبية لإنعاش خزينة الدولة، مقابل السماح لليهود بإنشاء مستعمرة ينزل فيها أبناء ديانتهم، في القدس الشريف أثناء حضورهم للزيارة ، وأن تكون الزيارة مباحة في أي يوم من أيام السنة .

ولكن السلطان رفض عرضهم مرة أخرى وقال لتحسين باشا : مرهم فليخرجوا ولا يحاولوا مقابلتي بعدها، أو : الدخول إلى هذا المكان أبداً . ويبدو أن السلطان أدرك أن هذا المطلب لا يتناسب مع الثمن الضخم الذي عرضه اليهود، وأيقن أن هؤلاء يريدون الحصول على موطن قدم في بداية الأمر ليتطلعوا بعد ذلك لاحتلال القدس وفلسطين كلها.

وقد كتب هرتزل عن هذا الموقف للسلطان في مذكراته يقول: (إن السلطان رد كالتالي: انصحوا الدكتور هرتزل بألا يتخذ خطوات جدية في هذا الموضوع، إني لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من الأرض، فهي ليست ملك يميني، بل ملك شعبي، لقد ناضل شعبي في سبيل هذه الأرض ورواها بدمه، فليحتفظ اليهود بملايينهم، وإذا حرقت إمبراطوريتي يوماً، فإنهم يستطيعون آنذاك أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن)[٤].

وبالفعل أدت المؤامرات الصهيونية والاستعمارية إلى خلع السلطان عبدالحميد، بل وإسقاط الخلافة الإسلامية برمتها .

وبعد فرض الانتداب البريطاني على فلسطين سنة ١٩٢٠م ، تدفقت جموع كبيرة من اليهود إلى مدينة القدس، وساعدتهم قوات الاحتلال في ذلك عندما أمرت بمنع البناء في الحي الشرقي العربي، وشجعت البناء في الأحياء اليهودية، حتى بلغ عدد اليهود في القدس سنة ١٩٤٨م مائتي ألف نسمة تقريباً [٥].

---

(٣) عبد الحميد الثاني(السلطان) مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة : محمد حرب عبد الحميد، دار الأنصار، القاهرة – ١٩٧٨م، ص٦٥،٢

(٤) مذكرات هرتزل (شبكة المعلومات الدولية – الإنترنت).

(٥) إسماعيل أحمد ياغي، الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية – دار المريخ ، القاهرة، بدون تاريخ، ص٣٦– ٣٧.

وبدأ نفوذ اليهود يتزايد تحت ظل الاحتلال البريطاني وبدعم منه، وبدأوا الاحتكاك بالعرب لإثبات قوتهم في القدس، كما حدث سنة ١٩٢٩م، فيما يعرف بأحداث ثورة البراق، عندما قامت منظمة بيثار الصهيونية بمظاهرة في القدس، في ذكرى تدمير هيكل سليمان – كما يزعمون – يوم ١٤ أغسطس، ووصلوا إلى حائط البراق الذي يعرف عند اليهود بحائط المبكى، ووقعت اشتباكات بين العرب واليهود سقط فيها كثير من القتلى والجرحى بين الطرفين، وتدخل الجيش البريطاني مع اليهود ضد العرب، وألقوا القبض على كثير من العرب وقلة من اليهود، وقدموا للمحاكمة التي حكمت بإعدام ٢٥ عربي ويهودي واحد .

وأمام ازدياد الأطماع الصهيونية، في فلسطين بصفة عامة والقدس بصفة خاصة، قامت الثورة الفلسطينية الكبرى سنة ١٩٣٦م، فاضطرت بريطانيا لإرسال لجنة تحقيق تعرف بلجنة بيل الملكية سنة ١٩٣٧م، أصدرت بعد دراسة، الوضع ما يعرف بمشروع تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، بينما تبقى منطقة القدس تحت سيطرة الانتداب البريطاني (٦).

وقد رفض العرب قرار لجنة التقسيم بينما وافق عليه اليهود، لأنه يمنحهم موضع قدم طالما حلموا به منذ ظهور الحركة الصهيونية .

وبعد عدة سنوات قامت الحرب العالمية الثانية، ودخلت الولايات المتحدة طرفا جديدا مساند لليهود في أطماعه بالقدس وفلسطين، وازدادت الهجرة اليهودية بدعم من أمريكا وبضغط منها على سلطات الانتداب البريطاني (٧).

ورأت بريطانيا بعد الحرب أن تعرض القضية على الأمم المتحدة، وخاصة بعد أن أطمأنت إلى لقوة موقف اليهود، بل إن اليهود أنفسهم لم يعد لديهم رغبة في بقاء الانتداب البريطاني بعد أن أدى دوره في مساندتهم، وقاموا بالعديد من الأعمال

---

(٦) أكرم محمد عدوان، مشروع تقسيم فلسطين في تقرير لجنة بيل الملكية البريطانية سنة ١٩٣٧م، بحث منشور بمجلة الجامعة الإسلامية بغزة – المجلد العاشر – العدد الأول سنة ٢٠٠٢م، ص٢١، د. حسين شريف، المفهوم السياسي والاجتماعي لليهود عبر التاريخ، ط١، ص٤٤٠.

(٧) د. سعد بدير الحلواني، العلاقات بين مصر والحجاز ونجد في القرن ١٩م، ط٢ – القاهرة ١٩٩٥م، ص ص١٠٤ – ١٠٥.

الإرهابية ضده، مثل تفجير منظمة الأرجون الصهيونية [٨] فندق الملك داود بالقدس، وكان مركزاً للحكومة البريطانية في فلسطين سنة ١٩٤٦م. وإزاء هذه الأحداث قررت بريطانيا عرض مشكلة فلسطين على الأمم المتحدة التي أصدرت، بعد مشاورات في ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧م، ما يعرف بالقرار ١٨١ أو مشروع تقسيم فلسطين إلى دولتين : دولة يهودية تشمل نحو ٥٥% من أرض فلسطين، ودولة عربية على نحو ٤٠%، بينما تخضع مدينة القدس لإدارة دولية نظراً لأهميتها [٩]، وإنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، وجلاء القوات البريطانية تدريجياً حتى أول أغسطس سنة ١٩٤٨م [١٠].

وقد رفض العرب قرار التقسيم، بينما فرح به اليهود، وعبروا عن فرحتهم بالرقص في الشوارع مبتهجين، وبدأت بعده حرب العصابات بين الطرفين، وكان للقدس النصيب الأوفر منها لطمع اليهود في السيطرة عليها، وتمسك العرب بالاحتفاظ بها .

الصراع العربي – الصهيوني في القدس منذ قرار التقسيم حتى حرب ٤٨ :

قبيل حرب ٤٨ بدأ الطرفان العربي واليهودي في حشد كافة قواهم للسيطرة على البلاد، أو على أكبر قدر ممكن منها، وكانت القوة العربية تتكون من جيش الجهاد المقدس الذي يضم المجاهدين من عرب فلسطين، وجيش الإنقاذ العربي المكون من متطوعين من البلاد العربية، وكان تسليح العرب – بدائياً – بينما تتكون القوة اليهودية من عدة منظمات مسلحة تسليحاً حديثاً، أهمها منظمة الهاجاناة، ومنظمة الأرجون، وقوة شتيرن، وأعدادهم تتزايد باستمرار ، بانضمام المتطوعين إليهم من البلاد الأوربية وأمريكا [١١].

وكان رفض العرب لقرار التقسيم يعني ضمناً أنهم سيستخدمون القوة لمنع تنفيذه، لذلك بدأت مواجهة مسلحة، بين الطرفين من أول ديسمبر ١٩٤٧م، حتى الرابع عشر من مايو ١٩٤٨م، وهي ما يعرف فترة الحرب غير المعلنة [١٢].

---

(٨) كان زعيم هذه المنظمة حينذاك والذي أعطى الأوامر لهم مناحم بيجين الذي أصبح رئيس وزراء إسرائيل فيما بعد.

(٩) د. حسين شريف – المفهوم السياسي، ج١، ص٦٢٦.

(١٠) عبدالرحمن الرافعي – في أعقاب الثورة المصرية، ج٣ ص٢٦٠.

(١١) د. إبراهيم شكيب – حرب فلسطين ١٩٤٨م – رؤية مصرية، ص٧١.

(١٢) حسن البدري، الحرب في أرض السلام، ص١٧٥.

وكان هدف العرب من هذه الحرب الحفاظ على عروبة فلسطين، بينما كان هدف اليهود هو سرعة السيطرة على الرقعة المخصصة لليهود في قرار التقسيم، وتفريغ فلسطين من أكبر عدد من العرب. وسوف نقتصر في حديثنا عن العمليات التي دارت في القدس بين الطرفين وأهمها : ما قام به اليهود في ٢٧ إبريل سنة ١٩٤٨م فيما يعرف بعملية جيبوس لعزل القدس، وذلك بتدمير حلقة لقرى العربية المحيطة بها، والسيطرة على طريق رام الله – القدس وطريق أريحا– القدس، وطريق بيت لحم – القدس، ولكن العرب تصدوا لليهود، وهزموهم.

وفي ١٤ مايو سنة ١٩٤٨م قامت قوة يهودية باحتلال منازل عربية في القدس الجديدة، وطرد سكانها منها فيما يعرف بعملية بتشفورك، وفي نفس اليوم كانت هناك قوة يهودية أخرى تقوم بمحاولة لاحتلال القدس القديمة، فيما يعرف بعملية شيفيفون ولكنها هزمت، وتصدت القوات العربية لها [١٣].

وكان سكان القدس قد انخفضت روحهم المعنوية بشكل كبير، خلال شهري إبريل ومايو سنة ١٩٤٨م، بعد وقوع مذبحة دير ياسين في التاسع من إبريل سنة ١٩٤٨م، وهي قرية من ضواحي القدس قامت منظمتا الأرجون وشتيرن اليهوديتان بالهجوم عليها، وذبح جميع سكانها وعددهم ٢٥٤ رجلاً وامرأة وطفلاً، وألقوا بجثثهم في بئر القرية [١٤]، وذلك لبث الرعب والفزع في نفوس العرب، مما يجعل الكثير منهم يهجر قراه ومدنه، دونما تعب من اليهود [١٥].

ويعبر عن ذلك مناحم بيجن زعيم منظمة الأرجون التي نفذت المذبحة بقوله: " كنا في القدس وغيرها أول من انتقل من الدفاع إلى الهجوم، وبدأ العرب يفرون خائفين ... وراح العرب يفرون مذعورين : دير ياسين .. دير ياسين " [١٦].

وقد أصدر مجلس الأمن في ١٧ أبريل سنة ١٩٤٨م قراراً يدعو فيه الطرفين إلى وقف أعمال العنف والنشاط العسكري، كما توصلت الهيئة العربية العليا والوكالة اليهودية إلى اتفاق بوقف القتال داخل مدينة القدس، إلا أن شروطه لم تحدد، كما أن السلطة أو القوة التي تشرف على تنفيذه لم يتفق عليها، ولذلك لم يلتزم به اليهود كعادتهم وأصدرت الأمانة العامة للجامعة العربية بياناً، في ١٩٤٨/٤/٢٨م، أعلنت فيه حرص العرب على حماية الأماكن المقدسة داخل أسوار مدينة القدس القديمة،

---

(١٣) د. إبراهيم شكيب : حرب فلسطين، ص١٠١.

(١٤) د. حسين شريف، المفهوم السياسي، ج١ ص٦٣٢.

(١٥) عبدالله التل، مذكراته، كارثة فلسطين، ص٢٢.

(١٦) د. إبراهيم شكيب : وحرب فلسطين، ص١٠٢.

وموافقتهم على وقف القتال داخل المدينة، وعدم الهجوم عليها من الخارج، أو منها إلى الخارج. كما أعلنت الأمانة العامة استعدادها للمساهمة في نفقات القوة التي ستتكون من رجال الدين لتنفيذ شروط الهدنة [١٧].

كما قررت الأمم المتحدة تشكيل لجنة لتنظيم مستقبل القدس، وطريقة الحكم فيها حسب دستور تضعه هذه اللجنة، وقد نشرت هذه اللجنة مسودة الدستور الذي وضعته لمنطقة القدس، وهو مؤلف من عشرة بنود، قدمته إلى اللجنة العاملة في مجلس الوصاية الدولي لدراسته، وأهم تلك البنود :

١- يضمن الدستور سلامة أراضي مدينة القدس وتبلغ مجلس الأمن عن أي اعتداء يقع فيها.
٢- تجريد منطقة القدس من السلاح وجعلها ذات صبغة عسكرية [١٨].
٣- انتخاب حاكم للمنطقة على أن تكون مدة خدمته ثلاث سنوات، وأن لا يكون من العرب أو اليهود .
٤- يمنح الحاكم سلطات واسعة ولا يكون خاضعاً إلا لمجلس الوصاية الدولي.
٥- يمنح هذا الحاكم سلطات حماية الأماكن المقدسة في فلسطين .
٦- تأليف مجلس تشريعي ينتخبه سكان المدينة، والمنتخبون يكونون ممن تزيد أعمارهم عن الخامسة والعشرين .
٧- يتألف هذا المجلس من ٤٠ عضواً ينتخب السكان العرب منهم ١٨ عضواً، وينتخب اليهود مثلهم، ويضاف إلى هؤلاء أربعة آخرين من سكان المدينة.
٨- السماح لرعايا الطرفين(العرب واليهود) بدخول المنطقة دون عائق، على أن يتولى الحاكم مراقبة الهجرة إلى المدينة [١٩].

الصراع العربي اليهودي حول القدس في حرب ١٩٤٨م :

ما أن أعلنت بريطانيا انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين، في ١٥ مايو ١٩٤٨م، حتى أعلن اليهود في نفس اليوم قيام دولة إسرائيل، وكانت سلطات الاحتلال البريطاني قد مكنتهم من السيطرة على القواعد والمواني والأماكن الهامة التي تساعد على قيام الدولة. وشهدت القدس صدور بيان، في منتصف ليلة ١٥ مايو سنة

---

(١٧) د. إبراهيم شكيب : وحرب فلسطين، ص١٢٠.

(١٨) عبدالوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م، ص٤٨.

(١٩) د. وائل عبيد، تاريخ العرب الحديث.

١٩٤٨م، أصدره هو الصهيوني مایر هاي عوزيل، رئيس حاخامية الأراضي المقدسة ومقره القدس [٢٠]، إلى اليهود في الشرق مبينا لهم فيه أنهم قد حققوا، بعون الله، مثلهم الأعلى الذي عمل من أجله جميع الصهيونيين وما زلوا منذ ثلاثة قرون، ألا وهو إنشاء دولة إسرائيل التي اعترفت بها الدول في أرض فلسطين المقدسة .... [٢١].

وكان القادة والرؤساء العرب قد قرروا، في اجتماعهم بعمان بالأردن في ٢٩ إبريل سنة ١٩٤٨م، دخول الجيوش العربية الحرب في فلسطين [٢٢]، وأوصوا بتعيين الملك عبد الله بن الحسين، ملك الأردن، قائداً أعلى للجيوش العربية، وأن يعين اللواء الركن نور الدين محمود، من العراق، في منصب القائد العام التنفيذي للجيوش العربية.

وفي ١٠ مايو سنة ١٩٤٨م تم عقد اجتماع في القصر الجمهوري بدمشق، بحضور شكوى القوتلي الرئيس السوري، وعدد من القادة العسكريين من الأردن وسوريا ولبنان والعراق، لوضع خطة نهائية للعمليات في فلسطين، وتعيين هدف لكل جيش دولة عربية يصل إليه في وقت محدد [٢٣].

---

(٢٠) علي أبو الحسن، دور بريطانيا في تهويد فلسطين، دار الوحدة العربية،بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ٢٠٠١م، ص ص٣٨٨ – ٤٠٥.

(٢١) د. إبراهيم شكيب، حرب فلسطين، ص١٢٠.

(٢٢) عبد الرحمن الرافعي، في أعقاب الثورة المصرية، ج٣ ص٢٦٠، ٢٦١.

(٢٣) كانت خطة الجيوش العربية تتضمن ما يلي:

أ – الجيش اللبناني يحتشد في منطقة رأس الناقورة على حدود لبنان فلسطين، ويتقدم منها على الساحل في اتجاه نهارية شمال عكا، ويدمر المستعمرات اليهودية الموجودة في هذه المنطقة.

ب – الجيش السوري يحتشد في منطقة فيق غرب الجولان، ويتقدم لاحتلال صفد والناصرة بعد تصفية ما يقابله من مستعمرات يهودية.

ج – الجيش العراقي يتقدم إلى جسر المجامع على نهر الأردن وبعد ذلك إلى بيسان والعفولة والناصرة.

د – الجيش الأردني يتوجه قسم منه نحو بيسان والعفولة لمساندة الجيش العراقي وقسم آخر يتقدم من قلب فلسطين بعد السيطرة على القدس إلى حنين.

وكانت السيطرة على القدس جميعها من واجبات الجيش الأردني، ثم يتقدم بعد ذلك لمساندة الجيوش العربية الأخرى .

وتم وضع اللمسات الأخيرة لخطة الحرب يوم الخميس ١٣ مايو سنة ١٩٤٨م، في قصر رغدان بالأردن، بحضور الملك عبد الله بن الحسين، ومندوبي الجيوش العربية المشاركة في الحرب (مصر والأردن ولبنان والعراق وسورية والسعودية)، كما حضره أعضاء اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية، برئاسة عبد الرحمن عزام باشا، الأمين العام للجامعة .

وقد أبدت هيئة المستشارين العسكريين المصريين بعض الملاحظات على خطة الحرب التي سبق وضعها في الاجتماع السابق، وأهمها : استحالة تحقيق أهداف كل جيش من الجيوش العربية على حدة، لضآلة القوات وعدم، الاستعداد، واقترحت تجميع الجيوش العربية على هدف رئيس واحد، وذلك بأن تتقدم الجيوش الأردنية والسورية والعراقية نحو القدس، والسيطرة عليها وما حولها من المناطق نظراً لأهميتها، بدلاً من التركيز على أهداف ثانوية لا أهمية لها على مركز اليهود العام في البلاد. ولكن القيادة السياسية العليا لم تأخذ باقتراح الوفد المصري، وأصرت على تنفيذ الخطة السابقة (٢٤).

وفي المقابل كانت القوات اليهودية، الموجودة في القدس والمحيطة بها، تشمل اللواء السادس من الهاجاناة بقيادة دافيد شالتيل، وحول القدس يوجد اللواء الحادي عشر لبالماخ بقيادة يوسف تابنكين، وكذلك لواء الهاجاناة السابع مدرع بقيادة شالوم شامير.

ولعل وجود ثلاثة ألوية يهودية في القدس وحولها؛ يؤكد مدى تركيز اليهود على احتلال القدس لأهميتها، ولأنها بمثابة قلب فلسطين، ويسهل لهم منها السيطرة على مناطق عديدة في فلسطين، بينما لم تعطِ القيادة العربية نفس الاهتمام بالقدس، بل ورفضت المقترح المصري الذي كان يواجه مخطط اليهود، ويتصدى لهم .

وكان جلوب باشا (إنجليزي الجنسية)، القائد العام للجيش الأردني، يرى عدم دخول الجيش العربي القدس لوجود هدنة بين العرب واليهود في القدس حينذاك (والملتزم بها العرب فقط)، واحتمال جعلها منطقة دولية، هذا في الوقت الذي يحشد

هـ – الجيش المصري يتقدم من حدود مصر في رفح إلى الشمال نحو تل أبيب، وتصفية جميع المستعمرات اليهودية التي في طريقه، د. إبراهيم شكري، ص١٥٩، وانظر إسماعيل ياغي، الجذور التاريخية، ص٨٩.

(٢٤) د. إبراهيم شكري، ص١٦٤.

اليهود قواتهم فيها – كما ذكرنا –.

وقد أسفر إعلان اليهود عن قيام دولة إسرائيل، يوم ١٥ مايو، ثم إعلان الحرب بين إسرائيل والدول العربية المجاورة، عن دخول الجيوش العربية إلى فلسطين، وما يهمنا هو منطقة القدس التي كانت ضمن هدف الجيش الأردني (٢٥).

وقد عبرت ثلاثة ألوية تابعة للجيش الأردني نهر الأردن باتجاه القدس، للدفاع عنها وطرد القوات اليهودية التي تسعى لاحتلالها، ويقدر عددها بحوالي خمسة آلاف مقاتل، حسبما ورد في أغلب التقريرات .

في اليوم التالي للحرب، وهو يوم ١٦ مايو، وصلت وحدات من الجيش الأردني إلى ضواحي القدس الشمالية، وبدأت خوض المعارك ضد اليهود .

وقد تمكن اليهود، تحت شعار الهدنة المعقودة مع العرب في القدس، من احتلال مناطق عربية عديدة في القدس في : يومي ١٥، ١٦ مايو، وأهمها : معسكر النبي – معسكر العلمين – دير ألجاطور – باب النبي داوود – المسكوبية – المستشفى الإيطالي – نوتردام – المصرارة – باب العمود – سعد وسعيد – الشيخ جراح، ولم يبق للعرب من أحياء خارج سور القدس إلا باب الساهرة ووادي الجوز .

وكان العرب كلما احتجوا، للجنة الهدنة والصليب الأحمر، على خرق اليهود الهدنة أجاب اليهود بأن الجماعات اليهودية المنشقة هي المسئولة عن ذلك ولا حول لهم في منعها (٢٦).

وساءت حالة العرب في القدس القديمة، لأن اليهود لم يكتفوا بما احتلوه من مواقع استراتيجية، بل أخذوا يهاجمون الأبواب الرئيسية للقدس القديمة، محاولين اقتحام المدينة القديمة، التي احتشد فيها أكثر من ٦٠ ألف عربي، نزح أكثرهم من الأحياء العربية في القدس الجديدة، وكان العرب في القدس يتوقعون دخول اليهود في أي وقت للفتك بهم، وتدمير المقدسات الإسلامية والمسيحية، إلا أن بطولة جنود الإنقاذ والجهاد المقدس وشرطة القدس بقيادة أحمد حلمي باشا، وخالد الحسيني، وفاضل عبدالله، تصدت لليهود بالرغم من نقص الذخيرة وتأخر وصول الجيش العربي

---

(٢٥) وثائق المقاومة الفلسطينية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٦٨م، ص ص٣٠٥- ٢١٧.

(٢٦) مذكرات مفتي فلسطين، جريدة أخبار اليوم المصرية، الأعداد ١٠، ١٢، بتاريخ ٥/ ١٠/ ١٩٥٧م.

الأردني إلى القدس[٢٧].

وكان جلوب باشا، القائد العام للجيش العربي الأردني، لا يرغب في إرسال أي مساعدات حربية للقدس لتآمره مع اليهود، إلا أن الاستغاثات المتتالية، من زعماء القدس وسكانها، للملك عبدالله جعلته يأمر بانتقال الكتيبة السادسة من أريحا إلى القدس للدفاع عنها، دون أن يتشاور مع جلوب وقادته، ومعظمهم إنجليز – كما ذكرنا[٢٨].

وبعد أن أخذت الكتيبة السادسة، بقيادة عبد الله التل، أماكنها في القدس، قام اليهود بمحاولات مستميتة لاقتحام أبواب المدينة القديمة، وخاصة باب النبي داوود، وذلك من أجل إنقاذ يهود القدس القديمة الذين يحاصرهم المجاهدون، وشهدت أبواب المدينة معارك طاحنة، وكانت المسافة أحياناً بين اليهود والعرب لا تتعدى خمسين متراً، وتم توحيد كافة القوات العربية بالقدس، وانضوائها تحت لواء الجيش العربي الأردني الذي تمثله الكتيبة السادسة .

وقامت القوات العربية بقصف الحي اليهودي بالقدس القديمة بالمدافع [٢٩]، وأظهر المجاهدون بطولات رائعة، وتم وضع قوة عربية في دير الأرمن بالقرب من باب النبي داوود، لفصل حي الأرمن عن الحي اليهودي، وحماية الأرمن من هجمات اليهود الذين كانوا يعتبرونهم موالين للعرب، وعمدوا إلى ضرب الحي الأرمني بمختلف أنواع الأسلحة، ولذلك تكبد الأرمن خسائر فادحة .

معركة باب النبي داوود واستسلام اليهود في القدس القديمة:

استمر هجوم اليهود على الأبواب الرئيسية للقدس القديمة، واستماتوا في القتال للوصول إلى اليهود المحاصرين في القدس القديمة، وكان أكبر هجوم قاموا به في مساء ١٩٤٨/٥/٢٤م، حينما قامت فرقة من البالماخ بالهجوم على الجنود العرب

---

(٢٧) عبدالله التل، ص١٠٠.

(٢٨) قبل سفر المندوب السامي البريطاني من القدس إلى حيفا في ١٩٤٨/٥/١٤م اتصل بالفريق جلوب في عمان هاتفياً وودعه بمناسبة تركه فلسطين نهائياً، وقال له الجملة التالية: " Keep your master on the Hills". ومعناها احتفظ بسيدك على الجبال، ويقصد بذلك أن يبقي جيش الملك عبدالله على التلال المحيطة بالقدس ولا يهاجمها، مما يدل على إحكام المؤامرة بين القادة والساسة الإنجليز ضد العرب، عبدالله التل، ص١٠٢.

(٢٩) محمد حسنين هيكل، العروش والجيوش، ص١٥٩.

المرابطين في منطقة باب النبي داوود، وبدأت جموعهم تقترب من باب النبي داوود، حاملين معهم لغماً كبيراً لنسف السور، وانتظر العرب حتى اقترب اليهود منهم، وفي لحظة واحدة انهالت القنابل اليدوية على اليهود، وانفجر اللغم الذي يحملونه بينهم، ومرق أجسادهم، وولى الباقون الأدبار بعد أن حصدت الرشاشات منهم ٦٠ قتيلاً (٣٠).

وشجع هذا النصر القوات العربية والمجاهدين في القدس على الانتقال لما هو أهم، وهو حصار الحي اليهودي في القدس القديمة، وكان به حوالي ١٨٠٠ يهودي بينهم كثير من قوات الهاجاناه والأرجون واشتيرن، وقبل انتهاء الانتداب البريطاني، كان الجيش البريطاني يحميهم من جميع الجهات، ويمونهم بالمواد اللازمة، والأسلحة والذخائر، مما مكنهم من الاستمرار في المقاومة أثناء حصار العرب لهم بعد انتهاء الانتداب، ولغموا مداخل الحي، وحفروا الخنادق والممرات ليسهل للمحاربين التنقل من بيت لآخر دون التعرض للرصاص أو القنابل، وجمعوا من المؤن الشيء الكثير، واقتصدوا في استهلاكهم، استعداداً للحصار بعد جلاء حماتهم (الإنجليز)، وكانت أوامر الوكالة اليهودية لهم أن يدافعوا عن الحي حتى النهاية .

وكانت خطة القوات العربية : تدمير المنازل اليهودية التي اتخذت أبراجاً واستحكامات، تمهيداً لتقدم المشاة، وذلك لتقليل الضحايا من القوات المهاجمة، نظراً لطبيعة الحي الذي يتكون من ممرات ضيقة.

وبدأت فرقة التدمير عملها بنسف منظم للمنازل، فدب الرعب في قلوب اليهود، وأخذوا يضيقون خطوط دفاعهم شيئاً فشيئاً، وهم بذلك يضيقون الخناق على المدنيين الذين تضطرهم هجمات العرب للنزوح عن منازلهم، وينزلون على غيرهم، وبالتالي يسببون للمحاربيون متاعب جمة (٣١).

ثم قامت القوات العربية بقصف الحي اليهودي بمدافع الهاون في فترات متقطعة من الليل والنهار، لإجبارهم على التسليم، وشبت النيران في أغلب المنازل اليهودية المواجهة للقوات العربية في رأس العامود، وتحطمت الاستحكامات البارزة (٣٢).

وطلب قائد الكتيبة السادسة العربية، من قيادة فرقة المدفعية الأردنية، قصف بعض المواقع اليهودية الهامة في القدس الجديدة، لتخفيف هجماتهم على أبواب القدس القديمة، ومنعهم من تقديم أي مساعدات للحي اليهودي المحاصر في القدس

---

(٣٠) عبد الله التل، ص١٠٩.

(٣١) صالح مسعود/ جهاد شعب فلسطين، ص ص٤١٠ – ٤١١.

(٣٢) محمد حسنين هيكل، العروش والجيوش، ص١٧٦.

القديمة ، ولكن قادة الفرقة، وهم إنجليز، ماطلوا في الرد عليه، فقام بعض الضباط العرب الصغار في المدفعية بمغافلة الضباط الإنجليز وقصفوا بعض المواقع الهامة، وتهدمت منازل كثيرة، فتعالت صيحات اليهود للاستغاثة بحلفائهم الإنجليز، وتدخل حليفهم الأكبر جلوب، وأمر بنقل الضابط محمد المعايطة إلى عمان وهو أكبر ضابط عربي في المدفعية، بحجة أنه يختلف مع الضباط الإنجليز، ولم يسأله أحد في الحكومة الأردنية عن أسباب خلافه مع الضباط الإنجليز (٣٣).

ونجحت القوات العربية في القدس، بمساعدة بعض أهالي المدينة، في إدخال ثلاث مدرعات إلى القدس القديمة رغم ضيق شوارعها، في ليلة ١٩٤٨/٥/٢٦م، للمساعدة في حصار الحي اليهودي، وبدأت مهمتها في رمي مواقع اليهود بالقنابل والرشاشات، فلما رأى اليهود ذلك لم يبق لهم أمل في النجاة (٣٤).

وكعادة اليهود لا يتركون أي وسيلة أو ورقة تفيدهم إلا واستخدموها، وكانت آخر أوراقهم لإنقاذ الحي اليهودي هي تدخل الصليب الأحمر الدولي، فاستغاثوا بمندوب منطقة القدس، ويسمى كروفوازيه، الذي استجاب لهم، واجتمع بقائد القوات العربية في القدس، وطلب منه أن يسمح بنقل النساء والأطفال والشيوخ والجرحى إلى الأحياء اليهودية في القدس الجديدة، وترك المحاربين في الحي، ولكن القائد العربي، وهو عبد الله التل، أجاب عليه بأن هذا الطلب صعب التنفيذ من وجهة عسكرية، فلجأ مندوب الصليب الأحمر إلى التهديد، وقال للقائد العربي: " إذا لم تلب طلب الصليب الأحمر هذا فستكون في عداد مجرمي الحرب في المستقبل "، ولكن القائد لم يكترث بتهديده،

وضيق العرب الخناق على اليهود في يوم الجمعة ٥/٢٧ (٣٥)، فانكمشت خطوطهم الدفاعية حتى وصلت إلى الكنيس الكبير المسمى قدس الأقداس، وتجمع المحاربون اليهود بداخله، فوجه لهم القائد العربي إنذاراً، عن طريق مندوب الصليب الأحمر، إلى المحاربين بإخلاء الكنيس، وأعطاهم مهلة لذلك، حتى الرابعة عصراً، وكان الإنذار في العاشرة صباحاً، ولكن اليهود رفضوا الإنذار، فقامت القوات العربية بعد انتهاء المهلة بالهجوم على الكنيس، وقتل من فيه، وهدم أجزاء كثيرة منه نتيجة لتعنت اليهود، وعدم استسلامهم.

وفي ليلة ٥/٢٨ استمرت المدرعات ومدافع الهاون في قصفها المتقطع،

---

(٣٣) عبد الله التل، ص١١٦.

(٣٤) علي أبو الحسن : دور بريطانيا في تهويد فلسطين، ص٤٥٥.

(٣٥) محمد حسنين هيكل : العروش والجيوش، ص١٨٧.

وضيق الجنود العرب الخناق على المدافعين من اليهود، وفي صباح يوم الجمعة اضطر اليهود إلى إرسال رجل دين للتفاوض على الاستسلام، ووافق القائد العربي على استسلامهم، فأرسلوا وفدا عسكريا برئاسة قائد الهاجاناة في الحي اليهودي، للتفاوض على شروط التسليم، وحضر المفاوضات السنيور اسكراتي مندوب الأمم المتحدة في القدس، وطلب اليهود نقل جميع سكان الحي إلى الأحياء اليهودية في القدس الجديدة، ولكن القائد العربي أصر على الشروط التالية وهي : تسليم السلاح والذخائر، وأخذ المحاربين والقادرين على حمل السلاح أسرى حرب، واحتلال الحي، وتسليم النساء والأطفال والمرضى والجرحى إلى اليهود، بواسطة الصليب الأحمر الدولي (٣٦).

وبعد جدال استمر ثلاث ساعات اضطر اليهود للموافقة على الشروط، وكتبت وثيقة التسليم باللغتين العربية والإنجليزية، ووقعها عن الجانب العربي عبد الله التل قائد القوات العربية بالقدس، وعن الجانب اليهودي موشه روزنك قائد الهاجاناه (٣٧).

وأمر القائد العربي بعد توقيع وثيقة التسليم بوقف الرمي، وطلب من اليهود التجمع في وسط الحي اليهودي، ونشر جنوده على أطراف المنطقة للحفاظ على اليهود من هجوم العامة للانتقام منهم لما فعله إخوانهم في دير ياسين وغيرها، ولذلك كان اليهود في شدة الخوف والرعب، متوقعين أن تفتح عليهم الرشاشات فتبيدهم كما يفعلون في القرى العربية، ولكن القوات العربية عاملتهم بهدوء ولين، وقدموا لهم الماء والطعام، وقاموا بنقل المحاربين وعددهم ٣٤٠ إلى عمان، وتسليم النساء والشيوخ والمرضى إلى الصليب الأحمر، وحافظوا عليهم للمرور عبر باب النبي داوود إلى الأحياء اليهودية بالقدس الجديدة، ولم يتعرض أحد من العرب لأي يهودي، بل إن بعض الجنود حملوا العجائز منهم على ظهورهم حتى الباب الرئيسي، وذلك بشهادة مندوب الصليب الأحمر والأمم المتحدة (٣٨).

وقد أسفرت هذه المعركة عن قتل ما يزيد على ٣٠٠ يهودي من المحاربين، معظمهم من عصابة الأرجون، بالإضافة إلى ٣٤٠ أسيراً، وأدت إلى بقاء القدس القديمة في يد العرب حتى حرب يونيه ١٩٦٧م، بينما كانت خسائر العرب في هذه المعركة ١٤ شهيداً من جنود الجيش وعشرة من المتطوعين، والجرحى ٢٥ جندياً .

وحاولت القوات العربية في القدس احتلال جبل سكوبس؛ الذي شرف على

---

(٣٦) صالح مسعود : جهاد شعب فلسطين، ص ص٤١١ – ٤١٢.

(٣٧) د. حسين شريف : المفهوم السياسي، ج١ ص٦٦١، ج٢ ص٣٥.

(٣٨) عبد الله التل : ص١٣٦.

القدس من الجانب الشمالي الشرقي، والذى أقام فيه اليهود مستشفى هداسا وملحقاتها، والجامعة العبرية، وجعلوها أماكن حصينة، ولكن جلوب قائد الجيش الأردني منعهم من التعرض لهما بحجة أن هاتين المؤسستين شيدتا بأموال الأمريكان لا بأموال اليهود (٣٩)، وكذلك ادعت قيادة الجيش في عمان أن هداسا مؤسسة صحية عالمية لا يجوز التعرض لها، وكذلك الأمر مع الجامعة العبرية التي اعتبرتها عمان مؤسسة ثقافية (٤٠).

وحاولت بعض القوات العربية والمتطوعين قصف جبل سكوبس بقنابل الهاون، لاقتناعهم بأن ما به أماكن حربية حصينة، وليست مجرد مستشفى أو جامعة، ولكن قنصل أمريكا تدخل لوقفه، وكذلك جلوب أقنع الملك عبد الله أن يأمرهم بوقف القصف، واستجاب الملك، وأمر بعدم التعرض لجبل سكوبس (٤١).

معركة رامات راحيل :

عند دخول الجيوش العربية إلى فلسطين في ١٩٤٨/٥/١٥م، وصلت كتيبة مصرية من المجاهدين المتطوعين، بقيادة البطل أحمد عبد العزيز، بمساعدة مجموعة من الضباط التابعين للجيش المصري إلى جنوب القدس، وانضمت إليه بعض قوات الجيش العربي الموجودة في جنوب القدس، وأصبح القائد أحمد عبد العزيز مسؤولاً عن جميع القوات العربية في المنطقة..

وكان أول هدف لهذه القوات هو السيطرة على مستعمرة رامات راحيل، لأنها تشكل نتوءاً قوياً في خطوط الدفاع العربية بجنوب القدس، وكانت مبنية من الحجر الصلد، فهي حصن منيع لليهود .

وتقرر القيام بالهجوم يوم الاثنين ١٩٤٨/٥/٢٤م، واشتركت فيه وحدات من الجيش العربي الأردني مع القوات المصرية، وتعاونت الكتيبة السادسة بالقدس مع الهجوم، حيث قامت بقصف الأحياء اليهودية في القدس الجديدة لشغلهم، وتحويل أنظارهم عن الهجوم على مستعمرة رامات راحيل (٤٢).

وبدأت المدافع المصرية بقصف المستعمرة، ونجحت في تخريب أغلب البيوت المحصنة والاستحكامات، ثم زحفت قوات المشاة المصرية والأردنية، وكانت خطتهم

---

(٣٩) موسوعة ويكيبديا الحرة.

(٤٠) عبد الله التل : ص١٦٠.

(٤١) محمد حسنين هيكل : العروش والجيوش، ص٢٠٣.

(٤٢) محمد حسنين هيكل : العروش والجيوش، ص٢١٢.

تدمير المستعمرة تدميراً تاماً لصعوبة احتلالها، وفي منتصف النهار كان المهاجمون قد دمروا معظم منازل المستعمرة، وتجمع اليهود في أحد المنازل الحصينة للدفاع عن أنفسهم، وهنا حدث أمر لم يكن في حسبان القائد أحمد عبد العزيز، فقد تدفق المئات من العرب المدنيين في هذه المنطقة إلى المستعمرة لجمع الغنائم، وقلدهم بعد الجنود العرب، وتحول الهجوم عن الهدف الذي رسمه القائد، وحاول منع المحاربين عما يقومون به، والتركيز على الهدف الرئيسي، ولكن فشل في ذلك، بعد أن أصبح المحاربين محملين بالغنائم. وفي الليل أمر القادة الإنجليز في الجيش الأردني بسحب القوات الأردنية المشاركة مع القوات المصرية، في الوقت الذي أرسل فيه اليهود نجدات إلى المستعمرة .

وفي الصباح وجد القائد أحمد عبد العزيز أن الوضع قد تغير، لأن اليهود عادوا واستحكموا في المستعمرة، ولابد لإخراجهم من هجوم منظم جديد، ولم يعد هذا بالإمكان، واقتصرت العمليات على بعض المناوشات بين العرب واليهود[٤٣].

معركة اللطرون :

وهي معركة دارت بين القوات الأردنية المكونة من ١٢٠٠ جندي، برئاسة القائد حابس المجالي، والقوات الصهيونية برئاسة أرئيل شارون (الذي أصبح رئيساً للوزراء فيما بعد) وتبلغ ٥٠٠ مقاتل، وتقع هذه المنطقة شمال غرب القدس عند نقطة التقاء طريق الرملة بالقدس، وكذلك تتحكم في طريق القدس يافا العام .

وقد حاول اليهود السيطرة عليها في يوم الثالث عشر من مايو قبل انسحاب القوات الإنجليزية من قاعدتهم بها، ومقرها مخفر اللطرون، ويبدو أن الإنجليز أوعزوا إليهم بذلك ليحلوا محلهم، ويمكنوهم منها قبل جلائهم، فأرسل اليهود حشوداً كثيرة إلى سهل عمواس بالقرب من المكان، ليسيطروا عليه، ويتحكموا بذلك في موقع استراتيجي حاسم يتحكم في مدخل القدس[٤٤] .

وعندما علم فوزي القاوقجي قائد جيش الإنقاذ العربي بهذه الحشود، أمر قواته بالتوجه إلى هذه المنطقة مع قوات من جيش الجهاد المقدس، للتصدي لها، وبالفعل أخذت القوات العربية أماكنها على مقربة من الحشود الصهيونية، وعندما أحس الإنجليز بوجود العرب طلبوا من الطرفين عدم الاشتباك طوال مدة جلائهم عن المخفر

---

(٤٣) حسن البدري : الحرب في أرض السلام، دار الوطن العربي، القاهرة، ١٩٧٦م، ص ص١٠٣.

(٤٤) موسوعة ويكيبديا الحرة.

ولكن اليهود، وربما أيضاً بتواطؤ من الإنجليز، تقدموا للسيطرة على المخفر يوم ١٣ مايو قبل أن يتم جلاء الإنجليز، فانصبت قنابل المدافع العربية عليهم، وكانت المسافة بين الطرفين تتراوح ما بين ٢٠٠ إلى ٥٠٠ متر، لذلك كانت الإصابات مباشرة، وصعق اليهود لسرعة الرد العربي، ولم يتمكنوا من الرد عليه لكثافته، فتركوا مواقعهم وأمعنوا في الهرب تتبعهم سرية مصفحات عربية، وتنهال عليهم المدافع العربية، حتى ابتعدوا عن سهل عمواس، وامتلأ السهل بقتلى اليهود، وكثير من الأسلحة والذخائر(٤٥).

وبعد جلاء الإنجليز، ودخول الجيوش العربية إلى فلسطين، صدرت الأوامر إلى قوات الإنقاذ بتسليم أماكنها حول القدس للجيش الأردني، فانتهز اليهود هذه الفرصة وقاموا بشن العديد من الهجمات للسيطرة على منطقة اللطرون التي تتحكم في مدخل القدس، ونجح هجومهم في السيطرة عليها يوم ١٦، ١٧ مايو، مستغلين فرصة عدم تمركز الجيش العربي الأردني في مواقعه بعد، إلا أن الجيش الأردني قد استردها منهم بعد يومين فقط من السيطرة عليها (٤٦).

وبعد أيام قليلة شن اللواء السابع الإسرائيلي، والكتيبة الثانية من لواء ألكنسدروني، هجوماً كبيراً فيما يعرف بعملية بن نون، للسيطرة على اللطرون، ولكن الجيش الأردني تصدى لهم، وكبد القوات الإسرائيلية خسائر فادحة في الأفراد، وتجدد القتال بين الطرفين يومي ٢٥، ٢٦ مايو، ولم يحقق اليهود أي نجاح بعد وصول إمدادات للجيش الأردني نجحت في هزيمة اليهود، وتراجعهم (٤٧).

وفي يوم ٣٠ مايو تسللت وحدات إسرائيلية إلى مخفر شرطة اللطرون، وحاولوا زرع ألغام لتدميره، فتصدى لهم الجيش الأردني، وأجبرهم على التراجع والانسحاب، بعد تدمير بعض المباني بالقرية .

وأدت هزيمة اليهود، وإخفاقهم في السيطرة على اللطرون، إلى البحث عن مدخل آخر للقدس يتجاوز اللطرون، ولكنهم لم ينجحوا في ذلك فعاودوا الهجوم على اللطرون في ليل ٨، ٩ يونيو، فيما يعرف بعملية بورام، وكانت تقضي بالهجوم على القرية من جهة الجنوب الشرقي، بوحدات عسكرية من لوائي هرئيل ويفتاح، ولكن

---

(٤٥) الفريق عفيف البزري : التحرير في قفص المستعمرين، دمشق ١٩٨٨م، بدون طبعة، ص٥٦.

(٤٦) عبدالرحمن الرافعي : في أعقاب الثورة المصرية، الجزء الثالث، دار المعارف، الطبعة الثانية١٩٨٩م، ص ص٩٨ - ١٠٠.

(٤٧) محمد حسنين هيكل : العروش والجيوش، ص١٩٤.

القوات الأردنية صدت هجومهم، وردتهم على أعقابهم .

وقد جرح في أثناء هذه المعارك أريل شارون قائد الجيش الإسرائيلي المهاجم للقرية، وتم أسره ونقله إلى الخطوط الخلفية في معسكر اعتقال الأسرى اليهود، وتم مبادلته بأسير عربي عندما جرت عملية تبادل الأسرى بعد الهدنة الثانية .

وبلغت خسائر الجيش الإسرائيلي في معارك اللطرون حوالي ألفي قتيل، حسبما روي على لسان النائب الإسرائيلي في الكنيست عوزي لاندو، وإن كان قد تراجع عن تصريحه فيما بعد، عندما تعرض لانتقادات شديدة من الساسة اليهود، وذكر أن خسائر اليهود كانت لا تتعدى ألف قتيل (٤٨).

معركة باب الواد :

كانت بعض قوات جيش الإنقاذ العربي – والمكون من المتطوعين العرب – بقيادة فوزي القاوقجي تحاصر أحياء اليهود في القدس منذ مطلع مايو سنة ١٩٤٨م، وتصب نيران مدافعها على الأماكن التي يتحصن بها اليهود في القدس الجديدة، وذلك رغبة منهم في تخفيف ضغط الحصار عليهم، فحاولوا الهجوم على القدس القديمة والسيطرة عليها – كما ذكرنا سابقاً – ولكن محاولتهم فشلت، وتصدت لها القوات العربية (٤٩).

وفي الخامس من مايو فتحت القوات العربية نيران مدافعها على مواقع اليهود في بعض مناطق القدس، مثل القطمون، والشيخ جراح، وشيرم والنبي داوود،وقامت قوة عربية باسترداد حي الشيخ جراح من الصهاينة – وكانوا قد سيطروا عليه منذ فترة – واستمرت نيران المدفعية العربية تنصب على اليهود طوال ليلة السادس من مايو، مما دعا البريطانيين للتدخل لحماية اليهود، وأرسل المندوب السامي البريطاني في فلسطين إلى فوزي القاوقجي قائد جيش الإنقاذ العربي يهدده ويتوعده إن توقف القتال، ولكن القاوقجي رفض تهديده، فجرت اتصالات سرية بين البريطانيين والجامعة العربية، انتهت إلى عقد اجتماع عاجل في أريحا حضره من الجانب العربي : عبدالرحمن عزام الأمين العام للجامعة، والقائد العام لقوات الإنقاذ اللواء إسماعيل صفوة، والقنصل المصري في القدس فراج طايع، وعن الإنجليز المندوب السامي البريطاني، وتم في هذا الاجتماع عقد هدنة تشمل القدس .

وكما هي العادة، لم يحترم اليهود الهدنة، واحتلوا بعض الأحياء العربية في

---

(٤٨) موسوعة ويكيبيديا الحرة، معركة اللطرون.

(٤٩) الفريق عفيف البزري : التحرير في قفص المستعمرين، دمشق ١٩٨٨م، ص٥٦.

القدس الجديدة، وكذلك حي الشيخ جراح [٥٠].

كما حاول اليهود استغلال الهدنة لفتح الطريق من القدس إلى تل أبيب، وكسر حصار القوات العربية لهذا الطريق، وحشدوا قواتهم للهجوم على باب الواد، شمال غرب القدس، الذي يتحكم في هذا الطريق، وجاءت لهم إمدادات من داخل القدس ومن الرحبوت، تقدر بلواءين، وبدأوا هجومهم الكبير ليلة الثامن من مايو، تتقدمهم جرافات لإزاحة الكتل الصخرية التي وضعها العرب على الطريق لسده أمامهم، وتمكن اليهود في أول الأمر من احتلال سيرس، وبيت محيسير، وهما موقعان هامين يتحكمان في باب الواد، واستمرت المعارك الطاحنة حول الطريق، وبلغت ذروتها في العاشر من مايو، عندما حاولت قوات الصهاينة، الآتية من داخل القدس، الاتصال بالقوات الخارجية القادمة من رحبوت، ولكن القوات العربية منعت هذا الاتصال [٥١].

ووصلت إمدادات للقوات العربية تمثلت في كتيبة مشاة، وقوات من جيش الإنقاذ المؤلف من عرب فلسطين أخذت مواقعها أمام بيت محيسير المختل من قبل الصهاينة، وبدأ العرب هجومهم المضاد في الرابعة فجر الحادي عشر من مايو، وقد وصف القائد فوزي القاوقجي هذه المعركة بقوله: " بدأ هجومنا المضاد في الساعة المحددة له، واندفع مجاهدونا من الإنقاذ والجهاد المقدس، بحماسة تكاد تكون جنونية، والمدفعية تقصف أهدافها، مساندة الهجوم، قصفاً عنيفاً ببراعة فائقة، بشكل لا أتذكر أنني شهدت مثله في الحروب النظامية التي اشتركت فيها من قبل، وانطلق آمر المصفحات بمصفحاته، غير مكترث بوعورة الأرض وكثافة النيران، يهاجم المصفحات اليهودية، ويدمر كل ما يصادفه من الأعداء في طريقه، ويرغمهم على

---

(٥٠) لم يتعلم العرب أبداً من دروس التاريخ، فكلما كان الموقف العسكري في صالحهم، يسارع اليهود وحلفاؤهم الإنجليز إلى طلب الهدنة، وخداع السياسيين العرب بقبولها، ويجبر السياسيون القادة العسكريين على قبولها، بل والالتزام بها، في الوقت الذي لا يلتزم بها اليهود، ويحولون الموقف العسكري لصالحهم، وحدث هذا في الثورة الفلسطينية الكبرى في فلسطين ١٩٣٦ – ١٩٣٩م التي كادت أن تنجح لولا تدخل الزعماء العرب لوقفها، وكذلك حرب ١٩٤٨م التي حقق فيها العرب انتصارات كبيرة في مرحلتها الأولى لولا قبول زعماء العرب للهدنة التي استغلها اليهود في جلب المقاتلين والسلاح، والتزم بها العرب، فتحول الموقف لصالح اليهود بعد تجدد القتال. عفيف البرزي، التحرير في قفص المستعمرين، ص٥٩.

(٥١) محمد حسين هيكل : العروش والجيوش، ص ص١٦٣ – ١٦٥.

الهزيمة، ولم تستطع القوات اليهودية الصمود في وجه جنودنا، واستمرت المعركة بهذه الحدة حتى الساعة العاشرة، وتصدع الخط اليهودي كله، وتخلت القوات اليهودية عن مراكزها، وبدأت في صفوفهم هزيمة جماعية تامة. وفي الساعة ١١ والدقيقة ٤٥ وصلتني من المقدم مهدي – أحد القادة الميدانيين هذه البرقية(٥٢):

استولت قواتنا على جميع المرتفعات والأحراس، قتلى اليهود لا تحصى، غنائمنا إلى الآن ٣٥٠ بندقية، طاردنا اليهود المنهزمين، تخطينا طريق باب الواد – القدس في اتجاه بيت محيسير لاحتلالها. وبعد ساعة وردت برقية أخرى تقول:

فصلنا ما يقارب الألف يهودي في بيت محيسير عن بقية القوات اليهودية، لم ينجح منهم إلا من فر باتجاه مستعمرة عرطوف، طهرت قواتنا بيت محيسير وخربة حرسيس، تستمر المعركة في الأحراش بعنف شديد، عدد القتلى اليهود وكميات الغنائم بازدياد في كل لحظة، نتقدم باستمرار إلى جانبا الجهاد المقدس، نطارد اليهود نحو القدس. وفي الساعة الخامسة عشرة لم يبق لليهود في المنطقة أي أثر، وكانت الغنائم من الأسلحة كثيرة بينها أربع مصفحات صالحة للاستعمال عدا ما تحطم من المصفحات اليهودية التي بلغ عددها ١٣ مصفحة، وإن نتيجة هذه المعركة كانت تختلف عن غيرها من المعارك السابقة بوفرة الغنائم وتنوعها، وظهور أسلحة جديدة لم نعثر على مثلها قبل ذلك، كمدافع مضادة للطائرات وللمصفحات في آن واحد، وصنوف من التجهيزات المتنوعة(٥٣).

وأحكم العرب بذلك الحصار على مستعمرات اليهود في القدس، بل وقامت قوات عربية بالسيطرة على مستعمرة النبي يعقوب الواقعة على طريق القدس – رام الله، يوم ١٤ مايو، وفر منها اليهود حاملين جرحاهم وقتلاهم .

وعندما صدرت الأوامر لقوات جيش الإنقاذ العربي بتسليم مواقعها للجيش الأردني، الذي أعلن الحرب رسمياً مع الجيوش العربية ضد إسرائيل يوم ١٥ مايو، انتهز اليهود الفرصة، وسيطروا على حي الشيخ جراح قبل أن تتمكن القوات الأردنية من التمركز في مواقعها، بل وقاموا بشن عدة هجمات على المواقع العربية في القدس القديمة، وتوجهت كتيبة أردنية لتسلم مواقع باب الواد، وكانت برئاسة ضابط إنجليزي وهو الميجر سليد(٥٤)، فقام هذا الميجر بتسليم الضفة الجنوبية عبر باب الواد إلى

---

(٥٢) وائل عبيد : تاريخ العرب الحديث، ص ص٢٤٨، ٢٥٥.

(٥٣) مذكرات فوزي القاوقجي : نقلاً عن كتاب الفريق عفيف البرزي، التحرير، ص٥٦.

(٥٤) كان الجيش الأردني حينذاك يضم العديد من الضباط الإنجليز على رأسهم جلوب باشا القائد العام للجيش الأردني، واستمر هذا الوضع حتى سنة ١٩٥٦م حينما قام الملك

الصهاينة، كما سلم لهم بيت محيسير وسيرسي التي طردهم العرب منها قبل ذلك، وبذلك تم فك الحصار العربي المفروض على التجمعات اليهودية بالقدس .

ولا أدري كيف سلمت السلطات الأردنية مواقع بهذه الأهمية لضباط إنجليز، والكل يعلم بأن الإنجليز هم الذين زرعوا اليهود في فلسطين، وساعدوهم على اغتصابها. فهل كانت السلطات الأردنية تجهل ذلك، أم كانت تعلم ولكنها تثق في هؤلاء الضباط ؟ وهذا خطأ فادح كلف العرب الكثير في هذه الحرب، وخاصة في ميدان القدس، ولعل هذا ما دفع كثيراً من المؤرخين العسكريين إلى اتهام السلطات الأردنية بالخيانة وموالاة اليهود، والتآمر معهم ضد باقي الجيوش العربية، وأدت هذه الاتهامات إلى وجود صدى لها عند بعض الشباب العرب، وهذا ما دفع بعضهم إلى اغتيال الملك عبدالله فيما بعد .

إلا أننا نتحفظ كثيراً، ولا نميل إلى اتهام البعض بالخيانة، قد نتهمه بالخطأ أو بالجهل بالنواحي العسكرية، أو عدم الحنكة السياسية، إلا أن تهمة التآمر والخيانة يصعب علينا إصدارها، إلا مع وجود وثائق مؤكدة تثبت ذلك وتؤيده[٥٥] .

وفي يوم التاسع عشر من مايو تمكنت كتيبة عربية من قوات جيش الإنقاذ، بقيادة غسان جويلد، من طرد اليهود من حي الشيخ جراح، بعد إمطارهم بوابل من قذائف المدافع والرشاشات، وتم انسحاب الكتيبة العربية بعد ذلك، لتحل محلها كتيبة أردنية كانت بقيادة الضابط نواف جبر الحمود، وشتان ما بين قائد عربي تجري في عروقه دماء العروبة، وضابط إنجليزي نشأ على حب الصهاينة واليهود، مهما تظاهر بغير ذلك .

وقد خاضت الكتيبة الأردنية، وما جاء لها من إمدادات أخرى، معركة هامة مع القوات الصهيونية عند باب الواد، في أواخر مايو بعد هزيمة اليهود على يد الجيش العربي وموقعه اللطرون، ويبدو أنهم أرادوا الثأر لما حدث لهم في موقعة اللطرون، بضرب القوات العربية المرتكزة عند باب الواد[٥٦] .

وتصدت القوات العربية للهجوم اليهودي، وقتلت من اليهود المئات، وجرح

الحسين بن طلال بطرد جلوب ومعاونيه من الإنجليز وتعريب قيادة الجيش الأردني، أحمد يوسف التل، بطل معركة القدس، ص ص١١١ - ١١٣.

(٥٥) صالح مسعود : جهاد شعب فلسطين، ص ص٢٦١ – ٢٦٢.

(٥٦) أنور الجندي : العالم الإسلامي، ص٢٢٣؛ موسوعة ويكيديا الحرة.

أكثر من ألف، وخسر الجيش الأردني عشرين شهيداً (٥٧).

وأدت هذه المعركة إلى نجاح الكتيبة السادسة من الجيش الأردني في إحكام حصار الحي اليهودي في القدس القديمة، واستسلام من فيه، وأخذ الشباب المقاتلين فيه أسرى إلى معسكر الأسرى عند منطقة أم الجمال – كما سبق وذكرنا – .

كما أصبحت باقي التجمعات اليهودية بالقدس تحت الحصار العربي، وكان عدد من بها من اليهود يبلغ مائة ألف، وكانوا مهددين إما بالفناء أو الاستسلام، حتى أنقذتهم الدول الكبرى المتآمرة مع اليهود، وفرضت هدنة على العرب واليهود يوم ١١ يونيه سنة ١٩٤٨م، وتم تعيين الكونت برنادوت وسيطاً دولياً من قبل هيئة الأمم المتحدة لمراقبة الهدنة، أو بمعنى أدق مراقبة التزام العرب بالهدنة وغض الطرف عن انتهاكات اليهود لها. بل وإنقاذ يهود القدس من مصيرهم المحتوم الذي كانوا سيتعرضون له في حال عدم انعقاد الهدنة (٥٨).

ولا أجد وصفاً لهذا الموقف أبلغ مما ذكره عبدالله التل (٥٩) في كتابه كارثة فلسطين فقال: " إن الحكومة الأردنية لها دور كبير في الضغط على الدول العربية لقبول الهدنة، ورغم ذلك فليس هناك جريمة أكبر من موافقة جامعة الدول العربية على شروط الهدنة التي قدمها برنادوت بدون قيد أو شرط، فقد وافق أعضاء اللجنة

---

(٥٧) قال بن جوريون أول رئيس وزراء لدولة إسرائيل في يونيه سنة ١٩٤٩م عن هذه المعركة: " لقد خسرنا في معركة باب الواد وحدها أمام الجيش الأردني ضعفي قتلانا في الحرب كاملة "؛ محمد حسين هيكل، العروش والجيوش، ص٨٩.

(٥٨) د. حسين شريف : المفهوم السياسي، ج٢ ص٣٥.

(٥٩) كان عبدالله التل قائدا عسكريا ومفكرا إسلامي، وكان أحد قادة الجيش الأردني في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م، وخاض العديد من المعارك في القدس، وعين حاكماً على القدس العربية بعد انتهاء الحرب سنة ١٩٤٨/ ١٩٤٩م، وله كتاب كارثة فلسطين الذي اتهم فيه القيادة العربية بصنع الهزيمة، وله كتاب آخر بعنوان الأفعى اليهودية في معاقل الإسلام، وأدت كتاباته الجريئة، وآرائه الحرة، إلى صدامه مع السلطات الأردنية فتوجه إلى مصر، وعاش بها لاجئنا لمدة ١٦ سنة، حتى أصدر الملك حسين قانون العفو العام سنة ١٩٦٥م، فعاد إلى الأردن، وأخذ يعمل بنشاط في مجالات الدعوة الإسلامية، حتى توفي في أغسطس سنة ١٩٧٣م. أحمد يوسف التل، عبدالله التل بطل معركة القدس، دار الفرقان، سنة ١٩٩٩م.

السياسية على أكبر خطيئة في تاريخ الحروب بالشرق العربي، ألا وهو السماح بفك الحصار عن مدينة القدس، وإنقاذ مائة ألف يهود كانوا على وشك التسليم أو الموت جوعاً وعطشاً، وافقوا قبل أن يفكروا قليلاً في نتائج ما أقدموا عليه، وافقوا قبل أن يفكر أحدهم فيما سيقع بعد عشرة أيام فقط من ذلك اليوم المشؤوم، وافقوا لأنهم وثقوا في وفد الأردن في اللجنة السياسية، وصدقوا رئيس الحكومة الأردنية الخائن. وافقوا قبل أن يفهموا أن القدس هي كل شيء في فلسطين وأن من يحتلها ينهي المعركة كلها (٦٠).

وكان من شروط الهدنة أن تقوم جمعية الصليب الأحمر الدولي بتزويد القدس بالماء والمؤن خلال فترة الهدنة، وتفتح طريق تل أبيب – القدس لهذه الغاية، وكانت هذه الهدنة بمثابة إنقاذ لليهود، ليس في القدس فحسب، بل في فلسطين كلها .

القدس أثناء الهدنة الأولى :

بدأ سريان الهدنة يوم ١٩٤٨/٦/١١م، وبما أن الملك عبدالله كان أول الموافقين عليها – بل إن قادة جيشه الإنجليز أمروا القوات الأردنية بعدم إطلاق النار على اليهود قبلها بعدة أيام، والاكتفاء بصد هجماتهم – فقد قام الملك عبدالله بزيارة القدس في أول أيام الهدنة، وكان موافقاً الجمعة حيث صلى في المسجد الأقصى، وبعد الصلاة وتحية أهلها أصدر أمراً بتعيين أحمد حلمي باشا حاكماً عسكرياً للقدس، وترقية بعض الضباط الذين أبلوا بلاءً حسناً في الدفاع عن القدس (٦١).

وفي اليوم التالي زار القدس الوسيط الدولي المشرف على الهدنة، وهو برنادوت، واطلع على الحالة الحربية فيها، وكيف أن القوات العربية تطوقها من جميع الجهات، ولولا الهدنة لسقطت في قبضة العرب كلها في خلال أيام قليلة. وتم عقد اجتماع بين برنادوت وقائد الفرقة الرابعة بالجيش الأردني وهو لاشي الإنجليزي (٦٢)،

---

(٦٠) عبدالله التل : كارثة فلسطين، ص١٨٨؛ إبراهيم شكيب : حرب فلسطين، ص١٠٣.

(٦١) لم تعجب هذه الترقيات جلوب باشا قائد الجيش الأردني، وحاول تعطيلها، بل ورقى بعض الضباط الذين لم يشاركوا في الحرب، ربما مكافأة لهم على عدم إيذاء اليهود إخوانه، عبدالله التل، ص٢١٠.

(٦٢) كانت الكتيبة السادسة الموجودة بالقدس تتبع الفرقة الرابعة، لذلك اجتمع برنادوت مع قائدها للتباحث حول القدس؛ عفيف البرزي، التحرير في قفص المستعمرين، ص ص٥٨ – ٦٣.

ولم ينشغل الطرفان سوى بكيفية إمداد الأحياء اليهودية بالقدس بالمياه والمؤن[٦٣]، وعين برنادوت مراقبين للقدس قاموا بتخطيط الحدود بين العرب واليهود في القدس، ووضع الخرائط .

وبدأت قوافل اليهود بتموين الأحياء اليهودية بكميات وفيرة من المؤن والغذاء، بل والسلاح أيضاً، تحت سمع وبصر المراقبين الدوليين دون رقابة أو تفتيش .

وفي ١٩٤٨/٧/٤م وضع برنادوت مقترحاته لحل مشكلة فلسطين، وكان فيها ما يخص القدس، وهو أن تضم القدس إلى المنطقة العربية، على أن يكون للجالية اليهودية فيها بلدية مستقلة استقلالاً ذاتياً، وتتخذ التدابير اللازمة لحماية الأماكن المقدسة .

إلا أن العرب رفضوا هذه المقترحات، لأنها ترمي إلى قيام دولة يهودية في فلسطين، وتسمح باستمرار الهجرة الصهيونية، كما رفضها اليهود لأنها تأخذ منهم القدس والنقب،وتعطي العرب حق الإشراف على الهدنة.

ونجح اليهود خلال فترة الهدنة في شق طريق جبلي إلى القدس، استطاعوا من خلاله نقل الأسلحة الثقيلة والإمدادات العسكرية إليها، وكذلك تقوية مراكزهم الدفاعية فيها، كما أقاموا محطة كهرباء ومياه في أحيائهم بالقدس، حتى لا يحتاجون إليها من خارجها. وكل ذلك تحت سمع وبصر برنادوت ورجاله، وقادة الجيش العربي الأردني من الإنجليز.

أما ما فعله الجانب العربي في القدس : فقد قام بإعادة بناء بعض الاستحكامات في برج داوود ومنطقة الثوري، وإعادة تمركز بعض السرايا وتنظيمها.

بينما لم تقدم الحكومة العربية أي إمدادات جديدة، أو ذخائر أو أسلحة لقواتها، بحجة التزامها ببنود الهدنة، رغم علمهم بما يفعله اليهود، وإن لم يكونوا يعلمون فهذا أدهى وأمر.

ومما حققه اليهود من مكاسب في القدس أثناء الهدنة، بتآمر الضباط الإنجليز، هو موافقة حكومة عمان على اعتبار جبل سكوبس وما عليه من مؤسسات، وهي مستشفى هداسا والجامعة العبرية، منطقة دولية يرفع عليها علم هيئة الأمم المتحدة، وتجرد من السلاح، بعد أن كانت تلك المنطقة في حكم الخاضعة لسلطان العرب، نظراً لانقطاعها عن الاتصال بيهود القدس الجديدة .

ووقع هذه الاتفاقية لاش الإنجليزى قائد الفرقة الأردنية الرابعة، الذي وافق

---

(٦٣) هيكل : العروش والجيوش، ص٢٧٧.

على بقاء اليهود في هذه المنطقة في شكل بوليس وهو يعلم أنه لا فرق بين بوليس اليهود وجيشهم، كما وافق لاش على تموين اليهود المرابطين في تلك المنطقة، وتبديلهم من يهود القدس مرة في كل أربعة أسابيع، بل ضم إليها أيضاً قصر المطلع المجاور للجبل، وقرية العيسوية، لتصبح بذلك ثكنة عسكرية يهودية في قلب القدس العربية (٦٤).

القدس بعد تجدد القتال :

رفض العرب خطة برنادوت لتمديد الهدنة، برغم عدم قيامهم بأي إجراءات لتحسين وضعهم الحربي في فلسطين، بينما وافق عليها اليهود برغم ما قاموا به من استعدادات، ربما ليظهروا أمام العالم بأنهم الطرف الضعيف، فتزداد معونات الدول الكبرى لهم ومساندتهم.

وانتهت الهدنة في الساعة الثامنة صباح الجمعة ١٩٤٨/٧/٩م، وبدأ اليهود يستعدون للهجوم على القدس القديمة، بعد أن كانوا محاصرين عند بداية الهدنة في القدس الجديدة، وكل ما فعلته قيادة اللواء الرابع الذي تتبعه الكتيبة السادسة المرابطة في القدس، أن أرسلت لهم تحذيراً من قرب وقوع الهجوم اليهودي، دون أن تمدهم بأي تعزيزات أو إمدادات(٦٥).

واقتصرت الأعمال الحربية، في الأيام الأولى لنشوب القتال، على تبادل القصف بالرشاشات ومدافع الهاون بين القدس القديمة والقدس الجديدة، وسقط عدد كبير من قنابل اليهود على ساحة الحرم الشريف، وأصابت إحداها قبة الصخرة، وكذلك كنيسة القيامة، ورد العرب بقصف منطقة الوكالة اليهودية ومقر قيادتهم في المسكوبيّة .

وكانت الأحداث تكشف كل يوم تآمر القادة الإنجليز مع اليهود. ولا أدري كيف كانت حكومة عمان ترضى بهذه الطعنات التي يوجهها هؤلاء الضباط إلى ظهور الجيش العربي في فلسطين، ومنها بعد تجدد الحرب : أمر جلوب بنقل السرية الثانية عشرة من مواقعها في جنوب القدس، لإضعاف القوات المصرية المدافعة عنه ، وسحب سرية من القدس القديمة وإرسالها إلى رام الله، دون أن يحاسبه أحد في حكومة عمان .

وفي مساء يوم ٧/١٢ قام اليهود بهجوم مفاجئ على منطقة باب العمود والشيخ جراح، ومهدوا لهذا الهجوم بقصف شديد من مدافع الهاون، ودامت المعركة

---

(٦٤) عبدالله التل : ص٢٣٤.

(٦٥) سعد بدير الحلواني: تاريخ كل العرب الحديث والمعاصر، دار النشر للثقافة والعلوم، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، ص ص٦٥ – ٦٧.

حتى الفجر، مع قوات الكتيبة الثالثة الأردنية التي ردتهم على أعقابهم دون أن يكسبوا شبراً واحداً، وخسر اليهود عشرات القتلى والجرحى(٦٦).

معركة مشيرم :

بعد هجوم اليهود السابق على مواقع الكتيبة الثالثة الأردنية اتفق ضباطها العرب مع قائد الكتيبة السادسة بالقدس عبدالله التل على القيام بهجوم مضاد على مناطق اليهود في حي مشيرم والمناطق المجاورة له، لأن احتلاها يؤدي إلى وصول القوات العربية إلى الأحياء اليهودية، وتطويق القوات اليهودية المرابطة في المسكوبية(٦٧).

وادعى الضباط العرب أمام قادتهم الإنجليز أن اليهود سيقومون بهجوم على الكتيبة الثالثة، لذلك سيبادرون هم ببدء الهجوم لتأديبهم، وفي فجر الجمعة ١٩٤٨/٧/١٦م بدأ العرب في قصف الأهداف اليهودية، ثم تقدم المشاة لطرد اليهود من قلاعهم ومنازلهم، وسط استماتة من اليهود المدافعين عن هذه المناطق، واستمر القتال حتى الثانية عشرة ظهراً، حيث أصدر القادة الإنجليز للجيش العربي قراراً بوقف القتال، وتهديدهم من يواصل القتال بوقفه ومعاقبته، وبذلك حرموا القوات العربية من نصر محقق كاد أن يتم، وإن كان العرب قد سيطروا على بعض المناطق، ولكن لم يحققوا الهدف الرئيسي وهو السيطرة على حي مشيرم(٦٨).

ورد اليهود على هجوم العرب سريعاً، ففي مساء نفس اليوم الجمعة ٧/١٦ قاموا بهجوم شامل على القدس القديمة لاحتلالها، وبدأوا بقصف المدينة بجميع ما لديهم من مدافع ثقيلة وخفيفة، وخاصة ما وصلهم منها أثناء الهدنة، وشمل القصف جميع مناطق القدس القديمة وما حولها من أحياء عربية خارج السور .

وبدأ زحف اليهود في الساعة الواحدة صباح ٧/١٧ متوجهين إلى الأبواب الرئيسية التي تؤدي بهم إلى المدينة القديمة، وتحقق أحلامهم في السيطرة على المسجد الأقصى وحائط المبكى وقبة الصخرة، وكانت مقدمتهم تحمل الألغام لنسف سور المدينة، وفتح ثغرات به للتسلل منها إلى الداخل، وانتظرت القوات العربية حتى اقترب اليهود من الأسوار، وأمطروهم بوابل من القنابل والرشاشات، فانفجرت الألغام التي يحملونها بينهم وتناثرت أشلاؤهم، وقتل الكثير منهم، وحاولت بقية القوات الهجوم على القوات العربية المدافعة، ولكن العرب تصدوا لهم في كافة المناطق،

---

(٦٦) موسوعة ويكبديا الحرة.

(٦٧) حسن البدري : الحرب في أرض السلام، ص ص١٥٧ – ١٥٩.

(٦٨) عبدالله التل : ص٢٧٤ ؛ محمد قاسم، التاريخ الحديث والمعاصر، ص٣٩٤.

وردوهم على أعقابهم .

وكرر اليهود الهجوم مرات عديدة حتى الصباح، ولكن تصدى لهم المدافعون عن المدينة من القوات العربية وأهل المدينة، كما ساهمت القوات المصرية في جنوب القدس في قصف الأحياء اليهودية في القدس الجديدة، لتخفيف ضغطهم على القدس القديمة، حتى انسحب اليهود تاركين وراءهم ٢٢٥ قتيلاً وعشرات الجرحى، في حين استشهد من العرب ٢٣ شهيداً من الجيش والمدنيين، وما يقرب من خمسين جريحاً [٦٩].

وقد كشف هذا الهجوم عن مقدرة اليهود الحربية، وما وصل إليهم من معدات حربية ثقيلة لم تكن موجودة من قبل، مما يؤكد عدم احترامهم للهدنة وكافة المواثيق الدولية. وسلمت المدينة من احتلال اليهود لها في هذه المرحلة من الصراع بين العرب واليهود.

القدس في الهدنة الثانية :

تدخل مجلس الأمن وقرر فرض هدنة ثانية بين العرب وإسرائيل، وقد قبل الطرفان الهدنة التي بدأ سريانها في القدس، اعتباراً من الساعة الثالثة والدقيقة الخامسة والأربعين، من صباح السبت ٧/١٧، وفي بقية أنحاء فلسطين اعتباراً من الساعة الخامسة بعد ظهر الأحد ١٨/ ٧/ ١٩٤٨م .

وبرغم موافقة اليهود على الهدنة، إلا أنهم كانوا يتحينون الفرصة المناسبة لاحتلال القدس القديمة دون أي اعتبار للهدنة، ولذلك استبدلوا بقائدهم في القدس ديفيد شالتيل، لفشله أكثر من مرة في هجومه على القدس قائدا جديدا هو موشيه ديان، وكلفوه بالإعداد لهجوم جديد لاحتلال القدس .

وبدأ ذلك الهجوم بالفعل في فجر يوم ١٩٤٨/٨/١٦م [٧٠] وقاموا بقصف شديد بقنابل الهاون والمدافع الثقيلة، غير عابئين بالهدنة، أو وجود مراقبين دوليين، وكانت القوات العربية على أتم استعداد لصد الهجوم لعلمهم بغدر اليهود،وعدم احترامهم للاتفاقيات، فكانوا على أهبة الاستعداد، وانتظروا تقدم مشاة اليهود للفتك بهم،

---

(٦٩) عبدالوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث، ص٤٤٨؛ عبدالله التل، ص٢٨١.

(٧٠) يوافق هذا اليوم – كما يزعم اليهود – عيد خراب هيكل سليمان، وهذا العيد يذكرهم بماضيهم المؤلم، ويدفعهم إلى التضحية والانتقام في سبيل مجدهم الغابر ؛ محمد حسين هيكل، العروش والجيوش، ص١٠١.

وسلطوا عليهم نيران رشاشاتهم، فارتدوا خاسرين بعد أن قتل الكثير منهم .

ولكن القائد الجديد، موشيه ديان، لم ييأس من إخفاق هجومه على الجهات الأمامية للقدس، فعاود الكرة مساء الثلاثاء ٨/١٧ بقصف منطقة النبي داوود، شمال القدس، قصفاً شديداً، وكذلك مواقع القوات المصرية جنوب القدس، واستطاع اليهود احتلال جبل المكبر، والسيطرة على مواقع المصريين والأردنيين به، وكذلك دار الحكومة التي يقطنها مندوبوا الصليب الأحمر الدولي .

وقد ردت القوات العربية، ومعها المناضلون من قوات الجهاد المقدس، بهجوم مضاد في الساعة الرابعة فجر يوم ٨/١٨، وقصفت تجمعات اليهود، ومعسكراتهم، كما قامت القوات المصرية بقصف الأحياء اليهودية التي جاء منها الهجوم، فتشتت شمل اليهود، وفروا مذعورين ليعتصموا بالكلية العربية، ووقع بعضهم أسرى، واستردت القوات المصرية والأردنية مواقعها في الثانية صباحاً .

وخسر اليهود في هذا الهجوم الفاشل أكثر من خمسين قتيلاً، من بينهم اثنان من كبار ضباط الهاجناه، باعتراف الإذاعة العبرية في صباح ٨/٢٢، وغنمت القوات العربية كميات كبيرة من الأسلحة، بينما كان شهداء العرب عشرة فقط [٧١].

وقد شهد الوسيط الدولي الكونت برنادوت بخرق اليهود للهدنة في برقيته إلى مجلس الأمن بتاريخ ١٩٤٨/٩/٥م، ثم دعا إلى عقد اجتماع بين المراقبين الدوليين ومندوبي الطرفين في يوم ١٩٤٨/٩/٢٦م تم الاتفاق فيه على جعل جبل المكبر منطقة دولية، ومنع دخول أي قوات مسلحة إليه .

وبرغم ما قام به برنادوت في تأييد المكاسب التي حصل عليها اليهود بالقوة، وفرض الأمر الواقع على العرب، إلا أن ذلك لم يكف اليهود منه، ورأوا أنه إذا ما شهد يوماً ما شهادة حق حول قيامهم بخرق هدنة، أو عدم احترام اتفاقية ما، فإنه يصبح معادياً لهم، ولذلك قاموا باغتياله يوم ١٩٤٨/٩/١٧م أثناء تجواله في الأحياء اليهودية بالقدس، ومما يدل على تدبيرهم للمؤامرة : أنهم لم يصيبوا رئيس المراقبين الأمريكي الكولونيل بيجلي الذي كان مع برنادوت في نفس السيارة [٧٢].

بالطبع تظاهرت السلطات اليهودية بالأسف العميق، واستنكرت الجريمة، ووعدت بإلقاء القبض على الجناة، ناسية أن هذه العصابات تعمل بأمرها، وتحت سيطرتها، إلا أنها تتبرأ منهم في كل جريمة يقومون بها .

واكتفت الدول الغربية بالأسف، حتى إن السويد نفسها، الذي ينتمي إليها

---

(٧١) عبدالله التل : ص٣٢٨ ؛ محمد قاسم، التاريخ الحديث والمعاصر، ص٣٩٤.

(٧٢) صالح مسعود : جهاد شعب فلسطين، ص٣١٢.

برنادوت، اعترفت بإسرائيل بعد هذه الحادثة بمدة قليلة، ولم تطالب بدم مواطنها، وهنا نتساءل : ماذا لو أن العرب هم الذين قاموا بهذا الحادث ؟

وكان برنادوت قد وضع مقترحات، قبل اغتياله، لحل مشكلة فلسطين نشرت بعد وفاته، وكان منها : وضع القدس تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة، وإنشاء إدارة دولية للمدينة تكفل الحرية للجميع . وقد رفضها اليهود لأنهم يحلمون بجعل القدس عاصمة لهم.

وفي نفس الوقت كثف اليهود اتصالاتهم بعملائهم من الضباط الإنجليز في الجيش الأردني، لإضعاف القوات العربية في القدس، ونجح كبير عملائهم وهو جلوب باشا قائد الجيش الأردني؛ في إقناع الملك عبدالله بإبعاد قائد القوات العربية في القدس عبدالله التل عن قيادتهم، وتعيينه في منصب الحاكم العسكري للقدس، وهو تغيير في ظاهره ترقية للتل، ولكنه في حقيقة الأمر إضعاف للجيش العربي، لأن الحاكم العسكري مهمته الإشراف على الأمور المدنية والأهالي، ولا سلطة له على القوات العربية، بل وألحق جلوب الكتيبة السادسة التي دافعت عن القدس أمام هجمات اليهود إلى قيادة اللواء الأول وقائده جولدي إنجليزي، لتعمل بإمرة الإنجليز[٧٣].

كما سعى جلوب لإقناع الملك بحل قوات الجهاد المقدس الفلسطينية، التي تساعد القوات الأردنية في الدفاع عن القدس، وسحب أسلحتهم، ونجح في ذلك إلى حد ما، وطارد بعض زعمائها، وأمر بالقبض عليهم، وبذلك وجه جهود القوات الأردنية إلى محاربة إخوانهم الفلسطينيين، بدلاً من مطاردة اليهود والهجوم عليهم[٧٤].

وظلت المناوشات بين العرب واليهود في القدس حتى ٣٠ نوفمبر ١٩٤٨م حيث تم عقد اجتماع بين المراقبين الدوليين ومندوبين عن الجيش العربي واليهودي، للاتفاق على إيقاف الرمي في القدس بناءاً على أوامر مجلس الأمن، وتم في هذا

---

(٧٣) عبدالرحمن الرافعي : في أعقاب الثورة المصرية، ص ص٢٦٠ – ٢٦٢؛ أحمد التل، ص٣٣٨.

(٧٤) أرسل جلوب لواءاً كاملاً مكوناً من ثلاث كتائب لمهاجمة قوات الجهاد المقدسي في قرية بئر الزيت برام الله ومصادرة أسلحتها، وانسحبت هذه القوات إلى بيت لحم لتكون في حماية القوات المصرية، وعندما دخلت القوات الأردنية القرية لم تجد بها أحداً، ومن الغرائب أن جلوب لم يرسل يوماً لواءاً كاملاً لمحاربة اليهود، وإنما أرسله لمحاربة العرب، عبدالله التل، ص٣٦٦.

الاجتماع أيضاً وضع خرائط توضح مناطق كل طرف، والمناطق الدولية.

وأقيمت احتفالات أول عيد ميلاد للسيد المسيح بعد انتهاء الانتداب البريطاني، في ظل الهدنة واتفاق وقف إطلاق النار، وأشرف عليها الحاكم العسكري العربي الذي تقع المقدسات المسيحية تحت سلطانه، مما كان له أحسن الأثر عند الطوائف المسيحية على اختلاف مذاهبها [٧٥].

وبدأت بعد ذلك الاتصالات السرية بين زعماء اليهود والملك عبدالله، للاتفاق على هدنة دائمة بشأن القدس بصفة خاصة، وبين الأردن وإسرائيل بصفة عامة [٧٦].

وقد اقترحت الأردن على إسرائيل أن تردّ الأحياء العربية في القدس الجديدة، كدليل على رغبتهم بالتفاهم، ولكن الجانب اليهودي رفض ذلك، وطلب ترك مصير القدس القديمة والجديدة لمفاوضات مباشرة مع الملك، فرد الملك عبدالله عليهم بمقترح آخر وهو : أن تكون القدس القديمة للعرب والجديدة لليهود، وتترك باقي المسائل للمباحثات، وهكذا بدأت التنازلات العربية : وبرغم هذا رفض اليهود هذا المقترح أيضاً بقولهم: إن مسألة القدس دقيقة جداً، وتسبب إزعاجاً كبيراً لحكومة تل أبيب، ونحن نلاقي مصاعب من الشعب اليهودي - الذي يعتبر القدس مدينة اليهود - أكثر من صعوبات حكومة جلالة الملك، لذلك نترك هذه المسألة الآن، خاصة وأن الأحياء العربية أصبحت مزدحمة باللاجئين اليهود [٧٧].

وهكذا كشف اليهود صراحة عن نيتهم في السيطرة على القدس كلها، وأعلنوا أنهم لن يفرطوا فيها، في الوقت الذي يرون تفريط العرب في أراضيهم وعدم إستماتتهم في الحفاظ على القدس كما يفعل اليهود .

وقد لمس اليهود، أثناء مفاوضاتهم مع الجانب الأردني، مدى ضعف الجانب

---

(٧٥) يحتفل المسيحيون الغربيون الكاثوليك بعيد الميلاد يوم ٤٨/١٢/٢٤، والشرقيون الأرثوذكس يوم ٧ يناير، والأرمن يوم ١٨ يناير.

(٧٦) ذكر بعض المؤرخين أن الاتصالات بين اليهود والملك عبدالله بدأت منذ فترة طويلة، وكان بينهم اتفاق على قرار التقسيم الذي أقرته الأمم المتحدة، ولذلك لم تهاجم القوات الأردنية أي أراض فلسطينية تخص إسرائيل في قرار التقسيم؛ أكرم محمد عدوان، مشروع تقسيم فلسطين في تقرير لجنة بيل الملكية، ص ص٢٩ - ٣٥.

(٧٧) عبد الله التل : ص٤٥٢؛ علي أبو الحسن، دور بريطانيا في تهويد فلسطين، ص٤١٥.

العربي [٧٨]، ولذلك قاموا في ١٩٤٩/١/٢٣م بإطلاق النار على المراكز العربية في دير أبي طور جنوب القدس، وردت القوات العربية عليهم، لكنها لم تستمر لعدم وجود ذخيرة لديها تكفي ساعة واحدة .

وزادت نبرة اليهود في التمسك بالقدس، فقد صرح موشيه دايان في ٤٩/١/٢٣ بقوله: " إن القدس تربطها بإسرائيل روابط روحية، فهي هدف يهود العالم منذ آلاف السنين، بينما لا تربطها بالعرب روابط قوية، وإسرائيل مستعدة للمحافظة على جميع الأماكن المقدسة بما في ذلك مقدسات المسلمين، كانت القدس لنا وستبقى لنا".

وبذلك تغيرت لهجة اليهود بعد أن أفصح الجانب الأردني عن ضعفه، خاصة وأن كلا من الجانبين كان يستعد لمفاوضات، ردوس لعقد هدنة دائمة بين الطرفين، فأراد اليهود توضيح موقفهم قبل الذهاب إلى المفاوضات، وكان يجب على الجانب الأردني أيضاً ذلك، ولكن الملك عبدالله ساعد اليهود على تشددهم، بتصريحه لجريدة التايمز في ١٩٤٩/٢/٢٢م بشأن القدس فقال: ليس لي أي مطلب في القدس الجديدة، ولكني لا أوافق على منح القدس القديمة لليهود، أو جعلها دولية، وأنا لا أرى سبباً لجعل القدس دولية، وإن شرق الأردن مستعدة لضمان حرية الوصول إليها".

وكانت الحنكة السياسية تقتضي أن يطالب الملك بالأحياء العربية في القدس الجديدة، حتى يشغل اليهود عن أي مطامع في القدس الجديدة، ولكنه تطوع وتنازل عن هذه الأحياء ليتفرغ اليهود للمطالبة ببعض مناطق القدس القديمة، إن لم تكن كلها.

وسافر الوفد الأردني إلى ردوس يوم ٤٩/٢/٢٨، برئاسة أحمد صدقي الجندي، وكله أمل في توقيع الهدنة خلال يومين أو ثلاثة، حسب التفاهمات السابقة بين الملك واليهود، ظناً منه أن اليهود يحترمون ما اتفقوا عليه، ولكنه فوجئ في ردوس بمطالب يهودية كأساس لقبول الهدنة وهي:

---

(٧٨) حدث اجتماع بين الملك عبدالله واثنين من زعماء اليهود هما ساسون وموشيه دايان، في قصره يوم١٩٤٩/١/٢٦م، وفيه قال الملك كاشفاً أوراقه لليهود: "أنت تعلم يا ساسون أننا لم نحاربكم، ولم نعتد على ما خصص لكم، وأنا الآن لا أصغي لنصائح حلفائي الإنجليز فهم أصدقاؤكم المخلصون، وقد أحجموا عن مساعدتنا، ولم يبعثوا لنا خرطوشة واحدة منذ نشوب الاضطرابات، وكانت تنقصنا الذخيرة ولا زال..." عبدالله التل: ص٤٦٠ موسوعة ويكيديا الحرة.

١- حرية المرور بطريق اللطرون – القدس – تل أبيب .
٢- السماح لهم باستعمال سكة حديد تل أبيب – القدس .
٣- حرية المرور لمستشفى هداسا والجامعة العبرية في الجانب العربي .
٤- إزالة استحكامات جبل المكبر التي شيدها الجيش العربي أثناء الهدنة المؤقتة.
٥- حرية المرور بحائط المبكى .

وأسقط في يد الوفد الأردني، وطلب الانتظار حتى يستفسر من عمان، وظلت المفاوضات في أخذ ورد حتى يوم ١٩٤٩/٤/٣م، حيث تم التوقيع على الهدنة الدائمة، ونجحت إسرائيل أثناء المفاوضات باحتلال النقب والوصول إلى خليج العقبة بعد انسحاب القوات الأردنية منها، واحتلال منطقة المثلث بعد تآمر الملك عبدالله واليهود على الجيش العراقي الذي كان مرابطاً بها [٧٩].

وتضمنت اتفاقية ردوس إهداراً للحق العربي في القدس، مثل غيرها من المناطق العربية، وتم بموجبها تسليم اليهود قسماً كبيراً من الأراضي العربية جنوب القدس أهمها : أراضي قرية صور باهر واستحكاماتها الأمامية، وثلاثة أرباع جبل المكبر، ونصف قرية بيت .... التي تعتبر خط الدفاع العربي جنوب القدس، وكذلك تسلموا خط سكة حديد القدس – تل أبيب دون مقابل [٨٠].

وهكذا حصل اليهود على أراضي من القدس لم تطؤها أقدامهم، وبقيت القدس القديمة في يد العرب، حتى إشعار آخر يحقق فيه اليهود حلمهم بالسيطرة عليها، وقد تحقق بالفعل في يونيه ١٩٦٧م، ومازالوا حتى الآن بها بعد أن جعلوها عاصمة لدولتهم، ويسعون إلى تهويدها، وطمس معالمها العربية، بل والسعي إلى هدم المسجد الأقصى لبناء الهيكل المزعوم، فماذا نحن فاعلون ؟؟

---

(٧٩) وثائق المقاومة الفلسطينية : ص ص٣٢٠ – ٣٢٣، وانظر: محمد حسين هيكل، العروش والجيوش، ص ص١٥٩ – ١٦٢.

(٨٠) موسوعة ويكيبديا الحرة، وانظر: أحمد يوسف التل، معركة القدس، ص٤٥٣.

المصـــادر والمراجـــع

١- د. إبراهيم شكيب : حرب فلسطين سنة ١٩٤٨م، رؤية مصرية، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى ١٩٨٦م .
٢- أحمد يوسف التل : عبدالله التل بطل معركة القدس، دار الفرقان، سنة ١٩٩٩م.
٣- إسماعيل أحمد ياغي : الجذور التاريخية للقضية الفلسطينية، دار المريخ، القاهرة.
٤- أكرم محمد عدوان : مشروع تقسيم فلسطين في تقرير لجنة بيل الملكية، سنة ١٩٣٧م، بحث منشور بمجلة الجامعة الإسلامية بغزة، المجلد العاشر، العدد الأول سنة ٢٠٠٢م
٥- أنور الجندي : العالم الإسلامي ، الكتاب اللبناني ، ط ١، سنة ١٩٧٩م .
٦- حسن البدري : الحرب في أرض السلام (دار الوطن العربي – القاهرة ١٩٧٦م).
٧- حسن الخولي : سياسة الاستعمار ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، د ت .
٨- حسين شريف : المفهوم السياسي والاجتماعي لليهود عبر التاريخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٥م .
٩- سعد بدير الحلواني : العلاقات بين مصر والحجاز ونجد في القرن ١٩م، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٩٥م .
١٠- سعد بدير الحلواني : تاريخ كل العرب الحديث والمعاصر، دار البشر للثقافة والعلوم، الطبعة الأولى ١٩٩٨م.
١١- صالح مسعود : جهاد شعب فلسطين .
١٢- عبدالله التل : كارثة فلسطين، القاهرة ١٩٥٩م .
١٣- عبدالحميد الثاني (السلطان) : مذكرات السلطان عبدالحميد، ترجمة محمد حرب عبدالحميد، دار الأنصار، القاهرة، ١٩٧٨م .
١٤- عبدالرحمن الرافعي : في أعقاب الثورة المصرية، الجزء الثالث، دار المعارف، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م .
١٥- عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم : تاريخ العرب الحديث والمعاصر، دار الكتاب الجامعي، الطبعة الرابعة، القاهرة، ١٩٩٠م .
١٦- عبدالوهاب الكيالي : تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ١٩٧٢م .
١٧- عفيف البرزي : التحرير في قفص المستعمرين، دمشق، سنة ١٩٨٨م .
١٨- علي أبو الحسن : دور بريطانيا في تهويد فلسطين، دار الوحدة العربية، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م .
١٩- محمد حسنين هيكل : العروش والجيوش ، القاهرة ، سنة ١٩٥٩م .
٢٠- أحمد قاسم : التاريخ الحديث والمعاصر ، القاهرة ، ط ٢ ، سنة ١٩٨٦م.

٢١- مذكرات مفتي فلسطين : جريدة أخبار اليوم المصرية، الأعداد (١٠ - ١٢) بتاريخ ٥/١٠/١٩٥٧م .
٢٢- مذكرات هرتزل : من شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) .
٢٣- موسوعة ويكبيديا الحرة .
٢٤- وائل عبيد : تاريخ العرب الحديث ، الرياض ، سنة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م ، د ت.
٢٥- وثائق المقاومة الفلسطينية : مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت ١٩٦٨م.

